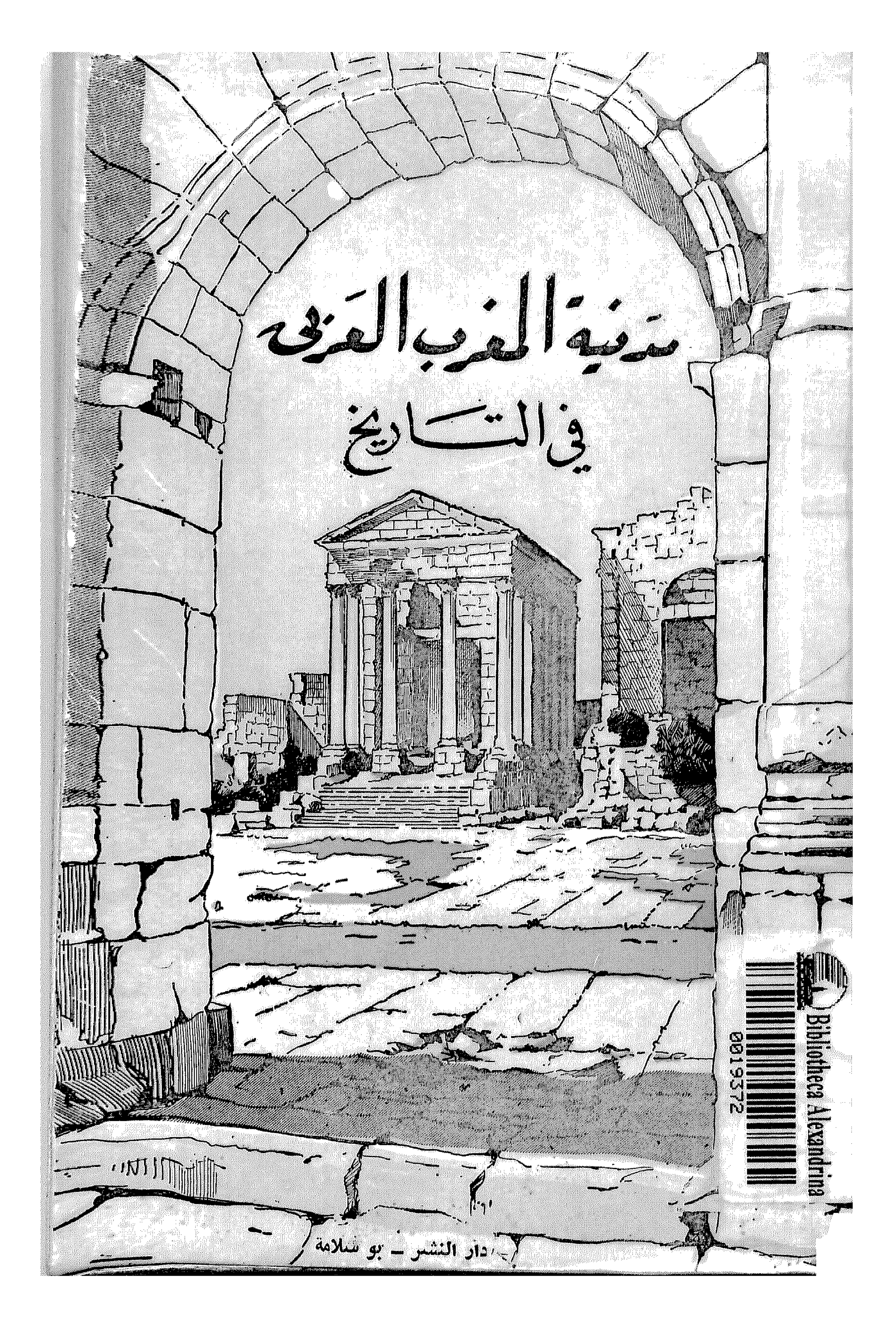
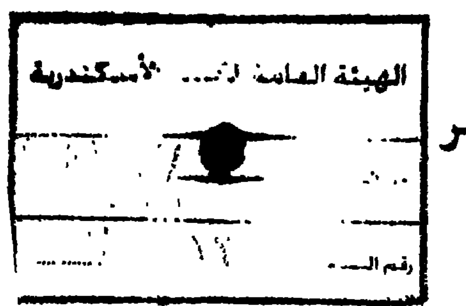

مدنية المغرب العربي
في التاريخ
دار النشر - بو سلامة
Bibliotheca Alexandrina
0019372



مدنية المغرب العربي في التاريخ

الجزء الاول

عشرون قرنا من تاريخ افريقية
من عصور ما قبل التاريخ الى آخر العهد البيزنطي



تاليف
احمد صفر
متفقد التعليم

دار النشر بوسلامة ـ تونس



كلمة الناشر

عزيزي القاريء

انه لمن دواعي الفخر والاعتزاز ان ننشر اليوم هذا الاثر الذي بين يديك فهو اثر تاريخي كما ترى طرق التاريخ لا كما طرقته كتب التاريخ الاخرى فلقد اتجه فيه الاستاذ احمد صفر وجهة جديدة وانتحى فيه ناحية ما زالت لحد الان غامضة غريبة ولعلها مجهولة وهي تاريخ الحضارة في هذه البلاد : بلاد المغرب العربي منذ اقدم العصور نعم منذ اقدم العصور التي عرفتها الانسانية فلا تعجب مثلا ان قال لك الأستاذ احمد صفر ان لك مدنية عاصرت المدينة المصرية . فهو يسير بك خلال العصور ويجتاز بك القرون في رفق وتؤدة ويجعلك تعيش مع الاجداد القدامى وتشاطرهم مسكنهم وماكلهم وحتى فنهم وترافقهم في حلهم وترحالهم وينتقل بك هكذا عصرا فعصرا وجيلا فجيلا ، واحيانا يقف بك عند بعض الاحداث ليتأمل ويستخلص ويقرر . وهذا لعمري يجعلك تعيش عيشة طويلة مليئة بالاحداث والمعلومات. فتاريخنا منذ بدء التاريخ حافل ماجد بشهادة المؤرخين الاجانب وهو ما حرص الاستاذ احمد صفر - ابقاه الله - على جمع شتاته ولم شعثه وسبكه في اسلوب علمي واضح وهو السهل الممتنع في تعبيره وهو التدقيق الدقيق في تحقيقه وهو الحصافة في مقارنته وتاملاته واحكامه كل ذلك في نزاهة وصدق واخلاص .

ولقد خصصنا الصفحات الاولى من الكتاب للمعلم بنشرنا البرامج

الرسمية لتعليم التاريخ واردفها الاستاذ صفر بتوجيهاته القيمة ونصائحه الغالية لتعليم هذه المادة معتمدا خصوصا على تجربته فى الحقل المدرسى طيلة حياته التعليمية واثناء قيامه بمهمته التفقدية ولقد كان منا هذا العطف على التعليم والمعلم لان كلامن المؤلف والناشر ينتمى الى اسرة التعليم ويحن الى كل ما ينتمى الى اسرة التعليم • فالرجاء من بقية القراء المعذرة •

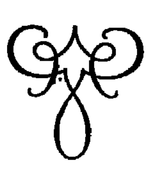
ويبدا هذا البحث فى الكتاب من قبل ميلاد المسيح عليه السلام بخمسة عشر قرنا وينتهى الى آخر عهد الوندال اى فترة تعد عشرين قرنا تقريبا •

ولعل ما سنصادفه منك من التشجيع وما سنلمسه فيك من التقدير سيبعثنا على نشر ما بقى من هذا الاثر القيم الذى يذكر فيشكر •

هذا ايها القارىء الكريم الكتاب بين يديك وفى انتظار رايك فاقراه واحكم له او عليه • فانت الشاهد وانت الحكم

الناشر

على بوسلامة



اعتذار

تسللت بعض الاخطاء المطبعية فالرجاء اصلاحها قبل الشروع فى المطالعة وذلك حسب ما يوجد فى جدول الاخطاء باخر الكتاب •

البرامج الرسمية

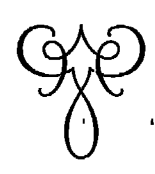
الباب الاول

الاهداف

ـ اشعار التلميذ بانه عضو من مجموعة بشرية وفرد من اسرة كبيرة فى حاجة الى التعاون والتضامن والالتحام ·

ـ حمله على ادراك ان الحضارة التى يتمتع بها هى نتيجة حضارات سابقة وثمرة عمل اجيال متتابعة وانه فى استطاعة جيله ان يكون بدوره حلقة من حلقات سلسلتها المتواصلة ·

ـ الوصول به الى تصور معنى الامة والوطن تصورا واضحا صحيحا والسمو به عن المغالاة والتعصب ·



البـــاب الثاني

الحصص والبرنـامـج

الفصـــل الاول

السنة الخامسة

الفقــرة ١ ـ الحصــة

حصة اسبوعية ذات خمسة واربعين دقيقة ٠

الفقــرة ٢ ـ البرنــامج

بــدء التــاريخ

اللوبيون او الليبيون (البربر) ـ دخول الليبيين التراب المصرى (فى عهد رمسيس الثانى اى فى القرن الثالث عشر قبل المسيح) ثم توالى الهجومات الى ان بسطوا نفوذهم على (الدلتا) ـ احتكاكهم بالمدنية المصرية ـ الاتصالات بالاقريطيين والفنيقيين واليونـانيين (القرن الثانى عشر قبل الميلاد) ـ آثار ذلك الاتصال ٠

المدنيــة الليبيــة :

الصيد وتربية المواشى ـ الرحل والمستقرون ـ المسكن (الكهوف الاكواخ المتنقلة ، القصور) ـ الماكل والملبس والاسلحة ـ العائلـة الليبية ـ القبيلة (شبه جمهورية صغيرة خاضعة الى حكم الجماعة) ـ التفاف عدد القبائل حول سلطة اغليد (امير او قائد)

المدنية الفنيقية القرطاجية :

التعريف بالفنيقيين ـ الفنيقيون بافريقية ـ المراكز التجارية ـ تاسيس قرطاج ـ التجارة والاسفار البحرية ـ الرحـلات (رحلـة حنون ورحلة خيملكن) الصناعة والفلاحة ـ الحكومة يسيرها رجال التجارة ـ الجيش (ماجور) ـ العادات ـ الدين ـ الصراع بين قرطاج

ورومة ـ عملقار ـ (الحرب الاولى) • حنبعل وشيبون الافريقى (الحرب الثانية) صدر بعل وشبيون الايميلى (الحرب الثالثة) ـ تهديم قرطاج وزوال الامبراطورية القرطاجية •

المدنيــة الرومانيــة :

حدود (افريكا) الرومانية ـ الممالك الافريقية المستقلة : نوميديا ـ مقاومة يوغرطة النوميدى ـ يوبا الاول ـ يوبا الثانى ـ بطليموس ـ البطل المقاوم تاكفاريناس ـ التوسع فى النفوذ الرومانى ومدالسلطة على كامل تراب شمال افريقية ـ الفلاحة ـ مطمور رومة ـ القموح ـ الزياتين ـ تربية المواشى ـ جلب المياه والرى ـ الصناعة والتجارة الطرقات ـ المعالم والاثار الرومانية (المسارح ، المعابد ، الحمامات) المدارس والتعليم : اللغة اللاطينية ـ الديانة : الاصنام،آلهةالرومان انتشار الديانة النصرانية (الكنائس) ـ اغوستانيوس الافريقى •

المدنية العربية الاسلامية :

ظهور الاسلام ـ النبىء صلى الله عليه وسلم فى مكة ـ الهجرة وانتصار الاسلام ـ الخلفاء الراشدون ـ الفتوحات الاسلامية الاولى: غزو افريقية (عبد الله بن سعد) وقتل الفريق جرجير بسبيطلة المحاولة الثانية لفتح افريقية : عقبة بن نافع وتاسيس القيروان ـ المقاومة : كسيلة والكاهنة ـ انتصار حسان بن النعمان ـ الولاة الاولون •

الحضارة فى عهد الدولة الاغلبية :

ابراهيم بن الاغلب وابو ابراهيم احمد ـ العمران وانشاء المدن : العباسية ، رقادة ـ البناءات الدينية : جامع عقبة بالقيروان ، جامع الزيتونة بتونس ـ البناءات الدفاعية : رباط المنستير، رباط سوسة، الاسوار ـ نظام الحكم : الحكومة الاغلبية على نمط حكومة بغداد(اللون الاسود شعار الدولة العباسية ببغداد كماهوشعارالاغالبةبالقيروان) الوزير ، الحاجب ، قائد الجيش ، رئيس البريد ، القضاة ، الولاة ـ العلائق الديبلوماسية : وفود شارلمان ـ اقتبالهم بالعباسية ، الهدايا الى شارلمان ـ ابراهيم بن الاغلب وهارون الرشيد ـ سياسة جلب المياه : المواجل ، الاحواض ، القنوات والحنايا ـ الازدهار الاقتصادى: الفلاحة ، التجارة ، الصناعة ـ السياسة الجبائية : العشر وضرائب اخرى غير شرعية •

التعليم : الكتاب ، الجامع ، الرباط •

الجند : يتحفز للثورة ويهدد الامن ـ غزو صقلية بقيادة اسد بن الفرات .

الحضارة فى عهد الدولة الفاطمية :

عبيد الله المهدى ـ الشيعة ـ تاسيس المهدية ـ إنتقال التخت من رقادة (القيروان) الى المهدية ـ الحكومة الفاطمية (الشعار الابيض) حامل المظلة ـ ابقاء الاطارات الادارية الموجودة فى عهد الاغالبة ـ توحيد شمال افريقية ـ جلب المياه : انشاء مواجل واحواض اخرى، الزيادة فى ارتفاع حنايا الاغالبة ـ المقاومة : ثورة ابى يزيد صاحب الحمار فى عهد ابى القاسم وانتشار دعايته ضد الفاطميين، انتصاراته، انهزامه امام المهدية وموته فى عهد ابى العباس اسماعيل الذى لقب نفسه بالمنصور وانشا المنصورية او صبرة قرب القيروان ـ ازدهار افريقية فى عهد (المعز) ، الاستيلاء على مصر بواسطة قائده جوهر، انشاء القاهرة المعزية والجامع الازهر ـ انتقال المعز الى مصر .

الحضارة فى عهد الدولة الصنهاجية :

بولكين بن زيرى الصنهاجى خليفة الفاطميين بالمنصورية ـ الانقسام وتصدع الوحدة : الامارة الشرقية (قاعدتها القيروان) ، الامارة الغربية (قاعدتها قلعة بنى حماد) ـ المعز بن باديس ـ التمدن الافريقى ـ الفلاحة ـ الصناعة ـ التجارة ـ العمران ـ النهضة الادبية ـ نبذ مذهب الشيعة ونبذ دعوة الفاطميين ـ زحف بنى هلال ونتائجه ـ سقوط الامارة الحمادية والامارة الزيرية ـ تنافى حياة البداوة والسلب والنهب مع حضارة المدن ـ القضاء على الفلاحة والتجارة والاقتصاد ـ تعريب البلاد : انتشار اللغة العربية ـ انتقال مبعث الحضارة ومركز السلطة الافريقية الى المغرب الاقصى .

الحضارة فى عهد المرابطين :

قبيلة الملثمين الصحراوية ـ نشاة المرابطين : ابن ياسين، يوسف ابن تاشفين ـ كون المرابطين فى آن واحد حزبا دينيا مفرطا فى التشدد والصلابة والتمسك بالشكليات وفرقة عسكرية مستعدة للقتال ومتاهبة للحرب ـ الاستيلاء على بلاد المغرب وتاسيس مراكش (١٠٦٢) ـ الاستيلاء على بلاد الجزائر (تلمسان) ـ الاسراع الى نجدة المسلمين بالاندلس وبلاد المغرب والتاثر بالحضاة الاندلسية (ظهور ذلك جليا فى الهندسة المعمارية : الجامع الكبير بتلمسان والجامع الكبير بالجزائر ومشابهتهما بجامع قرطبة) .

الحضارة فى عهد الموحدين :

ابن تومرت ـ عبد المؤمن بن علي ـ مذهب الموحدين : ما هو وكونه رد فعل ضد مذهب المرابطين ـ انشاء جمعية منظمة وحزب قوى عتيد : الجامعة او مجلس العشرة ثم مجلس الخمسين ثم شبكة متينة من جامعات وفروع وشعب منتشرة فى الداخل ـ استيلاء عبد المؤمن على المغرب ثم الاندلس ثم على كامل تراب شمال افريقيا ـ طرده النرمان من المهدية سنة ١١٦٠ ـ الاثار والعلوم والاداب : برج حسان بالرباط ، جامع الرباط وسورها ، جامع مراكش ، الكتبية ، ابن الطفيل ، ابن رشد ـ انقسام الامبراطورية الى ثلاث ممالك مستقلة : الدولة الحفصية بافريقية (تونس) داخل فى ذلك عمالة قسنطينة وطرابلس ـ الدولة الزناتية او دولة بنى عبد الواحد بالمغرب الاوسط (تلمسان) : الجزائر ووهران ـ دولة بنى مرين بالمغرب الاقصى (فاس)

الحضارة فى عهد الدولة الحفصية :

الدولة الحفصية وتوطرها ـ ابو زكرياء واستقلاله عن الموحدين فى المغرب (١٢٢٨) ـ مقر الحفصيين بالقصبة بتونس العاصمة ـ نظام المملكة : مجلس المشائخ ، الجيش من المغاربة ، الحرس الملكى، وزير تحت نظره الديوان والمصالح الادارية والعمال فى داخل المملكة ، ادارة الكمارك منظمة احسن نظام وعلى راسها امير من العائلة المالكة ـ الحياة الادبية : بلاط الامير ملتقى العلماء والادباء والشعراء والمغنيين،ابن خلدون اول من وضع علم الاجتماع والتاريخ الامام ابن عرفة ـ بناء المساجد : جامع القصبة ـ بناء المدارس ـ الحياة الاقتصادية : الفلاحة ، الصناعة ، التجارة ـ بناء الاسواق بالعاصمة (سوق العطارين) ـ الحنايا لجلب المياه الى تونس ٠

بدء هجرة الاندلسيين الى تونس :

قدوم المهاجرين الاولين من بلاد الاندلس : من مسلمين (الصناعة والفلاحة) ويهود (التجارة) ـ العلاقات التجارية بين تونس وبلدان النصارى ـ الفنادق صيد التن والمرجان فى مياه تونس بجهة طبرقة ـ تصدير الحبوب والاصواف والجلود والعسل واستيراد الاشياء المصنوعة (اسلحة ، اجواخ ، اوراق الخ ٠٠٠) ـ القرصنة وبيع العلوج (الاسرى من النصارى) ـ الصراع بين الاتراك والاسبان (طور الحروب الصليبية : عروج ، خير الدين ، سنان باشا) ٠

الفصل الثانـــي

الفقـرة ١ ـ الحصـة

السنة السادسة

حصة سبوعية ذات خمسة واربعين دقيقة

الفقـرة ٢ ـ البرنامـج

الاكتشافات والاختراعات :

الاكتشافات الكبرى (السفر) ـ الاختراعات (البارود ، المطبعة، الخ ٠٠) ـ نتائج هذه الاكتشافات والاختراعات ٠

الاسبان والاتراك :

تداعي الامبراطورية الموحدية وما تسبب عنه من انحطاط كبيـر وفوضى وانقسام وعدم استقرار وطمع الاسبان والاتراك في الاستيلاء على افريقيا الشمالية ٠

دولة الاشراف بالمغرب :

خطر الهجوم الاسباني والتركي وما انجر عنه مـن يقظـة دينية سياسية بالمغرب ـ استيلاء الاشراف السعديين على العرش ـ احمد المنصور ـ صيرورة المغرب وحده دولة لها ادارتها المركزيـة بينمـا تونس وتلمسان تتخبطان في الفوضى ـ سلامة المغرب وحده مـن الاحتلال الاسباني ومن الاحتلال التركي ٠

الاسبـــان :

انتهاء الاسبـان في آخـر القرن الخامس عشر مـن استرجـاع سيادتهم وبسط نفوذهم على اسبانيا (احتـلال غرناطـة ١٤٩٢) وطمعهم في التمادي للاستيلاء على افريقية (اسباب دينية صليبية ، اسباب سياسية ، اسباب استراتيجية وكذلـك اطمـاع ماديـة) استيلاؤهم على المرسى الكبير (١٥٠٥) ثم وهران وبجاية وغيرهما وعلى طرابلس وجربة ـ انشاء حصون وقلاع في تلك المراكز التـي سموها (بريزيديو) بعضها موجود الى اليوم ٠

الاتـــراك :

نزول عروج واخيه خيرالدين بمدينة الجزائر - استنجاد الجزائريين بهما لطرد الاسبان - استيلاء عروج الذى صار سلطان الجزائـر على مراكز كثيرة - موته فى احدى الوقائع (١٥١٨) - نشاط خيرالدين ودخوله تحت طاعة السلطان العثمـانى (سليم) وفى خدمتـه - حصوله على اعانة تركيا ومساعدتها المالية والحربية - انتصاراته على الاسبان بسبب هذه المساعدة - دخول الجزائر تحت النفوذ العثمانى

خير الدين بتونس :

دخول خير الدين القصبة بتونس - استنجاد مولاى الحسن الحفصى بالاسبان (الامبراطور شارل كان) - سيدى عرفة شيخ الشابيـة بالقيروان - الاسبان بالمهدية وبحلق الوادى وتونس وجربة - القائد سنان باشا : طرد الاسبان نهائيا وبسط النفوذ العثمانى .

الاستيـلاء العثمـانى :

النظام التركى فى تونس بعد سنان باشا - الباشا - الداى - الباى - البلاد التونسية فى القرن السابع عشر (الحادى عشر هـ) - الدولة المرادية وانجازاتها .

الدولة الحسينية : (من ١٧٠٥ الى ١٩٥٧ = ٢٥٢ سنة)

حسين بن على وتاسيس الدولة الحسينية - حمودة باشـا بـاى (١٧٨٢ - ١٨١٤) - سياسته - انجازاته .

يقظة اوروبا :

ظهور الدول الاوروبية الكبرى : فرنسا ، انقلتـرا - الانقـلاب الاقتصادى والاختراعات الكبرى : المحركات البخاريـة ، القطـار ، الكهرباء - احتلال الفرنسيين للجزائر - مقاومة الجزائر للفرنسيين - عبد القادر وكفاحه .

دسائس الفرنسيين لدى البايات :

احمد باى ومحاولات الاصـلاح (١٨٣٧ - ١٨٥٤) - مصطفى

خزندار ومحمود بن عياد ــ ظهور خير الدين ــ محمد باى ــ عهد الامان سنة ١٨٥٧ ــ مساعى خير الدين •

عصر الصادق باى :

دستور سنة ١٨٦١ ــ الثورةسنة ١٨٦٤ ــ مظالمحكومةالبايات ــ ترفيع الاداءات ــ خزندار وسرقاته ــ ثورة على بن غذاهم الماجرى ــ قمعها ــ الغاء دستور ١٨٦١ ــ خير الدين ومحاولات اصلاحه امور البلاد : تنظيم المالية ، تشجيع الفلاحة ، اصلاح التعليم ــ دسائس دائرة الباى ــ عزل خير الدين •

تونس ودسائس الدول :

مساعى فرنسا للاستيلاء على تونس ــ اتفاق فرنسا السرى مع الالمان والانقليز فى مؤتمر برلين ــ دسائس ايطاليا •

انتصاب الحماية الفرنسية على البلاد التونسية :

مهاجمة الفرنسيين لتونس ــ معاهدة باردو (القصر السعيد) ــ كفاح الامة التونسية ضد الغاصبين : صفاقس ، قابس ، قفصة ــ حكومة الحماية ــ النظام الادارى والعدلى ــ الاستعمار الفرنسى •

الحرب العالمية الاولى :

الحرب العالمية الاولى ونتائجها فى الشرق والغرب ــ الاحتلال الفرنسى للمغرب الاقصى ــ بداية الحركة القومية فى تونس : باش حانبة ، عبد العزيز الثعالبى ، البشير صفر •

حركة الدستور الجديد :

الدستور الجديد وحركته قبل الحرب العالمية الثانية ــ مؤتمر قصر هلال ــ ٩ افريل ــ شخصية **الحبيب بورقيبة** واعضاده ــ الحرب العالمية الثانية ونتائجها فى تونس ــ قيام **الحبيب بورقيبة** بخدمة القضية التونسية فى الخارج ــ فرحات حشاد والكفاح الاجتماعى ــ النهضة العلمية والثقافية •

الكفاح الاخير ١٩٥٢ ـ ١٩٥٤ :

قيام الثورة فى كامل البلاد التونسية ـ المطالبة بالاستقلال ـ اغتيال فرحات حشاد والهادى شاكر ـ مقابلة مرطاج ـ المذاكرات وعقد الاتفاقيات ـ الاستقلال الداخلى ٠

الاستقـلال التـام :

الاستقلال التام : ٢٠ مارس ـ المجلس التاسيسى ـ دخول تونس فى المنظمة الدولية ـ انجازات الاستقلال الاولى ـ **الحبيب بورقيبة** يتولى لاول مرة رئاسة الحكومة ـ الاصلاحات الادارية ـ مجلة الاحوال الشخصية ـ الديبلوماسية التونسية ـ الجيش التونسى ٠

الجمهورية التونسية :

اعلان الجمهورية التونسية وسقوط الدولة الحسينية : ٢٥ جويلية ١٩٥٧ انتخاب **الحبيب بورقيبة** اول رئيس للجمهورية التونسية ـ انجازات الجمهورية ٠

مؤتمر طانجة :

المغرب العربى الكبير ٠



الباب الثالث

توجيهات

ينبغي :

١) - ان نبدا دروس التاريخ بتشخيص الماضى فى اذهان التلاميذ وذلك بتكوين سلم زمنى نسير فى اعداده من الحاضر الذى نعيش فيه الى الماضى البعيد ونجعل تقسيماته مبنية لمختلف اطوار الحضارة التى مرت بالبلاد مبتدئين فى ذلك باقربها الينا ويكفى ان نخصص لهذا العمل حصة او حصتين ٠

٢) - ان نركز دروس التاريخ على الملاحظة الحية فنستخدم الى اقصى حد جميع الوسائل والامكانيات الموجودة فى البلدة او فى جوارها (جوامع ، مدارس ، آثار ، معالم ، اطلال ، اماكن تاريخية، متاحف ، مكتبات ، نقود ومسكوكات عتيقة الخ ٠٠٠) ونستثمر ايضا الوثائق التاريخية والرسوم والصور اذ بملاحظتها ومقارنتها بما وقعت مشاهدته على العين يدرك الاطفال ما هو اعم من التاريخ المحلى ٠

٣) - ان نحسن التصوير لحياة الاقدمين المادية والاجتماعية حتى يشعر التلاميذ كانهم يعيشون مع اولئك الاقدمين ولا ننسى ان نبين ما للمدنيات الاجنبية (الشرقية منها والغربية) من تاثير على مدنيتنا القومية بسبب الاختلاط والتحاكك والتساكن ٠

٤) - ان نستعين بالخرائط الجغرافية لربط الوقائع التاريخية بمواقعها ٠

٥) - ان ننتهز جميع الفرص لتعريف الطفل بمفاخر امته وتنشئته على محبتها دون ان نكون فيه عنصرية ممقوتة تمنعه من ادراك ما للامم الاخرى من خصال ومزايا ومن حظ فى خدمة الانسانية وتقدم الحضارة ٠

من الحاضر القريب
الى الماضى البعيد

من المفيد ان يبدا المعلم دروسه التاريخية بمقدمة يسير فيها سيرا معاكسا لمجرى التاريخ اى ذاهبا من الحاضر الى الماضى مع وضع علامات للمراحل الاساسية فوق خط افقى او عمودى مدرج

مثال ذلك :

(١) ان بلادنا هى البلاد التونسية - وهى الان مستقلة تمام الاستقلال - فما هو تاريخ حصولنا على هذا الاستقلال ؟ - سنة ١٩٥٦ (نضع علامة فوق السلم التاريخى)

(٢) قولنا ان تونس تحصلت على استقلالها فى التاريخ المذكور يدل على انها لم تكن مستقلة قبل ذلك التاريخ · فكيف كانت حينئذ قبل تحصيلها على الاستقلال ؟ - كانت تحت حماية دولة اجنبية وهى الدولة الفرنسية ، وهو ما يسمى بالاستعمار الفرنسى

نعرف الان تاريخ انتهاء الاستعمار الفرنسى وقد وضعنا علامة ذلك فوق السلم التاريخى ، اذ ان تاريخ نهاية الاستعمار هو تاريخ بداية الاستقلال ··· لكن ما هوتاريخ بداية الاستعمار الفرنسى او نظام الحماية الفرنسية ؟ - سنة ١٨٨١ (نضع علامة لذلك فى المكان المناسب فوق السلم التاريخى)

فالاستعمار دام حينئذ بالبلاد التونسية من سنة ١٨٨١ الى سنة ١٩٥٦ اى كم سنة ؟ - ٧٥ سنة (اى عمر انسان تقريبا)

وكم ينقص هذه المدة لتصير قرنا ، اذا عرفنا ان القرن هو مائة سنة ؟ - ٢٥

فيمكن حينئذ ان نقول بان الاستعمار الفرنسى دام بالبلاد التونسية (**ثلاثة ارباع القرن**) (او قرنا الاربع)

(٣) اذا استثنينا اليهود (الذين هم تونسيون ايضا) فما هو **دين** التونسيين وما هى **لغتهم** ؟ - الدين الاسلامى واللغة العربية

متى دخل الدين الاسلامى ومتى دخلت اللغة العربية البلاد

التونسية ؟ ـ مع دخول العرب وتاسيس القيروان سنة ٦٧٠ (نضع لذلك علامة فى المكان المناسب فوق السلم التاريخى)

فابناء تونس هم مسلمون منذ كم سنة ؟ ـ يقع حساب تلك المدة من سنة ٦٧٠ الى العام الذى يلقى فيه المعلم درسه ـ فاذا كان ذلك سنة ١٩٥٧ فان تلك المدة تكون ١٩٥٧ ـ ٦٧٠ = ١٢٨٧ سنة (١٣ قرنا تقريبا)

(٤) وان اجدادنا كانوا قبل ذلك التاريخ لا يتكلمون بالعربية ولا يدينون بالدين الاسلامى • فكيف كان دينهم ؟ ـ عبادة الاوثان او الديانة المسيحية اى دين سيدنا عيسى بن مريم عليه السلام (مثل الفرنسيين والايطاليين اليوم والنصارى بصفة عامة)

ومتى دخلت الديانة المسيحية بلادنا ؟

انتشر الدين المسيحى بالبلاد التونسية سنة ٣١٣ (علامة لذلك) فكم سنة بقى اجدادنا يدينون بالمسيحية او النصرانية ؟ ـ

٦٧٠ ـ ٣١٣ = ٣٥٧ سنة (اى ثلاثة قرون ونصف تقريبا)

وولد سيدنا عيسى سنة (٠) وهو ابتداء التاريخ المسيحيى (نضع علامة لذلك باللون الاحمر فوق السلم التاريخى)

(٥) عرفنا الان كيف كان دين التونسيين قبل الاسلام

والان نريد ان نعرف كيف كانت لغتهم ؟ هل كانوا يتكلمون العربية مثلما نتكلم اليوم ؟ ـ لا ، لان هذه اللغة اتت مع العرب كما ذكرنا •

ان اجدادنا كانوا يعرفون بالليبيين (مثلما ان اجداد الفرنسيين كانوا يعرفون فى القديم بالغاليين او الغلوا) وكانت لغتهم هى **اللغة الليبية**

ولكن كانت هناك طبقة من المثقفين من اجدادنا يحسنون التكلم **باللغة اللاطينية** وهى لغة الرومان من سكان ايطاليا

وما هو سبب وجود هذه اللغة ببلادنا ؟ ـ لان الرومان كانوا احتلوا بلادنا سنة ١٤٦ قبل المسيح (نضع علامة لذلك فى مكانه بالسلم التاريخى) وان كثيرا من الانار مثل قصر الجم وبناءات قديمة تدل على استيلاء الرومان على بلادنا

(٦) وكيف كانت بلادنا قبل استيلاء الرومان عليها ؟ كانت بلادنا تحت نفوذ **الفنيقيين** الذين قدموا من بلادهم وهى فنيقية

(بلاد الشام الآن) واسسوا مدينة قرطاج سنـة ٨١٤ قبل الميـلاد (نضع علامة لذلك فى المكان المناسب)

ولذلك فان بلادنا دامت تحت حكم قرطاج من سنة ٨١٤ الى سنة ١٤٦ قبل الميلاد • اى كم سنـة ؟ ٨١٤ ـ ١٤٦ = سنـة (ستـة قرون ونصف تقريبا)

(٧) وكيف كانت بلادنا قبل ذلك التاريـخ اى قبـل تاسيس قرطاج وقبل النفوذ القرطاجى الفنيقى ؟ ـ كانت بلادنـا ليبيـة ، وكانت لغتنا الليبية •

فلنبدا حينئذ بالدور الليبى وبحياة الليبيين فى ذلك العهد القديم والقديم جدا منذ ما يزيد عن ثلاثة آلاف سنة ، ثم لنتبع معا مجـرى التاريخ شيئا فشيئا ـ الفنيقيون ـ الرومان ـ العرب والاسلام ـ الاستعمار الفرنسى ••• الى ان نصل الى يومنا الحاضـر ووقتنـا الزاهر وهو وقت الاستقلال التام ونظام الجمهورية التونسية : **وهذا هو تاريخ تونس •**

ـ فلا بد حينئذ من تحفيظ بعض التواريخ الهامة حتى تكون لهم شبه علامات تنير لهم طريق القرون الغابرة وترفع عن اذهانهم الغموض والبلبلة • ومن اكبر اسباب هذا الغموض ما يصادفه الطفل الصغير من الصعوبة فى تصور المسافة الزمنية التى تفصله عن الماضى البعيد المتحدث عنه ، وفى تخيل نسبة زمن بعيـد مع زمن آخـر ابعـد او اقرب ••• فالصغير لا يتصور الماضى ولا يلتفت إليه ولا يفهمه مثلما يتصوره ويراه ويفهمه الرجل الكبير ، فهو يعيش فى الحاضر ويتطلع ويتحفز الى المستقبل ، وليس له فى حياته الجديدة الناشئة من ماض طويل مثل ماضينا يمكنه من تصور القرون الفائتة بواسطة المقارنة•

فاذا التفت الى ماضيه فهو لا يجد سوى بضع سنين ، مـا بين الثلاث والعشر ، فكيف نحدثه حينئذ عن ماض بعيد وبعيد جدا ؟ وكيف نريد ان يتصور قرونا قبل المسيح وقرونا بعده وآلافـا من السنين الغابرة ؟

فمن اللازم حينئذ ان نجسم مسالة الزمن وان نجعلها محسوسة نوعا ما باستعمال (السلم التاريخى) ، ولا بد من ان نفكر فى وضع علامات توضح للطفل الصغير هذه المسافات فى الزمن مثلما توضح نصب الطرقات المسافات فى الفضاء • وبذلك يمكن للطفل ادراك هذه المراحل التاريخية والمسافات الزمنية ادراكا بصريا محسوسا ، والمقارنة بينها بسهولة •••

ما هو التاريخ ؟

ينبغي ان تكون دروس التاريخ حية ، وهى لا تكون **حية** الا اذا استعملنا الاشياء **الميتة** ، اذ يكفى ان ننفخ فيها الروح ، وان نعيد اليها الحياة لنجعلها تكشف الغطاء عن الماضى وتقص على تلاميذنا مباشرة قصة الزمن الغابر ، واننا لو فكرنا قليلا لادركنا ان التاريخ موجود حولنا ونحن عنه غافلون ، لاننا لا نلاحظ ، ولا نتامل ، ولا ننتبه للحوادث التى تمر امامنا ، والتى يتكون منها التاريخ ...

فان المهن والحرف ، واساليب الحياة ، ووسائل التنقل والاسفار، والازياء واللباس ، ان كل ذلك فى تطور مستمر ، ويمكن لمن لم يتجاوز حتى الخمسين سنة من عمره ان يدرك ان منها مازال وانقرض واضمحل ، ومنها ما نشا وظهر منذ مدة قريبة ، ومنها ما هو فى طريق الزوال والاضمحلال . كان التنقل والاسفار فى العربات التى تجرها الخيل والبغال ، فصرنا نمتطى متن القطار ونركب السيارة ، ولا نكتفى بذلك بل نطير فى الفضاء ، وكانت الحروب بالسيوف والرماح، فاصبحت بالمدافع والمصفحات وحتى بالقنابل الذرية، وكيفية جلوسنا وكيفية حديثنا واجتماعاتنا ، وكيفية اكلنا وشربنا ولبسنا، وكيفية مراسلاتنا واتصالاتنا .. كل ذلك قد تطور وما زال يتطور ...

وكل ذلك هو التاريخ .

فلنتحدث عن المهن والصنائع التى ماتت واضمحلت وذهبت فى طى النسيان ، ولنسال عنها اباءنا واجدادنا الموجودين بقيد الحياة ولنبحث عن الاسباب الداعية الى موتها وزوالها ... وهناك مهن اخرى لم تمت ولم تضمحل بل نراها قد تطورت وتقدمت وتحسنت، فلنبحث عن حالها فى الماضى ، ولنقارن ذلك بما صارت اليه فى وقتنا الحاضر ، ولنبحث عن العوامل التى ساعدت على ذلك التطور ، ويمكن ان نقول مثل ذلك فيما يتعلق بوسائل التنوير ، ووسائل التدفئة .. ووسائل الكتابة ، وهلم جرا . **وكل ذلك هو التاريخ .**

على انه لا يمكن ان نصل الى نتيجة عامة الا اذا قمنا بتلك الابحاث والدراسات فى جميع انحاء البلاد التونسية ، اذ ان هذه الاشياء لا تضمحل ولا تنشا ولا تتطور فى جميع الجهات فى وقت واحد او بكيفية واحدة ، فان التمدن يتسرب قليلا قليلا ، وان الرقى لا يعم دفعة واحدة بل يظهر فى جهة قبل اخرى ، وربما لا يصل الى بعض الجهات بتاتا فتبقى على حالها البدائية ... وهذا ايضا ما يجب معرفته والبحث عنه وعن اسبابه بواسطة الاسفار والسياحات والمراسلات المدرسية وتبادل الاثار ، **وكل ذلك هو التاريخ** .

فان ادوات الطبخ ، ومواعين الشرب والاكل ليست متماثلة ومتشابهة فى جميع انحاء القطر التونسى .. وعلى الاخص يمكن ان نلاحظ ان اساليب الحياة ووسائل العيش بالمدن هى غير تلك الاساليب والوسائل بالقرى والحقول والارياف ومن هنا ندرك اتساع هذه الموضوعات وهذه الدراسات والابحاث والمقارنات . فهى مترامية الاطراف ، كثيرة المسالك ممتدة الافاق ، وهى منجم لاينفد، وكنز لا يفنى ، منجم كله تشويق ، وكنز كله رغبة واهتمام ونشاط بالنسبة للمعلم والمتعلم على حد السواء ، وحتى بالنسبة للاباء انفسهم خصوصا اذا وقع طبع نتائج هذه الابحاث والتدقيقات الهامة فى المجلات المدرسية ووقع تبادل هذه المجلات وتوزيعها فى جميع الانحاء والاقطار .

اننا لسنا فى حاجة اليوم الى ذم وانتقاد تعليم التاريخ مثلما هو موجود ومثلما نفهمه ، وهو الذى يرتكز على استعمال الكتب وينحصر فى نطاق البرامج المسطرة فهذا التعليم الميت هو بدون شك مخالف للفهم الحديث ، وان ما نشاهده من نحالة ان لم نقل من سخافة ما تبقى من هذا التعليم ينبغى ان يفتح بصائرنا وان يدفعنا الى نبذ تلك الطرق العقيمة ، والاقلاع عن تلك الاساليب البالية التى لا تشرف المعلمين ، ولا تدل على صواب الراى ورشاد العقل .

اذن فلا بد من اظهار ما فى تعليم التاريخ بتلك الاساليب العتيقة من الاضرار والاخطار ، فهو معاكس للاهداف التربوية على طول الخط ، فلنتساءل ماذا يتبقى بعد الانتهاء من الدراسة ، فى ذهن الشبان مما هو تاريخى باتم معنى الكلمة فهل نجد فى حافظتهم فكرة جلية وواضحة حول الحوادث الماضية ؟ وهل نراهم اكتسبوا فكرة وقادة وقريحة نقادة ، وهل ادركوا معنى المقاومة والجهاد المستمر ليمكن لهم القيام بعد ذلك بدور المواطنين العاملين ؟ وهل نراهم قد ادركوا

معنى التطور ؟ وهل تصوروا معنى الثبات في العمل؟ ومعنى المجهودات المبذولة في جميع الميادين للتحصيل على مستقبل احسن ؟ وهل تكون فيهم على الاقل شغف وحب للبحث النزيه وادراك صحيح لمعنى التاريخ . وهو ما يمكن ان نسميه (بالحاسة او الملكة التاريخية) .

ان الابحاث والتجارب التى وقع القيام بها فى بعض الاوساط الشعبية بفرنسا فيما يتعلق بما يتحصل عليه الاطفال من المعلومات التاريخية ، قد اقامت الدليل على عدم صلوحية (ان لم نقل على خطر وضرر) التعليم التاريخى المجرد الجاف الذى لا يتفق مع ما يتطلبه الطفل ، فلا يندمج مع روحه ، ولا ينغرس فى نفسه ، ولا يكون شخصيته . وهذا ما ايدته ايضا تلكم الاجوبة المضحكة التى يجيب بها التلاميذ احيانا فى مختلف الامتحانات والاختبارات .

ان التاريخ التقليدى قد نشا وتكون من ابناء الجبابرة والرجال العظام ، ومن سرد الحوادث المتتابعة والاخبار اليومية . ولذلك ترى تاريخنا المحلى زاخرا بالحديث عن العائلات العظيمة والعريقة فى المجد والشرف ، من ولاة وامراء وزعماء وابطال واغنياء وتذكرنا اسماؤهم بماضى البلاد . **اما الشعب** فهو لا يظهر فى كل ذلك الا من بعيد ، او لا نراه بتاتا ، فهو مقنع ، ملثم ، جامد ، مجهول ، لانهتم بشانه اكثر من اهتمامنا بطائفة من النمل ، وهو يتصبب عرقا ، ويكدويعمل لتحقيق قوت هؤلاء الجبابرة وهذه الطبقة الممتازة التى استحوذت على التاريخ كله واحتكرته ، وملات صفحاته باسماء افرادها . وبجميع جزئيات وكليات حياتها .

اما اعمال الشعب وانتاجات الجمهور فهى غفل ، واصحابها مجهولون لا يؤبه لهم ، ولا يهتم بامرهم ، ولا يلتفت لشانهم . فهم يكدون ويعملون وينتجون . . . ولكنهم لا يتركون اثرا لاعمالهم ولا ذكرا لنشاطهم ، وهم يمرون مرور الاشباح ، ويزولون زوال الظل والخيال ، ويذهبون فى طى النسيان وزاوية الاهمال كانهم لم يكدوا ولم يعملوا ، بل كانهم لم يكونوا ، ولم يوجدوا على هذه الارض بتاتا . ومع ذلك فان الشعب وجد وعاش ، وهو مازال عائشا وموجودا ، وهو قد كد وعمل وانتج ، وما زال يكد ويعمل وينتج .. للجميع ، ولفائدة الجميع ، وهو الحافظ للحضارة والمؤتمن عليها من اول الدنيا ، بل هو الذى نمى الحضارة وقواها وشيدها شيئا فشيئا الى ان صارت مثلما نشاهده اليوم . فالشعب هو الذى يسيطر على العالم بعظمته وبدوامه واستمراره وبقائه اذ الفرد يزول ، والشعب يبقى .

ولذا ينبغي ان يكون مكانه في التاريخ هو المكان الاول، ومركزه هو المركز الاسمى • وان العصر الذي كان التاريخ فيه عبارة عن سرد اسماء الملوك والامراء والزعماء والحروب والوقائع والاشراف والعظماء واصحاب الاموال ورجال الثراء ، ان ذلك العصر قد انقضى وزال • ونحن نقول الآن ان ذلك لم يكن بالتاريخ الحقيقي الكامل ، ولم يكن كل التاريخ ، اذ اننا قد اهتممنا بالحقير الذي بهرتنا عظمته الوهمية، واغفلنا الشعب واحتقرناه واهملنا شانه ، مع انه في الواقع هو كل شيء ، وهو مادة التاريخ الحقيقي ، واهم عنصر من عناصره • فكيف نرضى بتاريخ لا مادة فيه ولا روح ولا حياة ؟

وزيادة على ذلك فان واجبنا ، بصفتنا مكلفين بتربية الشعب ، يدعونا الى فهم التاريخ فهما جديدا ، والى جعل غايته رامية الى معرفة تطور الحضارة المقامة على اكتاف الشعب ، والتحصيل على الحريات بفضل كد الشعب ، وبفضل مجهوداته ، خصوصا وان قاعات التعليم ملئانة بابناء العمال الذين سيصبحون بدورهم عمال المستقبل •

نحن نعتقد جميعا ان الكفاح الوطني البشري لتحقيق مستقبل سعيد هو **كفاح العمال** ، وان القوة في سواعدهم ، وفي عزيمتهم ، وفي ارادتهم التي تدفعهم الى الكد لفائدة الجميع ، والتي تسيرهم جميعا كرجل واحد نحو التقدم والحضارة •

وان التاريخ الحي الذي يحكي لنا مراحل ذلك التمدن ، ومراحل تلك الحضارة السائرة دائما الى الامام ، في تقدم مستمر، وفي تجديد مستمر ، رغما عما يعترضها احيانا من العراقيل ، وعما يصادفها من الموانع ، وما يتسلط عليها من الصدمات ، وما يعتريها من الانهزامات ••• ان هذا التاريخ الحي هو الذي يملا عامل الغد ثقة وحزما يدفعانه الى مواصلة السير في صعود مستمر لا ينتهي الا بانتهاء الحياة •

فمن الضروري حينئذ تغيير نظريتنا تماما في **الهدف** الذي نقصده من وراء تعليم التاريخ • اذ ليس هذا الهدف رياضة فكرية غايتها حشو ادمغة الاطفال بالتواريخ الجافة والحوادث والوقائع حتى ولو كان ذلك لازما بالنسبة لامتحانات غير معقولة • اننا نرمي بهذا التعليم اكساب ابنائنا ثقة في مثال الانسان • فالتاريخ يثبت التقدم والرقي بالادلة والمؤيدات ، لا ذلك الرقي السهل المنال ، القريب المأخذ ، ولكن الرقي الذي هو عبارة عن كفاح عنيف ، وجهاد مستمر، كفاح وجهاد نرى فيهما قوة الانسان ، وعزيمة الانسان ، تكون

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ونزيل ، وتبنى وتهدم فى وقت واحد ، نرى فيهما القدرة الغريزية المزروعة فى البشر تعمل وتكافح للتخلص من القيود وللاندفاع بكل قوة نحو الحرية ونحو الامن والطمانينة ، ونحو التقدم والازدهار ...
وكما ان التاريخ ينبت لنا ذلك ويؤيده ، فهو فى الوقت نفسه ينفى وينبذ وينكر كل استسلام مهلك ، وكل خضوع قاتل . وان العمل وان الكد ليتطلبان ارادة قوية فولاذية . فلا ينبغى ان يطاطىء الظلم والطغيان رؤوسنا او يقوس الجبروت ظهورنا ، بل ينبغى بالعكس ان يشنج اعصابنا ويوتر ارادتنا للمقاومة حتى الانتصار النهائى .

ومن هنا نفهم وجوب استعمال طريقة جديدة لتعليم التاريخ، ولابد من بذل المجهودات للخروج من هذا الضلال المبين . ولكن لا فائدة فى ايجاد حلول نظرية فوق الورق ، بل ينبغى ان نجد حلولا عملية تناسب الوضعية الراهنة ، وان نجعل الغاية من تعليم التاريخ معرفة حياة الشعوب ووسائل عيشهم ، وان نجعل الطريقة التعليمية مرتكزة على الوثائق والاثار والرسوم والمعالم والاشياء المحسوسة .

وان هذه الوثائق وهذه الاثار موجودة بكثرة فى كل مكان، ويمكن التحصيل عليها وجمعها شيئا فشيئا بالبحث والتنقيب والمراسلة والمبادلة :

- ادوات وآلات كانت مستعملة فى الماضى (حتى قبل بدء التاريخ)
- اشياء من الفخار والطين قبل بدء التاريخ ، او من الدور القرطاجنى ، او الرومانى ، او العربى : مصابيح ، قناديل ، صحاف ، مواعين للاكل والطبخ ...
- نقود ومسكوكات قديمة ...
- قطع من الفسيفساء - رؤوس اعمدة رومانية او عربية، الخ ...

فيمكن حينئذ تكوين (متحف تاريخى) بالمدرسة ، متحف متواضع ولكن مفيد ... وهذا لا يتم الا اذا كان المعلم مهتما بالامر كل الاهتمام واذا كان فكره متجها نحو تحقيق هذا المتحف، ومشغولا ومشغوفا بذلك .

كما تفيد ايضا الزيارات لغاية تاريخية ، زيارة الاثار والمعالم القديمة (قرطاج - طينة - قصر الجم ... الخ .) وحتى البناءات القديمة الموجودة بالبلدة التى يعيش فيها التلاميذ (جامع - ضريح ..)
- بالجملة فانه ينبغى فحص كل الجهات التى ترك فيها التاريخ آثاره ، وينبغى استجواب الاطلال ومناداة الانقاض ، والاتصال بحفظة ديار التحف والاثار ، وانتهاز حسن استعدادهم للتحصيل

على فوائد تاريخية جمه ، وعلى وثائق ومستندات ذات قيمة تاريخية ••• ويجعل المعلم كل ذلك مطابقا وملائما وموافقا لحاجيات تعليمنا•

وعند ذلك فقط نبعد عن (الثرثرة التاريخية) ، وعن الكلام الفارغ ، ونصير مع تلاميذنا مؤرخين باتم معنى الكلمة • وهذا يدل دلالة واضحة على ان تعليم التاريخ كما ينبغى فهمه ـ لا كما نسير به عادة ـ هو امر شاق وشاق جدا ، وهو يستدعي بذل مجهودات عظيمة ، ويتطلب نشاطا كبيرا وطويلا ••• وليس هذا من شانه ان يفت في ساعدنا،او يضعف في عزائمنا،فنحن خلقنا للعمل والنشاط لنا ، ونحن له ولا نريد عنه بديلا •••

ولكن هذه الوثائق وهذه الاثار ليست كل شيء فيدروس التاريخ بل الاهم من ذلك هو الفكر والدماغ المكلف بايجاد تلك الوثائق وتلك الاثار والمكلف بتاويلها وشرحها والاستفادة منها • فالبحث عن الوثائق ينبغى ان يكون مبنيا على التفكير • فنحن نرجع دائما فى النهاية الى المعلم • فهو الاول والاخر وهو كل شيء فلا تصلح الوثائق ولا تفيد ، ولا تجود علينا بثمارها الا به • وماذا عسى ان تفيد الوثائق الميتة المتراكمة بمتحف المدرسة او بقاعة التعليم بدون مقدرة المعلم وخبرته وذكائه ومهارته وتحمسه لتدريسه • فانتراكم هذه الوثائق المبعثرة ربما يكون ضرره اكثر من نفعه ، وربما اعان على ادخال الهوش والاضطراب والتشويش فى اذهان التلاميذ • فقسط المعلم لايستهان به في هذا الميدان ، فهو الذى يسطر التصميم ويقوم بدور الترتيب والتنظيم والارشاد وهو الذى ينفخ الروح فى تلك الاثار الميتة وتلك الاشياء الجامدة ، فتصير ناطقة حية ، تعبر عن زمن او عصر له مكانه الخاص بين الازمنة والعصور •

ولا يتاتى له ذلك الا اذا كان متشبعا بمادة التاريخ وكان يتصور التاريخ فى مجموعه تصورا جليا واضحا لا غموض فيه اما اذا كان لا يعرف الا القدر الضئيل الذى يريد تلقينه التلاميذ فماله الخيبة والخسران •••



كيف نعلم التاريخ ؟

اعتبارات بسيكولوجية

الطفل وتصور الزمن : ان الزمن بالنسبة للكبير الراشد هو اطار يرتب فيه ما يعرفه مباشرة من حوادث حياته الخاصة والاجتماعية او ما توصل الى معرفته بطريقة غير مباشرة من حوادث بعيدة عنه سواء فى الزمان او فى المكان •

فبالنسبة لكل حدث قريب او بعيد نجد احداثا سابقة او متقدمة اتت قبله واحداثا اخرى لاحقة تبعته واتت بعده واحداثا وقعت فى الوقت نفسه ــ فهناك حينئذ « قبل » و « بعد » و « فى نفس الوقت »

ويمكن للراشد ان يتجول ويتحرك بفكره فى الزمان وان يرتب الحوادث ويؤرخها حسب ازمانها • غير ان معرفة الماضى هكذا ترتبط بمسالة « المنظور التاريخى » La perspective historique •

فان بعض العصور تبدو لنا كانها محشوة وملآنةومنتفخة وكانها اطول من غيرها وهذا ما يصوره بكيفية بارزة الخط الحلزونى الذى يمثل الزمن والذى نرسم به اهم التواريخ • فالمنظور التاريخى يتعلق بالمحتوى الثقافى والعمرانى بالنسبة لعصر من العصور فما علينا الا ان نتصفح كتابا من كتب التاريخ وان نقارن بين عدد الصفحات المخصصة لالاف من سنوات الحضارة المصرية وعدد الصفحات المخصصة لعصر المامون الذى لا يتجاوز بعض عشرات من السنين •

وهذا يبين لنا ان المعرفة التاريخية حتى بالنسبة للكبير الراشد لا تخلو من مشاكل وصعوبات •

غير ان هذه المشاكل هى اكثر تعقدا وتشعبا منها بالنسبة للطفل الصغير وذلك لانه لا يتحصل على فكرة الزمن ولا يصير قادرا على تصوره الا تدريجيا وشيئا فشيئا • فهو فى البداية لا يعيش الا فى

الحاضر وان مرور الزمان الذى هو منغمس فيه ينتظم قايلاويتدرج من الوقت الخاص به الى الوقت الاجتماعى تم فى النهاية الى الـوقت المجرد واللاشخصى او الزمن التاريخى ٠

فاما الوقت الشخصى اى الخاص بالطفل فهو وقت ذاتى ، باطنى، حادث فى النفس تختلف مدته وتتغير وتطول وتقصر حسبما يشعر به الطفل من ضجر وملل او فرح وانبساط ٠ فهو يرى مثلا ان بعض الدروس طويلة جدا كانه لا نهاية لها بينما ان الراحات دائما قصيرة تذهب وتمر كلمح البصر ٠٠٠

واما الوقت الاجتماعى فهو يدخل شيئا فشيئا فى حياة الطفل ، والمدرسة من العوامل التى تضمن نموه وتحقق اكتماله : فهناك ايام التعليم وهناك يوم الجمعة ويوم الاحد وهناك اوقات الدخولواوقات الخروج بكيفية منتظمة ٠

وهذا التطور يطابق التطور العام لعقل الطفل ويتماشى معه :فهو عندما يبلغ عمره ثلاث سنين يصير يميز بينالحاضروالماضىوالمستقبل القريب بدون ان يتصور المدة الزمنية وطول الوقت وقصره ، وهذا التصور الاخير يحصل شيئا فشيئا بقدر ما يدخل الطفل فى الحياة الاجتماعية ، ويكون هذا التصور مرتبطا بفهم اليومية والرزنامـة ، وهى كلها امور اجتماعية بحتة ، وانماء ثروته اللغويـة وتزويـده بالمفردات الدالة على الوقت والزمن لاستعمالها بدقة وعن فهم وذلك مثل الالفاظ التالية : الامس – الغد – بعد الغد – البارحة – اليوم – الخ ٠٠٠ وان الطفل الصغير فى اول الامر لا يتصور مسالة المـدة واذكر ان طفلا صغيرا عمره ثلاث سنوات سالنى مـرة عن العيـد فاجبته بان العيد سياتى بعد ثلاثة ايام فسكت قليلا ثم قال : كـم مرة ننام ثم نستيقظ ؟ فقلت له : ننام ثم نستيقظ ٠٠٠ وننـام ثم نستيقظ ٠٠٠ وننام ثم نستيقظ ففهم عند ذلك وتصور المدة التى مازالت تفصلنا عن العيد ٠٠٠

وعند ما يبلغ الطفل الثامنة من عمره فهو وان نظم وقتـه الذاتى الممزوج بالوقت الاجتماعى ، نراه ما زال لا يتصور الزمن التاريخى وهذا التصور يتكون فيه شيئا فشيئا ابتداء من ذلك العمر ٠

وعندما يقارب العاشرة فهو يصير قادرا نوعا ما على تخيل الماضى وعلى تمييز الماضى البعيد من الماضى القريب والماضى التاريخىمن ماضيه الشخصى ٠

ومن الامور التى ينبغى الانتباه اليها هو ان هذا التطور المتعلق بتصور الوقت والزمان يتم مع تطور آخر مثله يقع فى نفس الوقت وبنفس تلك الكيفية فيما يتعلق بتصور الفضاء والمكان • فالطفل ينتقل من الوسط الجغرافى الذى يعيش فيه والذى هو محيط به الى الفضاء الجغرافى المجرد والذى يبنبه الخيال مثلما ينتقل من الوقت الذى يعيش فيه الى الزمان البعيد الغابر الذى يتخيله العقل •

ومن جهة اخرى فان هذا التطور يكون مصحوبا بالذهاب تدريجيا من فهم الزمان مقطعا ومقسما ومجزءا الى تصوره متسلسلا ذا حوادث متلاحمة ومتصلة حلقاتها فى سلسلة التاريخ وبذلك يمكن للتاريخ المتسلسل والمرتكز على الشرح والبحث التاريخى ان يحل شيئا فشيئا محل القصص التاريخية ورواية الحوادث العرضية

الطفل والملكة التاريخية

تكتسب **الملكة التاريخية** (Le sens historique) تدريجيا ، وتتكون فى الطفل فى الوقت الذى ينمو فيه شعوره بمرور الزمن •

والملكة التاريخية تقتضى القيام بعدد من العمليات الذهنية المعقدة:

– **الرجوع الى الوراء فى الزمن** باعتبار ذلك الزمن حقيقة موضوعية يمكن ان يجعل الانسان نفسه خارجا عنها ويشرف عليها من فوق •

– **حصر الحوادث فى الزمن** باستعمال نقط هامة فى صورة علامات واشارات معينة فوق السلم التاريخى الذى يقع دائما الرجوع اليه والاعتماد عليه •

– **احياء الماضى** وذلك باستعمال الخيال الذى يلبس الماضى حلته المزركشة وينفخ فيه روح الحياة •

وزيادة على ذلك فان الملكة التاريخية لها صلة بمعطيات عقلية وانفعالية من المفيد تدقيقها :

– **فاما من الناحية العقلية** (côté intellectuel) فان الملكة التاريخية هى الشعور بتطور وبحركة مستمرة فى الزمن فهى عكس مايتصوره عقل الطفل من سكون واستقرار وثبات • فهى فى شكلها الاول والبسيط مرتبطة بفكرة انطواء الزمن ومروره، وتغير الاشياء وتحولها ثم بعد ذلك ، اذا ازداد تركيبها ، تصير مصحوبة بفكرة البحث عن الاسباب المتنوعة التى انجرت عنها تلك التطورات ، واكتشاف الدور المشترك الذى تلعبه تلك الاسباب والعوامل : اسباب اقتصادية ، اسباب سياسية ، اسباب اجتماعية الى غير ذلك •

والملكة التاريخية هى ايضا نتيجة تفكير وتنظيم وترتيب حول الحوادث التاريخية ، وهى تستلزم وجود فلسفة تاريخية ، لا تحتاج وجوبا الى ان توضح فى صورة مذهب او بيان فلسفى ، ولكنها تكون حاصلة ومتاتية من مجموع آراء ونتائج عامة تتجسم وتتبلور تدريجيا كلما تمادى درس الحوادث التاريخية المتعلقة بالماضى لزيادة تاييدها واثباتها •

ـ **من الناحية الانفعالية** (côté émotionnel) فان الملكة التاريخية تتعلق بالكيفية التى يعرف بها الطفل حوادث الماضى وعلى الاخص الاثار التاريخية الصحيحة ، فهى عبارة عن رد فعل شخصى وان شئت قلت عن « حالة نفسية » تصاحب ذلك التعرف والاطلاع •

فالملكة التاريخية فى ميدان الانفعالات والتاثرات هى القدرة على الاهتزاز والتاثر امام شواهد الماضى وامام آثار مجهودات المتقدمين من اسلافنا خلال القرون الفائتة ، وهى ميل وعطف واكتشاف نوع من الجوار او القرب الروحى بيننا وبين اشخاص فرق الدهر والموت بيننا وبينهم الى الابد •

وتكوين الملكة التاريخية فى الطفل تناسب حينئذ درجة شدة التاثر والانفعال التى يمكن توليدها فى نفسه وذلك بجعله فى هيئة يمتزج فيها التفهم بالهيبة والوقار والخشوع امام ما تشهد به الاطلال والاثار مهما كان نوعها ، وبحمله على احياء الماضى وتصوره تصورا فيه روح وايحاء •

وليأتى تعليم التاريخ بكل مفعوله لا بد من ان نراعى معا تلك الناحيتين : الناحية العقلية والناحية الانفعالية او التاثيرية ، وذلك بالوقوف موقف الاعتدال والتوسط بين راى الاجتماعيين الذى يقتصر على تاريخ الشعوب والحضارات والمدنيات باعتبارها كانها مستقلة عن الافراد ومجردة عن الحوادث ، وراى التقليديين الذى يقتصر على تاريخ الحروب والوقائع •

اعتبارات بيداغوجية

ـ **مشاكل ينبغى حلها** : بما ان درس التاريخ هو قبل كل شىء عبارة عن درس ملاحظة ، فالذى يهمنا هو حسن استعمال المراجع والمصادر المنوعة التى يمكن ان تكون تحت تصرفنا : آثار محلية وثائق تاريخية ، صور ، افلام ، اسطوانات ، الخ •••

وان طريقة استخدام كل نوع منها يختلف حسب الاحوال وينبغى ان يكون متلائما مع الظروف •

ـ الوسائل والامكانيات المحلية :

لا يخلو مكان من اطلال وآثار واضرحة وقبور ومعالم ومساكن ومعابد ··· كل هذه الحجارة تنطق وتتكلم ، وكل هذه الصخور تحكى لنا حكايتها ··· ولكن ينبغى ان نعرف كيف نصغى اليها ونسمع كلامها ونفهم حديثها · وهذه هى اول صعوبة يصادفها المعلم نفسه كلما اراد ان يقدم الى تلاميذه من بادىء ذى بدء بناء اثريا لم يقم بدراسته من قبل اثناء زيارات كثيرة خاصة · وذلك لان الشرط الاساسى للاستفادة من الاثار المذكورة هو ان يبدا المعلم بدراستها بنفسه ، وان يزورها اولا ويعرف كل ما ينبغى معرفته فى شانها حتى لا يشعر بشىء من الحيرة والارتباك او يتورط فى صعوبات تداهمه وتباغته اثناء الزيارة الرسمية عندما يكون مصحوبا بتلاميذه ، واذا كانت هذه الزيارات مخيبة للظن فى غالب الاوقات بالنسبة للمعلم وبالنسبة للتلاميذ ايضا وخالية من كل فائدة ، فالسبب فى ذلك هو عدم اخذ التدابير والاحتياطات اللازمة من قبل ، وعدم اعداد العدة لضمان النجاح ·

وكل دراسة من هذا النوع لأثر تاريخى ينبغى ان يجرى على ثلاث مراحل :

ـ **المرحلة الاولى :** هى مرحلة ملاحظة وتنقيب · فما على المعلم الا ان يترك الاطفال يتاملون مليا حسب رغبتهم ، ويحسن ان تكون هذه الملاحظة موجهة ومسيرة باتباع طائفة من الاسئلة مرتبة ومدبرة من قبل تعين التلاميذ على حصر انتباههم واهتمامهم فى نقط معينة ومحدودة ·

ـ **المرحلة الثانية :** هى مرحلة عمل فى قاعة التعليم يقع فيها تنظيم الانفعالات التى وقع تسجيلها ، وترتيب الانطباعات التى وقع جمعها والمذكرات التى وقع تدوينها ، والملاحظات التى وقع التقاطها مع تكملة كل ذلك بارشادات المعلم ودرس الرسوم والصور والمخطوطات والنصوص وهذا العمل يعتبر على غاية من الاهمية والفائدة لانه هو الذى يمكن الفرد من التزود بالمعلومات المراد اقتناؤها

ـ **المرحلة الثالثة :** ثم يقع الرجوع مرة اخرى الى الاثر التاريخى لزيارة منظمة وموجهة احسن توجيه فلا يقع التامل اثناءها الا فيما ينبغى رؤيته ومشاهدته والاهتمام به والذى يمكن من مكافحة المعرفة التاريخية بالحقيقة المحسوسة ·

ونفس هذه الطريقة يمكن اتباعها فيما يتعلق بملاحظة ما يمكن جمعه من الوثائق كالنقود والخطوط والاشياء التاريخية والفنية المختلفة ، فنسير دائما حسب هذه المراحل الثلاث وهي :
- البحث والتنقيب والاكتشاف
- التاويل النظري والعلمي
- المعارضة والمقابلة بالحقيقة

الصور والنقوش :

وقد صارت هذه الصور موجودة بكثرة منذ مدة قريبة وذلك بفضل بروز (**مصور التاريخ**) (١) ومن المتاكد ان يبدا المعلم قبل كل شيء بترتيب تلك الصور حسب اعدادها الرتبية ليسهل عليه استعمالها فيما بعد •

ويمكن ان تستعمل الصور لاحد هذين الغرضين :
- يمكن ان تستعمل كنقطة ارتكاز وانطلاق للدرس فيصبح هذا الدرس حصة ملاحظة باتم معنى الكلمة ، ويحمل المعلم تلاميذه اثناءها على استخلاص جملة من العلامات وطائفة من الشمائل والاوصاف وذلك مثل ملاحظة اللباس والادوات القديمة والالات في الازمان الماضية • فالصورة هي الدرس او هي عماد الدرس وعند ذلك ينبغي حصر انتباه التلاميذ والاقتصار على عدد قليل جدا من الصور او على صورة واحدة ، او احيانا اثنتين او ثلاث اذا اردنا بذلك المقابلة والمقارنة المفيدة •
- ويمكن ان تستعمل الصور لشرح الدرس وايضاحه ، وعند ذلك يعرض المعلم عددا كثيرا منها اثناء الدرس ويشرحها بسرعة للاطفال ويمكنهم من رؤيتها ••• ثم بعد انتهاء الدرس يثبتها فوق لوح ماطوز فتبقى معروضة على انظار التلاميذ مدة بضعة ايام يمكن لكل واحد اثناءها ان يلاحظ ملاحظة طويلة هادئة ويقرا ما بها من الشروح والتعاليق •

النصوص

- يمكن ان يكون النص نقطة انطلاق الدرس فيشترك المعلم وتلاميذه في دراسته لاستخلاص معلومات تاريخية مفيدة تتعلق بالدرس ، وذلك مثل النص المتعلق بالتعريف بالبربر لابن خلدون•
- ويمكن ان يكون النص موضحا للدرس مثلما ذكرناه بالنسبة للصور •

---

(١) مجموعة من الصور التاريخية تعد ١٧٥ صورة للمؤلف بمشاركة علي بوسلامة

والشيء الذي ينبغي الانتباه اليه فى شان النصوص هو وجوب شرح لكثير من المفردات والالفاظ الخاصة بالتاريخ مع بيان ما يوجد بينها احيانا من التشابه او التباين او الفـروق الدقيقـة فى المعنى كقولنا : الامة والشعب ، والدولة والحكومة ، والدستور والميثاق ، والاتفاقية والمعاهدة ، والديكتاتورية والديموقراطية • • • الى غير ذلك • • • وهذا عمل مفيد ومثمر الى اقصى حد ولا يجوز اهماله •

الوسائل السمعية والبصرية

نحن نكتفي هنا بمجرد الاشارة الى هذه الوسائل لانها من سوء الحظ مازالت مفقودة بمدارسنا ومن واجبنا بذل المجهودات الكافية لايجادها وتزويد المعلمين بها لزيادة تسهيل العمل عليهم •

ونذكر من هذه الوسائل السينما والافلام ، وكذلك عرض الصور الثابتة وتمتاز هذه الصور الثابتة على الصور المطبوعة بكونها تمكن جميع تلاميذ الفصل من ملاحظتها بسهولة ، وتحصر انتباه الاطفال فيها وسط ظلام القاعة وتؤثر على خيالهم بما ينبعث منهـا من نـور سحرى جذاب • وبهذه المناسبة ابشر السادة المعلمين باننا بصدد اعداد افلام ثابتة ستكون لهم خير عون يساعدهم على القيام بعملهم على احسن وجه •

وبجانب السينمـا وآلات العرض الثابتة ظهـر اخيرا المخيـال (édiascope) وهو الة تمكن من عرض جميع انواع الصـور والوثائق على الحائط او على الشاشة ولا يشترط ان تكـون هـذه الصور والوثائق فى شكل الاشرطة والافلام كما راينـاه فى عـرض الصور الثابتة •

وان التسجيل على الشريط المغناطيسى او على الاسطوانـة لممـا يجسم للتلاميذ بكيفية محسوسة جانبا من الدرس متعلقا بالاصوات• فعندما نحدث تلاميذنا عن رطانة اللغة الليبية او البربرية فى القديم فانه يبدو من المفيد اسماعهم تسجيلا للشلحة مثلا ليتصـروا تلك اللهجة بكيفية محسوسة ويمكن ان يسجل تشخيص لزحف بنى هلال مثلا او لمعركة جامة او لخطاب القاه احد الامراء او القواد ، الى غير ذلك • • •

درس التاريخ

اعداده ـ ان اعداد درس التاريخ ليس هو عبارة عن قـراءة ذلك الدرس من كتاب او عدد من الكتب ليحشو المعلم ذهنه بطائفـة من

الاحداث والوقائع المختلفة ، يعيدها فيما بعد على مسامع تلاميذه٠٠٠

ان هذا الاعداد يشتمل على ناحيتين هامتين :

اولا : ناحية اطلاع ، وتوطيد معلومات ، وجمع وثائق ووسائل ايضاح مختلفة ٠٠٠ واثناء القيام بهذه الاعمال يقرا المعلم ويطالع ليدقق معلوماته ويثبتها ، ويجمع الصور والاشياء التاريخية المنوعة ويرتبها ، ويزور المعالم والاثار ليدرسها درسا كافيا بنفسه ويرى كيفية الاستفادة منها ٠

ثانيا : ناحية غربلة وتصفية وتسهيل ، وذلك باختيار ما هوصالح ومفيد للدرس ، والاقتصار على الحوادث الهامة التى لا يمكن جهلها٠٠

فالعمل الاول هو عمل جمع وتكديس ، والعمل الثانى هو عمل حصر واختيار واختصار ، وهو ادق واصعب من الاول :

ويسجل المعلم هذا الاعداد كتابة بمذكرته حسب التصميم التالى تقريبا :

١) الوسائل التى يمكن استعمالها

- خرائط جغرافية
- مخططات
- صور ورسوم
- نصوص
- زيارات وجولات

٢) الغاية من الدرس

يبين المعلم باختصار ما ينبغى شرحه او تحفيظه

٣) خطوات الدرس

يبين المعلم المراحل التى يسير عليها الدرس للوصول الى الغاية التى رسمها مع ذكر الصور والوثائق التى يريد استخدامهاوالاسئلة التى يريد القاءها

٤) الخلاصة

من المفيد ان تحرر الخلاصة بمشاركة جميع التلاميذ وان تكون واضحة وقصيرة وسهلة ولا تشتمل الا على ما لا بد من معرفته وحفظه

٥) ارتباط ذلك الدرس بدروس اخرى

يبين المعلم التمارين والاعمال التى فكر فيها لزيادة رسوخ الدرس

وليستمر رنينه فى اذهان التلاميذ ــ مثــل ذلك : تحفيظ القطعــة الشعرية الخالدة للحسن بن رشيق واصفا مصيبة القيروان وذلــك بعد درس يتعلق بزحف بنى هلال وفى هذه القصيــدة يقول ابن رشيق :

فتفــرقــوا ايــدى سبــا وتشتتــوا
بعــد اجتمــاعهم عــلى الاوطــان

سير الدرس

ـ يبدا المعلم بربط الدرس بما تقدم حتى يقع وضع الدرس الجديد فى مكانه من الزمن بالنسبة لسير الحوادث المعلومة وتسلسلها ٠وان استعمال السلم التاريخى او الافريز التاريخى مما يساعد المعلم على ذلك ويزيد المسالة وضوحا بالنسبة للاطفال ٠

ـ ويقع استرجاع ما وقع درسه فى الحصص الفائتــة بواسطــة اسئلة شفوية يسيرها المعلم بسرعة ومهارة ٠

ـ وينطلق الدرس الجديد من الاشياء المحسوسة التى اعدها المعلم لتكون مصدرا للملاحظة والتفكير ٠ فيعرض المعلم صورة واحدة ، او صورتين اذا كانت هناك مقارنة ومقابلة او يستعمل صورة ثابتة من صور الافلام ، او يستخدم نصا ماخوذا من كتاب

ويقع عرض هذا الشىء فى البدايه بدون شرح ، ويطالب المعلم التلاميذ بان يتاملوا فيه وهم صامتون ، وان يسجلوا ما اثــر فــى نفوسهم او ادهشهم او اثار اهتمامهم ٠٠٠ ثم يطالبهم المعلم بالقــاء الاسئلة التى تثيرها فى نفوسهم ملاحظــة ذلك الشىء ٠ فيجيب المعلم عن تلك الاسئلة موجها انتباه التلاميذ الى الغاية التى رسمها للدرس ، ثم يسال هو بدوره ليضمن تقدم الملاحظات والاكتشافات٠

وكلما تم الحصول على نقطة هامة قام المعلم بتدقيقها ووضعها فى قالبها النهائى بمعية تلاميذه ووقع التعبير عليهــا بجملــة تــرسم بالسبورة ٠ وهكذا يتكون تدريجيا ملخص الدرس ويكون مرتبطــا فى اذهان التلاميذ بمراحل الدرس نفسه ٠

ونرى مما ذكرناه ان دور المعلم فى هذا التعليم ليس هــو دور ثرثرة وكلام طويل والقاء بل هو دور ايحائى يجعل التلاميذ يلاحظون ويكتشفون بانفسهم مع تدخله من حين لاخر كلما كان ذلك مفيدا ٠

هذا وان درس التاريخ هو فى الوقت نفسه درس اخلاق وتربية اجتماعية وتربية مدنية قومية ٠٠٠ لكن مع الاعتدال وبدون مغالاة،

لوحة ١

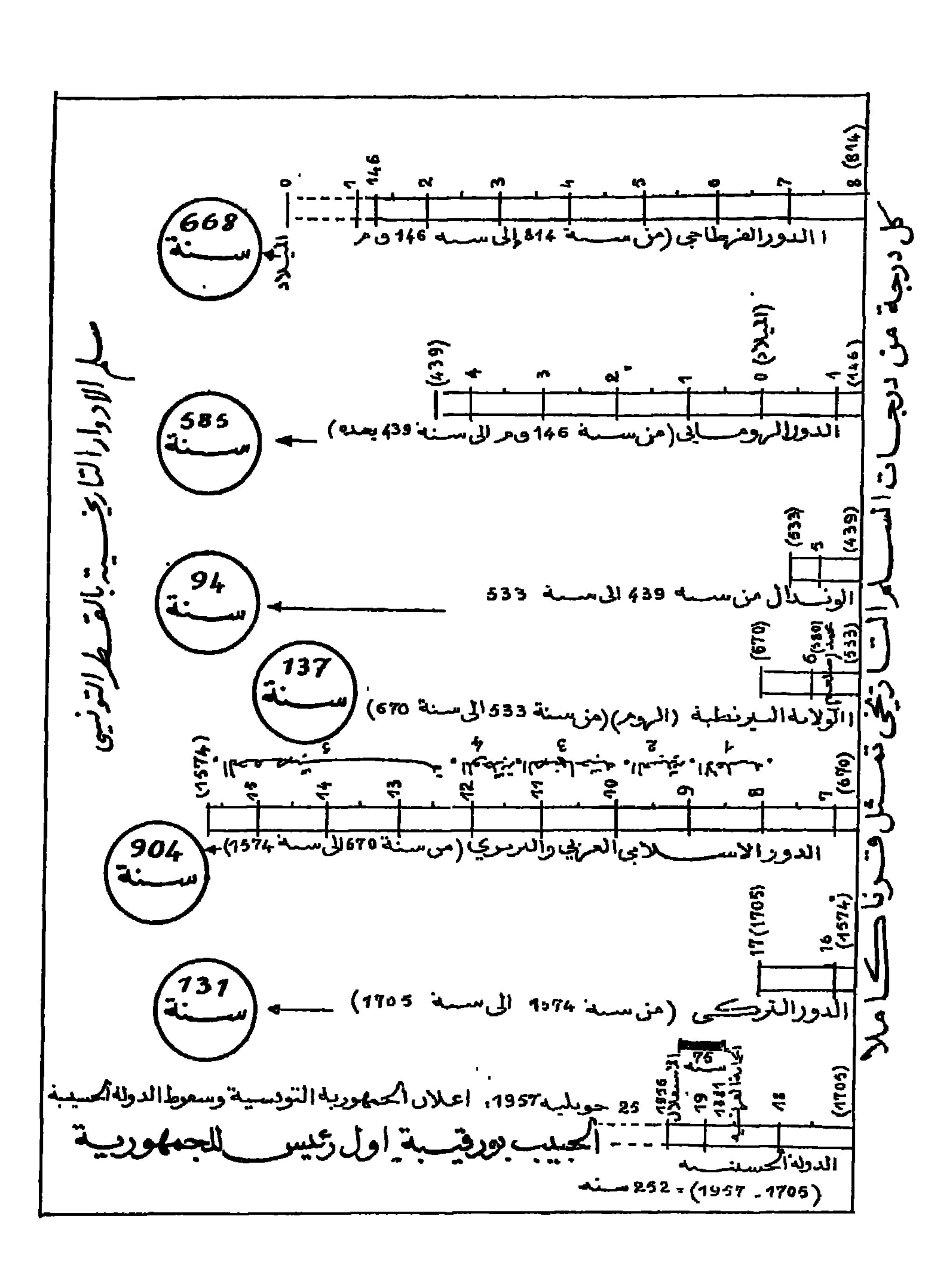
انظر الصفحة رقم ٦٣ من هذا الكتاب



راس ليبى (اى بربرى)

تمثل الصورة اعلاه راس ليبى منقوشا على الحجر الاسود وقع العثور عليه بحمامات انطونان بقرطاج ويرتقي عهده الى نصف القرن الثانى قبل الميلاد • وهو اجمل صورة لراس ليبى خلفته لنا العصور القديمة • وهذا الراس محلوق ومحلى بضفيرة مثلما نشاهده احيانا حتى الان عند بعض البرابرة وتلك ــ الشوشة ــ مجعولة ــ للبركة ــ ــ وهى تنتهى هنا بتميمة فى شكل الهلال ، الذى هو شعار الالاهة ــ تانيت ــ

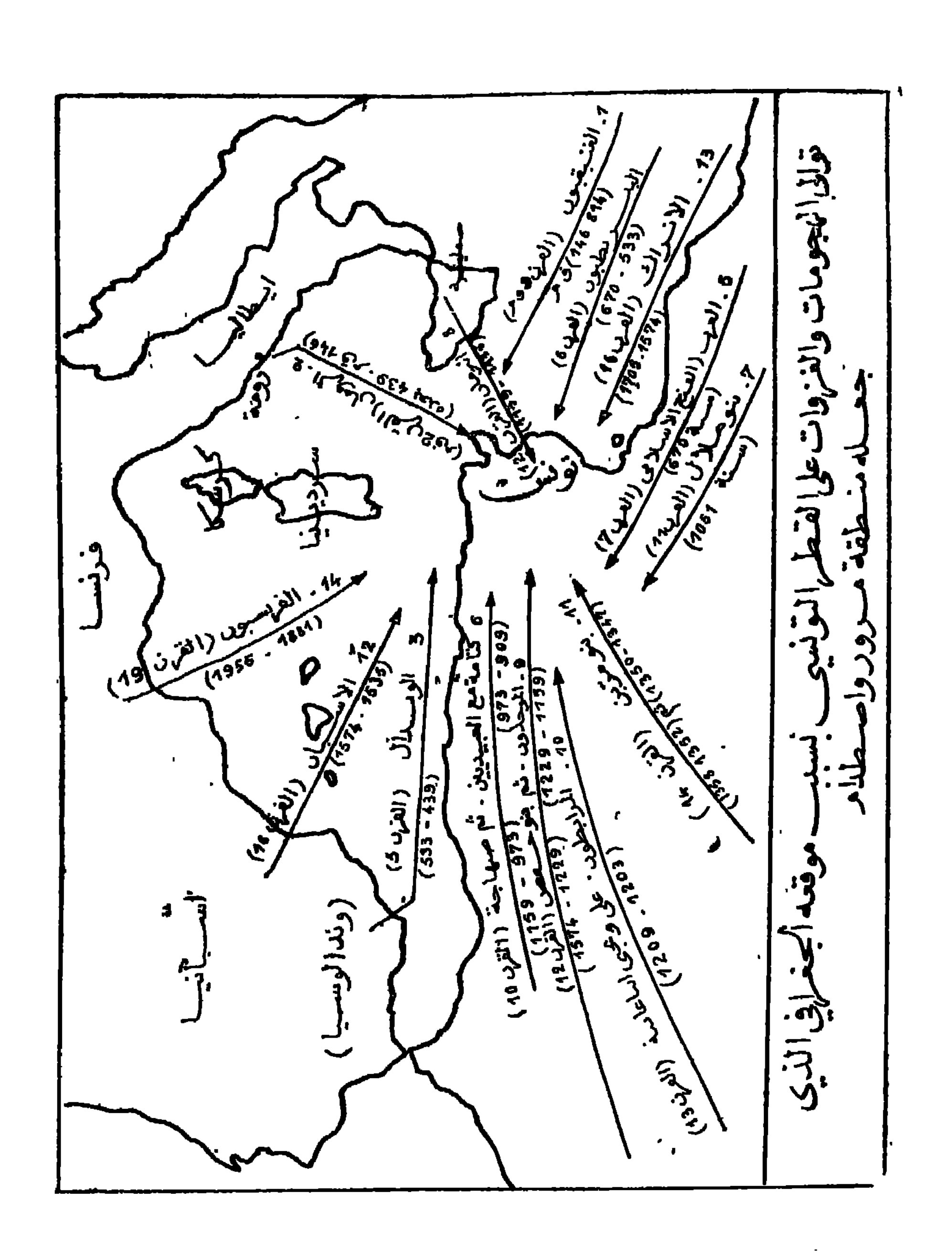
اللوحة ٢



سلم الادوار التاريخية بالقطر التونسي
كل درجة من درجات السلم تمثل قرنا كاملا
الدور القرطاجي (من سنة 814 الى سنة 146 ق م
668 سنة
الدور الروماني (من سنة 146 ق م الى سنة 439 بعده)
585 سنة
الوندال من سنة 439 الى سنة 533
94 سنة
الولاية البيزنطية (الروم) (من سنة 533 الى سنة 670)
137 سنة
الدور الاسلامي العربي والبربري (من سنة 670 الى سنة 1574)
904 سنة
الدور التركي (من سنة 1574 الى سنة 1705)
131 سنة
25 جويلية 1957، اعلان الجمهورية التونسية وسقوط الدولة الحسينية
الحبيب بورقيبة اول رئيس للجمهورية
الدولة الحسينية
(1705 - 1957) = 252 سنة
75

اللوحة ٣

انظر الصفحة رقم ٤٥ من هذا الكتاب



لوحة ٤

انظر الصفحة رقم ٦٣ / ٧١ من هذا الكتاب



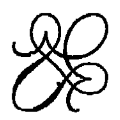
الليبيون كما رسمهم المصريون

قد صور المصريون جماعة من الليبيين (الليبو او البربر) فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد كما نراه على هذه القراميد الموجودة بمتحف القاهرة (انظروا شكل اللحية الملسنة .)

ومع جعل التلاميذ يدركون فائدة التعاون بين الامم ، وضرورة هذا التئازر والتعاضد الدولى لسعادة البشر ، فكما ان الانانية ممقوتة بالنسبة للفرد الذى ينبغى ان يشترك مع غيره ، فكذلك العنصرية مبغوضة بالنسبة لكل شعب ... وكما ان التعاون صار ضروريا بين الافراد فكذلك ايضا اصبح التكافل امرا لا بد منه بين الدول وهو من اكبر عوامل السلم .

فعلى هذا الشرط يكون درس التاريخ مفيدا اخلاقيا والا يكون ضرره اكثر من نفعه وينطبق عليه ما قاله (فاليرى) : (**التاريخ هو اخطر شيء انتجه الفكر البشرى ، فان خصائصه معروفة ، فهو يحمل على الاحلام ، ويسكر الشعوب ، ويولد فيهم ذكريات خاطئة، ويضخم انعكاساتهم ، ويؤجج احقادهم الكامنة ، ويزعجهم فى راحتهم، ويقودهم الى جنون العظمة او هذيان الاضطهاد ، ويصير الامم ظالمة ، متكبرة ، متجبرة ، متغطرسة ، الى درجة لا تطاق ...**)

ونختم القول بهذه الحقيقة الهامة وهى ان قيمة الدرس وبصفة عامة قيمة التعليم كله فى قيمة المعلم وفى مقدرتة ومهارته وخبرته الصناعية وحسن تصرفه وتمكنه من اسرار المهنة ولذلك فان التوجيهات البيداغوجية التى بسطناها لا تكون مفيدة مثمرة الا اذا اجاد المعلم تطبيقها واحسن التصرف فيها ، والله الهادى الى طرق الصواب .



بــــدء التـــاريـــخ

اللوبيون او الليبيون (البربر)

التعريف باللوبيين والليبيين (البربر)

كانت بلادنا التونسية تعرف باسم (لوبيا او ليبيا) وكان سكانها يطلق عليهم اسم (اللبو او اللوبييــن او الليبييــن) حتــى ان (هيرودوتس) وهو المؤرخ اليوناني الكبير الملقب بابي التاريخ او شيخ المؤرخين ، والذى عاش من ٤٨٤ الى ٤٢٥ ق٠م٠ وزار بلادنا في ذلك العهد البعيد ، كان يسميها (لوبيا) ويسمي سكانها (اللوبيين) ٠٠

اما الاشراف والنبلاء من بين الليبيين فقد كانــوا يعرفــون باسم (الامازيغ) وهم الاحرار من العائلات الارستقراطية ٠

وقد اطلق الرومان على سكان افريقية فى القديم لقب (بربرى) وكانوا يطلقون هذا اللقب عادة على كل شخص غيــر مثقف وغيــر متكلم باللغة اللاطينية وينتمى الى جماعات متاخرة وخارجة عن الدائرة الرومانية كسكانجرمانياوغاليا فيالقديم ، ولميكن ذلك خاصا باجدادنا

وقد ابقى العرب من بعدهم تلك التسمية وصاروا يطلقــون عــلى اجدادنا لقب (البربر) ومن جملتهم المؤرخ الكبير ابن خلدون الذى اشتهر بكتابه المعروف :

(كتاب العبر، وديوان المبتدا والخبر،فى ايام العرب والعجموالبربر)
وقد قسم ابن خلدون البربر الى ثلاثة اقسام :

١ ـ **البرانس** وهم ابناء (برنس بن بر بن مازيغ) وهم قبائــل وشعوب جبلية مستقرة اكثرهم بجبال الاطلس (المغرب) ومنهــم مصمودة : وهذه القبيلة تتفرع الىشعوب وبطون كثيرة ، ومن بطونها هرغة فى جبل السوى باقصى بلاد المغرب فيها نشا (محمد بن تومرت)

الملقب بالمهدى ، وهو الذى اسس الدولة الموحدية وانتصر على المرابطين ، وازال دولتهم ، وخلفه بعد موته تلميذه (عبد المؤمن بن على الكوامى) الذى انقذ بلادنا من استيلاء النرمان ، واطردهم من المهدية سنة ١١٦٠ او سنة الاخماس الهجرية اى سنة ٥٥٥ هـ ٠

ونجد البرانس ايضا بجبال الريف ومنهم غمارة ، او بجبال زواوة (شمال الجزائر) ومنهم كتامة وصنهاجة الذين شدوا ازر الدولة العبيدية الفاطمية ثم تكونت منهم الدولة الصنهاجية الزيرية ٠٠٠ او بجبال اوراس (بالجزائر) وذلك المكان هو قلب افريقية الشمالية النابض ومنبع الثورات التحريرية والمقاومات ضد كل اجنبى دخيل مهما كان نوعه ، ومنهم قبيلة اوربة التى منها كسيلة ، وقبيلة جراوه ومنها الكاهنة ٠٠٠ وهذه القبائل الموجودة بجبال اوراس التى كانت قاومت الرومان ، وقاومت العرب ، واعانت صاحب الحمار فى ثورته ضد العبيديين ٠٠٠ هى التى نراها اليوم تقاوم الاستعمار الفرنسى بهمة لاتنثنى وعزيمة ثابتة لاتلين

٢ ــ **البتر** وهم ابناء (مادغيس الابتر بن بر بن مازيغ) وهم قبائل بدوية رحالة وجمالة منهم سكان بلادنا التونسية من نفزاوة ونفوسة وهوارة ولواته ولماية بجربة الخ ٠٠٠

ومن البتر ايضا قبائل زناتة ومكناسة وورفجومة ، وهم بطون وشعوب كثيرة ٠٠٠

٣ ــ **الملثمون** وهم قبائل الصحراء بالجنوب يجعلون لثاما ازرق على وجوههم ، ومنهم الطوارق وقبائل لمتة ولمتونة والتوات والملثمون من صنهاجة بالصحراء بجنوب المغرب الاقصى ، وهم غير صنهاجة البرانس الموجودين بجبال زواوة مع قبائل كتامة والذين كانوا كما ذكرناه عمالا واعوانا للعبيديين ، بل هؤلاء الملثمون من صنهاجة ولمتونة هم الذين كونوا دولة المرابطين التى تحكمت فى المغرب تحت قيادة يوسف بن تاشفين مؤسس مدينة مراكش سنة ١٠٦٣ واستمرت الى ان ازال سلطانها الموحدون كما ذكرناه

ويقول المستشرق الكبير (ويليام مارسى) بان تقسيم البربر الى البرانس والبتر والملثمين يرجع فى الحقيقة لا الى نسبتهم الى جدهم الاول الذى كان اسمه برنسا او مادغيسا الابتر او غير ذلك بل ترجع تسميتهم الى نوع اللباس :

ـ **فالبرانس** : كانوا يلبسون البرنس وهم مازالوا كذلك الى يومنا هذا مثلما نراه عند المغاربة بالمغرب الاقصى ٠ وهذا اللباس يشتمل عـلى غطـاء للراس

ـ **والبتـر** : كانوا يتركون راسهم عاريا ولا يلبسـون برنسا مشتملا على غطاء للراس ولذلك كان لباسهم ابتر

ـ **والملثمون** : هم قبائل الصحراء الذين يجعلون لثاما على وجوههم

فالمسالة هي حينئذ مسالة لباس لامسالة انتساب الى احد الاجداد الاوليـــن ٠

ويقول العلامة ابن خلدون فى التعريف بالبربر :

١) **البربر** «٠٠٠البربر جيل من الآدميين،سكان المغرب على القدم ملاوا البسائط والجبال من تلوله واريافه وضواحيه وامصاره ٠٠٠ »

* * *

٢) **مساكنهم** : « ٠٠٠ يتخذون البيوت من الحجارة والطين ،ومن الخصاص (١) والشجر ، ومن الاشعار والاوبار ٠٠٠ »

* * *

٣) **معائشهم** : « ٠٠٠ ويظعن اهل العز منهم والغلب لانتجاع (٢) المراعى فيما قرب من الرحلة لايتجاوزون فيها الريف الى الصحـراء والقفر الاملس ، ومكاسبهم الشاة والبقـر ، والخيـل فى الغالـب للركوب والانتاج ، وربما كانت الابل من مكاسب اهل النجعة (٢) منهم ، شان العرب ٠

ومعاش المستضعفين منهم فى الفلح ودواجن السائمة ، ومعـاش المعتزين من اهل الانتجاع والاظعان (٣) فى نتاج الابل وظلال الرماح وقطع السابلة ٠٠٠ »

* * *

٤) **ملابسهم** : « ٠٠٠ واكثر اثاثهم من الصوف ، ويشتملون (٤) بالاكسية المعلمـة (٥) ، ويفرغـون (٦) عليهـا البرانس الكحـل ، ورؤوسهم فى الغالب حاسرة وربما يتعاهدونها بالحلق ٠٠٠ »

* * *

٥) **لغتهم** : « ٠٠٠ ولغتهم من الرطانة الاعجمية متميزة بنوعها ،

---

(١) الخصاص (مفرده الخص) هو البيت من القصب ـ (٢)الانتجاع والنجعة : طلب الكلا فى مواضعه (٣) الاظعان : الهوا د وهى دليل على السير والترحال (٤) اشتمل بالثوب : التف به وادراه على جسمه ـ (٥) المعلمة : الملونة او التى عليها علامة ـ (٦) افرغ : عليه انزل عليه

وهى التى اختصوا من اجلها بهذا الاسم ... » (اى اسم البربر)

٦) **قبائلهم** : « ... والبربر قبائل كثيرة وشعوب جمة وهى : هوارة ، وزناتة ، وضريسة ، ونفزة ، وكتامة ، ولواتة ، وغمارة ، ومصمودة ، وصنهاجة ... »

٧) **اخلاقهم** : « ... واما تخلق البربر بالفضائل الانسانية ، وتنافسهم فى الخلال الحميدة ، وما جبلوا عليه من الخلق الكريم ... من عز الجوار ، وحماية النزيل ، والوفاء بالقول والعهد ، والصبر على المكاره ، والثبات فى الشدائد ، ... فلهم فى ذلك آثار ينقلها الخلف عن السلف ... وحسبك ما اكتسبوه من حميدها ، واتصفوا به من شريفها ، ان قادتهم الى مراقى العز ، حتى علت على الايدى ايديهم ..

وما كان للبربر من الاثار ما يشهد اخباره كلها بانه جيل عزيز على الايام ، وانهم قوم مرهوب جانبهم ، شديد باسهم ، كثير جمعهم ، مضاهون لامم العالم واجياله من العرب والفرس والروم »

(من تاريخ ابن خلدون)

والذى يميز الحياة الاولية قبل بدء التاريخ هو :

١) **الرمادات** او الرمادبات التى يبلغ طولها احيانا ١٥٠ م وعرضها ٥٠ م وارتفاعها ١٢ م والتى يوجد فيها كميات كبيرة من الحلزون ، اذ كان البدائيون من اجدادنا يطبخون الحلزون فى قشور بيض النعام وذلك بعد تسخينها فى الماء بواسطة حجارة حامية

٢) **النقوش والصور على الصخور** : وهو ما يسمى عندنا بالحجارة المكتوبة . وهذه النقوش التى حفرها الاقدمون بالات من الصوان او بفرون الحيوانات وكذلك الصور التى رسموها بالمغرة تمثل غالبا الحيوانات التى كانت موجودة فى ذلك الوقت (الفيل ، الزرافة ، النعامة ...) وعلى الاخص التى كانوا يعبدونها ويقدسونها (مثل الكبش والثور) خصوصا بجهة الجزائر

٣) **الاسلحة الكثيرة** من الحجارة او من الصوان . ويسمى السلاح من الحجارة او الصوان بالظر جمع ظران ولذلك يطلق على تلك العصور القديمة اسم (العصور الظرية) ، وتنقسم حسب التدرج فى الرقى والحضارة الى :

- العصر الباليوليتى او عصر الحجر المنحوت
- العصر الميزوليتى او عصر الصوان

ـ العصر النيوليتى او عصر الحجر المصقول واستعمال الفخار

وانتهى العصر النيوليتى باستقرار الاجناس البشرية مثلما نراه موجودا فى وقتنا الحاضر

وقد اقبل كثير من الباحثين والمؤرخين على التنبيش والتفتيش والتنقيب لمعرفة اطوار هذه العصور الحجرية ومراحل هذه الصناعات والحضارات البدائية بافريقية الشمالية •

والمناجم الاتربة التى يفحصونها لكشف اسرارها تكون :

ـ **اما سطحية** اى على وجه الارض

ـ **او مدفونة** اى مطمورة تحت الارض

ـ **او منضده** اى ذات طبقات بعضها فوق بعض حسب ترتيب المدنيات المتتابعة والمتعاقبة • وهذا النوع الاخير هو اكثر فائدة من الناحية التاريخية • فبهضاب المقطع مثلا (وهو منجم اثرى بالقرب من مدينة قفصة) نجد القفصى الاعلى (Gaspien Supérieur) بالطبقة العليا ثم نجد تحته القفصى المثالى (Gaspien Typique) **الذى** يمثل مدنية اقدم وابعد من الاولى •

ونذكر من بين هؤلاء الباحثين :

١ ـ **آرمبورغ** (Arambourg) الذى اكتشف منجم (عين الحنش) شرقى ستيف بالجزائر وعثر فيه على **الكرويات** وهى شبه كرات من الحجارة ذات وجوه (Sphéroïdes à Facettes) وهى الوجوه التى فيها شىء من التجويف تدل على انه وقع نحت هذه الاحجار حتى انه يظهر على جوانبها احيانا آثار خدوش نشات عن الطرق والقرع،وقد بقيت زواياها فى الغالب ناتئة وحدودها بارزة غير كليلة ، ويبلغ حجم كل واحدة منها حجم الرمانة او البرتقالة اى ما يملا يدالانسان مما يدل على كونها كانت تستعمل للرمى او للدق والتكسير •

وهذه الاحجار ، رغما عن خشونتها ، فهى تدل على وجود آثار صناعية اولية جدا بدات فى الحقبة الرباعية التى ظهر فيها الانسان على وجه البسيطة ، ولذلك يمكن اعتبارها من الاثار الاولى الدالة على ظهور البشرية ، واعطاؤها رتبة اول انتاج بشرى وقع فى اقصى بداية العصر الباليوليتى •

ثم انه وقع العثور فى نفس ذلك المكان اى بعين الحنش على احجار ذات وجهين (Bifaces) وهي من مميزات العصر الباليوليتى الاسفل اى بداية ذلك العصر ايضا ويمكن اعتبارها كدرجة ارقى من الكرويات المتقدمة •

وبما انه وقع اكتشاف هذه الصناعة الاولية بالمكان المعروف بعين الحنش فانه يمكن تسمية ذلك الطور (**بالطور الحنشى**) وهو يقابل كما بيناه بداية العصر الباليوليتى •

ونحن نجد بالقطر التونسى اسلحة وادوات حجرية ترجع الى الطور الحنشى وذلك بمنجم سيدى الزين • وهل عرفت اين هو هذا المنجم ؟ انك اذا خرجت من مدينة الكاف واخذت طريق الجزائر متجها نحو ساقية سيدى يوسف الشهيدة وسوق اهراس ، فانك تجد بالكيلومتر العاشر تقريبا هذا المنجم الاثرى بسيدى الزين وهو يشتمل على ثلاث طبقات متراصفة تحتوى على الاحجار الكروية الشكل وعلى الاحجار ذات الوجهين التى تتعلق كلها ببداية العصر الباليوليتى وتعتبر من **الطور الحنشى** اى من نوع ما وقع العثور عليه بعين الحنش بالجزائر • ويرجع الفضل لهذه الاكتشافات الاثرية النفيسة بالقطر التونسى الى الابحاث والتفتيشات المدققة التى قام بها الدكتور

غوبير (Dr Gobbet) • وهو الذى اكتشف ايضا المناجم الاثرية الموجودة (برقوبة الحلو) و (رقوبة عين السلطان) قرب مدينة قفصة والتى تحتوى كلها على صناعة حجرية اولية من الطور الحنشى ايضا وهو الطور الذى يطابق الطور الشلى (Chellieu) ثم الاشولى (Acheulieu) بفرنسا نسبة الى مدينة (شله) بمقاطعة (السين والمارن) والى مدينة (سان اشول) بمقاطعة (الصوم) بفرنسا •

٢ ـ **ريغاس** (Reygasse) الموظف الادارى بمدينة تبسة وهو الذى عثر على المنجم الاثرى المدفون بسباسب الحلفاء قرب مجرى وادى الجبانة وقرب جبل العنق وبئر العتير على بعد ٨٤ كم تقريبا جنوب تبسة ، وهو الذى اكتشف بذلك المنجم الطور الذى سماه بالطور العتيرى (L'Atérieu) نسبة الى بئر العتير • ويمتاز هذا الطور بادواته التى هى ذات ساق تدخل فى مقبض (Outillage Pédonculé) ويقابل هذا الطور وسط العصر الباليوليتى تقريبا (الباليوليتى المتوسط) •

ونجد بالقطر التونسي مناجم اثرية لها علاقة بهذا الطور قرب عيون قديمة ، وذلك بوادى العكاريت مثلا (جهة قابس) ، وبالقطار (قرب قفصة) ، وعين المترجم (قرب جبل الشعنبى والحدود الجزائرية ، شمال بوشبكة) وسيدى الزين (يبعد ١٠ كم غربى مدينة الكاف) • ونحن نجد فى منجم عين المترجم طبقتين : الطبقة السفلى وهى المدفونة تتعلق بالطور العتيرى والطبقة العليا التى على سطح الارض ترجع الى الطور القابسى المثالى •

٣ ـ **بالارى** (Pallary) وهو معلم بمكتب ابتدائى بسيط بمدينة وهران ، وهو الذى اكتشف الطور الذى اطلق عليه اسم (ايبيريو ـ موريسان (Ibéromaurisien)) ، ومن الاحسن تسميته (بالطور الوهرانى) مثلما اقترحه الاب براى (l'Abbé Breuil)

ويمتاز هذا الطور بكثرة الصفائح والصفيحات والشفرات ذات حد وكل ، اى فيها قفا وقع اسقاط حده ، وتكون احيانا فى شكل هلال مستطيل • وبالجملة فان هذا الطور هو عبارة عن مجموعة صفائح متشابهة ، حفيرة ، خشنة ، بعيدة كل البعد عن جمال «المجوهرات» والتحف التى نجدها فى الصناعة القفصية ، وهى ايضا خالية من الادوات ذات الاشكال الهندسية من شبه منحرفة ومثلثة ومستطيلة والتى هى من مميزات الطور القفصى • وان الطور الوهرانى ياتى بعد الطور العتيرى المتقدم ، ويسبق العصر النيوليتى ، اى يمكن جعله فى آخر العصر الباليوليتى (الباليوليتى الاعلى) •

ونجد بالقطر التونسى مناجم اثرية تتعلق بالطور الوهرانى او الايبيريو ـ موريسان بالتلول الرملية بوشتاتة على السواحل الشمالية ، وكذلك بالطبقة السطحية بوادى العكاريت قرب قابس وبسيدى منصور ولالة قرب قفصة •

* * *

ورغبة فى ايقاظ همم ابنائنا المعلمين بالجمهورية التونسيةالفتية، وفى همز نشاطهم وحثهم على العمل نقول لهم ان زميلهم (بالارى) قد نال شهرة كبيرة بابحاثه العلمية واكتشافاته التاريخية • فكثر عدد المعجبين به خصوصا من افراد اسرة التعليم واقاموا على شرفه الاحتفالات وشربوا على نخبه فى الاجتماعات ، ولما احرز على جائزة

المجمع العلمي القوا الخطب المسهبة والقصائد الرنانة لتمجيده ، نذكر من ذلك هذه الابيات باللغة الفرنسية طبعا :

« ...Quand tous y prétendaient, un seul a réussi,
Continuant l'effort, à parfaire la tâche :
Paul Pallary, sois fier ! Du lien qui nous attache
A toi, noble chercheur, nous sommes fiers aussi !

Les triomphes des fils sont doux au cœur des mères,
Et l'Ecole du peuple est en fête aujourd'hui :
Le rayon glorieux qui sur ton front a lui,
Vaut un frisson d'orgueil à nous tous, les PRIMAIRES ! »

٤ ـ **الدكتور غوبير** (Dr Gobert) الطبيب والمؤرخ الشهير والبحاثة بتونس ، قام بتفتيشات على غاية من الاهمية بجهة قفصة بالجنوب التونسي وهو الذي اكتشف **الطور القفصي** بمرحلتيه :

ـ **مرحلة القفصي المثالي** (Tyqique) او القديم (Ancien) ويمتاز على الاخص بوجود المنقش الزاوي الراس le burin وهو منقش برد راسه في شكل زاوية زوجية ، وكذلك بوجود الادوات ذات الاشكال الهندسية (شبه المنحرف) وتقابل هذه المرحلة العصر الميزوليتي تقريبا

ـ **مرحلة القفصي الاعلى** (Supérieur) ويمتاز بوجود مناقش صغيرة جدا (Microburiens) وادوات دقيقة ذات اشكال هندسية (شبه المنحرف اولا ، ثم المثلث المختلف الاضلاع ، ثم المستطيل) وهو ما يدل على تقدم كبير في الصناعة . وتقابل هذه المرحلة آخر العصر الميزوليتي واوائل العصر النيوليتي .

وقد انحصرت المناجم التابعة للطور القفصي بالقطر التونسي جنوب الظهرية بدون ان تبتعد اكثر من ١٥٠ كم . عن قفصة من الجهتين الشمالية والشرقية

* * *

وان المراكز والمناجم التي وقع نبشها وفحصها حتى كشفت لنا القناع عن المدنية القفصية تسمى **بالرماديات** او (الحلزونيات Escargotières) والسبب في هذه التسمية هو كثرة اصداف الحلزون ووفرة الرماد المتراكم بتلك المناجم المنتشرة ما بين تبسة وقفصة ،

ومنها اخذنا اسماء بعض هذه الاماكن مثل (عين ببوش) قــرب عين الدراهم و (رمادة) بالجنوب التونسي

ويرى بعض المؤرخين والباحثين مثل (ريغاس) ان اصل مدنية فرنسا بل اوروبة باسرها في طور من اطوار العصر الباليوتي هناك وهو (الطور الاورينياكي) ... يقول **ان اصل هذه المدنية نشا عن قدوم موجات من رجال المدنية القفصية الى اوروبة** ، وذلك لان آثار هــذه المدنية الموجودة بالمناجم بالمراكز القفصية سبقت في التاريــخ نفس تلك الاثار الموجودة باوروبة والتي هي من نوع ما وقع العنور عليــه بمدينة (اورينياك) بفرنسا ولذلك لقبوا ذلــك الطــور (بالطــور الاورينياكي) عندهم وهو يقابل (الطور القفصي) عندنا . ومن هذا نفهم ان (الطور القفصي) بافريقية هو من نوع (الطورالاورينياكي) باوروبة . وبما ان المدنية القفصية متقدمة وسابقة بالنسبة للمدنية الاوربية فيما يتعلق بذلك الطور ، فان هذا يقيم الدليل على ان هذه المدنية القفصية انتقلت الى اوروبة مع من نزح اليها من بلادنا .

ويؤيد الاب براى (L'Abbé Breuil) نظرية ريغاس ويقول : « **من المحتمل جدا ان هذا التاثير الافريقي وصل الينا بــقدوم الافريقيين عن طريق اسبانيا وان وجود شبه في الخصائص البشريــة لما يدعم النظرية القائلة بوجود هذه التقدمة الافريقية** »

ونقــرا ما يلي في الجزء الاول مــن (المختصــر الكبير بــ لاروس ص ١٥٩)

« Quel qu'ait été le développement de son intelligence, l'homme de Néanderthal n'apparaît plus à la fin du moustérien que comme une forme attardée de l'humanité ; une invasion d'hommes nuoveaux venant d'Afrique, par l'Italie et par l'Espagne, répandra une mentalité différente, provoquant la naissance de l'art.

On peut se demander quel attrait pouvait bien attirer les tribus, qui abandonnaient les contrées à climat tempéré de l'Afrique pour chercher aventure en des régions transformées en steppes par le glaciaire.

C'est le mystérieux inconnu des migrations des peuples ».

(Grand Mémento Larousse - Tome I - p. 159)

« وهذا ترجمة النص : مهما بلغ نمــو الرجل النيندرتالي (اى الاوروبي) فهو لم يعد يظهر في آخر الطور الموستاري الا في شكل انسان متاخر، وان هجوم رجال جدد، قادمين من افريقية، عن طريق ايطاليا

واسبانيا ، هو الذى سيبث عقلية مغايرة ، تنبنى عليهـا وتنجـر عنها نشاة الفن ٠

ويمكن ان نتساءل ما هى الامور الجذابة التى اغرت هؤلاء القبائل وجعلتهم يهجرون اقطارا ذات طقس معتدل بافريقيـة ، لاقتحـام مغامرات وسط جهات صيرها زمن الجليد بورا ٠٠٠

ذلك هو لعمرى السر الخفى حول هجرات الشعوب ،

فان جميع هؤلاء المفكرين قد انبتوا بالادلة القطعية والابحاث العلمية المدققة ان تيار الحضارة والفن كان منبعثـا مـن افريقيـة الشمالية ومتجها نحو اوروبة ، وان نزوح الافريقيين وهجرتهم الى الاقطار الاوروبية هو الذى نشا عنه مولد الفن ٠

وان الادلة التى استند عليها المؤرخـون لتدعيم نظريتهـم كثـيرة نذكر منها على سبيل المثال مسالة دفن الموتى ، فانه ابتداء من الطور (الاورينياكى) تغيرت العادة المتعلقـة بدفن الموتـى عنـد بعض الاوروبيين ، وذلك باقتباس عادة قدماء الليبييـن المعروفة عنـد سكان شمال افريقيه ، فهمكانوا ، عندما يدفنون موتاهم ، يتنون اعضاءهم لتكون لهم هيئة مقرفصة محنية ، ويصبغون جثثهم باللون الاحمر ، فتبقى عظامهم بعد ذلك مصبوغة بذلك اللون ٠ وقد وقـع العثور على مثل هذه الهياكل العظيمة ، فى تلك الهيئة وبذلك اللون فى قبور كثيرة بفرنسا ، ولم تكن تلك العادة معروفة عندهم بتاتا قبل قدوم الافريقيين ٠٠٠ أو ربما كانت تلك الهياكل العظيمة لموتى افريقيين وقع دفنهم باوروبة حسب عاددتهم المالوفة لديهم ٠٠٠

وكان الليبيون او البربر اجناسا من البشر كثيرة واحيانـا غيـر متسابهة ٠ فهناك فرق مثلا بين (القبائلى) الذى هـو مصفـح او مستطيل الراس ، كبير القامة اشقر الشعر ، وبيـن (الميـزابى) الذى هو اصعل او مفلطح الراس ، صغير القامة ، اسود العينيـن والشعر ، وبين (الطارقى) من ملسمى الحجار الذى هو طويل القامة طويل الذراعين ، ضيق القفص الصدرى ٠

وهذه الفروق فى الخصائص البشرية ، وهذا الاختلاف فى السحنة ولون الشعر والعيون وشكل الجمجمة وحتى اللهجات احيانا كما سنبينه فيما بعد يرجع بدون شك الى اختلاف فى اصل البربر ٠ ففد ذهب معظم الباحثين الى ان البربر ينتسبون الى سلالتين : الاولى هى سلالة هندية اوروبية يافثية (منسوبة الى يافث بن نـوح عليه السـلام)

نزحت الى افريقيا من الهند وآسيا واوروبة عن طريق اسبانيا او ربما كانت تابعة لزحف (شعوب البحر) الهندية الاوروبية التي اشارت اليها الوثائق المصرية القديمة من عهد الفراعنة الرمسيسيين ، اما السلالة الثانية فهي سلالة عربية سامية (منسوبة الى سام بن نوح)

واللغة الليبية او البربرية (الشلحة والقبائلية والشاوية) لم يزل يتكلم بها جانب كبير من البربر لا سيما في المغرب الاقصى (في بلاد السوس الصحراء وفي الريف) وكذلك في جبال زواوة وعند القبائل بالجزائر . اما في القطر التونسي فلم يبق لها اثر الا في جزيرة جربة او بعض جهات مطماطة .

وقد ذكر لنا (ابن خلدون) ان اللغة البربرية فيها رطانة وعجمة وشيء من الصعوبة والتعقد ، وقد كان الرومان ينفرون من تعلمها لما كانوا يجدون فيها من خشونة مستهجنة وذلك مما دعاهم الى تسمية اصحابها (بالبربر) . وكانوا يقولون انه « يتعذر على غير حناجر البربر ان تستطيع النطق باسماء قبائلهم ومدنهم . »

وقد كان اللوبيون يستعملون للكتابة حروفا تعرف بالخط اللوبي مثلما وجد منقوشا على الصخور ببعض جهات الصحراء ، ومثلما وجد منقوشا على احدى الحجرتين اللتين كانتا بضريح ماسينيسا بدقة واخذهما قنصل انكلترا سنة ١٨٤٢ ونقلهما الى متحف لندن British Museum وهما موجودتان فيه الى الان تحت العددين ٤٩٤ (الخط اللوبي) و٤٩٥ (الخط البونيقي)

وهذا الخط مستعمل عند الطوارق الملثمين ويسمى عندهم (تافيناغ)

وجملة من يتكلمون الان باللغة البربرية يبلغ عددهم ستة او سبعة ملايين او يزيدون مبعثرين وموزعين في جماعات مختلفة تتفاوت اهمية وكثرة .

فاما بالمملكة الليبية فنسبة المتكلمين باللغة البربرية تبلغ ٢٧ في المائة من مجموع سكان تلك المملكة ،

واما بالجمهورية التونسية فنسبتهم اقل من ٢ في المائة من مجموع السكان ، ونجدهم كما ذكرناه بجزيرة جربة وبعض قرى واماكن بالجنوب التونسي ،

ـ واما بالجزائر فنسبتهم تبلغ ٣٠ في المائة من مجموع السكان . ومنهم (القبائل) وقد تاثروا كثيرا باللغة العربية فدخل جانب كبير من الفاظها في لهجتهم . وكذلك سكان جبال اوراس ... وفي اماكن اخرى مبعثرة كجنوب تلمسان

ـ واما بالمغرب الاقصى فاللغة البربرية حافظت على كيانها ولهجتها الاصلية وتبلغ نسبة المتكلمين بها خمسة واربعين فى المائة (٤٥ ٪) من جملة السكان وتجدهم على الاخص فى الريف وجبال الاطلس والسوس وفى الصحراء بصفة عامة •

ويمكن تقسيم اللهجات البربرية الى ثلاثة اقسام اصلية واساسية:

ـ **اللهجة الزناتية** (ليبيا ـ تونس ـ الجزائر ما عدى لغة القبائل)
ـ **اللهجة المصمودية** (شلح المغرب بجبال الاطلس ـ وبلاد السوس)
ـ **اللهجة الصنهاجية** (القبائل بالجزائر ـ الطوارق بالصحراء)

غير انه لا يجوز ان نفهم مما ذكرناه الا شيئا واحدا ، وهو وجود فرق فى اللهجات يتعلق باللغة لا اكثر ولا اقل ••• ومن الغلط الكبير ان يتبادر الى الذهن ، او ان نتوهم ولو لحظة واحدة ، كما يقع ذلك غالبا ، ان الانقسام الى متكلمين بالعربية ومتكلمين بالبربرية ، قد نشا عن انقسام عنصرى الى عرب من جهة ، وبربر من جهة اخرى • فهذا الظن خطا محض ولا يتفق مع الحقيقة والواقع اذ ان المسالة فى الحقيقة ليست سوى استمرار اللهجات البربرية فى الجهات الجبلية لمناعتها وصعوبة الوصول اليها من طرف الفاتحين ، واضمحلال هذه اللهجات البربرية فى الجهات الاخرى لتحل محلها لغة جديدة اكثر مطابقة وملاءمة للحاجيات الاجتماعية •

اما العنصر فقد بقى واستمر عنصرا واحدا فى طبائعه وخصائصه ومميزاته وخصاله وعاداته ، وهذا من شانه ان يسهل الوحدة السياسية والتكتل والاندماج لتكوين شعب واحد ، لولا الافراط فى حب الاستقلال الشخصى والحرية الفردية ، وهذا داخل ضمن وحدة الطبائع والمميزات•

واننا اذا استثنينا بعض الامراء مثل ماسنيسا ويوغرطة (قبل الميلاد) وبلكين بن زيرى الصنهاجى وعبد المؤمن بن على الكومى الموحدى وغيرهم ممن بذلوا مجهودات كبيرة ونشاطا عظيما لتكوين شعب موحد ••• لراينا ان الذى يميز القبائل البربرية من العهد القديم هو الافراط فى حب الاستقلال الشخصى والحرية الفردية ، الشىء الذى يؤدى الى الانانية والانقسام والتشتت والفوضى ، وعدم وجود فكرة الانضمام والوحدة والتكتل ، وكان ذلك من اهم الاسباب فى ضعفهم وفى استيلاء الاجانب عليهم بكيفية مستمرة ومتتابعة •

وقد بدات تظهر للوجود فكرة الوحدة وتكوين كتلة مغربية .

او فيديرالية تعرف باسم المغرب العربى الكبير ، وذلك اخيرا بعد استقلال تونس والمغرب وفى انتظار استقلال شقيقتنا الجزائر ، وبهذا التكتل يمكن ان نحقق للمغرب العربى الكبير مستقبلا زاهرا من الناحية السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية اذ بذلك فقط يمكن لنا ان نكون من الضعف قوة ·

ولا يتم هذا الا اذا قاومنا جميعا ذلك الطبع المتغلغل فينا منذ اقدم الازمان وتلك النزعة المشؤومة التى تدفعنا بدون ان نشعر الى الانقسام وعدم التكتل

يقول الاستاذ عثمان الكعاك فى ذلك : « ··· خطوة الوحدة المغربية لا بد منها لانها هى الظاهرة السياسية المغربية طال الزمان ام قصر واحب من احب وكره من كره »

خلاصة ما تقدم

كانت بلادنا التونسية تعرف باسم ليبيا (وكانت غير منفصلة عن ليبيا الموجودة الان بل كانتا بلادا واحدة) وكان اجدادنا يطلق عليهم اسم الليبيين · وكانوا يتكلمون اللغة الليبية وهى تشبه لهجة القبائل بالجزائر وهى اللهجة التى نسمعها فى الاذاعة باللغة القبائلية من باريس

– دخول اللوبيين التراب المصرى (القرن ١٣ ق·م)

من العصر النيوليتى اى عصر الحجر المصقول ، الذى انتهى باستقرار الاصناف والاجناس البشرية الموجودة الان الى دخول الرومان واستيلائهم على بلادنا نرى ان التاريخ لم يتحدث عن اجدادنا اللوبيين الا عرضا كلما اتصلوا بشعوب اخرى ···

وقد انبت لنا التاريخ ان اللوبيين قد حاولوا مرات عديدة الاستيلاء على مصر وقاموا بهجومات متكررة

– وهكذا نرى ان (رمسيس الثانى : من ١٢٩٨ الى ١٢٣٢ ق·م بعد ما رد احدى غزواتهم ، ادخلهم فى جنده وحشدهم فى جيشه تحت قيادة الضباط المصريين وحارب بهم الهاتوسيين من سكان آسيا الصغرى الذين ارادوا التوسع بالاستيلاء على المملكة الفنيقية التى كانت تحت نفوذ مصر · فالتقى بجيشهم الذى كان يقوده ملكهم

(مواطل) وذلك قرب مدينة (حلب) وانتصر عليهم وهلك عدد كثير من الهاتوسيين فى مياه نهر العاصى

ب - ثم بعد موت (رمسيس الثانى) خلفه ابنه (منوفتاح) (من ١٢٣٢ الى ١٢٢٤) وفى ايامه اعاد اللوبيون الكرة وهجموا على (الدلتا) سنة ١٢٢٠ ق٠م٠ وعلى راسهم ملكهم (مورايو) ومعة جيوش جرارة من اللوبيين والمشاوشة الذين كانوا قاطنين جنوب شط الجريد ٠ والتقى الفريقان ودارت رحى الحرب مدة ستة ايام فكانت مجزرة شنيعة هلك فيها ما يزيد على ٢٣٠٠ ليبيا واسر ما يقرب من عشرة آلاف ضمهم الفرعون المصرى الى جيوشه ٠ وهكذا ابتعد الخطر موقتا ، غير انه سيعود مرة اخرى فيما بعد ٠

- ثم تولى (رمسيس الثالث : ١٢٠٠ - ١١٦٨ ق٠م) وتوالت هجومات اللوبيين فى عهده على (الدلتا) وكان رمسيس الثالث ينتصر عليهم فى كل مرة ويأسر منهم خلقا كثيرا يضمهم ايضا الى جيوشه تحت قيادة الضباط المصريين ٠ ومن كان يظن او يتوقع ان من بين هؤلاء الاسرى سيظهر امراء من مدينتى (بوبسطيس) و (سايس) ويتقلدون الملك ويحكمون البلاد المصرية بكل عز وفخر ؟

وكان هناك خطر آخر يداهم البلاد المصرية من الشمال وهذا الخطر الرهيب لايتمثل فى هجوم شعب بانفراده ولكن فى زحف مهول قادم من اوروبة ومصطدم بالعالم الشرقى ٠

وهذه الجموع والشعوب الكثيرة الاوروبية الهندية كانت تحالفت بقصد الغزو والتوسع والانتشار ، وانضم اليهم جم غفير من لصوص البحر والقراصنة ، وعدد كبير من اللوبيين ايضا وهذه الشعوب الزاحفة هى التى سماها المصريون (بشعوب البحر) ٠ فهجموا على الهاتوسيين وعلى بقية اراضى آسيا الصغرى ثم على جزيرة قبرص ثم على المملكة الفنيقية وكانوا يتلفون ويخربون كل شىء فى طريقهم الى ان اصطدموا اخيرا بالقوات المصرية وعلى راسها رمسيس الثالث فدمرهم تدميرا وكان من بين هؤلاء الهاجمين اقوام (الزكاريين) (الفلسطينيين) فاستقروا بسواحل (فلسطين) واستوطنوا تلك الجهة فصارت تعرف باسم (فلسطين) ٠

ونال رمسيس الثالث بهذا الانتصار فخرا عظيما ٠ وصارت مصر

ارض سلم وراحة وهدوء . واجتنابا لغارات اللوبيين المتكررةوسعيا وراء مصالحتهم نهائيا اقامهم بالدلتا وهي اكثر الجهات المصرية خصبا وغنى ، فاستوطنوها وصاروا يسخرون من مراقبة اعوان الحكومة الفرعونية ولا يقيمون لها وزنا .

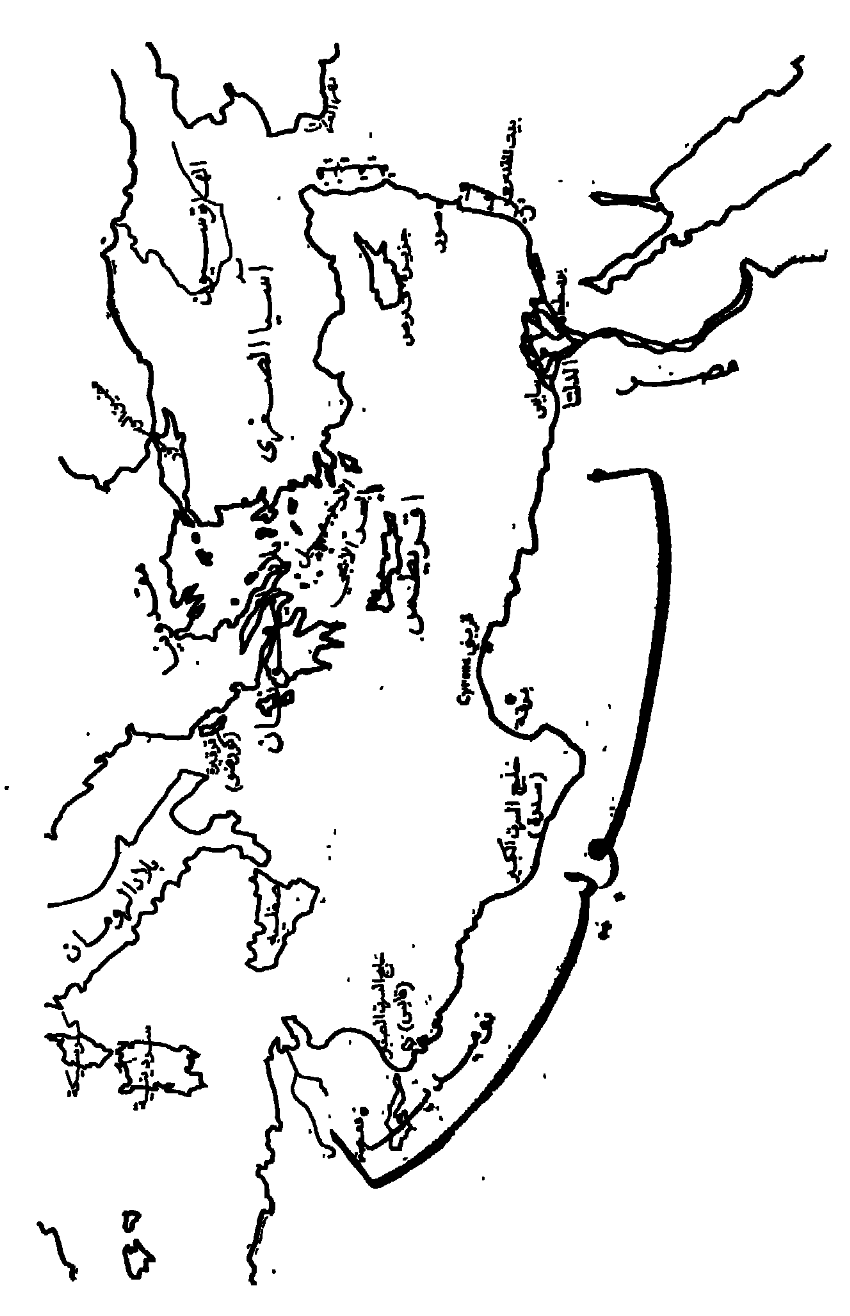
- وبعد ذلك وقع انتهاز فرصة وجود الفوضى التى اعقبت اضمحلال الفراعنة الرمسيسيين فبسط احد القواد اللوبيين الماجورين نفوذه على جهة (هيرقلو بوليس) بمصر الوسطى وفرض سلطته على المصريين ، وكان هذا القائد مقيما بمدينة (بوبسطيس) بالدلتا (وهى مدينة الزقازيق الان) ، ونشات هكذا عائلة مالكة توصلت شيئا فشيئا الى اخضاع كامل التراب المصرى ، ثم ان السابع من ذرية هذا القائد وهو الامير (شيشوق الاول) زاد واستولى على (الدلتا) ووزع الاراضى على اللوبيين واسس العائلة المالكة الثانية والعشرين فكانت عاصمة ملكه ومقر حكومته (بوبسطيس) التى تقدم ذكرها . ثم انه اعاد لفائدته الوحدة المصرية ، وزيادة على ذلك فقد ضمن لنفسه طاعة سكان (برية الاسقيط) التى تعرف الان (بصعيد مصر) وكانت قاعدتها (ثيبة) وتعرف اليوم بمدينة (الاقصر) بل كانت هذه المدينة عاصمة الملك فى الماضى ومدينة الاله الكبير (امون) وكان بها معبد ذلك الاله ... قلنا ضمن شيشوق لنفسه طاعة تلك الجهة كلها وذلك باسناد خطة الكاهن الاعظم بمعبد الاله امون الى ابنه وبالاقتران بالعابدة اللاهوتية (كارومانة) وهى عابدة امون وحافظة تقاليد وحقوق الخلافةالملكية. واستمر شيشوق فى الملك قويا مظفرا منصورا من سنة ٩٤٥ الى سنة ٩٤٢ ق. م.

ولم يكتف شيشوق بانتصاراته فى مصر بل اعلن الحرب على (ربهام ابن سيدنا سليمان) لاثبات حقوقه على فلسطين وانتصر عليه واستولى على بيت المقدس (سنة ٩٢٧ ق . م .) ولم ينصرف الا بعدما استحوذ على كنوز المسجد واموال الملك وخزينة الدولة واخذ كل تلك الثروة الطائلة معه ...

ثم ان (شيشوق الاول) حاول الهجوم على الفنيقيين غير انه لم يكن موفقا ورجع خائبا .

لوحة ٥

انظر الصفحة رقم ٥٠ من هذا الكتاب



خريطة جزيرة اقريطش والبحر الايجى والشعوب القديمة

لوحة ٦

انظر الصفحة رقم ٤٧ و ٧٩ من هذا الكتاب

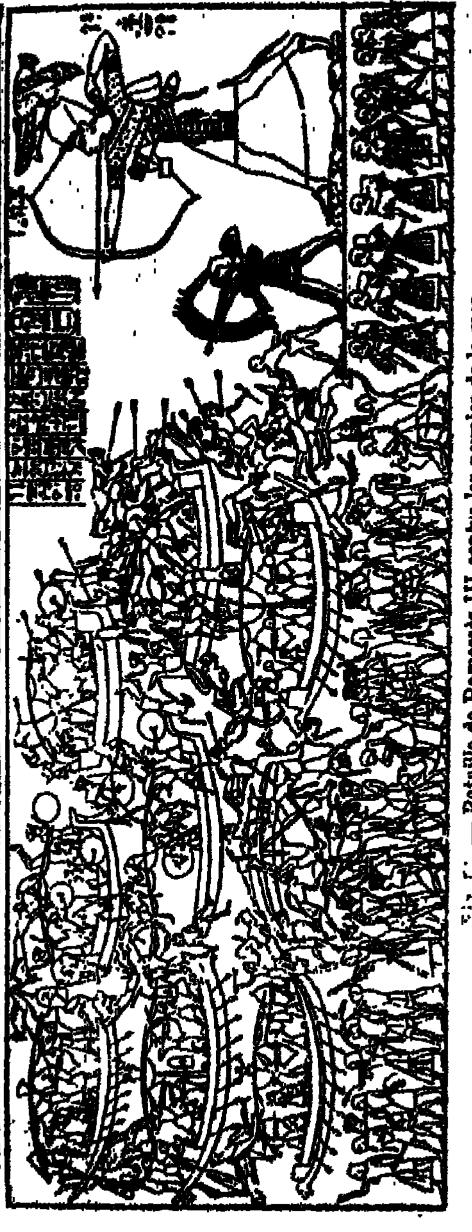


Fig. [illegible] — Bataille de Ramsès III contre les peuples de la mer.

محاربة رمسيس الثالث لشعوب البحر الزاحفين

(D'après J. Rosellini, Monumenti Storici 131)

لوحة ٧

انظر الصفحة رقم ٤٨ من هذا الكتاب

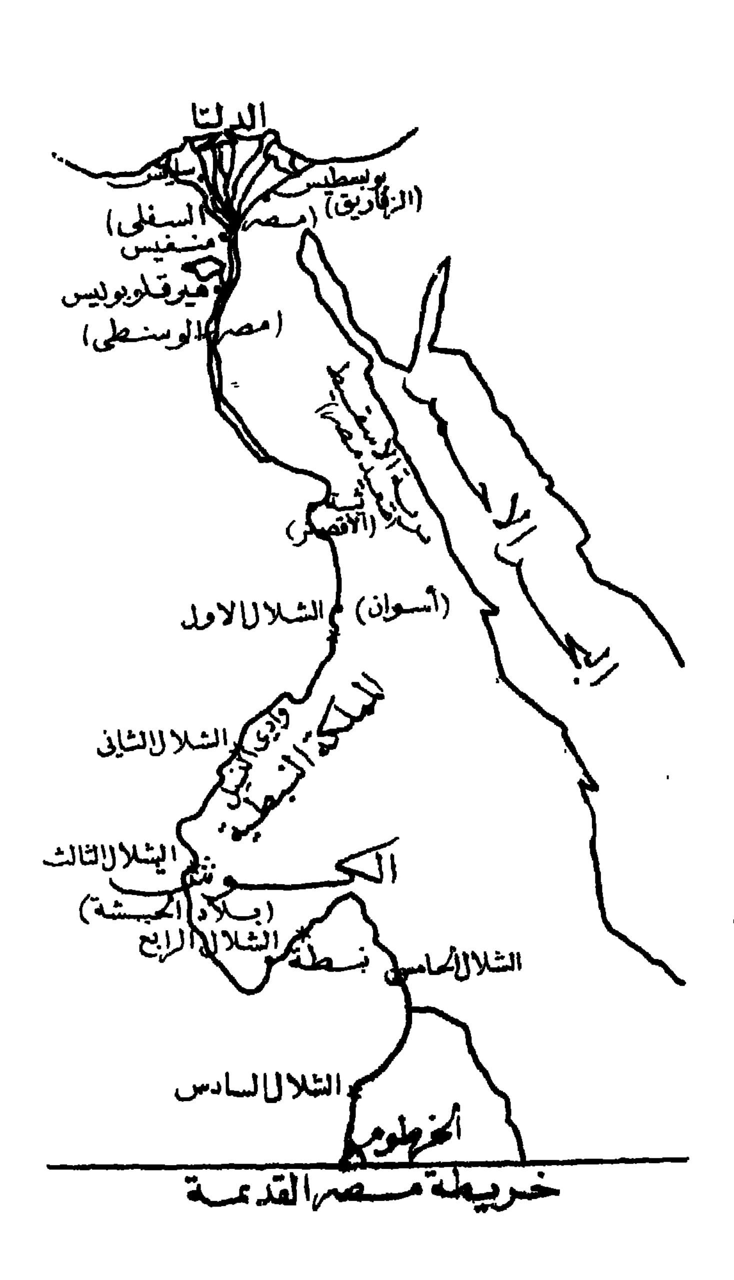




العابدة اللاهوتية (كارومانة)

لوحة ٨

انظر الصفحة رقم ٤٨/٤٩ من هذا الكتاب



خريطة مصر القديمة

وكذلك (المملكه النبطية) التى كانت تمتد فى آخر القرن الثامن (١) من اول شلالات النيل الستة ، اى من (اسوان) الى بلاد الحبشة فانه لم يؤسسها الا اللوبيون ، وهم ملوك مدينة (سايس) بالدلتا ، فرضوا سلطنهم بارض (كوش) او ارض الحبشة بالجهة الجنوبيه كما فرضها اخوانهم اللوبيون الشماليون باراضى الدلتا او مصر السفلى . وهكذا اسس ملوك مدينة (سايس) اللوبيون العائلة المالكة الخامسة والعشرين والسادسه والعشرين والثامنة والعشرين والثلاثين وصارت مدينة (سايس) فى مدة هؤلاء الملوك اللوبيين منبع حضارة لامعة ومدنية زاهرة ونهضه فى الفنون المصرية صارت نعرف الى يومنا هذا (بالنهضة السايسية (Renaissance Saïssienne)

فانظر كيف ان اجدادنا اللوبيين فى عهد الفراعنه سبقوا ملوك المهدية الفاطميين فى بسط نفوذهم على مصر وفى تخليد ذكرهم فى التاريخ بالمحامد والمفاخر !

خلاصة ما تقدم

فى عهد الفراعنه الرمسيسيين (رمسيس الثانى ورمسيس الثالث) هاجم اللوبيون الاراضى المصريه مرات كبيرة . ثم استولوا على الدلتا واسسوا الدولة المالكة الثانية والعشرين واشهر ملوكها (**شيشوق الاول**) ـ كما اسس اللوبيون ايضا (المملكة النبطية) التى كانت تمتد بجنوب مصر من (اسوان) الى اراضى الحبشة .

ـ احتكاكهم بالمدنية المصرية

وكان هؤلاء اللوبيون منقادين كل الانقياد لتوجيهات الاله المصرى (امون) وتعليمات كهنته ولم تسجل الاخبار مثل طاعة هؤلاء الاجانب المقيمين بالتراب المصرى لاله مصر ـ وان الاشعاع المنبعث من هذه العائلة المالكه والذى كان الليبيون الغربيون همزة وصل لايصاله الى بلاد البربر هو الذى يفسر لنا انتشار عبادة الاله (امون) بالمغرب وحلوله محل الاكباش التى كانت مقدسة بافريقية وبمصر ايضا .

(١) فى سنة ٧٣٧ ق . م . (اواخر القرن الثامن) اسس الملك الليبى شاباكو العائلة المالكه الخامسة والعشرين .

ولم يتاثروا بالجانب الدينى فقط بل تاثروا بكل المدنية المصرية وعلى الاخص بالفلاحة والصناعة المصرية ، واستفادت بلادنا المغربية من كل ذلك ايما استفادة ٠

وكان هذا التاثير مشتركا ومتبادلا بمعنى اننا اخذنا واعطينا ٠ ونفهم ذلك مما اثبته شيخ المؤرخين (هيرودوتس) مثلا من كون الالاهة (نايت) وهي الاهة النسج عند المصريين وكذلك الالاهة (اتينة) وهى الاهة الحرب التى تقابلها (مينرفا) عند اليونانيين٠٠ يقول (هيرودوتس) انهما كانتا من اصل ليبى ٠٠٠ ويقول (رونى باسى René Basset) فى كتابه (النحو القبـائلى) بان الكلمـة اللوبية (نيل) تدل على النهر او مجرى الماء ، وهو الاسم الذى وقع إطلاقه على النهر المشهور بالبلاد المصرية ٠٠٠

الاتصالات بالاقريطيين والفنيقيين واليونانيين - آثار ذلك الاتصـال

من الامور الثابتة ايضا فى التاريخ اتصال الليبيين بعالم الحوض الايجى وهو عبارة عن جزر كثيرة يتكون منهـا الارخبيـل بالبحـر الابيض او البحر الايجى واهم هذه الجزر جزيرة اقريطس (اوجزيرة الكريت) التى كانت بها فيما قبل العصور التاريخية مدنية زاهرة وحضارة فاخرة ٠ ومن الاخبار المتناقلة ان كورويبوس الاقـريطى كانت دفعته الزوابع مرةعلى السواحلالليبية ،فرجع اليهابعد ذلكمن تلقاء نفسه وباختياره بصفة ربان سفينة وتكونت بواسطته صلـة بين الليبيين والاقريطيين ٠٠٠

ومن جهة اخرى فان اساطيل الملوك المينوسيين ، اى ملوكجزيرة اقريطس ، وسفنهم كانت تاتى بلادنا الليبيةلتتزودمن نباتالسلفيون او نبات كف العروس وكانوا يزرعونه ويهتمون بشانه لخصائصه الطبية ٠ فهذا النبات الذى هو من نوع النباتات الخيمية يخرج مادة صمغية قوية الرائحة تسمى (الحلتيت) ، كانت تستعمل فى القديم للتداوى ، وهى مازلت مستعملة عندنا الى الان لطـرد الريح عنـد الصغار ونسميها (الحنتيت) ٠ وان جزيرة (كورفـو) Corfou اليونانية (انظروا الخريطة) كانت تسمى فى القديم جزيرة(قرقيرة) Corcyre Kerkyra وهـى جزيرة (الصقيرة) وطـن الفياسيين Phéaciens كما اورده هو ميروس فى ملحمته الاوديسيا المشهورة ولا يبعد ان يكون هؤلاء الفياسيون هم الذين اسسوا مدينة الصخيرة قرب مدينة قابس (لاحظوا الشبه الموجد بين الاسمين : الصقيرة

والصخيرة) وان سكان الصخيرة كانوا يعرفون فى القديم باسم قبائل (زواقة) مثلما ذكره المؤرخ الكبير هيرودتس (٥٠٠ سنة :٠ م٠) ويقول ايضا المؤرخ (ستيفان قسال) ان قبائل زوافة Zanèkes كانت تحتل جانبا من الساحل الشرقى بالقطر التونسى ٠ وهنا نلاحظ ايضا الشبه الموجود بين (الفياسيين او الفواقيين على اختلاف النطق) من جهة (والزواقيين او قبائل زواقة) من جهة اخرى ، خصوصا اذا عرفنا ان كثيرا ما يقع ابدال الفاء زايا ٠٠٠ وسيحدثنا (البكرى) فيما بعد سنة ١٠٦٠ عن وجود قبائل (زواغة) البربرية ويقول انها كانت مقيمة بين خليج قابس وبلاد الجرايد ، وقد اشار المؤرخ (ابن خلدون) الى ذلك ايضا٠٠

ومن هذا يمكن لنا ان نقول بان قبائل زواقة التى اشار اليها هيرودوتس هم الفياسيون الذين اتى ذكرهم فى الاوديسيا قدموا الينا من جزيرتهم (الصقيرة) واسسوا (الصخيرة) ، وصار يطلق عليهم اسم قبائل زواغة ٠٠٠

ومما لاشك فيه ان مدنية جزيرة (قرقيرة) اى مدنية الفياسيين من اصل اقريطى وذلك للصلة المتينة التى كانت موجودة بين الجزيرتين٠٠٠ حتى ان جماعة من سكان جزيرة قرقيرة تعرفوا باخى (مينوس) ملك جزيرة اقريطس وهو الامير (رادا منطيس) فاستصحبوه معهم الى جزيرة البقر على السواحل افريقية الشمالية٠ وقد اورد هذا الحديث المؤرخ الالمانى (برشار) Borchardt معلقا بان هذه الجزيرة، التى ورد ذكرها فى الاوديسيا ايضا ، لا يبعد ان تكون جزيرة (طبرقة) لوفرة وجود الجواميس الوحشية فى السباخ والغياض بمصب الوادى الكبير المتالف من وادى سالم ووادى المحطب والذى ينصب فى خليج طبرقة ، ومن جهة اخرى فان تلك الناحية التونسية الشمالية كانت آهلة بالاقريطيين واليونانيين

ومما يؤيد نظرية المؤرخ الالمانى المذكور فى تعمير البلاد التونسية بالاقريطيين واليونانيين اكتشاف صورة يونانية مرسومة فى احدى القبور المحفورة فى الصخور بغابة مقنة شرقى طبرقة وهذه القبور التى هى فى شكل كهوف تعرف عند سكان تلك الجهة باسم الحوانيت ومفردها حانوت ، والصورة التى وقع العثور عليها تمثل سفينة حربية لها صار فى الوسط وشراع بشكل شبه

المنحرف ، ويظهر من مرآى تلك السفينة ومن هيئة ركابها ومن العدد والاسلحة ، وعلى الاخص من الفاس ذى الحدين او السنة (bipenne Crétoise) ••• يظهر جليا من كل ذلك وجود اتصالات ومعاملات بين التونسيين والاقريطيين ، وبصفة عامة سكان الحوض الايجى قبل مجىء الفنيقيين •

ومن المحقق ايضا ان توسع الامبراطورية البحرية الاقريطية انجر عنه تاسيس مراكز تجارية على السواحل الافريقية ، فانبعثت منها المدنية المينوسية •••

اما تاثير الفنيقيين فقد اخذ يظهر ابتداء من القرن الثانى عشر قبل المسيح ، وبلغ اهمية عظيمة بتاسيس قوطاج فيما بعد ، تلك العاصمة البونيقية التى هيمنت على تاريخ المغرب مدة ما يقرب من الف سنة كما سنراه فى مكانه •

واما فيما يتعلق باليونانيين (الاغريق) فقد وقعت ايضا اتصالات كثيرة بينهم وبين الليبيين ، فهم الذين اسسوا مدينة (برقة) ومدينة (قرينى) بليبيا فى آخر القرن السادس عشر واخذوا عن الليبيين عوائدهم فى الدفن والماتم ، واقتبسوا منهم شعائرهم واديانهم ، وتزوجوا بنسائهم ••• ولكنهم اصطدموا بقرطاج ، فصدتهم عن محاولتهم فى الامتداد والتوسع ومنعتهم (مثلما منعت رومة ايضا) من كل اتجار مباشر مع الاهالى ، ولذلك فان الليبيين لم يتوصلوا الى معرفة الهندسة والصناعة والشعائر اليونانية الا بواسطة الفنيقيين ولم يتمكنوا من الاتجار الحر المباشر مع اليونان الا بعد سقوط قرطاج

وان التاريخ يعيد نفسه ، وذلك لاننا فى وقتنا الحاضر ايضا لم نتمكن من ربط العلاقات التجارية مباشرة مع الدول الاجنبية الا بعد تحررنا من الاستعمار الفرنسى وحصولنا على الاستقلال •

غير ان اتصال بلادنا التونسية مباشرة باليونانيين والاقريطيين كان موجودا حتى قبل الاستيلاء الفنيقى ، ويؤيد ذلك وجود الاثار والصور التى ذكرناها والتى تفيد وجود الاقريطيين واليونانيين بجهات طبرقة ••• وزيادة على ذلك فان الاخبار التى اوردها قدماء المؤرخين الاغريقيين مثل هيرودوتس وغيره تشير الى مثل هذه الاتصالات المتوالية ••••

ومن المفيد انتهاز هذه المناسبة للتحدث عن جزيرة عجيبة دخلت في صف الخرافات والاساطير وهذه الجزيرة هي (الاطلنطس) l'Atlantide التي ورد ذكرها في كتاب (قريطياس) لافلاطون الحكيم (من ٤٢٨ الى ٣٤٧ ق٠ م٠)ونحن نشكر كل الشكر البحاثة (صولينيـاك) M. Solignac الذى نشر دراسة قيمة حول هذا الموضوع بالمجلـة التونسية سنة ١٩٣١ وعنوانها (الاطلنطس والجنوب التونسي) فكانت هذه الدراسة المفيدة منهلا صافيا عذبـا سمحنـا لانفسنـا بالاغتراف منه ، فمن ذلك المنهل استقينا وروينا ، وعن ذلك المصدر نقلنا وروينا ٠

يقول افلاطون ، نقلا عن استاذه سقراط ، نقـلا عـن تلميـذه قريطياس ، عن جده ، عن صولون ، كاهن مدينة سايس بالبـلاد المصرية انه كانت توجد جزيرة تدعى (الاطلنطس) كائنة وراء اعمدة هيرقليس ، وكان فيها معبد للالاهة اثينة تريتونيس ، وان هذه الجزيرة قد انهارت وساخت بها الارض اثر انقلاب عظيم (زلزال او فياضانات او طوفان) ، فاضمحلت بين عشيـة وضحاهـا (وذلك ٩٠٠٠ سنة ق٠ م٠ تقريبا)

هذا هو ما ذكره افلاطون ٠ ويذهب البعض من العلماء الى ان هذه الجزيرة خيالية ، وهي مجرد صورة رمزية ، واسطورة من اساطير الاولين ، ويقول آخرون انها اسطورة لا محالة ولكن لها بدون شك نقطة انطلاق مرتكزة على حادث صحيح مطابق للحقيقـة والواقـع وليست مبنية على الفراغ خصوصا وان الادلة التى تثبت وجود هذه الجزيرة ، وتؤيد شهرتها في العالم القديم موجودة بكثرة في الاوديسيا وفي تاريخ هيرودوتس، وفي رحلة سيلاكس،وفي مؤلفات ديودورس الصقلي ، وغيرهم ، زيادة عما ذكره افلاطون في كتاب قريطياس ٠٠٠ وهذه الجزيرة هي التى كان يسميها العرب (مدينة النحاس)٠وهذا التواتر بل هذا الاجماع يفيد الثبوت والصحة ٠٠٠ ولكن اين كانت هذه الجزيرة ؟

لقد قام الاستاذ (بورشارد) الالماني من مدينة مونيخ M. Paul Borchardt بدراسة مدققة للموضوع ، وتعمـق في البحث والاستقصاء ، واقامة الحجج والادلـة مـع كامـل التحريـات والتدقيقات ، وانتهى في آخـر الامـر الى النتيجـة التاليـة ، وهي ان البلاد التونسية كانت عامرة وآهلة بالاقريطيين واليونانيين

وان جزيرة الاطلنطس كانت موجودة قرب وذرف بجهة مدينة قابس وهي كانت معروفة لدى علماء الجغرافية في القديم ، وكان بها معبد اثينة تريتونيس ، وكان موقعها بمصب نهر تريتونيس ، اى بشط الجريد الان عندما كان متصلا بالبحر ، وان اعمدة هيرقليس التى اشار اليها افلاطون لا تدل على مضيق جبل طارق كما هو معروف ومشهور ، ولكن تدل بصفة عامة على كل مكان نلقى فيه عصا التسيار ، وينتهى فيه المطاف ، وهذا ينطبق على خليج السرت الصغير اى خليج قابس ٠

ولم يكتف (بورشارد) بالدراسة النظرية المرتكزة على المطالعة والمقارنة والبحث النظرى وهو فى مكتبه ، بل قدم الى القطر التونسي وتوجه الى عين المكان فى شهر فيفرى ١٩٢٨ ، فازداد يقينا على يقين ، وسطر خريطة تبين بالتدقيق موقع هذه الجزيرة العجيبة الكائنة حسب قوله على الوادى المالح الذى ينصب فى خليج السرت الصغير اى خليج قابس بعدما يجتاز سبخة الهمامة ويدور حول واحة وذرف (انظروا الخريطة)

وليست النظرية التى ذهب اليها هذا العالم الالمانى بمستبعدة ، اذ فيما يتعلق بالمطابقة بين نهر تريتونيس وشط الجريد فهو محل اتفاق بين العلماء والمؤرخين ، ذكره هيرودوتس فى تاريخه ، وسيلاكس فى رحلته ، وبطليموس ، واخذ عنهم ستيفان قسال وغيره وكلهم يشيرون الى وجود الاطلنطس بتلك الجهة ، فيقول هيرودتس (تلك الجهة يسكنها الاطلنط) ، ويقول بطليموس (يسكنها الطالى) كما نجد ايضا اشارة الى ذلك فى كتاب بوبيل لليهود ، فهو يسمى نهر تريتونيس (بحر اطالة) ، وهذه كلها الفاظ متشابهة تفيد شيئا واحدا ، وتدل على شىء واحد ، الا وهو (جزيرة الاطلنطس) التى وصفها افلاطون ٠

ومن جهة اخرى فقد قام ايضا الدكتور هرمان Dr Albert Herrman الاستاذ فى كلية برلين بابحاث طويلة ، ودرس ، وقارن ، واستقصى بدوره ، ثم قدم وحقق على عين المكان ايضا سنة ١٩٣٠ ، وانتهى الى النتيجة التالية ، وهى ان البلاد التونسية كانت عامرة بالاقريطيين واليونانيين (وهو نفس ما وصل اليه الاستاذ بورشارد) وان جزيرة الاطلنطس او مدينة النحاس كانت موجودة على ضفاف شط الجريد ــ هذا وان دراسة هرمان كانت ادق واعمق وامتن من دراسة

زميله لانه ارتكز فيها اكثر منه على الادلة المستمدة من الواقع الجغرافى والجيولوجى ٠

ورسم لنا هرمان خرائط كثيرة تغنى عن كثرة الشروح والتعاليق وتبين بوضوح تطور الجغرافية التاريخية بالنسبة للجنوب التونسى وذلك ما بين القرن الثالث عشر قبل المسيح والقرن الثانى عشر بعده

١ ـ **بين القرن الثالث عشر والثانى عشر ق ٠ م ٠** (انظروا الخريطة) ٠

كان شط الجريد متصلا بالبحر وكانت له جميع خصائص الخليج البحرى ٠ وكانت تلك المدة عصر الازدهار والخيرات والاسعار فى البحر والاستثمار الفلاحى ، اذ كانت تلك الجهة مشهورة بخصب تربتها ، وكثرة واحاتها ، وتدفق مياهها الغزيرة ، فكانت جنة على وجه الارض ، وكان سكان تلك الجهة يتمتعون بسمعة طيبة وحظوة كبيرة فى الخارج ، وكانوا يوحون بعظمتهم الى خيال الشعراء ومؤلفى القصص كثيرا من الموضوعات الغريبة من نوع الاساطير ٠ ٠ ٠ وكانوا اهل حرب وشوكة يخشى جانبهم ومن قبائلهم المنساوش او المشاوشة بجنوب شط الجريد ، وهم الذين هجموا على الدلتا بالتراب المصرى كما ذكرناه فى مكانه ٠

اما فيما يتعلق باعمدة هيرقليس فان الاستاذ هرمان يرى مثل زميله بورشارد انها كانت بمنفذ البحر الاطلنطيقى اى بجهة الواحة الموجودة الان بالوادى المالح قرب وذرف ، فهو يجعلها حينئذ بخليج السرت الصغير او خليج قابس ٠

٢ ـ **بين القرن السادس والرابع ق ٠ م ٠** (انظروا الخريطة) ٠

ترك لنا المؤرخ الكبير هيرودوتس وصفا واضحا يتعلق بتوزيع القبائل وبيان اماكنها فى ذلك الوقت ، ولكنها قبائل اضمحلت الان او تغيرت اسماؤها ٠٠٠ فيذكر هيرودوتس مثلا قبائل المكسوس بجهة توزر ونفطة ، والمشاوش والاوسوس بالشرق وبالجنوب الشرقى من شط الجريد ٠

والى ذلك العهد يرجع اضمحلال مدينة (ترشيش) الشهيرة بمدنيتها وعظمتها ، والتى كانت موجودة على ضفاف (البحر الاطلنطيقى) Atlanticum Mare ، وهو الاسم الذى كان يطلق ايضا فى ذلك الوقت على شط الجريد ٠ وهذه المدينة كانت زاخرة بخيراتها ، وكان يؤمها عدد كبير من البحارة والتجار ، ويقصدها

المسافرون من اليونانيين والفنيقيين واليهود ، وكانت تصنع وتصدر معدنا شبيها بالنحاس الاصفر ، ومن هناك نشأت تسمية هذه المدينة العجيبة (بمدينة النحاس) من طرف علماء الجغرافية العرب ٠

ومن سنة ٥٥٠٠ ق٠م٠ بدا مرسى ترشيش يرتـدم بالطيـن والوحل ، واخذ نجمها فى الافول ، وشهرتها التجارية فى السقوط لفائدة قرطاج ٠

٣ ــ **بين القرن الاول والثالث بعد المسيح** (انظروا الخريطة) ٠

كان الرومان فى عصر توسعهم الاستعمارى يسمون شط الجريد منقع تريتونيس Tritonis Palus وكان المرور منه غير ممكن بين الجريد ونفزاوة ، فكان الطريق الذى يسلك للذهاب من قابس Tacape الى نفطة Nepte وتوزر Thusuros يدور بشط الجريد من الجنوب والغرب ٠

٤ ــ **بين القرن الثامن والثانى عشر بعد المسيح** (انظروا الخريطة)

كان العرب يسمون الجريد (بلاد قسطيلية) ومدنها المشهـورة توزر ونفطة والحامة الخ ٠٠٠ كما هو موجود الان ٠ ومنذ ذلك الحين كان الطريق بين الجريد ونفزاوة ثم قابس طريقـا سهـلا ومعينـا بالانصاب والعلامات ٠ وكان العرب يذكرون وجود صحراء او بادية مدينة النحاس فى رمال « العرق » جنوب السبخـة (اى شاطىء الجريد) ٠

تلك كلها نظريات وافتراضات لها قيمتها العلميـة بـدون شك ولها فائدتها العظيمة لانها تفتح امامنا آفاقا جديدة ، غيـر انـه من اللازم تدعيمها بمحاولة اكتشاف بعض الاثار والبقايـا والرسوم ، لتصبير من الحقائق التاريخية الثابتة ، فنخرجها من دائرة الاسطورة وندخلها فى دائرة التاريخ ٠

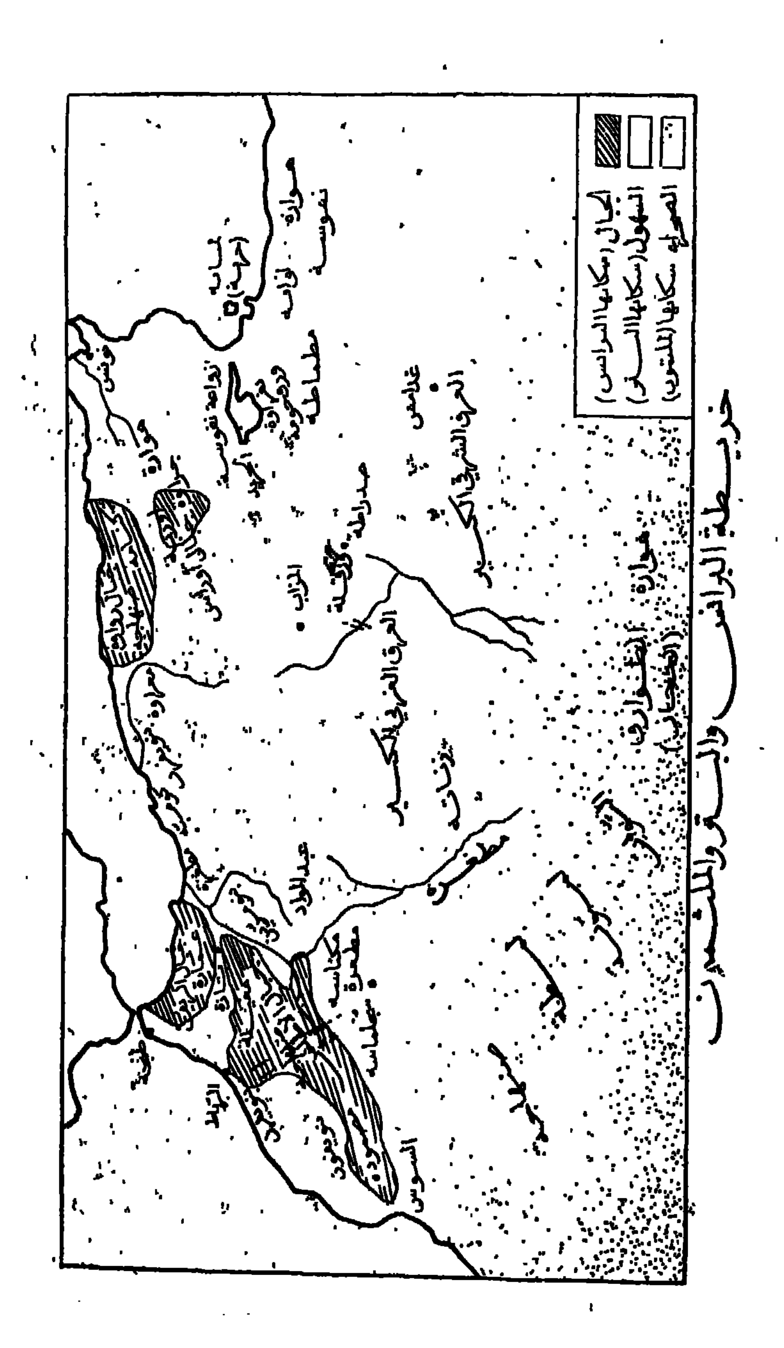
وكيف لا يتكون فى نفوسنا الحماس والاندفاع للبحث والتنقيب بكد وعزيمة ، عندما نرى الاجانب يكدون ويعملون اكثر مما نكـد ونعمل ، ويقدمون الى بلادنا من اقصى الجهات للبحث عن تاريخنا ، ولاحياء ماضينا ، ولاظهار مجدنا ٠٠٠ ونحن عن كل ذلك غافلون !

خلاصـــة ما تقدم

احتكاك الليبيين بالمدنية والحضارة المصريـة القديمـة واتصالهم بالاقريطيين والفنيقيين واليونانييـن وهـم ايضا اصحاب حضارة لامعة ، كل ذلك كان له احسن الاثر فى تكوين المدنية الليبية

لوحة ٩

انظر الصفحة رقم ٣٤٠ من هذا الكتاب



لوحة ١٠

انظر الصفحة رقم ٣٩ من هذا الكتاب

4 ـ الطور الحنشي (اشباه كرات ذات وجوه)

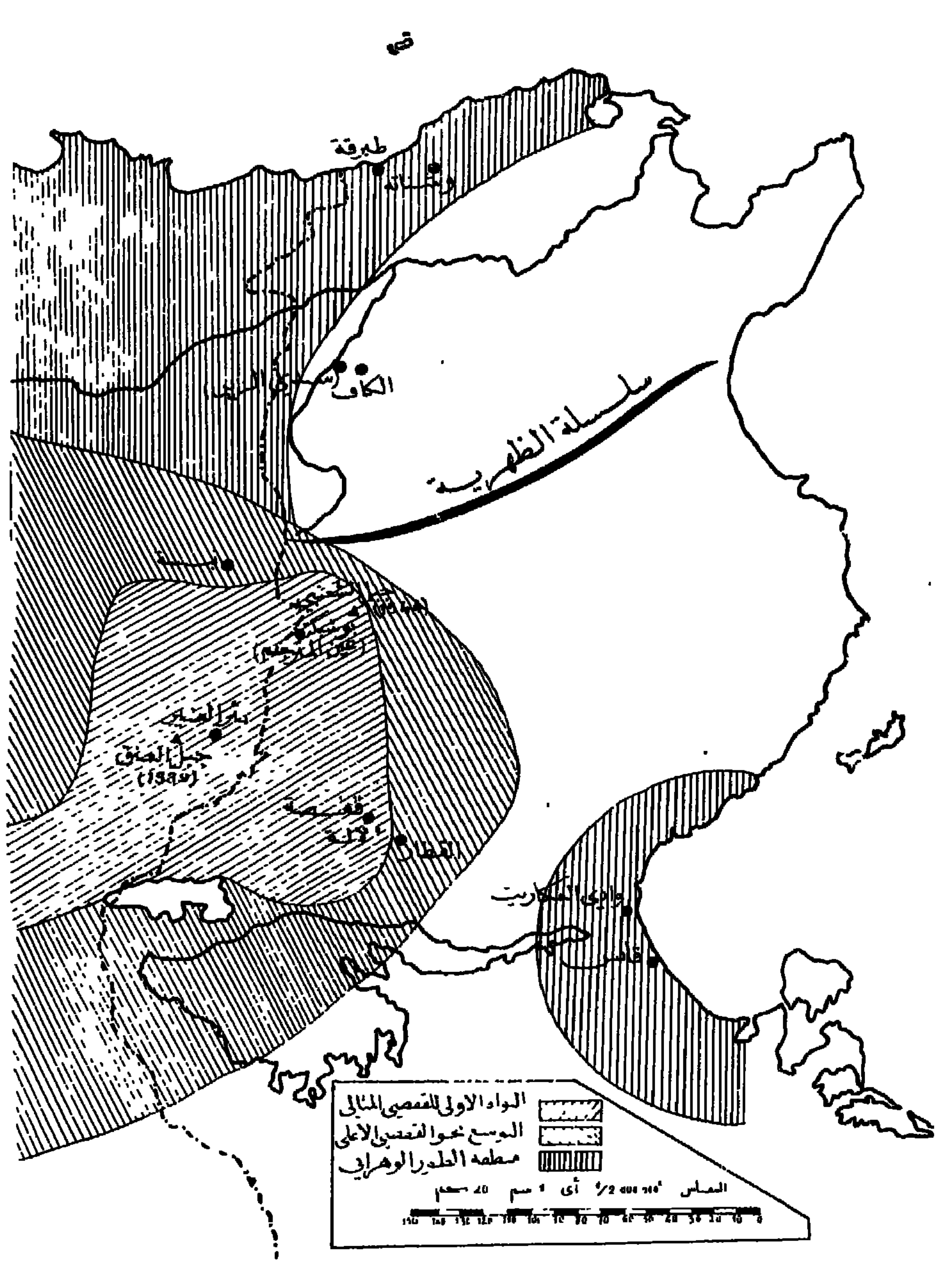
الطور الحنشي (أحجار ذات وجهين)

1 ـ منجم عين الحنش (الطور الحنشي)

لوحة ١١
انظر الصفحة رقم ٣٩ من هذا الكتاب



لوحة ١٢
انظر الصفحة رقم ٤١ من هذا الكتاب



خريطة الطور القفصى والطور الوهرانى

المدنية الليبيــة

المقصود من (المدنيه الليبية) هو ، قبل كل سيء ، جملـة مـن التقاليد ، والعادات ، والطبائع ، والنظم ، نحدها ثابته فى جميــع اوقات التاريخ ، سواء صافته نقيه خالصة ، او مزيفــه ومسوهــه ، وذلك بقطع النظر عن صروف الدهر وتقلبات الاحوال • وهى المظاهر المستمره لعقلية ثابته تجاه المشاكل الدينيه او السياسية •

وهذا الدوام والاستمرار هو الذى جعل المدنيات المتتابعة الاتية من الخارج ، بالنسبة للبربر ، شبه الاثواب والاكسيــة المختلفــة التى يلبسونها مع بقاء اجسامهم ونفوسهم وارواحهم تحتها هي هي بعينها ••

وفى ذلك يقول المؤرخ القدير الاستاذ عثمان الكعــاك : « لهــذا الشعب البربرى خصائصه الجنسية ••• كما له عادات خاصة بــه عائلية وقروية وموسمية ودينية ، وله لغته البربرية المتميزة بذاتها المعروفة من قديم ••• وله عقائده القديمة الوثنية ، وقد تتبع اديان الشعوب التى غزت بلاده ، لكنه استبقى فى العقائد الجديدة كثيرا من عقائده واوهامه القومية القديمة ، ولم يقنع بذلك حتى ميز نفسه بمذهب جديد اعتنقه ليكون متميزا عن الشعــب الفاتــح المكتســح ومحافظا على خصائص قوميته باى شكل من الاشكال • »

فلقد اجمع المؤرخون على ان عادات اللوبيين (اى البربــر) لــم تتغير كثيرا طيلة القرون الماضية ، وهذا يمكننا من مقارنات كثيرة وعظيمة الفائدة بين الحاضر والماضى مع مراعاة ما تتطلبه تلك المقارنات من حذر وفطنة •

ومن امثله هذه المقارنات ما اكتشفه المؤرخ (غوتيا) من الشبــه الغريب بين موقف الكاهنة فى الماضى وموقف احد القواد من بنى زيان بالمغرب منذ عهد قريب اثناء الاستعمار الفرنسى للبلاد المغربية فان كلاهما امر اولاده بالانضمام الى العدو ، الى العــرب بالنسبــة للكاهنه ، والى الفرنسيين بالنسبة للقائد الزيانى ، وربما يضىء لنا هذا التشابه ناحيه من العقليه القبلية • وقد اتبع العلامة الشهير (ستفان قسال) نفس هذه الطريقة واستخدم المقارنــات فتوصــل بذلك الى اكتشافات كثيرة وعلى غاية من الاهمية •

وكثيرا من عادات البربر فى الاكل والشرب واللباس والمواسم مازالت موجودة عند بعض سكان الجمهورية التونسية الى الان • فان

النسوة البربريات كن يزغردن ويولولن ، وكن يوشمن ويتخضبن ، وقد ذكر ذلك هيرودوتس ، وقد كان زار بلادنا ودرس عادات البربر فى ذلك الوقت اى فى سنة ٤٥٥ ق٠م٠ ٠٠٠ ونحن ما زلنا نرى اليوم مثل تلك العادات البربرية القديمة على الاخص عند البدويات

الصيد وتربية المواشى

قلنا ان عادات البربر لم تتغير الا قليلا مدة القرون الفائتة ٠

فانهم كانوا يشتغلون بصيد الحيوانات الضارية ، للدفاع عن انفسهم وعن حياتهم فى البداية ، ثم اقتناصها حية لبيعها والاكتساب منها عندما صارت تستعمل فى المسارح ٠

وحتى بعدما عرفوا الفلاحة والزراعة فانهم بقوا مهتمين قبل كل شىء بتربيةالحيوانات من بقر وخيل واغنام ومعيز اى بتربية المواشى ، فمنهم من يقيم ويستقر فى مساكن ثابتة وسط اماكن مامونة ، ومنهم من يرتاد الكلا وينتقل من المراعى الشتائية بالسهول الى المراعى الصيفية بالجبال ، ومنهم القبائل الرحل الذين يعيشون عيشة البداوة وسط السباسب الى ان يضطرهم الجفاف الى الذهاب الى المراعى الجبلية التلية ٠ اما الفلاحة فهى ، كما سنراه فى مكانه ، لم تتقدم تقدما محسوسا الا فى القرن الثانى قبل المسيح بفضل المجهودات التى بذلها الملك الكبير (ماسنيسا) ٠ وان قلة اهتمام الليبيين بالفلاحة فى ذلك العهد البعيد يرجع الى سببين :

اولا : تربية المواشى وتسريح الحيوانات فى المراعى كان فيه اقل كلفة ومشقة وعناء ومجهودات من خدمة الارض وتعاطى الفلاحة

ثانيا : لكن المسالة لم تكن فقط مسالة كسل وميل الى الراحة النسبية ، بل السبب الاصلى فى ذلك هو صعوبة جعل الصابة فى مامن من السرقات ومن الغارات والنهب ٠ فالخوف من اللصوص ومن ضياع ثمرة مجهودات طويلة فى اقل من لمح البصر لمجرد غارة فجائية ٠٠٠ ذلك الخوف وعدم الاطمئنان هو الذى جعل الليبيين — ما عدى المستقرين منهم — لا يميلون كثيرا الى خدمة الارض ، ولا يقبلون على الفلاحة ٠

وان هذه القبائل من الرعاة كانت محافظة على الملكية المشتركة للاراضى او (الاراضى العروش) ، ومن غير شك كان النظام الزراعى نظاما اشتراكيا يمكن اعتباره من نوع الشيوعية الزراعية ، وهو اما عبارة عن قسمة منتوجات العمل المشترك على الجماعة او قسمة الارض

على العائلات ، ولا نعلم ما هى الظروف التى تكونت فيها الملكية الخاصة التى عاينا وجودها فى عهد الملوك الليبيين ٠

خلاصـة ما تقدم

- كان اجدادنا اللوبيون يشتغلون بصيد الحيوانات الضارية، للدفاع عن انفسهم فى بداية الامر ، ثم لبيعها عندما صارت تستعمل فى المسارح
- ثم بعد ذلك اخذوا يشتغلون بتربية المواشى ٠
- اما اهتمامهم بالفلاحة فكان ضعيفا ، ماعدى عند المستقرين من سكان المدن والقرى

الرحل والمستقرون ـ المسكن

ان حياة السكنى فى الكهوف لم تضمحل بانتهاء عصور ما قبل التاريخ بل بقيت فى بعض الجهات الى يومنا هذا (جهة مطماطة مثلا) غير ان المغاور والكهوف الثابتة والمستقرة لا تناسب الرعاة واصحاب المواشى الذين هم دائما فى حاجة الى التنقل بقطعانهم سعيا وراء الكلا والمرعى ولذلك كان هؤلاء الرعاة يسكنون اكواخا متنقلة (الماقاليا) وهى عبارة عن بيوت خفيفة من الاحصرة او الخصاص والشجر تحمل على عجلات او تفك وتطوى وتحمل على الدواب ، ولم يقع تعويض ذلك بالخيام (بيوت الشعر) الا بعد الفتح الاسلامى العربى ، ولم تكن الخيام معروفة ببلادنا قبل ذلك التاريخ

ومن بقايا (الماقاليا) ذلك النوع من الاكواخ الموجود بالجنوب التونسى والمعروف عندنا باسم (الكيب) او (الخص) ٠

ومن جهة اخرى فاننا مازلنا نستعمل ببعض جهات الساحل (بالمهدية مثلا) كلمة (نوالة) للدلالة على كوخ مبنى بالحجارة وسقفه من اغصان الاشجار والقش ويخصص فى الغالب للطبخ حسب الاساليب العتيقة ، وهذه الكلمة كانت تدل فى القديم على الخص او الكوخ الصغير ـ ونذكر ايضا بانه يوجد مكان يعرف بدار بونوالة يبعد ١٢ كم ٠ عن عين الدراهم ٠

وهذه الكلمة (نوالة) بربرية الاصل وكذلك (ماقاليا) ٠

فهل هما من اصل واحد ؟ ام هل تطورت الكلمة (ماقاليا) الى (ماواليا) ثم (ناواليا) الى ان صارت (نوالة) وهى المستعملة الى الان بالمهدية ؟ ليس هذا بمستبعد ٠

وهذه الكلمة (نوالة) متداولة وكثيرة الاستعمال فى اللغة المغربية والاسبانية القديمة مما يدل على وجود هذا النوع من البيوت بالمغرب ايضا وهى فى الغالب اكواخ مستديرة لها سقف مخروط الشكل ·

ويقول المؤرخ الرومانى سالسطيوس (١) مبينا منشا النوميديين ومنشا هذه الاكواخ الموجودة بافريقية الشمالية والمعروفة باسم « ماقاليا) .

« بعد موت البطل اليونانى هيرقليس باسبانية انتشرت فلول جيشه بافريقية ، وهو جيش يتركب من الماديين(Médes) والارمن (Arméniens) من جهة ، ومن الفرس (Perses) من جهة اخرى · فاما الماديون والارمن فقد اختلطوا باللوبيين على ضفاف البحر المتوسط ، ثم حرفوا شيئا فشيئا كلمة موديين الى **موريين** (Maures)

واما الفرس فقد زادوا اقترابا من المحيط ، واختلطوا بالجيتوليين (les Gétules) وهم سكان الجنوب ، ولذلك اشار المؤرخون الى وجود قبائل فى تلك الجهة يعرفون بالفاروزيين ((Pharusii)) والفرسيين ((Perorsi)) ·

وبما ان تلك الجهات كانت خالية من مواد الخشب ، فان هؤلاء الفرس **اتخذوا الاكواخ من سفنهم التى قلبوها على الارض(٢)** وحافظوا على ذلك الشكل من البيوت حتى فيما بعد ، لما لقبوا بالنوميديين((Numides)) اى المترحلين ، لما كانوا عليه من كثرة التنقل والترحال.

ويحدثنا بومبونيوس ميلاد (٣) على الساحل القرينى بليبيا (Côte de Cyrénaïque) وعن سكانه ··· ثم يقول :

١) سالسطيوس Salluste : Caius Sallustius
مؤرخ لاطينى ولد سنة ٨٧ ومات سنة٣٥ ق · م · وكان على راس ولاية افريقية الرومانية من سنة ٤٧ الى سنة ٤٥وجمعثروة طائلة مكنته من العيش بروما عيشةفاخرة ومن تاليفه الشهورة : حرب يوغرطة،وكتاب التاريخ فى خمسة اجزاء ·

٢) Alveos navium invorsos protuguriis habuere

٣) بومبونيوسPomponius Melaاحد الجغرافيين اللاطينيين من اسرة الفيلسوف سينيكا (Seneca) ونشا مثله باسبانية فى القرن الاول للميلاد والف كتابه (التوروغرافيا (Chorographia) وهو اقدم تصنيف جغرافى ·

« وعند الشعو بالمجاورة لا توجد فى الحقيقة اية مدنية غير انهم يعيشون فى اكواخ تسمى (ما قاليا) وحياتهم خشنة وخالية من كل رقة ، ويلبس كبار القوم اثوابا صفيقة (اى كثيف نسجها) ، ويلبس لفيف الناس جلود الحيوانات الوحشية والاهلية ، وهم ينامون وياكلون على الارض مباشرة وشربهم اللبن وعصير الثمار ، واكلهم اللحم وعلى الاخص لحم الصيد لتوفير مواشيهم، وآنيتهم من الحطب او من القشر . » (قشر الدباء مثلا اى القرع ، او قشر بيض النعام اى قشر التوم)

هذا فيما يتعلق بسكنى القبائل الرحالة والمتنقلة من اهل البدو ، واما المستقرون او اهل القرار فانهم كانوا يسكنون اكواخا مبنية بالحجارة والطين واغصان الاشجار وكانوا يحفظون اموالهم وذخرهم من السلب والنهب بوضعها فى (قصور) او (قلاع) او ابراج محصنة ومشيدة فوق مرتفع من الارض وموضوعة تحت رعاية حراس مسلحين ثم يجعلون بيوتهم ومساكنهم وغرفهم مكدسة من حولها فى شكل قرية .

وهذه الانابير او المطامير المحصنة تسمى باقطار شمال افريقية كما ياتى :

١ ــ **القلعة** بالقطر الجزائرى مثل قلاع جبال اوراس (باللهجة الشاوية : عكليهت)

٢ ــ **القصر** بالجمهورية التونسية مثل قصورمدنين(باللهجةالبربرية تيمدلت)

٣ ــ **اغادير** بالقطر المغربى مثل قلاع جبال الاطلس وهى كلمة بربرية)

وكانوا يدخرون ويخزنون فيها اشياء مختلفة كالقمح والشعير والتمر والتين والزيت والسمن والصوف والثياب والحلى وغير ذلك فالقصر يعتبر بناية عمومية ، وهو ملك للجماعة ولكنه يتالف من غرف كثيرة ، وكل غرفة لها صاحبها يهتم بشانها ويتعهدها بالاصلاح كلما لزم ذلك حتى لا يتسبب بتهاونه فى الحاق الضرر ببقية البيوت

واذا تضرر او تهدم جانب من البناية من جراء حـرب او امطـار او حوادث جوية فان كل فرد مطالب بالمشاركة فى ترميمه • وان مجلس الجماعة هو الذى يبين الحقوق والواجبات والمسؤوليـات بالنسبـة للمكلف بالحراسة وبالنسبة للمستفيدين،وهو الذى يضبط العقوبات والغرامات ضد من يرتكب مخالفة ، ويقرر عقوبات شديدة صارمة ضد من يصدر عنه تهاون خطير او يتعمد جناية السرقة ••• وهذا يقيم الدليل على ان (القصر) ليس بمجرد بناء بـل هـو مؤسسـة اجتماعية لها نظام وقانون ، وهو زيادة على ذلك حصن متواضع يقع الالتجاء اليه فى صورة هجوم او خطر ••

ويمكن مقارنة القرى المرتفعة بالاكربـول Acropole عند الاغريقيين او بقلعة بيرصه او بورصة Byrsa عند القرطاجنيين

خلاصة ما تقدم

كان اللوبيون يسكنون الكهوف (كما هى موجودة اليـوم بمطماطة) او الغرف والقصور (كما هى موجودة بمدنيـن) وكان المستقرون يبنون مساكنهم بالحجارة والطين حول (قلعة) او (قصر) يجعلون فيه متاعهم ويخزنون فيه ذخرهم •

اما المتنقلون بانعامهم والقبائل الرحالة فانهم كانوا يسكنون الاكواخ التى يمكن جرها او فكها ونصبها فى مكان آخر بكل سهولة •

المآكل والملبس والاسلحة

ـ ان البربر كانوا مشهورين من قديم الزمان بقوة ابدانهم وطول اعمارهم • فقد كانوا متخوشنين فى معيشتهم ، غير متكلفيـن فى غذائهم ، متبعين فى اكلهم نظاما اكثره نباتيا • وكـان الفلاحـون ياكلون الكسكس (١) من ذلك العهد ، والمشتغلون بتربية المواشى كانوا لا يذبحون انعامهم بل كانوا يكتفون بالبانها ، وكانوا يحبون اكل الصيد والحلزون والعسل ، ولا يشربون الا الماء الصافى •

---

(١) يسمى (الكسكس) باللهجـةالبربرية الشلحة (سكسو) وهى اصـل كلمة الكسكس

ـ وكانوا يسيرون مكشوفي الرؤوس ، ويحلقون رؤوسهم تاركين ضفيرة (شوشة) (١) في اعلاها ، ويحملون في الغالب لحية ملسنة (اى طرفها دقيق كطرف اللسان)

وبعدما حملوا مجرد خرقة لستر العورة او اتزروا بـالوزرة او الفوطة اتخذوا جلود الحيوانات للوقاية من البرد ، ثم قميصا من الصوف يشبه (الكدرون) الموجود بالساحل يجعلون فوقـه عباءة سوداء تشبه (البرنس)

ـ وكانوا يحبون كثيرا التزين بالحلى نساء ورجـالا • فالرجـال كانوا يحملون الاقراط باذانهم ، والنساء يضعـن الخلاخـل فى ارجلهن ، ويشترك الرجال والنساء فى تحليـة اليديـن بالدمالـج والاساور وتجميل العنق بالاطواق والقلائد •

ـ وكانوا لا يعرفون راحة المسكن ورفاهيـة الحياة المنزلية بـل كانوا يرقدون على الارض او على مسطبة مبنية تسمى (الدكانة) • وليس لهم من الامتعة سوى آنية من الفخار والخزف زينتها الهندسية من اصل ايجى (يونانى اقريطى)

ـ اما اسلحتهم فكانت،فى بداية الامر ولمدةطويلة، الحجارةوالظران وذلك فى عصور ما قبل التاريخ ، ثم صار الدبوس سلاحهم المفضل ثم بعدما استعملوا السيف تركوه واقبلوا عـلى استعمـال آلات الرماية كالقسى والحراب والمزاريق ، يهجمون بها عـلى العـدو ثـم يذبحونه بسكين عريضة ، وكانوا يستعملون للوقاية مـن سلاح العدو درقة من جلد الفيل، لكنها تصير غير صالحة كلما ابتلت بماء الامطـار •

وفيما سجله قدماء المصريين من اخبار غارات اللوبيين المتكـررة وصفهم لاسلحة هؤلاء الهاجمين وما ياخذونه منهم من الاسلاب والغنائم

---

١) الشوشة : يظهر ان هذه الكلمة هى مجرد تحريف للفظة عربية وهى (الكشة) اى الناصية او الخصلة من الشعر فى مقدم الراس • وهذه (الشوشة) كانت موجودة ايضا عند قدماء المصريين فكان الامراء من اسرة الفراعنة يحلقون رؤوسهم وهم غلمان ولا يتركون الا تلك الضفيرة ، وماZال الى الان صغـار الفـلاحين بمصـر يحملـون (الشوشة) ويسمونها بنفس ذلك الاسم

بعد انتهاء المعركة كالسكاكين العريضة من البرنز،والنقود، والذهب والفضة، والقسي ، والحراب ، والمزاريق • ومن هذا نفهم ان اللوبيين كانوا منذ القرن الرابععشر قبل المسيح اصحاب حضارة وارباب صناعة

خلاصـــة ما تقدم

اكلهم : كانوا ياكلون الحلـزون ويسمـى باللغة البربريـة (الببوش) • ولكن اهم طعامهم الكسكس ، ولبن النعاج ،ولحم الصيد ، والعسل ، وكانوا لايريدون ذبح حيواناتهم

لباسهم : كانوا يلبسون ثوبا يشبه (الكدرون) الموجود بالساحل ويجعلون فوقـه عبـاءة سوداء تشبـه (البرنس) وكانوا يحبون كثيرا التزين بالحلى نساء ورجالا

سلاحهم : كانوا يستعملون على الاخص آلات الرماية كالقسى والحراب والمزاريق ، كما يستعملون درقة من جلد الفيل للوقاية من سلاح العدو •

العائلــة الليبيــة

ان كثرة الادوات والاسلحة والعظام واصداف الحلزون المتراكمـة فى اماكن مختلفة تدل دلالة واضحة على ان الليبيين كانت لهم حيـاة اجتماعية منذ اقدم العصور ، وان نواة المجتمع الليبـى هـى العائلـة الملتفة حول الرئيس وهوالاب ذو السلطة المطلقة والنفوذ الواسع •

فالعائلة الليبية كانت فى القديم شبيهة بالعائلة الرومانيـة ذات نظام يعرف (بالنظام الاغناتى) او (النظام البطـركـى) اى نظـام الابوة المرتكز على سلطة الاب الذى هو رب العائلة

فكلمة العائلة لم تكن تدل على الاسرة مثلما نفهمه ونتصوره اليوم اى جملة الاقارب التى تربطهم وتجمعهم صلة الرحم وروابط الدم ، بل كانت العائلة الليبية تدل على العرش والآل والعشيرة ، اى جملة الاشخاص الذين هم من نسل جد واحد ومن سلالة اصـل واحـد ، والذين هم خاضعون كلهم لسلطة رئيس واحد • وكل من ينضم الى العائلة سواء بالزواج والاقتران والمصاهرة او بالتبنى يصير خاضعا لتلك السلطة •

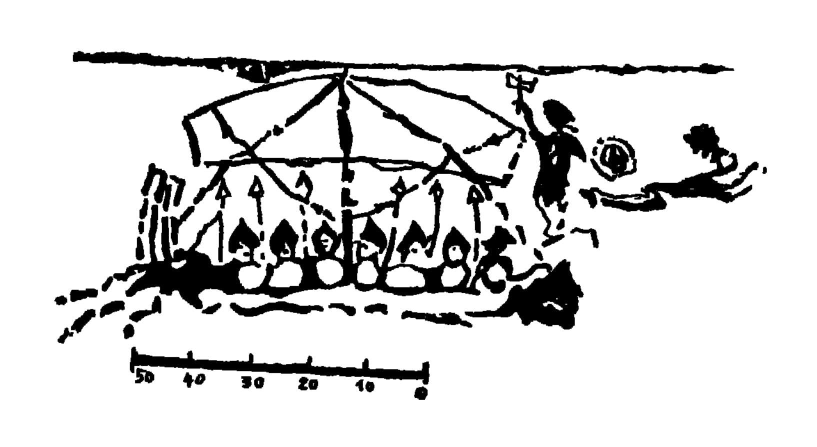
فرب العائلة كان له النفوذ المطلق على جميـع افراد العائلـة عـلى زوجاته مثلا فكان يامرهن بالقيام باحط الاعمال واحقـر الاشغال ، وعلى بناته فكان يشهرهن للبيع العلنى بالمزايده ، وعلى ابنائه فكان

اللوحة ١٣

انظر الصفحة رقم ١٥ من هذا الكتاب



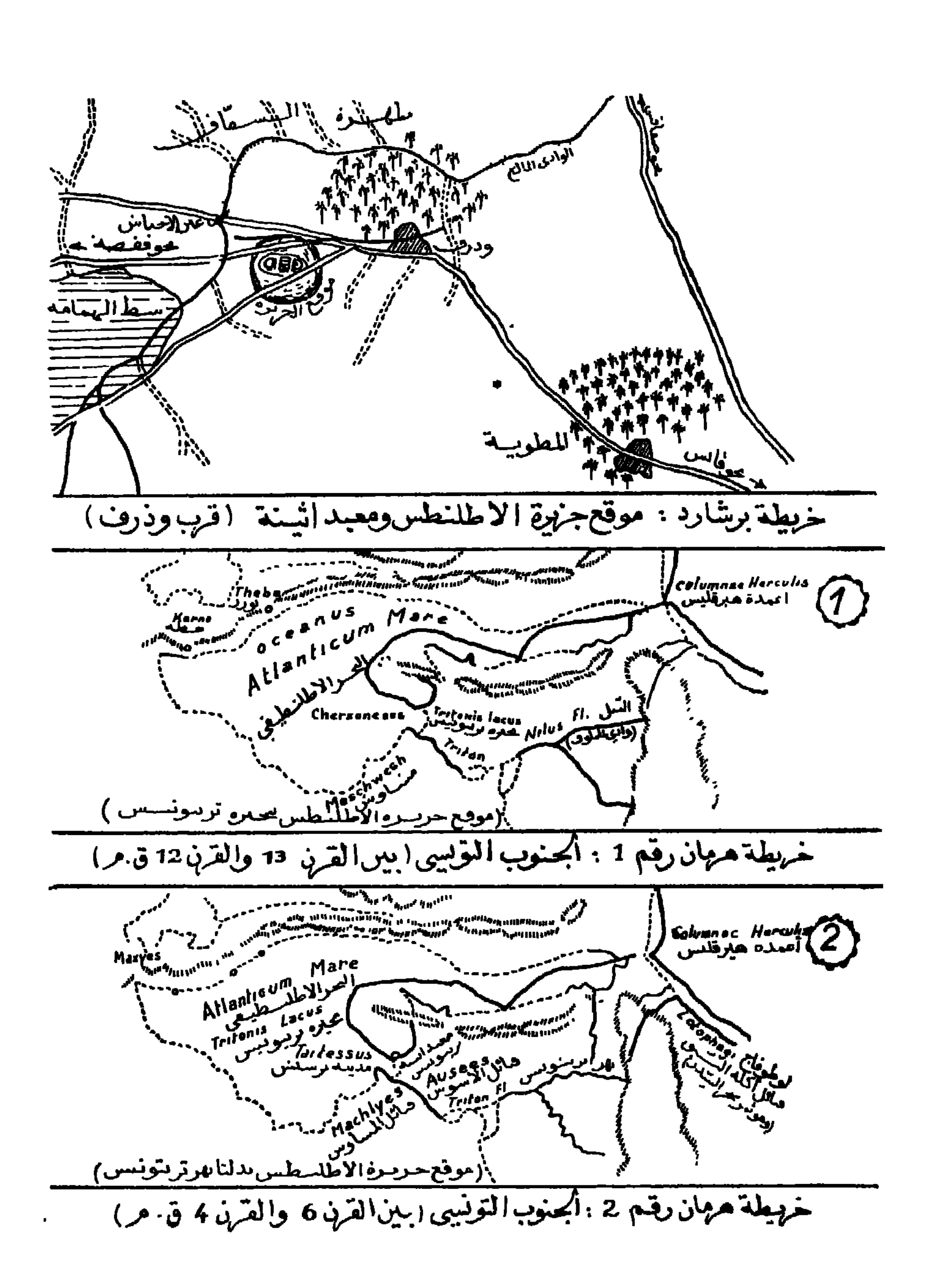
هذه الصورة تمثل (الحوانيت) او اللحود المحفورة فى الصخور
وفى احدها وجد الرسم اسفله الذى يمثل واقعه بحرية



رسم موجود (بحانوت) أي بلحد محفور في الصخور بغابة مقنة Makna
شرقي مدينة طبرقة وهذا الرسم يمثل واقعة حربيه بحرية ، وتظهر
فيه سفينة شراعيه يركبها غزاة افريطيون يقودهم اله يهز في يده اليمنى
رمحاً أي فأساً حربيّة ذات حدّين، ويمسك بيده الاخرى ترساً.

لوحة ١٤

انظر الصفحة رقم ٥٤ / ٥٥ / ٨٢ من هذا الكتاب



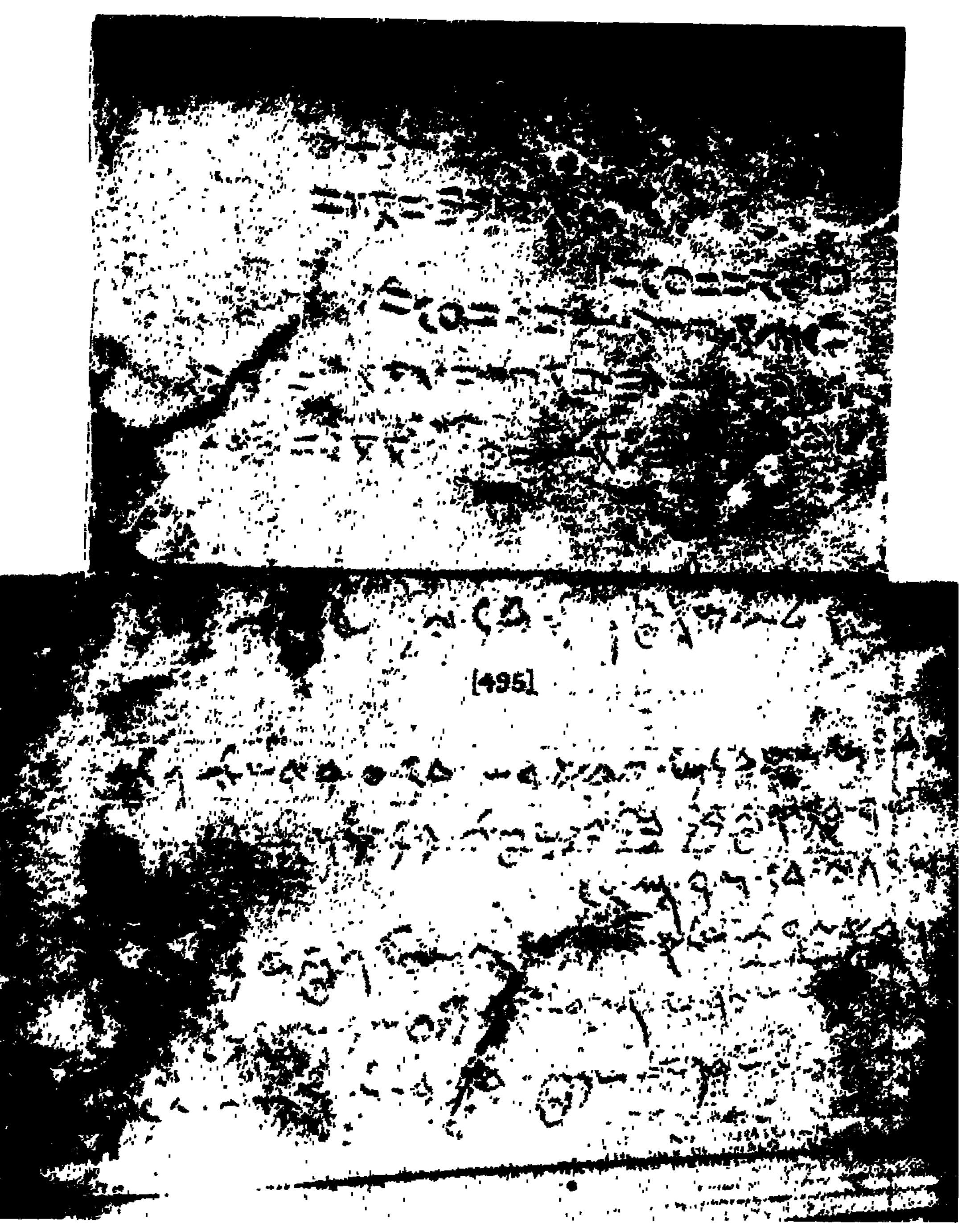
خريطة برشارد : موقع جزيرة الاطلنطس ومعبد اثينة (قرب ودرف)

خريطة هرمان رقم 1 : الجنوب التونسي (بين القرن 13 والقرن 12 ق.م)

خريطة هرمان رقم 2 : الجنوب التونسي (بين القرن 6 والقرن 4 ق.م)

اللوحة ١٦

انظر الصفحة ٤٤ و١٥٧ من هذا الكتاب



الحجرتان المنقوشتـان بالخط الليبى والبونيقى

الحجرتان اللتان اخذهما قنصل انقلترا **Read** وحملهما الى لندن سنة ١٨٤٢

يزوجهم بمن يشاءويشتهى ويبقيهم تحت سلطنه ورهن اشارتـه ٠ وعند وفاة رب العائلة فان السلطة لاتنتقل الى اكبـر ابنائه بـل الى الكبير فى العائلة من الذكور ٠ و هذا النظام هو الذى نراه موجـودا عند الوندال وعند البايات من العائلة الحسينية بتونس

ونلاحظ ان تعدد الزوجات فى ذلك العهد قـد اعان وساعـد عـلى كثرة الاولاد بكيفية فاقت كل حصر ٠

ونلاحظ ايضا بين قوسين ان نظام العائلة الذى كان موجودا عند الطوارق الملثمين ليس هو نظام الابوة مثلما كان ومازال موجـودا عندنا بل هو نظام الامومة، فالام عندهم هى التـى تعطـى اسمهـا لاولادها وهى التى تعود اليها سلطة المنزل ولايرث الاولاد من ابيهم بل يرثون من خالهم ، ولذلك تقول الاغنية المتعلقة بالطوارق :

(انا الطارقى وابن الطارقية) ولم تقل (وابن الطارقى)

خـلاصة ما تقـدم

كانت العائلة عند الليبيين خاضعة خضوعا مطلقا لسلطة الاب وكانت تلك العائلةنواةللنظام الاجتماعى وهو نظامالقبائل

٢ ـ القبيلة والقرية

ان مقتضيات وضروريات الحياة البدويـة والفلاحيـة والشعـور بالحاجة الى السلامة والامن والطمانينة هـو الذى دعـا الى تكويـن كتل بشرية اكبـر واوسع واقوى من العائلـة لتكون هـذه الجماعات فى مامن من كل شر ومن كل عدوان، وهذه الكتل البشرية هى القبائل ، والخلايا التى تتكون منها القبيلة هى العائلات ٠

فالرعاة ينضمون الى بعضهم للاشتراك فى استعمال اراضى الكـلا والمرعى ، والمستقرون من الفلاحين يشيدون القرى والقلاع والابراج لحفظ اموالهم المشتركة ولمقاومة هجومات اعدائهمالالداء وهم الرحل من اهل البادية ، ولصد غاراتهم ودفع ضررهم ٠ وسكان هذه القرى يكونون شبه جمهوريات صغيرة خاضعة الى حكم(الجماعة) وعلى راسها الكبراء والمشائخ بما وفر فى نفوس الكافة لهم من الوقار والتجلـة وهم يسيرون الاعمال ويعاقبون العصاة والمتمردين حسب القوانيـن العرفيـة

والشىء الذى ينبغى الانتباه اليه هو ان قوة القبيلة ترتكز علـى العصبية الناشئة عن لحمة الانساب ، يقول ابن خلدون فى مقدمته :

« ... ان ثمرة الانساب وفائدتها انما هي العصبية للنعرة والتناصر فحيث تكون العصبية مرهوبة ، والمنبت فيها زكيا ، تكون فائدة النسب اوضح وثمرتها اقوى ...

« ... ولا يصدق دفاع حامية لحى ولا يفيد ذيادهم الا اذا كانوا عصبية واهل نسب واحد ، لانهم بذلك تشتد شوكتهم ويخشى جانبهم اذ نعرة كل احد على نسبه وعصبيته اهم ، وما جعل الله فى قلوب عباده من الشفقة والنعرة على ذوى ارحامهم وقرباهم موجودة فى الطبائع البشرية ، وبها يكون التعاضد والتناصر ، وتعظم رهبة العدو لهم ...

... « وكل حى او بطن من القبائل ، وان كانوا عصابة واحدة لنسبهم العام ، ففيهم ايضا عصبيات اخرى لانساب خاصة هى اشد التحاما من النسب العام لهم ، مثل عشير واحد او اهل بيت واحد او اخوة بنى اب واحد ، لا مثل بنى العم الاقربين او الابعدين ، فهؤلاء اقعد بنسبهم المخصوص ، ويشاركون من سواهم فى المصائب فى النسب العام ، الا انها فى النسب الخاص اشد لقرب اللحمة .

« ... وتكون الرئاسة فيهم فى نصاب واحد منهم ولا تكون فى الكل . ولما كانت الرئاسة انما تكون بالغلب ، وجب ان تكون عصبية ليقع الغلب بها وتتم الرئاسة لأهلها ...

« .... فالرئاسة لا تكون الا بالغلب ، والغلب انما يكون بالعصبية . فلا بد فى الرئاسة على القوم ان تكون من عصبية غالبة لعصبياتهم واحدة واحدة ، لان كل عصبية منهم اذا احست بغلب عصبية الرئيس لهم اقروا بالاذعان والاتباع ... »

ونفهم مما بينه العلامة ابن خلدون اهمية العصبية فى تدعيم اركان القبيلة وفى شد ازر الرئيس وتوطيد نفوذه . ومن تلك العصبية تتالف (الجماعة) او (الصف) كما يتالف البنيان المرصوص يشد بعضه بعضا . » وانى مازلت اذكر الاغنية التى كنا ننشدها ونحن صبيان صغار ، وهى تبين بكيفية واضحة قيمة الصف والجماعة والعصبية ، وخسران الذى تحدثه نفسه بالخروج عن راى الجماعة ، كنا عندذلك نصفق ونغنى :

(الجماعة صف صف : والكليب وحدو)

وتحتاج القبيلة الى قائد قوى ورئيس مقدام خصوصا فى حالة حرب اما هجومية اودفاعية واذا كان النصر حليفه فهو يسعى فى زيادة التمركز وضمان الحكم له ولعقبه من بعده . وهكذا نرى القبائل تنهار

وتسقط وتضمحل او تنتصر وتقوى وتمتد حسبما تكنه الاقدار فـي الحروب والمغامرات ٠

ولكن نرى فى الغالب هذه القبائل المختلفة او البطون الموجـودة فى قبيلة واحدةتتقاتل وتتناحر واحيانا تنظمبعض بطونها وصفوفها الى صفوف قبائل اخرى اجنبية للتغلب على الاولى ٠٠ وهذا يبين لنا عدم استقرار هذه القبائل ، فهى جماعات فى تغير وتقلب وتحـول مستمر ٠

خلاصـــة ماتقدم

من العائلات تتكون القبائل التى هى مثال الحياة الاجتماعية فى الماضى ، وشوكة القبيلة وقوتها فى متانة العصبية الناشئة عن لحمة الانساب ٠

وسكان القرية الواحدة يكونونشبه جمهورية صغيرة خاضعة الى حكم (الجماعة) وعلى راسها الكبراء والمشائخ ٠

٣ ـ فيديرالية القبائل او الشعب

نرى احيانا احد القواد والرؤساء بما له من الحظوة والجاه او بما له من القوة والبطش ، نراه يجمع تحت سلطته ونفوذه قبائل كثيرة ، فتلتحم قبيلته بتلك القبائل ، وتزداد قوة فى التغلـب الى قـوتها ، ويصير هذا القائد اغليدا اى ملكا على راس الجميع ٠ ومـن الراجح والمحتمل انكثيرا منالممالك البربرية قد نشتاتهكذا من قديمالزمان قبل ظهور الدول التى سنجدهاداخلةومشتبكة مع تاريخ القرطاجيين والرومان كدولة سيفاكس وما سينيسا وغيرهما ٠

وهذه الجامعات او الفيديراليات القبائلية لهى اقلاستقرار واضعف نباتا ودواما من القبائل نفسها ، فهى اما تتحالف فيما بينها وتتحد لهجوم او دفاع اومقاومة ، واما تدخل فى نار الفتنة وفى التناحـر والخصام الى ان تتغلب احداهما على البقية او يقع الكل فى الهاوية ٠ ومن جهة اخرى فان الملك او الاغليد يمكن له فى الغالب ان يفرض نفوذه على المستقرين منسكانالمدن والقرى والمقيمين بالسهول فيمتد نفوذه او ينحصر وينكمش حسب درجة قوته وشوكته،اما القاطنون فى الجبال وكذلك المتنقلون والرحل من اهل البادية فانهم يميلون طبعا الى الانفلات والتخلص من ذلك النفوذ ٠ وزيادة على ذلك فكثيرا

ماتخرج بعض القبائل عن الطاعة ، وحتى القبيلة الاصلية او النواة الاولى التى كانت ضمت اليها بقية القبائل الاخرى وكونت منها مجموعة قوية فهى لا تلبث ان ينهكها توالى الحروب فيدركها الضعف والوهن، او يذهب بها النعيم وخصب العيش والسكون فى ظل الدولة الى الدعة والراحة فتزول خشونة البداوة وتضعف العصبية والبسالة ويكون ذلك من اسباب الفناء والانقراض .

وللملك من النفوذ والسلطة ما يناسب عظمته وحظوته ، وهو فى الغالب لا يتخذ موظفين لمساعدته بل يستعين باقاربه واعوانه وخلانه ويستشير رؤساء القبائل ، فاراؤهم يكون لها وزنها بقدر ما يكثر عدد الرعايا التابعين لهم والمؤتمرين بامرهم

واذا ما كانت هذه القبائل ساخطة وغير راضية على سلوك الملك وعلى سياسته فهى تقوم فى وجهه وتحطمه تحطيما ، ولذلك نراه دائما يبذل مجهوده ويستخدم حذقه ودهاءه الديبلوماسى فى تقسيم المعارضين عملا بالقاعدة المشهورة **فرق تسد**

وهناك ايضا المشكل المالى وهو عويص جدا ويصعب حله اكثر من المشاكل الاخرى . فمن غير شك تتكلف السلط المحلية بجمع الضرائب وجبى الخراج اما عينا على الريع والمواشى وذلك فى البوادى والقرى او نقدا وذلك فى المدن ، غير ان الملك يكون فى الغالب مضطرا الى الاقتناع بما تجود به القبائل القوية من العطايا الاختيارية ولم تكن هناك اى مساواة فى توزيع الاعباء الجبائية . هذا ويعتبر فى ذلك الوقت البعيد الذهاب من العائلة الى الحى او الفخذ ، ثم من الفخذ الى البطن ، ثم من البطن الى القبيلة ، ثم من القبيلة الى الشعب وهو التفاف عدد من القبائل حول ملك او اغليد .. ان ذلك يعتبر تطورا وتقدما

غير ان حياة القبائل التى كانت موجودة فى الماضى والتى هى مازالت الى الان موجودة فى بعض الجهات الجنوبية المتاخرة من الجمهورية التونسية صارت الآن لا تتناسب ولا تتماشى مع حياتنا العصرية ولذلك رأينا رئيس الجمهورية فى رحلته الى الجنوب يحث على نبذ العصبية القبائلية لما ينجر عنها من انقسام وانعزال وخروج عن المجتمع التونسى الذى صار اليوم يشمل كامل القطر ، فلا بد حينئذ من تبديل اتجاه تلك العصبيات وحصرها كلها فى رئيس الدولة والحكومة ، بل نحن الآن قد تعدينا ذلك الى ما هو ابعد واوسع واعم فكما ان القبائل كانت فى الماضى تتحد لتكوين فيديرالية قبائلية وذلك سعيا وراء الامن والطمأنينة والازدهار فكذلك الان صارت الشعوب

تتحد وتتقارب لتكوين فيدراليات اممية سعيا ايضاوراء نفس ذلك الامن وتلك الطمانينة وذلك الازدهار ، وهذا هو السبب فى انشاء المغرب الكبير الذى يجمع بين اقطار شمال افريقيا ، وهذا التكتل من شانه ان يزيد هذه الاقطار قوة وامنا وتقدما ..

خلاصة ما تقدم

من العائلات تكونت القبائل ثم التف عدد من القبائل حول سلطة قائد عظيم او امير قوى ، وهكذا نشات الشعوب التى هى اكبر شانا من القبائل

دفن الموتى

١) بفرنسا **٢) بافريقية**





تمثل الصورة كيفية دفن الموتى مثل ما وقعت الاشارة اليه صفحة ٤٣

الدرس الاول

لتلاميـذ السنـة الخامسـة

موضوع الدرس : التعريف باللوبيين

الهـدف : بيان اتصالات اللوبيين بالشعـوب المتمدنـة (وذلـك تمهيدا للدرس المقبل حول المدنية اللوبية)

وسائل الايضاح : ـ صورة تمثل راس لوبى (مصور التاريخ) المجموعة الاولى ـ عدد ٣)

صورة تمثل اللوبيين كما رسمهم المصريـون (مصـور التاريـخ ـ المجموعةالاولى ـ عدد ٤)

صورة تمثلالسفينة الحربية المنقوشةبقبور (مقنة) مابين باجةوطبرقة

ـ خريطة تمثل مصر (الدلتا) والعالم الايجى (قريطس) وبلاد اليونان والمملكة الفنيقية ... وموقع تونس من هذه البلدان

١ ـ اسئلة للمراجعة والاختبار والربط

يوجه المعلم اسئلة حول السير المعاكس لمجرى التاريخ اى مـن الحاضر القريب الى الماضى البعيد معاستعمال السلم التاريجى ... الى ان يصل بالتلاميذ الى ما قبل تاسيس قرطاج اى الى اللوبييـن وهـم اجدادنا الاولون

٢ ـ التعريف باللوبيين

ـ **عرض الصورة التى تمثل راس رجل لوبى** ـ حمل التلاميذ على ملاحظتها بدقة وعلى تدوين ما جذب انتباههم واثر فـى نفوسهـم : راس محلوق ـ محلى بظفيرة (شوشة) تنتهى بتميمة فى شكل هلال

ـ هذا هو راس رجل لوبى (او بربـرى) ـ كـان اجدادنا منـذ ما يزيد على ٣٠٠٠ سنة يسمون باللوبيين ـ مقارنة بيـن لوبيـا او ليبيا فى القديم وبين ليبيا الموجودة الآن بين الجمهورية التونسيـة والجمهورية المصريةـكانت بلادنا المتصلة بالمملكة الليبية وكنا جميعا من اصل واحد

ـ اللغـة

ـ نعم نحن الآن نتكلم باللغة العربية ولكن هذه اللغة لم تكـن موجودة عندنا فى القديم قبل دخول الفاتحين العرب ··· بـل كنا نتكلم اللغة اللوبية او البربرية (الشلحة) وهى تشبه لهجة القبائل بالجزائر، تلك اللهجة التى نسمعها فى اذاعة باريس باللغـة القبائلية • وهذه اللغة البربرية مازالت موجـودة عندنا الى الآن بالبـلاد التونسية بجزيرة جربة وبجهات مطماطـه

٣ ـ دخول اللوبيين التراب المصرى

ـ عرض الصورة التى تمثل اللوبيين كمـا رسمهم المصريـون

حمل التلاميذ على ملاحظة تلك الصورة بامعان : رجل على اليمين ورجل على اليسار وامراة فى الوسط ـ لحيـة ملسنة اى مثلثة الشكـل وذات طرف دقيق ـ راس الرجل مكشـوف وراس المراة مغطـى شعر الراس كثيف وطويل وهو مخالف للـراس المحلـوف الـذى شاهدناه سابقا ـ حلي يتزين بها الرجل والمراة على حد السواء (القرط فى الاذنين ـ العقد ـ السوار) ـ ثياب فاخرة جميلة

هذه لصورة تمثل لوبيين رسمهم المصريون على القراميد ··· وهذا يدل على ان اللوبيين اختلطوا فى قديم الزمان بالمصرييـن وتاثـروا بحضارتهم ، وارسلوا شعورهم وتانقوا فى لباسهم ، وحملوا هـذه الحضارة المصرية الى بلادنا الليبيه •

ـ عرض الخريطة تمثل مصر والدلتا (مصب نهر النيل) :

يشرح المعلم ان اللوبيين فى عهد الفراعنة الرمسيسيين اى فـى عهد رمسيس الثانى ورمسيس الثالث ، هاجموا الاراضى المصـريـة مرات عديدة ، ثم استولوا على الدلتا ، وبعد زوال ملك الرمسيسيين اسسوا دولة مالكة عظيمة حكمت البلاد المصرية مدة طويلة ، واشهر ملوكها (تيشوق الاول) •

وهذا الاتصال بالمدنية المصرية والحضارة المصرية القديمة افاد بلادنا كثيرا لانه جلب اليها تلك الحضارة المشرقة

٤ ـ الاتصال بالاقريطيين والفنيقيين واليونان

ـ عرض الصورة التى تمثل السفينة الحربية المنقوشة بقبور(مقنة) :

حمل التلاميذ على التامل فيها مليا: لها صار فى الوسط، وشراع شبيه بالمنحرف ، الركاب هم غزاة مسلحون يقودهم اله الحرب وهو يهز

فى يده اليمنى فاسا حربية ذات حدين(السنة)ويمسك بيده الاخرى ترسا مستدير الشكل ٠٠٠

ـ يبين المعلم بان هياة الركاب وشكل السفينة والاسلحة ٠٠ ان كل ذلك يبين انهم اقريطيون

ـ يعرض المعلم عند ذلك الخريطة التـى تمثـل جزيـرة اقريطس

والعالم الايجى وكذلك بلاد الفنيقيين وبلاد اليونان ، كما تبيـن موقع تونس بالنسبة الى هذه البلدان ٠

ـ يبين المعلم بان هذه البلدان كانت كلها فى ذلك الوقت البعيد والبعيد جدا ، على غاية من التقدم والمدنية والحضارة ، وان اتصـالات اللوبيين بها جميعا تجعلها تستفيد فائدة كبيرة من كل تلك الحضارات

ـ نفهم من ذلك ان الشعب لا يعيش منفردا ومنعزلا فـى العالـم ولايكون نفسه بنفسه فقط بل يتصل بغيره من الشعوب وعلى الاخص التى هى اكثر منه تقدما وحضارة ومدنية فيجنى مـن ذلك الاتصال فوائد كثيرة

ـ وهذا الاتصال يكون اما بكيفية سلميـة (اسفار ـ تجـارة ـ رحلات) او بكيفية حربية (هجومات ـ غزوات) ـ ويمكن تشبيـه الشعوب المختلفة **بالاوعية المتصلة** ٠٠٠ والحروب رغما عما فيها مـن مجازر وسفك دماء فهى مكنت المدنيات والحضارات من الانتشار والتنقل وافادت كثيرا من الشعوب المتاخرة ، وهذا التحاكك ، سـواء كـان سلميا لطيفا او حربيا عنيفا ، هو الذى يكون لقاحا تثمر به الحضارات ومن ذلك ينشا التطور والتقدم والرقى ٠٠٠



اللوحة ١٧

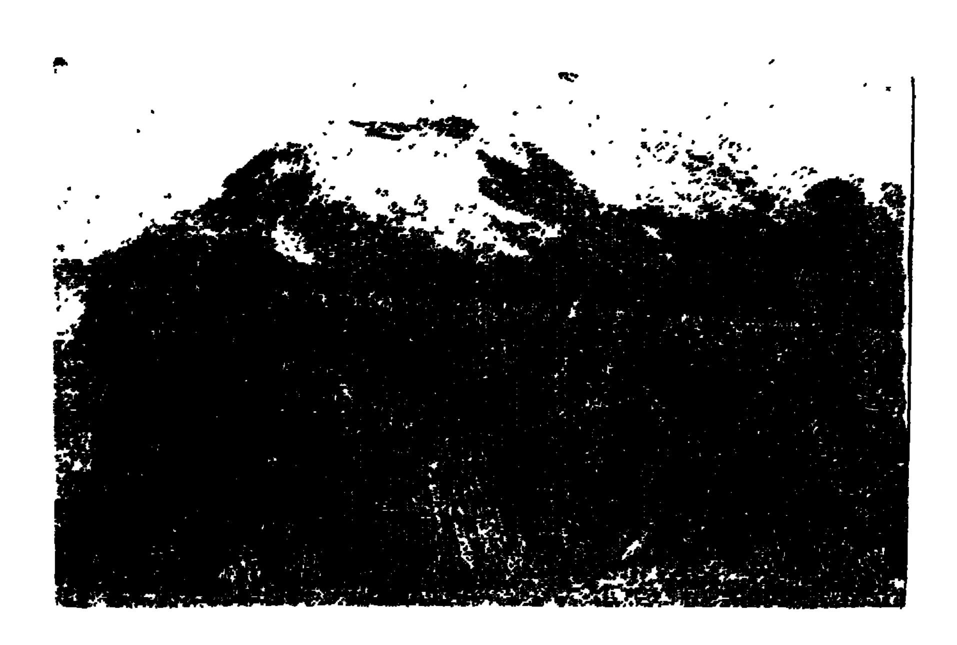
انظر الصفحة رقم ٣٧ من هذا الكتاب



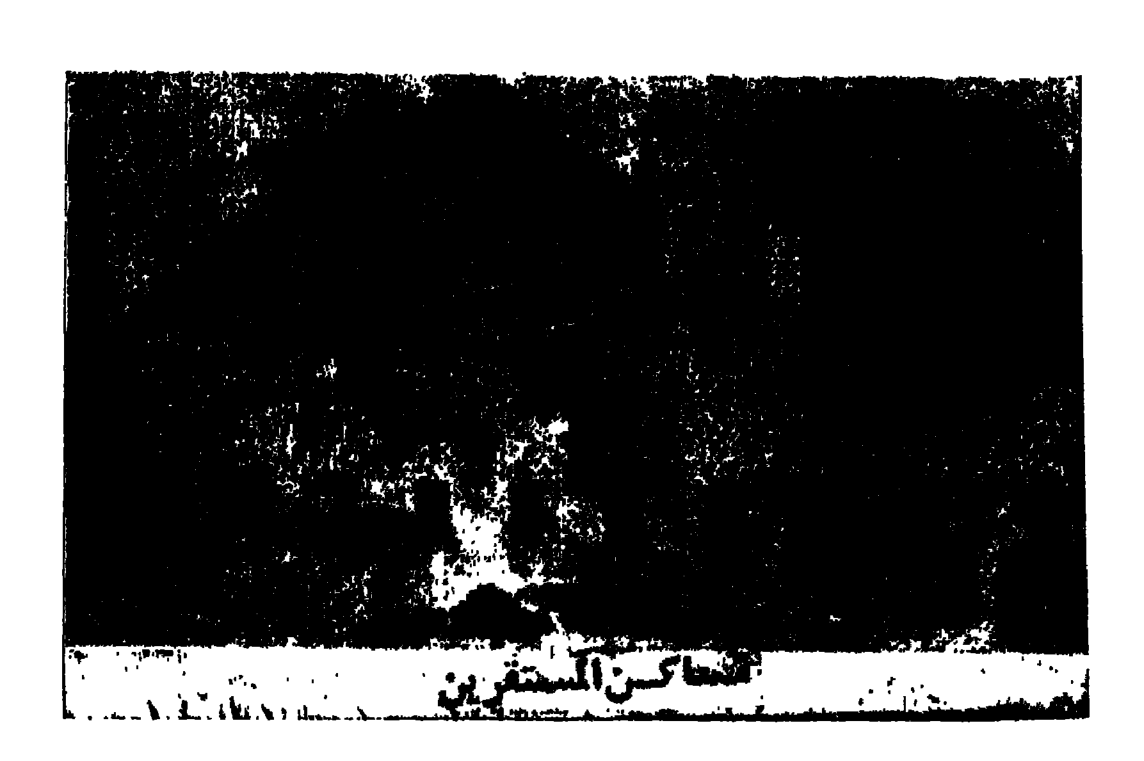
الكبش المقدس (امون)

لوحة ١٨

انظر الصفحة رقم ٥٩ من هذا الكتاب

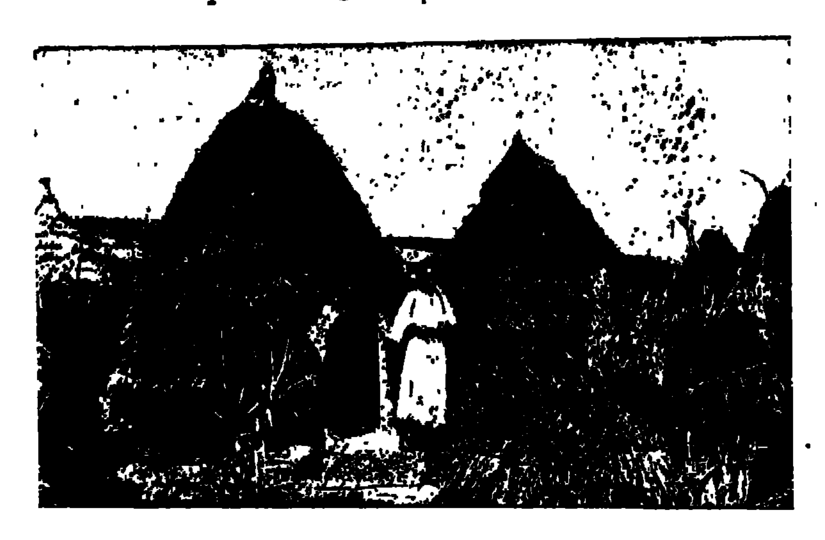


مساكن الرحالة المتنقلين (ص ٥٩)



لوحة ١٩

انظر الصفحة رقم ٥٩ من هذا الكتاب



(النوالة) بالمغرب الاقصى (ص ٦٠)

الكهوف بمطماطة (ص ٥٩)

لوحة ٢٠

(انظر ص





البلدان المتحضرة التى اتصلوا بسكانها ؟ ما هى نتيجة هذا الاتصال ؟ ما هى الجهة التى هاجموها بالبلاد المصرية ؟ متى كان ذلك ؟ (بينـوا البلدان على الخريطة)

من هو اشهر الملوك اللوبيين الذى تحكم فى مصر ؟ (الجواب على الالواح حسب اسلوب لامارتينيار)

٢ ـ الصيد وتربية المواشى

ـ يعرض المعلم الصورة التى تمثل معركـة بين الفيـل والفهـد (المجموعة اولى عدد ٧) ويطالب التلاميذ بالتامل فيها : تمثل حيوانات مفترسة ـ كانت بلادنا ملائة بالحيوانات الوحشية الضارية (الاسـد النمر ـ الفيل ـ الفهد ـ الخ ٠٠) فكان الانسان البدائى من سكان بلادنا فى حاجة لصيدهـا دفاعا عـن نفسه حتـى لاتفترسه ، او لصيدها وصيد حيوانات اخرى غير مفترسة لاكل لحومها والانتفاع بجلودها ٠٠ ثم صاروا يقتنصون الحيوانات المفترسة حية لبيعها عندما صارت تستعمل فى المسارح

ومن هذا نفهم ان الصيد كان يلعب دورا هاما فى حيـاة السكـان الاولين بهذه البلاد ٠

ـ يعرض المعلم الصورة التى تمثل الكبش (المجموعة الاولى عدد ٨)

هذه الصورة تمثل كبشا كانت تقدسه بعض الطوائف والقبائل من اللوبيين خصوصا بالجزائر ٠ والذى نفهمه من ذلك ان اللوبيين كانـوا يهتمون كثيرا بتربية الاغنام وكذلك البقر والمعيز ٠

فهم كانوا حينئذ رجال صيدورجال مرعى، يشتغلون بصيدالحيوانات وبتربية المواشى (يمكن ان يستعمل المعلم ايضا الصورة رقـم ٦ مـن المجموعة الثانية ، فهى ايضا تمثل اللوبيين صحبة اغنامهم ، فهم قوم رعـاة)

٣ ـ الرحل والمستقرون

ـ عرض الصورة التى تمثل كوخا (كيبا) : المجموعة الاولى عدد ١٥ : تمثل هذه الصورة بيتا من الحصير والقصب والشجر ٠ وهذا النوع من الاكواخ مازلنا نراه احيانا عند البدو ٠ لماذا يختارون هـذا الشكل من البيوت عوض ان يسكنوا بيوتا مبنية بالحجارة والطين ؟ السبب فى ذلك هو انهم قوم متنقلون لايستقرون فى مكان واحد ،

عندى عشه ومعيـزات   وين يطيح الليل نبات

هؤلاء البدو المتنقلون هم الرعاة الذين ينتقلون بحيواناتهم من مكان الى آخر طلبا للكلا والمرعى

– **عرض الصور التى تمثل مساكن المستقرين** (عدد١٤)والكهوف بمطماطه (عدد١٨) والغرف بمدنين(عدد١٧)نتامل معا فى كل هذه الصور – انها تمثل ايضا بيوتا للسكنى – هل يمكن قلعها ونقلهامن مكان لاخر ؟ انه لايمكن ذلك ، بل هى ثابتة • فهى حينئذ لاتصلح الا لسكان مستقرين يمكثون دائما فى مكان واحد ويكونون (قريـة) يعيشون فيها مجتمعين • فالصورة الاولى تمثل (قصرا) او (قلعة) مبنية فوق مرتفع من الارض • فهم يجعلون هناك اموالهم وذخرهم ، ويبنون بيوتهم حولها•••وهذه الصورة تمثل مغاور وكهوفا للسكنى كما نراه الى يومنا هذا بجهة مطماطه•••والصورة الاخرى تمثل بيوتا او غرفا منضدة فوق بعضها كبيوت النحل وذلك مـا نـراه الى الان بجهة مدنين(يشير المعلم) الى هذه الاماكن باستعمال الخريطة)

٤ – العائلة والقبيلة والشعب

نقارن بين حياة المنقلين وحياة المستقرين نرى ان اسلوب حياة المستقرين العائشين فى قرية واحدة والمتساكنين بكيفية مستمرة ••• ان هذا الاسلوب يحتاج الى (نظام) والى (قوانين عرفية) اكثر من القبائل المتنقلة فيكونون (شبه جمهورية صغيرة خاضعـة الى حكـم الجماعة)

فالانسان لا يمكن له ان يعيش وحده منفـردا ، – بـل نراه فـى البداية يكون (عائلة)

– ثم تجتمع العائلات لتكون (قبيلة)

– ثم تجتمع عدة قبائل لتكون (شعبا) على راسه اغليد ، غير ان هذه القبائل والشعوب المختلفة كانت فى بعض الاوقات تتحد وتتحالف للهجوم على الغير او لرد هجوم الغير ••• وكانت احيانـا تتخاصم وتتقاتل وتتناحر ••• والقوى يمحق الضعيف •

ولذلك كانت حياة القبائل على غاية من عدم الاستقرار

(نقارن بين حياة الاستقرار والاطمئنان التى نعيشهـا الان تحت ظل الحكومة وبين حياة الفوضى وعدم الاستقرار التى كانت موجودة فى الماضى وهى حياة القبائل)

٥ ـ المآكل والملبس والاسلحة

ـ **عرض صورة تتمثل اكل الكسكس** (مصور التاريخ المجموعةالاولى (عدد ١١) : هذه الصورة تمثل امراة تعد الكسكس فى جفنة(قصعة) ورجلا جالسا القرفصاء وهو يتناول الكسكس بيده ـ كانوا يستعملون القصاع من الطين او من الخشب ـ وياكلـون الكسكس ، والحلـزون (الببوش) ، واللبن ، والعسل ، ولا يشربون الا الماء الصافى

ـ **عرض صورة تمثل الحلى** : كانوا يستعملون الحلى من الحديد او من النحاس او القلز واحيانا من الفضة او الذهب بالنسبة للاغنياء

ويشترك الرجال والنساء فى التزين بالحلى ، فكان الرجال يثقبون آذانهم مثل النساء لتعليق الاقراط ٠

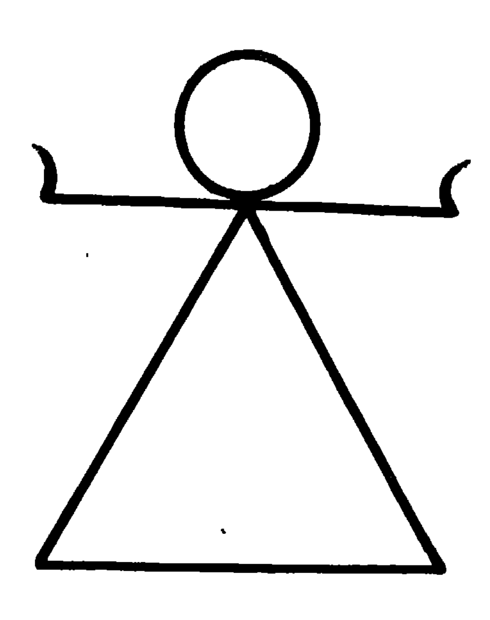
ـ **عرض تمثال صغير** من خشب او شمع يمثل ليبيا لابســا ثيابا عتيقة (الكدرون ـ البرنس)

ـ عرض الصورة التى تمثل لباس اللوبيين(مصور التاريخ المجموعة الاولى ـ عدد ٢٢) : وهى تصور تمثالا بقرطاج يعطينا صورة واضحة لبساطة ثياب اللوبيين فى الماضى ويمكن مقارنة ذلك بما هو مازال موجودا عندنا الى الان (مجرد جبة فضفاضة او كدرون)

ـ **عرض الصورة التى تمثل الاسلحة ن الحجارة والصو ان (عدد٦)**
(من المفيد ايضا اعداد قطع من الصوان يجعلها المعلم بمتحف القسم)
يبين المعلم ان المعادن (الحديد والقلز والفولاذ ٠٠) كانت مجهولة عند البدائيين وبهذا كانت الاسلحة فى اول الامر من الحجارة ثم من الصوان (اوالظران) ثم صاروا يستعملون الهراوة والدبوس والمقمعة والمقلاع (يقذفون به الحجارة)

ثم اقبلوا على استعمال آلات الرماية كالقسى والحراب والمزاريق وكانوا يخيرونها على السيف للهجوم ، ويستترون وراء درق من جلد الفيل ٠

المدنية الليبية البونيقية
بالمغرب العربي
في عهد الفنيقيين



التعريف بفنيقيـــة والفنيقيـــن

لا يمكن ان نفهم فهما جيدا ما يتعلق بقرطاج والقرطاجيين الا من خلال الفنيقيين ومن خلال نشاطهم بحوض البحر المتوسط فينبغي ان نبدا بهم قبل كل شيء ·

ـ موقع فنيقية الجغرافي

ـ كان الفنيقيون يعيشون بالمملكة الفنيقيـة وهي السواحـل اللبنانية الآن ما بين جبال لبنان والبحـر الابيض المتوسط · فهـم كانوا محصورين في ارض ضيقة تمتد بين الجبال الشاهقة من الجهة الشرقية والبحر من الجهة الغربية ، وكانت هذه الجبال الممتدة بجانب الساحل لا تبعد عن البحر اكثر من ٥٠ كم · وتقترب منه احيانـا نحو ١٢ او ١٥ كم · فقط · وزيادة على ذلك فان هذا المعبر الضيق نراه ايضا بدوره مقسما الى عدة قطع منعزلة وذلك بامتداد الجبـال نحو البحر مما يكون حواجز طبيعية حقيقية تنتهي في الغالب زواياها الناتئة عموديا في البحر · وهذا زيادة عن الانهر والسيول المتدفقة والزاخرة بمياهها في فصل الشتاء ، ولذلك فان المواصلات من مدينة الى اخرى كانت ايسر واسهل عن طريق البحر وهذا من العوامـل التي جعلت من الفنيقيين بحارة ماهرين اشتهروا بالملاحة وركـوب البحر وعلى الاخص « المساحلة » اي الابحار بالقرب من السواحل ·

ـ هجوم الهكسوس

ـ ومنذ ما يقرب من الفي سنة ق · م · ، اي منذ بدء ظهور المملكة الفنيقية لاول مرة في التاريخ ، وقع زحف مهول اندفع كالسيـل الجراف من آسيا الصغرى واكثره من الهاتوسيين ، وهـذا الزحف نشا بدوره عن نزوح جماعات غفيرة وخلائق لا تحصى عن اوروبا ، فاكتسحت هذه الجيوش الكثيفة اراضي كنعان اي فنيقية وفلسطين ، وانضم اليها عدد كبير من الكنعانيين والاراميين وغيرهم ، وهجموا كلهم على مصر (١٨٥٠ ق · م ·) وانتصبوا بالدلتا وهي اخصب

جهة واكثرها ثروة بالديار المصرية ، واستقروا هناك ما يزيد عن القرنين ، وهو ما يعرف عند المصريين (بالاستيلاء الهكسوسى) ٠

ـ استيلاء مصر على فنيقية

ثم فى سنة ١٦٠٠ ق ٠ م ٠ تقريبا اطرد (احمس الاول) الهكسوس نهائيا واجلاهم عن بلاده ، غير انه لم يكتف باخراج الهكسوس بل جد فى اثرهم حتى انه ، اثناء مطاردته اياهم ، استحوذ فى طريقه على فنيقية ، ومن ذلك الوقت صارت ارض الفنيقيين خاضعة لمصر ، واستمرت تابعة لها وفى منطقة نفوذها الى ان حلت الكارثة العظمى ، الا وهى زحف (شعوب البحر) على آسيا وفنيقية (سنة ١٢٠٠ ق ٠ م ٠) واستمر هذا الزحف الى ان اندك على حدود التراب المصرى بصمود رمسيس الثالث (١٢٠٠ ـ ١١٦٨) ٠ وهذا الزحف كان له اسوا الاثر واوخم العواقب على الفنيقيين اذ ان غالب مدنهم قد اكتسحها العدو اكتساحا ، واحرقها ودمرها وتركها اثرا بعد عين ، ومن جملتها صيدا وصور ٠٠٠

ـ تخلص فنيقية من الاستعمار المصرى

لكن بعد مرور هذه العاصفة الشديدة ضمد الفنيقيون جراحهم واعادوا بناء مدنهم من جديد ٠ غير ان علائقهم مع مصر اعتراهـا الفتور ٠٠٠ ثم تخلصت فنيقية نهائيا من الاستعمار الفرعونى سنة ١٠٠٠ ق ٠ م ٠ تقريبا اى فى آخر دولة الفراعنة الرمسيسيين ، وبدا بذلك عصر استقلال فنيقية وعصر ازدهارهـا وحياتها السامية الخالصة التى عرفها ووصفها هوميروس فى اشعاره ٠

ـ ازدهار مدينة صور

وازدهرت على الاخص مدينة (صور) ودام هذا الازدهار الكبير مدة خمسمائة سنة تقريبا ، اى من سنة ١٠٠٠ ق ٠ م ٠ الى سنة ٥٠٠ ق ٠ م ٠ وفى تلك المدة اشتهرت صور بالتجارة والاسفار والتوسع وذلك بانشاء **المراكز التجارية** (comptoirs) والمستعمرات الفنيقية (colonies)

الفنيقيون بافريقية الشمالية : المراكز التجارية

يمكن ان نقول بان الاستعمار الفنيقى يعتبر بالنسبة لافريقية

الشمالية كبداية العصور التاريخية ٠

وقد بدا هذا الاستعمار بتاسيس مراكز ومحطات (stations) ثم مصارف ووكالات تجارية (comptoirs) ثم باقامة مستعمرات استقرت بها جاليات فنيقية

وقد تجاوز الفنيقيون من اهل صور اعمدة هيرقليس (اى مضيق جبل طارق) فاسسوا بالجنوب الغربى من ايبيريا (اسبانيا) مدينة قادس وذلك سنة ١١١٠ ق ٠ م ٠ لاقتناء معادن الفضة ، وكذلك معادن القصدير (étain) التى كانت تجلب الى مستودعاتهم هناك من جزر القصدير (Iles Cassitérides) وهى كائنة جنوب بريطانيا العظمى وتعرف اليوم بجزر سيلى (Scilly) او جزر السرلنغ (Sorlingues) وكلمة (قصدير) ماخوذة من اسم الجزر المذكورة (قصديريد) ٠

كما انشاوا ايضا مراكز ومحطات كثيرة فى طريقهم من صور الى قادس، واقدمها اوتيكة سنة ١١٠١ ق ٠ م٠ ولبتيس الكبرى او لبدة بليبيا (Leptis Magna) ولبتيس الصغرى او لمطة قرب سوسة (Léptis Minor) وحدرموت اى سوسة (Hadrumète) ،وهيبوزياريت اى بنزرت (Hippo Diarrhytus ou Ziarite) وهيبورجيس او بونة ـ عنابة بالجزائر (Hippo Régius) ٠٠٠

وهذه المراكز كانت فى الحقيقة كثيرة جدا ، وكان غالبها عبارة عن مجرد اساكل بسيطة (١) ، وهذه المحطات او الاساكل المتواضعة نجدها فى كل ثلاثين كيلو مترا تقريبا ٠ وذلك لان الفنيقيين كانوا لا يبتعدون عن السواحل ، وهو ما يسمى بالمساحلة (Cabotage) وكانوا فى حاجة الى الارساء من حين لآخر فى هذه المرافىء يلجؤون اليها كلما هاج البحر وعصفت الرياح والزوابع،وفيها ايضا يستريحون من اتعاب السفر ، ويتزودون بالماء والطعام ، ويصلحون سفنهم ، ويدبرون شؤونهم ٠٠

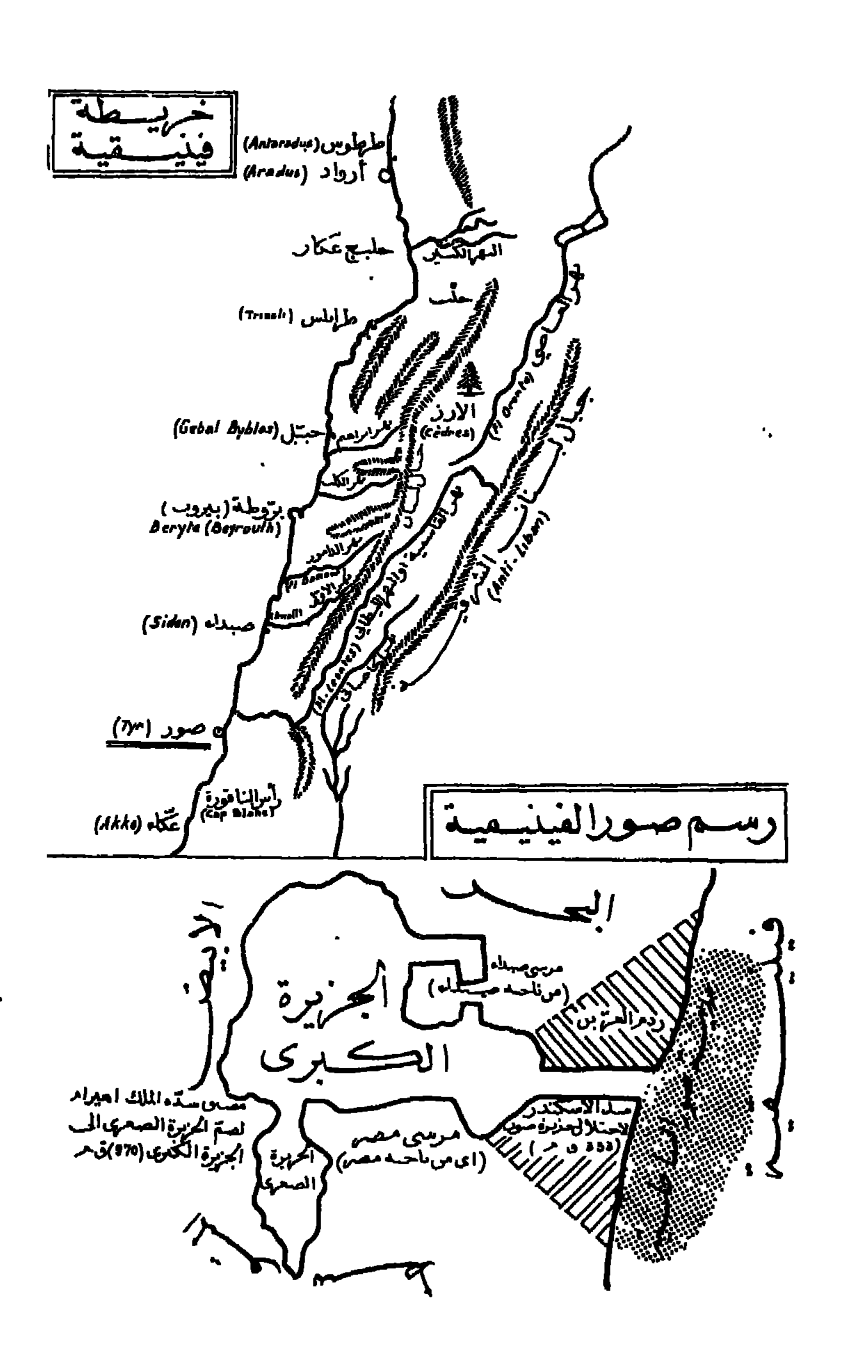
اما اقامة المستعمرات اى المدن التى استوطنتها الجاليات الفنيقية المهاجرة فلم تكن كثيرة العدد ، وقد ذكرنا اهمها مثل اوتيكة ، وبنزرت ، وسوسة ، ولمطة ، ولبدة ٠٠٠ وكذلك ونوسة (Oinoussa)

---

(١) بالعربية اسكلة ج اساكل ، وبالفرنسية Echelle او Escale وبالطليانية (Scala) ومنها اتت الكلمة العامية (صقالة)

لوحة ٢١

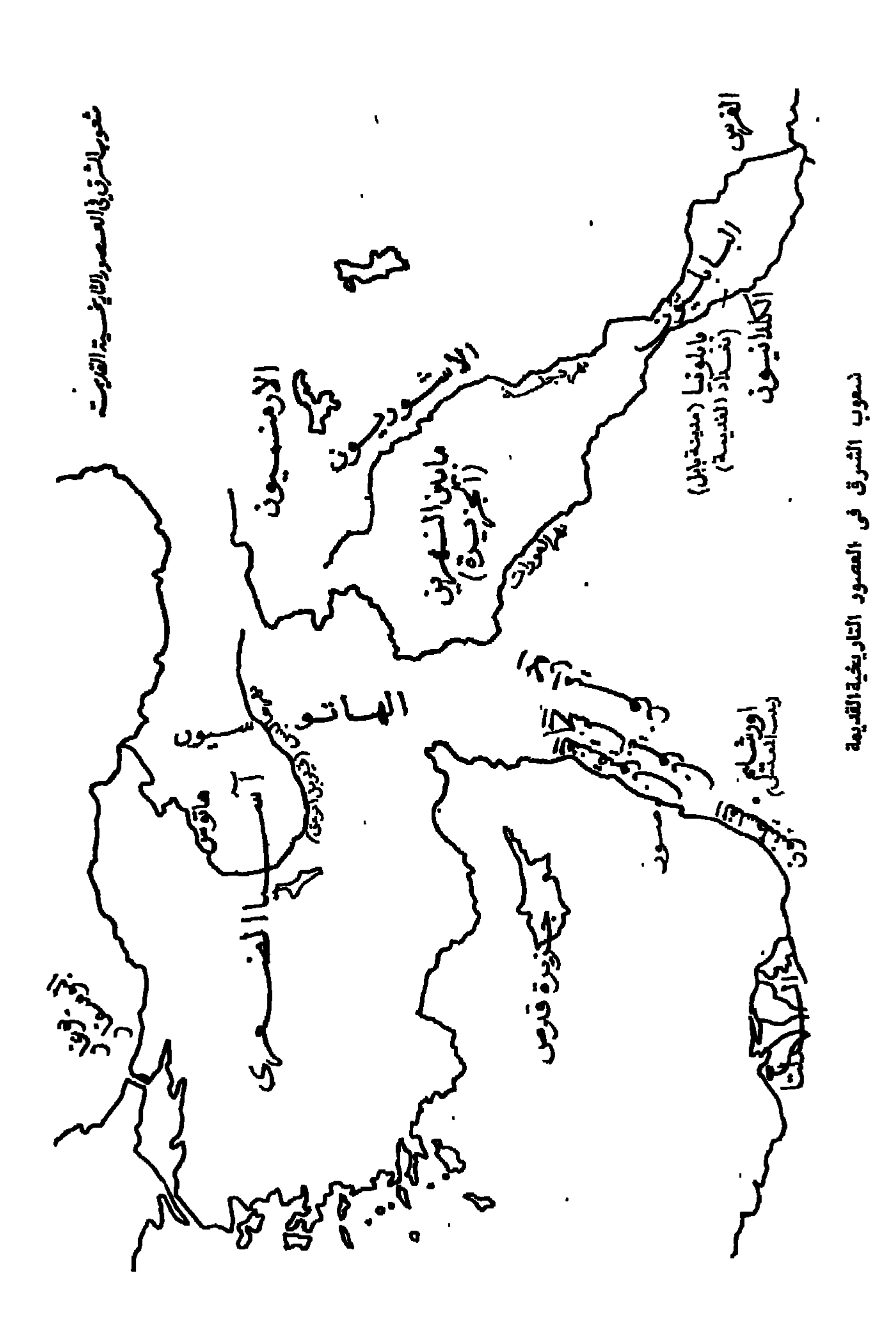
انظر الصفحة رقم ٧٨ من هذا الكتاب



رسم مدينة صور (ص ٨٣ / ٩٢)

لوحة ٢٢

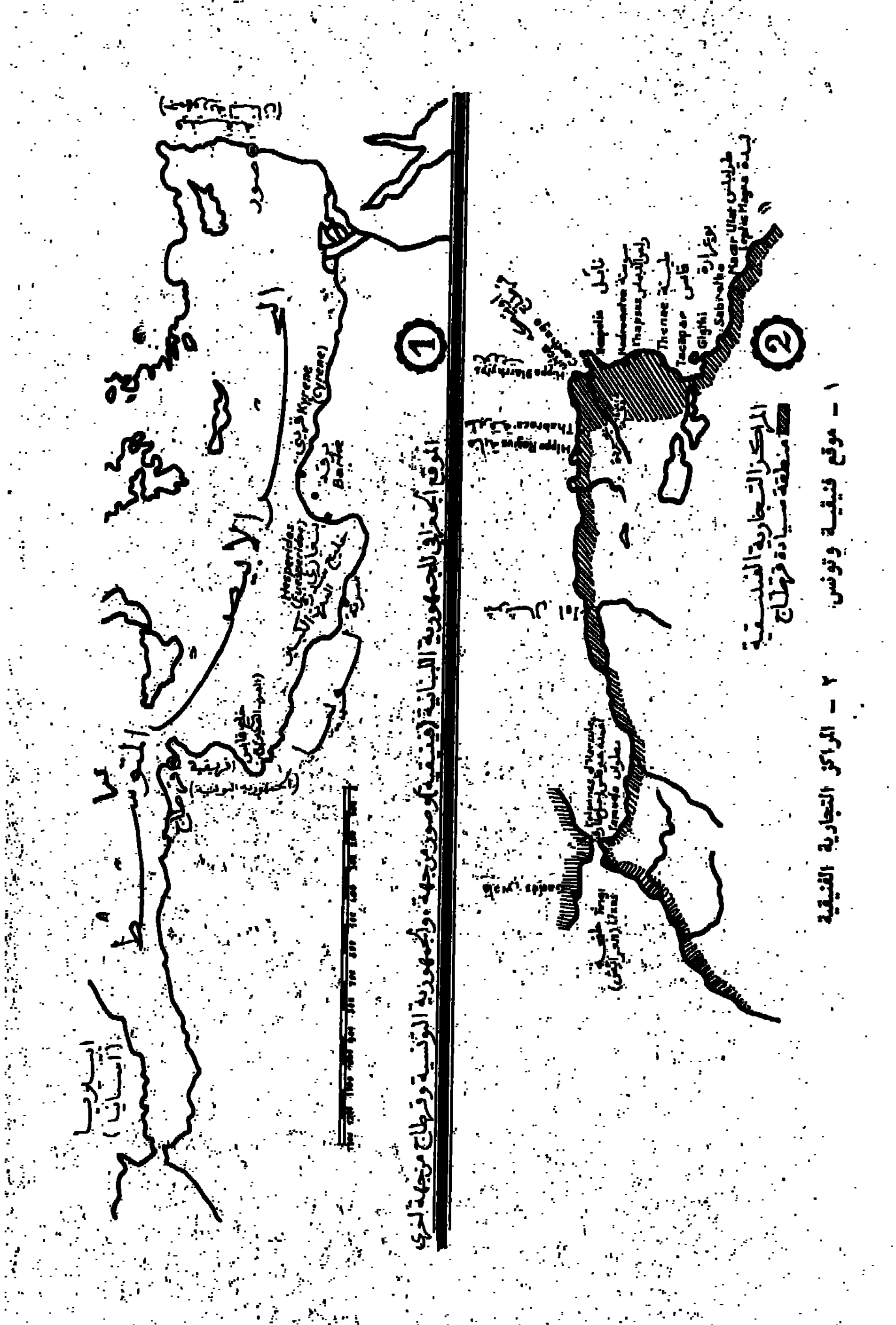
انظر الصفحـة رقم ٧٨ من هذا الكتاب



شعوب الشرق فى العصور التاريخية القديمة

لوحة ٢٣

انظر الصفحـة رقم ٧٩ من هذا الكتاب



١ – موقع فنيقية وتونس ٢ – المراكز التجارية الفنيقية

لوحة ٢٤

انظر الصفحة رقم ٨٨ من هذا الكتاب



اسطورة جلدة الثور (بيرصة باللغة اليونانية

او بورصة (Byrsa) او قمبية (Kambé) باعتبار اختـلاف المؤرخين وهو المكان الذى ستؤسس به فيما بعد المدينـة الكبـرى والعاصمة العظيمة (قرطاج) ٠

ويرى بعض المؤرخين بان الاسباب الداعية لاقامة هذه المستعمرات ترجع الى تكاثر عدد السكان فى ام الوطن خصوصا اذا اعتبرنا مـا كانت عليه من الضيق بين البحر من جهة والجبال من جهة اخرى٠٠٠ او احيانا خلافات مدنية وخصومات داخلية بين بعض الكبراء وارباب السلط ٠٠٠

وربما كان ذلك صحيحا ، ولكن يظهر ان انشاء هـذه المراكـز الجديدة وتعميرها بالفنيقيين كان،فيما يتعلق بالكثير منها على الاقل، سائرا حسب برنامج مسطر وخطة معينة وبناء على اوامر وتعليمات رسمية صادرة من حكومة (صور) التى كانت تقوم بنفسها بالمصاريف اللازمة لذلك ٠٠٠

وكان الغرض من تلك الانجازات فى البداية السياحة والارتيـاد والاستطلاع ، وهو نشاط تولدت عنه التجارة وما يتبعها من فوائد وارباح طائلة ، الشىء الذى ادى الى اقامة المستعمرات وانشاءالمراكز الثابتة والمستمرة ، وتعميرها بالجاليات الفنيقية ٠ ولذلك يمكن ان نميز بين طور اول وهو طور مجرد التعرف والاستكشاف ، وطور ثان وهو طور التوسع والاستغلال والاستعمار والتجارة ٠

فكانوا ياتون بالبضائع المصنوعة كالمنسوجات ، واوانى الفخار، والخرز من الزجاج ، وصبغة الارجوان ٠٠٠ وياخذون فى مقابل ذلك القوت والمؤونة ، واشياء مختلفة للبيع او للصناعة كجلود الحيوانات، وريش النعام ، والعاج (انياب الفيل) والصمغ ، وغير ذلك ٠٠٠

وان اهل (صور) بفضل بعثاتهم البحرية كونوا اتصالات مستمرة بين شعوب الشرق الادنى والشعوب الغربية وساعـدوا بذلك على انتشار المدنية فى كامل حوض البحر المتوسط ٠

وكان الفنيقيون فى حاجة الى ربط علائق ودية طيبة مع الاهالى ، لان هؤلاء الاهالى هم الذين كانوا يمونون تجارتهم ، ويمدونهم بيـد عاملة حازمة ، قوية ، ناشطة وباجور غير مرتفعة ٠ ويظهـر انهم كانوا يتزوجون بيناتهم ، ويزورونهم فى بيوتهم ومحـلاتهم ، ولا يخافون من التوغل داخل الاراضى الافريقية ، لكن المدن والمراكـز

التى انشاؤها كانت كلها مقامة على الشواطىء والسواحل ، وذلك لان الفنيقى كان لا يلتفت الى الارض اليابسة ولا يهمه شان البر وامتلاك الاراضى ، بل كان يميل بكلينه الى البحر ويرى نفسه سعيدا وفى محيطه الطبيعى كلما كان يسبح بسفينته على ظهر الماء .

وهكذا امكن للفنيقيين ان يصلوا الى المحيط الاطلسى ، سعيا وراء ذهب السودان ، وفضة اسبانيا ، وقصدير انكلترا . . . وكذلك نحاس ترشيش ...

ونحن كلنا نعرف جيدا بلاد السودان ، وبلاد اسبانيا ، وجزر القصدير جنوب انكلترا ... ولكن اين كان يا ترى موقع ترشيش (Taris Tartessos)

ان كثيرا من المؤرخين يجعلون (ترشيش) قرب مدينة قادس التى انشاها الفنيفيون باسبانيا بجانب مصب نهر الوادى الكبير ، او يطلقون اسم ترشيش على كامل تلك الجهة .

وذهب غيرهم اخيرا وعلى الاخص بعض العلماء الالمانيين الى جعل موقعها على ضفاف شط الجريد بالجنوب التونسى ، وكان العرب يسمونها (مدينة النحاس) لانها كانت تصنع وتصدر معدنا يشبه النحاس الاصفر (Le laiton) ويقولون بان هذه المدينة كانت وجهة التجار اليونانيين والاقريطيين والفنيقيين واليهود ، وكانت من اكبر الموانى لاتصال شط الجريد بالبحر فى ذلك الوقت ، ويستدلون ايضا على ذلك بكثرة عدد المراكز التجارية بكامل تلك الجهة، ما بين السرت الكبير والسرت الصغير ، اى ما بين برقة وقابس ، اذ كان يفوق عددها العشرين ، حتى انهم كانوا يسمون تلك الجهة فى القديم (جهة المراكز التجارية(Région des Emporia) وكانوا يشترطون على الرومانيين بمعاهدات رسمية وممضاة من الطرفين عدم الوصول الى تلك الجهة خشية من ان يطلعوا على اهمية نشاطها التجارى وما كثرة هذه المراكز والاسواق الا نتيجة اهمية تلك الجهة من الناحية التجارية ، وهو دليل على وجود مدينة تجارية عظيمة فى ذلك المكان

وليست هذه النظرية بمستبعدة خصوصا اذا علمنا بان جنوب شط الجريد يسمى بصحراء مدينة النحاس ... وان الموقع الذى يقال انه كانت فيه مدينة ترشيش او مدينة النحاس كان يسمى بعد الفتح الاسلامى العربى الى ما بعد القرن الثانى عشر للمسيح او الخامس للهجرة ، كان يسمى (طرة او تورة) وبالاطينية (Turris) وهذا الاسم يذكرنا بحروفه وبرنته فى السمع بترشيش (قارنوا

بين ترشيش Tarsis وتوريش او تورة او طرة (Turris
لكن هذه كلها مجرد احتمالات ينبغي ان تؤيد وان تدعم باثار او بنصوص قديمة لا تترك مجالا للشك ٠

وكانت جميع هذه المراكز التجارية وهذه المستعمرات تابعةلمملكة صور الفنيقية وهي ام الوطن ومركز الدولة بالنسبة اليها ٠

مملكة صور بفنيقية

ومن اشهر ملوك صور في تلك المدة (ابيبعل) ثم ابنه (اهيرام) (من سنة ٩٨٠ الى سنة ٩٣٦ ق ٠ م ٠) وهو المشهور بعلاقته المتينة مع سيدنا سليمان بن داود عليهما السلام ، وهو الذى وسع في مدينة صور بردم البحر وضم الجزيرة الصغرى الى الجزيرةالكبرى وهو الذى جدد بناء المعابد القديمة وانشا معابد اخرى جديدة ونظم الموانى للسفن ، وهو الذى استعان به سيدنا سليمان في بناء معبد اورشليم (بيت المقدس) فمده بالمواد البنائية اللازمة وعلى الاخص خشب الارز المشهور بلبنان ، كما مده بالمهندسين الفنيقيين وبالفنيين وبجميع ما يحتاج اليه ٠ وكذلك اعانه على انشاء اسطول بحرى ، مع اهتمامه في الوقت نفسه بانماء التجارة الفنيقية مع قبرص واسبانيا وغير ذلك من الاقطار ٠٠٠ ونتج عن هذا التعاون وعن هذه الصداقة المتينة ازدهار كبير وخير عميم للطرفين ، وهذا يقيم الدليل على فائدة التازر والتكافل بين الامم مكان التناحر والتطاحن، وهذا هو سبب سمعة هذين الصديقين وهما اهيرام وسليمان واشتهارهما بالحكمة والفطنة وسداد الراى وبعد النظر ٠٠٠

ثم انه في سنة ٩٢٦ ق ٠ م ٠ رد الفنيقيون هجوم ملك مصر شيشوق الاول وهو كما ذكرناه من اصل لوبى ٠

ومن ذلك التاريخ بدات القلاقل بفنيقيا لاسباب داخلية (اغتيال عاشر باص زوج عليسة) واسباب خارجية (خطرهجوم الاشوريين)

ـ الاسباب الداخلية : اغتيال الكاهن عاشر باص زوج عليسة

ان كمية كبيرة من الارشادات التى وصلت الينا حول هذهالقلاقل الداخلية لها علاقة بتاسيس قرطاج ، غير انها تعتبر خرافية ومن نوع الاساطير ٠٠٠ ومن ذلك ان الملك (مطان) حفيد الملك (ايتبعل) خلف ابنا وهو (بغماليون) وابنة وهى (عليسة) او (ديدن) ٠ فعقب الملك بغماليون اباه بعد موته سنة ٨٣٠ ق ٠ م ٠ تقريبا ٠

وحكم فى اول الامر تحت اشراف ووصاية اخته عليسة التى تزوجت بخالها (عاشر باص) كبير كهنة الاله (ملقرط) او هيرقليس كما كان يسميه اليونانيون ٠

وتقول الاسطورة بان الملك بغماليون اغتال خاله عاشر باص للاستيلاء على ثروته الطائلة ، او ان الحزب الديمقراطى نار فى وجهه وقتله ٠٠٠ فمنعت عليسة اخاها من الاستحواذ على الكنوز التى كان اخفاها زوجها بالمعبد وغيبها فى جوف الارض حتى لا تمتد اليها يد اثيمة ٠ واحتالت عليسة ، لما غفلت عين اخيها عن مراقبتها ، فشحنت سفينة بتلك الذخائر والاموال ، وابحرت الى قبرص مصطحبة فى ركابها ثلة من وجوه القوم سرها امرهم واعجبها سلوكهم ، ثم شدت رحالها من تلك الجزيرة حاملة معها فئة من حسان العذارى ، وقصدت افريقية ، وارست بالمكان الذى اختارته لتاسيس مدينة قرطاج ٠ (٨١٤ ق ٠ م ٠)

ـ الاسباب الخارجية : هجومات الاشوريين

ان مملكة اشور لا يمكن لها ان تنمو وتزدهر ويكون لها شان الا اذا كانت لها منافذ على البحر تمكنها من انشاء الاسواق وترويج البضائع ٠ ولذلك كانت انظارها متجهة دائما نحو فنيقيا وكانت تترصد الفرص للاستيلاء عليها ٠

فكان ملكهم (سلمان اشار الثالث) Salmanasar III (من ٨٦٠ الى ٨٢٥ ق٠ م٠) يفرض عليها دفع الاموال الطائلة ويتصل مرات عديدة بغرامات تدفعها صور وصيداء والجبيل ٠٠٠ ثم نراه يستولى على مدينة (ارواد) ويهاجم المدن الساحلية الاخرى قصد امتلاكها والاستحواذ على خيراتها ثم يحتل مدينة صيداء ٠٠٠

وقد وجدت الكتابة التالية محفوظة فى اخبار الاشوريين وهى تتعلق باستيلائهم على مدينة صيداء :

> **انا ملك اشور استوليت على صيداء الكائنة على شاطىء البحر ، وهدمت بناءاتها ، واستحوذت على خيراتها المدهشة ، وعلى الغنائم الغزيرة من ذهب وفضة ، وجواهر وحجارة كريمة ، وادباش ، وعبيد ، وانعام ٠٠٠**
> **اما عبد ملقرط ملك المدينة الذى فر هاربا وسط البحر مثل السمكة ، فقد اصطدته من وسط اليم وقطعت راسه ٠٠٠**

وبعد محاولات كثيرة تمكن الاشوريون من الاستيلاء على جميع المدن الساحلية ما عدا مدينة (صور) فهى قد صمدت فى وجه العدو وردت جميع غاراته • حتى ان الاشوريين جمعوا فى احدى المرات ستين سفينة حربية من صيداء والجبيل وارواد ، وحاولوا النزول بجزيرة (صور) غير ان حماة الجزيرة اظهروا بسالة نادرة فاهلكوا اسطول الاعداء باثنتى عشرة سفينة فقط واخذوا ما يزيد على خمسمائة اسيرا من الاشوريين وكان النصر حليفهم •••

وتكررت وتواصلت هجومات الاشوريين ضد مدينة (صور) ، وتوالى نصب الحصار عليها مرات كثيرة ، لكن بدون جدوى وبدون ان يتمكن العدو من احتلال تلك المدينة الباسلة ، نظرا لمناعتها اذ كانت فى ذلك الوقت جزيرة حصينة غير متصلة بالبر •
وفى تلك المدة ، اثناء تلك الهجومات المتتابعة والفاشلة ، قدم جماعة من (صور) ، وعلى راسهم الاميرة (عليسة) واسسوا مدينة قرطاج •

ويرى كثير من المؤرخين ان خوف الصوريين من استيلاء اعدائهم الاشوريين على ثروتهم الطائلة وعلى ذخائرهم ، مثلما وقع لبقية المدن الفنيقية الاخرى ••• ان هذا الخوف ، مع توقع السقوط فى قبضة الاعداء من يوم لآخر ، هو الذى حملهم على تهريب تلك الثروة مع الاميرة عليسة واصحابها ، فكان الخروج خفية من صور الى جزيرة قبرص اولا ، ثم من قبرص الى سواحل افريقية ، وكان تاسيس قرطاج (٨١٤ ق • م •) كان كل ذلك حسب خطة مدبرة ، وتنفيذا لمامورية رسمية باتفاق مع حكومة صور ، بل بامر منها وحسب تعليماتها ، لا رغم ارادتها كما يظن بعضهم •

واكبر دليل على ذلك هو ان العلاقة بين صور وقرطاج كانت من البداية الى النهاية مبنية على التعاون والتازر ، فكانت قرطاج تبعث بالمال سنويا الى ام الوطن وتعتبر نفسها مرتبطة بها ، وكانت تبادر لنجدة مستعمراتها كلما استنجدت بها ضد هجوم الاعداء ، فكانت تقوم بذلك الواجب عن طيب خاطر نيابة عن صور لانها كانت اقرب منها مسافة ، واسرع لمد يد المساعدة ، وكذلك لما صارت صور تحت سيطرة الفرس ، فان الصوريين ساهموا وشاركوا فى جميع غزوات (قمبوز) ملك فارس ، لكنهم امتنعوا من الزحف ضد قرطاج لما اراد هذا الملك الاستيلاء عليها فكان مضطرا الى العدول عن عزمه والنزول

عند رغبتهم فى عدم التعرض اليها بسوء ، وتكـرر منهم مثـل ذلك الموقف مرة اخرى لما اراد اسكندر الاكبر المقدونى القيام بمثل ذلك العمل فامتنعوا امتناعا كليا وصدوه عن عزمه فى المسير للاستيـلاء على مدينة قرطاج ٠

خلاصة مـا تقـدم

ـ كان الفنيقيون يسكنون مملكة فنيقيـا وهى جمهوريـة لبنان اليوم ٠ وكانوا اهل تجارة وصناعة ، وكانوا على الاخص بحارة اصحاب سفن ومراكب ٠

ـ اسسوا مراكز تجارية ومستعمرات على طول السواحـل الافريقية مثل قابس وسوسة واوتيكة وبنزرت ٠٠٠ وقادس باسبانيا ٠

ـ وقد كونوا ، بفضل تنقلاتهم البحرية ، اتصالات مستمرة بين شعوب الشرق الادنى والشعوب الغربية وساعدوا بذلك على نشر المدنية فى كامل حوض البحر المتوسط ٠

ـ وفى سنة ٨١٤ ق ٠ م ٠ قدمت عليسة ملكة صور مـع جماعة من الطبقة الارسطقراطية وارست قرب تونس ، بالمكان الذى اختارته لتاسيس مدينة قرطاج ٠

تـاسيس قرطـاج

ـ رواية جوستينيوس : فد روى المؤرخ الرومانى جوستينيـوس فى الجزء الثامن عشر من تاريخه قصة تاسيس قرطاج مع بيان كل الظروف والتفاصيل المتعلقة بذلك التاسيس وفى مقدمتها اسطـورة هروب عليسة بذخائر زوجها المقتول ٠ واليكم هذه الرواية ننقلهـا اليكم لاهميتها (١) :

« عين مطو مليك صور خلفا له وهو ابنه بيغماليون ، وهو مازال فتى يافعا ، وابنته عليسة وكانت على غاية من الحسن والجمال ، بنى بها خالها عاشر باص وهو كاهن هيرقليس (Hercule) وكان مهيب الجانب موقور الحظ ، لا يعلوه بين الشعب الا المليك وحده ، وكان الى هذا ثريا عريض الثراء ، تملكه الجزع على امواله الطائلـة ،

(١) نقلا عن الدكتور توفيق الطويل (قصة الكفاح) بشىء من التصرف ٠

فغيبها فى احشاء الارض بعيدا عن مسكنه ، خوفا من طمع بيغماليون ومن جشعه ...

« وطار نبا الكنز المغيب فى جوف الارض حتى اتصل، بسمع الملك بيغماليون فحرك رغبته لامتلاكه ، ولو اداه ذلك الى دوس ما اتفق عليه الناس من مثل حسنى ومبادىء عليا ، فقتل ذلك الذى كان فى الوقت نفسه خاله وصهره ، توطئة لاشباع نهمته وارضاء شهوته ...

« واستشاطت زوجة القتيل غضبا على اخيها الذى اقدم على ارتكاب مثل هذه الخطيئة الشنعاء ، وعافت مرآه ، غير انها كتمت عواطفها ، واصطنعت البشر ، واقبلت على اخيها توهمه بانها تريد ان تفارق مسكنها مبعث القلق ومثار الذكريات الاليمة ، لتعيش معه وفى كنفه وكانت تقول له ذلك وهى تبتسم فى وجهه ، وفى جوفها بركان من الحقد والالم يضطرم ويحرق احشاءها .

« فقبل اخوها ذلك بكل السرور والابتهاج لانه كان يظن ان كنوز عاشر باص ستدخل بيته مع اخته عليسة ، وارسل خدمه معها ليمدوها بالعون فى نقل متاعها ...

« ولما اتى المساء توغلت عليسة فى عرض البحر وامرت الخدم بان يلقوا فى اليم اكياسا ، كانت اعدتها من قبل ، وملاتها حجارة ورملا، وربطتها باعتناء ، ليتوهموا انها تحتوى عى الاموال التى ينتظرها سيدهم . وبينما كانوا ينفذون اوامرها ويقذفون بالاكياس فى قعر البحر كانت عليسة تبكى وتنادى زوجها عاشر باص بصوت ملؤه الحزن والاسى متوسلة اليه ان يتقبل منها ، كهدية الموتى ، تلك الاموال التى كانت سببا فى قتله .

«ثم التفتت بعد ذلك الى الخدم وقالت لهم بان العذاب الاكبر سيسلط عليهم من سيدهم لانهم فرطوا فى الاموال التى كان ينتظرها ذلك الطاغية بلهفة شديدة . فارتعدت فرائصهم من الخوف لما سمعوا كلامها وطلبوا منها ان تتركهم يرافقونها فى هجرتها فابقتهم معها . ثم التحق بها جماعة الاعيان الذين كانوا على اهبة واستعداد للسفر بصحبتها تلك الليلة .

«فرسوا اولا بجزيرة قبرص وتلقاهم كاهن تلك الجزيرة بكل حفاوة وسلمت اليه عليسة جانبا من اموالها . وكانت العادة بقبرص ان يرسلوا بناتهم ، فى اوقات معينة ، الى الشاطىء ليضحين ببتولتهن

للالاهة فانوس ويفوم ذلك عندهن مقام المهر ، وهذه العادة تعرف بالبغاء المقدس • فاخذت عليسة منهن ثمانين بنتا مازلن عذارى طاهرات ، وضمنت بذلك قرينات للشبان الذين كانوا معها واعقابا وانجالا للمدينة المقبلة •••

« اما الملك بيغماليون فانه لما بلغه فرارها ، اهتاج غضبا ، واعتزم ان يطاردها انى حلت حتى يظفر بها ويطعنها الطعنة التى تلحقها بزوجها • وتوسلت اليه امه ان يعدل عن قتلها ، فاستجاب لها مخافة ان تلحقه لعنة الآلهة ويدركه انتقامها ، خصوصا وقد انباه العرافون نبا المدينة التى ستنشئها اخته بعد حين ، وحذروه من مقاومتها ، ومن تعطيل تاسيس هذه المدينة التى سيقدر لها ان تكون اعظم مدن الارض حظا ، واوفرها فى القوة نصيبا •

« ثم تقدمت عليسة (او ديدو كما كانوا يسمونها احيانا) الى افريقية ، ووجدت بها ناسا يميلون الى الغرباء ويحنون الى لقياهم ، ويقبلون على التجارة معهم بالمعاوضة والمقايضة • فابتاعت قطعة ارض لا تتجاوز مساحتها ما يشمله جلد ثور • وبعد حصول الاتفاق على البيع مع اللوبيين على ان يدفع لهم الثمن اقساطا سنوية ، امرت عليسة اتباعها بقد ذلك الجلد قدا رقيقا فى صورة سير طويل احاط بقطعة اكبر من التى كانت تظهر الاقتناع بها • ولذلك اطلقوا على ذلك المكان اسم بيرصة • » (ومعناه جلد تور باللغة اليونانية) •

ومما لا شك فيه ان القصة المتعلقة بجلد الثور والتى شاركت فى نقلها اجيال كثيرة قد نشات اما فى وسط يونانى ، فهى حينئذ من مصدر يونانى ، او فى وسط قرطاجى متهلن (اى متاثر باليونانية) وذلك لان هذه القصة لا يمكن تفسيرها الا بالالتباس الناشىء عن الشبه الموجود فى النطق بين كلمة (بيرصة) ومعناها باليونانية جلد ثور ، وبين كلمة (بورصة) ومعناها بالفنيقية القلعة والحصن المنيع ، وهو المعنى المقصود هنا •••

وقد توافدت على ذلك المكان جموع من البقاع المجاورة يجلبهم الامل فى الربح ، وعرضوا بضائعهم الكثيرة التى اتوا بها معهم ، ثم استقروا بانفسهم فى ذلك المكان ، واتت وفود اوتيكة بالهدايا لمن كانوا يعتبرونهم كاخوة ومواطنين لهم ••• وهكذا تاسست (قرط حدشت) اى المدينة الحديثة التى سماها اليونانيون (قرخيدون)

والرومانيون (قرطاغو) ، والعرب (قرطاجنة) ونسميهـا اليـوم (قرطاج) وكثرة الاسماء تدل على قيمة المسمى ...

ـ انتحار عليسة (١)

« وكان الناس يتسابقون فى الحديث عن (عليسة) ملكة قرطاج، ويتبارون فى الكلام عن فتنة جمالها ، وعذوبة صوتها ، ورشاقة قدها، وظرف حديثها ...

« وبلغت احاديثهم سمع (يوباس) ملك الليبيين، فارسل فى طلب الذين يتزعمون المدينة الجديدة ، واشعرهم بانه يريد الزواج بملكتهم وان رفضها ينجر عنه حرب ضروس تنتهى بمدينتها الناشئـة الى الخراب العاجل والفناء المحقق .

« ولما عاد الرسل احتالوا فى عرض هذا المطلب على مسمـع الملكة وقالوا لها إن الملك يبحث عن شخص يقدر على تهذيبه وتهذيب شعبه وبث آداب المتمدنين فى رجاله ... ثم اردفوا كلامهم بقولهم : «ولكن من الذى يرضى ان يهجر وطنه واهله الى شعب يشبه ابناؤه الوحوش خشونة وجفافا ، ليهذب مشاعرهم ، ويرقق طباعهم ، ويحمل نفسه كل هذه المشاق والاتعاب ؟

« فلامتهم على تقاعسهم ، واخـذت تشرح لهم بان احتمال الحيـاة العسيرة والثقيلة تهون فى سبيل الوطن ، وان ما يعود على الامـم المجاورة من خير على يد الفاتحين مرده لهم ومرجع فضله اليهم .

« فشدوها بقولها، واطلعوها على رسالة الملك، وبسطوا لها حقيقة الامر ، وطلبوا منها ان تبدأ بنفسها باتباع ما اشارت به . فاحست بان كلامها اوقعها فى الشرك ، لانها كانت تكبر عهدها ، وتحتـرم وعدها ، وتعتبر نفسها مثلا اعلى للشعب به يقتـدى وعلى ضوئـه يسير ...

« ولكنها من جهة اخرى لا تستطيع الاجابة لهذا الاثـم ، فهى لم تتجشم مشاق السفر ، ولم تتحمل اخطار الهجرة وعذاب الاغتراب الا مرضاة لزوجها فى قبره .

« والتزمت الصمت قليلا ، ومر بخاطرها طيف زوجها الذى فجعها فيه جشع اخيها ، فحركتها الذكرى الى الحنين اليه ، فانفجرت باكية ترثى زوجها ، وتندب مصيرها . ثم طلبت اليهم ان يمهلوها ثلاثة

(١) عن الدكتور توفيق الطويل بتصرف .

اشهر ، وقالت انها سوف تذهب اين يناديها حظها وحظ المدينة :

« وقبل انتهاء ذلك الاجل امرت باقامة كومة من الحطب بطرف المدينة ، واشعلت النار فيها ، وقدمت لها القرابين من شياه وثيران ثم ارتقت بنفسها تلك الكومة والسيف بيدها ، والتفتت الى شعبها وهى تقول : « **انكم تريدون منى ان اذهب الى زوجى ٠٠٠ ها انذا ذاهبة** » ثم استلت سيفها من غمده وغيبته فى صدرها والقت بنفسها فى النيران • وهكذا انتهت عليسة وهكذا صارت تقدس بقرطاج مثلما تقدس الآلهة ! »

ـ ماذا نستنتجه من هذه القصة ؟ وكيف نفسر انتحار الملكة ؟

ان كثيرا من الاقوام البدائية كانوا يعتقدون ان سعادة القبيلة وازدهارها ، وعمران الطبيعة نفسها ، كل ذلك مرتبط ومتصل بوجود قوة مقدسة ، او طاقة كامنة ومتجسمة فى شخص رئيس القبيلة • وهذه الطاقة تتضاءل وتتناقص مع الايام والسنين ، وبطول المدة ، ولا يمكن تجديد او ارجاع تلك القوة المقدسة الا بوسيلة واحدة وهى التضحية بالملك الذى ينبغى ان يجود بنفسه وان يتقدم قربانا للالهة ، ثم بعد موته تقام له الشعائر الدينية •

ويقع تقديم هذا القربان البشرى فى الغالب اثر زواج دينى يقترن فيه العاهل بالاهة تمثل الارض التى هى بمثابة امنا • ومفعول هذا الاقتران المقدس ، وهذه التضحية الكبرى ، نوع من الالتقاح يعم كل شىء ، وينجر عنه اخصاب التربة ، واكثار النسل والاولاد ، وكل الخيرات •

وان اسطورة موت عليسة تتفق تمام الاتفاق مع هذه العادة المتبعة فى الطقوس الدينية عند الاقدمين • فان الملك الليبى الذى ارادوا ان يزوجوا به عليسة يمثل القوة والطاقة المسيطرة بالارض الافريقية والتى ينبغى استمالتها واستعطافها لفائدة القادمين الجدد حتى يتم التوفيق بينها وبينهم • وان انتحار عليسة واحتراقها وسط النيران يمثل التضحية ويعتبر قربانا تكون عاقبته خيرا ونتيجته ازدهار المدينة الجديدة ونجاح اعمالها ورضاء الآلهة عليها • • •

ونحن نعرف من جهة اخرى ان الفنيقيين كانوا يتعاطون التضحية

الملوكية وهى عادة تركت اثارها بمصر واقريطس • وان القرطاجيين الذين اشتهروا بمحافظتهم على تقاليد آبائهم وبشدة اعتقادهم فى الاوهام والخرافات،قد بقوا متمسكين ومتشبثين بتلك العادةالوحشية مدة طويلة • ففى سنة ٤٨٠ ق • م • نرى الملك عملقار (وهو غير عملقار برقة ابى حنبعل) يلقى بنفسه فى النيران مثلما فعلت بنفسها عليسة ، وذلك اثر انهزامه امام اليونانيين بمدينة هيمير بصقلية•• ومثلهما ايضا القت زوجة صدر بعل بنفسها فى الحريق مع ولديها سنة ١٤٦ ق• م• اى اثر انتصار الرومانيين فى الحرب البونيقية الثالثة •

ولكنهم كانوا احيانا يعوضون الملك بضحية اخرى اقل قيمة منه، غير انها تقاربه نوعا ما ، حتى لا تتالم الآلهة من ذلك التعويض ، فكانوا يختارون فى الغالب واحدامن اولاد الملك او احد ابناء الاشراف والعائلات الاستقراطية كما سنرى ذلك فى مكانه •

ـ موقع قرطاج

اختارت عليسة لتاسيس قرطاج شبه جزيرة خارجة فى البحر لها شبه كبير بالموقع الجغرافى الذى تاسست فيه مدينة صور ، خصوصا اذا اعتبرنا ان سبخة اريانة كانت متقدمة وداخلة فى البر اكثر مما نشاهده اليوم ، وكانت عبارة عن خليج كبيريسمى خليج اوتيكا ، وان مصب وادى مجردة كان لا يبعد عن مدينة قرطاج باكثر من عشرة كيلومترات فقط • فالردم الذى احدثه وادى مجردة بنقل التراب والغرين كان عظيما جدا ، ونشا عن رسوب مجردة سهل السكرة الذى زاد فى عرض البرزخ او العنق الفاصل بين خليج اوتيكا من جهة والبحيرة من جهة اخرى ، وزاد كذلك ابتعاد مصب مجردة عن مدينة قرطاج نحو غار الملح حتى ان اوتيكا التى كانت فى ذلك العهد مرسى على شاطىء البحر اصبحت الآن تبعد عشرة كم•

ومن جهة اخرى فان الوادى المليان الذى ينصب فى خليج تونس قد جرف هو الاخر غرينا ورسوبا وكون بذلك برزخ «تينيا» جنوب حلق الوادى •

اما البحيرة فلم يكن فيها كثير من الوحل الراسب فى قعرها

مثلما هى عليه الان ، بل كانت مرسى فسيحا صالحا لارساء المراكب حتى عند اشتداد الزوابع والعواصف ٠

وبالجملة فان عليسة كانت موفقة كل التوفيق فى اختيارها ذلك الموقع الممتاز الذى سيجعل من قرطاج اجمل ثغر على شاطىء افريقية الشمالية يهيمن على اتصال الشرق بالغرب ، فيبسط للشرق يمناه ، وللغرب يسراه ، شان عاصمة جمهوريتنا الفتية فى الوقت الحاضر ٠

ـ عظمة قرطاج

وقد عاشت قرطاج فى بدايتها عيشة متواضعة ، خالية من كل ابهة وعظمة ، تكاد تكون مجهولة ٠٠٠ ثم اخذ شانها يعظم شيئا فشيئا ، بقدر ما كان يتضاءل شان صور بفنيقيا ، الى ان بلغت فى اواسط القرن السادس ق ٠ م ٠ اقصى درجة فى العمران والغنى ، واعلى مكانة فى القوة والسيادة ، فكانت حينئذ جديرة بان تخلف صور التى وقعت تحت سيطرة بختنصر (Nabuchodonosor) ملك البابليونيين (٥٧٤ ق ٠ م ٠) ، ثم تحت نفوذ الفرس (٥٣٩ ق ٠ م ٠) ثم فى نهاية الامر فى قبضة اسكندر الاكبر المقدونى الذى دخلها عنوة بعد حصار طويل دام سبعة اشهر وبعد ما اضطر الى ردم البحر الفاصل بين الساحل الفنيقى والجزيرة (٣٣٢ ق ٠ م ٠) ومن ذلك الوقت صارت تلك الجزيرة متصلة بالبر (انظروا الرسم)

وقد هدم اسكندر مدينة صور تهديما ، وفر غالب اهلها الى قرطاج ، اى المدينة التى كانت انشاتها وهياتها حكومة صور الى مثل هذه الظروف ومثل هذه الايام العصيبة ٠ ويمكن ان نقول بان عظمة صور لم تنته بانتهاء صور بل انتقلت من فنيقيا الى قرطاج طبق الخطة السياسية التى كانت دبرتها ورسمتها حكومة صور عند ما فكرت فى انشاء مدينة قرطاج حتى تخلفها وتلجا اليها اذا جار عليها الدهر ودارت عليها الدوائر ٠ فكان الامر مثلما كانت توقعته تماما ٠

ـ قرطاج خليفة صور

خلفت قرطاج امها صور لما فقدت هذه الاخيرة استقلالها تمحياتها فكانت خير خلف لخير سلف ، وبدات قبل كل شىء بجعل جميع

مستعمراتها ومراكزها التجارية تحت نفوذها ، وكذلك خلفتها فى هيمنتها البحرية وفى نشاطها التجارى ، وخلفتها ايضا فى سياستها الاستعمارية ، فاخذت تزداد تدريجيا فى التوسع وفى مد سيطرتها وسلطانها على البلدان والجهات المجاورة ، فحل القرطاجيون بالجزيرة اليابسة (١) Ivica سنة ٦٥٠ ق ٠ م ٠ ، واحتلوا سواحل منورقة ، واستولوا على مراكز استراتيجية بصقلية ٠

وفى سنة ٥٣٥ ق ٠ م ٠ اطرد القرطاجيون اعداءهم ومزاحميهم اليونانيين من جزيرة كرسيكة واقاموا فيها مكانهم حلفاءهم الاتروريين Etrusques بعد ما ابرموا معهم معاهدة صداقة وجوار ومجاملة ٠٠٠ وكذلك انتصب القرطاجيون بسردينية واسبانيا ٠٠٠

وفى سنة ٥٠٠ ق ٠ م ٠ ابرمت قرطاج اول معاهدة صداقة وتحالف مع رومة ٠

وهذا كله يقيم الدليل على قوة قرطاج وشدة صولتها وشوكتها فى ذلك التاريخ ٠

وكانت قرطاج تحرص كل الحرص وتغير على امتيازها فى البحر واحتكارها للتجارة ، فكانت تامر باغراق كل الاجانب والدخلاء الذين يحاولون الاتجار مع سردينية ، او يتعمدون الاتجاه نحو اعمدة هيرقليس (اى جبل طارق) او نحو السرت الصغير (اى خليج قابس) ٠

وكانت كلما ابرمت معاهدة صداقة وتحالف مع دولة اخرى لا تغفل عن ادخال شرط فى تحجير المعاملات التجارية بين تلك الدولة والممتلكات البونيقية ٠

مثال ذلك : المعاهدة المبرمة بين قرطاج وروما والتى كنا اشرنا اليها وهذا نصها :

---

(١) اليابسة: هى احدى الجزر الشرقية او جزائر البالبار ، وهى ثلاث : منورقة ومبورقة ويابسة (قرب اسبانيا)

« بين الرومانيين وحلفائهم من جهة،والقرطاجيين وحلفائهم من جهة اخرى ، وقع التحالف على الشروط التالية :

لا يمكن للرومانيين ولا لحلفائهم ان يتجاوزوا فى ابحارهم الراس الجميل Beau promontoire (١) اللهم الا اذا كان ذلك لاسباب قاهرة كالزوابع او مطاردة الاعداء ، فعند ذلك يكونون مدفوعين غصبا عنهم ورغم انوفهم ، ولا يرخص لهم اشتراء او اقتناء اى شىء الا ما كان ضروريا لترميم سفنهم وجلفطتها (٢) او لاقامة شعائرهم الدينية ··· ويجب عليهم ان يرتحلوا بعد خمسة ايام ··· »

وهذه المعاهدة يرجع عهدها الى مدة القنصلين يونيوس بروتوس وماركوس هوراتيوس ، وكانا من ابطال رجال الثورة والمقاومة لازالة الملكية واقامة الجمهورية بروما (سنة ٥٠٩ ق · م ·)

ونفهم من ذلك ان القرطاجيين كانوا لا يسمحون للرومانيين بتجاوز الحدود المذكورة والابتعاد عن راس سيدى على المكى نحو الجنوب خشية من ان يكتشفوا الحقول الخصبة الكائنة بنواحى مزاق Byzacène والنشاط التجارى بالسرت الصغير (جهة قابس) وهو ما يسمى عندهم بجهة الاسواق التجارية

وبزيادة قوتها وعظمتها ، زادت المدينة اتساعا وكبرت وامتدت وانشىء فيها مرسى كان من اهم مظاهر فخرها وعزتها ·

ـ مرسى قرطاج

بحث م· بيلى M. Beulé سنة ١٨٥٩ عن موقع هذا المرسى، فوجد آثاره شمال جون الكرم ، بين صالمبو ودرمش ، حيث نشاهد اليوم بحيرتين يلمع ماؤهما تحت اشعة الشمس ، احداهما منسبتة ومستطيلة وهى القريبة من جون الكرم ، والاخرى مستديرة وهى الان فى شكل هلال (انظروا الصورة ···) وقد حفر م· بيلى فى

---

(١) الراس الجميل الذى ذكره بوليبس هنا كان يسميه بعضهم ايضا راس ابولون Promontoire Apollon وقد اطلق عليه العرب بعد ذلك اسم راس سيدى على المكى وبه بلدة رفراف وبلدة غار الملح Porto-Farina

(٢) جلفط السفينة او قلف السفينة بتشديد اللام (ونقول باللغة الدارجة قلفط) ادخل بين مسامير الالواح وحزوزها خرقا وليفا ومشاقة الكتان ومسحها بالزفت والقاز·

ذلك المكان وبحث وفتش ونقب وتوصل الى نتائج على غاية من الاهمية والفائدة رغم الصعوبات التى اعترضته .

فان هذا المرسى قد ردمت الرمال اكبر جانب منه الى درجة جعلت المقيمين هناك من العرب يزرعون الكروم من شجر العنب والتين ، فى ذلك المكان الذى اطلق عليه اسم (الكرم) والذى كان فى الماضى البعيد تجتمع فيه سفن مختلف انحاء العالم ، وكانت تميد وتتمايل وتهتز هناك وهى مربوطة بقلوسها .

وزيادة على ذلك فان الوزير الاكبر مصطفى خزنه دار شيد هناك محلا للتنزه اى فى نفس موقع مرسى قرطاج الذى صار قطعة ارض من املاكه على شاطىء البحر ، وكذلك الجنرال خير الدين وزير البحرية فهو بدوره بنى لنفسه محلا آخر يبعد عن الاول بمائتى ميتر .

ورغما عن هذه الصعوبات والعراقيل فان م. بيلى تحصل من الوزيرين على الترخيص فى حفر وتخريب ملكيهما على شرط ان يعيد كل شىء على ماكان عليه من قبل . وهكذا شرع م. بيلى فى اعماله ووجد ان مرسى قرطاج كان مزدوجا ، اى مؤلفا من قسمين (انظروا المثال ...) :

ـ المرسى التجارى

كان خاصا بالمراكب التجارية ، وكان مستطيل الشكل ، طوله ٤٥٦ م . وعرضه ٣٢٥ م . يحيط به رصيف يكنفه جداران سمك الاول ١،٢١ م. وسمك الثانى ٠،٨٢ م . والبعد الفاصل بينهما ٢،٥٠ م. وهكذا يكون عرض الرصيف ٤،٥٣ م . داخل فيها سمك الجدران . وبذلك المرسى مدخل او حلق Goulet يفتح على جون الكرم عرضه ٥،٦٥ م . على مسافة طولها ١٢٦ م . يكنفه من جهة الشاطىء جدار سمكة ٢،١٠ م .وطوله ٣٢٢ م . ومن جهة داخل المرسى جدار سمكه ١،٦٠ م . وطوله ١٢٦ م . فكانالملاحون يصعدون على الحائط ويسحبون السفن بالحبال الى ان تجتاز تلك القناة الضيقة ، وقد بنوا سدا Digue لوقايته من ضرر الامواج ومن رسوب الرمال وما زالت آثاره موجودة الى الان تحت الماء .

ويرى م. بيلى ان هذا المدخل الضيق لم يكن موجودا فى عهد

القرطاجيين بل هو من انشاء الرومانيين الذين استعملوا نفس ذلك المرسى ولقبه البيزنطيون فيما بعد باسم مندراسيوم Mandracium اما المدخل الاصلي فى عهد القرطاجيين فقد اضمحل ويقول بوليبس Polybe وهو من كبار مؤرخي اليونان وكان صديقا لشبيون الايميلي ، ورافق ذلك القائد الرومانى اثناء الحرب البونيقية الثالثة، وحضر بنفسه تهديم قرطاج ، وشاهد المرسى فى ذلك العهد ، يقول بان مدخل المرسى كان عرضه سبعين قدما (اى ما يقرب من ٢٣ م٠) وكان يغلق بسلسلة ٠ ونقل عن بوليبس كثير من المؤرخين ، وعلى الاخص المؤرخ اليونانى آبيان Appien الذى ولد بالاسكندرية وعاش بروما فى القرن الثانى بعد الميلاد ، والف كتابه الضخم (التاريخ الرومانى) ٢٤ مجلدا ، ووصف المرسى التجارى والمرسى الحربى بقرطاج فى المجلد الثامن ، وقال ايضا بان المدخل كان عرضه سبعين قدما وكان يغلق بسلسلة ٠

ولذلك يرى م٠ بيلي ان هذا المدخل الاصلي انطمس بدون شك وسدته الرمال التى كان يجرفها وادى مجردة ،والتى كانت تجرها تيارات البحر وامواجه ٠

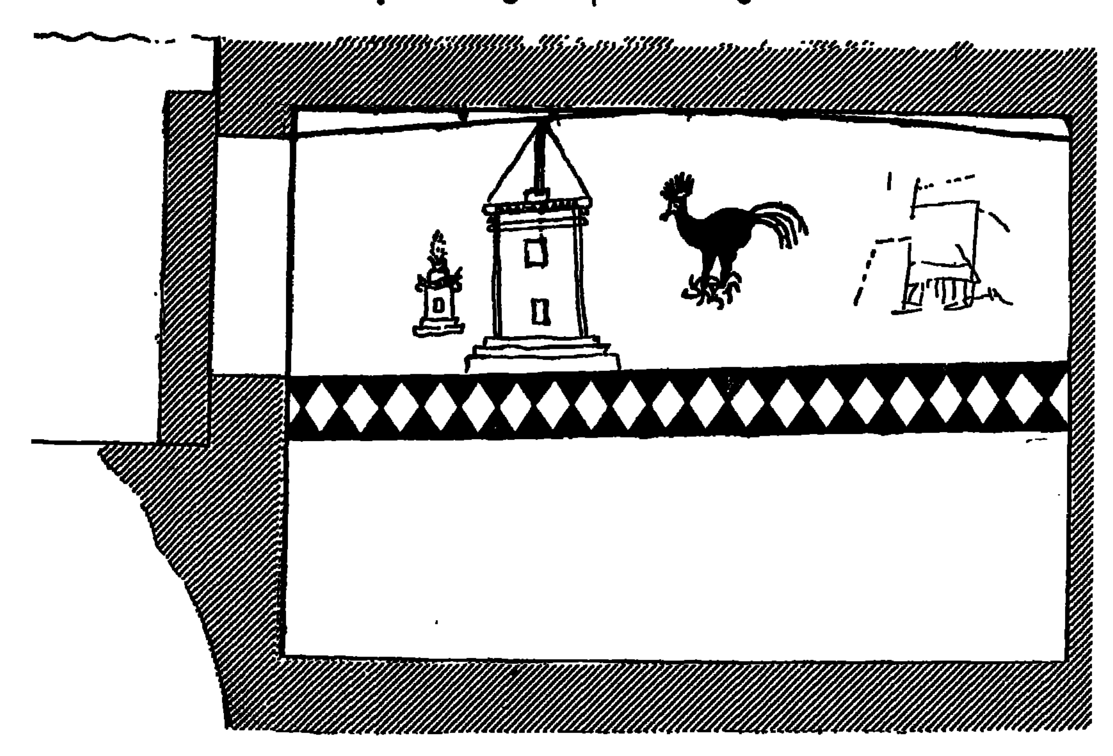
ـ المرسى الحربى

كان خاصا بالاسطول الحربى ، وكان مستدير الشكل ، يعرف باسم القطون (Cothon) ولعل هذه الكلمة مشتقة من قط بتشديد الطاء وفتحها اوقطط بمعنى خرط ونحت وسوى،وذلك لان هذا المرسى لم يكن طبيعيا بل نحته القرطاجيون وانشؤوه وبنوه بايديهم،فكان منظره يشهد لهم بالنبوغ ، ويعبر افصح تعبير عن قوة قرطاج وعظمتها ، اذ ان الجنس البشرى الذى يقدم على الاقامة بجوار ذلك البحر الهائج فوق مثل تلك الصخور القاحلة ، ثم ينحت فى اجوافها واغوارها مثل تلك المرافىء الفسيحة ، لجدير بان يهيمن وبان يسود ، لما اظهره من عبقرية وبراعة ، ولما امتاز به من ميل الى المجازفات والمغامرات الجريئة التى تؤدى وحدها الى الرفعة والازدهار ٠

وتصل السفن من المرسى التجارى الى المرسى الحربى باجتياز مدخل موجود بينهما عرضه ٢٣ م٠ او سبعون قدما ٠ وقد اقام القرطاجيون حواز كثيرة متشعبة ومشتبكة لحجب المرسى الحربى عن الانظار ٠ ومن الغريب ان عرض هذا المدخل هو نفس العرض

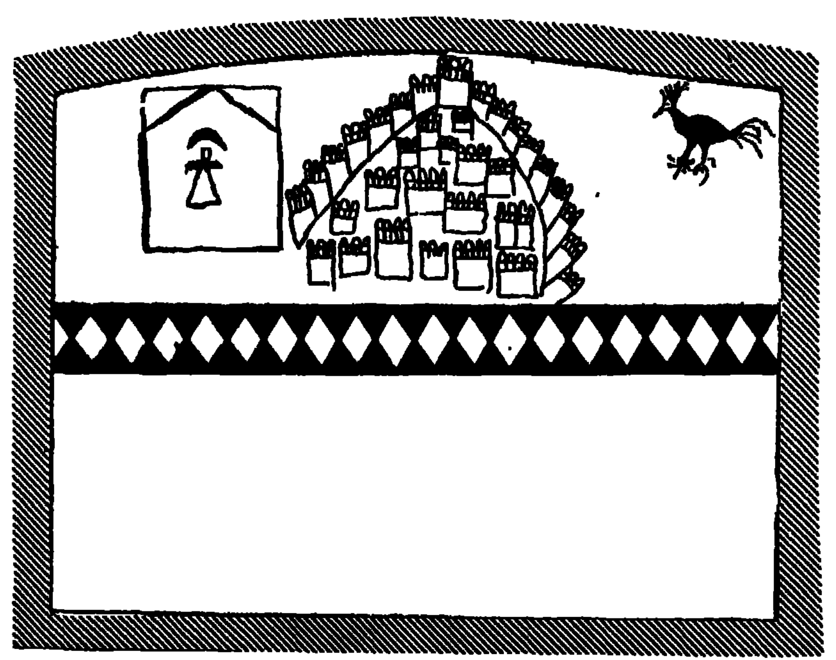
لوحة ٢٥

انظر الصفحة رقم ٩٩ من هذا الكتاب



المقياس

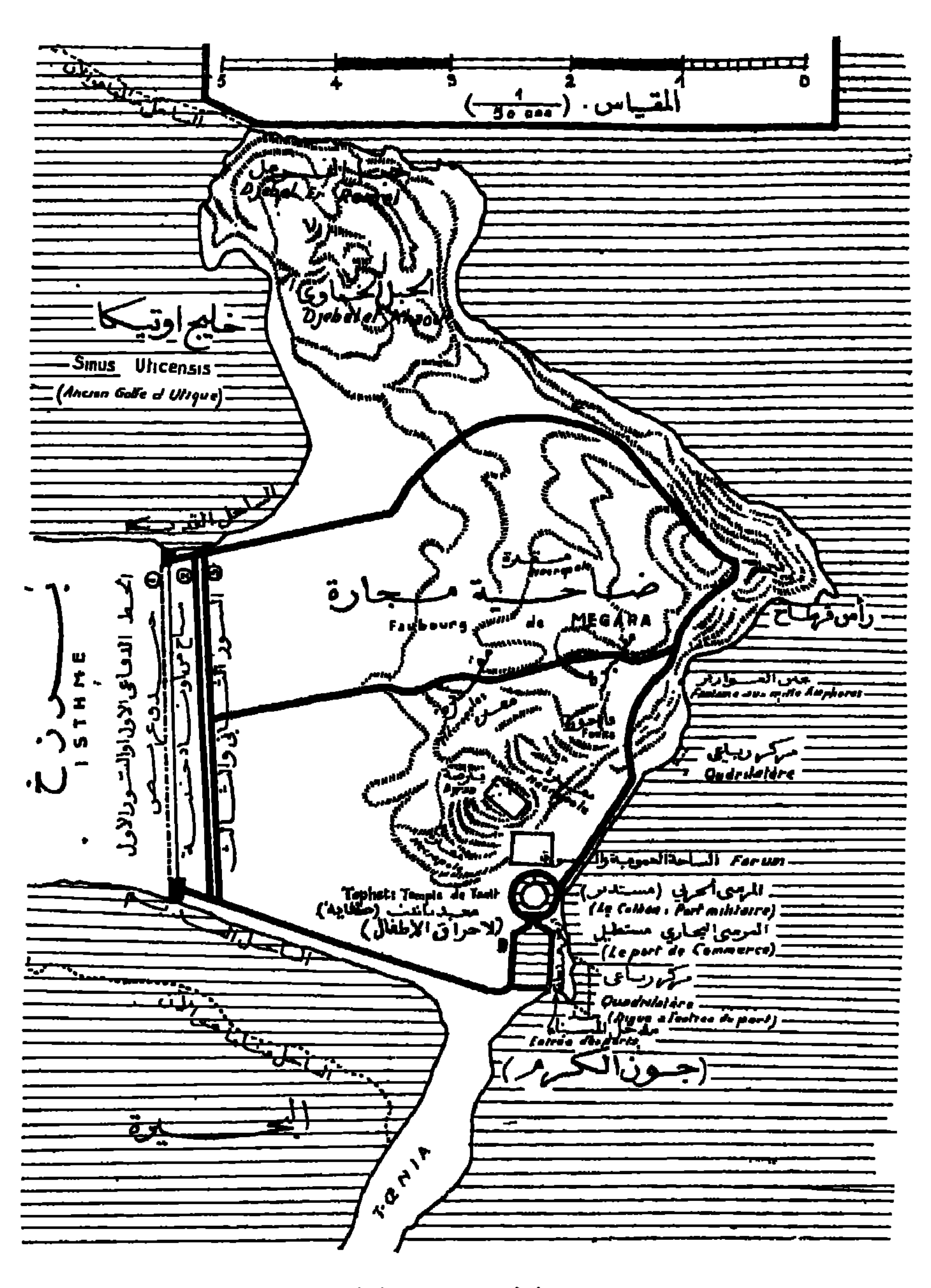
0 1 2



صور مرسومة بقبر بونيقي من قبور جبل الملزة

لوحة ٢٦

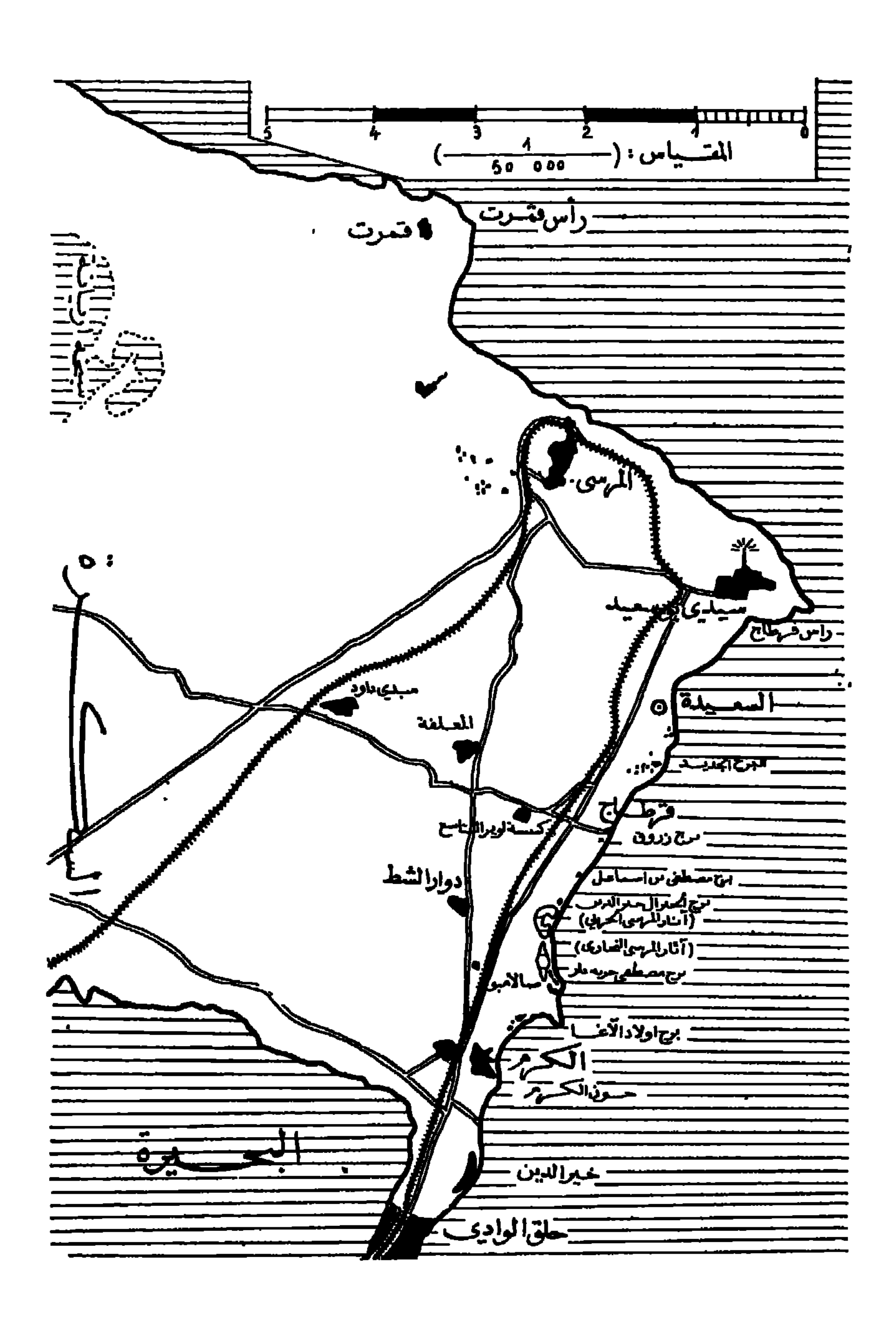
انظر الصفحة رقم ٩١ من هذا الكتاب



قرطاج في عهد الفنيقيين

لوحة ٢٧

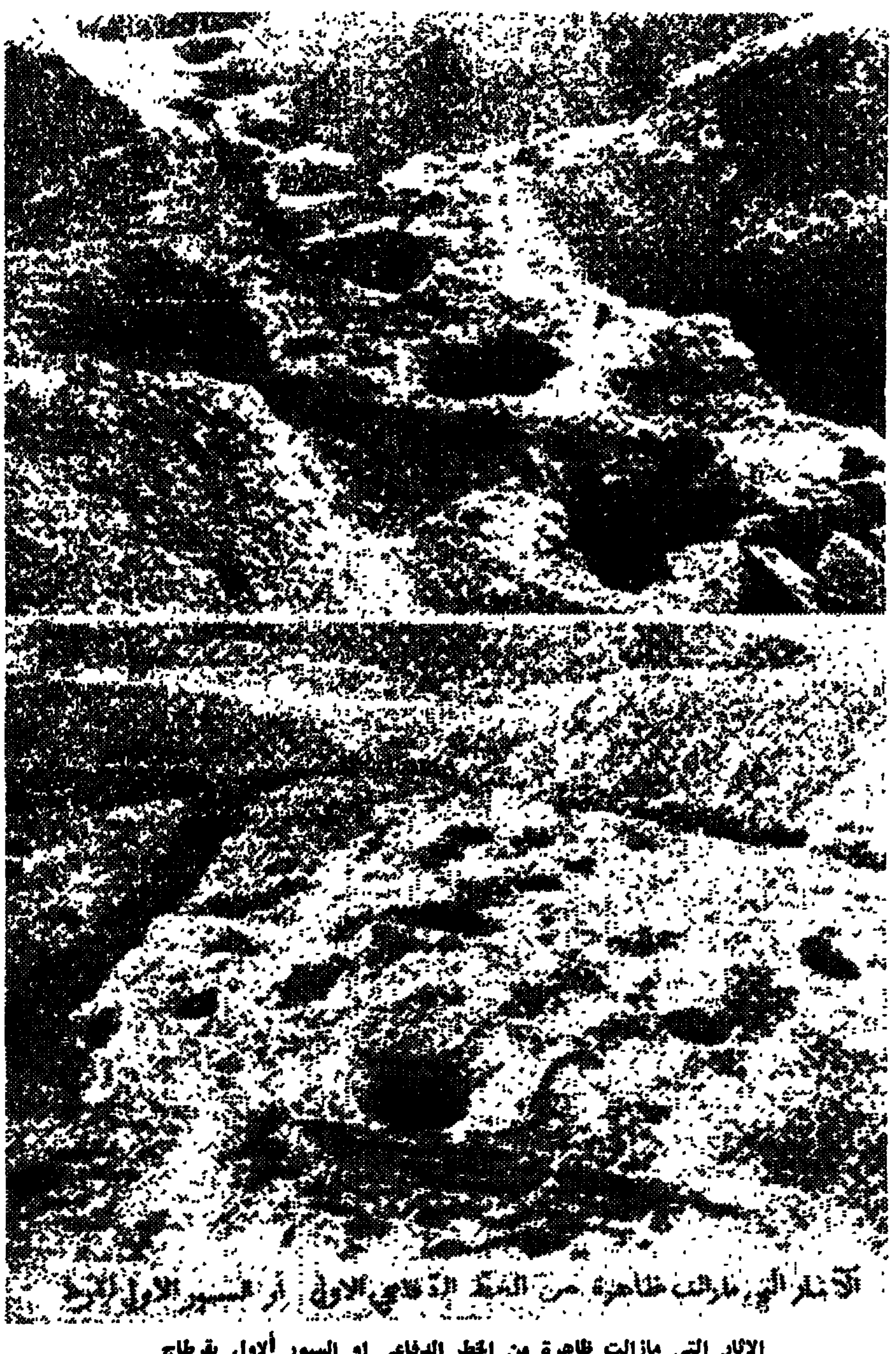
انظر الصفحة رقم ٩١ من هذا الكتاب



قرطاج فى الوقت الحاضر

لوحة ٢٨

انظر الصفحة رقم ١٠١ من هذا الكتاب



الاثار التى مازالت ظاهرة من الخط الدفاعى او السور ألاول بقرطاج

الذى ذكره المؤرخ بوليبس للمدخل الخارجى وقد بنى القرطاجيون على دائرة ذلك المرسى رصيفا quai عرضه ٩،٣٥ م · وطول محيطه ١٠٢١ م· وبه حجرات او والات (cales) لايواء السفن عرض كل حجرة منها ٥،٩٠ م· داخل في ذلك سمك الحواجز الفاصلة بينها والدى بمكن تقديره بثلاثين سنتمترا لكل حاجز ، فيكون عرض الفضاء الحقيقى حينئذ ٥،٦٠ م· وهو يكفى لدخول السفينه ·

وكان مدخل كل حجرة مزدانا بعمودين من المرمر وكانت جملة هذه الاعمدة ٤٤٠ عمودا داخلة فى الجدار يكون من مجموعها منظر بديع خلاب بخاله الرائى روافا مستديرا من اجمل اروقة العالم ·
ولزيادة التفنن فى تعقيد منظر الرواق بكل اتقان اقيمت تلك الاعمدة كاملة بتيجانها واسكافها واطنافها وافاريزها فزادها ذلك رونقا وبهاء (انظروا الصورة ··· ·

وقد بنيت فوق هذه الحجرات مخازن مخصصة لادوات السفن وعتادها ·

وفى وسط هذا المرسى الحربى توجد جزيرة مستديرة ايضا قطرها ١٠٦ م · تسمى جزيرة الاميرالية يحيط بها رصيف مماثل تماما للرصيف المقابل بحجراته واعمدته وزينته وزخارفه ، طول محيطه ٣٣٣ م · وكانت جملة الحجرات بالرصيفين المتقابلين ٢٢٠ حجرة تكفى لايواء ٢٢٠ سفينة حربية · · · ·

وكان هناك ايضا رصيف (jetée) . عرضه ٩،٦٠ م · يربط بين الجزيرة والرصيف المقابل ، ثم يؤدى الى الطريق الموصل الى السوق والساحة العمومية Forum · وهذا الرصيف يقطعه ممر فى وسطه عرضه ٤،٥٥ م · مقام عليه جسر تمر من تحته السفن · وبالجهة الجنوبية من الجزيرة نرى محطة ودرجات معدة للركوب والنزول (embarcadère) وعرضها ٢،٣٠ م· ·

وبهذه الجزيرة مركز الاميرالية اى مقام الاميرال او القائد الاعلى للاسطول ، ومن هناك يقوم الاميرال بالحراسة والمراقبة،ويصدر الاوامر بالنفخ فى الابواق والتذير والنفير وقت الخطر ··· ،،

ورغما عن بعض الاغلاط التى وقع فيها م· بيلى نتيجة اندفاعه احيانا وتسرعه فى الحكم كما اشار الى ذلك ستيفان قسال وغيره من

المؤرخين ، فهو على كل حال قد اعتدى الى موقع مرسى قرطاج بالضبط وبين لنا بكيفية مدققة شكل المرسى التجارى والمرسى الحربى ، وافادنا بنتائج ابحاثه التى كانت مطابقة لما رواه قدماء المؤرخين امثال بوليبس وآبيان واسترابون وديودورس الصقلى ٠

ـ الساحة العمومية ـ البيوت والاسوار

ونجد بالقرب من المرسى الحربى ، سهلا يمتد على مسافة تبلغ سبعمائة ميترا تقريبا حيث كانت توجد الساحة العموميه ، فى منتصف الطريق بين المرسى الحربى وبيرصة او بورصه (Byrsa) والساحة العمومية هى الفوروم Forum عند الرومانيين ، والاغورة Agora عند اليونانيين ، والرحبة او البطحاء عند التونسيين ، وكانت تلعب فى الوقت نفسه دورا تجاريا ، ودورا سياسيا ، ودورا دينيا ٠

فكانت هناك السوق ، وكان هناك مجلس الشيوخ (Sénat) ، وقصر العدالة حيث كان القضاة يفصلون الدعاوى ويصدرون الاحكام وكان هناك معبد ابولون ، وكان هناك المحفل او دار الندوة حيث كان يجتمع الشعب للمناقشة والمذاكرة ٠

ويمكن ان نسلم بوجود اروقة كانت تحيط بتلك الساحة مثلما نشاهده غالبا باسواقنا ، وذلك لان بوليبس اشار الى ذلك فى تاريخه ، فقال ان حنون القائد القرطاجى فى منتصف القرن الرابع ق ٠ م ٠ اراد استهواء الشعب واستمالته اليه ، فاقام مادبة فاخرة تحت الاروقة العمومية ٠

وقد عثر فى السنوات الاخيرة على حى قرطاجى بتمامه وكماله فى جهة دوار الشط اى جنوب بيرصة ، وكشف عن منازل وبيوت كانت مدفونة تحت الارض تعلوها طبقة سميكة من رماد حريق الحرب البونيفية الثالثة ، ووجدت وسط ذلك الرماد نقود واخزاف بونيقية مبعثرة هنا وهناك ٠ وان هذا الحى اصبح الان ظاهرا بتمامه فى عمق ثلاثة او اربعة امتار ، تحت الطبقة الرومانية ، بشوارعه المستقيمة وبواليعه ، ودياره ، وجدرانه التى بقيت قائمة فى ارتفاع ما يقرب من المتر ٠

ومن الساحة العمومية كانت تصعد ثلاث طرقات الى هضبة بيرصة حيث شيد معبد اشمون Eshmoun (او اسكولاب (Esculape) حامى

مدينة قرطاج وهو اول معبد وقع بناؤه عند تاسيس المدينة ٠

وبنيت على جوانب هذه الطرقات ، اى على اليمين وعلى الشمال ، بيوت ذات ست طبقات او اكثر بسقوف مسطحة ، ونوافذ من خشب وكانت مزدحمة بالسكان ، تمتلئ الحجرة الواحدة منها باسرة كبيرة يتكدس افرادها بين جدرانها كما تفعل النمال فى جحورها، يفترشون ارضها كلما ناموا حتى يحين موعد العمل ٠

على ان البيوت تتمايز وتختلف فى مستواها باختلاف الاحياء شان كل المدن فى مختلف العصــور ، فانك لــو مضيت الى حيث يقيم الاغنياء فى ضاحية مجارة (Magara) لرايت آيات العز ،ومعالم الترف ، وروائع الفن ، وآثار الحضارتين المصرية والاغريقية ٠٠٠ لكن كيف يمكن ان نتصور هذه البيوت الشبيهه بناطحات السحاب بالنسبه لذلك الوقت ؟

ان الصور البسيطة الساذجة ، التى زين بها ضريح بونيقي وجد بالوطن القبلى ، ربما ابقت لنا شبح هذه البيوت وحافظت لنــا عن خيالها ومكنتنا من تصور شكلها ٠ فما شان هذه الصورة وما شان هذا الضريح ؟

لقد وقع العثور بجبل املزة بالــوطن القبلى ، مــا بين قليبيــة والهوارية ، فى مكان يقال له كركوان ، يبعد نحو ١٢ كم عن قليبية على قبور فى صورة دياميس منقورة فى الحجر الاسفنجى الهش (tuf) الموجود بكثرة بالسواحل التونسية ، ومحفورة فى عمق ثلاثــة او اربعة امتار ، يقع النزول اليها بواسطة درج منقورة هى ايضــا فى الصخر ٠ وهذا مما يقيم الدليل على اختيار القرطاجيين لهذا النوع من الحجر الاسفنجى الموجود بالسواحل الافريقية وميلهم اليه لنقر قبورهم التى يسميها سكان البلاد التونسية بالداموس (دواميس) او الديماس (دياميس) ، وهى موجودة بكثرة كما تــدل عليهــا اسماؤها مثل غار الداموس بكركوان ايضا قــرب جبــل املــزة ، والدويمس بقرطاج ، وراس الديماس قــرب المكنين بالساحــل ، والدواميس ، وغير ذلك وهو كثير بهيبون والمهدية وسلقطة ٠ ٠ ٠

وكانت جوانب احد هذه الدياميس الموجودة بجبل املزة مزينــة بصور مرسومة بالمغرة الحمراء (انظروا الرسم ٠٠٠)

ففى الجانب الايمن بالنسبة للمدخل رسم المصــور فى الــوسط ضريحا كبيرا (mausolee) يرتكز على ثلاث مصاطب يتكون منها

سلم ذو ثلاث دراجات ويذكرنا ذلك بالضريح البونيقي الموجود بدقة ورسم على اليسار صورة مذبح للقرابين المقدسة (autel) ، مقام على قاعدة ذات درجتين وتتصاعد من مائدته لهيب الذبيحة ودخانها، وعلى يمين الضريح ديك وهو الذى سيقدم ضحية وقربانا للموتى وفى الجانب الايسر ، وهو الذى يهمنا الان ، رسم المصور اطارا جعل فيه هلالا معكوسا تحته رمز تانيت ، وبجانب ذلك صورة كبيرة تمثل مدينة محصنة يظهر كانها ممتدة فوق منحدر • فخطط سورها في شكل مقوس ، وهو مؤلف من سبعة عشر برجا ، ثم رسم داخل السور سبعة عشر بيتا تبدو من اول وهلة كأنها مماثلة لابراج السور ، لكن اذا تأمل فيها الناظر من قريب وأمعن فيها النظر تبين له انها تتألف من طبقة أرضية غليظة وثقيلة وخالية من النوافذ ، يعلوها رواق معمد ومتوج بسلسلة من الاقواس المحنية والقباب المستديرة •

ونفهم من ذلك ان القرطاجيين كانوا يستعملون الطبقات فى غالب بناءاتهم ويتوسعون ويمتدون صعودا وارتفاعا • فنحن قد رايناهم كيف كانوا يبنون فوق حجرات السفن مخازن للادوات والمعدات البحرية المختلفة ، وسنراهم بعد هذا كيف كانوا يجعلون فى اسوارهم وحصونهم سراديب وطبقات بعضها فوق بعض ، وها نحن نرى ايضا كيف كانت بيوتهم ومنازلهم مؤلفة من ست طبقات او اكثر ، كان المتنفس الحيوى لم يكفهم عرضا فاخذوا حاجتهم منه ارتفاعا • ويظهر ان القرطاجيين اقتبسوا شكل منازلهم من النمط اليونانى مثلما اخذوا عن اليونانيين جميع ما يتعلق بوسائل حفظ الصحة ووسائل الرفاهية التى لم تكن مجهولة عندهم • فقد كانت منازلهم مشتملة على غرف الاستحمام باحواضها ومغاطسها وبواليعها لخروج المياه الوسخة الى غير ذلك ...

وبالجملة فان قرطاج بديارها البسيطة المبيضة بالكلس وبسطوحها وقبابها ، وبانهجها الضيقة والملتوية ، كانت تشبه كل الشبه مدن البلاد التونسية فى الوقت الحاضر •

والان فلننتقل الى اسوار قرطاج !

ان بوليبس الذى حضر بنفسه وشاهد الحرب البونيقية الثالثة بقرطاج ترك لنا وصفا دقيقا للاسوار الثلاثة التى كانت تحيط بالمدينة ويقول بان قرطاج كانت فى حصن حصين تحميها اسوار

ضخمة ومربعة جملة طولها ٣٤ كم ٠ وارتفاعها ١٣ م ٠ وسمكها ٩ امتار ، تشتمل على برج دفاعي بعد كل ستين مترا تقريبا ، وكانت هذه الاسوار شاهقة في الفضاء سميكة وعريضة حتى ان قاعدتها كانت تستعمل كثكنة للجند ٠ فعدد الاسطبلات بالطبقة الارضية السفلى كان يكفي لايواء ثلاثمائة فيل مع كل ما يلزمها لمعاشها ، والطبقة الموجودة فوقها كانت تكفي لايواء اربعة آلاف من الخيل مع ما يلزمها من شعير وعلف مدة حصار طويل ، وزيادة على ذلك فان عشرين الفا من المشاة واربعة آلاف من الفرسان كانوا يقيمون ايضا وسط تلك الاسوار العظيمة التي كانت عبارة عن معسكر باتم معنى الكلمة بسراديبه وطبقاته ٠

وكان السور الاول الخارجي او الخط الدفاعي الاول عبارة عن حفير كبير او خندق عرضه عشرون مترا وكان مشفوعا بسياج من اوتاد ، وكان السوران العظيمان يرتفعان من وراء ذلك الخط الدفاعي الامامي ، ولذلك نرى بوليبس يشير الى وجود اسوار ثلاثة في الجملة

ولم يبق اى اثر لهذين السورين ، وذلك لان الصخور الكبيرة التي نسفها وهدمها جنود القائد شبيون سنة ١٤٦ ق ٠ م ؛ قد وقع استعمالها كلها فيما بعد واول من استعملها هم الرومانيون انفسهم لما اعادوا بناء قرطاج ٠

اما الخندق العريض الذى كان امامهما فهو مازال ظاهرا الى الآن ويمكن رؤيته بسهولة من الطائرة ، وهو يبدو كخط واضح وبارز يشق ارض السكرة على مسافة تقرب من ثلاثة كيلومترات ٠٠

وان الجنرال ديفال قد اكتشف هذا الخندق سنة ١٩٤٩ وشرع في حفره ونبشه فوجد حاشية صخرية تمتد بجانبه من الجهة الشرقية فيها حزوز وجروح كثيرة ،وحفر مستديرة مرتبة ترتيبا خماسيا(١) ومازال في البعض منها قعور قوارير الفخار ، وكانت هذه الحفر معدة بدون شك لركز اوتاد من الخشب ، وهذه الاوتاد كانت تحمل المراصد فوق السد من التراب الذى كان مكدسا من وراء الخندق ليتكون منه السور الاول ٠ (انظروا الصورة ٠٠٠)

اما بيرصة (Byrsa) او الاكروبول (Acropole) اى القسم الاعلى من المدينة ، وهو اول جزء وقع تاسيسه وتشييده عند قدوم الفنيقيين مع عليسة ، فقد كان اكثر تحصينا من اى مكان آخر

(١) الترتيب الخماسي (quinconce) هو ترتيب الاشياء بحيث يتكون من مجموعها مربعات متساوية ومتلاصقة مع وضع واحد من تلك الاشياء في وسط كل مربع ٠٠٠ فيمكن مثلا زراعة الاشجار حسب الترتيب الخماسي

بقرطاج ، اذ كان يحيط باعلى الهضبة التى نرى عليها اليوم كنيسة لويز التاسع فى نفس المكان الذى شيد فيه الفنيقيون معبد اشمون، كان يحيط باعلى تلك الهضبة سور سمكه ميتر واحد وطوله ١٠٦٠ م:

١٩٠ م على الواجهة الشمالية الغربية والواجهة الجنوبية الشرقية

٣٤٠ م على الواجهة الجنوبية الغربية والواجهة الشمالية الشرقية

الجملة ١٠٦٠ م

وهذا السور هو الذى تتكون منه (قلعة بيرصة) المنيعة وقد اكتشف الاب ديلاتر (Père Delattre) والاب لابير (Père Lapeyre) آثار هذا السور اثناء الحفر والنبش والتنقيب سنة ١٩٣٧

ويحيط باسفل الهضبة سور ثان ذكر المؤرخون ان طوله كان اكثر من الفى خطوة وهو ما يقرب من ٣٠٠٠ م ٠

ان ما ذكرناه يعطينا فكرة واضحة فى اهمية اسوار قرطاج التى جعلت حقيقة هذه المدينة فى حصن حصين وفى مامن من الهجومات، الى ان حل بها قضاء الله ، ولا راد لقضائه ٠٠٠

خلاصة ما تقدم

ـ كا نموقع قرطاج ممتازا فوق شبه جزيرة خارجة وسط آدار (الهوارية)

ـ وكان شان هذه المدينة يعظم شيئا فشيئا الى ان بلغت بعد ما يقرب من مائتى سنة من تاسيسها اقصى درجة فى القوة والعظمة ٠

ـ كان بها مرسى تجارى مستطيل ، يقع الدخول اليه من جون الكرم ، ويليه مرسى حربى مستدير فى وسطه جزيرة الاميرالية ٠

ـ وكانت الساحة العمومية الدائرة بالاروقة قريبة من المرسى الحربى ، وكان بها السوق ومجلس الشيوخ ، وقصر العدالة ، وكانت هذه الساحة مكان اجتماع الشعب للمذاكرة والمناقشة ٠

ـ ومن تلك الساحة يقع الصعود الى الهضبة ، التى شيد فوقها معبد اشمون ، من ثلاثة شوارع بنيت على جانبيها بيوت ذات ست طبقات او اكثر ٠

ـ وكانت تحيط بقرطاج اسوار منيعة بسمكها وارتفاعها لم يبق منها سوى آثار الخط الدفاعى الامامى ، وبعض آثار من السور الذى كان يحيط باعلى هضبة بيرصة ٠٠٠

النظام السياسي وشكل الحكومة بقرطاج

اولا : من البداية الى نصف القرن السادس

ان النظام السياسي بقرطاج كان بدون شك في البداية نظاما ملوكيا مثلما كان موجودا بفنيقيا وبمدينة صور تقريبا ٠

وان اقدم ملك وصلت الينا اخباره هو (عملقار) الذي كان يعيش في اوائل القرن الخامس والذي حدثنا عنه هيرودوتس فقال انه تولى الملك على القرطاجيين لاجل قيمته ٠ ونفهم من ذلك ان تعيين الملك لم يكن وراثيا بل كان يقع بالاختيار ، ولو ان قرطاج في الواقع ، من يوم تاسيسها الى يوم سقوطها واضمحلالها ، كانت تهيمن عليها ارستقراطية ترتكز في آن واحد على الثروة والنسب ٠

وقد اشار يوستينيوس الى وجود مجلس الشيوخ ومجلس الشعب منذ منتصف القرن السادس ، وان يوستينيوس هذا روى لنا ايضا في حديثه خبر القائد مالي او ملقيس (Malchus) الذي قلب نظام الحكم في منتصف القرن السادس ٠ ويمكن اعتبار ملقيس من اشهر الرجال الذين كونوا وانشؤوا العظمة البونيقية بانتصاراته مدة سنوات طويلة بافريقية وصقلية لكن بعد تلك الانتصارات الباهرة قلب له الدهر ظهر المجن فانكسر في سردينية ٠ فلم تغتفر له قرطاج تلك الزلة ، وعقابا له على تلك الهزيمة حكم عليه الشعب بالنفي والابعاد هو وجيشه الذي تبقى معه ، وبذل ملقيس جميع مجهوداته تارة بالتوسل والتضرع وتارة بالانذار والتهديد للحصول على العفو فلم يفلح ، واخيرا نزل بافريقية مع جماعة المبعدين من رجاله ، وحاصروا مدينة قرطاج ، وجوعوا اهلها وقطعوا عليهم القوت ٠٠٠ واثناء ذلك الحصار عاد قردل بن ملقيس من صور ، وكان موفدا لحمل عشر الغنيمة التي جمعت بصقلية ، فتعلل بكونه يريد قبل كل شيء اداء واجباته الدينية المفروضة عليه ولم يقبل ان يتوجه الى ابيه الذي لم يتجاسر على منعه من دخول المدينة ٠ وبعد بضعة ايام حصل قردل من الشعب الترخيص له في الالتحاق بوالده

لكن هذا الاخير لم ينس عصيانه وزعم انه اهان جماعة المبعدين بسلوكه ولم يكترث بالمهم • وهكذا امر ملقيس باعدام هذا الابن المسكين وهو مازال مرتديا زيه الكهنوتي الفاخر ، فصلب فوق خشبة عالية نصبوها امام المدينة ، ولربما كان يريد بذلك استمالة الآلهة واستعطافها •

وبعد مدة قليلة استولى ملقيس على قرطاج ، وجمع الشعب وتذمر من العقاب الذى سلط عليه وعلى جماعته ظلما وعدوانا واعلن انه سوف لا ينتقم الا من الذين اشاروا بهذه المظلمة وهو يعفو عن الآخرين • وامر باعدام عشرة من الشيوخ المورطين فى هذه القضية ثم اعاد الحكم الشرعى الى نصابه ، غير انه لم يلبث كثيرا حتى اتهم بنية اغتصاب السلطة والتتوق الى الطغيان وحكم عليه بالقتل فاعدم •

ثانيا — من النصف الثانى للقرن السادس الى نهاية النصف الاول من القرن الخامس : آل ماقون

فى النصف الثانى من القرن السادس وفى النصف الاول من القرن الخامس كانت السلطة طيلة ثلاثة اجيال منحصرة فى اسرة الماقونيين وهم : ماقون بنفسه فى اول الامر ، ثم ابناه صدر بعل (مات بصقلية سنة ٤٨٠) وعملقار (تولى بعد اخيه سنة ٤٨٠) وابناء صدر بعل الثلاثة حنبعل وصدر بعل وصفوة ، وابناء عملقار الثلاثة خيملكن وحنون وجيرسكن (١)

وان آل ماقون لعبوا دورا خطيرا فى تاريخ قرطاج وكانوا بعد

(١) كثيرا ما كان القرطاجيون يختارون الاسماء المشتملة على اسماء آلهتهم مثلما نقول بدورنا (عبد الفتاح وعطاء الله الخ •••)

صدر بعل (Astrubal) واصله ستر بعل ومعناه (سترنى بعل) •

عملقار (Amilcar) واصله (عبد ملقرط) واسم هذا الاله الموجود بمدينة صور يتركب بدوره من كلمتين (ملك) (قرط) اي ملك القرية اى ملك المدينة او العالمدينة

حنبعل (Annibal) واصله حن بعل ومعناه ظاهر (حن وعطف على بعل).

خيملكن (Himilcon) واصله اخو او (اخى) (ملك) ومعناه اخو الملك اى الاله •

جيرسكن (Giscon) واصله (جار) (سكون) اى جار الاله سكون Sakon

لوحة ٢٩

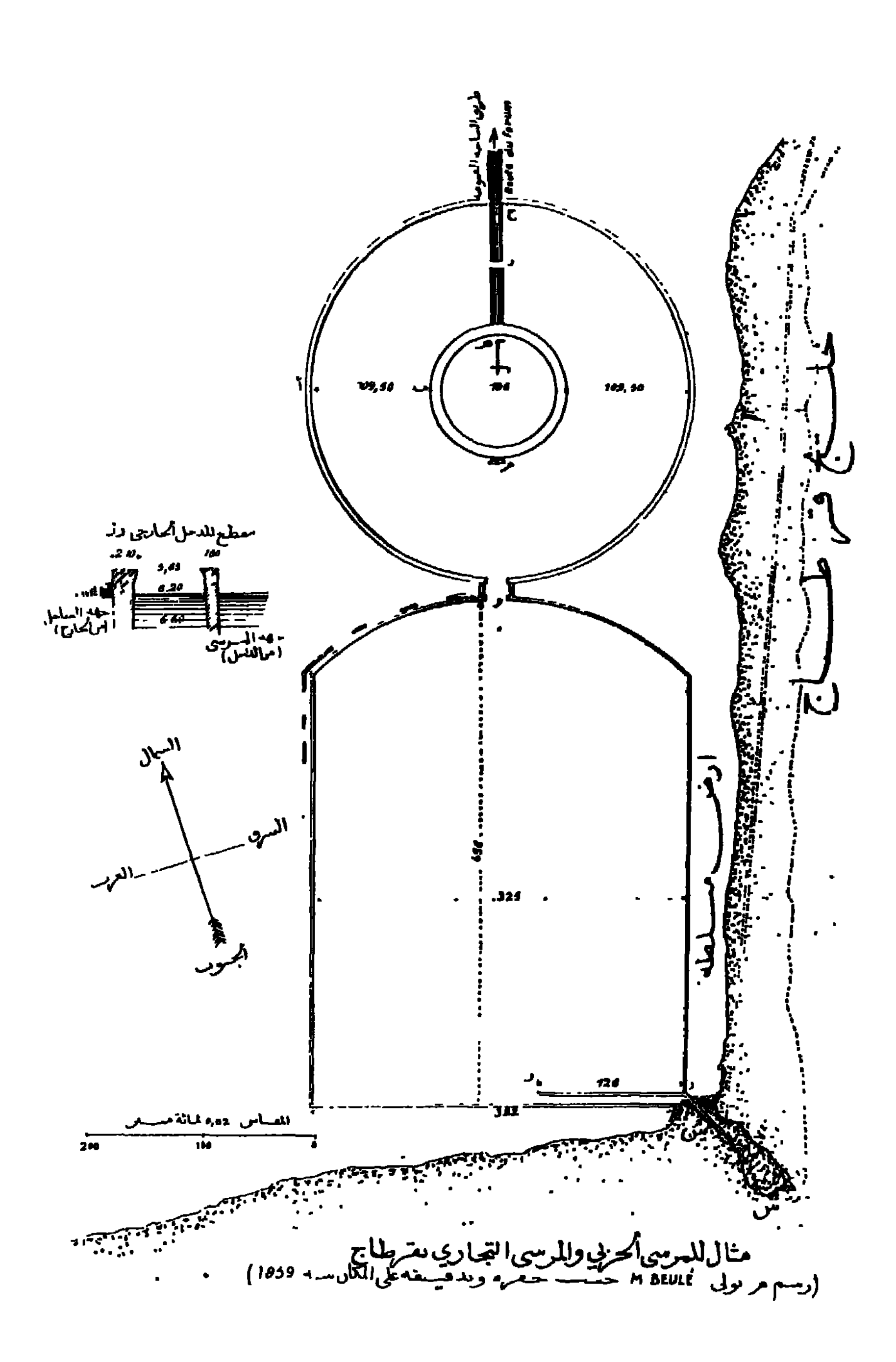
انظر الصفحة رقم ١٢٢ من هذا الكتاب .



المسوخ او الوجوه المستعارة ــ (وفى اعلى الصورة على اليمين : قوالب المسوخ

لوحة ٣٠

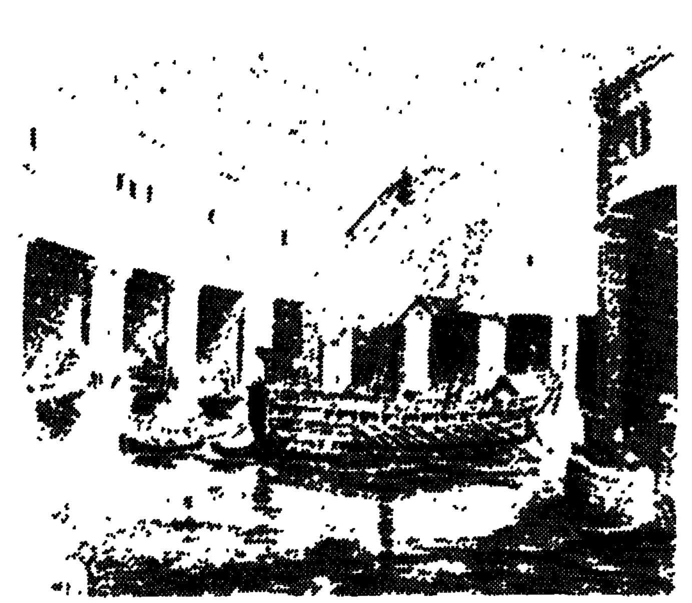
انظر الصفحة رقم ٩٤ من هذا الكتاب



مثال للمرسى الحربي والمرسى التجاري بقرطاج
(رسم مر بولي M BEULÉ حسب حفره وتدقيقه على المكان سنه 1859)

لوحة ٣١

انظر الصفحة رقم ٩٤/٩٧ من هذا الكتاب



مرسى قرطاج كما نتصوره من خلال وصف المؤرخين (ص ٩٧)



مابقى الان من المرسى التجارى والمرسى الحربى : البحيرتان (ص ٩٤)

شرح اللوحة ٣٠

• ا ـ الرصيف (quai) الدائر بالحوض وعرضه ٩،٣٥ م وطـول محيطـه ١٠٢١ م• وبه حجرات او قالات (cales) لايواء السفن ، عرض كل حجرة منها ٥،٩٠ م وعددها ١٦٧ حجرة •

• ب ـ الرصيف (quai) الدائر بالجزيرة وعرضه ايضا ٩،٣٥ م• وطول محيطه ٣٣٣ م • وبه حجرات مماثلة ومقابلة للاول وعددها ٣٥ حجرة(فتكون جملة الحجرات ٢٢٠)

• ج ـ رصيف (jetée) عرضه ٩،٦٠ م• يؤدى الى الساحة العمومية (Forum)

• د ـ ممر عليه جسر تمر من تحته السفن

• هـ ـ الاميرالية ، اى مقام الاميرال او القائد الاعلى للاسطول

• و ـ المدخل الذى تجتازه السفن للدخول من المرسى التجارى الى المرسى الحربى او العكس ، وعرضه ٢٣ م•

• م ـ محطة بها درج (embarcadère) وهى معدة للركوب والنزول وعرضها ٢،٣٠ م•

• ر/ز ـ المدخل الخارجى للمرسى التجارى او الخلق وعرضه ٥،٦٥ م• على مسافة طولها ١٢٦ م•

• س / ش ـ سد لوقاية المدخل من رسوب الرمال ومن ضرر الامواج

شرح اللوحة ٣١

الصورة العليا : المرسى الحربى المستدير مثلما وصفه بوليبس الذى كان شاهده بنفسه اثناء الحرب البونيقية الثالثة ، وتظهر بوسطه جزيرة الاميرالية ، ونرى فوق السطح رجلا ينفخ فى البوق او فى النفير ، ونرى بهـذه الصورة الـرصيـف ، او الحجرات المعدة لايواء السفن ، والاعمدة التى تجعل المنظر العام شبيها بمنظر الرواق ونرى فوق هذه الحجرات مخازن لادوات السفن وعتادها ••• كل ذلك مثل ما وصفه لنا قدماء المؤرخين تماما وعلى الاخص بوليبيس

الصورة السفلى : آثار المرسى التجارى المستطيـل والمرسـى الحربـى المستدير وفى وسط هذا الاخير جزيرة الاميرالية • وهذه الآثار موجودة الى الآن فـى شكل بحيرتين يلمع ماؤهما تحت اشعة الشمس ما بين صالمبو ودرمش ، ونرى فـى آخـر تلك الصورة جبل (بوقرنين) وقد شيد على قمته اليمنى معبد (بـعل حمـون) اله الشمس عند القرطاجيين

ملقيس الذى تقدم ذكره من اكبر المشيدين لمجد قرطاج التي صارت عاصمة امبراطورية عظيمة بفضل السياسة الجريئة التى اتبعهاماقون وابناؤه وحفداؤه من بعده وبفضل عبقريتهم الحربيـة واستخـدامهم لجند ماجور مكنهم من خوض المعارك الطاحنـة واقتحـام الغـزوات والانهماك فى الفتوحات • وهذا الدور الهام هو شبيه بالذىسيلعبه آل برقة فيما بعد ، فى القرن الثالث •

وبفضل هذه الانتصارات الباهرة ضمن آل ماقون لانفسهم مجدا وفخرا واعوانا وانصارا ، وفتحوا للصناعة والتجـارة اسواقـا فى الخارج ، وانالوا الطبقة الارستقراطية املاكا خصبـة فـوق الارض الافريقية • لكنهم استبدوا فى نهاية امرهم واستحوذوا على كـل السلط •

وفى منتصف القرن الخامس (نحو سنة ٤٥٠) نشبت ثـورة داخلية بقرطاج انتهت بسقوط آل ماقون وابعاد جير سكن ونفيـه الى صقلية،وبانشاء مجلس يتركب من مائة حاكم او قاض يقع اختيارهم من بين الشيوخ وتسمى هذه المحكمة العليا (ديـوان المائـة) او (محكمة المائة) • وبعد انتهاء كل حرب كان يقف القواد امام هذه المحكمة لتناقشهم اعمالهم ، وتحاسبهم على تصرفاتهم ، وتطـالبهم بعرض جميع التفاصيل المتعلقة بنشاطهم،كل ذلك لحمل هؤلاء القواد على الانقياد والخضوع ولحماية الجمهورية من محاولة قلب نظام الحكم او الاعتداء على سلطة الدولة •••

وهذه الثورة التي اندلعت فى القرن الخامس كانت لها نتائج على غاية من الخطورة والاهمية !

فمن جهة اولى كانت هذه الثورة عبارة عن وقوف طبقة الاعيـان والاشراف فى وجه الحكم الفردى الذى كان متجسما فى آخر ملـوك آل ماقون • وان سقوط هذه الاسرة المستبدة وابعادها عن السلطة مكن الثوار من اقامة حكم الاقلية Oligarchie مكان الحكم الفردى (monarchie) فاستمر الامر كذلك الى الحرب البونيقية الاولى (سنة ٢٤٠)

ومن جهة اخرى اذا علمنا ان حضوة الاعيان والاشراف ، وان مكانتهم كانت مقامة على المال والثروة قبل كل شيء ، واذا علمنا ان هذه الثروة كانت ترتكز في البداية على البحر والاسفار على متن السفن ، فهمنا منشا قوة آل ماقون ، ومكانتهم ، وسيطرتهم فهم قد كانوا احتكروا لفائدتهم الملاحة والاسفار البعيدة والاتصال بالمغرب ، كما احتكروا لانفسهم ما ينجر عن تلك الاسفار من ارباح طائلة واموال باهضة • ولاغرابة اذا راينا بعد ذلك احد افراد وممثلي هذه الاسرة وآخر امير من امرائها وهو حنون الملقب بقطاع البحور ، يباشر بنفسه دور الربان المغامر ومكتشف الشواطيء النائية

ولكن ثورة القرن الخامس قد قبلت الوضعية وغيرت تغيرا عميقا الاسس الاجتماعية والاقتصادية ، التي كانت ترتكز عليها الدولة القرطاجية وذلك بظهور نوع جديد من الاشراف والاعيان ترتكز قوتهم لا على ثروة البحار ولكن على ثروة الفلاحة وامتلاك الاراضي الكثيرة ، ومن ذلك الوقت صارت الاسر الحاكمة والمسيرة للامورتبني قوتها ونفوذها على قاعدتين وهما الملاحة والفلاحة •

واذا علمنا ان الثروة المرتكزة على البحر هي في الغالب عرضة للصدف وتاتي احيانا بمفاجاة مؤلمة ، وهي متغيرة ومضطربة شان احوال البحر نفسه ، فهمنا وتصورنا ما اكتسبته الدولة البونيقية من ثبات واستقرار لما اقامت قوتها وركزتها لا على تقلبات البحر وحده بل على انتظام واستقرار الانتاج الفلاحي •••



ثالثا : النصف الثاني من القرن الخامس الى نهاية القرن الرابع
(قبل الحروب البونيقية)

ان ارسطاطليس (Aristote) يمدنا ببيانات ضافية وتفاصيل مدققة حول شكل الحكومة والنظام السياسي الذى سنه الدستور البونيقي فى تلك المدة التى بلغت فيها قرطاج اقصى درجة فى العظمة والرقي والازدهار ·

١ ـ الملكان او السبطان (Sufètes)

وقد روى لنا ارسطاطليس وجود من كان يسميهم (بالملوك)على راس الدولة القرطاجية فى ذلك الوقت ، وكان يسميهم غيره من المؤرخين تارة (ملوكا) ايضا ، وتارة (اسباطا) وهى كلمةفنيقية عبرانية الاصل (Sufètes)

وكثيرا ما نجد هذه الكلمة منقوشة فوق الاحجار او الانصاب النذرية بقرطاج ويظهر ان المعنى المقصود من هذه الكلمة فى غالب الاحوال لايتعدى ولايتجاوز مدلولها بالعبرانية وهو معنى الحكام او القضاة ·

ولكن اطلق اسم (السبط) ايضا على رئيس الدولة بقرطاج فى ذلك الوقت وكانا اثنين يقع انتخابهما من اسرتين مختلفتين،ويمكن مقارنتهما بالملكين اللذين كانا على راس دولة اسبرطة ، او بالقنصلين الرومانيين اللذين كانا يتقاسمان السلطة العليا مكان الملك وذلك بعد سقوط الملوكية برومة ·

وكان هذان (السبطان) Shofetin يقومان بمهام وظائفهما ويؤديان واجبات خدمتهما مدة سنة كاملة تصير تعرف باسميهما وكانا يجمعان كثيرا من الوظائف والسلط الهامة : فكانا يستدعيان ويراسان مجلس الشيوخ ، ويعينان المسائل والقضايا التى يقع النظر فيها اثناء الاجتماعات ، ويقودان جيوش البر والبحر ، وزيادة

على ذلك فقد كانت بعض الامور التابعة للعدلية من خصائصهما ومشمولات انظارهما ٠

٢ ـ مجلس الشيوخ (Sénat)

ويساعد (السبطين) مجلس الشيوخ ، كالذى كان موجودا بمدينة صور ، يتركب من ثلاثمائة عضو يقع اختيارهم لمدة الحياة من الطبقة الارستقراطية وقد اسندت الى هذا المجلس الادارة العليا لجميع الشؤون العمومية ، فهو الذى كان يقرر السلم او اشهار الحرب ، وهو الذى كان يولى ويعزل قوادالجيش ، وكان يقعد جلسات سرية عند الاقتضاء ولا يصرح بنتيجة التصويت او يوجل اذاعتها اذا اقتضت مصلحة الدولة ذلك ٠

وقد اطلق ارسطاطليس على هذا المجلس اسم (جيروسيا) وهى كلمة يونانية مشتقة من (جيرون) اى (شيخ) ٠ وهذا يدل على ان اعضاء هذا المجلس ، ان لم يكونوا طاعنين فى السن باتم معنى الكلمة ، فهم كانوا على الاقل فى سن الكهولة

٣ ـ محكمة المائة (Tribunal des Cent)

هذه المحكمة العليا تلى مجلس الشيوخ فى الرتبة وتتركب فى الحقيقة من ١٠٠٤ اعضاء يقع انتخابهم حسبما اظهروه من استحقاق واهلية وما امتازوا به من كفاءة ومقدرة ٠ وهم كانوا مكلفين بمراقبة الملوك وقواد الجيوش وجميع الحكام ، وبمحاكمتهم عند الاقتضاء ٠

ويمكن مقارنة هذه المحكمة العليا بالا يفورة (Ephorat) باسبرطة، فقد اقيمت كل منهما لموازنة سلطة الملك ومجلس الشيوخ ومعادلتها

وكانت تنتخب اعضاءها الهيات الخماسية التى يسميها ارسطاطليس (Pentarchie) وتتالف من خمسة رؤساء ينتدبون انفسهم بانفسهم من بين الحكام بمجلس الشيوخ ، وهم كانوا اصحاب الامر والنهى وارباب الحل والعقدة ولايتقاضون اجرا على اعمالهم ، ويحافظون على صفتهم كاعضاء بمجلس الشيوخ مع دخولهم فى الهيئات الخماسية٠٠٠

ويمكن اعتبار هذه الهيئات الخماسية التى حدثنا عنها ارسطاطليس كلجان تتكون فى مجلس الشيوخ وتتفرع عنه للاختصاص ببعض الاصناف من المسائل مثل الامور الخارجية ، والجيش ، والبحرية ،

والمالية ، والامور الدينية الى غير ذلك ••• وهى انى كانت تنتخب ايضا اعضاء محكمة المائة مثلما ذكرناه •

٤ – الشعب (le peuple)

ان الشعب كان منذ القرن السادس يساهم مساهمة فعالة فى الشؤون العمومية • لكن لايخول الحضور والمشاركة فى الجلسات العامة الا لمن توفرت فيه بعض الشروط: كبلوغ سن معينة ، والتمتع بالحرية وبالجنسية القرطاجية او الفنيقية سواء بالولادة او بالتجنيس واثبات مقدار ادنى من الموارد والمداخيل ، اذ لايكفى ان يكون المواطن حرا بل ينبغى ايضا ان يكون ذامال • ويظهر ان جمهور المواطنين كان يتألف من الطبقة البورجوازية اى من ذوى اليسار والترف من اهل المدن ، ككبار التجار ، والصناع ، والموظفين ، واصحاب المهن الحرة والوكلاء والمستخدمين بالمحلات التجارية الكبرى •••

وتعرض وجوبا على الشعب جميع المسائل التى لم يحصل فى شانها الاتفاق بين الملكين او السبطين من جهة ومجلس الشيوخ من جهة اخرى ، ويكون للشعب عند ذلك الكلمة النهائية والقول الفصل اما اذا حصل الاتفاق بينهم فانهم يكونون مخيرين بين عرض تلك المسائل او عدم عرضها على الشعب ، وفى صورة عرضها • فان تصويت مجلس الشيوخ يصير مجرد راى له وزنه وقيمته من غير شك ولكنه لا ينقص من حق الشعب فى البت النهائى بكل حرية

وفى الواقع فان تشريك الشعب فى النظر كان فى تلك المرة التى حدثنا عنها ارسطاطليس ضئيلا جدا ، اذ قلما كانت تعرض عليه المسائل ولا يقع الالتجاء اليه الا فى صورة خلاف مفضوح بين السبطين ومجلس الشيوخ ، وهو امر نادر جدا لان السبطين كانا يتحاشيان بقدر الطاقة الوقوع فى مثل ذلك الخلاف ، ومع ان الدستور اشار الى انه من الممكن ان تعرض على الشعب حتى المسائل التى وقع فى شانها الاتفاق ، فانهم فى الحقيقة كانوا يجتنبون ذلك كلما توقعوا من الشعب رايا يخالف رايهم •

وبالجملة فان هذه الاجراءات كانت مجرد وسيلة تمكن السلطة السبطية من ايهام الشعب بانه يشارك فى الحكم ، وتمكنها ايضا فى بعض الظروف الخطيرة من تشريك الشعب فى المسؤوليات لياخذ كل واحد نصيبه منها •

٥ ـ الجمعيات (Hétairies)

ويشير ارسطاطليس ايضا الى وجود جمعيات سياسية ودينية كان افرادها يتناولون احيانا طعامهم مع بعضهم (Syssities) ويعقدون اجتماعاتهم ليلا للنظرفيشؤون الدولة وفى اعمال المجالس الشعبية وهذه الجمعيات كانت لها صبغة الهيئات الرسمية ولايمكن اعتبارها كجمعيات خاصة او من نوع النوادى (Clubs) او حتى من نوع النقابات المهنية (Corporations) التى ترخص فيها الحكومة، بل كانت من نوع الاخوانيات (Confréries) تكون اقساما وشعبا انتخابية فكان كل واحد ينتخب داخل شعبته وكان راى الاغلبية يعتبر راى الشعبة كلها ويحسب صوتا واحدا فى الانتخاب العام

رابعا : القرن الثالث والثانى

(من الحروب البونيقية الى تهديم قرطاج) آل برقة

ان الذىيحدثنا عن الانظمة السياسية فى القرنين الاخرين من حياة قرطاج هو مؤرخ يونانى آ خر ، وهو بوليبس (عاش من ٢٠٠ الى ١٢٢) فقد عاش ارسطاطليس مدة ازدهار قرطاج ، اما بوليبس فانه عاش فى ايام محنتها وشهد سقوطها وانهيارها • وقد جدت احداث هامة من وفاة الاول (سنة ٣٢٢) الى ولادة الثانى (سنة ٢٠٠) ، فقد خسرت قرطاج اثر الحرب البونيقية الاولى والثانية جزيرة صقلية ، ثم كرسكة وسردينته ، ثم اسبانيا ••• وهذه الاحداث كان لها بدون شك تاثيرها على النظام السياسى • فان بوليبس لم يتكلم عن الهيئات الخماسية ولا عن محكمة المائة التى كانت تنتخبها تلك الهيئات ، ونراه يذكر ثلاث سلط سياسية واضحة : السلطة العليا ، ومجلس الشيوخ ، والشعب •

١ ـ السلطة العليا (Pouvoir suprême)

صارت السلطة العليا فى يد آل برقة (عملقار وحنبعل وصدر بعل) وارتكز هؤلاء على الشعب فنالوا رتبة الملوك والامراء ، ولو ان

لقب الملك زال تماما ، ولكنه زال لفظا فقط اذ ان سلطـة آل برقـة كانت سلطة ملوكية ٠

٢ ـ مجلس الشيوخ (Syncletos)

استمر مجلس الشيـوخ موجودا وهو ما كان يسميـه ارسطاطليس (جيروسيا) وسماه بوليبس (Syncletos) ٠ وقد ضعف نفوذه وتضاءل نسبيا وذلك لان آل برقة كما ذكرناه صاروا يعتمدون على الشعب لا على الطبقة الارستقراطية ، ولو ان هذا المجلس كان كثيرا ما يبت في المسائل الهامة،فهو الذى قررمثلا اشهار الحرب البونيقية الثالثة والاخيرة ٠

ـ مجلس الثلاثـين :

كانت مهمة هذه الهيئة الادارية تتعلق بفرض الضرائب ، وعلاوة على الادارة المالية ربماكانتهناك وظائف اخرى من مشمولات انظاره

ـ مجلس العشرة

وهم عشرة موظفون كانوا يتولون شؤون المعابد والامور الدينية وعلى الاخص اعمال البناءات والتنظيم الداخلي حسبما تتطلبه اقامـة الشعائر والطقس الدينية

٣ ـ الشعب

بخلاف مجلس الشيوخ الذى فقد شيئا من نفوذه نرى الشعب يقوم بدور من اهم الادوار اذ عظم شانه فى تلك المدة وصار كثيرا ماتقـع استشارتهواخذ رايه وتشريكه فى التصويت

ـ ملاحظات حول النظام السياسى بقرطاج

ان الاقدمين قد مدحوا الدستور القرطاجي وبينوا خصاله ومزاياه وحتى ارسطاطليس الذى انتقده ، فهو قد استحسنه في الوقـت نفسه ورآه صالحا ٠ وكذلك بوليبس فهوقد اعترف بكونه خدممصالح الدولة الى الحرب البونيقية الثانية

ولا يخفى على احد الشبه الكبير الموجود بين الدساتير السياسية فيقرطاج واسبرطة وروما كما يدل على ذلك الجدول الآتى

السلط الثلاث	دستور قرطاج	دستور اسبرطه	دستور رومة
١ ـ السلطة العليا	سبطان (لمدة عام)	ملكان (لمدة الحياة)	قنصلان (لمدة عام)
٢ ـ السلطة الارستقراطية	مجلس الشيوخ (٣٠٠ عضوا)	مجلس الشيوخ (Gérousia) ٣٠ عضوا	مجلس الشيوخ Sénat ٣٠٠ عضوا
٣ ـ السلطة الشعبية	مجلس عام للشعب	مجلس عام للشعب (Apella)	مجلس عام للشعب

غير انه يمكن حصر الانتقادات فى النقط التالية :

١) مراعاة الثروة قبل كل شيء وفوق كل شيء ، واشتراط دفع مبالغ باهضة من المال من الذين يقع انتخابهم ، الشيء الذى انجر عنه البرطلة والارتشاء حتى قال فيهم بوليبس : « عند القرطاجيين يمكن الوصول الى اعلى مناصب الحكم بواسطة العطاء وبذل المال » فكانت الابواب كلها مفتوحة امام المحظوظين من ذوى اليسار ، وكان هؤلاء لا يتاخرون عن التضحية بالمبالغ الطائلة فى سبيل الوصول الى المناصب لعلمهم انهم سيستخدمون تلك المناصب لا لاسترجاع ما بذلوه من المال فقط بل لزيادة انماء ثروتهم بجميع الوسائل والطرق ٠

٢) عدم وجود التوازن والتعادل بين هذه العناصر الثلاثة التى رسمناها بالجدول اعلاه ، وذلك لانه رغما عن الحقوق التى يتمتع بها الشعب فان الطبقة الارستقراطية الثرية ، بل عددا قليلا من افرادها هم الذين كانوا ماسكين بزمام الدولة مدة طويلة تمتد من وقت هيمنة آل ماقون الى وقت سلطة آل برقة اى من منتصف القرن الخامس الى ما بعد الحرب البونيقية الاولى ضد الرومانيين (من ٤٥٠ الى ٢٦٠ تقريبا) ٠

٣) خوف الطبقة المسيرة ، وبالتالى خوف الدولة من الطموح الذاتى المفرط والاطماع الكبيرة التى ربما تؤدى ببعض الاشخاص الاقوياء الى احتكار السلطة اما بالمال او بالقوة او بوسيلة من الوسائل والى الغاء الدستور واقامة الدكتاتورية او الحكم الاستبدادى الفردى ٠ وهذا هو السبب فى تخوفات الطبقة الارستقراطية وفى حذرها المستمر وعدم اطمئنانها ، فكانت تخشى على الاخص قواد الجيش ،

ومما لا شك فيه ان هؤلاء القواد امثال عملقار برقة وابنه حنبعل ، قد قاموا بدور كبير جدا فى حياة قرطاج •

وعلى كل فان هذه الانظمة السياسية ، بما فيها من محاسن وعيوب ، فهى ساعدت على السير الى الامام ، واتباع وحدة النظر ، ومواصلة بذل المجهود ••• وهى كلها امور لازمة لا بد منها للحكومة ليتسنى لها حفظ الامن والنظام ، وتوطيد العدل ، وتحقيق الدفاع ضد هجومات الاعداء ، وانماء الثروة العامة والخاصة •

ومهما يكن من الامر ، فان المجالس الشورية بقرطاج (كمجالس الشيوخ ، ومجالس المائة ، ومجالس الثلاثين ، وغيرها) وعلى الاخص السلطة التنفيذية (ملوك او اسباط) قد عرفوا كيف يضطلعون بمسؤولياتهم لضمان حياة المدينة ونموها الطبيعى مما اقام الدليل على ان الدولة القرطاجية كانت قائمة على اساس متين وعلى دستور سياسى محكم •

خلاصة ما تقدم

ان النظام السياسى بقرطاج قد تطور وتغير حسب الظروف والاحوال ولكنه كان يرتكز بصفة عامة على السلط الثلاث التالية :

اولا : السلطة العليا وتتمثل فى ملكين او سبطين يقع انتخابهما لمدة عام

ثانيا : السلطة الارستقراطية المتجسمة فى مجلس الشيوخ المتركب من نواب يمثلون الاسر الغنية والاكابر من التجار والاعيان ورجال الحرب •

ثالثا : الشعب ولم يتقو نفوذه حقيقة الا فى ايام آل برقة اى مدى الحروب البونيقية •

والملاحظ ان المال هو الذى كان يلعب اهم الادوار فى كل ذلك وهو الذى كان يفتح جميع الابواب امام الاغنياء •

ومن جهة اخرى فانه كثيرا ما كانت تقع خصومات عنيفة فى مجلس الشيوخ بين حزب التجار الذى كان يرى ان ازدهار البلاد وانماء الثروة العامة يتم باجتناب الحروب والاهتمام بالتجارة ، وبين حزب الجند الذى يرى قبل كل شىء توطيد وتوسيع الامبراطورية البونيقية بواسطة الحروب والفتوحات • ومن اشهر هذه المجادلات تلك التى كانت تقع بين (آل حنون) الذين يريدون ان تصرف الاموال لتحسين التجارة وادخال الرفاهية ، وبين (آل برقة) الذين يريدون ان تصرف الاموال فى الغزوات والفتوحات لتقوية شوكة البلاد ومد نفوذها فى الخارج •

الحيـــاة الدينيـــة

ـ اهمية الدين عند القرطاجيين

مما لاشك فيه ان الدين كان يحتل مكانا ممتازا في حياة القرطاجيين العامة والخاصة وكان متمكنا من نفوسهم ، ومتغلغلا في افكارهـم ، ومتسلطا على قلوبهم ، ومتحكما في كثير من مظاهر حياتهم ، فهو كان شغلهم الشاغل ، وكل شيء سواه كان يعتبر تافها وثانويا •

واكبر دليل على ذلك صيغـة اسماء الاعلام التي كانوا يحملونهـا والتي كان الكثير منها يدل على شـدة ارتباطهم وتعلقهـم بالهتهـم ويشير الى خضوعهم لها ، ويبين عواطفهم نحوها • مثال ذلك :

ـ من اسماء الذكور : معطبعل (اى عطية بعل) ـ عبد اشمون ـ عبد ملقرط او عملقرط ـ حنبعل (حـن عليه بعـل) ـ باركبعـل (باركه بعل) الخ •••

ـومن اسماء الاناث : بنتبعـل (ابنة بعـل) ـ عريسة بعـل (خطيبة بعل) ـ امة بعل (خديمة بعل) الخ •••

وان السلط الرسمية وقواد الجيش كانوا في المناسبـات الهامـة يقدمون القرابين ويقيمون لذلك احتفـالات رائعة تكتسـي جـلالا وعظمة •••

وفي كل عام كانت توفد حكومـة قرطاج رسلا يحملـون الاموال والهدايا الى مدينة صور ام الوطن ، ويقدمون القرابين الى الاله ملقرط مع مظاهر الطاعة والاجلال والاحترام •

وكانت المعاهدات تبرم تحت حماية ورعاية الآلهة • فعندما تـم ابرام المعاهدة بين حنبعل وفيليب المقدوني سنـة ٢١٥ اشهد آلهـة

قرطاج ، وآلهة مقدونية ، وآلهة اليونان ، وجميع آلهة الحرب : زاس (Zeus) وحيراء (Héra) وابولون (Apollon) وهيراقليس (Heraclès) وغيرهم كما اشهدا الانهار والمياه والبحار ... وكان كل ذلك مكتوبا ومنصوصا عليه في المعاهدة المشار اليها .

وكان الاموات وكذلك الاحياء يحملون شيئا كثيرا من التمائم والتعاويذ والاحراز تمثل الالهة ، كما كانوا ينقشون صور آلهتهم فوق الانصاب والنواويس (١) ويدها اليمنى مرفوعة في هيئة الصلاة والدعاء

الآلهة

ان اكبر الآلهة عند القرطاجيين هما تانيت بينيبعل وبعل حمون ويمكن ان نعتبر كلمة (بينيبعل) وكلمة (حمون) كاسماء اماكن فان كلمة (بعل) هي اسم اكبر اله عند الفينيقيين وعند القرطاجيين ولكنها تدل ايضا على معنى السيد وصاحب الشيء ومالكه ، ولذلك كانوا يستعملون ايضا كلمة (ملك) او (رب) بمعنى (بعل) ، ومثل ذلك موجود ايضا في اللغة العربية ، فان (الرب) معناه المالك والسيد ، وهو ايضا من اسماء الله تعالى ، وكذلك (الملك) فهو السيد وصاحب الامور والسلطة ، وهو ايضا الله تعالى . وكلمة (بعل) من هذا النوع ، فهي كلها كلمات مترادفة لها مدلول واحد . فالذي يقدم القرابين كان يسمى (بعل القرابين) مثلما نقول (رب القرابين) او (صاحب القرابين) . وبما ان كل مدينة تقريبا كان لها (بعلها) تعبده وتقدسه فقد صار كل اله منها يعرف باسم المكان الذي يعبد فيه ، فيقولون (بعل روس) اى بعل الراس بالمعنى الجغرافي و (بعل اسمين) اى بعل السماوات و (بعل لبنون) اى بعل لبنان ... وكذلك يقولون (بعل حمون) او (بعل عمون) (Baal-Hammon) وربما كان ذلك نسبة الى الاله (امون) Ammon الذي كان يعبد في مصر ثم في افريقية وكان يشبه في الغالب بكبش اقرن وهو الكبش امون المقدس ... او ربما كان ذلك نسبة الى بلدة وواحة امون الموجودة بليبيا والتي كان فيها معبد كبير للاله (جبتر امون) وتعرف اليوم باسم سيوة Siwa قرب الحدود

(١) الناووس ج نواويس هو التابوت من حجر

المصرية ومن غير شك ان القرطاجيين وصلوا الى ذلك المكان في اسفارهم التجارية ... ومهما كانت هذه النسبة واسبابها فان (بعل حمون) يدل على (بعل افريقية) .

وكذلك بالنسبة لتانيت فهناك (تانيت لبنون) اى تانيت لبنان وهى غير (تانيت بينيبعل) ومعناه (تانيت المواجهة لبعل) وهى تانيت افريقية .

وتعتبر (تانيت بينيبعل) مماثلة لاسطرطه وهى الهة القمر (١) عند الفنيقيين بمدينة صور ، ويسميها اليهود (اشطوره) وهى ايضا فى مقام الالهة (جيراء Héra) زوجة الاله زاس عند اليونانيين ، وفى مقام الالهة (يونيوسيلستيس (Juno Caelestis) زوجة الاله جبتر عند الرومانيين . وكل واحدة من هذه المعبودات الاربع هى الاهة نجمية ، ويمكن ان نقول حينئذ بان تانيت بينيبعل الافريقية ، واسطرطه الفنيقية ، وحيراء اليونانية ويونيوسيلستيس الرومانية كانت كلها شيئا واحدا ، وكذلك بعل حمون القرطاجى وبعل الفنيقى وزاس اليونانى وجبتر الرومانى هى شيء واحد ايضا كما هو ظاهر فى الجدول اسفله :

قرطاج	فينيقيا	اليونان	الرومان
بعل حمون	بعل	زاس	جبتر
تانيت بينيبعل	اسطرطه	حيــراء	يونيوسيلستيس
ملقرط .	ملقرط	هيراقليس	هرقل .
اشمون	اشمون	شقلبيوس	اسقولاب

وان (اسطرطه) الهة صور كان لها معبدها الخاص بقرطاج وكان القرطاجيون يعبدونها ايضا هناك حسب الطقوس القديمة وكذلك الفنيقيون الذين كانوا يقدمون من مدينة صور ويقيمون بافريقية . واما (سيلستيس) اى « السماوية » فهى كانت تعبد ايضا بافريقية كالهة التناسل والحصاد .

ومن جهة اخرى فان (تانيت بينيبعل) كانت ايضا شيئا واحدا

(١) اسطرطه (Astarté) ماخوذة من كلمة (اسطر) اى الكوكب (Astre) ومنها اتت كلمة (الاسطرلاب) وهى آلة يقيس بها الفلكيون ارتفاع الكواكب (Astrolabe)

هي وويسة او (عبسة) اى الارض اليابسة (Ops) وكانت تعبد كالهة البذر والحصاد والتناسل ويستغاث بها عند الولادة ونجد تمثال (تانيت) بمتحف باردو فى صورة امراة ترضع ابنها مثل الالهة (Nutrix) • وكثيرا ما كانت تحمل اسم (ربه) او (ملكة) فوق الانصاب والاحجار النذرية ومن هناك اتى تركيب بعض اسماء الاعلام مثل : عبد ربة ـ اخيملكة ـ اختملكة ـ امة ملكة (بمعنى خديمة ملكة) الخ • • • •

اما رمز تانيت اى الصورة التى تمثلها وتشير اليها فوق الاحجار النذرية او الاوانى والفخار والحلى واشرعة السفن وغير ذلك ، فهو معروف ويتالف عادة من ثلاثة اجزاء : مثلث يمثل البدن ، وخط افقى ينتهى طرفاه بشكل اليدين ، ودائرة تمثل الراس •

وان (بعل حمون) يحتل بلا منازع المكان الاول بالبنتيون القرطاجي اى بهيكل الالهة بعد تانيت بينيبعل ، وان اسمه ياتى مباشرة بعد اسمها فوق آلاف الحجرات النذرية التى وجدت بقرطاج فان الكتابات المنقوشة فوقها لها صيغة واحدة تقريبا وهى ترشدنا الى اسماء الاعلام فى ذلك الوقت اكثر من شيء آخر وهذا نموذج من هذه النصوص المنقوشة •

الى ربة تانيت بينيبعل والى الرب بعل حمون ما نذره حنبعل بن بود اشطورة

الى الالهة تانيت بينيبعل والى الرب بعل حمون هذا ما نذره عرس بن عبد ملقرط

واحيانا نجد اسم بعل وحده كما هو منقوش على الاحجار الموجودة بحدر موت (سوسة) ودوقة ومكثر وبالجهة الوسطى بصفة عامة

وقد وقع ايضا تشبيه بعل حمون بساترنوس (Saturnus) وهو اله الفلاحة عند الرومانيين والمنجل من خصائصه التى يعرف بها او بنظيره عند اليونانيين وهو قرونس Kronos اله الايام والسنين والفصول وتغير الهواء وهو ابو زاس وحيراء •

ولذلك كان القرطاجيون يقدسون ساترنوس وقرونس ويعبدونهما ويخشونهما ويقدمون لهما الضحايا البشرية • وان تمثال فرونس كان من النحاس وكانت يداه ممدودتين ومائلتين نحو الارض بحيث ان الطفل الذى يوضع عليهما يتدحرج لا محالة فى هوة النار ، ويرى ستيفن قسال ان يديه كان يحركهما محـرك ، فتنخفضـان كلمـا اقلتهما الضحية تم ترتفعان بعد سقوطها فى النار •

وكان القرطاجيون يمثلون بعل حمون فى شكل اله اقرن اى لـه قرنان كقرنى الكبش ، وقد عثر على كثير من هذه الاصنام ويوجد نموذج منها بمتحف لافيجرى بقرطاج ، وهذا يذكرنا بالكبش امون المقدس الذى كان يعبده الليبيون من قبل قدوم الفنيقيين ، وهنـا ايضا نرى الشبه الموجود بين اله الافريقيين (امون) واله القرطاجيين (بعل حمون) فكانه وقع دمجهما فى اله واحد •

ومن غير شك ان التمثال الذى عثر عليه بمعبد صياغة (Siagu) قرب بئر بورقبة هو ايضا بعل حمون ، فى شكل اله الحى ، جالس على عرش ، وبجانبه ابو الهول (وهو فى الميثولوجية خلقة لها راس امراة وجسد اسد وجناحا نسر) وعلى راسه تـاج اسطـوانى ذو تجويفات مستطيلة ، وهو يرتدى قميصا فضفاضا مثل الذى يلبسه الفنيقيون ويده اليمنى مبسوطة ومرفوعة فى الهواء • ومن المحتمل ان هذا الصنم كان يمثل اله صياغة لانها وجدت بمعبد ذلك المكان ، واله حدر موت (سوسة) لان هذه المدينة لا تبعد عن صياغـة الا قليلا •

وهناك ايضا كثير من الآلهة الاخرى التى لها بعض الشبه ببعل حمون وكانت كلها تعبد وتقدس من طرف القرطاجيين نذكر منها :

— **ملقرط** : وهو اله صور وقد شبهه اليونانيون من قديم الزمان بهيراقليس ، وكان له معبده بقرطاج ، والاسماء التى كانت تدخل فيها كلمة ملقرط كثيرة جدا مثل عملقار (عبد ملقرط) وبو ملقار الخ ••• واسم هذا الاله يتركب بدوره كما شرحناه فى مكان آخر من (ملك) و (قرط) اى ملك المدينة او رب المدينة ، والمقصود من المدينة هنا هو (صور) • والى هذا الاله بمدينة صور كانت ترسل الهدايا الثمينة والقرابين فى كل عام من قرطاج •

— **اشمون** : وهو ايضا من كبار الآلهة بقرطاج ، وقد كانوا شيدوا

له معبدا فوق (بيرصة) من ايام تاسيس المدينة فى المكان الذى نرى فيه اليوم كنيسة لويز التاسع • وهذا الاله كان معبودا ايضا بفنيقيه وعلى الاخص بمدينة صيداء وبيروت وحتى بمدينة صور • وشبهه اليونانيون بالاله شقلبيوس (Asclepios) والرومانيون بنظيره عندهم وهو الاله اسقولاب (Esculape)

ـ **مولك او ملك** (Molock) : كان فى الاصل اله اليهود العمانيين فكانوا يقدمون له الاطفال قربانا ويحرقونهم بلا رحمة ولا شفقة • وقد عبده كثير من ملوك اليهود،ولم يكتف بعضهم بعبادته وتقديسه وذلك امثال الملك الحادى عشر (آكاز Achaz) والملك الثالث عشر (منصة Manassé) الذى تولى الملك من ٦٩٨ الى ٦٤٤ ق • م • بل احرقوا ابناءهم ايضا بكل توحش وقساوة وقدموهم قربانا لمعبودهم الاكبر ، فى مكان كان يعرف فى كتاب التوراة باسم (طفاية Tophet) بالضاحية الجنوبية من مدينة القدس •

ونظير هذا الاله بقرطاج هو (ميلكن) او (مولك بعل) الذى كانوا يمثلونه فى صورة وتن قبيح الخلقة له راس ثور فوق جسم انسان • وكان القرطاجيون يقدمون ايضا لمعبودهم هذا فلذات اكبادهم بدون تردد ولا ابطاء • ونفهم من هذا ان تقديم الاطفال للنار على مذبح الآلهة فى كل عام كان اقوى العادات الدينية الشائعة بينهم وكانوا يكفكفون دموعهم ، ويهدؤون صياحهم بالقبلات واللمسات اللطيفة والدغدغة حتى لا يقع احراق الضحية وهى تبكى •••

ونفهم ايضا مما ذكرناه ان احراق الاطفال لم يكن مقصورا على القرطاجيين وعلى اسلافهم الفنيقيين بل كان عادة عند جميع الكنعانيين اى اجداد اليهود واجداد الفنيقيين على حد السواء •

ونحن نجد كلمة (مولك او ملك) فى كثير من الكتابات المنقوشة على الاحجار النذرية بقرطاج او بغيرها من المدن الافريقية وكانت تؤول كما ذكرناه وتفسر كاسم الاله الذى لا يسكن غضبه ولا يهدا سخطه الا بتقديم الضحايا البشرية ، اما الآن فقد صرنا نعلم،بفضل ما وصل اليه العالم البحاثه الالمانى آسفلد (M. O. Eissfeld) انتلك الكلمة تدل على القربان اى على الضحية نفسها لاعلى المعبود الذىكان يطالب بهـا

واخبار هذه الضحايا البشرية وصلت الينا عن طريق نصوص

كثيرة اهمها ما رواه ديودورس الصقلي ، وقد سجل التاريخ كثيرا من هذه المتاسي المروعة ، فقد قدم القرطاجيون للنار حين حاصرتهم قائد الاغريق اغاتوكلاس (Agathocles) مائتى طفل من انبل الاسر،وخف ثلاثمائة رجل الى التطوع يومئذ فرحين لانهم سيكونون قربانا للمعبود الاكبر عساه ان ينقذهم مماهم فيه من ضيق وشدة ثم تايدت هذه الروايات باكتشاف وثائق مادية محسوسة ومجسمة على عين المكان

فان الصورة المنحوتة التى يرجع تاريخها الى اواخر القرن الخامس او اوائل القرن الرابع ق٠ م٠ لاكبر شاهد ودليل على صحة عادة احراق الاطفال ٠ وهذه الصورة تمثل كاهنا مرتديا لباس المصريين اى جبة شفافة من كتان ، وهو يرفع يده مبتهلا ومتضرعا الى معبوده ويحمل طفلا صغيرا ليقدمه له قربانا (انظر الصورة فى مكانها)

وفى سنة ١٩٢٠ وقع اكتشاف آثار مادية اخرى بصالمبو وهى آلاف من الاجاجين والاوانى من الفخار وجدت مدفونة فى عمق ما يقرب من عشرة امتار تحت الارض، وهى تحتوى على عظام وعلى رماد الاطفال الرضع الذين وقع احراقهم ٠ وقد اطلق المؤرخون اسم (طفاية Tophet) على ذلك المعبد المحزن ، وهو الاسم الذى كان اطلقه كتاب التوراة على ناحية من واد جينوم جنوب بيت المقدس ، حيث كان الاسرائيليون يحرقون اطفالهم الى ان نهاهم عن هذا العمل الفضيع الملك يوزياس (من سنة ٦٤١ الى ٦١١ ق٠ م٠)ومنعه منعا باتا وكسر الاصنام فى بلاد بنى اسرائيل ٠

هذه هى الآلهة الهامة التى كان لها فى القديم مقام كبير وحضوة عند القرطاجيين ٠٠٠ ثم تاتى بعدها آلهة اخرى كثيرة ثانوية مثل (بعل سمين) اى اله السماوات ،(وبعل اديـر) اى القدير ، و (سكون) ومنه اتى الاسم المتداول (جير سكن) Girescon اى (جار الاله سكون) ، و (السيد) ومنه اتى الاسم المعروف (عبدالسيد) والاله (صالمبعل او شالمبعل) اى صورة بعل ، ومنه اتى اسم المكان المعروف بصالمبو قرب قرطاج ٠ ونكتفى بهذا القدر من الامثلة

ـ القسيسية او الكهنوت

ان المعابد كان يلحق بها عدد من الكهنة والكاهنات جعلوا كلهم

لوحـة ٣٢
انظر الصفحة رقم ١٢١ من هذا الكتاب



عريسة بعل

اللوحة ٣٣
ص١١٦/١٧

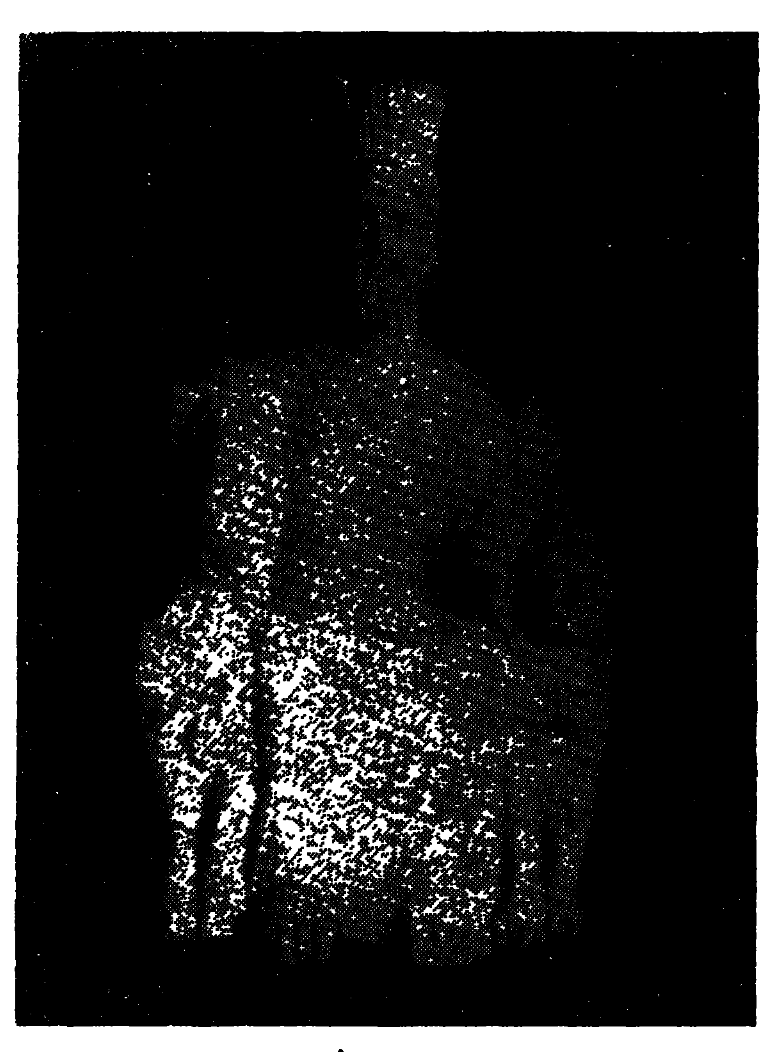


تانيت

لوحة ٣٤

انظر الصفحة رقم ١١٥ و١١٨ من هذا الكتاب

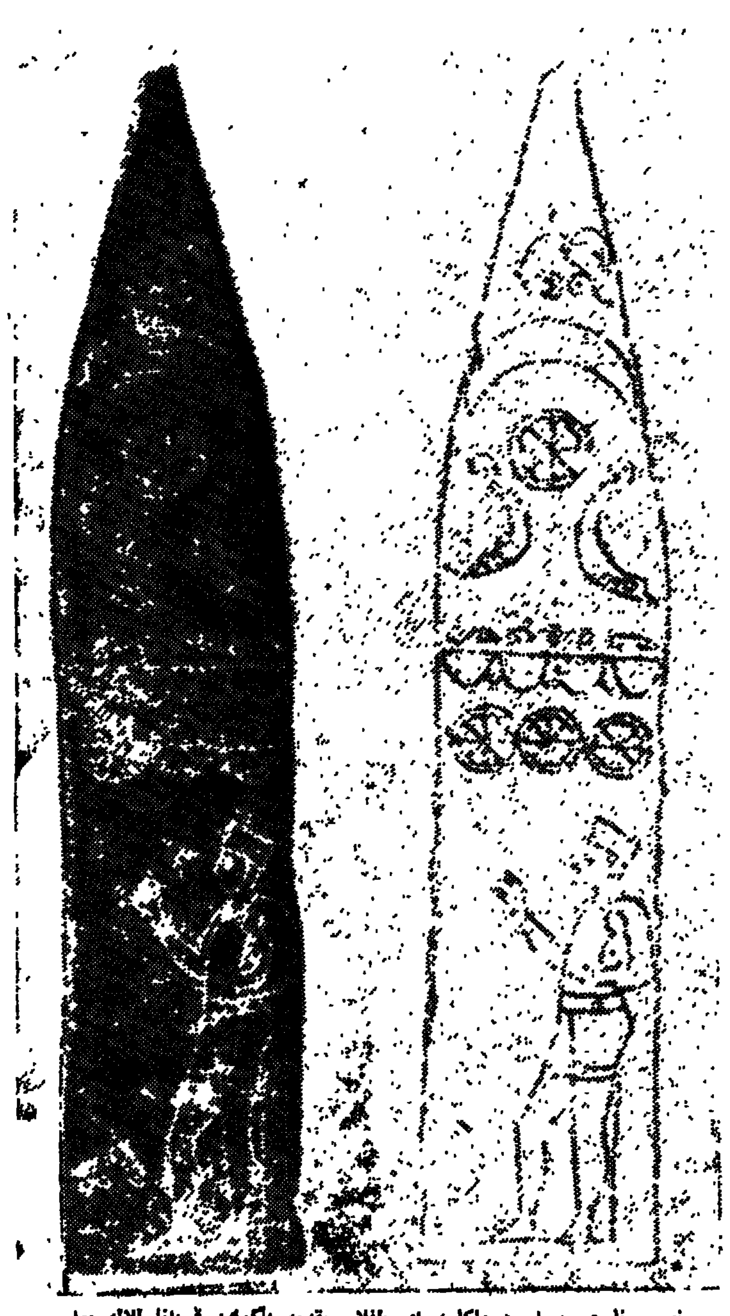




بعل حمون

لوحـة ٣٥

انظر الصفحة رقم ١٢٠ / ١٦٤ من هذا الكتاب



نصب نذري نمل (ملكا) اى طفلا يقدمه الكوهن قربانا للاله بعل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تحت نفوذ وقيادة حبر اعظم يحمل لقب (الرب كوهنيم) وهذا اللقب كانت حمله ايضا امراة تدعى (معطا نعل) كانت تجمع تحت نفوذها كامل هيئة الكهنه من رجال ونساء بجميع المعابد او بمعبد واحـــد منهـا فقـط

وكان الكهنة يسمون في الغالب الى اعلى الطبقات الارستقراطيـه وكانت العسيسبة ورانية على الاقل بالنسبة للحبر الاعظم ولم يفرض التبتل على النساء الكاهنات مثلما كان ذلك مفروضا على الفستاليات بروما (les Vestales) وكذلك لم تفرض العزوبة على الكهنه من الرجال

وبمناسبة اقامة الحفلات والطقوس الدينية كان الكهنه يلبسون زيا خاصا وصفه لنا المؤرخون اللاطينيون كما ياتي : ثياب ارجوانية، قلانس وجباب من كتان ، اردية طويلة الذيل تزينها في الوسط شقة ارجوانيه وعصيبات وان لباس الكاهنة القرطاجيـة عريسة بعـــل المنقوشة على غطاء الناووس الموجود بمتحف قرطاج كان بدون شك لباس كاهنة عظيمة الشان ، وهو يشبه لباس الكاهنة المصرية ويعبر احسن تعبير عن الاناقة اليونانية

العرافون : وكان القرطاجيون مولعين بالتطلع الى معرفة المستقبل ويقول المؤرخون ان معبد (سيلستيس) بقرطاج ، التى كانت شيئا واحدا هى وتانيت بينيبعل، كانت به متكهنات يكشفن الغيب ويتنبان بالمستقبل ويهتفن بذلك ... وما زالت مثل هذه المعتقدات موجودة عندنا الى الآن ، وان وجود (البراجين) و (الدقازين) و (الرمالين) وغيرهم من الدراويش والمشعوذين، وانتشارهم في كل جهة مـــن بلادنا ، لدليل قاطع على تشبثنا بتلك العادات القديمة .

وكان هؤلاء العرافون يعتبرون عند القرطاجيين من الشخصيات الرسمية ، وكانوا يرافقون قواد الجيوش في حروبهم وغزواتهم، وكان هؤلاء القواد يستشيرونهم قبل الاقدام على امر خطير هام ، وياخذون رايهم ، ويتبعونه ، حتى قيل ان عملقار الماغوني لم يامر بالهجوم على سرقوسه (سنة ٣٠٩ ق. م.) الابعدما اكد له العرافون بان النصر سيكون حليفه ، وقالوا بانهم راوا ذلك مجسما في امعاء القتلى (١) لكن لم يفده ذلك شيئا لانه انهزم ومات قتيلا . وقيل ايضا ان الملك حنون استصحب في رحلته المشهورة جماعة من العرافيـن ، وانـه عملا باشارتهم، ارتحل بمن معه عن احدى الجزر التى كانوا نزلوا بها

اذ راوا فى الليل نيرانا تتحرك ، وسمعوا حس الطبـول واصـوات المزامير وضجيجا كبيرا وضوضاء ، الشيء الذى من شانه ان يجعلهم يتشاءمون ويخافون سوء العاقبة ولا يتفاءلون خيرا ٠٠٠

المسوخ : وكان القرطاجيون كثيـرا ما يستعملـون المسوخ او الوجوه المستعارة ويعتقدون انها تبعد عنهم الجن والشياطـين ، وتقيهم من الالآم والامراض ، وتعيذهم من العين ومن كل هامة ولامة وكانوا يعتقدن مثل ذلك فى اشياء اخرى كثيرة : كقشور بيـض النعام كانوا يجعلونها فى شكل المسوخ ايضا ،وكالصنوج والاجراس، او العقارب المصنوعة من النحاس او الطين ، او الطلاسم والتعاويـذ المخطوطة فوق ورق البردى ، والشفرات والصفائح المعدنية المحفوظة فى اغماد من نحاس او ذهب او فضة عليها تماثيل الآلهة او رمز تانيت او قرص الشمس او قرص القمر الخ ٠٠٠ وهى اشياء موجودة بكثرة فى متحف الآثار بقرطاج وباردو ٠ وما اشبه ذلك باعتقادنا اليـوم فى نعل الفرس ، وذنب السمكة ، واصابع اليد المبسوطة (الخمسة) وبخور « الوشق والداد » الذى يعمى عيون الحساد ، وفى تعليـق التمائم للوقاية من العين ، الى غير ذلك من الخرافات والاوهام التى تدل على شبه كبير بين الوقت الحاضر والزمان الغابر ٠

وكانت تصنع المسوخ عند القرطاجيين من الطين بواسطة قوالب وجدت نماذج منها بمعمل الفخار بقرطاج ،وهى فى الغالب قبيحة الشكل والمنظر ، معبسة ومقطبة تمثل وجه الشيطان لطرد العفاريت وكانت تحمل احيانا اقراطا باذانها وحلقات بانوفها

وفى القرن الرابع ، اخذ القرطاجيون ، تحت تاثير الاغريق ، فى صنع مسوخ صغيرة جدا من الزجاج الملون تستعمل ايضا للوقاية من الامراض،تمثل احيانا رؤوس رجال،شعورهم ولحاهم مجعدةومعكفة وملونة بالازرق ، وعيونهم العظيمة براقة من شدة البياض ٠٠٠ او رؤوس نساء لون بشرتهن شاحب كامد ، بشعور مجعدة ايضـا وحواجب طويلة

خلاصة ما تقدم

كان القرطاجيون متمسكين كل التمسك بعاداتهم وتقاليدهم وعلى الاخص بمعتقداتهم الدينية ٠ وقد كانوا يعبدون كثيرا من الاصنام والالهة (تانيت بينيبعل) و (بعل حمون) وكانوا يقدمون لها الاطفال قربانا كما تدل على ذلك الاجاجين والقوارير الكبيرةالتى وجدت ملانة بعظام اطفال صغار وقع احراقهم احياء قربانا للاله بعل حمون ٠

الاسفـــار والرحلات

كانت قرطاج ، طيلة ما يزيد على ستة قرون ، الواسطة الوحيدة تقريبا بين اقطار البحر المتوسط وكامل النصف الغربى من القارة الافريقية ، اى من اقصى السرت الى المحيط الاطلسى المراكشى،ومن البحر المتوسط الى خليج غينية ـ وان القرطاجيين لم يفكـروا مـن البداية فى التوغـل بانفسهم فى هذا العالم المتـرامى الاطـراف ، لكنهم لم يلبثوا ان ادركوا ما تخفيه تلك الصحارى والجهات القاحلة من خبايا وكنوز ثمينة • فلم يفت فى ساعدهم ولم ينن عزيمتهم لا اقتحام الاخطار ولا تحمل الاتعاب ، بـل استسهلـوا كـل صعب بارادتهم الفولاذية ، واقتحموا كل الاهوال للوصول الى تلك الكنوز النفيسة من التبر والعاج • وهذا العالم الشاسع يشتمل على الصحراء وعلى بلاد الزنوج .•

ـ الصحـراء

بما ان جفاف الصحراء وقع تدريجيـا ، فهى لم تبلـغ فى عهـد القرطاجيين درجة القحولة التى وصلت اليها اليوم ، وهى كانت اقل اتساعا لامتداد سطح البحيرات الكبيرة الموجودة بالسودان الشمالى ولذلك كان من الممكن قطع الصحراء بدون صعوبة كبيرة على شـرط اجتناب الاعراق والتلال والكثبان الرملية • وان اسهل طريق نسبيا هو الذى كان يمر من معبر واحات فزان ويربط بين البحر المتوسط والسودان وكان من الممكن ايضا السير بجانب سواحل المغرب الاقصى ويقع الوصول هكذا الى الانهر الكبيرة والى الغابات الملتفة والمتلبدة بالمنطقة الحارة •

والمكان الذى يسمى اليوم بفزان هو الذى كانت تقيم به قبائل الغرامانت (Garamantes) كما اورد لنا اخبارهم المؤرخون اليونانيون والرومانيون • وان التفتيشات التى قام بها علماء الآثار الايطاليون بغرمة (Garama) عاصمة الغرامانت تدل على ان هؤلاء القبائل لم يكونوا من الزنوج السود بل كان جنسهم قريبا من الطوارق وكانت مدنيتهم ليبية •

وقد روى لنا هيرودوتس اخبار حروبهم المستمرة مع الحبش القاطنين فى الكهوف بجبال التيبستى ، فكانوا يطاردونهم ويجدون فى اثرهم وهم على عربات خفيفة تجرها اربعة من الخيل • وكانت هذه العربات تمكنهم من اجتياز « الحمائد » الصخرية والمنبسطة والتى تناسبها مثل هذه الوسائل التنقلية • وان الوثائق الاثرية الهامة تؤيد هذه الارشادات التى مدنا بها « شيخ المؤرخين » ، وهذه الوثائق هى الصور الصخرية التى وجدت بكثرة بنجد تاسيلى العجير (Tassili des Ajjer) وبنجد الاحجار (Ahaggar), والتي تمثل محاربين من الغرامانت ، مزينين بالريش ، وحاملين الحراب والمزاريق ، وراكبين عربات تجرها ثلاثة او اربعة من الخيل •

وان هذه الصور يرجع عهدها الى ما يزيد عن الف سنة ق • م • اى عند ما ظهر الفرس واستعمل كمركوب مكان البقر التى كانت تمثل مدنية اسبق كما تدل عليه رسوم صخرية اقدم عهدا من رسوم الخيل ••• ثم بعد ذلك تخلى الفرس بدوره عن مكانه لفائدة الجمل سفينة الصحراء بلا منازع وذلك ابتداء من القرون الاولى للميلاد •

ويظهر ان استعمال هذه العربات الطائرة دخل فى عادات قبائل الغرامانت منذ ذلك العهد البعيد بواسطة الايجيين الذين كانوا نزلوا بالسواحل القرينية اثناء هجوم (شعوب البحر) ، او على الاقل بواسطة الفنيقيين الذين كانوا اخذوا ذلك عن الايجيين والذين كانوا يترددون على السواحل الليبية فى ذلك التاريخ • وعلى كل ، فالشيء الذى يستوقف النظر هو الاتفاق فى الزمن بين قدوم الصوريين الى السواحل التونسية وبين استعمال هذه العربات عند الغرامانت وتكوين الامبراطورية الليبية بالصحراء •

وفيما وراء العرق الكبير الغربى نرى قبائل اخرى ليبية وهى قبائل الفاروزيين (Pharusiens) كانت تراقب مسلكا آخر يبدا من مريطانيا ويصل الى السنغال • وكانت مدنيتهم شبيهة بمدنية

الغرامانت حتى ان رسوم العربات على الصخور كانت موجودة كذلك عندهم بكامل جهاتهم ٠

ويظهر ان التجار القرطاجيين لم يسافروا فى اول الامر بانفسهم الى بلاد السودان لجلب ما فيها من خيرات ، بل قضوا مدة طويلة وهم يستخدمون وسائط من الاهالى ٠ فكانت تاتى القوافل تحت حراسة الغرامانت الى ان تبلغ طرابلس ٠ وكانت قوافل الفاروزيين تصعد من مسلك آخر الى مدينة قرطة (وهى قسنطينة اليوم بالجزائر) ٠

وهكذا كان التجار القرطاجيون يتزودون بالبضائع الواردة من الاراضى البعيدة الحارة كالعاج والتبر وكالحيوانات المفترسة التى نفقت سوقها وراجت تجارتها على الاخص عند ما انتشرت عادة استعمالها على المسارح ، فكان الرومانيون يقبلون على اقتناء الاسود، والنعام، والفيلة التى كانوا يطلقون عليها اسم «بقر لوقانيا» (١) والنمور التى كانوا يسمونها « فئران افريقية » ٠

وكانت سبراطة (Sabratha) من اهم الاسواق التابعة للقوافل الصحراوية القادمة من السودان ٠ وفى القرن الخامس كان التجار ياتون اليها من قرطاج وينزلون بها فى انتظار قدوم قوافل الصحراء

ولكن بعد ذلك عزم القرطاجيون على التوغل بانفسهم فى تلك المسالك الصعبة ٠ ومما لا شك فيه ان بعثاتهم ورحلاتهم الصحراوية الكبرى بدات تظهر فى القرن الخامس ، اذ فى ذلك التاريخ صار البونيقيون يريدون الاستغناء عن الوسائط والالتحاق مباشرة بمصدر الخيرات التى ترتكز عليها تجارتهم ، فصارت قوافلهم تخطط الصحراء الكبرى ، وتقصد بلاد السودان لجلب الرقيق والتبر والعاج وغير ذلك من تمين المواد ٠

ونذكر بين المسالك الهامة التى وصفها لنا هيرودوتس وصفا مدققا الطريق الذاهبة من الشرق الى الغرب والتى تربط بين مصر والسودان ، فتبدا من ثيبة (Thèbes) بمصر وتمر من واحة امون

---

(١) لوقانيا (Lucanie) : جهة جبلية بجنوب ايطاليا كائنة بين خليج تارنتة - شرقا والقلابر جنوبا والكنبانى والبحر التيرانى غربا ٠ وكانت فى حروب مستمرة مع رومة - وكان الرومانيون يطلقون على فيلة افريقية اسم (بقر لوقانيا) لانهم روا هذه الفيلة لاول مرة بتلك الجهة من ايطاليا فى جيش الملك بيروس لما حاربهم فانهزموا من امامه لخوفهم من هذه الحيوانات المزعجة (سنة ٢٧٩ ق ٠ م ٠) ٠

(وتسمى الان بواحة سيوة) فى مرحلة اولى تدوم عشرة ايام ،ومنها الى واحة (اوجيلة) التى تبعد عن واحة سيوة بثلاثمائة كيلومترتقريبا وكانت واحة اوجيلة فى العصور القديمة لقبيلة قوية تسمى قبيلة الناسمون ، وتقطع هذه المرحلة الثانية فى عشرة ايام ايضا • ثم تاتى مرحلة ثالثة تقطع كذلك فى عشرة ايام وتنتهى عند قبائل الغرامانت ثم مرحلة رابعة تقطع فى نفس تلك المدة وتنتهى عند العطارانت القاطنين بالفزان او بنجد تاسالى العجير ومن الفزان ، الذى يمكن اعتباره كمفرق الثنايا او النقطة الدائرة ، يمكن الاتجاه اما نحو سبراطة بالجهة الشمالية الشرقية بعد المرور من غدامس ولبدة ، او نحو نهر النيجر اى نحو بلاد السودان قرب قاوة وطنبكتو •

وان اهمية هذه التجارة الصحراوية بالنسبة لقرطاج لا يمكن نكرانها • وقد راينا ان منفذها الطبيعى على البحر المتوسط كان بلاد طرابلس او ليبيا باسواقها المشهورة Emporia مثل لبدة وسبراطة ومقارياط Macar-Uiat (وهى اوية (Oea) فى عهد الرومانيين ومدينة طرابلس اليوم) ومما يؤيد هذه الاهمية ما كان يجتمع يوميا بلبدة من المكوس والاداءات الكمركية لفائدة خزينة الدولة البونيقية ، فهو كان يبلغ يوميا فى بداية القرن الثانى ق•م• ما قدره خمسة آلاف فرنكا ذهبا (١) ومثل هذا المبلغ لم يكن يتجمع فقط من الضرائب على الانتاج الفلاحى المحلى الذى كان ينحصر فى الزيت والتمر ، بل كان اكثره متكونا من الاداءات عن البضائع والسلع الثمينة الواردة من السودان مثل التبر والعاج وريش النعام والفراء والجواهر • ولذلك يمكن ان نقول بان الصحراء كانت من اهم اركان ثروة قرطاج خصوصا وان القرطاجيين كانوا لا يجدون امامهم مزاحمين ينازعونهم فى هذا الميدان الذى امتازوا به دون غيرهم حتى لقبت قرطاج بملكة افريقية •

وبما ان القرطاجيين كاجدادهم الفنيقيين كانوا قبل كل شىء امة بحرية ، فانهم اخذوا يفكرون فى طريقة تمكنهم من الوصول الى ذخائر التبر لا عن طريق الصحراء بل عن طريق البحر • فكان ذلك من اهم اسباب رحلة الملك حنون الماقونى •

---

(١) ما يقرب من مليون دينار من نقود بلادنا فى الوقت الحاضر

رحلة حنون (Périple de Hannon)

ان هذه الرحلة وقعت فى النصف الثانى من القرن الخامس حوالى سنة ٤٨٠ ق ٠ م ٠

وقد ترك لنا حنون نصا منقوشا على لوحة من النحاس كانت معلقة بمعبد كرونس او بعل حمون ، يروى فيه رحلته بالتفصيل لكن لم يبق من ذلك النص سوى ترجمة الى اليونانية قام بها شيخ المؤرخين هيرودوتس وهذا تعريبها حرفيا :

١ – «قد راى شعب قرطاج من المستحسن ان يسافر حنون خارج اعمدة هيرقليس (١) ، وان يؤسس مدنا ليبية بونيقية فابحر حينئذ فى ستين مركبا ذات خمسين مجذافا ، واخذ معه جما غفيرا من الرجال والنساء يبلغ عددهم ثلاثين الفا ، مع كل ما يلزم من المؤونة وغير ذلك من الضروريات ٠

٢ – بعد ما اجتزنا اعمدة هيرقليس وسرنا فى البحر مدة يومين انشانا بلدة اولى سميناها تيماتيريون Thymatérion (1، تحتها سهل كبير

٣ – ثم اتجهنا نحو الغرب وادركنا مكانا يعرف بـ(صوليس) Cap Soloeïs وهو عبارة عن راس فى الاراضى الليبية كله اشجار (٢)

٤ – بعد ما اقمنا هناك معبدا للاله (بوصيدون) (٣) سافرنا فى البحر متجهين نحو الغزالة (٤) مدة نصف يوم٠ فوصلنا الى بحيرة قريبة من البحر يغطيها قصب كثيف ومرتفع ترعى فيه الفيلة وعدد كبير من الحيوانات الاخرى ٠

---

(١) اعمدة هيرقليس (Colonnes d'Héraclès) : هى مضيق جبل طارق

(١) تيمياتيريون : هى المهدية الان قرب مدينة الرباط وبمصب نهر سبو او نهر السبع

(٢) راس صوليس : هو راس القنتل Cap Cantin شمال مدينة اسفى Safi ما بين مصب نهر ام الربيع ونهر تنسيفت ٠ وهذه الكلمة (صوليس) فنيقية الاصل ومعناها (الصخرة) ٠ وقد اطلق الرومانيون على هذا الراس اسم Promuntorium Soli

(٣) بوصيدون (Poseidon) اله البحر والملاحة والزوابع والاعاصير عند الرومانيين نبتون ، من خاصياته الخطاف الثلاثى الشوكات ، والفرس ، والثور ، والدخس (اى الدلفين) ، وقد وقع تشبيهه فيما بعد عند الرومانيين بنبتون اله البحر ايضا

(٤) الغزالة : هى الشمس عند شروقها وارتفاعها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٥ ــ وبعد ما تجاوزنا تلك البحيرة وسرنا مدة يوم كامل شيدنا مستعمرات سميناها : الجدار القارى (Mur Carien) وجيطة (Gytte) وآكره (Acra) ومليتة (Melitta) وعرمبيس (Arambys) (١)

٦ ــ بعد ما خرجنا من هناك وصلنا الى نهر لكسوس (٢) الاتى من ليبيا وعلى ضفتيه رعاة من البدويين الليكسيين يسرحون اغنامهم • فمكثنا مدة من الزمن صحبة هؤلاء الناس وصرنا من اصدقائهم •

٧ ــ ويعيش فوقهم اقوام من الحبش لا يكرمون الضيف ، فى ارض كلها حيوانات ضارية ، تشقها جبال كبيرة قيل انه يخرج منها نهر لكسوس ، ويقال ان رجالا لهم هيئة غريبة يدعون (الترغلوديت) يعيشون حول تلك الجبال ويزعم الليكسيون انهم اسرع من الخيل فى العدو •

٨ ــ بعد ما اخذنا معنا مترجمين من الليكسيين سرنا بجانب الصحراء متجهين نحو الجنوب مدة يومين ، ثم نحو الغزالة مدة يوم كامل ، فوصلنا الى خليج وجدنا فى جوفه جزيرة صغيرة طول محيطها خمس غلوات (٣) فسميناها قرنة (Ile Cerné) وتركنا فيها جالية من المعمرين • ويظهر لنا مما قطعناه فى سفرنا ان هذه الجزيرة كائنة تجاه قرطاج لان السير فى البحر من قرطاج الى اعمدة هيرقليس يعادل تقريبا السير من تلك الاعمدة الى قرنة •

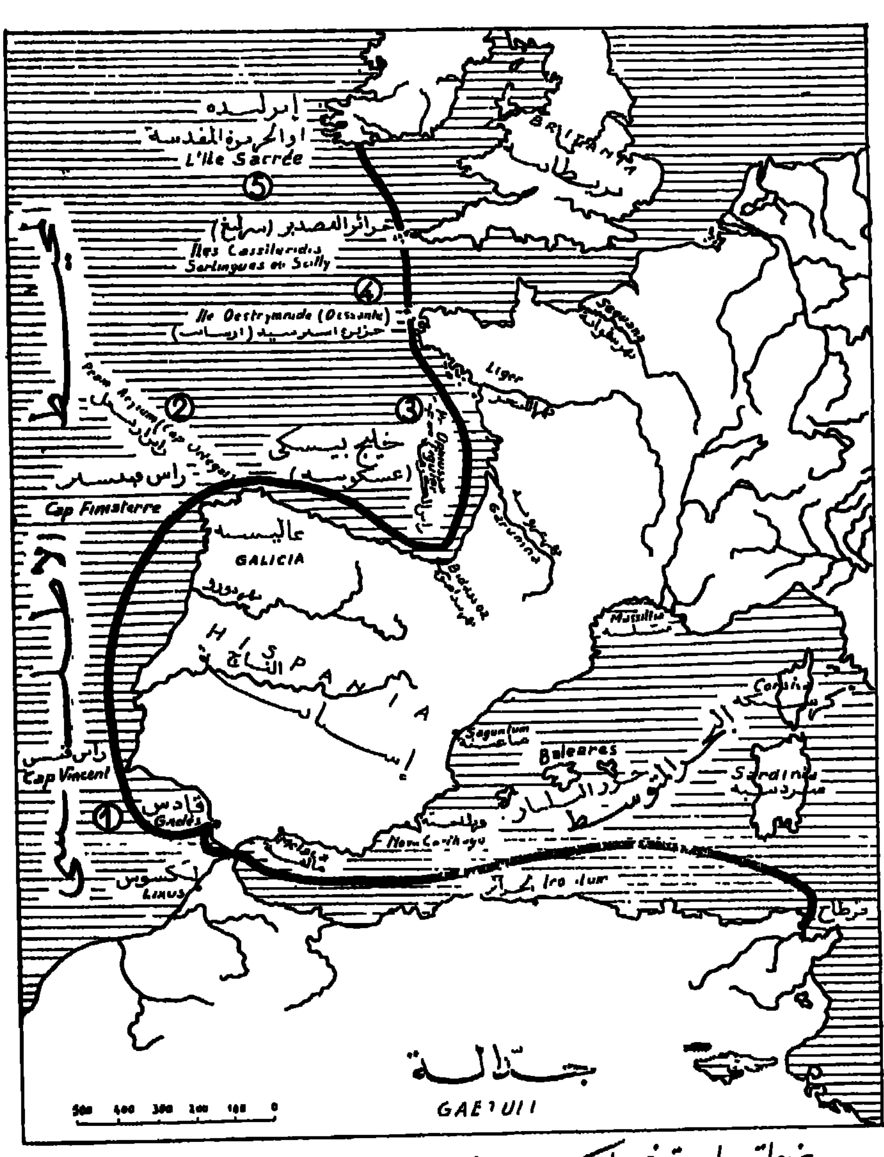
(١) هذه المراكز الخمسة زالت آثارها تماما ولا يمكن معرفة مواقعها بالضبط لكنها كانت كلها موجودة بين راس القنتل ومدينة اجادير بمصب نهر السوس (انظر الخريطة)

(٢) نهر لكسوس (Lixus) او ليكس (Lix): هو نهر السوس (Sous) والليكسيون (Lixites) كانوا سكان تلك الجهة واللاحظ وجودلكسوس (Lixus) اوليكس بالشمال وهى بلدة العرائش اليوم Larache ثم لكسوس او ليكس (Lix) بالجنوب وهى وادى سوس اليوم (انظروا الخريطة)

(٣) غلوة (Stade) ج غلوات : كانت من المقاييس القديمة عند اليونانيين وطول الغلوة ستمائة قدم او ١٩٢،٣٧ من الامتار تقريبا ومن ذلك اتت تسمية ساحة الالعاب بالستاد • وان طول محيط الجزيرة المقدر بخمسة غلوات اى اقل من كيلو متر واحد امر مستبعد وغير مقبول ، والغالب على الظن انه وقع تحريف فى العدد ولعل صوابه ١٥ غلوة اى ما يقارب ٣ كم •

لوحة ٣٦

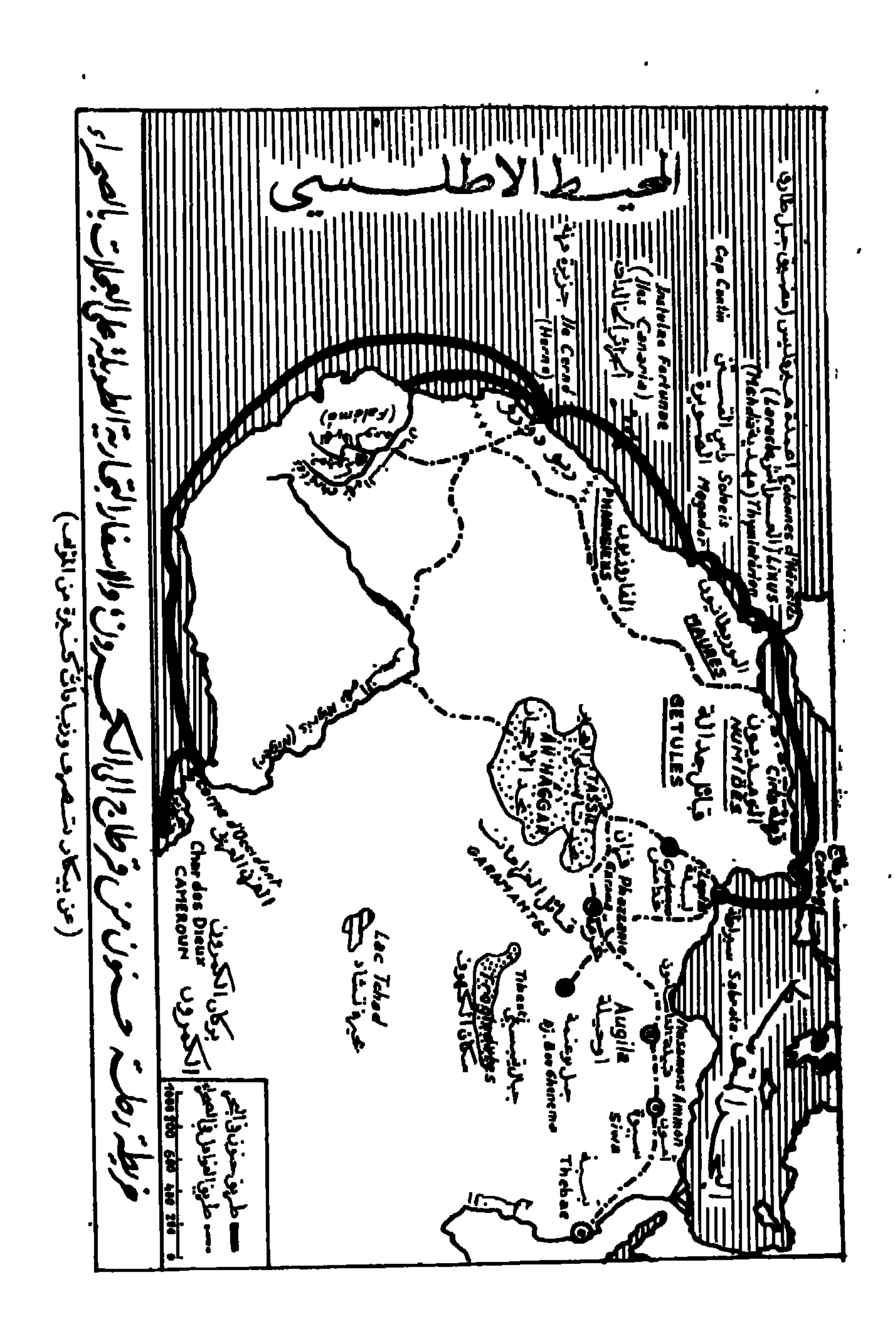
انظر الصفحة رقم ١٣٤ من هذا الكتاب



خريطة رحلة خيملكن (وضع وتحقيق المؤلف احمد صفر)
من قرطاج الى الجزيرة المقدسة (هيبرنيه او ايرلنده)

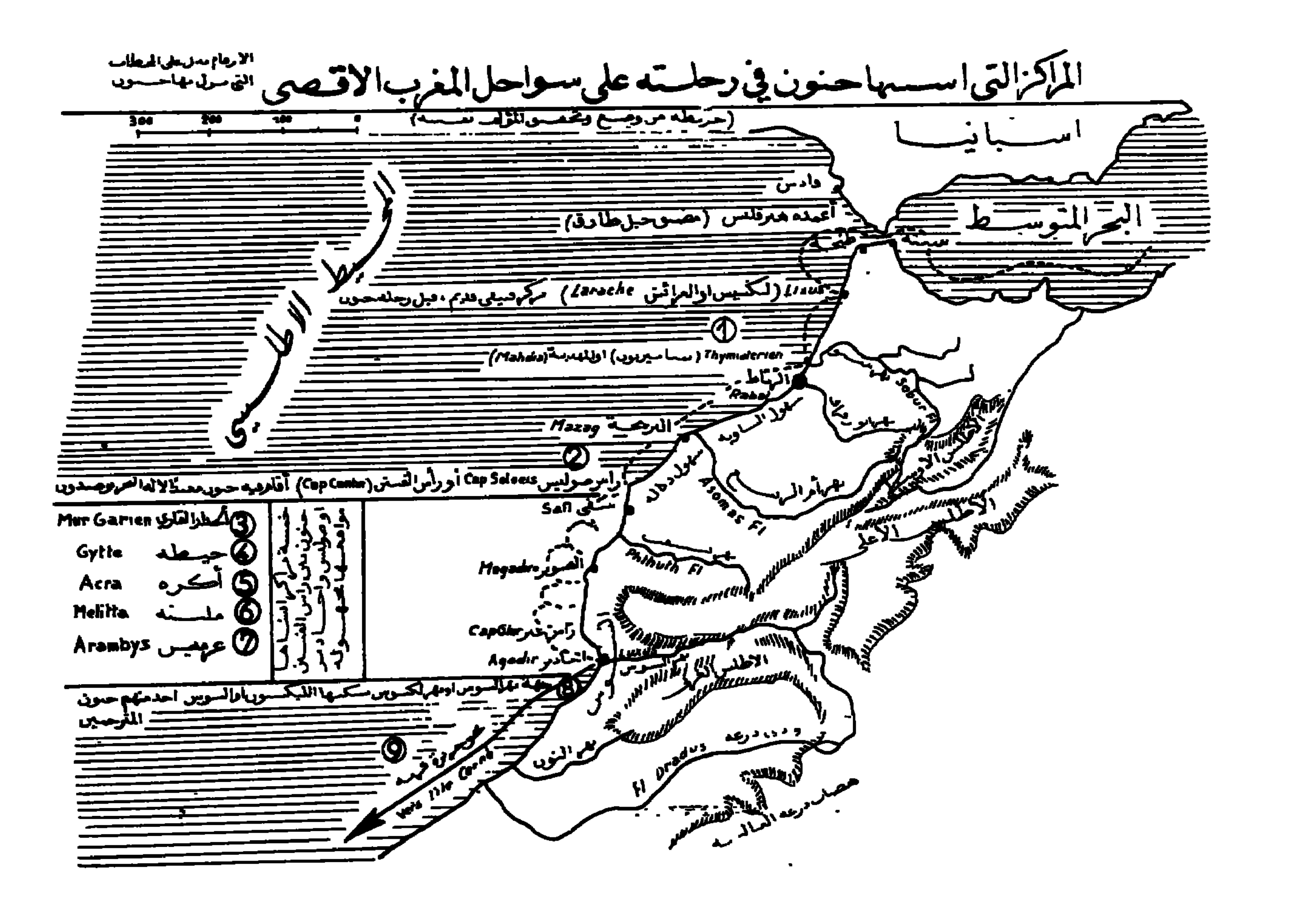
لوحة ٣٧

انظر الصفحة رقم ١٢٤ / ١٢٧ من هذا الكتاب

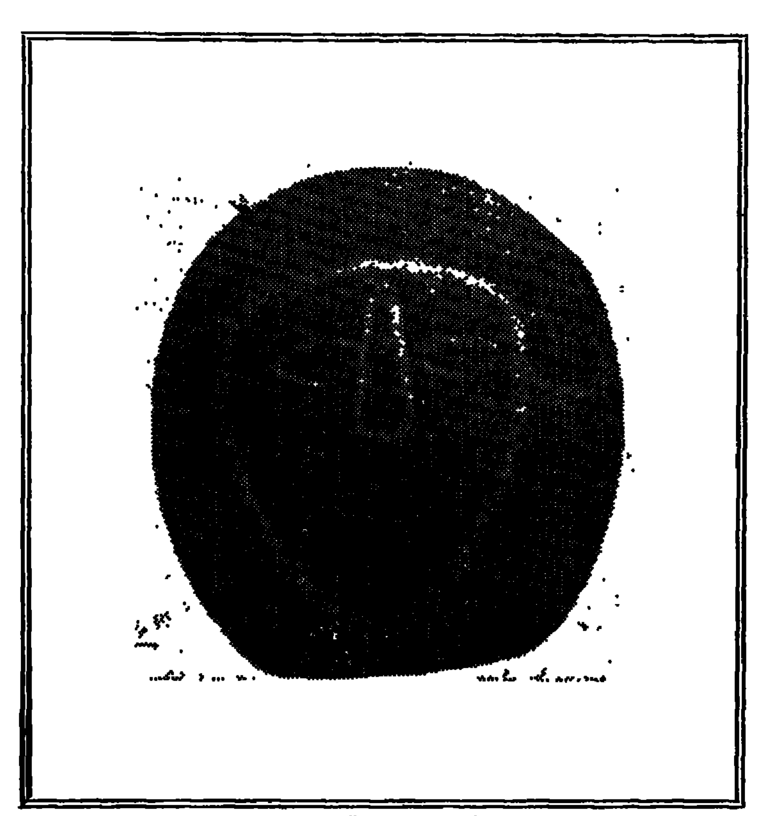


لوحـــة ٣٨

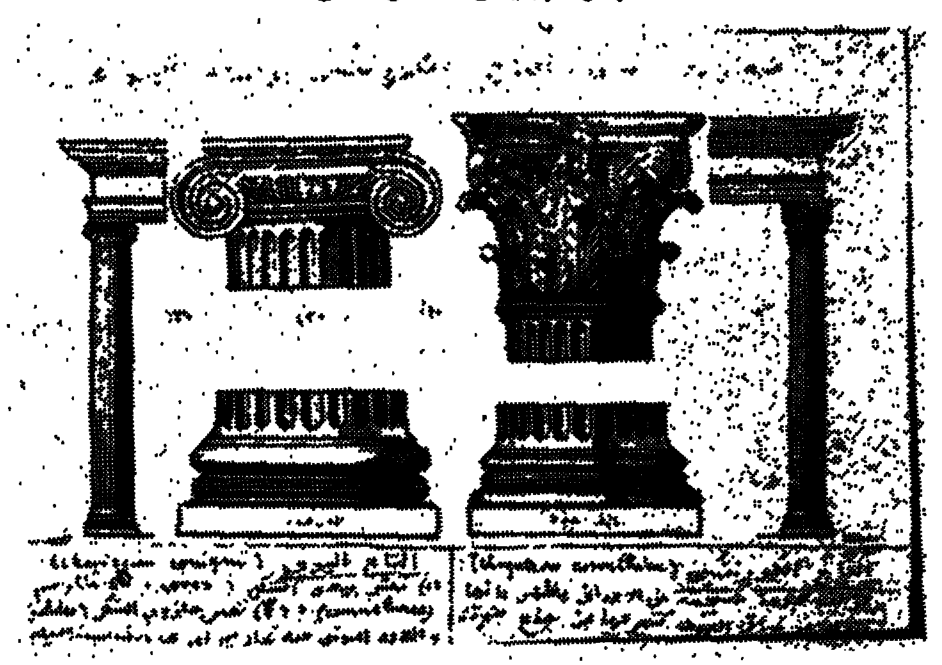
انظـر الصفحـة رقـم ١٢٨ من هذا الكتاب



لوحة ٣٩
انظر الصفحة ١٣٧ / ١٥٧ من هذا الكتاب



حجر البيتيل المقدس (ص ١٣٧)



التاج اليوني والتاج الكورنثسي (ص ١٥٧)

٩ ـ ومن هناك دخلنا نهرا كبيرا يسمى وادى قـريطيس (Chrétès) (١) فوصلنا الى بحيرة تحتوى على ثلاث جزر اكبر من قرنة • فذهبنا من تلك الجزر وسرنا مدة يوم وبلغنا آخر البحيرة التى تشرف عليها جبال شاهقة يسكنها رجـال متوحشون يلبسون جلود الحيوانات ، اخذوا يقذفوننا بالصخور فمنعونا من النزول •

١٠ ـ ومن هناك دخلنا نهرا آخر (٢) عريضا وملآنـا بالتماسيح وبافراس النهر • فرجعنا على اعقابنا وعدنـا الى قرنة •

١١ ـ ومن هناك اتجهنا نحو الجنوب مدة اثنى عشر يوما وسرنا بجانب السواحل التى كان يقيم بها سكان من الحبشة يفرون كلـما دنونا منهـم ، ويتكلمون بلغـة لم يفهمهـا حتى الليكسيون الذين كانوا معنا •

١٢ ـ وفى اليوم الاخير اقتربنا من جبال عاليـة تغطيهـا اشجار اعوادها طيبة الرائحة ومختلفة الالوان •

١٣ ـ وبعد ما درنا بتلك الجبال مدة يومين وصلنا الى خليج متسع الارجاء يظهر من جهته الاخري سهل راينا فيه عند مـا اتى الليل وجن الظلام ، نيرانا ترتفع من كل جانب بالتواتر وتختلف شدة •

١٤ ـ وبعد ما تزودنا بالماء استانفنا سيرنا بجانب الشاطىء مدة خمسة ايام ، فوصلنا الى خليج كبير ذكر لنا المترجمـون انه يسمى قرن الغرب (Corne de l'Occident) • وتوجد فى ذلك الخليج جزيرة كبيرة فيها بحيرة تحيط بجزيرة اخرى • فنزلنا فيها ولم نر بها فى النهار الا غابة • اما فى الليل فقد ظهـرت لنا نيران واضواء كثيرة ، وسمعنا اصوات الزمـور وقعقعـة الطبول والصنوج ، وجلبة كبيرة • فتملكنا الخوف ، وامرنـا العرافون بمبارحة الجزيرة حالا (٣) •

(١) وادى قريطيس : هو وادى السنغال

(٢) النهر الاخر : هو ساعدة نهر السنغال ويسمى نهر فالومة ما بين نهر السنغال وساعدة وادى فالومة توجد ارض مثلثة الشكل تسمى (بمبوك) هى مكان استخراج الذهب منذ قرون طويلة •

(٣) تفهم من ذلك ان حنون استصحب العرافيين معه ليستشيرهـم وياخـذ رايهم فى المهمات ومن غير شك ان هذه الاضواء والاصوات كانت ناشئة عـن حفلة دينيـة اقامها الزنوج ليلا •

١٥ ـ فبادرنا بالخروج من ذلك المكان ، وسرنا بجانب بقعة مضطرمة ، كلها روائح طيبة ، ورأينا اودية من النيران تسيل منها وتنصب في البحر • وكانت تلك الارض لا تطاق ولا يمكن النزول فيها من شدة الحرارة •

١٦ ـ فسارعنا بالابتعاد عنها لشدة ما نالنا من الخوف وكنا نسير مدة اربعة ايام ونحن نرى الارض فى الليل كلها نيرانا ، وكنا نرى في وسطها نارا مرتفعة وصاعدة فى السماء كانها تريد ان تدرك الكواكب • ولما طلع النهار تبين لنا انها بركان كبير يسمى « عربة الآلهة (١) (Char des Dieux)

١٧ ـ ومن هناك قضينا مدة ثلاثة ايام ونحن نسير بجانب النيران الملتهبة حتى انتهينا الى خليج يسمى قرن الجنوب (Corne du Sud)

١٨ ـ وفى جوف ذلك الخليج توجد جزيرة شبيهة بالتى تقدم ذكرها ، فيها بحيرة في وسطها جزيرة اخرى يسكنها رجال متوحشون ، كانت نساؤهم اكثر عددا من الرجال يغطي جسمهن شعر طويل وقال لنا المترجمون انهن الغورلا (Gorilles) فطاردنا الذكور بدون ان نظفر ولو بواحد لانهم كانوا ماهرين في التسلق وفى الدفاع عن انفسهم ، اما النساء فقد اخذنا منهن ثلاثة ، لكنهن امتنعن من اتباعنا واخذن فى عض وتخديش من يريد قودهن • فاضطررنا الى قتلهن وسلخهن • وحملنا معنا جلودهن الى قرطاج • اذ اننا لم نزد ولو خطوة اخرى الى الامام لنفاذ ما عندنا من الزاد • »

وهنا تنتهى ترجمة النص المتعلق برحلة حنون وهذا النص يعتبر من الوثائق التاريخية الهامة رغما عما فيه احيانا من الغموض او النقص او التحريف ، ورغما عما ورد فيه من اسماء مراكز وجهات لم نتوصل الى حصر مواقعها واثبات اماكنها بالضبط • فهو على كل حال واضح فى مجموعه ، يمكن درسه وشرحه وتاويله بدون صعوبة كبيرة ، وهو سهل الفهم وقريب المأخذ اذا اقتصرنا على ما فيه من ارشادات يمكن اثباتها بسهولة وتاويلها تاويلا صحيحا وعدلنا عن محاولة طلب المستحيل للوصول الى اكثر من ذلك •

وان هذا النص كان فى الاصل تقريرا حرره (حنون) وعرضه على مجلس الشيوخ • فمن غير شك ان هذا المجلس قبل ان يامر

(١) عربة الالهة : هو بركان الكمرون ويسميه سكان تلك الجهة (جبل الشياطين

بنقشه وتعليقه واذاعته للعموم ، حذف منه جميـع الارشادات التى ينبغى ان تبقى مكتومة وان تحتفظ مع جملة اسرار الدولة ، فلايمكن ان يرشدك النص مثلا الى المكان الذى يستخرج منه التبر او غير ذلك من الخيرات الثمينة التى تريد ان تختص بها قرطاج وان لا يزاحمهـا فيها مزاحم ٠

وقد فتح هذا النص مجالا لمجادلات ومناقشات كثيرة وتاويـلات مختلفة من طرف النقاد وعلماء التاريخ والاثار ٠ فهم يقولون مثـلا : كيف يمكن ان يحمل حنون ثلاثين الف من المسافرين في سبتين مركبا اى ان يجعل فى السفينة الواحدة ما يقرب من خمسمائـة شخص ؟ او كيف يتصور ان يكون طول محيط جزيرة قرنة خمس غلوات فقط اى ١٩٢،٢٧ × ٥ = ٩٦١،٣٥ م٠ وهو اقل من الكيلومتر ؟

وقد اتفق غالب المؤرخين على جعل المركز الاول الذى وقع انشاؤه اى (تيماتيريون) ببلدة المهدية الان قرب الرباط،وبجعل (صوليس) براس القنتل ٠

اما المراكز الخمسة الاخرى التى وقع انشاؤها بين صـوليس اى راس القنتل واجادير اى مصب وادى سوس فقد زالت آثارها وليس من الممكن التوصل الى معرفة مواقعها بالضبط ٠

واما جزيرة (قرنة) فقد اختلف المؤرخون فى ضبط موقعهـا ٠ ونحن نكتفى هنا بعرض ثلاث نظريات تبدو وجيهة :

اولا ــ نظرية ستيفان قسال (١) : يذهب هذا المؤرخ الى ان مصب وادى لكسيس هو مصب وادى درعة او وادى الذراع (Oued. Draa) حيث نزل حنون واخذ المترجمين، وان قرنة كانت موجودة قرب مصب اودلتا نهر الساقية الحمراء ما بين راس جوبى (Cap Juby) وراس بوجادور (Cap Bogador) ولكنها اقرب من الراس الاول ، وان نهـر اقريطيس هو نهر الساقية الحمراء ، فمن مصب ذلك النهـر يمكن العودة بسهولة الى قرنة وبدون اضاعة وقت طويل ٠

ويعتمد قسال فى تاويله هذا على عدد ايام السفر الذى ذكره حنون فى تقريره فهو يقول فى الفقرة الثامنة :

« بعد ما اخذنا معنا مترجمين من الليكسيين سرنا مدة يومين ٠٠ ثم يوم واحد ٠٠ فوصلنا الى خليج فيه جزيرة » وحينئذ فان مـدة السفر كانت فى الجملة ثلاثة ايام واذا اعتبرنا ان معدل سيرهم كان

---

(١) ستيفان قسال (Stephane Gsell) (١٨٦١ ــ ١٩٣٢) : عالم فرنسى من علماء الاثار والتاريخ الف كتاب(تاريخ افريقية الشمالية القديم)فى ثمانية اجزاء كبيرة٠ (Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord)

١٢٥ كم٠ فى اليوم فانه يمكن لهم ان يقطعوا فى ثلاثة ايام المسافة الموجودة بين مصب وادى درعة ومصب وادي الساقية الحمراء ولا يمكن لهم ان يقطعوا مسافة اطول من ذلك او الوصول امام خليج ريودورو (Rio de Oro) ثم يختم قسال كلامه بقوله : « لكن من سوء الحظ انه لا توجد اية جزيرة بتلك الناحية ، فلربما انها كانت موجودة فى ذلك العهد ، وبما انها لم تكن تبعد اكثر من ١٥٠٠ م ٠ عن الشاطىء فيمكن انها اتصلت والتحمت شيئا فشيئا بالارض اليابسة

ثانيا — نظرية ايميل قوتية (١) : يذهب هذا المؤرخ الى ان نهر قريطيس هو نهر السنغال ويجعل جزيرة قرنة قرب مصب ذلك النهر نفسه فى المكان الذى يسمى الان سان لويز (Saint Louis) ويستدل برواية حنون ، اذ هو يقول بانه نزل بجزيرة قرنة وترك فيها جالية من المعمرين ثم دخل نهر قريطيس (ولم يقل بانه سار الى ان وصل الى ذلك النهر) ٠

وقد اتفق هذا المؤرخ مع ستيفان قسال فى جعل هذه الجزيرة قرب مصب نهر قريطيس ، والخلاف بينهما كان منحصرا فى اثبات شخصية ذلك النهر وتحقيق ذاتيته ، فبينما يقول قسال بانه نهر الساقية الحمراء نرى قوتية يقول بانه نهر السنغال ٠ وهذا الراى الاخير يبدو كانه اقرب للصواب اذا علمنا ان حنون كان يسعى وراء مناجم التبر وهى كانت موجودة بجهة نهر السنغال لا بجهة نهر الساقية الحمراء

ثالثا — نظرية كاركوبينو (٢) : ان هذا المؤرخ (ككثير من المؤرخين مثل فيفيان مارتان (٣) وغيره) يجعل جزيرة قرنة فى جون ريودورو وهى ما زالت تسمى الى يومنا هذا « جزيرة هرنة » Herne ويعتبر بان نهر قريطيس هو نهر السنغال فهو يتفق مع قوتية فيما يتعلق بنهر قريطيس واعتباره شئا واحدا هو ونهر السنغال ولكنه يرى ان اعتبار جزيرة قرنة بمصب ذلك النهر غير ممكن لطول المسافة بين ذلك المكان وجهة وادى سوس ، ونحن نجد

---

(١) Emile Gautier ١٨٦٤ — ١٩٤٠ : مؤرخ فرنسى الف كتاب القرون المظلمة او ماضى افريقية الشمالية ٠
Les siècles obscurs ou le Passé de l'Afrique du Nord.

(٢) Jérome Carcopino ولد سنة ١٨٨١ مؤرخ فرنسى اختصاصى فى تاريخ الرومانيين الف (بلاد مراكش العتيقة le Maroc antique) حيث يتحدث عن جزيرة قرنة (من صفحة ٧٢ الى صفحة ١٦٣)

(٣) Vivien de St Martin : (١٨٠٢ — ١٨٩٧) مؤرخ وجغرافى مشهور الف كتابا كبير القيمة وجليل الفائدة شمال افريقية عند قدماء اليونانيين والرومانيين طبع سنة ١٨٦٣
Le Nord de l'Afrique dans l'antiquité grecque et romaine.

في نص رحلة حنون « انهم ساروا مدة يومين ثم يوم واحد » وهـذا لا يكفى للوصول الى نهر السنغال •

فلو اصلحنا ذلك وقلنا بانهم ساروا مدة اثنى عشر يوما (١) ثم يوم آخر » تكون مدة السفر ثلاثة عشر يوما ، وهـو مـا يكفيهم للوصول الى جون ريودورو حيث كانت تلك الجزيرة •

ومن جهة اخرى فان حنون قد وضح لنا ذلك بقوله : « ويظهر لنا مما قطعناه فى سفرنا ان هذه الجزيرة كائنة تجاه قرطاج لان السيـر فى البحر من قرطاج الى اعمدة هيرقليس يعادل تقريبـا السيـر من تلك الاعمدة الى قرنة » • وهذا يكون صحيحا اذا جعلنا جزيرة قرنة فى جون ريودورو •

وهذه النظرية الثالثة هى التى نراها اقرب الى الحقيقة والصواب من جميع النواحى ولذا اعتمدناها فى تسطير الخريطة •

فيمكن ان نقول حينئذ بان نهر قريطيس هو نهر السنغـال وبان جزيرة قرنة هى التى تسمى الان جزيرة هرنة فى جون ريودورو وهى بالنسبة للقرطاجيين الذين كانوا ماهرين فى ركوب البحر لا تعتبـر بعيدة عن نهر السنغال اى طريق مناجم الذهب • وكانت هذه المناجم موجودة بين نهر السنغال وساعدته نهر فالومة Falémé فى ارض متسعة ومثلثة الشكل تسمى بمبوك (Bambouk) وان علمـاء التاريخ والجغرافيا من العرب قد نوهوا كلهم بشان التبر الموجود فى بمبوك • حتى ان احدهم وهو (يا قوت) وصف لنا الكيفية التى كان يقع بها تبادل البضائع بالتبر فقال :

> ان التجار المغاربة كانوا ياتون قرب بلاد الزنوج ،فيشعرون السكان بقدومهم وذلك بدق الطبول • وعندما يسمع الزنـوج حس الطبول يخرجون من مخابئهم وينتظرون عن بعد • وعند ذلك يفتح التجار اكياسهم ويصففون بضائعهم ثم يبتعـدون فيقترب الزنوج ويضعون كمية من التبر بجانب السلـع ثـم يبتعدون بدورهم • • • • فيرجع التجار ، ويأخذون التبـر ثـم ينصرفون تاركين البضائع للزنوج ، ويشعرونهم بانصرافهم بدق الطبول مرة ثانية • ولا يتعدى ابدا احدهم عن الاخر •

(١) بالحروف douze عوض deux او بالارقام ١٢ عوض ٢ فان الغلط ممكن للتشابه فى شكل الكتابة سواء بالحروف او بالارقام لا اللاطينية فقط بل حتى بالحروف والارقام اليونانية .

يمكن ان تقارن هذا الوصف بالنص الذى تركه لنا شيخ المؤرخين هيرودوتس وذكر فيه كيف كان القرطاجيون يعرضـون بضـائعهم ويعوضونها بالذهب فى بلاد كائنة خارج اعمدة هيرقليس (فهو من غير شك يشير الى بلاد السنغال) ٠

قال : كانوا ينزلون بضائعهم ويرتبونها على الشاطىء ثم يعودون الى سفنهم ، ويستعملون الدخان لاشعار الاهالى بقدومهم ٠٠٠ الخ (وبقية الحديث كان كما اورده ياقوت) فالفرق بين الروايتين ينحصر فى استعمال الدخان عوض دق الطبول ٠ وقد كان هيرودوتس يصف لنا ذلك فى القرن الخامس قبل المسيح ٠ ويا قوت بين ١١٧٨و١٢٢٩ ولا يمكن ان نتهمه بالاخذ عن هيرودوتس لانـه لم يكن يعرفـه ولا يعرف تاليفه ٠ فلم يبق الا التسليم بانهما وصفا شيئا واحـدا كان يقع فى نقطة واحدة الا وهو هذا التعامل الصامت الذى كان بـدون شك ناشئا عن حذر الزنوج وعدم ثقتهم بالتجار لانهم كانوايأخذونهم ويبيعونهم فى سوق الرقيق باغلى الاثمان ٠ غير ان (ياقوت) كان اكثر دقة من (هيرودوتس) لانه سمى لنا المكان وقال بان هذا النوع من التعامل الصامت كان يقع بالسنغال او بلادالزنوج،اماهيرودوتس فقد اقتصر على القول بانه كان يقع خارج اعمدة هيرقليس ، وبما انه كان نقل ذلك عن القرطاجيين انفسهم فلعل تكتم هؤلاء التجار هـو الذى كان اوقعه فى هذا الغموض والابهام ٠

ونستنتج من ذلك كله ان السفن القرطاجية كانت تصعـد نهـر السنغال الى البمبوك حيث كانت توجد مناجم التبر المشهورة ٠

ــ رحلة خيملكن

بينما كان الملك القرطاجي حنون يتعرف بالسواحل الافريقية الى الكمرون سعيا وراء معادن الذهب ، كان القائـد البـونيقى خيملكن يتعرف بالسواحل الاوروبية الى ايرلنـدة سعيـا وراء القصديـر او الرصاص الابيض كما كان يسميه ديودورس واسترابن : فان هذه الرحلات كانت كلها لفائدة التجارة والصناعة ٠ ولغايات اقتصاديـة قبل كل شيء ٠

وليس لدينا من الوثائق حول رحلة خيملكن سوى نبذ من قصيدة فى الجغرافية الفها الشاعر الرومانى روفـوس فستيوس افيانوس Rufus Festus Avienus فى بداية القرن الرابع (حوالى سنة ٤٠٠ق٠م

لتعليم احد اقاربه ، وعنوان هذه القصيدة (Ora Maritima) اى (حول البحر) يصف فيها الشاعر سواحل البحر الابيض المتوسط حسبما وجده في الرحلة التى قام بها خيملكن من اسبانية الى بلاد القصدير

ويقول افيانوس فى ابياته بان خيملكن سافر فى البحر المحيط ووصل بعناء كبير وبعد اربعة اشهر الى نواحى جزر الاسترمنيد (Œstrymnides) ، ويحدثنا عن سكون البحر الذى يوقف السفن ، وعن مسافات عريضة مسدودة بضريع ملتف يعوق المراكب عن السير او كانت قاعها رمالا تكاد لا تغطيها المياه ، وعن ضباب كثيف يحجب الماء والسماء ، وعن حيوانات هائلة تدور هنا وهناك وتلقى الرعب في النفوس ...

« ان القرطاجى خيملكن ، الذى يحكى بانه جرب بنفسه هذا السفر ، يؤكد بانه لا يمكن الا بجهد جهيد قطع تلك المسافة في اربعة اشهر (١) ، وذلك لعدم وجود اى نسيم يدفع السفينة الى الامام ، فان ماء هذا البحر الميت يبدوساكنا جامدا ، وزيادة على ذلك فان كمية كبيرة من الضريع تصعد من قعر البحر وتصبح شبه سياج يحبس السفينة ، ومع ذلك فان البحر خال من العمق لا تغطى قعره سوى طبقة دقيقة من الماء ، وفى كل وقت ترى حيوانات بحرية تجول هنا وهناك وحيتانا مخيفة تمر بين السفن التى تزحف ببطء وبتعب شديد . »

ونفهم من كلام افيانوس ان القائد البونيقى وصل الى جزر (استرميد) قرب (راس استرمنيس) . ومن المحتمل ان يكون هذا الراس هو الطرف الغربى من الارموريك او بريطانية الفرنسية وان تكون تلك الجزر هى (اوشانت) والجزر المجاورة لها .

ويقول النص بان خيملكن قضى اربعة اشهر للوصول الى جزر استرمنيد . فان كان ذلك صحيحا فهو قد تعطل كثيرا فى سيره ، اما لوقوفه فى اماكن ساحلية كثيرة وفى نقط مختلفة . او بسبب العقبات والعوائق التى اعترضته فى طريقه ، او لانه ربما تاه فى البحر..وضل عن الطريق ، وربما وصل الى بحر السرجس (Mer des Sargasses)

---

(١) نص ابيات الشاعر افيانوس

Quæ Himilco Pœnus mensibus vix quattuor,
Ut ipse semet rem probasse retulit
Enavigantem, posse tramitti adserit

قرب جزائر البورى (Les Açores) التى تبعد ١٣٠٠ كم٠ تقريبا عن البرتغال ، فان ذلك البحر هو عبارة عن مروج عائمةواكداس مكدسة من الضريع الذى ينتمى الى نوع (السرجس) الشيء الذى ادهش خريستوف كولونب وابهته حقيقة،وماسمى ذلك المكان ببحر السرجس الا لكثرة ما فيه من هذا النوع من الضريع ٠

اما تلك المسافة بين فاذس وطرف بريطانية الفرنسية فهى تقطع عادة فى مدة لا تتجاوز اسبوعين ٠

وان افيانوس ، نقلا عن خيملكن بدون شك ، يجعل فى حسابه خمسة ايام للذهاب من اعمدة هيرقليس (مضيق جبل طارق) الى راس اريوم او راس ارتيغل (Cap Ortégal) ويومين للذهاب الى راس الكرمة (Cap du Figuier) الموجود قرب مصب نهر بيداصوة (Bidassoa)

وعلى كل فان الشيء المحقق هو ان خيملكن وصل الى بريطانية الفرنسية ونزل بها ٠

وان القصدير الذى تحدث عنه افيانوس كان يصدر منذ مدة بعيدة جدا ، من طرف الكورنوال (Cornouaille) والموربيهان (Morbihan) ببريطانية الفرنسية ٠ فكان الاهالى بتلك الجهة يصبونه فى شكل سبائك يحملونها فى قوارب خفيفة مصنوعة من جلود يخيطونها حول هيكل من قضبان الخيزران ، وكان التجار الاجانب ياتون من بعيد الى تلك الجزر لاقتناء القصدير ويظهر ان استغلال هذه المناجم اخذ ينقص ويتضاءل ابتداء من سنة ٥٠٠ ق٠م٠ بينما كانت عكس ذلك مناجم الكورنوال بانكلترة تنمو وتزدهر ٠ وهذا الانتقال فيما يتعلق بمراكز انتاج القصدير هو الذى كان من اهم اسباب رحلة هذا القائد البونيقى ليطلع بنفسه عن مشاكل التموين ٠ ولذلك نراه لم يمكث طويلا بالارموريكة الفرنسية بل قصد انكلترة وايرلندة او الجزيرة المقدسة كما كانوا يسمونها فى الماضى ووصل الى جزائر القصدير (Iles Cassitérides) او جزائر الصورلنغ او سيلى (Iles des Sorlingues ou Scilly)

هذا وان الاب دافياس (O. Davies) قد اذاع اخيرا اثرا عجيبا يوجد الان بسان جهنستون (St Johnstown) على مصب نهر الفويل (١) وهو حجر بيضوى الشكل عليه خطوط منقوشة

(١) الفويل (Foyle) نهر يوجد بشمال ايرلندة ينتهى بمصب واسع يسمى لوك فويل Lough Foyle

في شكل راس انسان تجعل هذا الحجر شبيها كل الشبه «بالبيتيل» (bétyle) (١) القرطاجي المعروف والموجود بالمتحف العلوى بباردو ، وهو بدون شك حجر. نذرى حبسه خيملكن او واحد ممن اتوا بعده الى ذلك المكان ، ولا يمكن ان يرجع عهده الى ما قبل القرن الخامس ق · م ·

وقد كنا ذكرنا ان رحلة خيملكن ، مثل رحلة حنون ، كانت لهما قبل كل شيء غايات اقتصادية ، وان نتائجها كانت لا يستهان بها ، اذ في آخر القرن الخامس ازدهرت بقرطاج صناعة البرنز (او القلز) وذلك باستخدام القصدير « الاسترمنيدى » او « الصرلنغى » وهذا يصور لنا تصويرا واضحا درجة نشاط القرطاجيين في الميدان الاقتصادى ·

خلاصة ما تقدم

كانت رحلة حنون من قرطاج الى قرب بلاد الكمرون اى قرب خط الاستيواء ترمى الى انشاء مستعمرات ومراكز تجارية على سواحل المغرب الاقصى بجهة المحيط الاطلسى لجلب التبر من السنغال عن طريق البحر · فقام حنون بهذه المامورية احسن قيام وانشا ستة مراكز على سواحل مريطانية وقاعدة تجارية هامة وهى جزيرة قرنة لا تبعد كثيرا عن معادن التبر ببلاد الزنوج ·

اما رحلة خيملكن فكان الغرض منها التعرف بطريق معدن القصدير من مدينة قادس باسبانيا الى بريطانية الفرنسية ثم الى الكورنوال وجزر القصدير وسواحل انكلترة وايرلندة · وهو بدوره قد قام بهذه المامورية على الوجه المطلوب ·

(١) البيتيل : (بيت آل) ، ومعنى (ال) بالفنيقية هو الاله وحينئذ يكون معنى (بيتيل) هو (بيت الله) · وهذا البيتيل هو في الغالب حصاة سوداء من الصخور البركانية راوا فيها في القديم منبع قوة فوق الطبيعية بسبب صلابتها وشكلها المنتظم · ولذلك كانوا يقدسون ذلك « الحجر الاسود » وينقشون فوقه وجها ذا ملامح بهيمية ، كناية عن قوة بعل وشدة بطشه ·

الحياة الاقتصادية

ـ التجارة

قداجمع اليهود واليونان والرومان على الاعتراف والتنويه بحذق الفنيقيين وبدهائهم ونشاطهم المتناهى الذى لا يعرف الكلل ، حتى انهم كانوا يفرضون انفسهم على كل الشعوب ، وكانت هذهالشعوب تلعن مكرهم وغشهم وخداعهم وكثرة طمعهم وشدة حبهم للمال ، ولكن مع ذلك تجد نفسها فى حاجة الى خدماتهم ومضطرة الى التعامل معهم ·

وان التجارة لعبت اهم دور فى حياة قرطاج الاقتصادية · وكانت سياستها التجارية تتلخص فى فتحالاسواقسواء بالقوةاوبالمعاهدات او بانشاء المستعمرات ، وفى ابعاد المزاحمين عن طريقها بجميع الوسائل ·

وهذه السياسة هى التى اتبعتها قرطاج ولم تحد عنها فى جميع اطوار حياتها · فمن البداية كانت غايتها ضمان امتيازها واحتكارها التجارى بالبحر المتوسط · وقد نجحت فى ذلك نجاحا تاما خصوصا فى القرن الخامس والقرن الرابع ق · م · حتى انها كانت فرضت ارادتها على رومة بمعاهدة اولى (سنة ٥٠٩) وبمعاهدة ثانية (سنة ٣٤٨) نصت فيهما تحجير تعاطى التجارة على الرومانيين وعلى حلفائهم بسواحل افريقية وسردينية وليبيا · واشترطت مثل ذلك ايضا على اليونانيين ولم تكن معهم اقل شدة او قسوة ، وكانت هذه السواحل تحرسها ابراج ومراقب كثيرة تعرف غالبا باسم « ابراج حنبعل » اشار قدماء المؤرخين الى وجودها باسبانية وافريقية · وهذا كله يدل على ان قرطاج كانت وحدها صاحبة الهيمنةوالسيادة على كامل الجانب الغربى من البحر المتوسط من القرن الخامس الى ان خسرت سردينية (سنة ٢٣٧) ثم اسبانية (سنة ٢٠٦) ، حتى ان الرومانيين كانوا يطلقون على تلك البحور اسم « البحور التيرية » (mers Tyriennes) او بحور الصوريين ·

ودامت تجارة القرطاجيين مدة طويلة بالمقايضة اى بالمعاوضة والمبادلة · ثم اتخذوا شيئا فشيئا فى دفوعاتهم الوسائل المستعملة بالبلدان المتمدنة : مثل السبائك او النسائك المستطيلة والنقود الأجنبية · ولم يضربوا السكة بانفسهم الا فى آخر القرن الخامس بصقلية حسب العيار الاثينى الموجود بالجزيرة ، وفى القرن الرابع بدار المسكوكات بقرطاج حسب العيار الفنيقى ·

فظهرت عند ذلك القطع الجميلة ، المنقوش عليها راس ديميتر(١) متوج بالسنابل ، وفرس مجنح ، كناية عن الازدهار والقوة الحربية ، والمكتوب عليها اسم بيرصة بالحروف البونيقية .



وكانت قرطاج تستورد من املاكها ومن الجهات المجاورة ومن مستعمراتها جميع ما تحتاج اليه وعلى الاخص المواد الاولية ، فتاتى بالحلفاء من اسبانيا لصنع الحبال وتاتى بالمعادن المختلفة كالذهب والفضة من افريقية الغربية ، والقصدير من اسبانية ايضا ومن غالية (فرنسا فى القديم) والكرنوال ، وكانت جزيرة يابسة تقدم لها الاصواف والجلود المعتبرة ، وتزودها غابات شمال افريقية بالعاج اى بانياب الفيل وبالاخشاب لصنع سفنها ، وتمونها قبائل الغرامانت والناسمون من الجنوب بالاحجار الكريمة وبيض وريش النعام ، وتمونها سردينية بالحبوب المختلفة ، والصحراء بالتمور ، ويرد اليها الرقيق من جميع الانحاء .

وكانت الاسماك المصبرة اى المملحة تعتبر اهم شيء فى غذائهم فكانوا يصطادونها كما نصطادها اليوم على سواحل ليبيا الشرقية والسرت ، ولكنهم كانوا ايضا يجلبون كميات كبيرة من تلك الاسماك ، وعلى الاخص التن ، من سواحل اسبانية الجنوبية ومن المحيط الاطلسى .

ولتجهيز موتاهم وتاثيث قبورهم كان القرطاجيون يتمونون من كل مكان . ففى البداية كان تجار مدينة صور يزودونهم بجانب كبير من مصنوعات البرنز والطين النضيج الخارجة من جزيرة قبرص ، والاصداف من البحر الاحمر والمحيط الهندى ، والبخور واللبان والصبور والمر المكاوى من بلاد العرب ، والجعلان وقنانى العطور والمسوخ والدمى من مصر .

---

١) ديميتر Démèter الاهة يونانية تمثل خصب الارض ، وتحمى الزواج الذى هو نوع آخر من القوى الخالقة والمكونة . ومن خصائصها : المشعل والكدرة اى القبضة من الزرع والثعبان

وفي القرن السادس والسابع ق • م • اخذ القرطاجيون يشترون من سرفوسة البواقيل (١) ذات اللمعان المعدني المصنوعة باترورية او بلاد اليونان • والاواني الكورنتسية والمصابيح ذات الدهان الاسود •

ومن القرن الخامس الى القرن الثاني صاروا يشترون مباشرة هذه المصنوعات من بلاد اليونان او بلاد الروم : اباريق من البرنز ، اشياء من عاج او من عظام عليها زينة دقيقة او نقوش رقيقة ، وكذلك اواني انينية عليها صور سوداء او رسوم حمراء ، ومصنوعات مختلفة من الانتاج المصري •

هذا فيما يتعلق بالواردات ، اما فيما يتعلق بالصادرات فقد كانت هي ايضا كثيرة ومنوعة •

فمنذ القرن السادس ق • م • كان الشاعر الاثيني (حرميب) ينوه في قصائده بشان الزرابي والطنافس والوسائد المطروزة التي كانت تاتيهم من قرطاج • ومن جهة اخرى فان رومة كانت تعجب كل الاعجاب بشمع قرطاج وعسلها وتينها ورمانها الذي كانوا يطلقون عليه اسم « التفاح البونيقي » • وكانت قرطاج تصدر ايضا الى رومة العاج ، ومرمر شمتو (٢) المشهور ، والاقمشة الارجوانية ، والملابس ، والنحاس المصنوع ، والحيوانات الوحشية للملاعب ، وغير ذلك • وان الملح كان ايضا من المواد التجارية الهامة التي كانت تصدرها قرطاج وقد استمر الامر كذلك الى يومنا هذا (ملاحة حلق الوادي ومقرين الخ •••)

وبالجملة فان تجارة قرطاج كانت مشهورة بنشاطها وحيويتها ، وكانت من اهم اسباب ثروتها الطائلة التي كان يضرب بها المثل ، اذ كانت تعتبر قرطاج كاغنى مدينة في العالم بما تجمع فيها من ذهب وفضة وخيرات شتى •

لكن من الغلط الكبير الاعتقاد بان تجارة قرطاج كانت دائما كما وصفناه ولم تتغير حسب الاحوال والظروف • فان السياسة الاقتصادية كانت تتغير حسب تقلبات الامور وحسب صروف الدهر وهذا ما سنحاول بيانه بايجاز •

---

١) كلمة (بوقال) اصلها (بوكار) Bucchero وتنطق Bouk-ké-ro وهذا الاسم يطلق على نوع من صناعة الخزف عند الاتروريين Etrusques من القرن السابع الى القرن الرابع ق • م • يمتاز بلونه الخاص الذي هو اشهب رمادي يعلوه لون اسود خالص ذو لمعان معدني يقع الحصول عليه بواسطة التبخير بالدخان

٢) شمتو (وهي ما يسميه الرومان Simittu) مكان قرب وادي مجردة مشهور من قديم الزمان بحسن مرمره الوردي والاصفر

١ ــ من سنة ٨١٤ الى سنة ٥٧٤

٨١٤ : تاريخ تاسيس قرطاج
٥٧٤ : تاريخ وقوع صور تحت سيطرة بختنصر ملك البابليونيين

كانت قرطاج مدة قرنين ونصف تقريبا تابعة لام الوطن ، اى لمملكة صور ، وكانت سياسة قرطاج الاقتصادية هى التى سطرتها صور واسست من اجلها هذه المدينة، اى المحافظة على سيادة الفنيقيين بالبحار الغربية • وفى تلك المدة لا يمكن ان نتكلم فى الحقيقة على سياسة اقتصادية قرطاجية ، لان حكومة صور هى التى كانت تسير وتوجه نشاط الاساطيل البحرية وكذلك نشاط جميع المراكز التجارية الغربية التى لم تؤسس الا لتكون قواعد ثابتة لهذه الاساطيل والسفن تستعملها للتموين والاستراحة •

وكان الغرض من هذا النظام تزويد الشرق بالمعادن التى تنقصه فكان ديودورس الصقلى يقول بان الفنيقيين قد اكتشفوا مناجم الفضة باسبانية ، وهى مناجم كانت تستغلها الاهالى ولكنهم كانوا لا يعرفون قيمتها الحقيقية، ولذلك استثمر الصوريون جهلهم وغباوتهم وحصلوا على كميات باهضة من الفضة مقابل شىء قليل وتافه من البضائع • فغمروا اسواق الشرق بهذا المعدن النفيس الذى امتازوا وانفردوا به دون غيرهم فنالوا ثروة طائلة •

ونفهم من ذلك ان هذه الثروة العظيمة قد تكونت من البون الكبير الذى كان موجودا بين سعر الفضة البخس باسبانيا والمرتفع جدا فى الاسواق الشرقية ، فتكونت الارباح الجسيمة من ذلك الفرق الكبير بين السعرين •

وزيادة على ذلك فقد اكتشف الصوريون ايضا معدنا آخر كان ضروريا للانتاج الصناعى وقليلا جدا بالشرق ، وهو معدن القصدير ولم يكن يستخرج فى ذلك العهد من جبال (سيراموربنة)باسبانيا (بين الوادى الكبير ووادى يانع) بل كان يجلب من مناجم بعيدة ، منها ما كان موقعه بالشمال الغربى من ايبرية (اى اسبانيا) ومنها ما كان موجودا ببريطانية الفرنسية او الكورنويل الانكليزى •

لكن عوض ان يستعمل الصوريون والقرطاجيون هذه المواد الاولية لانماء وتحسين صناعتهم القومية، اقتصروا على توزيعها فى الاسواق الاجنبية طمعا فى الارباح العاجلة التى اعمتهم عن نتائج هذا الصنيع إذ انهم فى الحقيقة كانوا يحفرون على حتفهم بظلفهم وذلك لانهم كانوا يساعدون الصناعة الاجنبية على النمو والازدهار ، فكان لهذا الضلال المبين اوخم العواقب بالنسبة لمستقبل صور وقرطاج •

من سنة ٥٧٤ الى سنة ٤٨٠ :

الصراع بين قرطـاج والاغريق

سنة ٥٧٤ . وقوع صور تحت سلطة البابلونيين ثم الفرس وفقدان استقلالها •

سنة ٤٨٠ : تاريخ انكسار جيش القرطاجنس امام مدينة هيمار بصقلية •

بعد سقوط مملكة صور ووقوعها تحت نفوذ بخنتصر ، انتقلت الهيمنة على جميع المراكز والمستعمرات التجارية الغربية من فنيقية الى افريقية• فصارت قرطاج فى ذلك التاريخ اكبر قوة بحريةوتجارية بالجهة الغربية من البحر المتوسط ، وهى قوة ورثتها من ام الوطن وزادت فى انمائها بوسائلها الخاصة فى عهد الملك ملقيس والماقونيين من بعده •

وكان اليونانيون يهيمنون فى ذلك الوقت على الجهة القرينية بليبيا (Cyrénaïque) وبلاد غالية (فرنسا او افرنجة القديمة) وكرسيكة وايطاليا الجنوبية •

وبينما كان القرطاجيون يهيمنـون على السواحـل الافريقيـة من السرت الى مضيق جبل طارق ، وكانوا يملكون الجهـة الغربيـة من جزيرة صقلية كانت الجهة الشرقية منهـا خاضعة لسلطة الاغريـق

فمن هذه الوضعية نفهم كيف ان القوة اليونانية كانت تسعى فى التوسع والإمتداد على حساب القرطاجيين ، غير ان القوة البونيقية كانت تقف فى طريقها لتحول بينها وبين ذلك • فلما حاول الاغريق الاستيلاء على سردينية تحالف القرطاجيون مع الاترورين واطردوهم من الجزيرة ، ولما حاول (داريوس) ابن ملك اسبرطة الامتداد على سواحل ليبيا وانشاء مراكز تجارية بها تدخلت قرطـاج فى الحين واجبرته على الوقوف امام خليج السرت الكبير وعدم تجاوز ذلـك الحد (سنة ٥١٠ تقريبا) • كل هذا يبين بكيفية واضحة انالتصادم بين القوتين الاغريقية والقرطاجية كان امرا حتميا لا مفر منه •

وفى ذلك الوقت كان ملك صيداء بفنيقيا قائدا اعلى لكاملاسطول الامبراطورية الفارسية ، وكانت له مكانة وحضوة وكلمة مسموعـة فى المجالس الرسمية التى كـانت تحـدد سيـاسة ملك الفـرس (اكسيريس) فوجه السياسة الخارجية بتاثيره ودهائه نحو العزم على مهاجمة الاغريق فى بلادهم • وهكذا اصبحت الشعوب اليونانية فى عزلة سياسية وحربيـة يطوقهـا تحـالف دولى متسع يشمـل الاترورين بايطاليا والبونيقيينوالفرس ، واصبحت قرطاج سيدة البحار تجول كما تشاء بالجهة الغربيـة مـن البحـر المتوسـط ،

واستمرت تنقل المواد الاولية من اقصى الغرب الى آسيا وتبيعها باثمان باهضة ٠

لكن فى ذلك الوقت لم يبق الشعب اليونانى مكتوف الايدى ، بل كان يتقوى ويتحسن اقتصاديا بفضل ذكائه المبدع وبفضل ما تجمع لديه من مواد اولية ومن ذهب وفضة بواسطة اعدائه الفنيقيين والقرطاجيين انفسهم ، واشتهرت على الاخص مدينة كورنتس Corinthes بجودة البضائع الخارجة من معاملها والتى كانت تروجها وتبيعها فى كامل حوض البحر المتوسط وحتى فى المدن الفنيقية والافريقية البونيقية نفسها ، بينما كان النشاط الاقتصادى بقرطاج يضعف ويتضاءل وينقص شيئا فشيئا ويتراجع الى الوراء ٠

وزيادة على ذلك فان الحكومة الاغريقية انشات سكة ونقودا قومية او عملة ساعدتها كثيرا على نمو وازدهار اقتصادها بظهور البنوك فى ذلك العهد وما يتبعها من قروض واعتمادات وتسهيلات ، بينما برهن القرطاجيون على عجز كبير فى استعمال او فهم هذا الاكتشاف والابتكار الخطير المتعلق بالميدان النقدى ، وهو ميدان جديد تفوق فيه اليونانيون تفوقا محسوسا على خصومهم البونيقيين والاترورين والفرس ٠ وهذا التفوق بلغ درجة كبيرة ووصل الى حد جعل الامم المتوحشة من الغربيين يسعون بجميع مجهوداتهم فى تكوين اتصالات مباشرة مع الاغريق ، وخرق الحصار المضيق الذى ضربه اسطول قرطاج ، واقتناء البضائع راسا من اليونانيين بدون وساطة البونيفيين ٠

وهكذا يبدو ان ازدهار قرطاج كان هزيلا ضعيفا اوهى من العنكبوت رغما عن قوة مكانتها السياسية ٠

وان انهيار الحلف الكبير الثلاثى هو الذى كشف للعيان هذا الضعف بكيفية محسوسة تلمس باليد ، وجعل مدينة عليسة على قاب قوسين او ادنى من الافلاس ٠

وهذا الانهيار السريع قد اصاب وشمل فى وقت واحد الدول الثلاثة المتحالفة :

(١) **كارثة القرطاجيين** فى واقعة هيمار (١) سنة ٤٨٠

---

(١) هيمار Himère باللاطينية Himera مدينة بجزيرة صقلية على بحر تيرانين وبمصب نهر هيمرة ، انشاها المستعمرون الاغريق سنة ٦٤٨ وكانت مسرحا لانكسار عملقار بن مافون قائد جيوش قرطاج امام عدوه الطاغية جيلون الاغريقى (سنة ٤٨٠) فاما القائد قد انتحر واما الجند فقد اسر واما الاسطول فقد تدمر ٠

(٢) **كارثة الفرس** فى واقعة سلامين (١) (فى نفس ذلك اليوم سنة ٤٨٠) ٠

(٣) **كارثة الاترورويين** بمدينة كومة (٢)جنوب ايطاليا(سنة٤٧٤)

من ٤٨٠ الى ٤٠٩

سياسة التقشف

٤٨٠ : تاريخ انهيار الحلف الثلاثى وكارثة هيمار بالنسبة لقرطاج ٠
٤٠٩ تاريخ انتقام قرطاج من الاغريق واسترجاع مركزها الاقتصادى

طلبت قرطاج الصلح بعد انكسار جيوشها بهيمار فنالته بعد لاى من الملك جيلون الاغريقى الصقلى ، وكان من جملة شروط الغالب على المغلوب ان التزمت قرطاج بالعدول عن احراق الصبيان بين يـدى صنمهم الاكبر ٠

لكن هيمنة الاغريق على البحر المتوسط من المضيقين (اى مضيق صقلية ومضيق مسينة) الى بلاد مصر حرمت قرطـاج من طريـق العالم الشرقى واغلقت فى وجهها اهم الاسواق واكثرهـا فائـدة لتجارتها ٠

فانكمشت قرطاج على نفسها واخذت فى تنظيم وتدبير اقتصادها المسير ، وانقطعت دفعة واحدة عن اشتراء اى مصنـوع سواء كـان ذلك من حلفائها او من اعدائها ٠

وقد بينا فى مكان آخر من هذا الكتاب ان سياسة التقشف هذه كانت نتيجة انقلاب سياسى ودينى جعل النظـام الارستقراطى او نظام حكم الاقلية يحل محل الحكم الفردى الديكتاتورى (آل ماقون) وجعل لتانيت التفوق فى الدرجة والمرتبة على بقية الآلهة ٠

وهذا النظام الدستورى الجديد قد اهتم كل الاهتمام بالناحيـة الاقتصادية وبالبحث عن موارد جديـدة تمكن قرطـاج من العيش بوسائلها الخاصة والاكتفاء بما كان موجودا لديها ٠ فبعدما كـانت لا تفكر الا فى البحر وفى الامور البحرية كانها لا تعيش بافريقية بل بجانبها وبالقرب منها فقط ، نراها الآن تلتفت الى البر ، وتكون

---

(١) سلامين (Salamine) جزيرة اغريقية بخليج ايجين وفى بحر الارخبيل ،شهدت قرب سواحلها المعركة البحرية التى انهزم فيها الفرس امام اسطول الاغريق(سنة٤٨٠)
(٢) كومة Cumes وباللاطينية Cumae مدينة بجنوب ايطاليا على خليج .كومة كانت تحت نفـوذ الاغـريق ، وانكسر امامهـا الهاجمون الاترورويون ، وقـد زالت هـذه المدينة اذ دمرها النابوليون سنة ١٢٠٣ وتركوها اثرا بعد عين ٠

لـوحة ٤٠

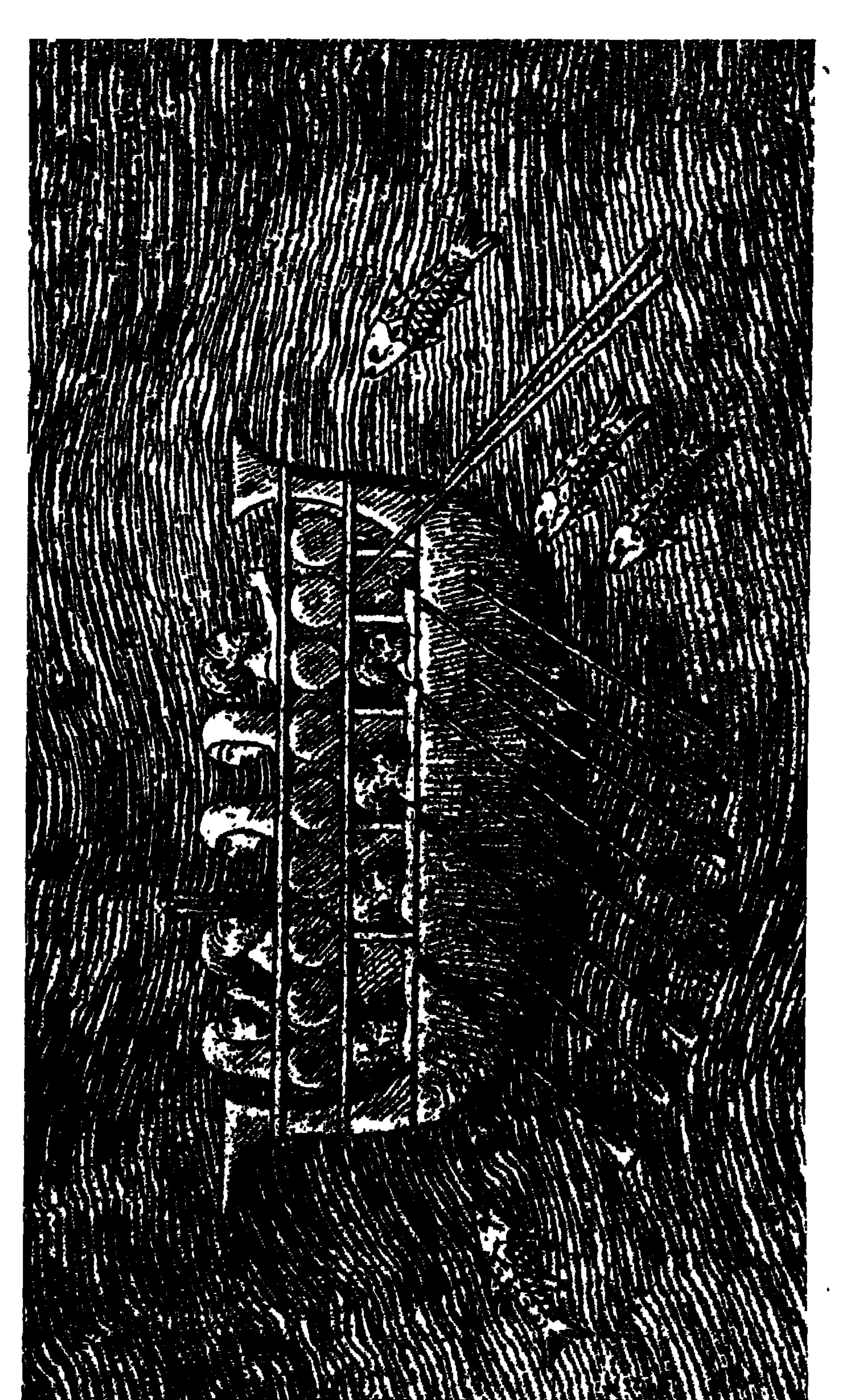
انظر الصفحة رقم ١٤٩ من هذا الكتاب



سفينة تجارية قرطاجية مشحونة قلالا

لوحة ٤١

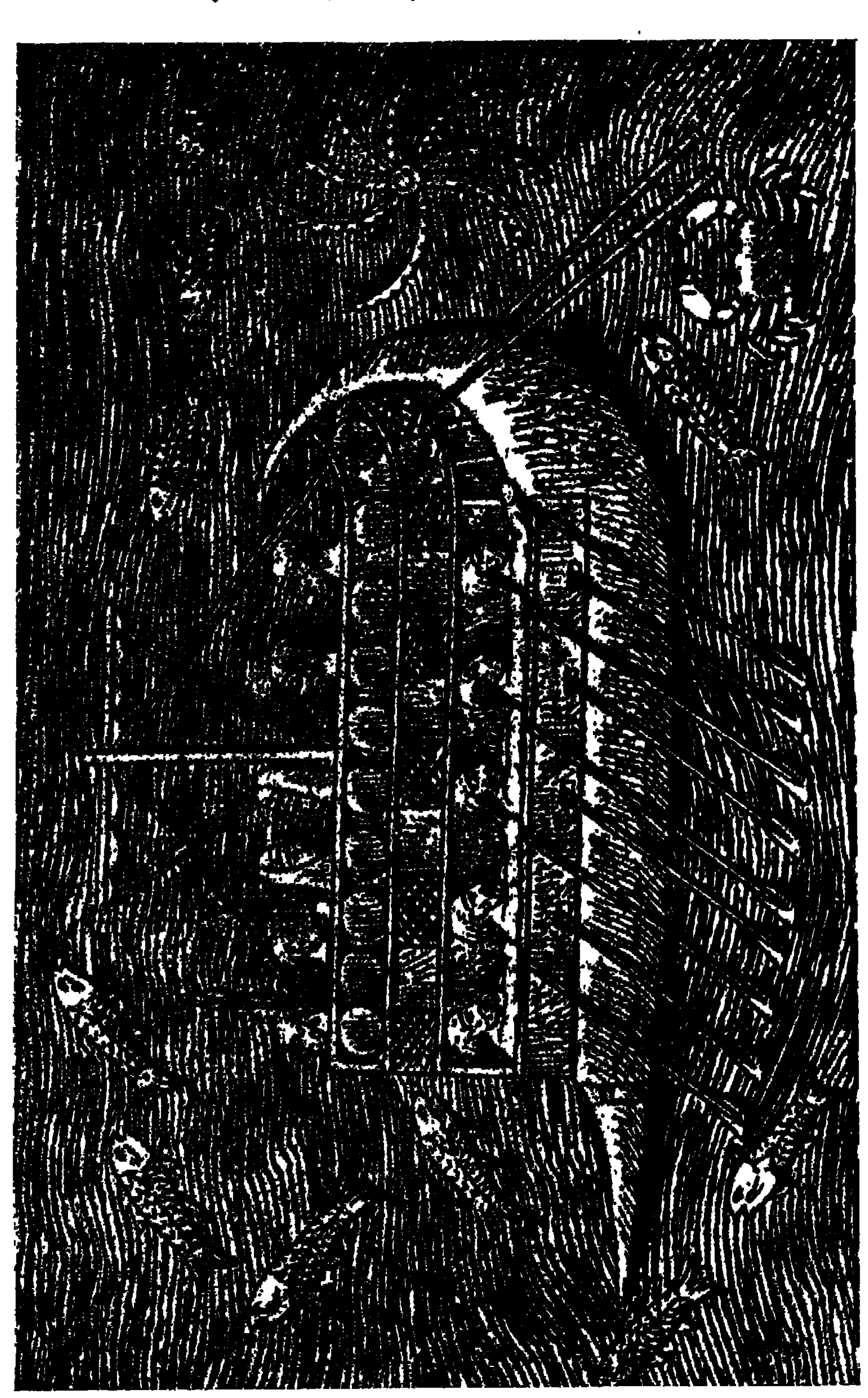
انظر الصفحة رقم ١٤٩ / ١٧٠ من هذا الكتاب



سفينة نقل

لوحة ٤٢

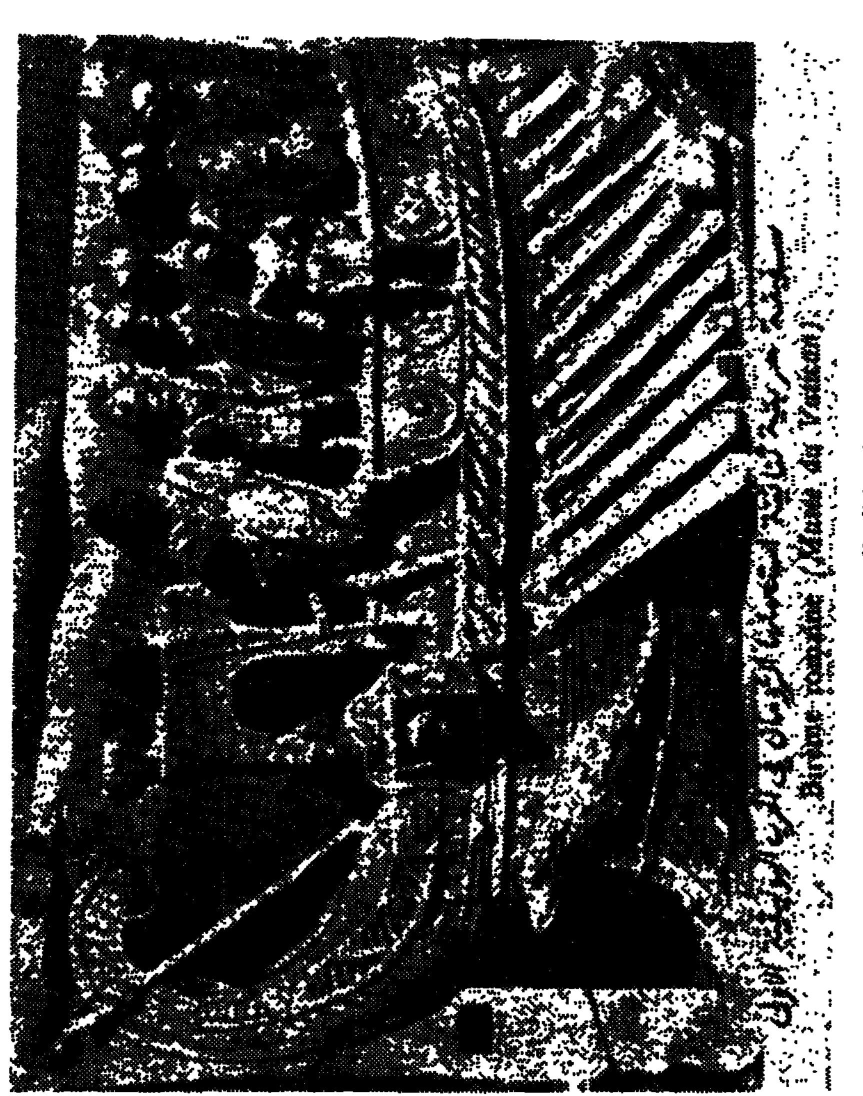
انظر الصفحة رقم ١٤٩ / ١٧٠ من هذا الكتاب



سفينة حربية

لوحـة ٤٣

انظر الصفحة رقم ١٧١ / ١٩٧ من هذا الكتاب



مـركب ثاني للرومـان

مملكة داخل الاراضى الافريقية ، وتقبل على الزراعة والفلاحة ، الشيء الذى خلصها من شبح المجاعة والفقر • ومن جهة اخرى فان الرحلات التى قام بها حنون وخيملكن مكنتها من ارجاع ذخائرها المعدنية التى الحقت بها كارثة صقلية اضرارا فادحة • فكانت قرطاج تستمر فى سياسة التقشف وتستخدم ذهب السنغال وفضة اسبانيا فى حشد الجنود الماجورة ، وصنع السفن الحربية ، واعداد العدة للانتقام واخذ الثار •

واتى ذلك اليوم الاكبر سنة ٤٠٩

من ٤٠٩ الى ٢٦٣ :

نهضة قرطاج

٤٠٩ : تاريخ انتقام قرطاج من الاغريق واسترجاع سيادتها •

٢٦٣ : ابتداء الحروب البونيقية والصراع بين قرطاج وروما

ان كانت الخيبة اليمة فالارادة قوية والعزيمة ثابتة • وما عتم القرطاجيون ان جهزوا حملة اخرى تحت امرة حنبعل بن عملقار (وهما غير حنبعل وعملقار الشهيرين بطلى الحروب البونيقية) فساروا الى صقلية بقوة وعزم ، تدفع بهم نحو الامام عاطفة الانتقام والاخذ بالثار • واسترجع حنبعل مدينة هيمار ، ونكل بالاغريق تنكيلا ذريعا ، وهدم المدينة وتركها اثرا بعد عين ، وذبح فى المكان الذى مات فيه ابوه ثلاثة آلاف من مقاتليهم الماسورين •

واصبحت الحرب فى ذلك التاريخ وسيلة من وسائل الكسب وتجارة على غاية من الازدهار ، وذلك لان قيمة الغنائم والاسلاب كانت تفوق بكثير مصاريف العمليات الحربية وكذلك استخدام الاسراء كعبيد كان ياتى بيد عاملة لها اهلية وخبرة وكفاءة ترجع بالفائدة على الصناعة •

وبعد ما وطدت حكومة قرطاج مركزها الاقتصادى شرعت فى تمتين علاقاتها مع الدول الاخرى بابرام المعاهدات وبالعمل الديبلوماسى ، فتم ابرام المعاهدة الثانية مع روما (سنة ٣٤٨) التزمت فيها هاته الاخيرة بعدم الاتجار او القرصنة او انشاء المدن:

١) على كامل الساحل الافريقى غربى الراس الجميل (اى راس سيدى على المكى) الذى ينغلق به شمالا خليج قرطاج •

٢) على ساحل اسبانيا ، غربى ما سيطة (التى ستصير قرطاجنة فيما بعد) •

٣) بسردينيـة ، وعـلى سواحل مـزاق (اى جهة الساحل الآن بالقطر التونسى) وسواحل ليبيا •
ورخص لهم فقط فى الاقامة ، عند الضرورة ، مدة لا تتجـاوز خمسة ايام وفى اقتناء قوتهم وما يلزم اصلاح سفنهم •

ومن جهة اخرى فان الطرق الموصلة الى الشرق اصبحت مفتوحة من جديد امام البونيقيين ، فاخذوا يسلكونها ذهابا وايابا ، وعادوا كذلك شيئا فشيئا الى مراكزهم التجارية ببلاد الاغريق التى اصبحت بدورها تتخبط فى ازمة اقتصادية ، وصارت فى حاجة الى مـوارد الامبراطورية البونيقية ، صناعية كـانت (وعلى الاخص الاقمشـة الارجوانية الثمينة) او فلاحية (وعلى الاخص القموح والحبوب) •
وهكذا نرى الدهر دولا ، لا ثبات فية ولا قـرار ، فهـو يـوم لك ويوم عليك •

وهكذا نرى التاجر الفنيقى او القرطاجى كان :
– **من البداية الى القرن السادس** : مالوفا ومقربا لدى الاغريـق فى بلادهم •

– **من القرن السادس الى القرن الرابع** : منبوذا عندهم ومعتبـرا كالعدو الالد •

– **بعد القرن الرابع** : مالوفا ومقربا من جديد •
ومن جهة اخرى فان حكومة قرطاج نراها تصدر سكتها الخاصـة بها كما ذكرناه سابقا ، وتغمر اسواق البحـر المتوسط بالانتـاج الفلاحى الافريقى الذى سيلعب دورا هاما فى اقتصاد الامبراطورية الرومانية ، ونرى التجار القرطاجيين يعرضون فى كل مكان بضاعتهم الرخيصة من ملاعق للاكل وامشاط وخرز من زجاج ومسوخ صغيرة من الزجاج الملون ، وقد وجد منها حتى فى سويسرة ، كما يبيعون النمور والحيوانات الوحشية لملاعب الرومان •
وهذا الازدهار بلغ اقصى درجاته فى الربع الاول من القرن الثالث

من ٢٦٣ الى ١٤٦

الصراع بين قرطاج وروما

٢٦٣ : الحرب البونيقية الاولى•

١٤٦ : تخريب قرطاج وزوال الدولة القرطاجية •

كادت قرطاج تحتل جميع جزيرة صقلية ، وتحقق احلامها، وتطرد اليونانيين بعد صراع عنيف وكفاح مرير دام ما يزيد عن قرنين ، وتصبر بذلك خطرا يهدد رومة التى استولت على كامل جهات ايطاليا وحققت وحدتها وشرعت فى تكوين امبراطوريتها الجديدة ٠ فتصادمت قرطاج برومة ، مثلما كانت تصادمت قبل ذلك بالاغريق ، ولم تكد تنتهى من عدو الا لتواجه عدوا آخر ادهى وامر ٠٠٠ ومن ذلك نشات الحروب البونيقية ٠

وكانت هذه الحروب عبارة عن كارثة عظمى وانهيار سريع داهم قرطاج : فهى قد غلبت في البحر ، وهزمت فى البر ، واطردت من صقلية ، واكتسحت اراضيها من طرف ريغولوس ، ونهبت موانيها من طرف القراصنة ، فاشرفت على الهلاك واصبحت على قاب قوسين او ادنى من الافلاس ٠

لكن قيض الله لها من خلصها وهم آل برقة عملقار وصدر بعل وحنبعل ، فهم انقذوا الاقتصاد البونيقى من الخطر اذ كانت خطتهم الاستراتيجية تتناول فى وقت واحد الناحيتين الاقتصادية والعسكرية

فبدا عملقار بتاليف جيوش خفيفة تتركب من جنود قليلة لاتتطلب مصاريف كبيرة ، يمكن التنقل بها بسرعة البرق على مسافات مترامية الاطراف لمباغتة العدو فى نقط حيوية هامة والاستيلاء على امواله وذخائره

واول هدف عينه لنفسه وحققه فى اقل من عشر سنوات (من ٢٣٧ الى ٢٢٨) كان الاستيلاء على جهة البيطيق (١) باسبانيا ٠ وهكذا اصبحت قرطاج تراقب مناجم الفضة المشهورة الكائنة بسرامورينة حتى ان بوليبس كان اشار الى ما تنتجه المناجم المجاورة لقرطاجنة وذكر ان ذلك يبلغ ٢٣٠٠ درهما (اى اكثر من ١٠٠ كيلو غرام) يوميا وهناك منجم يعرف باسم (بايبلو) يعطى ٣٦ طنا فى السنة ٠ وبهذا امكن لقرطاج ان تدفع الغرامة الحربية لرومة قبل حلول الاجل المعين

---

(١) البطيق (Bétique) جهـة بايبيرية الجنوبية يمر منها وادى البيطيس (وهو الوادى الكبير) ويحدها غربا نهر آناس (وهو غواديانة او وادى يانع) وجنوبا وشرقا البحر المتوسط ٠ وتوجد فى هذه الجهة جبـال (سيراموريـنـة) المشهورة بمناجم الفضة ـ وهذه الجهـة هى التى استولى عليها الوندال فيما بعد وصارت تسمى باسمهم (وندالوسية او الاندلس) ـ ومن مدنها المشهورة كوردوبة (قرطبة) وهيسباليس (اشبيليـة)وقادس ـ ومالقة ٠٠٠

وقد اكتشفت مناجم اخرى ايضا شمال اسبانيا وهى كائنة بجبال الكنتابر ولا يمكن استغلالها والاستفادة منها الا بعد توطيد الامن بتلك الربوع ،وذلك باخضاع قبائل قشتالة ٠فانيطت هذه المهمة بعهدة صدر بعل ،وقام بها احسن قيام،فكون هناك امبراطورية جديدة تمتد الى نهر ايبرو ، وسمى عاصمتها (قرطاجنة) وكان من الممكن لصدر بعل ان يتمادى فى تقدمه لزيادة التوسع ولفتح اسواق جديدة من الجهـــة الغربية لولا مبادرة رومة بالتدخل حالا لايقافه عند نهر ايبرو واعتبار ذلك النهر حدا للامبراطورية البونيقية فى اتفاقية رسمية وقع عليها الامضاء من الطرفين (سنة ٢٢٦)

ثم اتى **حنبعل** فسخر من رومة ومن تلك الاتفاقية ، وتجاوز ذلك الحد ، وسار الى ايطاليا فى جيش جرار عن طريق البر ، واقتحم لذلك اصعب المسالك واوعر السبل ٠ وكان بدون شك يقصد من وراء ذلك فتح آفاق جديدة لتجارة بلاده ، وعلى الاخص جلب معدن القصدير راسا الى البحر المتوسط بواسطة انهر فرنسا بدون حاجة الى ركوب الاخطار واقتحام الاهوال بالسفر عبر المحيط الاطلسى ٠ وكان حنبعل يفكر فى طريقة تضمن لوطنه المراقبة المطلقة للموارد الغربية فتتم له بذلك الهيمنة على عالم البحر المتوسط بتمامه وكماله ٠

ولكن هذه الآمال لم تتحقق بل ذهبت ادراج الرياح ، وذلك لان رومة كانت بالمرصاد ، فارسلت شبيونها الاكبر الى افريقية وكانت كارثة جامة المشهورة التى انهزم فيها حنبعل (سنة ٢٠٢) ومن ذلك التاريخ صار اقتصاد الدولة البونيقية مقتصرا على المداخيل والمنتوجات المحلية وهو شىء تافه لا شان له يذكر بالنسبة الى ما كان عليه ذلك الاقتصاد فى الماضى ٠

ولكن حنبعل ، فى المدة الوجيزة التى قضاها فى الحكم ، كان اهتم بالفلاحة اهتماما خاصا ، وجعل الناس يقبلون على احياء الاراضى والزراعة والغراسة ، فتحسنت بذلك ميزانية الدولة ،وامتلات خزائنها حتى انها عرضت على رومة ان تدفع لها مرة واحدة بقية اقساط الغرامة الحربية عوض ان تدفعها فى اربعين عاما ٠

اما الناس فانهم عاشوا فى التقشف والفقــر والفاقــة وانحطــاط المستوى الحيوى الى ان كانت الضربة القاضية وذلك بتدمير قرطاج اثر الحرب البونيقية الثالثة والاخيرة (سنة ١٤٦) والله يرث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين ٠

ـ الصناعة ـ

كان النشاط الصناعي بقرطاج يشمل ميادين مختلفة ،ولكنه لا يدل على مهارة فنية فائقة او على قوة ابتكارية تذكر ٠

وكان العمال واصحاب الحرف والصنائع يعتبرون من المواطنين الاحرار ولكنهم لايدخلون فى طبقة الاشراف ويقول ستيفان قسال : يمكن ان نتصور ان الرجال الذين كانوا يمسكون بزمام الدولة وكانوا ارباب الحل والعقد وكانت بايديهم شؤون التجارة البحرية الكبرى ، كانوا فى الوقت نفسه يملكون المصانع التى تعمل فيها جماعة من العبيد ، ويستخدمون صناعا من العتقاء او من الاحرار كشركاء فى شركة توصية ويقتسمون معهم الارباح ٠فلنستعرض الآن ميادين هذا النشاط الصناعي ٠

صناعة المعادن

ان اهم الترسخانات والمصانع البحرية التى كانت تحت مراقبة الدولة كانت تمون الاسطول والجيش

ويمكن ان نتصور درجة انتاج قرطاج فى هذا الميدان بما كانت تصنعه اثناء الحرب البونيقية الثالثة ٠ فهى اخرجت فى شهر واحد :

٣٠٠٠ ترس و ٩٠٠٠ سيف و ١٥٠٠٠ رمح و ٣٠،٠٠٠ سهم وهو يناسب نشاط ما يقرب من اربعمائة مصهر (اى معمل للحديد) واذا فرضنا ان كل مصهر كان يشتغل فيه خمسة من العمال،فان جملة عددهم يكون الفين

وان صنع السفن كان امرا مسترسلا ومتواصلا سواء للحرب او للتجارة ٠ونحن نعرف مثلا ان حكومة قرطاج كانت سنة ٤٨٠ فى حاجة الى ٣٠٠٠ سفينة تجارية لنقل الجنود وما يتبعهم من مؤونة وعتاد حربى ٠

ونذكر بهذه المناسبة ان المراكب التجارية كانت مستديرة الشكل اما السفن الحربية التى كانوا يلقبونها (بسفن ترشيش) فهى كانت فخمة

وكبيرة الحجم تستطيع ان تقطع مسافات شاسعة وهى محملة شحنا ثقيلة

هذا فى حالة الحرب ، اما فى حالة السلم فان صناع الحديد كانوا يشتغلون لفائدتهم الخاصة او لفائدة اعرافهم ، ويصنعون الفؤوس والمطارق والسكاكين والمقصات وغير ذلك من الادوات ،وكانوا يصنعون ايضا اوانى القلز (او البرنز) ولكنهم لم ياتوا بشىء جديد مبتكر بل كانوا يقتصرون على تقليد المصنوعات اليونانية القديمة وصناعة المعادن هاته كانت تغذيها التجارة البحرية وعلى الاخص جلب الفضة والنحاس من اسبانية ، وجلب القصدير من اسبانية ايضا ومن جزائر القصدير ، والحديد من جزيرة آلبة (Ile d'Elbe)

غير ان هذا النشاط الصناعى كان يكفى لتسديد حاجيات البلاد وتموين السوق الداخلية فقط ٠ ومن الغريب المدهش حقيقة ان نرى القرطاجيين لا يحاولون بيع مصنوعات تامة ومتقنة توفر مداخيلهم وتزيد فى ارباحهم مع انهم كانوا يتصرفون فى شىء كثير من المواد الاولية ٠ فكانوا يكتفون ببيعها فى الخارج على حالتها بدون سعى فى تحويلها ، ويقتنعون بما يكتسبونه من ربح عاجل ، وفاتهم انهم كانوا يخدمون صناعة غيرهم واقتصاد مزاحميهم على حساب صناعة بلادهم واقتصاد وطنهم ٠ وربما كان هذا الفتور وعدم الاهتمام ناشئا عن قصور اليد العاملة القرطاجية وقلة كفاءتها بالنسبة لليد العاملة اليونانية

ويمكن ان نقول بان قرطاج كانت الى القرن الخامس عبارة عن محطة تقف فيها السفن الشرقية المتوجهة نحو الغرب ، وعن مستودع تتجمع فيه البضائع من كل مكان ، فتجهز فى المراكب وتصدر الى مختلف الاقطار والامصار ٠ ولم ير القرطاجيون انفسهم مضطرين الى صنع حتى الاشياء الضرورية على الاقل الا عند فرض نظام الاستقلال الاقتصادى اثر كارثة هيمار سنة ٤٨٠ ويمكن انها استقلمت فى ذلك الوقت من فنيقية جماعة من الصناع ولكن يظهر ان غالب المصانع وقع تنظيمها مدة الحملة الكبرى على صقلية (من ٤٠٩ الى ٣٣٨) باستخدام الاسراء الذين كانوا يقعون فى قبضتهم ٠

صناعة الخشب (النجارة)

مما لا شك فيه ان القرطاجيين كانوا نجارين بارعين وسفانين على غاية من المهارة ٠ وكانوا يستعملون خشب الارز الذى اشتهرت به لبنان (انظروا الصورة) والذى كان موجودا بكثرة على الجبال ببلادنا

التونسية وهو ما زال موجودا الى الآن بالمغرب الاقصى ، وكذلك كانوا يستعملون خشب السرو ، وكانوا يصنعون السفن ويجلبون المواد الاولية من اسبانية لصنع الاشرعة والحبال ، حتى ان الرومانيين كانوا استولوا سنة ٢٠٩ على ٦٣ سفينة تحمل الى قرطاج كميات كبيرة من الحلفاء والانسجة الشراعية وغير ذلك من المواد وكان الرومانيون يعجبون بالابواب والاسرة البونيقية،ويقدرون طريقة القرطاجيين في « تخنيث » الالواح (اى فى جمعها وتركيبها) وذلك باستعمال « السبيل » اى المسمار الخشبي عوض مسمار الحديد ، او بتذويب الرصاص وصبه في الثقوب • وان التابوت من خشب السرو الذى وجد بقصور الساف يقيم الدليل على ما وصل اليه البونيقيون من المهارة والاتقان (انظروا الصورة)

صناعة الحياكة والنسج

وكذلك صناعة النسج ، فهى ايضا كانت مزدهرة • وقد كنا ذكرنا ان الشاعر الاثينى (حرميب) من شعراء القرن الخامس كان ينوه فى أشعاره بمحاسن زرابى قرطاج ووسائدها المطروزة•وقد اخذ الاهالى عن الفنيقيين صناعة الزربية وتعلموا منهم الزينة فيابسطها اشكالها الموجودة الى اليوم مثل المربعات القائمة على رؤوسها او المعينات (ونسميها اليوم بالمقروض) ، والخطوط فى شكل اسنان المنشار (ونسميها بالعروج) ومثل الخطوط المتقاطعة (ونسميها بالقاطع والمقطوع) ، ومثل الرقعة (او بيوت الدامة) الخ • • •

وقد وجد فى كثير من القبور ادوات النسج والغزل مثل المكوك والمغزل • ومن غير شك ان النساء كن يغزلن وينسجن ويصنعن الملابس العادية • ولكن الى جانب ذلك كان هناك حاكة او نساجون يحترفون مهنة الحياكة ، وكانت هناك انوال ومعامل كبيرة للنسج ، وكان البعض منها يقام بخدر الجوار بديار الاغنياء والاكابر

ـ الصباغة

كانت الصباغة بقرطاج من الصناعات الهامة يعيش منها عدد كبير من العائلات • ونحن نعرف ان الصوريين هم الذين كانوا اكتشفوا صبغة الارجوان وهى مادة حمراء كانوا يستخرجونها من اصداف خاصة او نوع من الودع (Murex) (١) فكانوا يخرجون ما فيها من دويبات رخوة ويتركونها تنتن وتتعفن • وهذا النوع من الودع موجود بكثرة على الشطوط الافريقية

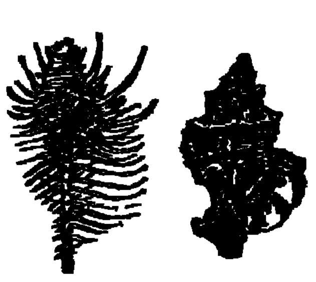
وفى كثير من الاماكن الساحلية القديمة من جزيرة جربة الى المغرب الاقصى نجد اكداسا من هذه الاصداف المهشمة على الشواطىء مع الشقف والحجارة • وبعض هذه الاماكن لم يسكنها احد من يوم سقوط قرطاج ، وذلك مثل دار السافى قرب كركوان بالوطن القبلى وهومرسى نقرت فى صخـوره حفائر واحواض كانت توضع فيها الدويبات المستخرجة من هذا الودع لتتعفن • وكانوا يجعلون هذه الاحواض فى مهب الريح لاجتناب روائحها الكريهة بقدر الامكان وكانوا يلقون الاصداف بجانبها وهى فى الغالب ما زالت موجودة هناك الى الان •

وكذلك ارجوان جربة (Meninx = Djerba)؛ فقد كان يضاهى ان لم نقل يفوق ارجوان صور

وهذا الارجوان كان يباع باغلى الاثمان ، وكانوا ياتون به الى قرطاج ليقع استعماله فى المصانع (١)

صناعة الاديم او الجلد المدبوغ

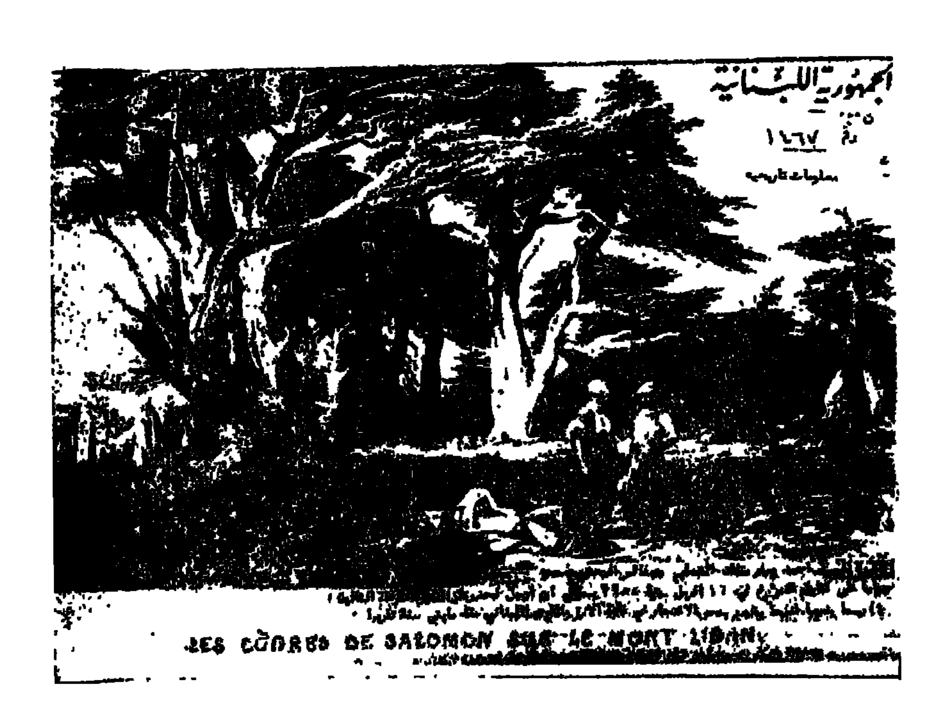
ان الليبيين كانوا يتعاطون خدمة الجلد منذ العصر النيوليتى ومن غير شك ان البونيقيين اخذوا عنهم ذلك لما اتصلوا بهم وصاروا يصنعون

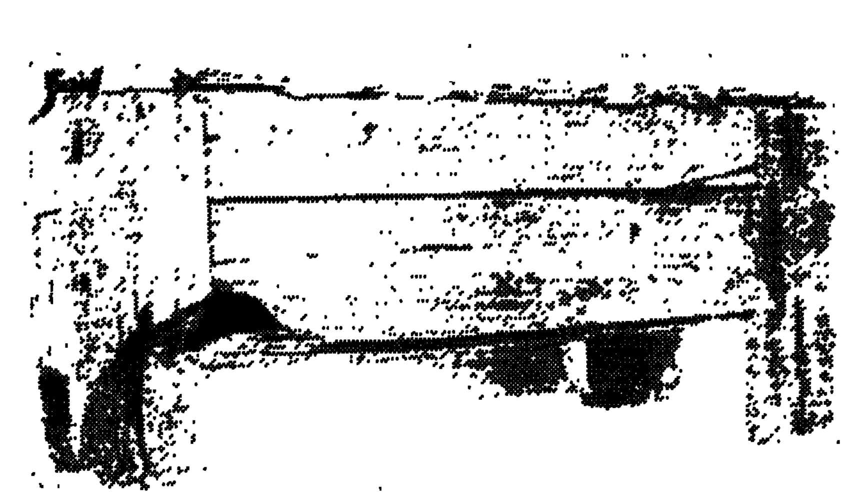


(١) صدف الارجوان او ودع الارجوان: (Murex) : نوع من الدويبات الرخوة او الرخويات ذوات الارجل البطنية (Mollusques Gastéropodes) معروفة بصدفتها ذات فم واسع يتمادى فى صورة قناة ضيقة وباشواكها الدقيقة والملتوية التى تنبت فيها من كل جانب وكان الاقدمون يستخرجون من هذه الدويبات صبغة الارجوان (la pourpre) وتسمى اصداف صور murex trunculus واصداف بلاد الاغريق murex brandaris وهى كلها انواع موجودة بكثرة بالبحر المتوسط

وكان الارجوان يباع « بميزان الذهب » كما يقال • فكان العبرانيون يستعملـون الانسجة الارجوانية لكهنتهم ولبسط وطنافس بيت المقدس ويعتبر الارجوان بروزة كسيمة يختص ويتميز بها الحكام ثم الامبراطـور نفسه •

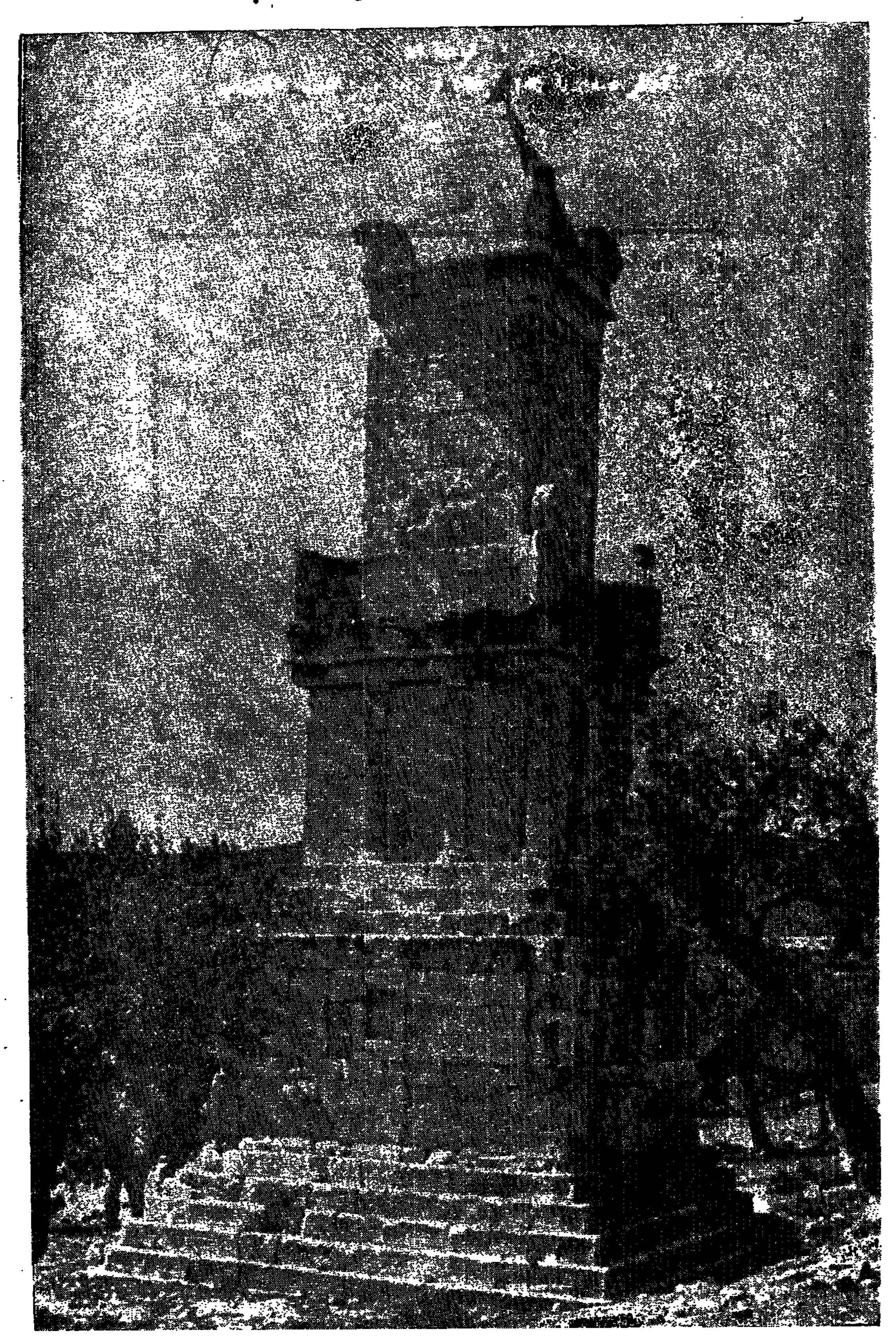
لوحة 44 انظر صفحة 150 من هذا الكتاب





تابوت بونيقي من خشب السرو وجد بقصور الساف (ص 151)

لوحة 47 انظر صفحة 156 من هذا الكتاب



نوعا من السختيان (١) الحور (٢) كان مشهورا ومرغوبا فيه لرقته وجودته

صناعة الخزف

اما الصناعة التي كانت كثيرة الانتشار وكانت لها اسواق نافقة والتي توصلنا الى معرفتها معرفة جيدة بفضل الآثار التي تركتها والتي كادت ان تكون حية تنطق وتتحرك ، فهي بحق صناعة الخزف والفخار فالقرطاجيون كانوا في حاجة الى شيء كثير من اواني الخزف لتأثيث قبورهم زيادة عما كانوا يستعملونه في منازلهم او يصدرونه الى الخارج .

وقد اكتشف غو كلير P. Gauckler بدرمش سنة ١٩٠١ بعض معامل بونيقية لصنع الفخار قرب كنيسة الدويمس الشيدة فوق مقبرة بونيقية يرجع عهدها الى القرن السابع والسادس ق . م . وهذه المعامل بقيت سالمة على حالتها التي كانت عليها عند تهديم قرطاج في تربيع سنة ١٤٦ حتى ان الخزافين كانوا في انتظار اهالي الموتى ليبيعوهم ما يحتاجون اليه لتأثيث قبور موتاهم كالجزار والقوارير للزيت والخمر واللبن ، وكالمصابيح والتماثيل الصغيرة والمسوخ او الوجوه المستعارة والقناني لوضع العطور وغير ذلك من الاشياء

ويقول غوكلير بان هؤلاء الخزافين مستقرين بمعاملهم على حاشية المقبرة ، فكونوا هناك حيا خاصا بهم وهو « حي الخزافين » . ثم اخذ يصف لنا التنور (اي الكوشة) ويقول بانه كان يتالف من موقد اهليلجي الشكل وفرن كبير أسطواني يشتمل على فضاءين الاول مركزي في الوسط ترتب فيه الاواني المعدة للصهد ، فتوضع في الطبقة السفلى او في الطبقة العليا حسب درجة الحرارة التي تتطلبها تلك الاواني ؛ أما الفضاء الثاني فهو يدور حول الاول ويحيط به احاطة السوار بالمعصم وهو معد لانجذاب الهواء ، ويكدس فيه الفخار الخشن

وهذه الافران البونيقية مماثلة تماما لما هو موجود الى الآن بنابل او بجربة . اذ ما زال يجري صهد الأواني في افران عتيقة المبنى ، اسطوانية الشكل ، ضخمة الهيكل ، مغطاة بغطاء اشبه شيء

(١) السختيان : هو جلد الماعز اذا دبغ (marôquin)

(٢) الحور : هو الاديم المصبوغ بحمرة

بالشباشية • ووقع الاصطلاح منذ القدم على تسمية ايقاد النار بالفرن بقولهم تعمير الكوشة وتستدعي هذه العملية مهارة خاصة حيث ان اسراج الفرن يقع بالحطب ، والالسنة النارية من الحطب تلفح المصنوعات مباشرة ، والصانع المشرف على تسيير النيران في الفرن يجب عليه اولا وبالذات ان يوازي ويعادل انبعاث الحرارة الى المصنوعات الموجودة في الفرن حسب الحاجة وحسب قواعد الصناعة •

والخزاف البونيقي كان يستعمل دولابا من الحجر يتركب من كتلتين : كتلة سفلى هي القاعدة ، في وسطها حفرة منفورة ، وكتلة عليا هي الرأس لها ساق في اسفلها تدور في حفرة القاعدة • فيشرع عامل يجلس القرفصاء في تدوير الدولاب بيديه بسرعة عجيبة بينما يكيف الخزاف قطعة الطين وهو واقف ، ويعطيها الشكل الذي يريده •

اما اليوم فان الخزاف يسمى الدولاب بـ (الماعون) ويحركه) برجله ويقطع من الطفل ما يسمى بـ (الطبة) وهي قطعة اسطوانية الشكل يضعها في (راس الماعون) ويعطيها الشكل بيديه •

ومازال يقع رفس المادة الطفلية بالاقدام حسب الطريقة التقليدية التي كانت مستعملة في عهد البونيقيين وذلك لتصييرها مرنة ومطواعة الى اقصى حد •

اما في الحقول فما زالت المرأة الليبية في عهد القرطاجيين (تملس) الطفل بيديها وبدون استعمال اى آلة ،وتصنع الاواني الخشنة اللازمة للمنزل كما كانت تصنع جدتها في العصر النيوليتي وكما تفعل اليوم بناتها البدويات بقرية رجيش او بغيرها من القرى • فقد وجد في كثير من قبور الوطن القبلي والساحل صحاف وقدور أي برم • • مما يدل على وجود علاقة متينة بين القديم والجديد وكانت النسوة في الماضي يحمين الطابونة لانضاج الخبز او الكسرة مثلما نراه الآن بالمداشر والقرى • وكثيرا ما يجد علماء الاثار شقف طابونة بالطبقة البونيقية بقرطاج • وقد عثر صوماني Charles Saumagne على شقف طابونة بونيقية تمكن من ضمها لبعضها واعادة الطابونة كما كانت وهي الموجودة اليوم بمتحف باردو

وان دوام هذه الاساليب وبقاءها ثابتة طيلة قرون واجيال لا يدل على جودتها • فان الخزاف البونيقي لم يكن قط فنانا مثل زميله الخزاف اليوناني • وان الاشكال التي اخرجتها يداه كانت ثقيلة وخالية من

كل رشاقة واناقة واتقان • فالذى كان يهمه قبل كل شىء هو كثرة الانتاج وبيع كميات كبيرة بابخس الاثمان بدون اضاعة الوقت فى البرقشة والزخرفة وجودة الصنع • اما الاوانى الرفيعة فكانت تجلب من بلاد الاغريق ، وكانت تشحن وتملا بها سفن كاملة الى القرن الخامس عشر اى الى ان فرضت حكومة قرطاج سياسة التقشف ووضعت حدا الى هذا الاستيراد من الخارج والسيلان المتدفق ، لكن بدون ان يقع تعويض ذلك بصناعة محلية تقوم مقامها وتضمن نهائيا الاستقلال الاقتصادى •

صناعة الزجاج

من الاخبار الشائعة ان الفنيقيين هم الذين كانوا اخترعوا الزجاج وسواء كان ذلك صحيحا ام كانوا اخذوا تلك الصناعة عن المصريين ، فمما لا شك فيه انهم كانوا على غاية من المهارة فى ذلك الميدان •

وكثيرا ما نجد بقرطاج قنانى صغيرة من الزجاج المعتم (اى غير شفاف) لونها ازرق قاتم تعلوه خطوط وزخارف هندسية صفراء لامعة •

وقد بين لنا غوكلير فى كتابه (المقابر البونيقية بقرطاج : صفحتى ٣٠٨ ـ ٣٠٩) الاساليب المستعملة لصنع هذه القنانى الملونة ، فقال بان هذه الزينة تحصل بالوان تكون داخل عجين الزجاج • فيبدا الصانع بعمل اولى يعطى وعاء الطيب شكله المعروف ، وقد مزج واشبع باللون الذى يعرف فى فن التصوير بالخلفية (le fond) ويكون هذا اللون فى الغالب قاتما (ازرق داكن قريب للسواد ، ازرق نيلة •••) وشذ اللون الزاهر (ابيض فضى) ، ثم يحز حزوزا خفيفة فوق جانبه وهو ما زال حاميا ولزجا ، ويدخل فى تلك الحزوز خيوطا زاهرة اللون (احمر مغرة ، او اصفرا ، او ليمونى ، او ابيض ، او ازرق فيروزى) ثم تمهد الآنية من جديد ويسوى سطحها ويصقل فتصير كتلة واحدة •

ومن عجين الزجاج كانوا يصنعون ايضا الخرز من نوع العقيق اليمانى تنظم مع التمائم فى شكل القلائد ، ويصنعون ايضا المسوخ من الزجاج الملون وقد مر ذكرها ووصفها والجعلان من العقيق الاحمر او اليشب الاخضر (١)

(١) اليشب او اليصب (Jaspe) هو حجر كريم يشبه الزبرجد لكنه اصفى منه

واشياء اخرى كثيرة من العاج او العظام كالصناديق الصغيرة المزينة والمرصعة بالعاج والحقق والامشاط والمرايا والمراوح وكلها من العاج ايضا وغير ذلك من الاشياء الصغيرة التي نجدها غالبا في القبور ٠

الصياغة

وكذلك ظهرت براعة القرطاجيين حقيقة في صنع المصوغات الجميله من الذهب والفضة ، والحفر على الحجارة الكريمة ٠ ونذكر مما وجد في القبور : القناني والحقق من الفضة والجريسبات (اي الاجراس الصغيرة) من الذهب ، والخواتم والفتخات ، وحلقات الانف والاساور والقلائد والعقود ، والاقراط والاخراص ، والاغماد من الذهب او الفضية يزينها راس حيوان يمثل اله المصريين (راس تيس او كبش او قطة او صقر)٠

واما فيما يتعلق بفن الحفر على الحجارة الكريمة فقد عثر الاب ديلاتر بمقبرة الارباب بالسعيدة (Sainte Monique) على عقيقة حمراء اهليلجية الشكل منقوش عليها حيوان ذو عنق طويل ، وراس اسد ، فمه مفتوح ولسانه ممدود ، وذيله مرتفع ومقوس كعنق التم (١) ــ كما عثر على يشبة صفراء لها شكل الحجرة الاولى ونقش عليها فرس واقف على ثلاث قوائم وهو يحك راسه بقائمته الرابعة ، وهي موجودة بمتحف قرطاج وتثير حقيقة اعجاب المتفرجين ٠

الهندسة المعمارية والبناء

كان القرطاجيون بنائين ماهرين مثل اسلافهم واجدادهم الصوريين ولذلك نراهم شيدوا ديارا ذات ست طبقات تعلوها سطوح ، ونفهم وجود هذه السطوح المنبسطة من الروايات التي تشير الى المعارك التي دارت فوق المنازل في الايام الاخيرة من الحرب البونيقية الثالثة ٠ وكذلك نراهم شيدوا المعابد والاسوار العظيمة مستعملين لذلك صخورا ضخمة مربعة الزوايا

وان الاثر الوحيد الذي ما زال قائما الى اليوم يشهد بتقدم البونيقيين في الفن المعماري هو ضريح دوقة المشهور الذي يرجع عهده الى القرن الثاني قبل المسيح ٠ وهو يتركب من قاعدة ذات ست

(١) التم : طائر مائي شبيه بالاوز لكن اطول منه عنقا (le Cygne)

درجات او مصاطب تحمل طبقة اولى بزواياها تيجان اعمدة ونقش حلزونى الشكل . ثم نشاهد ثلاث درجات او مصاطب فاصلة بين الطبقة الاولى والطبقة الثانية المحلاة باعمدة يونية مجوفة (١) . ثم نرى افريزا تعلوه ثلاث درجات موصلة الي الطبقة التالثة المحلاة بصور فرسان علي قواعد ، وبنقوش تمثل عجلة تجرها اربعة رؤوس من الخيل ، وفى قمتها اهرام به نقوش فى جوانبه وفى اطرافه . وارتفاع هذا الضريح ٢١ م

وقد كان هدمه قنصل انكلترا واخذ منه حجرتين منقوشتين نقلهما الى متحف لندن (British Museum) سنة ١٨٤٢ ، ونحن فى غفلة لا نري ولا نسمع (!) ثم اهتمت به مصلحة الآثار ورممته وارجعته الى حاله الاولى سنة ١٩١٠ . ولا ينقصه الآن الا الرخامتان.

واليكم ترجمة ما هو منقوش علي الحجرتين باللغة البونيقية واللغة الليبية :

شيده عاطيبان بن ابي متاث بن بالو بناء الاحجار ، وابا ريوح بن عبد اشطار ،وزمر بن عاطيبان بن عفب ماطال بن بالو ومانجى بن ورسكان مع معاونيهم زيزاى وتمام وورسكان
والصناع في الخشب : مصدال بن تنفسان ، وعنكان بن عتساى
والصناع فى سبك الحديد : شافوت بن بيليت ، وبافاى بن باباي

وقد تبين ان (ابا ريوح بن عبد اشطار) الوارد اسمه فى هذا النص كان مهندسا بونيقيا وان الاثنين اللذين كانا يساعدانه (زمر ومانجى) كانا من النوميديين

---

(١) اعمدة يونية (colonnes ioniques) نسبة الى يونية القديمة (Ionie) وهى الجزر والجهة الساحلية من آسيا الصغرى على بحر الارخبيل والتى تمتد من خليج الزمير الى خليج مندلوة جنوب نهر بيوك مندريس . وكان قد عمرها اليونانيون Ioniens المهاجرون من بلادهم والمستعمرون لتلك الاراضي الساحلية المواجهة لوطنهم .

وتمتاز الاعمدة اليونية باناقتها ورشاقتها ويبلغ إرتفاعها عادة طول قطر دائرتها فى ثماني مرات ونصف . وساق العمود يتحلى باربع وعشرين تجويفة على طوله. ويمتاز راس العمود اليونى بنقوشه الحلزونية التى تمثل شقة ملفوفة من طرفيها في شكل لولبى .

الفـــلاحـــة

ان قرطاج كانت منهمكة فى التجارة وغيـر مهتمـة بالفلاحـة واستمرت كذلك الى منتصف القـرن الخامس ، ومـن ذلك التاريـخ شرعت فى امتلاك الاراضى الواسعة والخصبة ونجحت كل النجاح فى استغلالها حتى ان ديودورس الصقلى يحكى لنا بان اغاتوقليس (Agathocle) لما نزل بالوطن القبلى سنـة ٣١٠ متجهـا نحـو قرطاج وقف مدهوشا هو وجيشه امام ما شاهدوه فى طريقهم مـن كروم وزياتين وحدائق وبساتين كانت كلها فى ازدهار كبير ، وما راوه من مروج فسيحة ترعى فيها قطعان من الغنم والبقر والخيل



وكان فارون Varron وقوليمال Columelle يعظمـان ماقـون القرطاجى « ابا الفلاحة » ويمجدان سعـة علمـه بالفـن الزراعـى ، ويجعلان موسوعته فى الفلاحة فوق كل ما وقع تاليفه وتصنيفه فى الموضوع ببلاد اليونان • وكذلك حكومة رومة فهى إمرت بترجمة هذا التاليف الى اللغة اللاطينية •

وان الطبقة الارستقراطية القرطاجية كانت تملك اراضى زراعية قرطاج وقف مدهوشا هو وجيشه امام ما شاهدوه فى طريقهم من كروم وزياتين وحدائق وبساتين كانت كلها فى ازدهار كبير ، وما تقيم بها من حين لاخر ، فكان حنبعل مثلا يملك ارضا قرب المهدية وكان هناك ايضا الملاكة والفلاحة الصغار الذين كانوا يخدمون اراضيهم بانفسهم •

وان النتف القليلة التى وصلت الينا من تاليف ماقون ، فى صورة استشهادات ، تدل على ان القرطاجيين كانوا يزرعون الحبوب والخضر والزياتين والكروم والاشجار المتمرة وكانوا يربون البقر والخيـل والبغال والدواجن والنحل ، وكانوا يدخرون الشعير والقمح •

وكذلك نعرف ان القرطاجيين كانت عندهم مخازن للشعير فى اسوار قرطاج • هـذا وان الاب ديلاتر قـد وجـد الشعيد المحمص (اى المقلى) فى قبر بونيقى ، ونرى احيانا صورة سنبلـة القمـح منقوشة على النقود القرطاجية ، وقد روى لنا المؤرخون ان القمح بمزاق ((Byzacène) كان ينتج فى نسبة مائة او مائة وخمسين

للواحد ، ويقول هيرودوتس ايضا بان القمح ببلدة (طرابلس) يعطى الواحد ثلاثمائة ٠

ومن غير شك ان القرطاجيين هم الذين كانوا ادخلوا فى البلاد زراعة الكروم والزياتين وصناعة الخمور والزيوت ٠ وان كثيرا من نصائح ماقون فيما يتعلق بزراعة الكروم تدل على خبرة فنية وتجربة ٠ فهو يشير مثلا بتوجيهها نحو الشمال وذلك لوقايتها من حرارة الشمس ومن اضرار السموم ، ويشير باستعمال الاسمدة كتجير العنب (١) المخلوط بالسرقين (٢) وبشذبها فى الربيع ، وبازالة التربة عن اسفلها فى الشتاء وبجعل اجفانها (٣) قائمة عموديا فوق الارض ٠ ونعرف انهم كانوا يخففون حموضة الخمر باستعمال الجبس او الكلس ويقول افلاطون فى قوانينه بان القرطاجيين كانوا من المدمنين اى من المداومين على شرب الخمر حتى ان الحكومة اضطرت الى اصدار قانون فى تحجيره على الجنود والرقيق ذكورا واناثا والربابنة والحكام فى سنة ولايتهم والقضاة اثناء قيامهم بوظائفهم ٠

اما الزياتين فقد بدات غراستها من القرن الخامس بجزائر قرقنة وفى نهاية القرن الرابع بالوطن القبلى ٠ ويقول المؤرخون بان حنبعل قد بث غراسة الزيتون فى كافة انحاء القطر واستخدم فى ذلك جنوده اذ راى فى بطالتهم خطرا يهدد الجمهورية ويهدد رؤساءهم ٠

ويشير ماقون بغرس الزياتين فوق التلال بالاراضي الجافة والطفلية بين الاعتدال الخريفى والميل الشتوى (٤) وبالاراضى الرطبة والمخصبة من الحصاد الى زمن الانقلاب، ويشير ايضا بجعل مسافة طولها ٢٢،٣٠م تفصلها عن بعضها من جميع الجهات او على الاقل ٣٢ ، ١٣ م٠ اذا كانت الارض جدبة ووعرة وعرضة للرياح

ويقول ماقون فيما يتعلق بتنقيل الاشجار بانه ينبغى حفر الابياش (٥) قبل الغراسة بسنة كاملة لتمتص الشمس والامطار ، ويكون عمقها ذراعين من جميع الجهات فى الاراضى الطفلية الوعرة ويضاف شبر بالنسبة للاراضى المنحدرة ٠ ويكون دائما فم الحفرة اضيق

---

(١) تجير العنب : هو ثفل العنب اى ما يتبقى بعد عصره

(٢) السرقين : هو الزبل اى ما نسميه باللغة العامية « الغبار »

(٣) الجفن : اصل الكرم او قضبانه ، والواحدة جفنة ج ـ اجفان وجفون ـ ا

(٤) الاعتدال الخريفى : هو مدة معادلة الليل والنهار فى فصل الخريف (وهناك ايضا الاعتدال الربيعى) اما الميل الخريفى فهو مدة انقلاب الشمس وميلها الاعظم (وهناك ايضا الميل الصيفى) ٠

(٥) البيش ج ابياش : الحفرة يوضع فيها الغرس ٠ ويقال (ابياش الشجرة اى جعلها تثبت وتتاصل

من القعر · واذا كانت التربة دهعاء فان الحفرة تكون مربعة الشكل ويكون عمقها ذراعين وشبرا ·

ومن بين الاشجار المثمرة التى اعتنى القرطاجيون بزراعتها نجد فى المرتبة الاولى اشجار التين والرمان · ويقول ماقون فيما يتعلق بادخار الرمان بانه ينبغي ان تاخذ جرة او خابية جديدة من الفخاروان تصب فى قعرها نشارة خشب الحور او السنديان او العفص ثم ترتب فوقها الرمان بكيفية تمكنك من دك النشارة فى الفروج الموجودة بينها ، تم تبسط فرشة اخرى من النشارة فوق الرمان ، وتستمر هكذا الى ان تمتلىء الجرة وعند ذلك تجعل عليها غطاء وتطليه بمحلول كلس خاثـــر

وكذلك يشرح ماقون الاساليب اللازمة لزرع اللوز والجوز وحتى القسطل وبين كيفية تنقيلها والعناية بها لتكون ثمارها فاخرة ·

وكان ماقون يحرض الفلاح على الاقامة فوق ارضه وسط اشجاره فيقول : « كل من اقتنى ارضا يجب عليه ان يبيع مسكنه حتى لايخير السكنى بالمدينة على السكنى فى الحقل·واذا اختار احد الاقامة بالمدينة فليس هو فى حاجة الى اقتناء ارض ريفية · »

وان زراعة البقول كانت هى ايضا من الامور الهامة · فبساتين الخضر كانت مشهورة بحى مجارة (ضاحية قرطاج) حتى ان ذكرها ورد عند بعض المؤرخين وكذلك نوه كثير من المؤلفين بشان «قنارية» قرطاج وخرشفها وملفوفها (وهو الكرنب) وبشان الثوم البونيقى والجلبان البونيقى والعدس البونيقى

وقد كنا ذكرنا ان اغاتوقليس لما نزل بالوطن القبلى ليزحف على قرطاج مر بمروج ترعى فيها قطعان كثيرة من الخيول والابقار والاغنام والمعيز · ويدل ذلك على ان تربية المواشى كانت لها حظوة كبيرة عند القرطاجين · فهم كانوا قبل كل شىء فى حاجة الى الخيول لجيوشهم وقد اتخذوا بدون شك الخيول المغربية الموجودة فى البلاد كما نراها مرسومة احيانا فوق النقود البونيقية · وتمتاز بكشحين عريضين ، وعنق قصير ، وعرف طويل وجبين محدب

اما الانعام فقد كانت كثيرة لشدة حاجة العاطمة الى لحومها والبانها وكان القرطاجيون يربون الدواجن ايضا من دجاج وحمام وغير ذلك مما يربى فى فناء الطيور

وقد تكلم ما قون ايضا على تربية النحل ووجدت صور الخلايا مرسومة على الانصاب النذرية • وقد كان العسل والشمع البونيقى من البضائع المشهورة والمطلوبة

خلاصة ما تقدم

١ ـ **الصناعة والتجارة** : كانت مدينة قرطاج شبه مستودع للبضائع ، وكان التجار يستوردون ويصدرون السلع بجميع انواعها ، وكذلك المواد الاولية خصوصا الذهب والفضة والقصدير •

وكانت غالب مصنوعاتهم للاستهلاك المحلى ولا تدل على مهارة صناعية وفنية كبيرة خصوصا اذا قارناها بمصنوعات الاغريقيين المشهورة بجودتها ورقتها •

٢ ـ **الفلاحة** : كان القرطاجيون يعتنون كذلك بالفلاحة ، فكانوا يستغلون اراضيهم على احسن وجه ويجنون منها ربحا كبيرا • فقد زرعوا جهات الوطن القبلى ومجردة والساحل وبذروا الحبوب ، وغرسوا الاشجار من تين وزيتون ورمان وكروم •

وكانوا يتعاطون ايضا تربية المواشى

وكانت جميع المنتوجات توسق الى قرطاج بكل سهولة بفضل وجود شبكة من الطرقات تتجه كلها نحو تلك العاصمة

٣ ـ **الهندسة المعمارية** : كان القرطاجيون كثيرى الولع بالبناء ،فقد شيدوا معابد وابنية عظيمة وزينوها وزخرفوها بالتماثيل (مثل ضريح دوقة) • .

وان آثار هذه الابنية الضخمة والحجارات النذرية واوانى الخزف تسمح بالاعتقاد بان القرطاجيين قد تاثروا كثيرا بالفن الاغريقى وبالفن المصرى واقتبسوا منهما ولو انهم لم يبلغوا درجة من الجودة تذكر •

العادات او الحياة اليومية

النظافة : قد تعلم الفنيقيون عن القبرصيين بناء الحمامات وتجهيزها تجهزا متقنا على الاخص فيما يتعلق بالتسخين وجريان الماء وقد كانت محلات الاغنياء بقرطاج مجهزة بقاعات الاستحمام واحيانا باحواض خاصة للسباحة ٠

وكانت هناك ايضا حمامات عمومية منها ما كان مخصصا للطبقة الارستقراطية ومنها ما كان مفتوحا لعامة الناس ٠

وكانوا رجالا ونساء يتطيبون و يكثرون من استعمال العطور وقد وجدت بجميع القبور اوعية صغيرة وقناني معدة للطيب ٠

واذا استثنينا الكهنة الذين كانوا كلهم مردا حسب العادة المصرية فان غالب الرجال كانوا يعفون اللحى اى يتركونها تطول ٠ وان المسوخ الزجاجية كانت مزدانة بلحى جميلة زرقاء ومبرومة فى شكل لولبى ٠ ومع ذلك فان القرطاجيين كانوا لا يجهلون الموسى بل كانوا يعتبرونه شيئا مقدسا ٠ وقد وجدت بالقبور صفائح من نحاس مستطيلة تنتهى بساق كعنق التم وهذه الصفائح تشبه المواسى المستعملة بمصر القديمة وتظهر عليها نقوش تدل على براعة فنية نادرة

وكان القرطاجيون رجالا ونساء يعتنون كثيرا بشعورهم ويستعملون امشاطا من العاج وجد كثير منها فى القبور القديمة وتظهر عليها فى الغالب نقوش جميلة ٠

وان الاعتقاد فى وجود قوة خاصة مركزها شعر الراس كما تؤيد ذلك اسطورة شمشون ، ان هذا الاعتقاد كان موجودا ايضا عند القرطاجيين ، وقد كانوا يرون ان هذه القوة العجيبة تقيم بصفة خاصة فى خصله يحافظون عليها باعتناء كبير ، كما كان اللوبيون يحافظون على ضفيرة او شوشة باعلى رؤوسهم مما يدل على ان القرطاجيين اخذوا عنهم هذه العادة وهذا الاعتقاد

اما النساء البونيقيات فكن يتباهين ويفخرن بطول شعورهن التى ضحين بهافى حصار سنة ١٤٩ لصنع الحبال اللازمة للحرب وكن يستعملن قرامل من عاج او عظم لشد شعورهن

والمرآة البونيقية كانت كثيرة الاستعمال وقد وجد منها ايضا بجميع القبور وهى فى شكل قرص مستدير ركب فى مقبض وطليت احدى جهتيه بطبقة فضية تنعكس عليها الاشعة ٠

وكذلك كانت النساء يتزين ويتجملن ويتخضبن فيوردن خدودهن

ويحمرن شفاههن ويكحلن عيونهن بالكحل وقد وجدت حقـق الحمرة والخضاب من عاج او من رصاص فى كثير من القبور

اللبـاس

كان الصوريون يلبسون جبابا طويلة من الصوف ذات اكمـام ٠ وتظهر لنا الجبة فى ابسط اشكالها على تمثال صغير يمثل رجـلا معبدا وقع العثور عليه اخيرا بقرطاج (جبة فضفاضة كما هـو موجود عندنـا الى الآن) وهذا التمثال يعد من احسن ما انتجـه الفن البونيقى وذلك لبساطة خطوطه التى اكسبته متانة وقوة ٠ (انظروا الصورة)

ونرى من تلك الصورة انهم كانوا لا يتمنطقون اى لا يشدون وسطهم بنطاق ، ولا يتردون اى لا يلبسون رداء فوق الجبة ٠

وكان ذلك يبدو غريبا عند اليونانيين حتى ان احدهم كتب رواية فجعل اليونانى ينادى البونيقى هكذا : « يا انت الذى ليس عندك نطاق ! » او يستهزىء عليه بقوله : « من هذا الذى قدم الينا فى قميص ؟ هل سرقوا له رداءه فى الحمام ! »

وقد وقع مثل ذلك فعلا لاحد التونسيين كان يتجول فى شوارع باريس وهو لابس جبة ٠ فرآه ولد صغير فقال لامه : « انظرى يا اماه الى هذا السيد وهو يتنزه فى قميص النوم ! »
(Vois, maman, ce monsieur qui se promène en chemise de nuit !)

وقد ترك لنا ترترليانوس ، الذى كتب بقرطاج فى آخر القرن الثانى بعد المسيح ، وصفا مدققا للباس البونيقى الذى ما زال يلبسه بعض المتاخرين منهم فذكر رداء يدور حول الرقبة ويشد على الكتفين بابازيم ويتدلى من الجانبين ، غير ان هذا الزى الصالح للوقاية من البرد والمطر لم يظهر بدون شك الا منذ عهد قريب وذلك لان هذه الابازيم كانت قليلة جدا فى القبور القرطاجية ٠ ويظهر انها كانت لا تستعمل الا عند النساء بصفة خاصة ٠

وكان الفنيقيون لا يخرجون مكشوفى الراس كما كان يفعل المصريون والليبيون ، بل كانوا يضعون على رؤوسهم قلنسوة طويلة ودقيقـة ومستديرة وبدون حافة ناتئة تسمى الطرطور ، ويسميها اليونانيون والرومانيون (طيارا) ـ وتكون هذه القلنسوة احيانا اسطوانيـة

وقصيرة مثلما نراه فى الصورة التى تمثل كوهنا يحمــل طفـلا ليقدمه قربانا (انظروا الصورة) غير ان البونيقيين كانوا يفضلون الطرطور المخروطى الشكل الذى كان يصنع من اللبد وياتيهــم مــن قبرص . وكانوا ايضا يشدون على راسهم صمادة يربطونها احيانا فوق جبينهم ويرخونها على اكتافهم مثلما نراه عند المصريين او يلفونها فى شكل العمامة وكانوا يلبسون فى ارجلهم نعالا او صندلة ، واحيانا احذية عالية .

اما النساء البونيقيات فقد اخترن لهن ازياء اليونانيات ، فكن يلبسن الفستان ويشددنه فى خصرهن بزنار .

وكثيرا ما لاحظ المؤرخون الشبه الموجود بين اللباس البونيقى ولباس مسلمى افريقية الشمالية فى الوقت الحاضر ، ولو ان جبة الصوريين اشبه بـ (القلابية) المصرية منها بـ (الجلابة) المغربية ، وكذلك المعاطف ذات الاغطية للراس فهى ربما كانت لها صلة وقرابة (بالكيكل) الرومانى (١) بينما لا نجد لها شبها عند البونيقيين من سكان قرطاج وعلى كل فان اللباس الشرقى قد حافظ ، طيلة القرون والاجيـال على استقرار عجيب وثبات ودوام على نقيض الازياء الاوروبية التى تتغير باستمرار بتغير (الموضة)



البرنس الكيكل

(١) الكيكل : Cuculle ماخوذة من اللاطينية Cucullus : رداء يشتمل على غطاء للراس Capuchon مثل البرنس كان يلبس فى القديم عند الرومانيين وعلى الاخص من كانوا يعملون فى الهواء الطلق .

الطعام

كان البونيقيون يستعملون قبل كل شيء في غذائهم الحبوب وزيت الزيتون • وكانوا يطبخون الحساء البونيقي الذى كان يقوم عندهم مقام الكسكس عندنا ، واليكم طريقة اعداده كما ذكره بعض المؤرخين

> خذ رطلا من البرغل ، واتركه يتنقع فى الماء ، ثم صبه فى جفنة نظيفة ، وزد عليه ثلاثة ارطال من الجبن الطرى ، ونصف رطل من العسل ، وبيضـ واخلط الجميع ثم اطبخه فى قدر جديد ••• وبعد ذلك كل بالشفاء •

وكان الحلوانيون بقرطاج يتمتعون بشهرة طيبة فكانوا يزينون الحلاوى بواسطة قوالب من طين لها اشكال مختلفة كالاسماك وانواع الحيوانات او حتى من البشر

وكانوا يكثرون من اكل الثوم ، ويحبون من البقـول الملفـوف والخرشوف والحمص ويدمنون شرب الخمر وكانوا كغالب الاجناس السامية لا ياكلون لحم الخنزير ولكنهم كانوا ياكلون لحم الكـلاب وهى عادة استنكرتها عليهم الشعوب الاخرى مثلما كانوا يستنكرون احراق الاطفال •

وكانت الاسماك من المواد الغذائية الهامة خصوصا بالنسبة للفقراء وذلك لكثرتها بالسواحل التونسية من بـورى ، وعجـل البحـر (قاروص) ، ومنانى ، وسمك موسى (مداس) ، ووراطة ، ودنديق وجراف ، واسقمرى ••• وعلى الاخص التن الذى اشتهرت به من ذلك التاريخ بلدة مسيوة (Missua) وهى سيدى داود الآن • وكانت توجد مخازن لتمليح السمك بالبيبان فى الجنوب ، وعلى طول شطوط الساحل او مزاق (Byzacène)



الجيش والاسطـول

ـ الجيش

كانت قرطاج تتعهد فى اوقات السلم فرقـا قليلة توزعها عـلى ممتلكاتها بافريقية او بما وراء البحار لحفظ الامن او لدفع هجومات فجائية ٠ وكانت لا تجند الجنود ولاتؤلف الجيوش باتم معنى الكلمة الا لمجابهة القتال وخوض المعارك ثم تسرح العساكر وتطلق سبيلهم بمجرد ما تضع الحرب اوزارها ، ولذلك كانت حكومة قرطاج تود دائما ان لاتطول هذه الحروب لما تتكبـده فى سبيلهـا من خسائـر ونفقات باهضة ، اذ ان قرطاج كانت تعتبر الحرب كعملية تجاريـة لا اكثر ولا اقل ، فيها مصاريف ونفقات وتنتهى تارة بارباح وتارة بخسائر ككل العمليات التجارية ٠ وقد كانت مضطرة مدة ستـة وثلاثين سنة (من ٢٣٧ ـ ٢٠٢) الى ابقاء جيوش مستمرة، وذلك لمجابهة الحروب التى قام بها آل برقة باسبانية والتى دامت ما يقرب من عشرين سنة ، ثم بعد ذلك اندلعت الحرب البونيقية الثانية ضد رومة ولم تنته الا بعد سبعة عشر عاما بكارثة جامة (سنة ٢٠٢) ٠

وكانت معظم جيوش قرطاج فى البداية اى لما قامـت بالمعـارك والحـروب الاولى ، تتالف من المواطنين ، ودامت الحـال كذلـك الى منتصف القرن السادس ٠ فان جنود ملقيس التى رجع بها خائبا من سردينية والتى استخدمها فى قلب نظام الحكم كانت بدون شك تضم فى صفوفها جنودا من القرطاجيين ، وبعد قتل ملقيس بدات سلسلة الوقائع التى تسبب فيها ودبرها وقادها ما قون ثم ابناؤه وحفداؤه من بعده ٠ ولايمكن لمدينةواحدة كمدنية قرطاج،مهما بلغ عدد سكانها، ان تكفى لتكوين ماتتطلبه هذه السياسة الاستعمارية من جيـوش كثيرة ، ولا يعقل ان تعمد الحكومة الى انتزاع المواطنين مـن وسط عائلاتهم ، والى ابعادهم عن مصالحهم ومهنهم.واعمالهم للتضحية او حتى للمخاطرة بحياتهم فى بعثات عسكرية بعيدةومتواترة ٠ فان مثل هذا الصنيع من شانه ان يقضى على التجارة والصناعة والاقتصاد بينما كان

العمل موجها لنموها وازدهارها بفتح اسواق جديدة ٠

ولذلك التجات حكومة قرطاج الى الجنود المستاجرة وقد ورد ذكرها لاول مرة سنة ٤٨٠ عندما نظم عملقار حملة صقلية الكبرى التي انتهت بكارثة هيمار ٠ ومن المحتمل ان يكون ابوه ماقون هو الذي بدا بهذا النوع من التجنيد لانه هو الذى « اوجد النظام العسكرى » كما قاله يوستينيوس ٠ هذا وان ضم الاراضي الليبية الجديدة والاستيلاء عليها فى القرن الخامس مكن جمهورية قرطاج من تجنيد عساكر كثيرة من بين الاهالى ، وكذلك حلفاؤها ايضا فانهم كانوا يمدونها بالانصار والمساعدين ٠

غير ان المواطنين لم يضمحلوا بتاتا من الجيوش حتى بالنسبة للحروب التى دارت رحاها فيما وراء البحار ٠ وبقطع النظر عن القواد والضباط فاننا نجد القرطاجيين يشاركون فى كثير من المعارك بصقلية، وانهم كانوا يحملون الخواتم على عدد الوقائع التى خاضوا غمارها وهذا يدل على انهم كانوا يتباهون ويفتخرون بمآثرهم الحربية ٠

ومما لاشك فيه ان كثيرا منهم كانوا من العائلات الارستقراطية الشريفة ٠ فكانت لهم اسلحة يملكونها مصنوعة بكيفية فنية متقنة : مثل خوذ من برنز ، ودروع من فولاذ ، وتروس مستديرة ، وسيوف بواتر ، ورماح سمهرية ٠٠٠ وكانت لهم اشياء ثمينة تدل على العز والترف كاكواب من فضة ومن ذهب ٠ وفى سنة ٣٣٩ كون جماعة من الشبان يبلغ عددهم ٢٥٠٠ ، كلهم من الاغنياء والاشراف ، فرقة عسكرية ممتازة لقبوها باسم (الفوج المقدس Bataillon Sacré) واظهروا بسالة نادرة فى معركة وادى القريمزة (Crimisa) فقاوموا مقاومة الابطال الى ان سقطوا عن آخرهم فى ميدان الشرف ٠ فاحدث خبر موتهم رجة عنيفة وتاثيرا عميقا فى قرطاج ، وقرروا العزم على الاكتفاء فى المستقبل بالجند الماجور ، وعلى المحافظة على حياة ابنائهم ٠ وكان الامر كذلك ٠

لكن بعد مرور ثمانية وعشرين سنة على تلك الكارثة اى فى سنة ٣١١ وقع تجنيد الفين من المواطنين الاشراف فى بعثة عسكرية اخرى ضد الاغريق بصقلية لكن اغرقتها الزوابع والامواج قبل وصولها الى الجزيرة ٠ فاقاموا بقرطاج حدادا شعبيا ٠ وكانت هذه المصيبة الجديدة سببا فى اقصاء المواطنين نهائيا عن المشاركة فى حروب ما وراء البحار ٠

لكن استمر تجنيدهم فى الجيش الوطنى • وكلنا نعرف ما اظهره القرطاجيون من شجاعة وبسالة وتضحية للدفاع مدة ثلاث سنوات كاملة (اى من ١٤٩ الى ١٤٦) عن مدينتهم التـى اراد الرومانيـون ارغامهم على مبارحتها قهرا

واننا اذا استثنينا المواطنين وجعلناهم على حدة ، نجد ان الجيوش البونيقية تشتمل على العناصر التالية :

١) ــ رعايا من الاهالى مولودين بالاراضى التابعة لقرطاج سواء بافريقية او باسبانية او حتى بسردينية وذلك لان الخدمة العسكرية كانت واجبة ومفروضة عليهم مثلما فرض عليهم دفع الضرائب

٢) ــ معاونين او مساعدين ترسلهم الحكومات الحليفة او الامراء الخاضعين لقرطاج • فالبعض من هؤلاء المعاونين تدمجهم قرطاج فـى جيوشها،والبعض الآخر يحاربون بجانبهم مع المحافظة على شخصيتهم واستقلالهم وذلك مثل سيفاكس ملك النوميديين فى آخر القـــرن الثالث اى فى الحرب البونيقية الثانية

٣) ــ ماجورين تربطهم عقدة كراء تنتهى بانتهاء الحرب التـــى استؤجروا من اجلها • وكانت حكومة قرطاج تاتى بهم وتجلبهم مــن جميع اقطار الجهة الغربية من البحر المتوسط ومن بلاد اليونان ايضا، فنجـد الجيش يتالف من الليغوريين (١) (Ligures) ومن السلتيين (les Celtes) (٢) ، ومن الاغريق (Grecs) والغالين les Gaulois وهؤلاء كانوا لا يفهمون فن المناوشات وخداع الحرب مثلما يفهمـه المغاربة ، بل كانوا لا يعرفون الا الهجوم العنيف فى صفوف متراصة، ومن البلجاريين (les Baléares) وكان سلاحهم المقلاع لقذف الاحجار، وكانوا ينفقون كامل اجرتهم فى الخمر والنساء لان دخول الذهـب والفضة كان من الامور المحجرة فى بلادهم (رواه ثيماوس الصقلى)

---

(١) الليغوريون Ligures احد الشعوب الذين كانوا يسكنون غالية او فرنسة القديمة وكانوا يقيمون بين نهر الليغر Liger او اللوار (Loire) وخليج جنوة (Golfe de Gênes) وكانت تسمى تلك الجهة ليغورية (Ligurie)

(٢) السلتيون (les Celtes) : هم شعوب كانت تقيم فى بداية القرن الثالث على البحر المتوسط بين جبال السيفين والبيرانس ونهر الرون بفرنسة القديمة • ولما استولى القرطاجيون على اسبانية او ايبيرية (٢٣٧ ــ ٢١٨) اندمج السلتيون فى الايبيريين ومازالت جهة (غاليسية) بشمال اسبانية تذكرنا بمرورهم هناك

وكان هؤلاء الجنود من الرعايا او من الحلفاء او مـن المأجوريـن يتقاضون فرضا (١) يختلف حسب قيمة الاشخاص ٠

وقد شارك الليبيون بصفتهم رعايا فى جميع حروب صقلية مـن آخر القرن الخامس الى منتصف القرن الثالث كما ساهموا بقسط كبير فى غزوات آل برقة باسبانية ابتداء من سنة ٢٣٧،وفى المعارك التى دارت بايطالية تحت قيادة حنبعل ٠ وقد ذكر لنا المؤرخون ان هذا القائد اخذ معه ١٢٠٠٠ ليبيا فى فرقة المشاة وترك لاخيه صدر بعل ١١٨٥٠ جنديا كلهم منالليبيين

وكان الليبيون فى كل الاوقات من ابرع المحـاربين ، يعرفـون بدقة اجسامهم ، وشدة اطنابهم ، وقوة اعصابهم ، وخفة حركاتهم ، وكثرة قناعتهم وصبرهم على الاتعاب والحرمان وشظف العيش ٠

وكانت لهم مقدرة فائقة على الاستفادة من احوال الارض والموقع لاعداد هجوماتهم اما فى صورة حملة مكشوفة بدون وقاية ام فـى شكل كمين منصوب ٠ وكانوا يرتمون فى المعمعة باندفاع يشبـه الجنون ٠

اما سلاحهم فكان على غاية من البساطة والاختصار ، وينحصر فى حراب قصيرة وخنجر ودرفة مستديرة من الجلد تدفع عنهم النبـال والاحجار ، وكانوا لا يستعملون لا سيفا ولا درعا ولا خوذة ٠

وفرسانهم كانوا يعروورون (٢) خيولا ضامرة ،مخبرها خير من منظرها ، لانك تحتقرها اذا رايتها ، لكنها على غاية من الخفة والنشاط والسرعة مع ثبات القدم وسهولة الانقيـاد الى درجـة انهـم كانـوا يسيرونها بمجرد عصية ولا يستعملون لذلك لا لجاما ولا خطاما ولا زماما ٠ وكان الفارس ياخذ معه احيانا فرسين معا ٠ فاذا تعب وكل احدهما قفز على الاخر ولو فى شدة وطيس المعركة ٠

وكانت حركاتهم ومناوراتهم الحربية معروفة لم تتبدل الى يومنـا هذا ٠ فانهم كانوا يهجمون على الاعداء من كل جانب وهم يصيحون صيحات مزعجة ، ويقذفون وابـلا من الحـراب ، ويستمـرون فى مناوشتهم المرة تلو الاخرى مجتنبين التصادم فتخالهم دبورا مـن الزنابير تلسع ثم تبتعد ثم تعود وتلسع ثانية ٠٠٠ هكذا كان يفعل

---

(١) الفرض (Solde) : هو ما يعطى للجند

(٢) اعروري الفرس : ركبه عريا اى بدون سرج (ولا يستعمل هذا الفعـل الا على وزن افعوعل)

الليبيون ايضا ، فاذا فرغت كنانتهم من الحراب انسحبوا بسلام ، واختفوا دفعة واحدة كانهم عفاريت الجن ، بدون ان يفهم الاعداء كيف اتوا ، وكيف ذهبوا ، وكيف انفلتوا من بين ايديهم كما ينفلت الزئبق ٠

وطريقة الكر والفر كانت من الاسس الهامة التى يرتكز عليها فن الحرب وتكتيك المعارك عندهم وكانوا يستعملونها غالبا كخدعةلايقاع العدو فى كمين ٠

ـ الاسطول البحرى

كان اسطول قرطاج يتمتع بسمعة طيبة ويضرب به المثل حتى عند الخصوم والاعداء ٠ وكان لا يختلف كثيرا عن اسطولاليونانيين

وكانوا يستعملون منذ مدة طويلة نوعين من السفن :

ـ السفينة الطويلة المعدة للحرب وتحركها غالبا المجاذيف ٠

ـ والسفينة المدورة تسير بالشراع وتحمل شحنات كبيرة ٠

وشراع القرطاجيين مستطيل الشكل يمدونه على دوقل اى على عارضة طويلة تركب عموديا على الصارى ٠

وان مسالة الدفة او سكان السفينة تحتاج الى شىء من الشرح والانتباه ، وذلك لان القرطاجيين كغيرهم من الاقدمين كانوا يجهلون دفة الكوثل (١) كخشبة عريضة تجعل فى مؤخر السفينة والتى لم يقع اكتشافها الا فى القرن الرابع عشر ، فكانوا يستعملون دفة المجذاف (٢) يثبتونها بقلسين (٣) على جانب السفينة ، ويغرسون قضيبا من الخشب عموديا (٤) فى راس المجذاف ليتمكن ماسك الدفة من تحريكها بسهولة ٠ وان النقوش الموجودة على النصب الحجرية تظهر بكيفية واضحة اجزاء الدفة الثلاثة وهى :

١) : القضيب

٢) : المقبض والعصا

---

(١) الكوثل (poupe) هو مؤخر السفينة كما ان الجؤجؤ (proue) هو مقدم السفينة وصدرها ونسميه باللغة العامية (البروة) وهى كلمة ماخوذة من الطليانية (prua) والحيزوم (quille) هو وسط صدر السفينة يشق عباب الماء ويمتد مثل العمود الفقرى على طول قعرها وعليه يرتكز كامل هيكل السفينة

ودفة الكوثل : هى السكان المعروف عندنا ويكون فى مؤخر السفينة

(٢) دفة المجذاف : هى شبه المجذاف كانت تقوم مقام السكان عند الاقدمين وتشد على جانب السفينة

(٣) القليس (amarre) ج قلوس واقلاس : حبل ضخم للسفينة

(٤) عموديا : اى يكون مع المجذاف زوايا قائمة

٣) : الصفح اى الطرف العريض من المقذاف

وكانت السفن مجهزة فى الغالب بدفتين مجذافيتين ، دفة فى الميمنة ودفة فى الميسرة • ولكن تستعمل عادة دفة واحدة منهما وتبقى الاخرى للاحتياط • ولو ان بعض المؤرخين يقولون بان القرطاجيين كانوا يشغلون نوتيين على سفينة واحدة ، فيمسك كل واحد منهما بدفة • وهذا ممكن بالنسبة اليهم وذلك لمهارة جذافيهم ولخفة مراكبهم التى صنعت بكيفية تجعلها تتحرك بكل سهولة،وتدور بسرعة عجيبة الى اية جهة تشاء ، حتى انه كلما طاردهم عدو تراهم يدورون ويحومون حوله ، ويقعون بغتة على جوانبه ، ويصدمونه بلا فتور ولا انقطاع ، بينما ترى السفينة الرومانية لا تغير وجهتها الا ببطء وعناء نظرا لثقلها ولقلة خبرة جذافيها •

وامام هذه المقدرة الفائقة عند البونيقيين اضطر القنصل الرومانى دوليوس ، فى الحرب البونيقية الاولى ، الى استعمال طريقة لا تليق ببحرى صميم ولكنها على كل حال اتت بالفائدة ، اذ انها جعلت النصر من جانبه ، والنتيجة تبرر الوسائل كما يقولون !

فان هذا القنصل كان يعلم علم اليقين براعة القرطاجيين ولا يجهل مهارتهم فى البحر وتفوقهم عليه تفوقا كبيرا فى المعارك البحرية ، وكان يعتقد انه يتغلب عليهم ويقهرهم لا محالة لوحاربهم على الارض اليابسة • ففكر فى طريقة تجعل جنوده يحاربون القرطاجيين كما لو كانوا على وجه الارض • فابتكر «غربانه»المشهورة وهى جسور ذات كلاليب جهز بها سفن الرومانيين ، فكانوا يلقونها ويقلبونها على سفن اعدائهم ، فتمنعها عن الحركة ، وتجعل الحرب البحرية تنقلب الى حرب المشاة وهى التى كانوا يتفوقون فيها على القرطاجيين • وهكذا امكن لهم بهذه الحيلة ان ينتصروا عليهم انتصارا باهرا لم يسبق له مثيل وذلك فى معركة مليس المشهورة سنة ٢٦٠

خلاصة ما تقدم

الجيش : لم يكن لحكومة قرطاج جيش قومى ، بل كانت تستاجر جنودها من مختلف الجهات (من ليبيين وسلتيين وغاليين واغريقيين •••) لكن من حسن الحظ كانت هذه الجنود تسير تحت قيادة ابطال مشهورين مثل عملقار وحنبعل وصدر بعل •

الممالك الليبية والنوميدية في عهد البونيقيين

قد جرت عادة المؤرخين بالتوسع والافاضة فى شرح تاريخ الاستعمار الفنيقى او الرومانى ، وهو امر يبرره ما كان لهذا الاستعمار من اهمية ومن اثر عميق فى شمال افريقية ، غير اننا نراهم فى الوقت نفسه لا يعيرون التفاتة الى ابناء البلاد بل ينسونهم فى غالب الاحيان ويتركونهم فى طى الخفاء وزاوية الاهمال كانهم لم يكونوا موجودين فى هذه الدنيا ، مع ان دورهم فى التاريخ اى فى الحياة الماضية لم يكن شيئا يستهان به ، ويكفى ان نعلم انهم كانوا فى الحقيقة كنه الجنس الذى نصادفه اليوم بافريقية الشمالية وقراراته الثابتة

فليس من المعقول بحال من الاحوال ان نوجه انظارنا نحو قرطاج البونيقية وحدها ، اذ نكون بذلك قد تعمدنا جهل حياة شعب باسره وهو الشعب الاصلى بالقطر الافريقى • فالفنيقيون والقرطاجيون والرومانيون وغيرهم من المستعمرين ياتون ثم يذهبون ، اما الليبيون والنوميديون والافريقيون بصفة عامة فهم دائمون فى مكانهم وفوق ارضهم ، يزدادون كل يوم مكانة ورفعة ، ويحتلون فى التاريخ بفضل ابطالهم وزعمائهم مركزا مرموقا نراه يتدرج فى السمو ويتلالا نورا فى الفضاء •

معنى ليبيا فى القديم : وحدة شمال افريقية

يقول هيرودوتس :

> تمتد ليبيا من حدود مصر شرقا الى راس صوليس (Promontoire de Soloeis) على المحيط الاطلسى حيث تنتهى غربا ويسكنها (الليبيون) وكثير من الشعوب الليبية بقطع النظر عما يملكه الاغريقيون والفنيقيون هناك •
>
> وبعد تلك المنطقة الساحلية ومن بها من شعوب تاتى منطقة اخرى ملآنة بالوحوش والحيوانات المفترسة
>
> وتاتى بعدها منطقة رمال الصحراء •••

ولا يمكن لواصف ان يبين بكيفية ادق واوضح تلك المناطق المتتابعة والذاهبة من الساحل اى من البحر الابيض المتوسط شمالا الى تخوم الصحراء جنوبا

ونفهم من هذا الوصف ان كلمة (ليبيا) كانت تطلق على كامل الرقعة من الارض الواقعة بين البلاد المصرية والبحر الغربي او المحيط الاطلسى ، وان كلمة (الليبيين) كانت تطلق بصفة عامة على جميع سكان تلك الرقعة من الارض ، مما يدل دلالة قطعية على وحدة شمال افريقية فى القديم ارضا وبشرا

ثم ان كلمة (الليبيين) اخذت معنى اضيق واصبحت تطلق على رعايا قرطاج المقيمين بالجهات التى استولت عليها وضمتها رسميا اليها وقد فرضت عليهم الخدمة العسكرية ودفع الضرائب ٠ وكان المؤرخون الرومانيون مثل طيطش ليوش (١) يطلقون على هؤلاء الرعايا الليبيين اسم (افرى) وهو من نوع الترخيم لكلمة (افريقى) بحذف الصوت الاخير منها

النوميديون والمريطانيون والجيتوليون

وصارت كلمة **النوميديين** (Numides) تطلق فى اول الامر على جميع الليبيين المستقلين (اى غير الرعايا) من حدود الجمهورية البونيقية الى المحيط الاطلسى غربا والى الصحراء جنوبا ، كما اثبت ذلك ديودورس وبوليبس ٠ ثم بعد ذلك صارت تلك التسمية لا تنطبق لا على سكان المغرب الذين اطلق عليهم اسم **المريطانيين** (Maures) ولا على القبائل الرحالة المقيمين بالسباسب الجنوبية والذين اطلق عليهم اسم **الجيتوليين** او **جدالة** (Gétules) ،واصبحت كلمة **نوميديا** (Numidie) تنطبق فقط على الجهة الممتدة من حدود الامبراطورية البونيقية شرقا ، الى حدود مريطانية غربا ، وحدود جدالة جنوبا

---

(١) طيطش ليوش (Titus Liviusou Tite-Live): مؤرخ لاطينى شهير ولد بمدينة بادوة بايطالية سنة ٥٩ ق ٠ م ومات سنة ١٧ بعد الميلاد الف كتاب (العشريات) فى تاريخ الرومانيين ، واطنب كل الاطناب فى تمجيد رومة واشاد بعظمتها وبسالتها ونوه بعدلها ، كما اطنب فى تشويه البونيقيين متحدثا عن مكرهم وعدم وفائهم بالعهد حتى صار يضرب بهم المثل فيقولون كوعد البونيقى Foi de punique وكان طيطش ليوش مبالغا فى تنويهه وفى تشويهه

ويمكن ان نوضح هذه الاقسام كما ياتى :

اولا ـ ارض الجمهورية البونيقية (Les territoires puniques)

ثانيا ـ نوميديـــة (Numidie)

وهى تمتـد مـن حدود الجمهوريـة البونيقيـة شرقـا الى وداى شلف او حدود مريطانية غربا • وتنقسم الى قسمين :

أ ـ نوميدية الشرقية او ماسولة (Massylie)

ب ـ نوميدية الغربية او مازيسولة (Massésylie)

ثالثا ـ مريطانية (Maurétanie)

وتمتد من وادى ملوية الى المحيط الاطلسى

رابعا ـ جدالة او جيتولية (Gétules)

وتمتد من حدود ارض الجمهورية البونيقية ونوميدية ومريطانية شمالا الى تخوم الصحراء جنوبا (انظروا الخريطة)

ـ الجمهورية اليونيقية : وعاصمتها قرطاج ، وسكانها :

أ ـ البونيقيون او القرطاجيون : وهم الفنيقيون « المتتونسون » الذين اختلطوا بالليبيين وامتزجوابهم فاصبحت لهم خصائص تختلف بعض الاختلاف عن خصائص اجدادهم اهل صور وصيداء فيما يتعلق باللغة والكتابة والديانة والعادات وغير ذلك ••• وصار كل ذلـك بونيقيا او قرطاجيا بعد ما كان فنيقيا

ب ـ الليبيون او الليبيفنيقيون وهم رعايا الجمهورية البونيقية من الافريقيين الاصليين

وكانت هذه الارض تنحصر فى البداية فى مدينة قرطاج وفـى بعض المدن البونيقية الموجودة على السواحل ، ثم بدات تظهر سياسة التوسع والامتداد الابستعمارى بعد كارثة هيمار بصقلية سنة ٤٨٠ التى وضعت حدا لسياسة التوسع البحرى ، وفتحت آفاقا جديـدة لسياسة التوسع البرى او الاقليمى •

وفى النصف الثانى من القرن الخامس استولت قرطاج بقوةالسلاح على الاراضى الفلاحية الخصبة بالوطن القبلى ، ووزعتها عـلى الطبقة الاستقراطية من ابنائها بعدما اخرجـت الليبيين منها

ثم تمادت حكومة قرطاج فى التوسع ، وفى اخضاع الليبييـن

وتكوين امبراطورية بونيقية بالبلاد التونسية تمتد حدودها بصفة تقريبية من عنابة الى جنوب قابس وتستمر على طول السواحل الافريقية من المحيط الاطلسى الى نهاية السرت الكبير بطرابلس حيث كان يبدا نفوذ اليونانيين •

وان هذه الحدود لم تكن قارة وثابتة بل كثيرا ما تغيرت وعلى الاخص بعد الحرب البونيقية الثانية اى فى النصف الاول من القرن الثانى لما اخذ ماسنيسا يتطاول على البونيقين ويسترجع الاملاك التى انتزعوها ، ويفتك الاراضى الخصبة ارضا ارضا ، حتى انه لم يترك فى النهاية لجمهورية قرطاج ، لما اندلعت الحرب اليونيقية الثالثة (١٤٦/٢٠١) سوى القطعة التى انتقلت بعد ذلك الى نفوذ وحكم الرومانيين تحت اسم (افريكا) وكانت حدودها تمتد من طبرقة الى جنوب طينة (Thaena) (بين صفاقس والمحرس)

- نوميدية الغربية او مازيسولة : الاقليد (١) سيفاكس

كانت مملكة مازيسولة يحدها شرقا راس بوقرعون بشمال قرطة (قسنطينية) وهو الحد بين ماسولة ومازيسولة ويحدها غربا وادى ملوية اى حدود مريطانية • وكانت لها عاصمتان وهما صاغة (Siga) على ٩٠كم شرقى وادى ملوية وقرطة وهى مدينة قسنطينة اليوم • فكان الملك سيفاكس ينتقل من الواحدة الى الاخرى • وكانت قرطة تمتاز بموقعها الستراتيجى الذى لم يكن له مثيل لوجودها فوق صرد(٢) تحيط به منحدرات وعرة وهاوية يفوق ارتفاعها مائة ميتر ويسيل فى سفحها وشعابها وادى الرمل ، ولايمكن الوصول اليها الا من ممر ضيق من الجهة الجنوبية الغربية الشىء الذى يجعلها حقيقة فى حصن منيع من كل الغارات والهجومات ولا مطمع فيها لطامع • وكانت تلك الربوع فى جهتها المجاورة لمريطانية ، على غاية من الخصب وصالحة لزراعة الحبوب اكثر من نوميدية الشرقية ، حتى ان استرابن (Strabon) الجغرافى اليونانى الكبير كان يجزم بان سوق قمحها كانت تبلغ حجم الاصبع الصغير وتفوق ميترين ارتفاعا وكان من الممكن بسهولة

(١) الاقليد (Aguellid) : كلمة ليبية معناها الملك او رئيس فيدارلية قبائل، اذ كانت الممالك تتكون من تكتل عدد من القبائل والتفافها تحت سلطة قائد واحد وهو الاقليد

(٢) الصرد او سطح الجبل : المكان المرتفع فى الجبال

الحصول على صابتين في العام الواحد وعلى ايراد نسبته ٢٤٠ للواحد ٠

واكبر اقليد عرفه التاريخ بنوميدية الغربية وكانت له شخصية لامعة هو **سيفاكس** (١)

ويروى لنا طيطش ليوش انه في سنة ٢١٣ ق٠م٠ بينما كان صدربعل في حرب عوان باسبانية مع الشبيونين (٢) الرومانيين نشبت عداوة بين سيفاكس هذا وقرطاج ٠ فاستبشر الشبيونان لما بلغهما ذلك الخبر ، واوفدا في الحين لسيفاكس ثلاثة من القواد ليعرضوا عليه اقتراحا في التحالف ، وليعدوه بالمكافاة الحسنة من حكومة روما اذا استمر في اعماله العدائية بحزم ونشاط ضد القرطاجيين ٠ ففرح سيفاكس بهذه المحاولات واعتبرها نجاحا ديبلوماسيا عظيما ٠ فاستبقى معه احد القواد وهو (إسطاطوريوس) ليمرن جيوشه النوميدية على امور القتال واسرار الحرب حسب القواعد الفنية عند الرومانيين ٠ وذلك لان النوميديين كانوا ماهرين في النزال فوق الخيل ولكنهم كانوا يجهلون حرب المشاة التي كان للرومانيين فيها باع طويل وشهرة عالمية ٠ ورجع القائدان الاخران الى اسبانية يحملان معهما جواب سيفاكس بالرضى والقبول ٠

وبعد ما تمرنت مشاته على اسرار الحرب حسب القواعد والتكاتيك الرومانية ، اشهر سيفاكس الحرب على القرطاجيين وانتصر عليهم ٠

اما القرطاجيون فانه لما بلغهم خبر هذا التحالف مع الرومانيين اوفدوا رسلا الى (غايا) ملك ماسولة اذ ذاك ليحذروه من سيفاكس الذي اصبح بتحالفه مع روما خطرا يهددهم جميعا ، ولذلك صار من مصلحتهم تكوين جبهة في اقرب وقت لسحقه ومحقه قبل ان يحاربهم ويفوز عليهم ٠ فاقتنع غايا بهذا الكلام خصوصا امام الحاح ابنه ماسنيسا الذي كان اذ ذاك شابا صغيرا يتقد حزما وطموحا (٣)

وفعلا انهزم سيفاكس امام قوات ماسينيسا وقوات الفنيقيين التي هاجمته في وقت واحد ٠

---

(١) سيفاكس : كلمة ليبية معناها المحروس والمحمي والمدجج بالسلاح ٠ ويمكن ان نقارن بين اسم هذا الملك واسم مدينة صفاقس الذي يفيد بدون شك نفس ذلك المعنى في اللغة اللبيبة اى المدينة المنيعة والمحصنة

(٢) الشبيونان (Les deux Scipions) : هما بوبليوس شبيون (والد شبيون الافريقي بطل جامة) واخوه اقناووس شبيون وقتل الاثنان باسبانية سنة ٢١٢

(٣) كان عمره في ذلك الوقت ٢٥ سنة

وخسر سيفاكس فى تلك المعركة ثلاثين الفا من رجاله وفرهاربا مع شرذمة من فرسانه الى مريطانية .

ونحن نفهم من هذه الرواية ان سيفاكس كان فى ذلك الوقت اى فى سنة ٢١٣ حليفا للرومانيين بينما كان ماسنيسا وابوه الملك غايا فى صف القرطاجيين .

واستمرت الحروب والمناوشات بين الفريقين وكان سيفاكس ينتصر تارة وينكسر اخرى ، وفى سنة ٢١٢ تم الصلح بينه وبين قرطاج ، واسترجع سيفاكس مملكته وصار كعادته ينتقل بين عاصمته الاولى صاغة وعاصمته الثانية قرطة .

ولما مات (غايا) وانتقل حكم الماسوليين الى ماسنيسا (فى خريف سنة ٢٠٦) (١) تصدى سيفاكس لمحاربته وقهره فى ثلاث وقائع واستولى على مملكته ، ومن ذلك الوقت اصبح سيفاكس فى منتهى القوة ، وفر ماسنيسا هاربا الى بلاد الغرامانت جنوب طرابلس واصبح اميرا شريدا يهيم على وجهه ويترصد الفرص للانتقام واخذ الثار (ووقعت كل هذه الحوادث سنة ٢٠٥) .

نوميدية الشرقية او ماسولة : الاقليد ماسينيسا

كانت نوميدة الشرقية او ماسولة يحدها شرقا التراب البونيقى ويحدها غربا راس بوقرعون او حدود نوميدية الغربية . وقد ذكرنا ان الاقليد سيفاكس استولى عليها وضمها الى مملكته واصبح على راس امبراطورية عظيمة تمتد من الحدود البونيقية الى وادى ملوية بينما اصبح ماسينيسا ملكا بلا مملكة واميرا شريدا منفيا يندب حظه ويتصيد الفرص لاخذ الثار من عدوه الالد سيفاكس .

وهنا نشاهد القرطاجيين يبذلون كل جهدهم ويستعملون كل

---

(١) فى الحقيقة لما مات غايا فى بداية سنة ٢٠٦ لم يخلفه ابنه ماسنيسا بل خلفه اخوه (ذلقاص) وكان اكبر فرد فى العائلة . ولم يلبث هذا الاخير ان مات بدوره فى صائفة تلك السنة نفسها ، فخلفه ابنه (قابوصة) وهو اكبر من ماسنيسا سنا . فثار فى وجهه احد الامراء من الاسرة المالكة وهو (مزطول) وقتله وتولى الحكم على الماسوليين ، غير انه لم يحمل لقب الملك بل جعل على العرش (لاقوماز) اخا قابوصة وهو اصغر سنا من ابن عمه ماسنيسا . وكان هذا الاخير بقادس باسبانيا . فلما بلغته اخبار مزطول ولاقوماز ركب اليهما فى الحين وانتصر عليهما وتربع على عرش ابيه وذلك فى خريف سنة ٢٠٦ كما ذكرناه .

الوسائل لاستمالة سيفاكس ليكون لهم حليفا قويا وعضدا متينا فزوجه صدربعل بابنته الحسناء صونتبعل المعروفة فى التاريخ باسم (صوفونيسبه) وقد كانت قبل ذلك خطيبة ماسينيسا

اما ماسينيسا فنراه يسعى فى التحالف مع الرومانيين ضد البونيقيين وضد حليفهم القوى سيفاكس ٠

وهو ما يمكن ان نسميه بقلب التحالف (renversement des alliances) فبعد ما كان ماسينيسا خطيبا لصوفونيسبه وحليفا للقرطاجنيين وكان سيفاكس مواليا وصديقا للرومانيين اصبح الامر عكس ذلك تماما وصار سيفاكس بعلا لصوفونيسبة وحليفا للقرطاجيين بينما اصبح ماسينيسا فى صف الرومانيين ٠

وبعد ذلك كانت الحرب البونيقية الثانية وواقعة جامة المشهورة (سنة ٢٠٢) والتى ابلى فيها ماسنيسا البلاء الحسن بجانب شبيون كما انتصر ماسنيسا قبل ذلك بايام قليلة على عدوه سيفاكس وسلمه اسيرا فى قبضة الرومانيين ، واستولى على كامل مملكته من الحدود البونيقية الى الحدود المريطانية ، والله يهب الملك لمن يشاء وهو خير الرازقين ٠

ولم يكتف ماسنيسا بذلك بل اخذ يشن الغارات المتوالية على الاراضى البونيقية ويفتك الاملاك الخصبة الواحدة تلو الاخرى

فاستحوذ على سواحل السرت الصغير بخليج قابس وهى الجهة التى كانت تعرف بجهة الاسواق التجارية ، وكانت مشهورة بمداخيلها الباهضة وكان ذلك سنة ١٦٢

ثم استولى على الجهات الفلاحية الخصبة كجهة دوقة ، وجهة السهول الكبرى ، وهى جهة سوق الاربعاء وسوق الخميس (جندوبة) حيث يمر وادى مجردة ، وكان ذلك سنة ١٥٤ ٠

فاصبح نفوذه يمتد من اقصى خليج السرت الكبير الى حدود مريطانية اووادى ملوية٠ وبما ان ماسنيسا ولد سنة ٢٣٨ فقد كان عمره ٣٧ عاما لما انتهت الحرب البونيقية الثانية ٠ ثم عاش بعد ذلك ما يزيد عن نصف قرن الى بداية سنة ١٤٨ فلم يشهد انهيار القرطاجنيين سنة ١٤٦٠ وان النقود المالية التى ضربت فى مدته وفى مدة ابنائه وحفدائه من بعده تمثله فى سن الاربعين او الخمسين بملامح

منتسقة ، وعين نجلاء ، وحاجب كث ، وشعر مجعد ، ولحية ملسنة ويقال انه كان في صغره شابا جميلا ، وكان طويل القامة وقد حافظ على صحة عجيبة حتى في شيخوخته اذ انه قاد جيشه بنفسه في واقعة كبيرة مع القرطاجيين (سنة ١٥٠) وعمره اذ ذاك ٨٨ سنة وانتصر انتصارا باهرا • ومن الغد وجده شبيون الايميلي واقفا امام خيمته وهو ياكل خبزا يابسا

وكان مع ذلك يعيش عيشة الترف والنعيم ، كما كان يعيش خصمه سيفاكس ايضا ، فكان له قصر فخم بقرطة ، وآخر بسيكا (مدينة الكاف) • وكان يولم فيهما الولائم الفاخرة ، فتنصب الموائد وتوضع فوقها الوان الاطعمة في اواني من فضة وسلال من ذهب • وتقع اثناء تلك المئادب حفلات موسيقية رائعة يشارك فيها المطربون القادمون من بلاد اليونان •

وكان ماسنيسا متشبعا ومتاثرا ومصبوغا بمدنية قرطاج حيث قضى مدة طويلة من شبابه ، كما كان مفتتنا بمدنية اليونان الى حد جعله يربي ابنه (مستنبعل) تربية يونانية •

وكان ماسنيسا حقيقة من الزعماء العظام الذين تركوا صفحة خالدة في سجل التاريخ والذين يحق لتونس ان تفتخر بهم وتمجد اعمالهم • فهو قد عجن شعبه بيديه القويتين وحاول ان يجعل من القبائل الليبية دولة موحدة ومستقلة •ويمكن ان نقول بان المغرب لم يكن في حياته ادنى واقرب منه في عهد ماسنيسا لتحقيق امنيته الغالية ، وهي تكوين امة موحدة لها كامل حريتها في التصرف في شؤونها ، وفي انماء مدنيتها المستقلة ، اللهم اذا كان ذلك في ايام عز الصنهاجيين ونصرهم واوج ازدهارهم •

وحتى اذا لم يصل هذا الزعيم النوميدي الى هدفه بعد ما كاد يلمسه بيده ، وذلك لان سياسة رومة الاستعمارية حالت دونه ودون مرامه ، فعلى الاقل ابرزت محاولته للعيان واظهرت للتاريخ ما كان يمتاز به ذلك العاهل من خصال خارقة للعادة •

وقد اثبت استرابن ان ماسنيسا مدن النوميديين وحبب اليهم خدمة الارض والفلاحة ، وهذا يقيم الدليل على حسن سياسته وتدبيره اذ كان هذا الاقليد يريد ان يكون عاهلا باتم معنى الكلمة له اهداف قومية وسياسية ترمي الى تكوين شعب موحد ،ودولة مستقلة ، وهيكل

اقتصادى عظيم ، لا ان يكون مجرد رئيس لعدد من القبائل لا توجد بينها لحمة قوية ورابطة متينة ٠

لكن ليتسنى له ان يحافظ على اخلاص حلفائه ، وان يخفف من حدة خصومه ، وان يجهز جيوشه بالعتاد اللازم ، وان ينشىء اسطولا بحريا محترما ، وان يخلق دولة نوميدية اما بالوسائل الديبلوماسية السلمية او بالحرب والسلاح ، حتى تكون هذه الدولة قابلة لان تعيش وتزدهر وتلعب دورها فوق رقعة البحر المتوسط ٠ ٠ ٠ ليتسنى له كل ذلك ، وغير ذلك ، لابد له من ميزانية تمونها موارد قارة ومنظمة وهذا امر ممكن بالنسبة لاهل القرار واهل الحضر المستقرين فى اراضيهم ومنازلهم فهم احسن المواطنين فى دفع الضرائب ، بخلاف اهل البدو المتنقلين ، فهم ابغض الرعايا من الناحية الجبائية ٠

والشىء المهم هو محاولة احياء البدوى المعتبر كمادة جبائية ميتة ، وذلك بتحويله وجعله من اهل القرار ٠ وليس ذلك لعمرى بالامر الهين السهل ٠ واذا راينا ماسنيسا يقدم على مثل ذلك العمل الجبار وينجح فيه بعض النجاح ، فما ذلك الا لما كان يتمتع به من الحظوة والنفوذ ، وما كان يمتاز به من عزيمة فولاذية لا تنثنى ٠

فقبل ماسينسا ، وقد قلنا ذلك فى مكانه لما تحدثنا عن الليبيين ، كانوا لا يهتمون كثيرا بالفلاحة وها نحن نذكر لكم الآن ما قاله بوليبس فى هذا الموضوع :

« قبل ماسنيسا كانت نوميدية كلها لا تجدى نفعا ولا تاتى بفائدة وكانت تعتبر غير قادرة بطبيعتها على اعطاء شىء من المنتجات الفلاحية فكان ماسنيسا اول واحد ، بل كان الرجل الوحيد الذى اظهر ان نوميدية قادرة على اعطاء جميع تلك المنتجات مثلما تعطيه اية جهة اخرى ، وذلك لانه احيا مسافات شاسعة وتعهدها بالحرث والزراعة » ٠

وهذه ابلغ شهادة تدل ، خصوصا اذا اضفناها الى ما قاله استرابن، على ان ماسنيسا كان العامل الحقيقى والمتسبب الاصلى فى تطور اقتصاد المغرب الاوسط وفى نموه وازدهاره ٠

وكان من اللازم طبعا اقرار رجال القبائل وذلك بمنحهم ملكية الاراضى ، وبحمايتهم من غارات اهل البدو ٠ وقد كان ماسنيسا

يشجعهم على احياء الاراضى ، وعلى عزقها وعلى زراعة القمح والشعير والحبوب مثل البونيقيين ، فهيأ بذلك عن غير قصد ، ازدهار افريقية الرومانية (مطمورة رومة)

ومن المحتمل ان ماسنيسا جعل من الاراضى التى افتكها للبونيقيين ضيعات فسيحة خاصة به ،فكان يستغلها بنفسه حتى يكون قدوة ومثالا حيا لغيره ، ويقول ديودورس الصقلى بانه كان ماهرا فى خدمة الارض واعمال الفلاحة الى حد انه ترك لكل واحد من ابنائه ارضا تبلغ مساحتها الف هكتار تقريبا ، واننا نفهم اهمية ذلك اذا علمنا ان عدد ابنائه كان اربعة واربعين ولدا .

وكما انه اعان النومديين على الاستقرار ، فهو قد ساعدهم ايضا على انشاء قرى محصنة ، ودربهم على حياة الانس وحسن المعاشرة واهتم بمسالة الاسكان . لكن هذه الحياة الحضرية المستقرة زادت فى تعكر الحالة بين اهل القرار واهل البدو ، وفى تكاثر الغزوات وتعدد الهجومات ، على الاخص من طوف قبائل جدالة القاطنين بالسباسب والهضبات الجنوبية ، فكان ماسنيسا مضطرا الى توطيد الامن ودفع هذه الغارات بكل قوته حتى لا ينهار البناء الاقتصادى الذى شيده والذى اخذت تهدده القبائل الدوارة والمتنقلة

ومن حسنات ماسنيسا تركيب الجهاز الابجدى البونيقى على الرموز الصوتية القديمة التى كانت مستعملة عند الليبيين فاوجد بذلك الخط الليبى الجديد ، واول كتابة منقوشة على الحجر يرجع عهدها حسب تاريخها الى احدى عشرة سنة بعد موته .

ومن الناحية الدينية نرى ماسينسا يحول اعتقاد رعاياه وبدون ان يصادم او يعاكس ذلك الاعتقاد ، يعطيه شكلا اسمى وارقى واقرب للمدنية ، فيحمل النوميديين على عبادة آلهة اليونان مثل سيريس (Cérès) وديماتر (Démèter) وقورية (Korè) ، اذ ان كل مدنية تعبر عن طموحها واوامانيها تعبيرا دينيا ملائما ، والذى يلائم القرويين هو تقديس آلهة الزراعة والفلاحة

وبالجملة فان الاقليد ماسنيسا اراد ان يظهر فى مظهر ملك عظيم او ربما فى صورة اله . فقد بدا يظهر تقديس الملوك المتالهين من مدته .

وبعد موته بعشر سنين اقيم له معبد بدوقة . وكان المذهب الذى يدين به ماسنيسا ، وينادى ويصرح به علانية للاجانب سواء كانوا

من الفنيقيين او من الرومانيين هو « **ان افريقية لا يمكن ان تكون الا للافريقيين وينبغى ان تبقى للافريقيين** »

وكان هذا المذهب يروق كثيرا للنوميديين لما جبلوا عليه من كره وبغض للاجانب • وكان من اللازم ، لاخراجه الى حيز الوجود ، ان يستولى ماسنيسا على الاراضى البونيقية وعلى الاخص مدينة قرطاج عاصمة الديار الليبية • ولو تم لهذلك لكان خاتمة اعماله ومشرف (١) البناء الشامخ الذى شيده قطعة قطعة ، ولمهد السبيل الى اخضاع المريطانيين وادخال افريقية الشمالية بتمامها وكمالها فى طريق الوحدة القومية •

وان هذا الاقليد المقتدر الذى رايناه يركب العوصاء وينجح فى عمل من اصعب الاعمال الا وهو اقرار اهل البدو من الليبيين ، لهو جدير بان ياتى بالعجائب والمعجزات ، لولا معاكسة حكومة رومة وعرقلتها لاعماله حتى لا تتكون هذه الدولة الليبية العملاقة فتصبح خطرا يهدد راحتها •

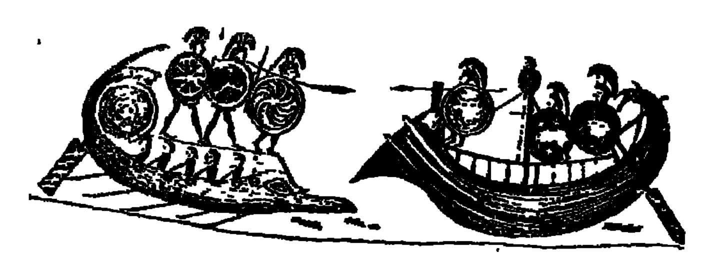
وحتى فى الحدودالتى استقر فيها ولم يتعداها ، فهو قد خلق قوة باعثة ومحركة لم تنته ولم تقف بعده بل تعادى مفعولها ، واستمرت تساعد على التقدم والنمو والازدهار حتى فىالقرن الثانى والى منتصف القرن الاول قبل الميلاد •

ولما مات ماسنيسا سنة ١٤٨ مثقلا بالسنين وبالاعمال الجليلة ، لميجد المغرب اقليدا يتمتع بمثل خصاله الخارقة للعادة • فهو كما قال ستيفان قسال « اكبر ملك بين كبار الملوك كيوسف بن تاشفين المرابطى ، وعبد المؤمن الموحدى ، والشريف المغربى مولاى اسماعيل الذين كانوا يشبهونه من وجوه اخرى عديدة • »



(١) مشرف البناء هو اعلى مكان فى البناء يشرف منه • ومشارف الارض معاليها

الحـــروب



نرى بهذه الصورة سفينتين كل واحدةذات صفة من المجاذيف فقط ويظهر الجداقون تحت الجسر •والسفينةاليساريةمقدمها مجهز بشوكة (éperon) وله شكل سمكة الزجر(esturgeon)، ونرى في مؤخرتها تزما كبيرا يحجب الربان• اما السفينة الاخرى فهي فنيقية ذات صار ، وتظهر على التروس علامات ورموز (راس ثور - سرطان - الخ •••)ونرى المحاربين مدججين بالسلاح •

قد اشرنا فيما تقدم الى شيء كثير مما يتعلق بحروب ومعارك قرطاج اثناء الحديث عن الاقتصاد والسياسة وغير ذلك • ولم يبق الآن الا ان نبين تسلسل هذه الحوادث حسب ترتيبها التاريخي لتكون واضحة كل الوضوح وليتسنى الرجوع اليها بسهولة •
والجدير بالذكر هو ان هذه الحروب نشأت :

اولا : عن التصادم بين القوتين البونيقية واليونانية ، وتسمى هذه الحروب (بحروب صقلية (١) (les guerres de Sicile)ودامت من سنة ٥٨٠ الى سنة ٢٦٤

ثانيا : عن التصادم بين القوتين البونيقية والرومانية ، وتسمى هذه الحروب (بالحروب البونيقية(les guerres puniques)ودامت من سنة ٢٦٤ الى سنة ١٤٦ .

---

(١) صقلية : جزيرة لها شكل مثلث تكاد تتساوى اضلاعه ، اطلق عليها الاقدمون من اجل ذلك اسم « اترينا كريا » (Trinakria) اى « الرؤوس الثلاثة » ويفصلها بحرا عن قلورية (بايطاليا) مضيق مسينة وهو لا يكاد يتجاوز ٣ كم • ويفصلها عن البلاد التونسية معبر صقلية وعرضه ١٢٠ كم • ويسمح هذا المثلث الصقلي ٢٥،٤٦١ كيلومترا مربعا • وهذه الجزيرة تقيم الدليل باتجاه جبالها على ان افريقية واوروبة كانتا رتقا اى متصلتين قبل عهد التاريخ •

اولا : حروب صقلية او الكفاح بين قرطاج والاغريق

ان الفنيقيين كانوا اسسوا على السواحل الشمالية والغربية من جزيرة صقلية مراكز او مصارف تجارية فى النصف الثانى من القرن التاسع قبل انشاء قرطاج . ومن هذه المراكز :

بانورم (بالرمة)	Panorme (Palerme)
معطية	Motyé
سلـديس	Solonte (Soloïs)

وكانت هذه المراكز كلها قريبة من حلفائهم الليميين (les Elymes) القاطنين بسيجستة (Segeste) واريكس (Eryx) وكانت متجمعة فى جهة من الجزيرة هى اقرب الجهات الى مدينـة قرطـاج (انظروا الخريطة)

ثم ان الاغريق اسسوا بدورهم مراكز اخرى ابتداء مـن نصف القرن الثامن . ومن هذه المراكز

على الساحل الشرقى	نكسـوس	Naxos	(734)
	سرقوسـة	Syracuse	(733)
	مسينـة	Messine	(730)
	قطانيـة	Catane	(729)
على الساحل الشمالى	هيمار او حمير	Himère (Himera)	(668)
على الساحل الجنوبى	غيليـه	Géla	(668)
	سالنطـة	Sélimonte	(627)
	قمـرين	Camarine	(598)
	جرجنتى	Agrigente	(580)

٥٨٠ ـ الهجوم البونيقى الاول تحت قيادة مالى أو مقليس

والسبب فى ذلك هو ان الاغريق حاولوا تاسيس مدينة جديدة فى منطقة نفوذ القرطاجيين ، يهددون بها حلفاءهـم الليمييـن . فجهزت قرطاج اسطولا يحمل جندا عتيدا على راسه القائد مالى .

فنجح فى مهمته ، وتغلب على الاغريق ، وقتل رئيسهم بنثالوس (Penthalos) ومنعه من الانتصاب بتلك الجهة الاستراتيجية بالنسبة اليهم (وهذا القائد مالى هو الذى انهزم بعد ذلك فى سردينية ، ثم قلب نظام الحكم بقرطاج كما ذكرناه لما تحدثنا عن الدستور البونيقى)

٥١٠ ـ اعاد داريوس (Dorieus) نفس تلك المحاولة ، واراد ان ينتصب ايضا فى منطقة نفوذ البونيقيين وحلفائهم الليميين ولكنها كانت كذلك محاولة فاشلة مثل محاولته من قبل فى الإنتصاب بساحل السرت الكبير بطرابلس • وقتل داريوس شر قتلة سنة ٥١٠

٤٨٠ ـ الهجوم البونيقى الثانى تحت قيادة الملك عملقرط

كارثة هيمار

كان الاغريق فى ما مضى لا يشتغلون فى مستعمراتهم بصقلية الا بالزراعة والفلاحة ، ولذلك كان البونيقيون لا يخشون جانبهم ولا يقيمون لهم وزنا • ثم ان تلك المستعمرات الاغريقية اصبحت مراكز تجارية هامة تهدد القرطاجيين ، وتعوق توسعهم ، وتضايق نشاطهم التجارى • وبذلك اصبح التصادم بين المتزاحمين امرا حتميا لا مفر منه •

وكانت مدينة هيمار (او حمير) من صف القرطاجيين ، وكان طاغيتها ترلوس من حلفائهم • فعمد الاغريق الى خلعه والاستيلاء على تلك المدينة • فكان ذلك التعدى حجة وسببا لنشوب الحرب مرة اخرى بين القرطاجيين والاغريق ، فجهزت قرطاج حملتها الثانية تحت امرة الملك عملقرط الماقونى ، وسيرته نحو صقلية • فتصادم تحت جدران هيمار مع الاغريق سنة ٤٨٠ • فكان نصيب هذه

الحملة الخذلان والفشل الذريع ، وانتصر الطاغية (جيلون) (١) على الملك عملقرط انتصارا مبينا • فانتحر عملقرط والقى بنفسه فى النيران • (سنة ٤٨٠) (٢)

٤٠٩ ـ الهجوم البونيقى الثالث تحت قيادة حنبعل : الانتصارات

كان الاغريق بسالنطة ، وكان الليميون حلفاء قرطاج بسيجستة • فاراد الاغريق التعدى على الليميين والهجوم عليهم فاستنجد هؤلاء الليميون او السيجستيون بحماتهم فخف القرطاجيون الى نجدتهم ، وجهزوا جيشا يتالف من ١٠٠٠٠٠ مقاتل تحت قيادة الملك حنبعل الماقونى حفيد عملقرط الذى مر ذكره •

٤٠٩ ـ • انتصر حنبعل بسالنطة (جوان ٤٠٩) بعد حصار دام ثمانية ايام

• ثم احتل هيمار ودمرها تدميرا ، وذبح ٣٠٠٠ من الاسراء فى المكان الذى انتحر فيه جده عملقرط سنة ٤٨٠ •

• ثم رجع حنبعل ظافرا منصورا الى قرطاج

٤٠٦ ـ • فتجاسر بعد ذلك احد السرقوسيين يدعى (هرمقراط) وذهب فى شرذمة من الرجال الى مدينة سالنطة ، ونزل بها واقام اسوارها ، فاعتبرت حكومة قرطاج هذا الصنيع تحديا ، وارجعت حنبعل الى صقلية مع القائد خيملكن بن حنون على راس جيش آخر • فحاصرا مدينة جرجنتى ، ودام الحصار مدة ثمانية اشهر مات اثناءها حنبعل • واستسلمت المدينة بعد ذلك فى شهر ديسمبر ٤٠٦ فخربها خيملكن بعد نهب طويل وتعذيب وتقتيل •

---

(١) هذا الطاغية (جيلون) هو الذى كان اهتم كل الاهتمام بالوسائل الدفاعية لحصن مدينة سرقوسة ، اذ ادرك اهميتها من الناحية الاستراتيجية ، وقد كانت من قبل قرية صغيرة لا شان لها مبنية فوق جزيرة ارطاغة (Ile d'Ortygie)، فجعلها قلعة منيعة ، وشيد امامها مدينة جديدة فوق جزيرة صقلية وحصنها بالاسوار • وعندما تمت هذه الاعمال اصبحت سرقوسة اكبر عاصمة بصقلية ، وحصنا منيعا من اقوى حصون العالم الهلينى • (انظروا الخريطة)

(٢) وفى نفس ذلك اليوم انتصر الاغريق فى بلادهم على الفرس حلفاء البونيقيين فى واقعة سلامين (سنة ٤٨٠) ثم انتصر الاغريق على الاتروريين حلفاء البونيقيين ايضا فى معركة قومة بايطالية (سنة ٤٧٤)

ثم اخذ وخرب : غيلية ، وقمرين ، واصبحت جميع المدن الاغريقية جنوب صقلية اكداس خراب ينعق فيها البوم والغراب ...

٤٠٥ ـ • وانتهت هذه الحروب بانعقاد الصلح بين القرطاجيين وبين الطاغية دونيس (Denys) ملك سرقوسة نال بواسطته كل من الفريقين الاستقلال بالحكم فى نصف من الجزيرة • وشيد القرطاجيون مدينة جديدة قرب هيمار المهدمة وسموها (ثرمينى)

من ٣٩٨ الى ٣٦٧ ـ هجومات وانتصارات الطاغية دونيس :

الانكسارات

٣٩٨ ـ • ما كان الصلح من دونيس الا خدعة وكسبا للوقت • فما كانت تنقضى مدته المعينة حتى نكث العهود وشنها على القرطاجيين حربا شعواء ، فاستولى على :

غيلية وقمرين وجرجنتى وثرمينى وايريكس ... ثم اخذ فى النهاية معطية وهدمها تهديما •

٣٩٧ ـ • نزل خيملكن بجيشه فى بالرمة ، فانهزم الطاغية دونيس امامه ، واقفل على نفسه ابواب سرقوسة •

• فشيد خيملكن مدينة جديدة جنوب انقاض معطية وسماها (ليلبة) Lilybée وتسمى اليوم مرصالا او مرسى على

٣٩٦ ـ • واستولى على مسينة وهدمها وتركها خرابا

• ثم استمر فى سيره الى ان وقف بجيشه تحت اسوار سرقوسة

• وكان معبد الاله (ديميتر) خارج الاسوار فاعتدى عليه خيملكن ونهبه • فرات قرطاج فى هذا التدنيس لمعبد مقدس اصل مصائبها وشقائها •

٣٩٥ ـ • وانتشر الوباء فى معسكر خيملكن ، وتضعضعت احواله • فراى دونيس الفرصة سانحة للخروج والهجوم ، فارتبك خيملكن ، وطاش صوابه ، وفر هاربا تاركا رجاله لانتقام اعدائهم ، وفى النهاية انتحر •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٣٦٧ ـ • واستمرت الحروب بين قرطاج والاغريق كامل تلك المدة اى الى أن مات دونيس بسرقوسة سنة ٣٦٧ ، وكان غالب ما امتلكته قرطاج فى الجزيرة تحت نفوذ الاغريق ولم يبق تحت نفوذها سوى الجزء الكائن بين وادى حميرة شمالا ووادى حاليقوس جنوبا •

٣٤٥/٣٤٠ ـ • وبعد موت دونيس انتهزت قرطاج فرصة الخصومات القائمة حول الخلافة فى الملك ، لاسترجاع جرجنتى وغيلية لكن تدخل تيمولون الكورنتسى اجبر القرطاجيين الى الرجوع الى حدودهم الاولى وراء وادى حاليقوس (٣٤٥/٣٤٠) وذلك اثر انتصاره عليهم فى معركة وادى القريمزة (Crimisa) ، تلك المعركة المشهورة التى اظهر فيها الفوج المقدس بسالة نادرة ، فقاوم شبان هذه الفرقة مقاومة الابطال الى ان سقطوا عن آخرهم فى ميدان الشرف

٣١٠ ـ اغاثوقليس ينقل الحرب الى افريقية (١٤ اوت ٣١٠)

(١٤ اوت ٣١٠/١٢ اكتوبر ٣٠٧) ولد اغاثوقليس بمدينة ثرمينى اى هيمار سابقا ، بمنطقة نفوذ قرطاج وذلك سنة ٣٦٠ ، وصار سيد سرقوسة باعانة القائد البونيقى عملقرط (٣١٨) • فتقوى اغاثوقليس بفرط ذكائه وشدة دهائه ، وانقلب ضد القرطاجيين وشرع يغزو اراضيهم بصقلية ، واشهرها حربا معلنة عليهم ، واخذ يهددمدينةجرجنتى،فخفت قرطاجلنجدتها وجهزت اسطولا وسيرته الى صقلية ، فنزل الجيش بهضبة (اقنومة) بمصب وادى حميرة (١) بين مدينتى جرجنتى وغيلية ، واستمرت ٥٠ سفينة حربية فى طريقها الى ان ارست قرب سرقوسة • ثم ارسلت قرطاج جيشا كبيرا آخر فى ١٣٠ سفينة تحت قيادة عملقرط بن جيسكن • فنزل بجيشه بهضبة اقنومة ايضا • واتى اغاثوقليس وجعل معسكره تجاههم على الضفة الاخرى من وادى حميرة • لكن قدوم قوات جديدة من قرطاج ونزولها وراء جنود الاغريق تسبب فى انهزامهم، ورجع اغاثوقليس الى سرقوسة ليتحصن بها ، وليستعد الى مجابهة حصار داهم • وكان كما ذكرنا اسطول القرطاجيين قرب المدينة •

وهنا جد حادث فجائى خطير يعتبره المؤرخون والمتخصصون فى

(١) وادى حيمرة : الوادى المقصود هنا هو الذى يسيل بالجنوب ، وهناك ايضا وادى حيمرة بالجهة الشمالية وكانت توجد بمصب ذلك الوادى مدينة هيمار او مدينة حمير التى هدمها حنبعل سنة ٤٨٠

فن الحرب عملا جريئا وفى منتهى الجسارة : **اذ نقل اغاثوقليس ميدان الحرب الى افريقية** وكان اول من فتح هذه الطريق التى سيسلكها من بعده روغلوس ، ثم شبيون الافريقى ، ثم شبيون الايميلى ٠

واغتنم اغاثوقليس غفلة من اسطول الاعداء المرابط امام ابواب سرقوسة ، فانسل خفية ، وابحر فى ١٤٠٠٠ من المقاتلين ، ملأ بهم ستين سفينة واخذ معه ابنيه ارخاغاثوس وهيراقليد وكان ذلك فى ١٤ اوت ٣١٠ ، وارسى بالوطن القبلى (جزيرة ابى شريك) بجهة مقالع الحجر بالهوارية ، وهناك احرق سفنه حتى لا يترك لرجاله اى امل فى الفرار ، فاما ان ينتصروا او يهلكوا عن آخرهم (مثلما قال طارق بن زياد لاصحابه لما نزلوا بالاندلس : العدو امامنا ، والبحر خلفنا ، ولم يبق الا الانتصار او الموت !)

ثم هجم اغاثوقليس برجاله على مدينة ميغاليوبوليس (ولعلها مقصولة **اى رادس** (Maxula واخذوها عنوة ، وبعد النهب والتهديم استمروا فى طريقهم يخربون ويحرقون كل شيء يعترضهم فى طريقهم من مدن واملاك وضيعات ، وقد راوا فى بلادنا الخصبة عنبا وحبا وحدائق غلبا ، فاندهشوا مما شاهدوه من جنات وخيرات وانعام راتعات ٠٠٠

ولما وصلت اخبار هذا النزول الى القرطاجيين اشتد بهم الفزع والخوف ، وهاجوا وماجوا ، واضطربت احوالهم ، وجمعوا فى الحين من سكان المدينة نفسها اربعين الفا من المشاة ، والفا من الفرسان ، والفين من عربات الهجوم ، وخرجوا امام ابواب قرطاج حيث التقى الجمعان ٠ فدارت بينهما معركة عنيفة كان النصر فيها حليف الصقليين ، وانهزم القرطاجيون وانقلبوا على اعقابهم مدبرين ، وتحصنوا بالمدينة ؛ وقد اوجمتهم هذه الكارثة واعتقدوا انها نتيجة سخط الآلهة ، وبادروا بالتضحية بخمسمائة من صفوة اطفالهم وفلذات اكبادهم القوا بهم فى النيران استرضاء للاصنام حتى يسكن غضبها ٠

اما اغاثوقليس فانه اقام معسكره فوق روابى البلفدير وترك فيه حامية ، ثم تمادى فى اكتساح البلاد ، واستولى على نابل ، وسوسة وراس الديماس ، وكثير من المدن بتلك الجهة ٠

وانتهز القرطاجيون فرصة غيابه ، فتسلطوا على معسكره واقتفوا اثر رجاله الذين فروا هاربين الى تونس وحاصروهم هناك ٠٠٠

٣٠٩ ـ • وفي تلك المدة استمر عملقرط يحاصر سرقوسة بصقلية ، وفي احدى الليالي من صائفة ٣٠٩ وقع في قبضة الاعداء ، فقتلوه ، وقطعوا راسه ، وارسلوه الى اغاثوقليس • فامتطى هذا الاخير فرسا ، ووقف امام معسكر الاعداء يرفع راس ملكهم شعار الغلبة والانتصار • فاغتم القرطاجيون لذلك غما شديدا ، وانكبوا على وجوههم ساجدين حسب العادة المالوفة عندهم ، لكنهم تجلدوا وتدرعوا بالصبر ولم يظهروا ضعفا ولا وهنا •

اما اغاثوقليس فقد طال عليه الامر ، ونفد زاده ، وذهب ماله، وساء تاحواله ، وقلت رجاله ، وبدات تظهر فيهم علامات التمرد والعصيان • ففكر في وسيلة تمكنه من جلب المدد وزيادة الجنود •

وكان اوفيلاس القريناوي (Ophelas) واصله من مقدونية ، وهو احد رفقاء الاسكندر الاكبر ، ثم صار عضدا للملك مصر بطليموس فغزا القرينية(la Cyrénaïque) سنة ٣٢٣ وصار عاملا برقة •• كان اوفيلاس هذا صاحب السيادة على المستعمرات الاغريقية بتلك الناحية يتصرف في قوات عظيمة • فاوفد اليه اغاثوقليس رسولا يطلب منه التعاون معه في محاربة القرطاجيين ويكون نصيبه من ذلك الاستحواذ على مملكة ليبيا لانه في غنى عنها ولا يريدها لنفسه •••

ففرح اوفيلاس بهذه المقدمات والاقتراحات الاولية التي وافقت اطماعه ، وناسبت احلامه ، فشرع في جمع الرجال وحشد الجنود واعداد العدة بكل حزم ونشاط ، وهو لا يعلم ما خباته له الاقدار• ولما انتهى من استعداداته ارتحل (١) على راس جيش كبير يتالف من ١٠،٠٠٠ من المشاة و٦٠٠ من الفرسان و ١٠٠ من عربات الهجوم و ١٠،٠٠٠ من الرجال والنساء والاطفال يحملون الاثقال فكانوا شبه قافلة او جالية تسير • وبعد مشاق كثيرة ، واتعاب كبيرة دامت اياما طوالا ، اقام اوفيلاس معسكره على مقربة من معسكر الصقليين

ورحب اغاثوقليس بقدوم صديقه الملك اوفيلاس وبالغ في خدمته وغمره باحسانه ، ووفر له كل اسباب الراحة ووسائل المتعة ••• غير ان ذلك كان منه مكرا وخداعا اذ انه كان في حاجة الى طاقة

---

(١) جمع اوفيلاس وثائق واخبارا عن بلاد الليبيين ووضع رحلة وصف فيها سواحل ليبيا •

بشرية اى الى جنود ورجال لا الى قائد او ملك يضايقه في اعماله وفي تنفيذ برامجه فترقب فرصة وجوده منعزلا عن رجاله فهجم عليه وقتله غدرا • واصبح بذلك على راس جيش كبير استعمله فـي غزوات جديدة ، فاستولى به على اوتيكة ثم بنزرت حيثقام باشغال على غاية من الاهمية ، بانشاء حصون وقلاع ، وموانى ، ودار صناعة للسفن ، وكذلك اعتنى بتاسيس مدينة جديدة على البحر بالوطن القبلى سماها اسبيس (Aspis) ، وهذه الكلمة يونانية ومعناها بالعربية (الترس) الذى يقال له باللاطينية (Clypeus) (قليبس ومنها جاءت كلمة (قليبية (Clypea) وهي اسم هـذه المدينة الآن واقام اغاتوقليس فيها ايضا دار صناعة •

وانه بانشاء وتجهيز مرسى ببنزرت من جهة ومرسى بقليبية من جهة اخرى على المعبر الغاصل بين صقلية وافريقية ، ضمن لنفسـه مواصلات سهلة مع الجزيرة •

وبما ان حصار سرقوسة ما زال مستمرا ، فقد قرر اغاثوقليس العزم على السفر الى صقلية ، خصوصا وقد اطمان كل الاطمئنان على الحالة بافريقية وصار لا يخشى باسا من تلك الناحية • فسلـم القيادة الى ابنه ارخاغاتوس وركب فى الفين من رجاله •

اما ارخاغاتوس فقد كلف احـد اعضـاده وهـو القائد ماخـوس (Eumachos) بغزو جهات اخرى من افريقية • فقام بمهمته خير قيام واستولى على : دوقة • Tocai

وعلى مدينة الفلين (Phelliné) ولعلها عين الدراهم وعلى ماكنة قرب طبرقة (Meschela) وهي مدينة اسسها الاغريق لما عادوا مـن طروادة وعلى عنابة او بونة (Acra Hippou)

لكن القرطاجيين كانوا يتتبعون حركات أعدائهـم بكامـل اليقظة والانتباه • فانتهزوا فرصة غياب اغاثوقليس ووجـود الصقليين كاغنام بدون راع ، فجهزوا جيشا كبيرا ، وهجموا عليهم من كـل جانب ، وفتكوا بهم فتكا ذريعا ، وفرقوا صفوفهم ، وابادوا جنودهم وقتلوا قائدهم ماخوس • اما ارخاغاتوس فقد نجا بنفسه وهو يعتثر فى اذيال الخيبة والانكسار وارسل الى ابيه بصقلية يخبره بما حـل بهم من الويل والثبور •

اما اغاثوقليس فهو لم يكد يصل الى الجزيرة ويشرع فى انتصاراته

على اعدائه حتى اتته الانباء المزعجة ، فنزلت عليه نزول الصاعقة وارغمته على الرجوع حالا الى تونس •

٣٠٧ ــ وهناك جمع فلول الجيش وهجم بهم على الاعداء ، لكن الدهر قلب له ظهر المجن ، فانتصر عليه القرطاجيون ، وانهزم مقهورا ، والذى زاد الطين بلة اشتعال النار فى معسكره ليلا ، ففر هاربا ، وقرر العزم على العودة الى صقلية والرحيل وحده خفية وهكذا نجا بنفسه تاركا ابنيه للتعذيب والتنكيل والقتل • وكان ذلك فى ١٢ اكتوبر ٣٠٧

وقد انتهت هذه الحملة التى قام بها اغاثوقليس ضد افريقية فى عقر دارها ••• قد انتهت بالخيبة والانكسار ، ولكننا لو فكرنا قليلا لفهمنا ان هذا القائد العظيم قد ادرك هدفه ونجح فى خطته لان هذا البطل السرقوسى لم يات افريقية فاتحا ، ولم يركب البحر غازيا ، بل ركب البحر ليلعب ورقته الاخيرة وينجو من خطر محقق بصقلية ، فنجح فى ذلك ونجا من ذلك الخطر ، وكان يريد ان يحمل اعداءه على التفاوض معه فى عقد الصلح ولكنهم صمدوا فى وجهه ولم يظهروا خوفا ولا ضعفا، وقاوموا مقاومة ايجابية بالحرب والسلاح وكان فى عزمه بانشاء ميناء بنزرت وميناء قليبية ودار صناعةبكلتا المدينتين ، ان يكون اسطولا قويا ، وان يعزل قرطاج ويقطع عليها كل المواصلات من جهة البحر ليحملها على الرضوخ والاستسلام • ولكن لم يسعه الوقت ، ولم يساعده الدهر على ذلك •

وقد اشتهر اغاثوقليس بجسارة المقامر الذى يوشك ان يخسر كل شىء ، فيضاعف راس المال ، ويقاوم مقاومة اليائس،ولكن رغما عن ارادته الفولاذية ، وعن رغبته فى سوق عربة الدولة نحو المجد والنصر ، فان العنان كان نخرا ، والسوط محطما ، والفرس جثة هامدة لا حراك فيها •

وعلى كل فان حملة اغاثوقليس ، التى نالت شهرة كبيرة فى التاريخ ، قد اقامت الدليل بكيفية محسوسة على ان نقل ميدان الحرب الى ارض افريقية من شانه احداث مشاكل خطيرة لحكومة قرطاج بدون ان يهدد كيانها تهديدا جديا اذا لم يكن معززا باسطول بحرى اقوى من اسطولها •

٣٠٦ ــ ولما عاد اغاثوقليس الى صقلية بادر بابرام صلح مع

القرطاجيين (سنة ٣٠٦) على ان يرجع اليه ما افتكه منهم من المدن مثل ثرميني ، وسالنطة ، وسيجستة ... وان يدفعوا له مقابل ذلك مبلغا من المال و ٢٠٠،٠٠٠ مدا من القمح (اى ١٠٥،٠٠٠ هكتوليتر)

ولم يحارب اغاثوقليس القرطاجيين بعد الى ان مات بخلال مسموم سنة ٢٨٩ وعمره ٧٢ عاما

٢٧٨ : انتصارات الملك بيروس على القرطاجيين

بعد موت اغاثوقليس رجعت الخصومات والقلاقل من جديد في صفوف الاغريقيين بصقلية ، واستثمر القرطاجيون ذلك ، وزادوا في اشعال نار الفتن .

وفي سنة ٢٧٨ سيروا ١٠٠ سفينة وجيشا قويا امام سرقوسة لكن الاغريقيين ، امام هذا الخطر الداهم استنجدوا بالملك بيروس Pyrrhus (١) الذى كان مقيما في ذلك الوقت بايطالية ، وكانت له نفس الشهرة التى كان يتمتع بها الاسكندر الاكبر . فقدم بنفسه الى سرقوسة صحبة افياله (٢٧٨) ، ولم يتجاسر القرطاجيون على اعلان الحرب في وجهه ، وارتحلوا عن المدينة خائبين ، واخذوا يفكرون في طريقة تمكنهم من استخدام الافيال في الحرب مثلما كان يستخدمها بيروس

٢٧٧ ـ وفي سنة ٢٧٧ اخذ بيروس في افتكاك المدن الواحدة تلو الاخرى ، وكانت تستسلم او تاخذ عنوة . واصبحت قرطاج تسعى في الصلح ، وتعرض على بيروس الانسحاب من الجزيرة

---

(١) بيروس Pyrrhus : هو ملك ايبير Epirus في الشمال الغربي من بلاد الاغريق . وكانت تارنتة (Tarentum) بجنوبي ايطالية لم تخضع للرومان بعد واستعانت عليهم بالاغريق ، فخف بيروس لنصرتها ، واتى معه باعظم تجديد في فن الحرب وهو الفيل الذى ادخل الرعب في نفوس الرومان فصارعهم بها صراعا عنيفا ، وانتصر عليهم انتصارات كثيرة ... ولكن هذا النضال الطويل انتهى في آخر الامر باخفاق بيروس وسيادة رومة على ايطالية باسرها .

ومن ذلك الوقت اشتد ساعد رومة ، وامتدت امامها آفاق الطموح ، وبدات تفكر في سيادة الدنيا كلها ... وكانت الغاية التى يسعى اليها بيروس تهديم الفيديرالية الايطالية التى كانت رومة على راستها . وسيتبعه في هذه السياسة اكبر المعجبين به وهو خنبعل ، مثلما سيتبع اغاثوقليس اكبر المعجبين به ايضا وهو شبيون الافريقي ...

ما عدى (ليلبة) التى ما زالت تحت نفوذها ، واعطاه مالا وسفنا ... وكان بيروس مستعدا للموافقة ولقبول تلك الشروط ، لكن مستشاريه كانوا يحرضونه على المطالبة بمدينة ليلبة ايضا ... وهكذا لم تنجح المفاوضات وحاصر بيروس تلك المدينة المنيعة غير انه لم يظفر بطائل ، ورجع الى سرقوسة ، واخذ يفكر فى كيفية نقل ميدان الحرب الى افريقية مثلما فعله اغاثوقليس من قبله لكن حوادث اخرى جدت بايطالية اجبرته على تاجيل برنامجه والتوجه الى بلاد الرومانيين (سنة ٢٧٦)

٢٦٤ : مشكل مضيق مسينة : الانقلاب السياسى

بعد ما بارح بيروس جزيرة صقلية، اخذ القرطاجيون فى استرجاع مدنهم واحدة واحدة .

وفى ذلك الوقت نشبت عداوة كبيرة بين (مسينة) و(سرقوسة) واشتدت الخلافات واشتعلت نيران الحرب بين المدينتين .

... ونلاحظ ان بيروس بدخوله صقلية املا فى بناء امبراطورية عظيمة قد ارتكب هفوة سياسية كبرى ، وذلك انه الب ضده رومة وقرطاج فى آن واحد فكان ذلك سببا فى خيبته واخفاقه ، وفى عودته الى بلاده ايبير بدون طائل .

ومن جهة اخرى فان الحملة التى قام بها بيروس بايطالية ضد رومة كانت لها نتائج على غاية من الخطورة ، وذلك لان رومة دخلت لاول مرة فى حرب ضد دولة اغريقية ، وهى بذلك سترى نفسها مدفوعة فى وسط دوران لوالب السياسة الدولية وقد فتح بيروس امامها طريق العالم الاغريقى ، ولذلك ما لبثت ان وجهته .

ولكن قرطاج كانت تخشى ان تصبح رومة ، بالنسبة اليها دولة مزاحمة خطيرة ، باستيلائها على المدن الاغريقية الموجودة بايطالية وصقلية .

ولذلك بعد ما كانت حليفة رومة حسب معاهدات رسمية ، نراها تقلب لها ظهر المجن وتتفق وتتحالف ضدها مع مدينة (لوفر) Locres الاغريقية بايطالية .

فلم تعبا رومة بذلك ، وقبلت الدخول فى الكفاح ، واستولت على لوفر ، ثم بعد قليل على تارنتة (سنة ٢٧٢) . وفى سنة ٢٦٥ كانت ايطالية كلها رومانية الى الحد الذى يكونه نهر بو .

ومدينة تارنتة التى ترقت الى رتبة حليفة رومة اصبحت من اهم قواعدها البحرية التى تنظر نحو الشرق .

ومن ذلك الوقت صارت الحرب امرا لا مناص منه بين الجمهورية الرومانية التى اصبحت باستيلائها على تارنتة ، دولة بحرية قوية وبين الجمهورية البونيقية التى اصبحت عازمة على الدفاع عن هيمنتها البحرية مهما كانت التكاليف .

وفى سنة ٢٦٤ انتصر هيارون (Hieron) قائد السرقوسيين على خصومه المسينيين انتصارا باهرا ، فاستنجد هؤلاء بالقرطاجيين وكانوا يترقبون مثل هذه الاشارة بفارغ الصبر • فدخل القرطاجيون مدينة مسينة وانتصبوا هناك واصبحوا كانهم فى ديارهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون !

وعجز اهل مسينة عن التخلص من هؤلاء الدخلاء وعن اخراجهم من مدينتهم بعد ما انشبوا فيها مخالبهم •

فاستنجدوا فى هذه المرة بالرومانين • واسروا اثناء ذلك قائدهم (حنون) ووعدوه باطلاق سراحه اذا التزم بمغادرة المدينة مع رجاله فرضى بذلك ، وبارح المدينة ، فحكمت عليه قرطاج بالاعدام صلبا لخيانته ،

٢٦٣ ـ وعزمت حكومة قرطاج على احتلال مسينة من جديد **ولو ادى ذلك الى حرب مع رومة** (وذلك سنة ٢٦٣)

وكان الاغريقيون بجزيرة صقلية على راى قرطاج واصبحوا من صفها ، واعلنوا انضمامهم اليها ، وحتى (هيارون) ملك سرقوسة فهو ايضا قد اعلن تحالفه مع القرطاجيين خوفا من الاستيلاء الرومانى وهو انقلاب سياسى خطير ، اذ ان الاغريقيين لما روا نفوذ رومة يقوى ويشتد، ولما راوا امرها يتفاقم ، دخلوا تحت حماية قرطاج ، وتعاقدوا معها على دحر كل طارق جديد •

ولكن رومة كانت بدورها ترى الامر قد استتب للقرطاجيين بكامل جزيرة صقلية، وانهم وصلوا امام ارضها وعلى مقربة من ديارها على معبر مسينة ، واصبحوا خطرا عليها فى الوقت الذى اشتد فيه ساعدها ، واخذت ترمى بانظارها وراء البحر وترى مثلما رات قرطاج من قبل ، ان امتلاك جزيرة صقلية امر لا بد منه لبلوغ امانيها فى التوسع والاستعمار •

وهكذا اصبح التصادم بين القوتين المتقابلتين ، وبين العملاقين العظيمين رومة وقرطاج ، امرا حتميا لا مفر منه • فنشات عن ذلك الحروب البونيقية •

قرطاج فى مقتبل فتوتها ، ورومة فى مستهل شبابها ، . وصقلية ـ مفتاح السيادة ـ لا تبعد عن الاولى اكثر من خمسين ميلا ، وعن ايطالية اكثر من ميلين ••• فالنضال بين هذين الشعبين قد اصبح قضاء لا مفر منه ولا حيلة فى رده ••

وكان بيروس على حق يوم قال لرفاقه وهو يبارح صقلية :
«ما اروعها من حلبة للصراع نتركها بين قرطاج وروما» (١)
الدكتور التوفيق الطويل (الكفاح بين رومة وقرطاج)

ثانيا : الحروب البونيقية : او الكفاح بين قرطاج وروما

كانت هذه الحروب البونيقية صراعا عنيفا بين رومة وقرطاج
ابتدات هذه الحروب بصقلية (٢٦٤) وانتهت بتهديم قرطاج (١٤٦) :
فدامت ١١٨ عاما •

الحرب البونيقية الاولى (٢٦٤ ـ ٢٤١)



مراكب الرومانيين فى معركة مليس :الحرب البونيقية الاولى
(صورة جدارية بمدينة بمبايوس)

٢٦٤ : ايطالية تمد راس جسر بصقلية : مسينة

• علمنا ان القرطاجيين كانوا خرجوا من مسينة ، فاحتلتها جماعة من سكان ايطالية ، فمدت رومة بذلك « راس جسر » بصقلية،حسب التعبير العسكرى الحديث •

وراى القرطاجيون ، كما راى حليفهم الاغـريقى هيـارون ملك سرقوسة ان بقاء الايطاليين بتلك المدينة اصبح خطرا يهدد كامـل الجزيرة •

(1) « Quel beau champ de bataille nous laissons-là aux Romains et aux Carthaginois. » (Pyrrhus)

٢٦٣ : حصار مسينة

• فجهز الحليفان حنون وهيارون حملة داهمت مسينة فاستنجد اهلها بالرومانيين ، فارسلوا جيشا يقوده القنصل ابيوس كلوديوس فنزل هذا الجيش مرسى رجيو • وانتصر كلوديوس على القرطاجيين فلاذوا بالفرار ، ثم كر على حليفه هيارون فهزمه ايضا ، واقتفى اثره الى سرقوسة ، ثم فاوضه فى نكث عهد القرطاجيين • فرضى بذلك لما راى من قوة الرومانيين ، وقلب لقرطاج ظهر المجن ، واعلن محالفة رومة واخلص لها الولاء •

ورجع القائد حنون القرطاجى لوطنه مذموما مدحورا ، فاتهم بالتقصير والخيانة واعدم صلبا •

٢٦٢ : حصار جرجنتى

• جهزت قرطاج حملة جديدة بلغ عدد رجالها ٥٦،٠٠٠ تحت قيادة حنون وحنبعل بن جيسكون • ونزلوا بجرجنتى وجعلوها قاعدة اعمالهم الحربية ومستقر ذخائرهم • فمضى اليها الرومانيون، وحاصروها حتى ادرك جيشها الجوع والقحط • ودارت بين الفريقين معركة انهزم فيها القرطاجيون ورجعوا خائبين • وسقطت جرجنتى فى ايدى الرومانيين •

٢٦٠ : معركة مليس البحرية

• قد اعد القنصل دوليوس اسطولا عظيما يتالف من مائة سفينة خماسية quinquérèmes (ذات خمسة طبقات من المجاذيف) وعشرين سفينة ثلاثية trirèmes (ذات ثلاث طبقات من المجاذيف) ما عدا السفن الثنائية birèmes (ذات طبقتين من المجاذيف) وهذه السفن كانت تسير بالقلوع او بالمجاذيف ، وتشتمل على راس rostroum ، وعلى دبابات محصنة ، وعلى خطاطيف او كلاليب (corbeaux) تمكن من رمى المراكب المعادية (انظروا الصورة) • وواجه دليوس اسطول حنبعل الذى كان واثقا من نفسه كل الوثوق ووقع اشتباك عنيف فى بحر مليس Myles شمالى جزيرة صقلية وفى هذه المعركة البحرية المشهورة استعمل دوليوس « غربانة » وهى الكلاليب التى كانت تعطل السفن المعادية وتحول الحرب البحرية الى صراع فوق جسور من الخشب • وهكذا انهزم حنبعل وعاد الى

وطنه خائبا ، حيث استقبله الشعب استقبالا يليق بهزيمته الشنعاء ، فالقى القبض عليه وصلب •

٢٥٦ : نقل ميدان الحرب الى افريقية : روغلوس

• هيأت رومة اسطولا قويا (٣٣٠ سفينة) وحشدت جموعا كثيرة (٤٠،٠٠٠ مقاتل) لترسلهم الى قرطاج تحت قيادة القنصل اتيليوس روغلوس (Régulus) • وتاهب القرطاجيون للقائهم عند راس اقنومة (Cap Ecnome) (١) ومنعهم من الذهاب لبلادهم • فدارت بينهم معركة دامية انتهت بانتصار الرومانيين •

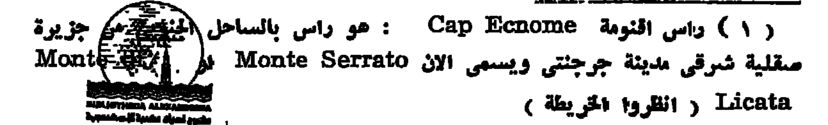
ثم ان روغلوس بعد ما اصلح سفنه المعطبة ابحر مع رجاله نحو افريقية ونزلوا بمدينة اسبيس (قليبية) التى كان انشاها واعتنى بها (اغاثوقليس) • فحاصروها واخذوها عنوة ، وتركوا فيها حامية ، وشرعوا يدمرون ويخربون الجهات المجاورة ويعيثون فى الارض فسادا •

وتركهم القرطاجيون يفعلون ما يشاءون ويشتهون اذ جمعوا قواتهم بمدينة قرطاج التى كانوا زادوا فى تحصينها وتدعيم اسوارها بعد ذهاب اغاثوقليس عنهم فاصبحت مدينة منيعة يلجؤون اليها وقت الخطر ، فاكتفوا بالاستعداد للدفاع عنها عند الاقتضاء • واستمر روغلوس فى سلبه ونهبه وتهديمه الى ان وصل امام مدينة وذنة • (Oudna)

٢٥٥ : معركة وذنة

• ولما طال الامر بالقرطاجيين الفوا جيشا تحت قيادة حنون وبوستار وعملقرط (وكان هذا الاخير بصقلية فاستقدمته حكومة قرطاج) فعسكروا بفيلتهم فوق تل يشرف على جيش عدوهم ، وارتكبوا بذلك خطا كبيرا لان الفيلة لا تقوم بدورها ولا تفيد فى الحرب الا اذا كانت فى السهول المنبسطة • فنتج عن ذلك انهزام القرطاجيين ، فولوا الادبار نحو مدينة قرطاج •

وتمادى روغلوس فى تخريبه وفساده الى ان دخل تونس واقام فيها معسكره مثلما فعل اغاثوقليس من قبله •



(١) راس اقنومة Cap Ecnome : هو راس بالساحل الجنوبي من جزيرة صقلية شرقى مدينة جرجنتي ويسمى الان Monte Serrato او Monte [illegible] Licata (انظروا الخريطة)

ولم يكن لروغلوس ما يكفيه من الجيش والعتاد والسفن للاقدام على حصار قرطاج • وكان يريد مثل اغاثوقليس حمل اعدائه على طلب الصلح •

وكان روغلوس قد خشي ان تنقضي سنة خدمته قبل ان تنتهي حرب افريقية ، فارسل بنفسه يعرض الصلح على القرطاجيين ، فاستجابوا له ، ولكنه تشدد في وضع نصوص الصلح مخافة ان يابى مجلس رومة اقرارها ، فاعلنت قرطاج رفضها لتلك الشروط المجحفة •

٢٥٥ : انتصار زنتيبوس على روغلوس

زنتيبوس (Xanthippus) قائد ماجور وفد على قرطاج من اعظم مدرسة حربية وهي مدينة اسبرطة ، فادرك في الحين قصور القادة البونيقيين وقلة خبرتهم بفن الحرب وعلى الاخص استعمال الافيال وشرع في تدريب الجنود تدريبا حربيا ، وفي تهيئتهم للقتال•وبعدما انتهى من تمرينهم ، جمع الرجال والفيلة والتقى بروغلوس بسهل منبسط على ضفاف سبخة جريبة قرب هرقلة وراء خليج الحمامات ، ورتب عسكره ترتيبا فنيا يرتكز على خبرة ومقدرة • واصطدم الجيشان ، وانتصر زنتيبوس على عدوه روغلوس واخذه اسيرا،وقتل رجاله تقتيلا • وبعد هذا الانتصار الباهر ذهب زنتيبوس في حال سبيله تاركا وراءه للقرطاجيين امكانيتين جديدتين على غاية من الاهمية في فن الحرب وهما :

- استعمال الافيال حسب القواعد الحربية •
- عملية التطويق بواسطة الفرسان •

وقد استفاد القرطاجيون من ذلك فيما بعد فاحرزوا على نتائج باهرة •

٢٥٤ : استيلاء الرومانيين على بالرمة

• خسرت رومة الحرب بافريقية،وانتهت اعمال روغلوس بالخسران المبين غير ان الحرب بصقلية مازالت مستمرة • وفي آخر سنة ٢٥٤ انتصر الرومانيون انتصارا عظيما فاستولوا على مدينة بالرمة وهي اهم قاعدة واكبر مدينة بونيقية بالجزيرة ولم يبق للقرطاجيين سوى

طرابنة (Drépane = Trapani) وليلبة (Lilybée = Marsala) وهى الآن مرصالا او مرسى على •

٢٥٠ : فشل صدر بعل فى محاولة استرجاع بالرمة

• ولم تك تلك خاتمة نكبات قرطاج بارض صقلية ، فهى قد جهزت جيشا عظيما فيه عدد كبير من الفيلة ، وجعلت على راسه القائد صدر بعل وذلك سعيا وراء استرجاع مدينة بالرمة • لكن فيلته رجعت بالوبال عليه اذ انها عادت على اعقابها وداست جنوده والحقت بجيشه افدح الاضرار والخسائر • وانتهت المعركة بانهزام صدر بعل وبموته صلبا بعد عودته الى بلاده •

٢٤٩ : رومة تفقد اسطولها

• كان مرسى طرابنة ياوى اسطول القرطاجيين • فاراد القنصل بوبليوس كلوديوس بولشر ان يباغته بسفنه ، فلم ينجح فى خطته وخسر فى تلك المعركة البحرية ما يقرب من مائة سفينة وانتصر القرطاجيون فى هذه المرة وفدوا انكساراتهم فى مليس وراس اقنومة (١) •

وزيادة على ذلك فان الاميرال القرطاجى قرنلون هاجم الاسطول الروماني الذى ارسى قرب ليلبة ودمره تدميرا ، ثم اسطولا حربيا آخر كان خارجا من سرقوسة • فلم يتجاسر هذا الاسطول الروماني على الاشتباك معه فى معركة ، وابتعد عنه قليلا ، لكن ثارت زوبعة اغرقته عن آخره ، بينما كان القرطاجيون لخبرتهم التامة باحوال الجو ، قد احتاطوا للامر قبل وقوعه واحتموا بالساحل الشرقى من الجزيرة ونجوا من كل خطر •

ومن ذلك الحين يئست رومة من محاولة السيادة فى البحر وملت من صنع السفن واعتراها الفتور فصممت على عدم تعويض السفن التى خسرتها • وهكذا استرجعت قرطاج هيمنتها البحرية من جديد

٢٤٦ : عملقرط برقة الشهير ، رب القتال برا وبحرا

• ثم ان الاقدار هيات لقرطاج قائدا ممتازا لم يات الزمان بمثله

(١) يقول بوليبس : انه لا يلوم الا نفسه لان الفراريج المقدسة قد انذرته بامتناعها من الاكل قبل المعركة ، فلم يكترث بذلك بل القى بها فى البحر قائلا : ان لم تشا تاكل فما عليها الا ان تشرب !

لوحة ٤٨

انظر الصفحة رقم ٢٠٠/٢٠٦ من هذا الكتاب



البطل الكبير عملقرط برقة

لوحة ٤٩

انظر الصفحة رقم ٢١٠ – ٢١١ من هذا الكتاب



القائد المشهور حنبعـل برقة

لوحة ٥٠

انظر الصفحة رقم ٢٣٢ من هذا الكتاب



القائد الرومانى شيبيون الافريقى الاكبر

لوحة ٥١

انظر الصفحة رقم ١٧٧ من هذا الكتاب .



الملك ماسنيسا

اللهم ابنه حنبعل • وهذا القائد المشهور فى التاريخ شهرة عالميـة والمعروف بذكائه ومهارته وبطولته ولو كان فى باكر الشباب ، هذا القائد العظيم هو عملقار او عملقرط برقة

ولكنه اتى متاخرا اى فى نهاية الحرب ، فوجد الامور بصقلية على غاية من الارتباك والفساد ، وكانت وسائله محدودة ، غير انه بدهائه النادر استثمر القليل والضعيف من امكانياته الى اقصى حد ، وكون من الضعف قوة وصار يتلافى الاحوال بقدر الطاقة • فارتقى بجيشه جبلا مرتفعا قرب بالرمة كان يعرف بجبل (رقطة) وكان عبارة عن حصن منيع لا يمكن اقتحامه او الهجوم عليه ، فيه المروج والمـراعى والاراضى الخصبة والانهار الجارية والهواء النقى وبجانبه جون صالح للسفن • فلبث على قمته ثلاث سنوات طوال ، واسطوله يجـوب شواطىء ايطالية الجنوبية فينهب منها ما شاء ، ثم يعود اليه ليقـدم له الزاد وجميع ما يحتاج اليه •

وفى نهاية السنوات الثلاث ، بارح عملقرط جبل (رقطة) ومضى بجيشه واسطوله ونزل ليلا بجبل ايريكس قرب مدينة (طرابنة) وربما كان يريد ان يخلصها من العدو الذى مازال يحاصرها •

واقام عملقرط هناك عامين كاملين وهو يجتنب الحرب المنظمة ويقتصر على المناوشات التى كان فيها على جانب عظيم من المهارة ، وكانـت وحدها فى مثل هذه الظروف تضمن النجاح بربح الوقـت واقـلاق العدو بدون تعرض الى الاخطار

وفعلا بدات تظهر على رومه علائم الكلل والملل من طول هذه المقاومة، خصوصا وان صناديقها وخزائنها اصبحت فارغة •

٢٤١ : ابرام الصلح

◆ وعزمت رومة على تجهيز اسطول لتضـرب ضربتها الاخيـرة وتعزل طرابنة وليلبة وجيش عملقرط ، وتمنع التموين عنهم،وتسد فى وجوههم جميع الطرق والسبل • وبما انها اصبحت عاجزة ماليا ، فقد تكلف بعض الاغنياء بصنع هذه السفن وبتجهيزها باموالهـم الخاصة وقبلوا ان يقع خلاصهم بعد النصر النهائى •

وكذلك القرطاجيون فقد جهزوا ايضا من جهتهم اسطولا جعلوه تحت قيادة حنون ليكون تحت تصرف البطل عملقرط •

وفى ربيع ٢٤١ سار هذا الاسطول وارسى بجزر اغادى ثم توجه

من هناك الى جبل ايريكس حيث يقيم عملقرط ٠ وكانت سفن حنون مثقلة بالمؤن والعدد والذخائر التى كان يحملها لجيوش صقلية

فبادر الرومانيون بالوقوف فى طريقه ووقع اشتباك عنيف بين الطرفين اسفر عن انهزام حنون ٠ فكفر عن خطيئته بالموت صلبا ٠ ورجعت السيادة البحرية للرومان

وفهم عملقرط انه لافائدة فى مواصلة المقاومة وان الصلح خير ، اذ قد اخفقت المحاولات النهائية اليائسة٠ وفهمت حكومة قرطاج ذلك ايضا وعرفت بان قتالها فى صقلية يجر عليها ويلاتقيلا وشرا مستطيرا ٠ ففوضت قائدها عملقرط واعطته النفوذ المطلق لعقد الصلح مع القنصل كاتولوس ٠

وكان هذا القنصل فى آخر ايام حكمه فاراد ان يكون انهاء الحرب على يديه فيترك له ذلك ذكرا حسنا

ودارت المفاوضات بين الطرفين حتى اسفرت عن معاهدة كان اهم شروطها انسحاب قرطاج نهائيا من كامل جزيرة صقلية ، وذلك بعد استيلاء دام ٢٧٤ عاما

وبهذه المأساة القاسية اسدل ستار الحرب البونيقية الاولى

من نتائج الحرب البونيقية الاولى

أ) كفاح الليبيين والنوميديين للتخلص من الاستعمار

بدا هذا الكفاح فى نهاية سنة ٢٤١ وانتهى فى بداية سنة ٢٣٧، ودام ثلاث سنوات واربعة اشهر

ان معاملة المستعمرين البونيقيين لرعاياهم الليبيين ابناء البلاد ، وحتى النوميديين المعتبرين تحت حمايتهم ، كانت على غاية من الغلظة والقساوة ٠ فهم كانوا لا يحتلون بلدا الا وفرضوا على اهله البذل والهوان ووضعوا ايديهم على كافة ما تنتجه اراضيهم ، واخذوا يمتصون اموالهم التى حصلوها بعرق جبينهم حتى يصيبهم الفقر ، ويدركهم البؤس والجوع والضنى٠ ودرت هذه الطريقة على القرطاجيين الذهب الكثير والمال الطائل،ولوانهم كانوا ينفقون الكثير منه فى الحروب مع اعدائهم ، خصوصا فى هذه الحرب البونيقية الاولى التى ضعضعت احوالهم ، وافرغت خزائنهم ٠ فكانوا مضطرين الى زيادة تشديد الوطاة على ابناء البلاد المساكين الذين اصبحوا مسخرين فى ايديهم كالانعام، يعتصرونهم كما يشاؤون، ويمتصون دماءهم، ويثقلون كواهلهم بالضرائب المجحفة ،ويجبرونهم على دفع جباية العشر وكانت

رتفع في اوقات الحرب الى ربع او الى نصف ما تنتجه فلاحتهم كذلك العبيد الذين كانوايقومون باعمال مرهقة فوق اراضي الطبقة لارستقراطية البونيقية ، وقد كانت من قبل اراضيهم فافتكوها نهم ، فهم ايضا كانوا ساخطين وناقمين ويترقبون الفرص للتحرر الانتقام ٠

وقد جاء الوقت المناسب وحانت الفرصة الثمينة التي يجب غتنامها للوقوف في وجه الاستعمار البونيقي الغاشم،ذلك الاستعمار الذى كان متجسما في جميع سكان مدينة قرطاج غنيها وفقيرها ، باختلاف طبقاتهم ، وتعدد درجاتهم ٠

قد جاء الوقت وحانت الفرصة لان قرطاج اصبحت اليوم تتخبط في كثير من المصائب والمحن التى تراكمت عليها وداهمتها في آن واحد فزعزعت اركانها وهدت كيانها ، فصار من السهل على هؤلاء المساكين ان يجهزوا عليها وهي في رمقها الاخير ، ويطعنوها الطعنة النجلاء ، ويضربوها الضربة القاضية ، ليتخلصوا من ظلمها وجبروتها ، وليتمتعوا بعد ذلك بحياة الحرية والاستقلال ٠

ومن هذه المصائب التي نزلت على راس القرطاجيين انسحابهم النهائي من جزيرة صقلية ، وافلاسهم المدقع الذى جعلهم عاجزين عن دفع اجور جم غفير من الجنود المرتزقين الذين كانوا يعللونهم بالاماني ، ويصبرونهم بالوعود المعسولة ٠

والآن وقد وضعت الحرب اوزارها واسفرت عن انهيار قرطاج،فقد اصبح عشرون الفا من الجنود الماجورين يطالبون بحقوقهم ، وكان غالب هؤلاء الجنود من الليبيين ٠ وقد اصبحت حكومة قرطاج عاجزة عن دفع ديونها ، والوفاء بوعودها ٠ فادى ذلك الى ثورة الجند الماجور ولكن هذه الثورة لم تقتصر على الجند ، بل هزت وحركت كافة الشغالين والفلاحين من الليبيين والنوميديين ٠فاندمجوا في صفوفهم نساء ورجالا ، واصبحت قرطاج امام قوة عظيمة زاخرة تتركب من الماجورين المطالبين بدفع اجورهم القديمة والجديدة ، ومن ابناء البلاد الذين كانوا يئنون ويتالمون تحت نير الاستعمار ٠

وكان الذى تزعم هذه الحركة التحريرية البطل الليبي (ماطوس) فكان يعقد الاجتماعات ، ويدبر المكائد والمؤمرات ، ويخطب في الجماهير مشجعا ، ومحمسا ، وحاثا على المقاومة بثبات وعزيمة ٠

وكان (ماطوس) يقود الثورة مع اثنين من اعضاده اشتهرا بالاقدام والثبات والحزم وهما : (اسبنديوس) وكان عبدا عند الرومانيين ففر هاربا والتحق بصفوف اعدائهم ، و (اوطاريت) الغالى ، وكان له تاثير كبير فى المجالس لانه كان يحسن التكلم باللغة البونيقية التى يفهمها الكثير من الناس ، فكانوا يستصوبون آراءه ، ويستحسنون كلامه ، ويقاطعونه بعواصف من التصفيق .

وكان الناس يستمعون بكل انتباه الى كلام هؤلاء الزعماء الثلاثة وهم ماطوس واسبنديوس واوطاريت ، ويصغون الى حديثهم ، والى الضربات والطعنات التى كانوا يكيلونها كيلا ضد اعدائهم القرطاجيين . ولكن بمجرد ما يقوم احد آخر ويفتح فاه لياخذ الكلمة ، ينهالون عليه رجما بالحجارة بدون ان يعرفوا هل كان يريد ان يؤيد هؤلاء الزعماء ام كان يريد ان يعارضهم .

وكانت عندهم كلمة مشهورة صاروا كلهم يعرفون مدلولها ومعناها ، حتى جماعة الماجورين من الاجانب باختلاف لغاتهم ولهجاتهم ، وكانوا يقولونها مع اشارة باليد فيها قوة وعزم وشدة وصرامة وهذه الكلمة التى اصبحت قضاء مبرما محتوما يتسلط على كل من تقال فى شانه هى « اضرب ! » فيكفى ان ينطق احدهم بهذه الكلمة المرعبة مع تلك الاشارة المشؤومة ، لتنقض جماعة من القتلة كالاسود الضوارى ، على فريستهم المقصودة بالاشارة ، فيفتكون بها فتكا ويمزقونها اربا

وهكذا اصبحت هذه الجموع فى شدة هيجانها وغليانها وتدفقها كالبركان النارى يتقد غضبا وحماسا . واوفد (ماطوس) رسلا الى المدن والقرى الافريقية والقبائل النوميدية يدعوهم الى الكفاح والمشاركة فى المقاومة . فلبوا نداءه ودخلوا تحت لوائه وانضم اليه سبعون الفا من المقاومين .

وكان غالب الليبيين يبغضون الاستيلاء البونيقى لاسباب كثيرة منها الخدمة العسكرية الاجبارية والمشاركة فى الحروب البعيدة، ومنها على الاخص ثقل الضرائب المجحفة ، وسوء معاملة المكلفين باستخلاصها ، وكثرة سرقات وكلاء خزينة الدولة . وكان حرص القرطاجيين على المال لاحد له ، فكان يحملهم هذا الافراط على ارتكاب

المظالم ، والتعدى والاهانات والتطرف فى الشدة ، الشىء الذى دفع الرعايا الليبيين اكثر من مرة الى التمرد والثورة ٠

فقد كانوا ثاروا مرة اولى فى نهاية القرن الرابع (سنة ٣٩٦) بعد كارثة سرقوسة ، لما فر القائد خيملكن وولى الادبار مستصحبا معه مواطنيه من القرطاجيين فقط ، وترك بقية جنوده من الرعايا الليبيين فى قبضة العدو عرضة للتعذيب والقتل ٠٠٠

فاغضبت هذه الخيانة كافة الليبيين بافريقية ، واوغرت صدورهم غيظا ، فاتجه مائتا الف من الثوار نحو مدينة قرطاج ، وطوقوها ، وحاصروها ، وضيقوا عليها الخناق ، بعدما استولوا على تونس ، واحرزوا على كثير من الانتصارات ٠

وثاروا مرة اخرى فى سنة (٣٧٨) اثر انتشار مرض الطاعون فى المدينة ، وهو مرض الوباء الذى وقع جلبه من سرقوسة ٠

وتمردوا لما حل اغاثو قليس بالاراضى الافريقية ، وتمردوا لما جاء روغولوس ، وتمردوا وعاثوا فسادا ورفعوا راية العصيان فى كل مناسبة راوا فيها القرطاجيين فى موقف حرج ينذرها بالخطر ٠

وفى كل مرة يقع قمع هذه الثوارت بمنتهى الوحشية والصرامة ، الشىء الذى كون فى النفوس احقادا وضغائن ازدادت يوما فيوما وتناقلتها الاهالى جيلا بعد جيل ٠٠٠ الى ان ناداهم (ماطوس) وصاح فيهم صحيته الداوية ، فهرعوا اليه من كل جانب ، وتضامن معه كل الليبيين ،وايدوه ، وصاروا من حزبه ، ما عدى بنزرت واوتيكة فانهما اخلصت الولاء الى قرطاج ٠

ولم تنس النسوة الليبيات ما كانت تفعله حكومة قرطاج بابائهن وبعولتهن ، وما كانت ترتكبه من الفضائع والوان التعذيب ، فاردن المشاركة فى المقاومة ، وتبرعن من تلقاء انفسهن وبدون تردد ، بجميع حليهن وزينتهن وبكل غال لديهن ٠ فتجمعت عند ماطوس واسبنديوس اموال كثيرة لدفع ما كان يطلبه الجنود من اجورهم ، ولمجابهة المصاريف اللازمة للمقاومة والكفاح ٠

وقسم الزعماء قواتهم ، فسيروا جيشا لمحاصرة اوتيكة ، وجيشا آخر لحصار بنزرت ، واقامت فرق اخرى بمعسكر تونس تحت قيادة ماطوس لعزل قرطاج ومنعها من كل اتصال بالخارج ٠ (سنة ٢٤٠)

وقد نجح ماطوس فى مهمته كل النجاح ، وضيق الخناق على قرطاج ، وسد في وجهها كل الابواب والمنافذ ، واقام جنوده بالجبال المحيطة بالمدينة من جهه ، وبالجسر الوحيد الذى كان منصوبا على وادى مجردة والذى كان الممر الوحيد فى ذلك التاريخ • فكان من المستحيل لا على جيش او فرقة او جماعة من الناس فحسب ، بل حتى على رجل بمفرده ان يتسلل او يحاول مغافلة الحرس والخروج من المدينة ، بل كان يؤخذ ويقتل لا محالة مهما بالغ فى التحفظ والحذر والفطنة • وكان اسبنديوس مكلفا بحراسة الجسر على راس جيش قوى • وكانوا زيادة على ذلك يقلقون القرطاجيين ويتغلبون عليهم فى كل مناسبة بحرب المناوشات والكر والفر ، ونحن نعلم شدة براعتهم فى ذلك • . . .

وبعد محاولات كثيرة فاشلة التجات حكومة قرطاج فى نهاية الامر الى قائدها المشهور (عملقرط برقة) وكلفته بقمع الثورةوكبح جماح المقاومين • فالف جيشا يتركب من عشرة آلاف جندى واخذ معه سبعين من الافيال وجعل يفكر فى حيلة للخروج بهم منقرطاج ونحن نعلم ما كان يمتاز به هذا القائد العظيم من الدهاء والمقدرة • فقد لاحظ ان مصب وادى مجردة يمتلىء رمالا كلما هبت رياحشرقية وكذلك تتكدس الرمال وتتجمع على طول الساحل ،فيمكن حينئذ العبور من ذلك المكان بسهولة ، والخروج الى وراء الضفة الشمالية من النهر بدون حاجة الى السباحة • فلم يبح بذلك الى اى انسان، بل ترك الامر مكتوما فى سره ، وامر جيشه بان يكون مستعدا وعلى اهبة للرحيل ، وبقى ينتظر الوقت المناسب الى ان جاءت الفرصة التى كان يترقبها ، فشرع فى تنفيذ خطته ليلا تحت جناح الظلام، وخرج برجاله من قرطاج بدون ان يلفت اليه الانظار • ولما اتىالصباح كان عملقرط يسير بجنوده متجها نحو الجسر •

اما اسبنديوس فانه لما بلغه الخبر لم يتردد لحظة واحدة بل استعد فى الحين للقتال ، وتقدم على راس جيش اول قادم منالجسر فيه ١٠،٠٠٠ مقاتل،وجيش ثان قادم من معسكر اوتيكةفيه١٥،٠٠٠ مقاتل ، وكان ينوى استعمال الجيشين معا لتطويق القرطاجيين ومحقهم بين فكين من حديد •

وكان عملقرط قد نظم جيشه على الصورة التالية :

— الافيال فى المقدمـة

ــ ويليهــا الفرسان
ــ ثم فرقة المشاة الخفيفة (باسلحة خفيفة)
ــ ثم فرقة المشاة الثقيلة (باسلحة ثقيلة)

ولما راى الاعداء هاجمين عليه من اليمين ومن الشمال، امرالمقدمة بالتقهقر بسرعة الى الوراء وجعل المؤخرة تنقسم الى قسمين وتقوم بحركة دائرة ليواجه قسم منها الجيش القادم من الجسر ، ويواجــه القسم الاخر الجيش القادم من اوتيكة

ووقع كل ذلك بسرعة وترتيب ونظام محكم وبكيفية لم يتوقعها اسبنديوس وجنوده ، بل كانوايظنون تقهقر المقدمة فرارا وانهزاما فطمعوا فيهم وهجموا عليهم فلم يشعروا الاوهم امام فرقــة المشاة الثقيلة اى امام جنود مدججين بالاسلحة فولوا الادبار وقتل منهــم ستة آلاف ، واسر الفان ولاذ الباقون بالفرار

وبادر عملقرط الى الجسر بجردة فاقام عليه جماعة من رجاله يحرسونه اما ماطوس فانه امر اسبنديوس واوطاريت باقتفاء اثر القائــد عملقرط وبتتبع حركاته ، وسار بنفسه الى حصار بنزرت ،واستمر ذلك الحصار الى ان انضمت اليه تلك المدينة وكذلك اوتيكة

اما عملقرط فقد انضم اليه امير نوميدى خطير يدعى (ناراواس) مع عشرين الفا من فرسانه الشجعان،فكان من اكبر اعضاده ومساعديه، اعانه على التغلب على اعدائه حتى النصر النهائى ٠

ونفهم من ذلك ان سبب نجاة الاستعمار البونيقى مــن الدمــار والانهيار ، وسبب خروجه سالما من هذه الثورة التى تركت ذكــرا مشهورا فى التاريخ ، لم يكــن سوى وجود الانقسام والمعاكســة والمزاحمة فى صفوف الافريقيين ٠ وان هذا التناحر الذى لايمكن نكران وجوده هو الذى طالما عرقل المساعى نحو التحرير ،وجعــل كل المجهودات فى هذا الميدان تذهب ادراج الرياح ٠

ثم وقعت بين عملقرط واسبنديوس معركة اخرى دارت رحاها بنفريس (Néphéris) او (خنفة الحجاج) قرب زغوان ، انهــزم فيها الثوار تاركين ١٠٠٠٠ من القتلى و ٤٠٠٠ من الاسراء ٠ اما اسبنديوس واوطاريت فقد لاذا بالفرار ، واطلق عملقرط ســراح الماسورين وصار يحرض الناس على ترك الثــورة ويجلبهم اليــه بكلامــه المعسول ٠

وعقد الزعماء الثلاثة اجتماعا اثر ذلكاستدعوا اليه جميعالثوار، وقرروا العزم اثناءه على مواصلة الكفاح بكل شدة وعنف وعلىالتنكيل بكل من يقع فى قبضتهم من القرطاجيين ، وتعذيبهم بجميع انواع العذاب ، وقتلهم بعد ذلك شر قتلة ، وصرحوا بأن كـل من يـرى رايا يخالف ذلك يعتبر من الخونة ولا يستحق الا القتل • وفى ذلك الوقت وقف عدد من الحاضريـن ليـأخذوا الكلمـة ويبينوا نظرينهم فى الموضوع ، فصاح احد الثوار : (اضرب !)واذا بهم اشلاء ممزقة وجثث هامدة •••

ثم جمع ماطوس واسبنديوس جماعة من المقاتلين الابطـال ومـن بينهم فرقة يراسها فارس ليبى مغوار يسمى (زرجاس)

فاخذوا يضيقون السبل على عملقرط متحاشين ملاقاته فىالسهول المنبسطة خوفا من افياله ومنفرسان نارآواس، ولكنهمكانوا يبوءون غالبا بالفشل والخسران ، ولا يقدرون ان يقيسوا انفسهم بقائد عظيم ومحنك من نوع عملقرط •

وفى آخر الامر جعل هذا الداهية بمناوراته العجيبة يدفع اعداءه شيئا فشيئا نحو جهة معينة الى ان الجاهم الى مضيق عظيم كان يسمى فج المنشار (Défilé de la Scie) وهو مكان موجودعلى بعد ستة عشر كيلومترا غربى الحمامات وعلى مسلك قديم كان يربط تلـك المدينـة وزغوان ، تحيط به جبال تشبه قممها اسنان المنشار (جبل الجديدى وجبل منزل موسى •••) وهناك حاصرهم ، وقطع مواصلاتهم حتـى هلكوا عن آخرهم جوعا وعطشا ، وكانوا اربعين الفا او يزيدون •

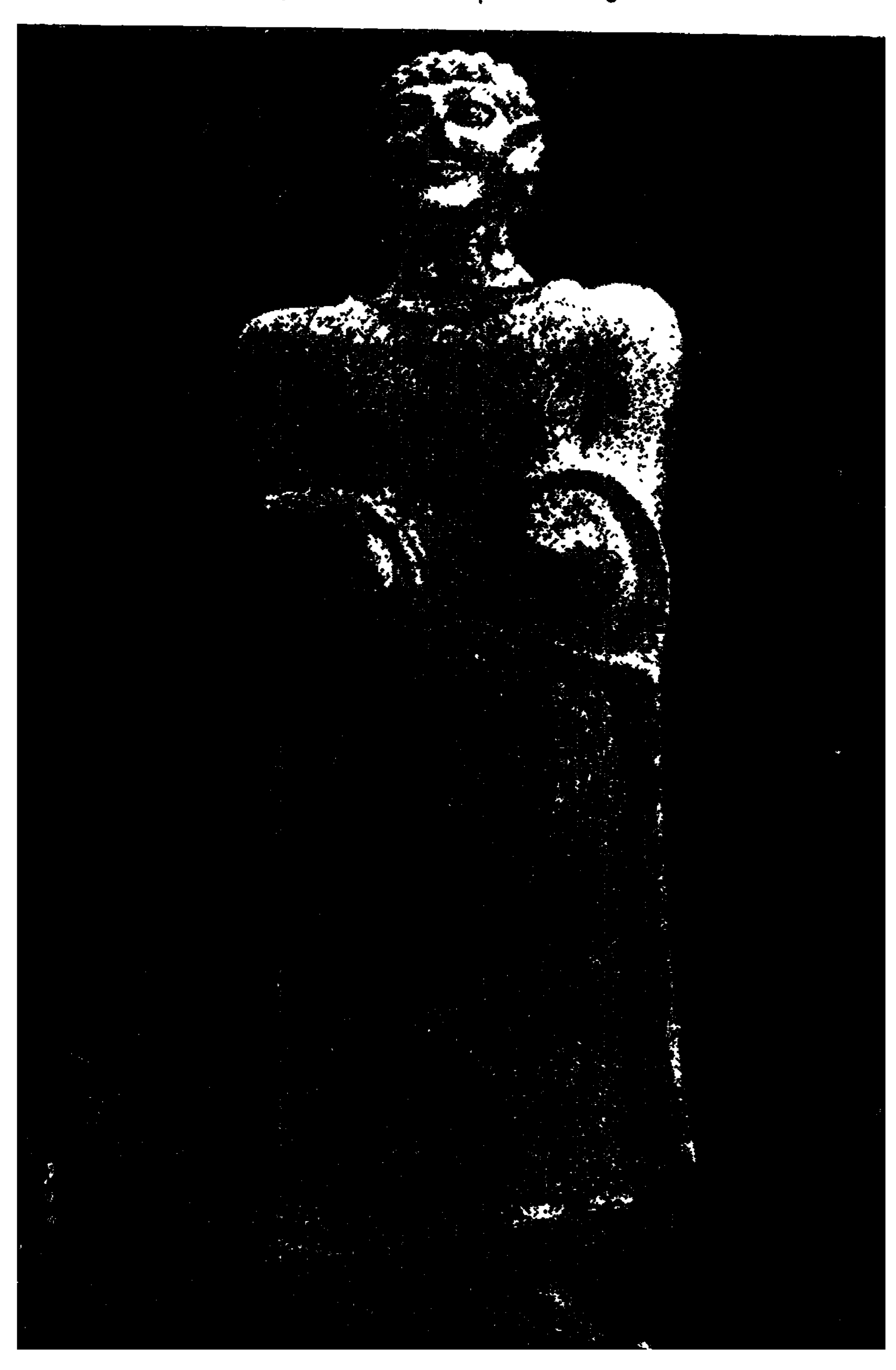
ولاجل ما امتازت به هذه الحرب من قساوة فاحشة ووحشية فضيعة تاباها الانسانية صارت تلقب فى التاريخ باسم الحرب التى لاتغتفر (la guerre inexpiable)

ولم يبق سوى ماطوس فى معسكره بتونس• فسار اليه عملقرط ومعه رفيقه ناراواس وحاصراه محاصرة شديدة ودورا به الجنود من كل جانب ، وجعلا جيشا فوق تلال البلفيدير ، وجيشا آخـر تحت قيادة عملقرط بين بحيرة تونس وسبخة السجومى ، لكن ماطـوس تمكن من الافلات وتخلص من شرهم •

فاستمر عملقرط يقتفى اثره الى ان دارت بينهما معركة حاسمـة قرب لمطة دافع فيها زعيم الثورة الليبية دفاع الابطال ، لكنه وقـع اسيرا فى قبضة اعدائه• فاخذوه الى قرطاج حيث عذبوه عذابامبرحا، ومثلوا به تمثيلا فضيعا فاحشا ، ثم اعدموه وسط جذل القرطاجيين

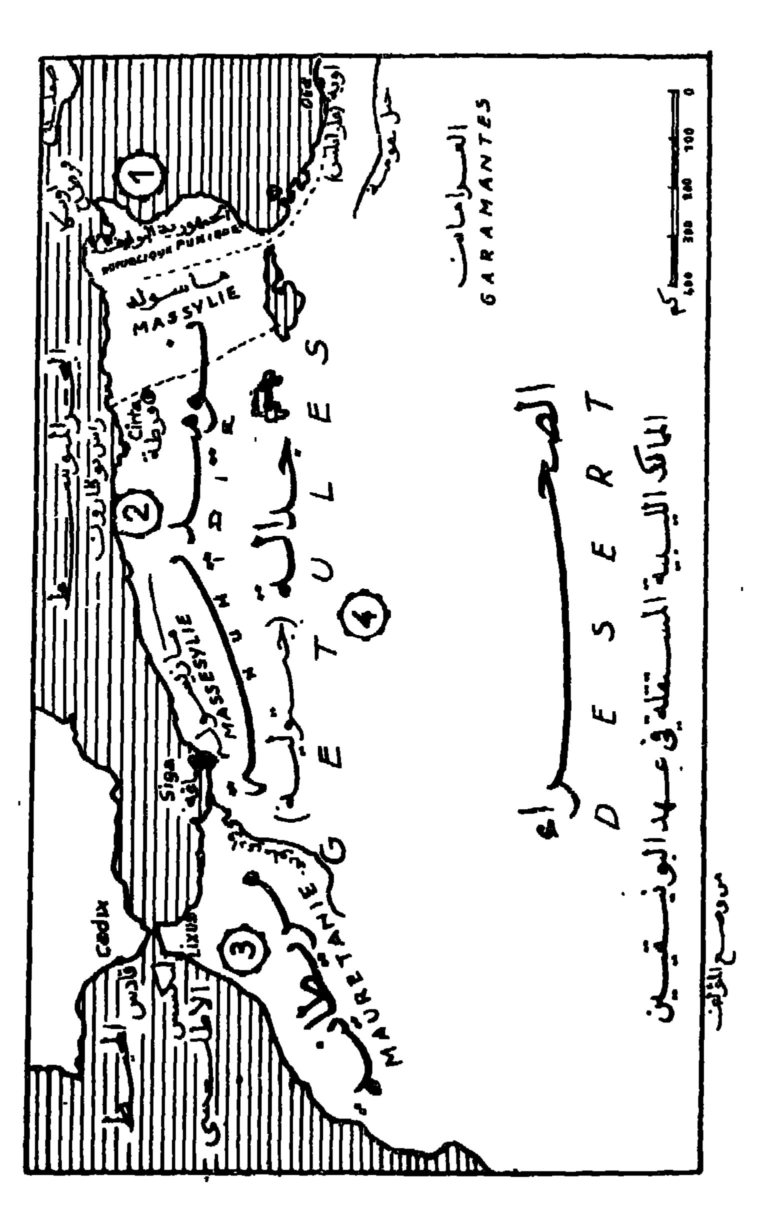
لوحة ٥٢

انظر الصفحة رقم ١٦٣ من هذا الكتاب



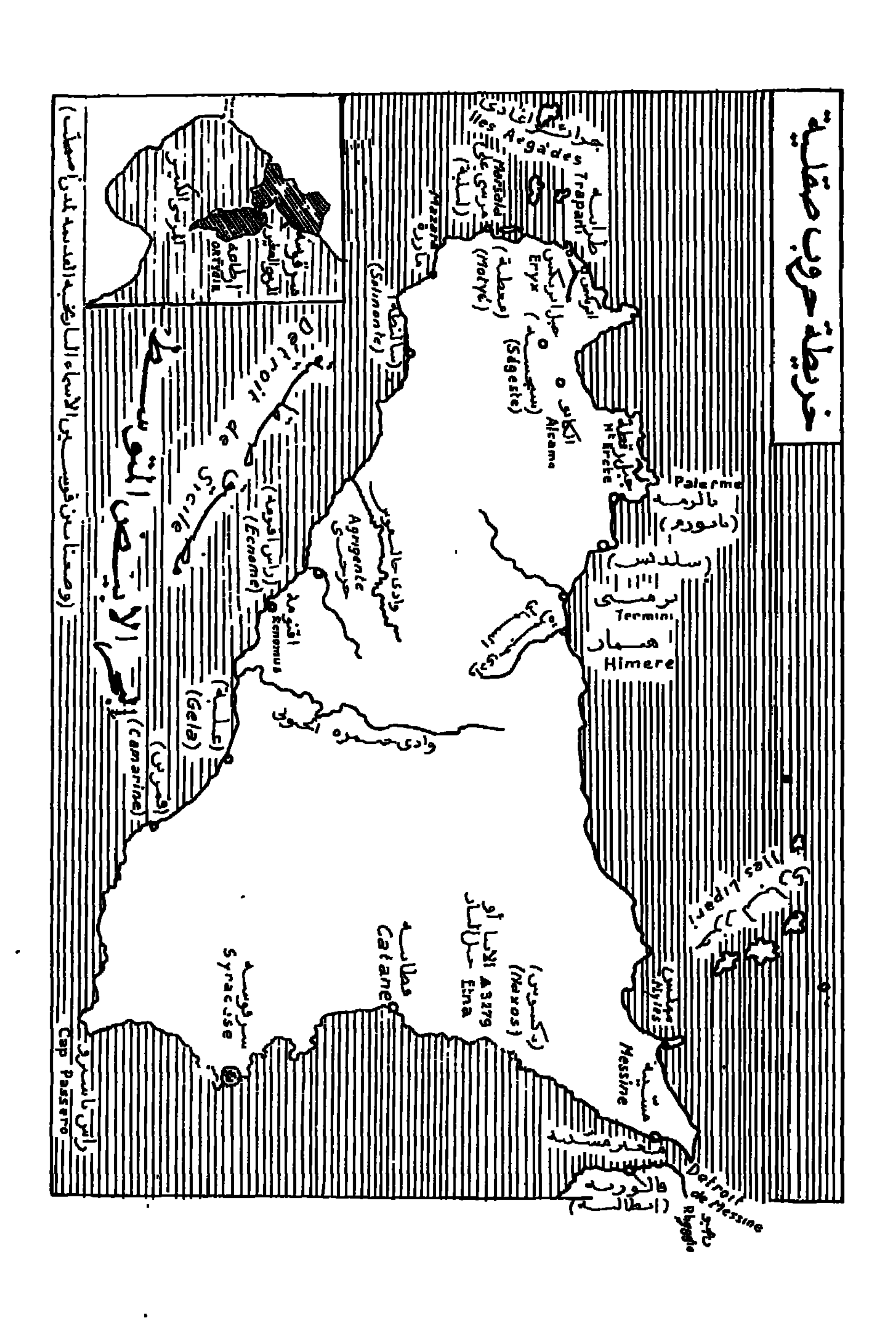
لوحة ٥٣

انظر الصفحة رقم ١٧٤ من هذا الكتاب



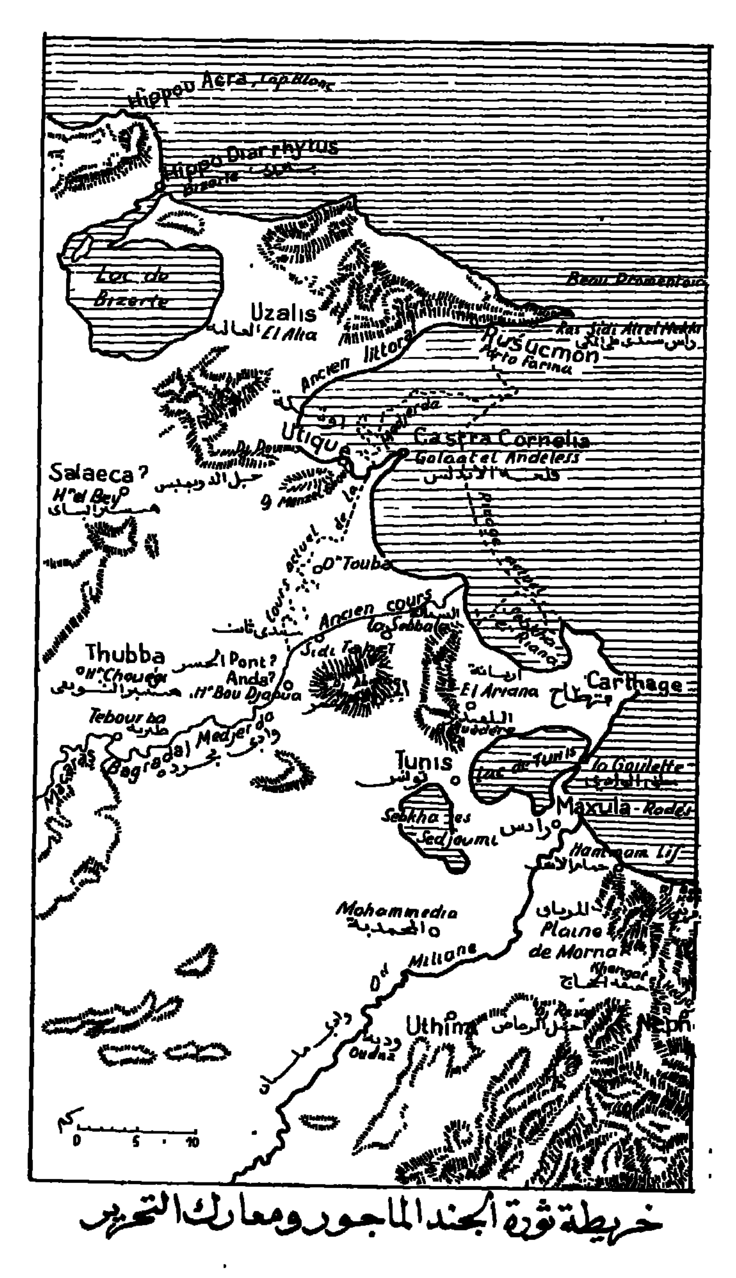
لوحة ٥٤

انظر الصفحة رقم ١٨٤ من هذا الكتاب



لوحة ٥٥

انظر الصفحة رقم ٢٠٢ من هذا الكتاب



خريطة ثورة الجند المأجور ومعارك التحرير

بدأ هذا الكفاح التحريرى فى نهاية سنة ٢٤١ وانتهى فى بداية سنة ٢٣٧ ودام ثلاث سنوات واربعة اشهر

وفرحهم (سنة ٢٣٧) وكانت رومة اثناء هـذه الحـرب الداخليـة بافريقية تلازم الحياد ، بل كانت تظهر شيئا من العطف نحـو قرطاج وكانت تمدها احيانا بقليل من المساعدة • غير انها فى مقابل ذلـك مدت يدها الى سردينية وكرسيكة وضمتهما الى امبراطوريتها بلاحرب ولاقتال (سنة ٢٣٧)

وبموت ماطوس خمدت النورة ، وتنفست قرطاج الصعداء ، وصارت تفكر فى تحسين حالتها السيئة ، وفى تعويض ما فقـدته (صقليـة وسردينية وكرسيكة) بتوسع جديد وبالاستيلاء على جبال الفضـة بالاراضى الاسبانية •

ـ ب) الاستعمار البونيقى باسبانية

ان عملقرط كان يريد ان يجعل الاستيلاء على اسبانية وسيلة لاعداد مقاومة جديدة وحرب ثانية ضد اعدائه الرومانيين • فان مناجم الفضة التى لاينصب لجينها تجعله فى مامن من قلة النقود والدراهم ، الشىء الذى عرقل الاعمال فى الحروب المتقدمة وكان سببا فى الخيبة والفشل وان مناجم البشر تجعله يجند جنوده بكل سهولة ، ويجمع رجاله من بين رعاياه الجدد • ومن جهة اخرى فان اسبانية بعيدة عـن قرطـاج فلا يخشى من الحكومة البونيقية مراقبة تشتم منها روائح الحسد والريبة والشكوك ، وهى كذلك بعيدة عن رومة ، فلا يخاف من اعدائه تدخلا مسلحا يعرقل اعماله فى بدايتها •

وبقطع النظر عن هذه الاسباب ، فان قرطاج كانت فى حاجه ملحة الى وضع يدها على اسبانية لتفتح اسواقا تجارية جديدة ، ولتستغل مناجم الفضة لفائدتها وعلى الاخص لتسدد الغرامـة الحربيـة التـى التزمت بدفعها للغالب •

فبعدما نزل عملقرط بميناء قادس باسبانية سنة ٢٣٧ ، قضـى تسع سنوات فى القتال تارة والتفاوض اخرى ، فاخضع عددا كبيرا من القبائل والشعوب ، وعلى الاخص اقوام (الترديوليين) المقيمين على الوادى الكبير واقوام (البسطوليين) المقيمين بالسواحل الجنوبية وانشا قاعدة جديدة لغزواته وهى (اقرالوقة)(Acra Leuca) التى كان يسميها الرومان (لوقنتم) وهى قريبة من مدينة اليقنته(Alicante)، ومن راس النوء(Cap Nao)؛ واستمر فى غزواته الى ان قتل فى احدى المعارك سنة ٢٢٨

فخلفه فى القيادة صهره صدربعل • فاخذ بثار عملقرط ، وتمادى

فى الغزو والقتال والفتوحات واخضاع الشعوب ، ولكنه كان فى الغالب يصل الى غاياته باللين والاقناع والوسائل السلمية ، وهو ما يمكن ان نسميه بالغزو الادبى ، فنراه مثلا يتزوج بابنة احد الملوك الايبيريين ليجعله من جانبه ، ونراه يؤسس عاصمة جديدة قرب مناجم الفضة ، ويسميها (قرطاجنة) وينشىء فيها المعامل ، والمشاغل، والمصانع البحرية للسفن ، ودارا لضرب السكة، ويحصنها بالاسوار المنيعة ويبنى فيها قصرا من افخم القصور .

وامتد نفوذه الى نهر الآبرو (L'Ebre) ولما اراد غزو مدينة صاغنتة (Sagonte) استنجد سكانها بروما ، وكان دبيب الغيرة من هذا النصر المتعاقب يدب ويسرى فى عروقها ، فخفت الى حماية الصاغنتيين ، واقبلت على اسبانية تنذر بالشر الداهم ان مس حليفتها سوء ، او اصاب اهلها ضرر .

وجرت المفاوضات بين رومة وصدر بعل حتى انتهت بعقد معاهدة سنة ٢٢٦ نصت على ان يكون نهر الابرو حدا فاصلا لاينبغى ان تتجاوزه قرطاج فى فتوحاتها شرقا .

ولبث صدر بعل ثمانية اعوام وهو مستمر فى انتصاراته وبسط نفوذه الى ان اغتاله احد افراد القبائل السلتية سنة ٢٢١

وخلفه فى القيادة حنبعل الشهير الذكر ، والذائع الصيت فى التاريخ ، وهو اكبر ابناء عملقرط برقة ، وكان عمره اذ ذاك ستة وعشرين عاما . وكان الجيش يحبه الى حد العبادة والتقديس ، فاختاروه للقيادة بالهتاف الحار وبدون تصويت .

ولما كان حنبعل صبيا لا يتجاوز عمره تسعة اعوام ، تقدم به ابوه الى المذبح المقدس حيث كان يقدم الضحايا قربانا للآلهة بمناسبة تاهبه للرحيل الى اسبانية ، وطلب اليه ان يضع يده على الضحية ويقسم ان لا يخلو قلبه من بغض الرومان وكراهيتهم ما دام حيا . وسترينا الايام ان هذا الطفل سيبر بيمينه ، وسيلبث طول حياته يرسل عليهم الخوف والجزع ، ويملا قلوبهم بالرعب والفزع .

شرع القائد حنبعل فى مواصلة الفتوحات والانتصارات ، وكان مثل صدر بعل متزوجا بامراة اسبانية قسطلية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفى سنة ٢١٩ سار الى حصار مدينة (صاغنتة) (١) الداخلة بدون مبرر شرعى تحت حماية رومة ، اذهى كائنة جنوب نهر الابرو وحينئذ فى منطقة نفود البونيقيين داخل الحدود المتفق عليها بما يزيد على خمسين ميلا (١٢٥ كيلو مترا) ودام هذا الحصار مدة ثمانية اشهر ، من الربيع الى الشتاء ، ثم سقطت المدينة فى قبضة حنبعل ، وكانت صاغنته مدة الحصار تستغيث وتستنجد برومة . وهذا الذى اعتبره الرومانيون تحديا واعتداء هو الذى كان سببا فى اشعال نار الفتنة من جديد ، وفى اعلان الحرب البونيقية الثانية

وارسلت رومة وفدا الى قرطاج للتفاوض فى (مشكل صاغنتة)، وتقدم الوفد الى اعضاء المجلس القرطاجى والقى عليهم السؤال التالى: « هل كان غزو حنبعل لمدينة صاغنتة تنفيذا لامر الحكومة ؟ » فابى المجلس ان يجيب اجابة صريحة ، وتملص مندوبه بالقول : « ان المعاهدة بين رومة وقرطاج لم يرد فيها نص بشان صاغنتة . »

وعند ذلك طوح قنتوس فابيوس (Quintus Fabius) مندوب الوفد الرومانى بذيل ثوبه طبق عادتهم المالوفة ثم اشار بيده الى غضون ذلك الثوب قائلا :

« هنا الحرب ، وهنا السلم ، فماذا تريدون ؟ »

فارتفعت فى المجلس صيحة تنطق بالتحدى الصارخ :

« انتم وما تشتهون ! »

فجمع مندوب الوفد الرومانى ذيل ثوبه فى قبضة يده ، وقذف به فى وجوه الاعضاء القرطاجيين ، وقد تجسمت فى سحنته معالم الغضب والتحدى ، وقال : « الحرب تخيرنا ! »

فانطلقت اصوات الاعضاء صارخة : «قبلناها وسنصليكم نارها!»

الحرب البونيقية الثانية وحنبعل

بدات هذه الحرب سنة ٢١٨ ، وانتهت سنة ٢٠١ : فدامت ١٨ عاما

أ ـ الحرب بايطالية

٢١٨ : ◆ فى شهر ماى ٢١٨ خرج حنبعل من قرطاجنة فى ستين الفا من المشاة وعشرة آلاف من الفرسان و ٣٧ من الافيال .

(١) هى مدينة مرفيادرو الان (Murviedro) على الساحل الشرقى من اسبانية وجنوب نهر الابرو .

◆ قطع نهر الابرو واخضع الشعوب التي كانت تعيش بين ذلك النهر وجبال البيرنيت ، وبذلك تم استيلاؤه على كامل شبه الجزيرة تقريبا ٠

◆ ثم اقتحم جبال البيرنيت وتابع سيره الى شمال مصب نهر الرون اى شمال الدلتا ، فعبرته جنوده وافياله فوق الارماث

◆ وعند ذلك ارادت بعض القبائل الغالية المقيمة على الجانب المقابل ان تصده على التقدم ، فاستعمل معهم حنبعل دهاءه الحربى وبدد شملهم (شهر اوت)

طفولة حنبعل



تمثال من البرنز (١٨٦٩) يمثل حنبعل وهو يخنق نسرا كبيرا (رومة) بكل همة وعزيمة محاولا قتله ٠

وهو تمثال نادر للنحات ايبيني يجسم لنا ثبات حنبعل وقوته وشجاعته وشدة بغضه للرومانيين ٠ اما النسر فهو آية واعجوبة فى نحته وفى مطابقته لما جاء فى علم الطيور ٠

◆ ثم جنح شمالا صاعدا على ضفاف نهر الرون حتى لايلتقى بالجيش الرومانى الذى نزل فى ذلك النهر من مصبه الشرقى قادما من ايطالية عبر البحر تحت قيادة بيبليوس شبيون (والد شبيون الافريقى بطل جامة) ٠ وكان حنبعل يتحاشى الدخول فى معركة معه خوفا من اضاعة الوقت ، وذلك لان الخريف كان على الابواب ، ولا يمكن اجتياز جبال الآلب الشاهقة فى ذلك الفصل بسبب تراكم الثلوج ٠ وتمادى حنبعل فى سيره الى ملتقى نهر الرون بساعدته الايزير ٠

◆ ثم تسلق برجاله وافياله وافراسه جبال الآلب المخيفة، واجتازها بعد اتعاب تشيب من هولها الرؤوس ٠ ومن الصعب على كل واحد لم

ير جبال الآلب راى العين ان يتصور او يتخيل فى ذهنه حقيقة جمالها وعظمتها وهول منحدراتها • فان اعالى جبال الآلب وسفوحها حوالى القمم فى شتاء دائم ، وان ذروة الجبل الابيض مغطاة كامل السنة ببساط سميك من الثلج •

فتصميم حنبعل على اقتياد جيش جرار الى ايطالية عبر جبال الالب ، بدلا من نقل الجنود على الجوارى فى البحر ، كان ولايزال معدودا من اعظم الاعمال واشدها جسارة •

◆ ولما وصل حنبعل الى معبر ضيق بجبال الآلب وهو فج سان برنارد الاصغر (Col petit St Bernard) الذى يبلغ ارتفاعه ۲۱۵۷ م (۱) قاومه الجبليون المكلفون بحراسة ذلك المكان ، وصاروا يقذفونهم بالصخور ، فاهلكوا عددا كبيرا من الخيل والرجال والافيال •

ولما خرج حنبعل من تلك الجبال سالما بعد خمسة اشهر قضاها فى المسير ، منها خمسة عشر يومافى تلك الجبال ، لم يبق معه سوى عشرين الفا من المشاة ، وستة الاف من الفرسان ، وواحد وعشرين من الافيال •

۲۱۷ ◆ وبعد نزوله من الجبال اخذ مع رجاله نصيبا من الراحة كانوا فى اشد الحاجة اليه ثم دخلوا بلاد الطلبان فبدات بذلك المعارك والحروب نذكر اهمها :

◆ معركة تيسينو : (Bataille de Ticino)

فى الوقت الذى تقدم فيه حنبعل نحو سهول (بو) بايطالية ، اتجه بيبليوس شبيون نحو ضفاف نهر تيسينو (ساعدة بو من جهة اليسار) ليمنع القرطاجيين من عبوره • وشبيون هذا هو الذى كنا رايناه وتحدثنا عنه وقلنا انه دخل مصب نهر الرون ، فتحاشاه حنبعل خوفا من اضاعة الوقت فى محاربته • فقد رجع هذا القائد الرومانى على اعقابه ليمنع حنبعل من الدخول الى ايطاليا • لكن حنبعل ارسل عليه فرسانه النوميديين الابطال ، غربى نهر تيسينو وبفضل

(۱) قد وقع خلاف فى ذلك بين المؤرخين ، وهناك ما يقرب من اربعمائة دراسة حول هذا الموضوع لمعرفة المكان الذى مر منه حنبعل وضبطه بغاية التدقيق • فهناك من يقول انه مر بفج سان برنار الاصغر Col Petit St Bernard وهو ما ذهبنا اليه ، وهناك من يقول : بل مر بسان برنار الاكبر Col Grand St. Bernard ، او جبل الثنيس Col Mont Cénis ، او فج الاجنتيار Col d'Argentière او جبل جينيفر Mt Genèvre او فج ترافرسات Col de La Traversette
(انظروا هذه الفجوج الستة على خريطة جبال الالب بهذا الكتاب)

مناورات موفقة وحركات دائرة ، طوقوه تماما وهزموا جنوده واثخنوه جراحا بليغة ، ولولا شجاعة ابنه الشاب كورنيليوس (وهو الذى سيصير شبيون الافريقى بطل جامة) ولـولا وجـوده هناك حتـى اسرع لنجدته ، وحمله وعالجه لكان من الهالكين .

وهذا الانتصارالباهر الذى شاهده وعاينه الغاليون بتلك الجهـة مكن حنبعل من تجنيد عدد كبير منهم انضموا اليه طمعا فىالسلـب وانهب ، وكانوا مبهوتين ومندهشين من مقدرته وشجاعته التى لم يروا لها مثيلا . ولولا هؤلاء الجنود لكان من العسير عليه مواصلـة الكفاح ضد الرومانيين

ولو ان حنبعل لميفكر قط فى غزوايطالية بالعدد القليل منرجاله وهو يعلم علم اليقين ان عدوته رومة يمكن لها ان تجمع بسهولة نحو ٧٥٠ ٠٠٠ مقاتل ، بل كان قصده الذى يفكر فيه فى سـره هـو الفضاء شيئا فشيئا على وحدة ايطالية السياسية وتفكيك عرى تلك الوحدة . فلقد كان يريد ان يدرك هدفا سياسيا بوسائل حربية . فتلك الوحدة المبنية على اشتراك المصالح ، وعلى الايمان والغريـزة الاجتماعية فى البشر ، يمكن تهديمها بمعاول الخو فوالرهبة والشك والانانية، وعند ذلك يكونله منالاعوانوالانصار بقدر ما يتمنى وزيادة

ولذلك كان حنبعل يصرح للايطاليين الخاضعين لحكومة رومة بانه لم ياتهم كعدو ، بل اتاهم ليخلصهم من نير الاستعمار الرومانى . وكان يطلب منهم ان يقولوا ذلك لاخوانهم ، وان يبثوا هذه الدعاية فيهم وان ينضموا اليه جميعا لفائدتهم ...

فكانت سياسة حنبعل نفس سياسـة بيروس من قبله تمامـا

◆ معركة ثربية (Bataille de Trebbia)

ثربية نهر جرافى من السواعد الموجودة على يمين بو .

التقىحنبعل بجيش القنصلالثانى سبروتيوس،زميل القنصلالجريح بيبليوسشبيون،على ضفاف ذلك النهر فى يوم قر كثير الثلوجمنايام الشتاء فانتصر عليه ايضا بدهائه وحيله الحربية وقتل الكثير مـن جنوده واغرق الباقين فى ذلك النهر

◆ معركة ترزيمان (lac de Trasimène)

اجتاز حنبعل بصعوبة كثيرة جبال الابينان بايطالية (Apennin)

ولما اراد عبور وادى ارنو (l'Arno) كان هذا الوادى طاغيا لتدفق المياه اليه من الثلوج التى كانت تذوب فوق قمم الجبال • وفى الواقع كانت هذه الجهة عبارة عن مستنقعات وآجام شاسعة يصعب المسير فيها • ومع ذلك فقد صمم حنبعل على اجتيازها مهما كانت التكاليف ، فعرض جيشه لاقتحام صعوبات واخطار كثيرة وكان حنبعل يسير وسط المياه وهو راكب الفيل الوحيد الذى تبقى معه ، وكان حنبعل اذ ذاك مريضا اصيب بتورم فى عينه حتى انه فقدها ولذلك لقبه الرومانيون بالقائد الاعور le Chef Borgne

ثم بعد ما خرج حنبعل من تلك البحيرة التى كانت تعرف فى القديم باسم بحيرة ترزيمان وصارت اليوم تسمى بحيرة بيروزة Lac de Pérouse التقى بجيوش القنصل (افلامينوس) فحاصرهم فى مضيق كائن بين الجبال الشاهقة من جهة وبحيرة ترزيمان من جهة اخرى ، وكانوا ثلاثين الفا ، فهلك نصفهم واسر النصف الباقى اما القنصل افلامينوس فقد قضى نحبه فى تلك المعركة

سياسة التانى

• وبعد هذه الكوارث والهزائم المتوالية عدلت الحكومة عن محاولة الدفاع عن ايطالية ، وحصرت قوتها ونشاطها فى الدفاع عن مدينة رومة ، مثلما راينا القرطاجيين يتركون اعاثوقليس وروغلوس يفعلان ما يريدان فى افريقية ويعيثان فى الارض فسادا ، ويقتصرون على الدفاع عن مدينة قرطاج •

• وسلمت رومة قيادتها الى جندى حنكته التجارب ، ومارس الحرب ، وعرف اسرارها ، وصار ماهرا فى فنونها ، ونصبته ديكتاطورا (١) لا يحاسب عما يفعل ، ذلك هو كانتوس فابيوس ماكسيموس (Quintus Fabius Maximus)

---

(١) الديكتاطور (Dictator) ان نظام الحكومة برومة نظام برلمانى ، لكن فى الاوقات الحرجة ، عند ما يشتد الخطر يعين القنصلان حاكما خاصا يسمى الديكتاطور ويقلدانه سلطة مطلقة اكثر من اى ملك ، فيتصرف فى الامور تصرف العاهل ذى النفوذ المطلق ، ويبت فيها كما شاء حسبما يراه بدون استشارة مجلس الشيوخ او الشعب ولا تتجاوز مدة عمله ستة اشهر ، ولا يحاسب عما يفعل لا فى مدة وظيفته ولابعدها الا فيما يتعلق بخزينة الدولة •

وقد اقتدت حكومة قرطاج برومة لما قلدت حنبعل النفوذ المطلق وعينته ديكتاطورا فى الحرب البونيقية الثانية (انظروا ذلك فى مكانه)

وكانت الخطة التى دبرها فابيوس وشرع فى تنفيذها ، ترتكز على نظرية صحيحة ومعقولة ، وهو ان حنبعل لا يمكن له ان يتصل فى المستقبل بمدد او نجدة ، وسوف يصبح عاجزا فى النهاية عـن تموين جيشه ، خصوصا وقد اتلف كل شيء حولـه ، ولـم يكتـف فابيوس بذلك بل اصدر الاوامر والتعليمـات لسكان جميع جهـات ايطالية ليهجروا منازلهم ، ويحرقوا زرعهم وما عندهـم مـن مؤونـة وذخر ، وليلتجؤوا الى الحصون والقلاع ••• ولذلك يرى فابيوس انه مـن الاحسـن اجتناب الاشتباك والتصادم مع حنبعـل فى معركة منظمة والاقتصار على اقتفاء آثاره فى كل مكـان ، وملازمته ملازمة ظله ، لمضايقته بقدر الامكان ، وعرقلة اعماله بجميع الوسائل وتعطيل نشاطه من بعيد ، وترك الحوادث فيما عدى ذلـك تجـرى مجراها وتسير سيرها •

وذلك لان فابيوس كان يتحقق تفوق فرسان حنبعل على فرسانه فلم يرتكب خطا من سبقه من المسؤولين مثل شبيون ، وسبرونيوس وافلامينيوس الذين قبلوا المعركة وخسروها ، بـل الحرب الـذى اختارها واعدها فابيوس كانت حرب افناء بالوقت وطول المدة لا حرب ابادة بالسلاح والمعارك ، فكان يتتبع آثار حنبعل من بعيد ، ويراقب اعماله عن كثب ، وينتصر عليه فى مناوشات كثيرة ، ويتركه هكذا يفرغ شيئا فشيئا ما عنده من جد وجهد الى ان يرمى آخـر سهـم فى كنانته وعند ذلك يمكن الانتصار عليه بكل سهولة •

• وشاءت الاقدار ان يصل حنبعل اثناء غزواته الى اغنى مكان عرفته الدنيا فى زراعة الكروم ، وهذا المكان هو «سهـل فالرنـة » (Plaine de Falerne) ما بين قالة Calez والبحـر فشرع فـى تخريبه واتلافه كما فعل بغيره من الاماكن••• وكان فابيوس يتتبع حركاته وسكناته من بعيد كما ذكرناه ، ويعرف ان حنبعـل لا بد له من المرور بفج فى جبل قاليقولة (Mont Callicula) فمكث فى انتظاره امام ذلك المخنق الضيق معتقدا كل الاعتقاد انه ظفر بعدوه فى هذه المرة ، وان ساعة النصر قد دقت ، وان حنبعل اصبح فى قبضة يده اسيرا •

لكن حنبعل كان خصب القريحة ، سريع البديهة لا يرتمى فـى الفخ مثلما توهمه فابيوس بل يجود عليه ذهنه بانواع شتى من الحيل

والمكايد فى اشد اوقات الضيق ، فما احس بتحرج الموقف حتى هيا الحيلة التى تفتح له ولجيشه باب النجاة والخلاص · فلم يتورط فى ذلك الممر الضيق بل استراح قليلا الى ان اتى الليل وجن الظلام ··

وفى ساعة متاخرة من الليل لاحظ فابيوس الجنود القرطاجية وهم يتسلقون سفح الجبل على ضوء مشاعل كثيرة اوقدوها ، وكانوا يسرعون فى مشيتهم، واحيانا يعدون عدوا، ويظهر عليهم شدة الهيجان فامر رجاله بتسلق الجبل ايضا للالتحاق باعدائهم ، ولما بلغوا القمة اندهشوا لما راوا انفسهم ، لا امام حنبعل وجنوده ، بل امام قطعان من البقر هائمة على وجوهها ، وقرونها تحمل حزما مشتعلة من العساليج الجافة ···

وراى فابيوس هذا المشهد العجيب وهو وحده فى معسكره ، فحار فى امره ، ولم يجرؤ على ان يبرحه حتى اصبح الصباح ، ونجا حنبعل بجيشه ، وخرج من المضيق سالما ·

اما فابيوس فقد ناء بثقل هذه الصدمة ، لانها اثارت عليه خصومه الذين اخذوا يهاجمون سياسته فى مجلس الشيوخ ، ويعيبون عليه تفويت الفرص ، واتلاف المزارع ، وتخريب الديار ، واتهمه بعضهم بالخيانة ومد يد المساعدة الى العدو ، واخذوا يقولون بأن حنبعل لا يمس املاكه بسوء ، وذلك لتواطئه معه · وفى الحقيقة فان سياسة فابيوس كانت فيها نقطة ضعف لا يمكن نكرانها ، وهى كونها تقتضى ثمنا غاليا ، وتتطلب تضحيات جسيمة ·

وهكذا اخذ نفوذ فابيوس يسقط ويتضاءل شيئا فشيئا ، واخذت سياسة الاشتباك فى المعارك مع حنبعل تتغلب على سياسته ، الى ان ظهرت براءة فابيوس ، وتبين للعيان صواب رايه وبعد نظره ورشاد سياسته بعدما حلت بهم كارثة كانة (Cannes)

٢١٦ – مجزرة كانة

• وفى سنة ٢١٦ دارت معركة كبيرة دامية قرب مدينة كانة بين قوات رومة وقوات حنبعل نصب فيها هذا القائد لاعدائه فخا اوقعهم فيه عند الملحمة والاشتباك ، فطوقهم بجنوده من كل جانب ، وسد فى وجوههم ابواب النجاة ، واجال فيهم السلاح الى ان افناهم عن آخرهم ، وكان عددهم ٧٠٠٠٠ من المشاة ، و ٦٠٠٠ من الفرسان ولم يخسر حنبعل فى هذه المعركة سوى ٥٧٠٠ مقاتل اكثرهم من الغاليين ·

• ويتعجب المؤرخون من كون حنبعل لم يستغل انتصاراته المتوالية ، ولم يستثمر على الاخص هذا الفوز الباهر بكانة للزحف على رومة وهى فى حالة دهشة وذهول وارتباك • فهناك واقع او تاثير ابسيكولوجى لم يستفد منه حنبعل ليضرب ضربته القاضية برومة •

وكذلك اصحاب حنبعل وقادته وضباطه فانهم كانوا ايضا يرون الوقت مناسبا ، والفرصة سانحة للزحف على رومة ، وكانوا قد التفوا حوله مترقبين منه ادنى اشارة للمسير نحو العاصمة ، وكان مهربعل يقول له : « اننا لقد انتصرنا انتصارا باهرا ، وانى لؤكد لك انك ستقيم احتفال هذا النصر بعد خمسة ايام بالكابيتول• فلننطلق فى الحين ولنفاجىء رومة حتى يعرف الرومان اننا اصبحنا فيها قبلما يعرفون اننا سائرون اليها ! »

ولكن حنبعل لم يشاركهم فى هذا التفاؤل وهذا الاندفاع ، بل كان يؤثر التانى والاتئاد وعدم التسرع ، الشىء الذى جعل مهربعل يجيبه بهذه الكلمات الماثورة : « ان الآلهة لا تهب جميع النعم لرجل واحد ، فانت تعرف طريق الوصول الى النصر ، ولكنك لا تعرف كيفية الاستفادة منه ! »

وهكذا اعتقد الناس ان حنبعل لم يكن مصيبا فى تفويت هذه الفرصة الثمينة دون ان يغتنمها وينتفع بها • ولكنه فى الواقع لم يكن مخطئا ، بل كان على حقيقة اذ كان ينظر نظرة خبير ماهر يعرف عواقب الامور ، ويقرا لكل شىء حسابه ، ويعلم ان الاستعدادات الكافية لم تتوفر بعد للقيام بحصار طويل تحت اسوار رومة المنيعة ، وكان يابى التهور والاندفاع والقاء الجيش فى المهالك ، ويريد قبل كل شىء تحقيق الوسائل اللازمة ، واعداد العدة لضمان النجاح والنصر •

ومن الوسائل التى كان يفكر فيها حنبعل بفكره الواسع ، وينظر اليها بنظرته الشاملة ، ويسعى الى تحقيقها قبل الهجوم على رومة :

- التمادى فى تهديم الوحدة الايطالية
- جلب النجدة والمدد من افريقية
- جلب النجدة والمدد من اسبانية
- التحالف مع مقدونية
- استرجاع صقلية

وبعد تحقيق ذلك البرنامج ، وطرق جميع تلك الابواب ، يصبح

الاستيلاء على رومة من اسهل الامور وايسرها

فان حنبعل قد بنى المستقبل على عدد كبير من الآمال • وان اهم اعتراض نعترضه عليه فى هذا التفكير هو تعدد تلك الآمال وكثرتها، اذ ان الكلية اذا تألفت من جزئيات كثيرة تصبح عرضة للتصدع فى مجموعها اذا اختلت جزئية واحدة منها •

فلنتامل فى هذه النقط الخمس لنرى هل نجح فيها حنبعل ام لم ينجح :

١) • تهديم الوحدة الايطالية

ان انتصارات حنبعل وعلى الاخص فوزه الاخير فى معركة كانة اعانت حنبعل على تفكيك عرى الوحدة الايطالية اذ دفعت القبائل فى وسط ايطالية وجنوبها والمدن الآهلة بالسكان الى عصيان رومة والخروج من حلفها ، والانتصار له ،والانضمام اليه ، والسعى فى ركابه

وما كان لهذا التقرب من سر سوى روعة النصر ، واغراء الغلبة ، وايحاء الرهبة

ففى قابو Capoue وهى اعظم مدينة فى ايطالية بعد رومة ، بدا الشعب يجهر بالهتاف لقرطاج ، ويطلب الانضواء تحت علمها ، ويرسل وفدا يطلب من حنبعل زيارة المدينة • ولما اتصل ذلك الوفد بحنبعل وابلغه الدعوة ، خف الى اجابة الطلب ، واعتبر هذا النجاح فوزا يفوق انتصاره فى معركة كانة

واقام حنبعل بمدينة قابو ، وجعلها قاعدة اعماله ، بل عاصمة تضاهى وتنافس مدينة رومة ، وعاش فيها ما يزيد عن خمسة اعوام فى نعيم ورغد من العيش ، الى ان فقد جيشه النشاط ، وادركه الفتور والركود ، وافسده العيش بعيدا عن ميدان الحرب وساحة القتال ، مثلما يفسد الصدا آلة من الحديد اذا تركت مدة طويلة بدون استعمال • • • .

وهذه الايام الحلوة اللذيذة التى قضاها حنبعل بقابو مع رجاله هى التى عبر عنها المؤرخون فى شىء من التهكم بقولهم « ملذات قابو » (Les délices de Capoue)

واتبع مصير قابو معظم الجهات بالوسط والجنوب ، وانضم سكانها الى حزب حنبعل ، ودخلوا تحت لوائه ، فاصبح فى صفه سكان البريتيوم (Britium) وابولية (Apulié) ومعظم السمنيين (Samnites) واللوقانيين (Lucaniens)

واستمرت بعض الجهات الاخرى فى اخلاصها وولائها للرومان مثل

نيلة Nola ونابلى (Naples) وقومة (Cumae)

ب) • جلب النجدة والمدد من افريقية

اما حنبعل فهو لم يترك الوقت يذهب سدى بل ارسل اخاه الاصغر (ماقون) الى قرطاج يطلب العون والمدد ليضرب ضربته الحاسمة

فلما مثل ماقون بين يدى اعضاء مجلس الشيوخ ، شرع يصف لهم روعة المعارك والانتصارات ، ويحدثهم عن عدد القتلى والماسورين ولم يكتف بالقول ، بل اتى بالمؤيدات والبراهين المحسوسة فصب امامهم كمية كبيرة من الخواتم التى كان يتحلى بها افراد الطبقة العليا من فرسان العدو •

ولكن ماقون ختم بيانه الممتع بطلب المال والرجال للوصول الى النصر الحاسم والفوز النهائى •

فتصدى له (حنون) ونهض لمقاومته ، وكان زعيم الحزب المطالب بالسلم فى مجلس الشيوخ ،وخصما لدودا لدعاة الحرب مثل آل برقة فالقى خطابا بليغا بين فيه اصراره على استنكار الحرب ، وانهال على ماقون باسئلته الحرجة التى افحمته واخرست لسانه ، فلم يجد لها جوابا : « انكم تتبجحون بالانتصارات ••• لكنكم تطلبون مع ذلك النجدة والمدد ! فماذا كنتم تطلبون لو كنتم خاسرين ومنهزمين ؟ ثم هل انضمت الى جيوشكم مدينة واحدة من المدن الرومانية ؟ او رجل واحد من اللاطينيين (١) ؟ او هل اتتكم انباء من رومة تعلن عن رغبتها فى طلب الصلح او فى التفاوض معكم ؟ ؟ »

فلم يستطع ان يجيب ماقون عن هذه الاسئلة الا بالنفى •

فقال حنون : « انكم اذن لم تتقدموا خطوة واحدة بالنسبة لليوم الذى بداتم فيه حربكم

ولذلك فانه لا يمكن لى ان اوافق على ارسال مدد يكون سببا فى زيادة عدد الضحايا ، وفى تكبد خسائر جديدة »

وبعد اخذ ورد وجدال طويل ، قرر المجلس ارسال مدد ضئيل كان عبارة على اربعة آلاف جندى من النوميديين ، واربعين فيلا ، ومبلغ زهيد من المال •

---

(١) كانت ايطالية تنقسم فى ذلك الوقت الى قسمين :
اولا : الارض الرومانية (le territoire romain) بالجهة الوسطى من ايطالية ومركزها رومة ، وهى تشتمل على ٣٥ قبيلة من المواطنين
ثانيا : اما بقية ايطالية فهى تكون « الارض الحليفة » (le territoire allié) « والمدن الحليفة » (les cités alliées) وسكانها كانوا لا يعتبرون من المواطنين وكان (حنون) يقصد بكلامه القسم الاول الذى لم ينضم منه شىء الى حنبعل

فاخذ ماقون كل ذلك ، وانطلق به الى اسبانية ليؤلف جيشا متركبا من عشرين الف جندى واربعة آلاف فارس، يذهب به الى ايطالية

ج) جلب النجدة والمدد من اسبانية

كانت الحوادث تجرى باسبانية لفائدة الرومان ، فكان بوبليوس شبيون واخوه اقناووس (١) يحرزان على انتصارات باهرة ضد القرطاجنيين • فقد استوليا على معظم الجهات ، وتقدما الى جنوب اسبانية ، واعادا بناء مدينة صاغنته التى كان هدمها حنبعل

ولما استعد ماقون للرحيل الى ايطاليا على راس جيش يمد به حنبعل راى المسؤولون القرطاجيون ان استخدام هذا الجيش بميادين الحرب باسبانية يخدم قضية قرطاج ويفيد مصلحتها اكثر من ارساله الى ايطالية

ومن جهة اخرى فان السردينيين اخذوا يظهرون لقرطاج استعدادهم للتخلص من الاستعمار الرومانى اذا وجدوا شيئا من المساعدة •

ولذلك تقرر فى النهاية ان يبقى ماقون وجيشه للحرب باسبانية وان يجهز جيش آخر يعادله فى العدة والرجال ويسير الى سردينية

وهكذا وقع القاء جيشين كبيرين على هدفين لم تكن لهما اهمية تذكر بالنسبة للهدف الاصلى وهو رومة • • • وقع ذلك بينما كان حنبعل يتلهف حسرة فوق الميدان الحقيقى ، ويترقب بفارغ الصبر اقل مساعدة للتغلب على رومة والانتصار عليها ، اذ بذلك الانتصار يتم الفوز بسهولة فى بقية الميادين الثانوية الاخرى ، وكان لسان حاله يقول :

(لقد اسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادى !)

فلو كان هذا القائد العظيم يتصرف فى الامكانيات والوسائل الحديثة للاتصال السريع مثل الطائرات ، والبرق ، والهاتف ، لرايناه يقلب الارض والسماء لاقناع حكومة قرطاج ومنعها من ارتكاب الاغلاط الشنيعة التى تجر وراءها الويلات والمصائب ، ولكن ماحيلته وقد عاش فى زمن لا تصل فيه الاخبار الا بعد وقوع الحوادث بمدة طويلة ، اى بعد فوات الفرص وعندما يصبح تدارك الهفوات امرا مستحيلا

والذى زاد فى الطين بلة كارثة سردينية : فان السرية التى وقع ارسالها الى صقلية لم تكن محظوظة ، اذ ثارت عليها الزوابع ودفعتها الى جزر البلجار (Iles Baléares) ثم بعد اتعاب كبيرة وصلت امام سردينية ، فخرج عليها القنصل (تيتوس مانيوس طور قاطوس) ،

(١) الاول هو والد شبيون الافريقى بطل جامة ، والثانى عمه

وبعد معركة عنيفة دارت الدوائر على القرطاجيين ، فقتل منهم من قتل ، واسر منهم من اسر ، ولم يسلم منهم احد •

وهكذا لم يتصل حنبعل لا بنجدة افريقية ، ولا بنجدة اسبانية ، بل كانت كلها آمالا لم تتحقق ••• ولو سارت عـنده الجنـود الى ايطالية مثلما تقرر ذلك فى بداية الامر ، لكانوا غيروا سير الحوادث وبدلوا مجرى التاريخ •

وقد اتى نشاط بوبليوس شبيونواخيه اقناووس باسبانية باعظم النتائج لفائدة رومة وضرر حنبعل ، لانه زيادة على الانتصارات المحلية قد سد على عاصمة الرومانيين باب البلاء والخطر ، اذ اجبر القـوات القرطاجية على البقاء لمقاومته وعدم الالتحاق بحنبعل •

د) التحالف مع مقدونية

ان انتصارات حنبعل كان لها تاثيرها ووقعها فى نفـس فيليب المقدونى (١) ، فاخذ يسعى فى التقرب الى هذا القائـد القرطاجـى الذى زعزع اركان رومة ، واستحر يهددها فى عقر دارها • فارسـل وفدا يراسه سينوفان الاثينى (Xénophane) ، ونزل هذا الوفد براس لاقينومة (Cap Lacinium) بايطالية ، واخـذ طريقه للاتصـال بحنبعل ، لكنه وقع مع رفاقه فى قبضة جنود الرومان ، فذهبوا بهم الى بريطـور (٢) او قاضى (Prêteur) مدينة لوقرة (Lucéria)

(١) فيليب المقدونى – من سنة ٢٢٠ الى ١٧٨ – هو فيليب الخامس ملك مقدونية تحالف مع حنبعل ضد عدوتهما رومة ، وحاول طرد الرومانيين من ايليرية (l'Illyrie) ولكنه فشل فى جميع محاولاته وجلب لنفسه عداوات كثيرة • وبعد سلسلة من النوائب والنكبات كان مضطرا الى قبول صلح مهين (٢٠٥) مع رومة التى انتصرت على قرطاج ، ثم انقلبت عليه واوقعت به سنة ٢٠٠ ق•م•

(٢) البريطـور (Prêteur) : بعد قبول طبقة الرعاع (plébéiens) فى القنصلية سنة ٣٦٧ بعد ما كانت القنصلية قبل ذلك التاريخ حبسا على جماعة الاشراف (patriciens) ، وقع فى مقابل ذلك احداث هيئة قضائية جديدة خاصة بالاشراف فقط وهى البريطورية (Prétoriat) ، وفصلت السلطة القضائية المدنية عن مشمولات القنصلية التى اصبحت مشتركة ، وادخلت ضمن مشمولات تلك الهيئة الجديدة الخاصـة بالاشراف ، واصبح البريطـور (prêteur) زميلا للقنصل (Consul) يقوم مثله وفى غيابه بحفظ نظام المدينة ، وبرئاسة مجلس الشيوخ وهيئة الالعاب العمومية

وقد بدا العمل ببريطور واحد ، ثم فى سنة ٢٤٢ ارتفع ذلك العدد الى اثنين ، ثم الى اربعة ، ثم ستة ، ثم ارتفع فى عهد اغسطس الى عشرة ، ثم بعد ذلك الى ثمانية عشر

وقد شاركت طبقة الرعاع فى البريطورية ايضا ابتداء من سنة ٣٣٧

ومن مشمولاتها الخاصة تسليم المراسيم وصيغ الاحكام (formules) وتعيين الحاكم ، واصدار الاوامر (édits)

وقد لعب البريطور دوراهاما فى نشر الشرائع والقوانين وعلى الاخص القانون القضائى (droit prétorien, jus prætorium)

فاوهموه بانهم اتوا مبعوثين من طرف ملكهم للتفاوض مع حكومة رومة فى شان عقد محالفة · فرحب القاضى بقدومهم عند ذلك ، واكرمهم غاية الاكرام ودلهم على احسن طريقة للوصول الى رومة بدون ان يصطدموا بالقرطاجيين

وبهذه الحيلة تمكن سينوفان ومن معه من الاتصال بحنبعل وابرام اتفاق على غاية من الاهمية ، قام فيه حنبعل واركان حربه مقام الحكومة القرطاجية نفسها · وكان حنبعل يعتبر ان اتفاقا من هذا النوع خير له بكثير من انتصاره فى معركة كانة · غير ان هذا الاتفاق لا يمكن ان يكون مستوفى الشروط وقابلا للتنفيذ والتطبيق الا اذا كان مذيلا بتوقيع ملك مقدونية ، ولذلك رجع به سينوفان وبصحبته ثلاثة مفوضين يمثلون حنبعل لحضور المصادقة على تلك المعاهدة · وابحروا جميعا من راس لاقينومة بدون ان يعوقهم عائق ، لكن لما خرجوا من خليج تارنتة وقعوا فى قبضة طرادات رومانية ، فحاول سينوفان استعمال الحيلة مرة اخرى للتخلص من الضباط ، لكن افتضح امره بوجود القرطاجيين معه · فالقوا عليهم القبض ، وفتشوا المركب ظهرا لبطن الى ان عثروا على نص المعاهدة ، ووجهوا الجميع الى رومة · وبعد ما اجرى مجلس الشيوخ بحثا مدققا فى تلك القضية تايدت التهمة الموجهة ضدهم ، وظهرت خطورة هذه الوثيقة الديبلوماسية، وساءت ظنونهم بملك مقدونية، وصارت تقرا له الف حساب

ولكن فيليب الخامس لم يقف عند ذلك الحد ، بل اوفد رسلا آخرين الى حنبعل ، فاتصلوا به ، ونجحوا فى مهمتهم كل النجاح وابرمت المعاهدة وتم التوقيع عليها من الجانبين · · · غير ان وقتا طويلا ضاع فى الذهاب ، والاياب ، والمفاهمات ، واعادة الاعمال من جديد فضاعت بذلك الفرص التجينة واصبح هذا الاتفاق فى النهاية خاليا من كل فائدة حقيقية بالنسبة لكفاح حنبعل بايطالية · · · فهو ايضا امل ضائع بنى عليه حنبعل تصميمه مثلما بناه على النجدة المنتظرة من قرطاج ، والمدد المترقب من اسبانية · · · ولكنها كانت كلها آمالا لم تتحقق !

ه) · ـ استرجاع صقلية

اما فى صقلية فقد جدت حوادث على غاية من الاهمية ، اذ ان هيارون ملك سرقوسة كون قبل موته سنة ٢١٦ مجلس وصاية يتركب من خمسة عشر وصيا لان حفيده (هيارونيموس) كان قاصرا اذ كان عمره ١٤ عاما فقط ·

وفي سنة ٢١٥ صار عمره ١٥ عاما ، فاعلن صهره ادرانودور بصفة رسمية بلوغه سن الرشد ، وحل مجلس الوصاية باستقالته منه ، فانتقلت السلطة ظاهريا الى الملك الشرعي هيارونيموس ، اما في الحقيقة فقد تسلمها ثلاثة من اقاربه وهم : ادرانودور ، وصواب ، وثرصون ، وانقسموا من الناحية السياسية الى قسمين : فاما ثرصون فقد كان مرتكزا على الحلف الروماني ومتمسكا باذيال رومة ، واما ادرانودور وصواب وكذلك هيارونيموس فقد كانوا يميلون الى حنبعل ويخلصون له الولاء ، وكانوا يريدون التخلص من رفيقهم الثالث ثرصون واخيرا تمكنوا من قتله والفتك بجميع انصاره بعد اتهامهم بمحاولة اغتيال الملك الصغير هيارونيموس • وارسل لهم حنبعل رسولين يمثلانه وهما هيبوقراط واخوه ابيسيد الاغريقيان من الاب والقرطاجيان من الام ، وكانا يتمتعان بثقة حنبعل •

ونشات اثر ذلك قلاقل واضطرابات كثيرة دامت الى خريف سنة ٢١٤ ، واسفرت عن قتل هيارونيموس والقضاء على كامل افراد اسرته ، اذ ذهبوا ضحية مؤمرات الحزب الجمهوري وهو الحزب الموالى لرومة ، ثم عن تدبير ثورة معاكسة للحزب الجمهوري نظمها ممثلا حنبعل وهما هيبوقراط واخوه ابيسيد • فهيجا الصقليين على الرومانيين ، وحرضاهم على التمرد والعصيان والمقاومة ، واستعانا بهم على الاستيلاء على سرقوسة ، وانتهت تلك الثورة بانتخابهما واليين، وبفرض ذلك الانتخاب من طرف الجمهور واعتباره شرعيا وان لم يكن كذلك في الحقيقة • وكان فوزهما فوزا عظيما وانتصارا باهرا لرئيسهما حنبعل •

وكان حنبعل يقيم في ذلك الوقت بمدينة اربينو (Arpino) جنوب ايطالية ليكون قريبا من حوادث صقلية من جهة وحوادث مقدونية من جهة اخرى ، اى من الحوادث التى كانت تهمه وتهم قضيته اكثر من كل شيء آخر •

ونحن نرى كيف توصل حنبعل بدهائه ، وبالرغم من قلة وسائله وامكانياته ، الى ربط الصلة بين اربينو وقرطاج بواسطة صقلية ، ولو ان هذا الرباط مازال واهيا وضعيفا في بدايته ، ولكنه سوف يشتد ويقوى عندما ياتى اسطول قرطاج الذى اخذ يتاهب ويستعد للسفر الى صقليته ، وعندما تصل القوات والسفن من مقدونية طبق نص المعاهدة •

ويظهر ان حنبعل قد حسن الموقف وجعله يسمح بالتفاؤل كانه استعمل لذلك عصاة سحرية ، ولذلك كانوا يلقبونه بالساحر (le Magicien)

لكن هل تتحقق هذه الآمال ؟ من سوء حظ حنبعل والقرطاجيين جميعا انها كانت مجرد آمال واحلام ، ولم يتحقق منها شيء : فلم يات اسطول قرطاج، ولم تصل سفن فيليب المقدوني، ولم ترد قواته وجيوشه ولم تدم صقلية طويلا تحت نفوذ حنبعل . وما حيلة هذا القائد وقد حسب حسابا ودبر تدبيرا للوصول الى نصر محقق لاشك فيه ، ولكن حالت الاقدار بينه وبين ما كان يؤمله ويتمناه ويحلم به طول حياته ؟

والذى زاد فى الطين بله هو استيلاء القنصل الرومانى مارسالوس على سرقوسة سنة ٢١٦ بعد حصار طويل ورغما عن جميع الوسائل التى ابتكرها العالم الجليل ارخميد (١) والمعونة الكبيرة التى قدمها للدفاع .

وبعد استيلاء القوات الرومانية على سرقوسة بقليل ، اى فى نفس تلك السنة (٢١٢) قتل الشبيونان فى المعارك التى دارت باسبانية ولو شاءت الاقدار ان يكون موتهما سنة فقط قبل ذلك التاريخ لما بقيت القوات القرطاجية معطلة باسبانية ، ولما وقعت سرقوسة فى قبضة الرومان ، ولسلكت حياة حنبعل وحياة شبيون الافريقى مسلكا آخر ، ولتغير مجرى التاريخ بصفة عامة . . .

---

(١) ارخميد Archimède (٢١٢/٢٨٧) : عالم من اكبر علماء الدنيا لا فى زمانه فقط بل فى كل الازمان ، ولد بسرقوسة وله اكتشافات علمية كثيرة تعرف باسمه . وكان هذا العالم يقود الدفاع لما زحف الرومانيون على مسقط راسه تحت قيادة مرسالوس . فمنعهم من الدخول ، ودام الحصار مدة ثلاثة اعوام . وكان ارخميد اثناء ذلك الحصار الطويل يبتكر آلات حربية عجيبة باستخدام اكتشافاته العلمية . فاخترع مجانيق ضخمة تقذف النبال والحجارة من مسافة بعيدة ، واخترع « عقارب » او ايدى من حديد ترفع السفن فى الفضاء ثم تلقى بها فى قعر البحر ، او ترفع الفرسان من خيولهم وترمى بهم على الارض ، واخترع مرايا ملهبة تشعل النار من بعيد فى مراكب المحاصرين . . . ولكن بعد ذلك الحصار الطويل والدفاع العجيب ، تمكنت الجنود الرومانية من الدخول والاستيلاء على سرقوسة واصدر مرسلوس الاوامر الصارمة لابقاء هذا العالم الجليل بقيد الحياة حتى لا تمتد اليه الايدى بسوء ، ولكن قتلوه غلطا بينما كان منكبا على حل مشاكله العلمية .

ولكن الاقدار هى التى تسير الكون ، وهى تعز من تشاء ، وتذل من تشاء ٠ ٠ ٠

الاسلحة التى استعملت فى هذه الوقائع (انظروا الصور صفحة ٢٥٧)

المنجنيق : آلة حربية ثقيلة كانت تستعمل لقذف الحجارة او لرمى النبال ، وكانت هذه الالة ترمى بقذائفها التى يبلغ وزنها احيانا ٨٠ كيلو غراما الى مسافة ٥٠٠ او ١٠٠٠ ميتر ٠ وكانت هذه الالة مستعملة عند الاغريق والمقدونيين والقرطاجيين والرومانيين

العرادة : آلة حربية ثقيلة كانت تستعمل لرمى النبال اوالقذائف التى لايتجاوز وزنها ٢٥٠ رطلا على مسافة ١٢٠ او ١٥٠ ميترا٠ وكانوا يحملونها فوق عربة خاصة ،

الكبش : آلة من الات الحرب كانت تستعمل فى الحصار وتقذف على جدران الحصون فكأنها كبش ينطح ، وكانت تتركب من خشبة طويلة وضخمة تنتهى بكتلة حديدية فى شكل راس الكبش وتستعمل اما معلقة فى جهاز كالدبابة او محمولة بايدى الجنود

وقد استعملت كل هذه الالات عند العرب ايضا ٠

٢١٢ – الى الهاوية !

ويمكن ان نقول بانه ابتداء من سنة ٢١٢ ، اى ابتداء من سقوط سرقوسة فى قبضة الرومان ، قلب الدهر لحنبعل ظهر المجن ، فاخذ نجم سعده فى الافول ، وزهر حظه فى الذبول ، وتوالت عليه النكبات والمصائب من كل جهة وجانب :

٢١١ ● **خسر حنبعل عاصمته الاولى قابو** ، وكان اهلها تحت حمايته ورعايته ، وكان قد وعدهم بان يجعل من مدينتهم « رومة الجديدة » ، لكن حاصرهم الرومانيون ، وسدوا فى وجوههم كل الابواب ، وبالغوا فى تجويعهم فصمدوا ، وتجلدوا ، وتدرعوا بالصبر مدة طويلة ، وصاروا يستغيثون بحنبعل ويطلبون منه النجدة ، وحاول هذا الاخير ان يمد لهم يد المساعدة ، واستعمل لذلك جميع الوسائل والحيل ولكنه لم ينجح ٠٠٠ وفى نهاية الامر استسلموا الى الرومانيين ، فصبوا عليهم جام سخطهم وغضبهم ، وانتقموا منهم شر الانتقام ٠ وكان هذا الانتصار الرومانى يعتبر طعنة قوية ضربت شهرة حنبعل فى الصميم ، واسقطته من عليائه ، وضاعفت مطامع اعدائه

٢١١ ● انتخب كرنليوس شبيون قائدا باسبانية

وبعد الاستيلاء على قابو بمدة قليلة وقع انتخاب كرنليوس شبيون وتعيينه فى وظيفة بروقنصل باسبانية رغما عن حداثة سنه ، إذ كان عمره لا يتجاوز ٢٧ عاما ٠

وهنا ظهر على المسرح بطل جديد القى بسيفه فى كفة الميزان ٠ فهذا القائد الرومانى كان يتمتع بنفس الخصال التى جعلت من حنبعل البطل المغوار ، الذى لا يشق له غبار ٠ واذا كان حنبعل قد من الحديد ، فانه يحق لنا ان نقول اذن : ما للحديد الا الحديد !

والتحق شبيون باسبانية لقيادة الجيش مكان ابيه وعمه اللذين سقطا هناك فى ميدان القتال ٠

٢١٠ ● خسر القرطاجيون باسبانية مدينة قرطاجنة

لقد سجل شبيون باسبانية انتصارات باهرة ، واستولى على مدينة قرطاجنة الكائنة وسط مقاطعة مناجم الفضة ٠

٢٠٩ ● خسر حنبعل بايطالية مدينة تارنتة (Tarente)

وهى المدينة التى كان استولى عليها حنبعل سنة ٢١٥ اى بعد مجزرة كانة بسنة تقريبا ٠

٢٠٩ ● خسر اخوه صدربعل باسبانية معركة باقولية (Béculie)

جهز صدربعل جيشا كبيرا ليسير به الى اخيه حنبعل بايطالية ٠ فاعترضه شبيون واراد ان يعطله على المسير ودارت معركة بين الجانبين بجهة (باقولية) وانهزم صدربعل امام شبيون ، ولكن هذا الاخير لم يقدر على منعه من السير بجيشه الى ايطالية ، فى الوقت الذى كان فيه حنبعل فى اشد الحاجة الى النجدة ٠

٢٠٧ ● سقط صدربعل قتيلا فى معركة ميتور (Métaure)

سلك صدربعل نفس الطريق التى سلكها حنبعل تقريبا ، واجتاز جبال البيرينيت وتخطى جبال الآلب ، ودخل ارض ايطالية ليلتحق باخيه ٠

ولكن القوات الرومانية داهمته قرب نهر ميتور على بحر الادرياطيق وكان على راس تلك القوات القنصلان كلوديوس نيرو(Claudius Nero)

وليفيوس ساليناتور Livius Salinator فاضطرمت نار الحرب بين الفريقين ، وكان النصر حليف الرومانيين ، وسقط صدربعل بساحة القتال صريعا يتخبط فى دمه ، ففصلوا راسه عن جسمه ، والقوا به فى معسكر اخيه ٠

فلما رآه حنبعل صاح فى لوعة اليأس ومرارة الاسى : **« آه يا قرطاج ! انى ارزح تحت عبء آلامك ! »**

ونحن لا ندرى ماذا كان يخبئه القدر لو اتصل صدربعل باخيه ، وواصل القتال معه فى هذا الوقت الذى خارت فيه رومة ، واصابها الانحلال ، وثار عليها الكثير ممن كانوا يقاتلون فى صفوفها وشقوا فى وجهها عصا الطاعة ، وابوا مواصلة دفع الاموال لانهم كلوا وملوا من ذلك ٠٠٠

ولكنها الاقدار تفعل ما تشاء ٠٠٠

٢٠٧ ● تم استيلاء شبيون على اسبانية وطرد القرطاجيين منها

واستمر شبيون فى تقدمه وانتصاراته باسبانية حتى اصبح معظمها فى قبضة يده ، واطرد منها القرطاجيين ونجح فى مهمته كل النجاح ، خصوصا وقد تسلط على عواطف الاسبانيين ببشاشته ، ولينه ، وحسن معاملته ، الى ان صاروا يحبونه ويعجبون به كل الاعجاب ٠

٢٠٥ ● انتخب شبيون قنصلا ونقل ميدان الحرب الى افريقية

وفى سنة ٢٠٥ انتخب شبيون قنصلا وبادر بنقل ميدان الحرب للمرة الثالثة الى افريقية ، مثلما فعل اغاثوقليس وروغلوس من قبله ٠ فنزل قرب اوتيكة سنة ٢٠٤

٢٠٣ ● ولبث حنبعل بعد انتصار كانة نحو اربعة عشر عاما يطوف ارض ايطاليا ، ويضرب فى مناكبها ، فيفوز حينا ، ويخفق احيانا ، الى ان استقدمته حكومة قرطاج ، ودعته الى الرجوع الى افريقية على جناح السرعة ، لانقاذ البلاد من هجومات كرنيليوس شبيون الذى نقل ميدان الحرب الى البلاد الافريقية ٠

فركب حنبعل البحر مع رجاله ونزل بلمطة (قرب مدينة سوسة) فى صائفة سنة ٢٠٣

فكانت المدة التى قضاها حنبعل فى الكفاح من يوم خروجه من قرطاجنة باسبانية الى ان نزل بافريقية تقرب من ستة عشر عاما

ثانيا ـ الحرب بافريقية

٢٠٤ ● نزل شبيون قرب اوتيكة على راس ٢٠ ٠٠٠ مقاتل ، وعسكر بالقرب من تلك المدينة ، واجتمع بحليفه ماسنيسا ملك نوميدية الشرقية الذى سيساعده على الانتصار بمشاركة فرسانه الابطال ، مثلما ساعد ناراواس ، فيمامضى ، القائدالبونيقى عملقرط ضد زعماء الحركة التحريرية فكان ذلك سببا فى فوزه وانتصاره على المقاومين • غير ان ماسنيسا كان عكس ذلك يعاون القوات الرومانية ليتمكن بذلك من طرد المستعمرين البونيقيين ، ثم يفكر بعدها فى طريقة تمكنه من التخلص من رومة وارجاع افريقية الى الافريقيين مثلما كان يكرره فى كل مناسبة •

٢٠٣ ● فى ربيع سنة ٢٠٣ انتهز شبيون غفلة من صدربعل قائد القوات البونيقية ومن حليفه سيفاكس ملك نوميدية الغربية ، واضرم النار فى معسكريهما ، فهلك الجيشان ، واسفر الحريق الهائل عن قتل ٤٠ ٠٠٠ من الجنود واسر ٥ ٠٠٠

٢٠٣ ● وفى شهر جوان اخذ سيفاكس وصدربعل يعدان العدة للهجوم على عدوهما ، لكن خاب مسعاهما ، وانتصر شبيون عليهما بجهة جندوبة او الدخلة اى بسهول سوق الاربعاء ••• ثم عسكر شبيون بتونس واخذ يهدد مدينة قرطاج •

اما الاقليد ماسنيسا فانه اخذ يجد فى اثر سيفاكس الى ان القى عليه القبض واخذه اسيرا ، ودخل عاصمة قرطة (وهى قسنطينة الآن) مظفرا منصورا •

وتزوج بالاميرة صوفونيسبة امراة سيفاكس ، وكانت خطيبته ، وكان يهواها ، لكن هذا الزواج لم يدم اكثر من ليلة واحدة ، وذلك لان شبيون كان يخشى تاثير هذه الاميرة البونيقية على بعلها الجديد ، فامر ماسنيسا ان يسلمه اياها فى الحين كبقية الاسراء ، ولكن الاميرة اختارت الانتحار على الذل والعار ، وتجرعت كاسا من السم الزعاف ، وسقطت جثة هامدة لا حراك فيها

٢٠٣ ● وفى صيف ٢٠٣ نزل حنبعل بلمطة كما اشرنا اليه قبل هذا ، ثم من هناك توجه الى حدرموت (سوسة) ثم سافر الى قرطاج ومنحه مجلس الشيوخ لقب « قائد ديكتاتور » له النفوذ المطلق ،

ولا يسال عما يفعل ، ثم عاد الى سوسة واخذ يجمع الجموع ، ويستعد للحرب والنزال ، وكان يعتمد فى ذلك على عدد من انصاره وحلفائه ، مثل الامير (مزطول) الذى هو من اسرة ماسنيسا ولكنه كان فى خلاف معه ، ومثل الملك (فرمينة) بن الملك سيفاكس الذى وعـده بالرجال والمؤونة ...

ويظهر ان البرنامج الذى سطره حنبعل لنشاطه كان يتخلص فى النقاط الثلاث التالية :

- الالتحاق بالمدد والنجدة فى ناحية من نواحى الجهة الوسطى بالبلاد التونسية ،

- ثم السير لقتال ماسنيسا الذى كان فى ذلك الوقت يحارب لفائدته الخاصة حوالى مدينة قرطة ، والظفر به قبل التحاقه بالرومانيين الذين كانوا يترقبون قدومه ،

- الايقاع بشبيون ورجاله بعد عزلهم عن حليفهم ٠

لكن شبيون قد توقع كل ذلك ، فكانه قرا ما كان يجول بخاطر عدوه ٠ فكان من المتحتم عليه حينئذ احباط اعماله ، وافساد هـذا البرنامج ، واجتناب نتائجه وعواقبه الوخيمة ٠

ولذلك خرج شبيون من معسكره فى الوقت الذى خرج فيه حنبعل من سوسة لينفذ خطته ٠

وكان شبيون يعرف ان خصمه ، بعد خروجه من سوسة ، سوف يتجه نحو الشمال الغربى لاجتياز سلسلة جبال الظهرية الكبرى التى تفصل بين الساحل وافريقية ، وذلك بالدخول فى مسلـك مـن مسالكها المعروفة ٠

واذا نزل شبيون من مقره اى من الجهة الشمالية الشرقية متجها نحو الجهة الجنوبية الغربية ، فانه يمكن له ان يجرؤ على انتظار حنبعل عند خروجه من احدى تلك المسالك التى تفتح شمالا على سهول سليانة ويكون شبيون عند ذلك معززا بحليفه ماسنيسا اذ ارسل يحثه على الالتحاق به فى ذلك المكان بكل سرعة ،وعند ذلك يبادر بالايقاع بخصمه قبل وصول نجدة فرمينة اليه

وكان حسابه صحيحا ، فنفذه حرفيا ، وتم الامر مثلمـا توقعـه تماما ...

ولما خرج حنبعل من ثغرة الظهرية ، اى من الفج الذى سلكه ، فاجاته مفاجاتان : وجود شبيون هناك فى انتظاره ، وانضمام ماسنيسا اليه وكان يظنه ما زال بعيدا ٠

فالتقى هناك حنبعل قرطاج بحنبعل رومة ، وتقابلا وجها لوجه وظهرا على المسرح تحت انظار العالم باسره واصبحت المعركة بينهما امرا محتوما لا مفر منه ولا مهرب ، وكانت جامة لها ميدانا ٠

ولكن اين كانت توجد جامة هذه ، واين كان موقعها ؟ قد اثبت المؤرخون وجود جامتين اثنتين : جامة الصغرى (Zama Minor) وجامة الكبرى (Zama Major) او جامة ريجيا ((Zama Regia) (مثلما وجدت لبتيس الصغرى (Leptis Minor) وهى لمطة قرب سوسة ، ولبتيس الكبرى (Leptis Major) وهى لبدة بطرابلس الغرب ، ومثلما وجدت طبربة الصغرى Thebourba Minus وهى طبربة بجهة مجاز الباب ، وطبربة الكبرى (Thebourba Majus) وهى هنشير القصبات بجهة الفحص ، ٠٠٠ومثلما نجد اليوم ايضا القلعة الصغرى والقلعة الكبرى) ٠

وان عاصمة يوباالاولكانتبدون شك جامة الكبرى او جامة ريجيا (اى الملوكية) ، وهى غير جامة المعروفة الآن ولكنها فى جهتها ولا تبعد عنها كثيرا

وقد وقع العثور اخيرا ، قرب مدينة مكثر ، على احجار نذرية منقوشة كتب عليها اسم جامة ريجيا ، الشيء الذى مكن من ضبط موقعها بكيفية مدققة قرب الضريح القائم بقصر طوال الزوامل (Ksar-Toual-Zouameul) ، فى اعلى نقطة من المعبر المفتوح بين جبل ماصوج (شمالا) والجبال الملاصقة لصرد مكثر من جهته الشمالية (جنوبا) والذى يصل بين سهل سليانة وسهل السرس

وهذا المكان الذى يوجد به قصر طوال الزوامل ، والذى كانت توجد به جامة الكبرى او جامة ريجيا ، هو فعلا على الطريق الرابطة بين حدرموت (سوسة) وسيكا (الكاف) ، وهى الطريق التى كان سلكها حنبعل ٠٠٠ وهو حينئذ المكان الذى كان مسرحا للمعركة المشهورة التى دارت بين شبيون الافريقى وحنبعل ، والتى انتهت بها الحرب البونيقية الثانية

٢٠٢ ● معركة جامة

فى شهر اكتوبر سنة ٢٠٢ دارت معركة جامة بين القائدين العظيمين شبيون وحنبعل •

وكانت جنود شبيون منظمة ، تؤلف مع قائدها كتلة متحدة كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا •

بخلاف جيش حنبعل ، فاننا ، اذا استثنينا القدماء المدربين الذين رافقوه من ايطالية ، نجده مؤلفا من فرق وقع جمعها وتلفيقها من هنا وهناك ، وفى مدة وجيزة فهو يتركب من اجناس مختلفة • ولم يكن حنبعل يعتمد الا على اصحابه القدماء فى الجندية والذين استصحبهم معه من ايطالية • وقد ابقاهم حوله فى المؤخرة وامرهم بان لا يشاركوا فى المعركة الا فى النهاية ، وان لا يمدوا يد المساعدة الى الاخرين الذين جعلهم فى المقدمة ، بل اوصاهم بالفتك بهم ، وبتقتيلهم اذا ما فكروا فى الانهزام او حاولوا الفرار امام العدو • وهكذا كانت صفوف المقدمة فى جيش حنبعل بين نارين او بين عدوين : الرومان من الامام ، وقدماء جنود حنبعل من خلف • وفعلا فان الصفوف الامامية لما تقهقرت وانهزمت تحت تاثير صدمة الجنود الرومانية ، وجدت نفسها تتقاتل مع قدماء جنود حنبعل ، مثل الذى خلص من الدب فوقع فى الجب !

ومن اهم اسباب خيبة حنبعل وانكساره عدم وجود الانسجام والتعاون والتكتل فى صفوفه مثلما كان ذلك موجودا فى صفوف اعدائه •

وقد جعل حنبعل فى مقدمة جيشه صفا من الفيلة واراد ان يستعملها مثلما تستعمل الدبابات فى ايامنا Tanks او المصفحات (les blindés) غير ان شبيون قد احتاط لذلك من قبل فرتب جنوده ترتيبا خاصا وجعل فيهم فجوجا حتى يمكن لها ان تمر خلالها بدون ان تدوس العساكر وبدون ان تحدث فيهم المقتلة التى كان ينتظرها حنبعل •

ولذلك فان حنبعل لم يتوصل من استعمال الافيال الى ما كان يؤمله ، بل اندفعت بعض الافيال فى المعابر والفلول التى اعدها شبيون بدهائه ونظمها بمهارته فاجتازت الصفوف الرومانية بدون

ان تحدث ضررا يذكر • وانزعج الكثير منها من دوى الابـواق ، فجفلت ورجعت على اعقابها ، وهجمت على الجناح الايسر من جيوش حنبعل ، اى الفرسان النوميديين ، واتجهت بقية الافيال هاربة نحو الجناح الايمن اى الفرسان البونيقيين ، فرارا من وابل النبال والحراب التى كانت تمطرها بها جيوش الرومانيين والتى كانت تشبعهـا وخزا وجروحا ، فكانت وبالا على اصحابها لا على اعدائها •

واستثمر ماسنيسا ولاليوس ما احدثته هذه الافيال من بلبلة واضطراب فى صفوف القرطاجيين ، فحملا على فرسان حنبعـل المرتبين فى الميمنة والميسرة ، فهزماهم •

ولم يكن حنبعل فى الحقيقة يعتمد كثيرا على فرسانه لان عددهم كان قليلا جدا ، وكان شبيون متفوقا عليه بكثير فى ذلـك بفضل مساعدة ماسنيسا ومشاركة كتائبه وفرسانـه • ولذلك فبمجـرد هجوم فرسان الرومان تحت قيادة ماسنيسا الملك النوميدى من جهة ولا ليوس القائد الرومانى من جهة اخرى ، انهزم فرسان حنبعل امام تلك الصدمة العنيفة،فطاردهم ماسنيسا ولاليوس على مسافة بعيدة•

وبينما كان حنبعل منهمكا فى الاشتباك الحاسم مع عدوه ، ويحاول التغلب عليه باعانة قدماء جنوده المدربين قبل رجوع ماسنيسا ولاليوس من مطاردتهم ••• وكان اوشك ان يفوز وان يتغلب عليه ••• واذا بماسنيسا ولاليوس يحملان عليه من خلف ، وهى نفس التكتيك الحربى الذى استعمله حنبعل فى معركة كانة وانتصر به على اعدائه ، وها هو اليوم يستعمل شبيون ضده نفس تلك الطريقـة الفنيـة فتحقق حنبعل انه خسر المعركة ، وفر هاربا الى مدينة سوسـة مع اركان حربه

٢٠١ ـ معاهدة الصلح

ثم جمع حنبعل فلول جيشه ، ومضى الى قرطاج وهو عـلى غايـة من الحسرة والاسى ، وارسلت الحكومة فى طلب الصلح من رومة ، فكان نص المعاهدة يشتمل على الشروط والالتزمات التالية :

١) ان تستبقى قرطاج معتلكاتها فى افريقية،وان تتمتع باستقلالها
٢ ان تسلم كافة الاسراء ، والهاربين من الجندية ، والفارين من الحرب

٣) ان تسلم ما تملكه من سفن حربية ، باستثناء عشرة سفن ثلاثية (trirèmes) تستبقيهالها ، وتسلم كذلك كافة افيالها مع التحجير المطلق عليها بان تروض افيالا للحرب فى المستقبل .

٤) ان لاتثيرحربا خارج افريقية او داخلها بدون اذن من رومة

٥) ان يسترد الملك ما سنيسا كل ما يملكه هو واسلافه

٦) ان تمد قرطاج جيش رومة بالمؤن والاجور حتى يتم الاتفاق على معاهدة الصلح وتضع الحرب اوزارها

٧) ان تدفع غرامة حربية تبلغ عشرة آلاف وزنة اوبيةمن الفضة (١) تدفع اقساطا موزعة على خمسين سنة (٢٠٠ وزنة في كل عام)

٨) ان يتخير قائد الرومان مائة رهينة من ابناء القرطاجيين تسلم الى رومة ضمانا لتنفيذ المعاهدة وصفاء الجو بين البلدين

وهكذا : خسرت قرطاج صقلية فى الحرب البونيقية الاولى ٢٤١ – وخسرت سردينية وكرسيكة اثناء الثورة التحريرية اثرالحرب البونيقية الاولى ٢٣٧

(١) الوزنة الاوبية (talent euboïque) : سميت كذلك نسبة الى اوبة (Eubée) وهى جزيرة من جزر الارخبيل اليونانى ، وهذه الوزنة فارسية الاصل ادخلها صولون فى النظام النقدى باثينة واوبة .

ففى القرن السابع قبل المسيح ضربت النقود باثينة واوبة حسب النظام الوزنى الاوبى (système pondéral euboïque) الذى يقابله النظام الوزنى الايجينى (sytème pondéral éginitique)نسبة الى جزيرة اخرى قرب اثينة تسمى ايجينة (Egine) وهذاالنظام يرجع الى اول عهد ظهرت فيه النقود اى الى بداية القرن السابع قبل المسيح

– النظام الايجينى : قطعة عشرة دراهم ايجينية فضة (didrachme) تزن ١٢،٠٧ غراما ، وكانت تسمى هذه النقود الاولى بالسلحفاة (torlue) وترتكز فى وزنها على المن الايجينى (mine) الذى يزن ٦٢٨ غراما .

– النظام الاوبى : اتى بعد النظام السابق ، واستعمله الاسكندر الاكبر ، وانتشر فى العالم الهلينى باسره ، وهو يرتكز فى ميزانه على المن الاوبى الذى يساوى ٤٣٦ غراما فقط ، والجزء من المائة منه هو الدرهم (drachme) ويزن حينئذ ٤،٣٦ غرامات ، وقطعة اربعة دراهم (tétradrachme) وهى اكثر النقود استعمالا وانتشارا تزن ١٧،٤٤ غراما .

والوزنة الاوبية تساوى ستين منا او ٢٦،١٦٠ كيلوغراما .

والوزنة ذهبا تساوى عشر وزنات فضة .

ـ وهى تخسر الآن اسبانية بلاد معادن الفضة ٢٠١

ولم يبق لها حينئذ الا ما تملكه بافريقية من البحر الى حدود مملكة ماسينسا التى اصبحت تمتد الى وادى ملوية ٠

واستمر حنبعل ماسكا زمام الحكم بقرطاج، فهاجم محكمةالقضاة لانها اغتصبت من الشعب سلطانا لم يكن لها ولاينبغى ان يكون لها، بل لايكون الا للشعب وحده ، فصار منصب القاضى يحرز عليه بالانتخاب ويستمر عاما واحدا ٠ ثم تناول حنبعل حياة الشعب الاقتصادية فنظم الصادرات والواردات ، واقام المراقبة الشديدة على الضرائب ، واقتصد فى المصاريف ، وافتك الاموال ممن احرزواعليها بكيفية غير مشروعة، فهان بذلكدفعالغرامة الحربية ، واهتم اهتماما كبيرا بتحسين الفلاحة ، وشجع على غراسة الزياتين لتكوينموارد ومداخيل جديدة للبلاد ، فانتعشت الامة وتحسنت احوالها ٠

ولكن ذلك لم يرق لخصومه من طبقة الاغنياء ، فاخذوا يناضلونه ويقاومون خططه ، ويدبرون له المكائد ، ويدسون الدسائس لاثارة الحكومة الرومانية عليه ، ويتهمونه عندها بكونه يعد العدة لاشعال نار حرب اخرى بتضامنه مع ملوك الشرق ، ويحثونها على المطالبة بتسليمه اليها ٠

وشعر حنبعل بكل هذه الدسائسوالمناورات ، فاستقر عزمه على الفرار (سنة ١٩٥) ٠ ولما اتى المساء ، امتطى جواده وانطلق به الى منزله على الشاطىء قرب المهدية،فاستقبلته سفينة اعدهالرحيله، وابحر الى جزيرة قرقنة ، واعلن للمتصلين به ان الحكومة قد انتدبته سفيرا فى مدينة (صور) ٠ ومن هناك ابحر الى آسيا الصغرى ، واستمر فى مقاومة الرومان بجميع الوسائل ، الى ان نزل ضيفا على الملك (بروسياس الثانى) صاحب مملكة بثينة (Bythynia) فشعر بانه ينوى تسليمه الى الرومان ، فخير الانتحار بشرب السم (سنة ١٨٣ ق٠م) على ان يقع فى قبضة اعدائه حيا ٠

والامر الغريب هو ان عدوه (شبيون الافريقى) الذى كان انتصر عليه وقهره فى واقعة جامة ، مات فى نفس تلك السنة مغضوبا عليه من حكومته ، ومطرودا من بلاده التى لم تعترف له بالجميل حتى انه لم يقبل ان يدفن بروما وامر ان يكتب على قبره :

« **ايها الوطن الناكر للجميل ، لن تنال عظامى !** »

نص قراءة

كان حنبعل الجندى الصادق الذى لازيف فيه ولاعاب عليه، تملاه الشجاعة فى غير تهور ، وتبدو سرعة بداهته، وخصوبة ذكائه ، ونفاذ بصيرته فى المئازق الحرجة والازمات المضيقة • وكان اذا حط عليه التعب واضطلعت بحملـه مناكبه فى غير استياء ولاشكوى ، وكان يألف احتمال البرد القارس ، والحر اللافح ، حتى ليبدو وكانه لايحس اثرهما ولا يعبابهما ••• فاما رغبته فى الطعام والشراب فكانت لاتتجاوز حاجته الطبيعية اليهما ، وضمان العيش بما يتيسر له منهما • وقد كان يهزا بسلطان النوم ولا يخضع له الا اذا اتاحت له ظروف عمله لحظة يختلس فيها راحته ، حتى اذا دعاه العمل لبى دعاءه ، ومضى اليه موفور الهمة والنشاط ، وكان اذا تهيات له ظروف النوم القى بنفسه انى كان وحيثما اتفق ، وكثيرا ما كان يمر بـه الجند وهو ملقى على الارض ملتفا بردائه الحربى بين صفـوف مقدمة جيشه ، وهو الرجل الذى تهيات له الامامة ، وسعت له الزعامة ، وروع رومة طيلة العهد الذى عاشه ، حتى اقض عليها مضجعها ، وطير النوم من اجفانها ، ولم يكن له لباس فاخـر يميزه على بقية جنده ، ولكنه كان مفرطا فى عنايته باسلحته واهتمامه بالخيل التى يمتطى صهوتها فى ساحة الوغى •

فان عيب على احلاقه : وفظاظته وجشعه وتخطيـه لحـدود الامانة ••• فتلك مثالب قادة الحرب الذين عاشوا معيشته ، وتنفسوا الجو الذى كان يتنفسه • وقد كان رجل واجب اكثر منه رجـــل مجد •

اما فى ساحة القتال فكان حنبعل اشجع رجاله واقواهم على مدوامة الكفاح • فانه اول يتقدم للطعن وآخر من يبقى بميدان القتال ، وبهذه الخصال العالية استولى على قلوب جيوشه

عن الدكتور توفيق الطويل (قصة الكفاح)

الحرب البونيقية الثالثة

من سنة ١٤٩ ق٠م٠الى سنة ١٤٦ ق٠م٠
وانتهت هذه الحرب بتهديم قرطاج

١ ـ نهضة قرطاج

قد انتعشت قرطاج ، وعاد اليها ازدهارها ، وتحسنت احوالها الاقتصادية بعد عشر سنوات فقط من ابرام المعاهدة ، حتى انها عرضت على رومة ، قبيل اشتباكها فى حرب ضد ملك سورية انطاخس الثالث Antiochos III سنة ١٩١ ، ان تدفع لها مسبقا وفى مرة واحدة بقية الغرامة الحربية ، وان كانت الشروط تسمح لها بدفعها اقساطا على اربعين عاما ، كما عرضت عليها ان تعينها باسطول بحرى اذا سمحت لها باعداده وتجهيزه ٠ ولكن رومة قبضت المال ورفضت بناء الاسطول حتى لاتبقى مدينة لقرطاج ورهينة فضلها واحسانها ، وحتى لا تفتح لها باب صنع السفن فيصعب بعد ذلك سده وتعسر مراقبته ٠

ولما حل مبعوث رومة (قاطون) بارض افريقية سنة ١٥٣ اندهش من خصب الاراضى ومن ازدهار البلاد وهذا يدل على ان البونيقيين قد اهتموا باحياء الاراضى وبالنشاط الفلاحى اكثر من كل شىء آخر ، وهو الطريق الذى مهده لهم وارشدهم اليه حنبعل فى المدة الوجيزة التى قضاها فى الحكم ٠

اما التجار البونيقيون فقد عادوا شيئا فشيئا الى نشاطهم التجارى ، واخذوا يجوبون البحر ، ويفتحون اسواقا جديدة خصوصا نحو الشرق

٢ ـ اعتداءات ماسنيسا

وكان ماسنيسا نعم الحليف لرومة يكفيها مؤونة تعطيل تلك النهضة وعرقلة ذلك الازدهار الفلاحى ، ووضع حد لتقدم المرسى

التجارى ، فصارت رومة تشجعه على التوسع على حساب قرطـــاج خصوصا وان معاهدة سنة ٢٠١ تمنعهـا من الدفـاع عن نفسهـــا بدون رخصة من رومــة .

ففى كامل المدة الفاصلة بين الحربين الثانية والتالثة (اى من ٢٠١ الى ١٤٩) كان ماسنيسا (٢٣٨ – ١٤٨) لاينفك لحظةواحدة عن مشاغبة قرطاج ، ومضايقتها ، والتعدى على حقوقها ، وافتكـاك الاراضى والاملاك منها قطعة قطعة ، وكان يقول ويكرر دائما :

> **« ان القرطاجيين ما هم الا اجانب فى بلادنا ، فقد كانـوا استولوا غصبا على املاك اجدادنا ، ولذلك يجب ان نسترد منهم بجميع الوسائل ما كانوا افتكوه منا بالقوة »**

وكانت قرطاج تشتكى الى رومة فى كل مرة، وتستغيث وتستغاث . . فان نص المعاهدة يمنعها من اشهار الحرب بدون اذنها ، وعلى الاخص ضد حليفها ماسنيسا ، ومن جهة اخرى فهى تلتجىء الى رومة لتكون حكما ولتكف عنها اذاه، فتعمل رومة كانها لاعينارات ولا اذنا سمعت، بل كانت تساعده خفية على التمادى فى اعتداءاته المتوالية :

– فى ١٨٢ : استحوذ على ارض بجهة الحدود الغربية كان افتكها ابوه (غايا) من القرطاجيين ، وكان ارجعها لهم سيفاكس .

– فى ١٧٤ : استولى على ٧٠ مدينة او قلعة بونيقية

– فى ١٦٢ : استولى على اراضى (امبوريا) الخصبة اى جهة السرت

– فى ١٥٤ : استولى على اراضى الدخلة (جهـة سوق الاربعـاء) وسوق الخميس) وعلى جهة دوقة

وفى هذه المرة ارسلت رومة احد ساستها وهـو (قاطـون) للاستفسار عن اسباب الخلاف بين قرطاج وماسنيسا . فلما حـل بالاراضى البونيقية راعته موارد الرزق فيها ، وادهشته مظاهر القوة التى توفرت لها ، وازعجه اسطولها المجهز باكمل المعدات ، واقلقه مخازن اسلحتها الملآى بالذخائر .

فلما عاد الى رومة ، ومثل امام اعضاء مجلس الشيوخ ، اخذ يدعو الى تهديم قرطاج ، وكانت النغمة التى لا يمل ترددها والتى ختم بها خطبه : لا بد من تخريب قرطاج ! (Delenda Carthago !)

٣ – نشوب الحرب بين قرطاج وماسنيسا (سنة ١٥٠)

واستمر ماسنيسا فى اعتداءاته وتهجماته ، واسرف فى عدوانه ،

وافرط فى احتقاره لقرطاج واستخفافه بشانها ، حتى امتلا الاناء ، وطفح الكيل ، وتكهرب الجو ، وصار ينذر بالخطر

وقد كون ماسنيسا داخل قرطاج نفسها حزبا يؤازره ، وانصارا يؤيدونه ولا يوافقون على مقاومته واشهار الحرب فى وجهه ·

فقام الحزب الديموقراطى (المنتصر للحرب) بتطهير البلاد من هؤلاء الخونة انصار ماسنيسا ، ونفى منهم اربعين عضوا ، وحمل الشعب على ان يقسم غير حانث ولا متردد الا يسمح لهؤلاء الخونة بالعودة الى ارض الوطن · (وكان ذلك فى شتاء سنة ١٥٠) فاسرع هؤلاء الاربعون الى الملك ماسنيسا ، واخذوا يؤججون نار حقده ، ويحثونه على الايقاع باعدائهم ·

فارسل ماسنيسا ابنيه ماسيبسة وغولوسة الى قرطاج مطالبا بارجاع اتباعه الى ديارهم ولكن البطريق قرتل (١) (Boétarque Carthelon) منـع الاميـرين من دخول المدينة · وهجم (عملقرط السمنى) ، احد زعماء الحزب الديموقراطى ، على غولوسة وهو فى طريق العودة الى ابيه فقتل جماعة من خفرائه ·

فخرج عند ذلك ماسنيسا على راس كتائبه النوميدية ، رغما عن كبر سنه ، اذ كان عمره اذ ذاك ٨٨ سنة ، وسـار لحصار مدينـة اوروسقبة (Oroscopa) (٢) التى كانت مطمح انظـاره ، ولـو لم يكن له عليها ادنى حق · فاقرت حكومة قرطاج عزمها على قتاله ، فجهزت جيشا يتالف من ٢٥٠٠٠ مقاتل ، وجعلتـه تحت قيـادة البطريق صدربعل · فلما اقترب من جيش ماسنيسا ، انضم اليه ضابطان نوميديان وهما قاسيس وصوباس ، على راس ٦٠٠٠ من الفرسان ، وكانا قد هربا من جيش الملك لاستيائهما من اعمال ابنائه ، ففرح صدربعل بهذه النجدة التى اتت فى الوقت المناسب ، وعززت صفوفه التى لم يكن فيها سوى ٤٠٠ فارس فقط ·

وانتصر صدربعل فى بعض المناوشات ، وتقهقر الملك ماسنيسا بنظام حتى طوح بعدوه فى بطاح مقفرة تحيط بها تلال وعرة المنحدر لا يصل اليها المدد الا بتعب ومشقة · فاختار ماسنيسا سهلا منبسطا

---

(١) البطريق او البوطارق (Boétarque) : هو قائد الجيش عند الاغريق وعند الروم ، وصار يسمى كذلك ايضا عند القرطاجيين ·

٢) اوروسقبة : مدينة مجهولة

وعسكر فيه برجاله • اما صدربعل فقد اقام معسكره فوق ربوة عالية رآها مركزا مناسبا • وقد تضاعف جيشه بانضمام جم غفير من الرجال هرعوا اليه من كل مكان الى ان بلغ عدد رجاله ٥٨٠٠٠ مقاتل وكان ماسنيسا على راس جيش يعادله تقريبا او يزيد عليه بشىء قليل •

وفى مساء ذلك اليوم قدم شبيون الايملى (١) من اسبانية وقد اتى فى طلب افيال من الملك ماسنيسا • فرحب الملك بقدومه واكرم مثواه •

ومن الغد دارت معركة طاحنة بين الفريقين شهدها شبيون من اعلى ربوته ، وهو يتخيل نفسه الاله جبتر يشرف على معركة طروادة من اعلى جبل ايدة (mont Ida)

ودامت هذه المعركة الى الليل ، وكانت الخسائر جسيمة من الجانبين ، وظهر تفوق النوميديين فى آخر النهار •

وتدخل شبيون بين العدوين ، وقبل القرطاجيون ان يدفعوا الف وزنة من الفضة ، مائتين عاجلة ، والبقية اقساطا • ولما اضاف الملك الى هذا رغبته فى تسليم الهاربين ، رفض القرطاجيون ذلك الطلب وانقطعت المفاوضات بدون ان يحصل اى وفاق •

— وتسلم شبيون افياله ، وقفل راجعا الى اسبنية ، وتركهم فى قتالهم •

— وبقى الجيشان متقابلين فى جهة قفراء لا شىء فيها •

— وامر ماسنيسا بحفر خندق حول الربوة التى يقيم بها عدوه واصاب القحط جيش صدربعل ، واشتد بهم الجوع بكيفية لا تحتمل ، فاضطروا الى اكل الخيل والدواب ، وفتكت بهم الاوبئة ، واشتدت حرارة الصيف ، فانهدت قوى الجيش ، وهلك الكثير من افراده ، وانقطع كل رجاء وامل • ورضوا فى النهاية بالتفاوض مع ماسنيسا • فاشترط عليهم تسليم الهاربين ، وارجاع المبعدين الى

---

(١) شبيون الايميل (Scipion Emilien) : ولد سنة ١٨٥ ومات مقتولا سنة ١٢٩ هو ابن (بول ايميل) ودخل اسرة الشبيونيين بالتبنى ، وسمى قنصلا قبل السن القانونية سنة ١٤٧ ، فكان بطل الحرب البونيقية الثالثة والمعول الذى هدم مدينة قرطاج وتركها اثرا بعد عين •

ديارهم ، ودفع ٥٠٠٠ وزنة من الفضة تدفع اقساطا موزعة على خمسين عاما ٠فقبلوا هذه الشروط مرغمين ٠

« وامر من هذا وانكى ان المعاهدة قد اوجبت على صدربعل ان يمر وجنده من ورائه على معسكر العدو عزلا من كل سلاح ، عارين الا من قميص يستر اجسامهم ٠٠٠ وقبل البطريق هذه المهانة البالغة ابقاء على حياته ، فلوث بهذه الذلة شرفه العسكرى ، ولطخه بادران العار الذى لن ينساه التاريخ ٠ »

وعاد انصار ماسنيسا من جديد الى قرطاج بعدما ابعدهم الحزب الديموقراطى ٠

واستولى الملك النوميدى على مدينة (اوروسقبة) وعلى جهات اخرى مجاورة ٠

وانحصرت من ذلك اليوم حدود الجمهورية البونيقية فيما سترثه رومة منها سنة ١٤٦ ، وقد اراد شبيون الايميلى ضبطها وتحديدها بصفة نهائية وقارة ، فامر بحفر خندق يفصل بين التراب البونيقى والتراب النوميدى ، وهو المعروف باسم « فوسا ريجيا » (la fossa Regia) وقد غرزت فى مكان تلك التخوم انصاب امر بوضعها الامبراطور (وسبازيانوس) بعد حفر ذلك الخندق بمائتين وعشرين سنة

ويمكن التوصل الى معرفة ذلك الحد باتباع الآثار التى اشرنا اليها والتى تدل على انه كان يبدا بمصب وادى تسقى (Tusca) او الوادى الكبير قرب طبرقة ، ثم يتجه نحو الجنوب الشرقى ، ويترك خارجة عنه السهول الكبرى او سهول دخلة جندوبة بجهات سوق الاربعاء وسوق الخميس وهى التى استولى عليها ماسنيسا فى المدة الاخيرة ، كما يترك خارجة عنه ايضا مدينة باجة (Vaga) ، ثم يقص وادى مجردة ، ويمر بين وادى سليانة ووادى خلاد وهما ساعدتا وادى مجردة على ضفته اليمنى ٠

وقد وجدت قرب تبرسق (على الشمال الشرقى منها) انصاب من التى اقيمت بمكان الخندق ، فواحد منها عثر عليه على بعد ١٨ كم من تبرسق بمكان يعرف بهنشير البغالة ، ووجد آخر على بعد ١٣ كم قرب ضريح الولى سيدى عبد الله ابى البهائم ٠

ويوجد قرب تبرسق ايضا (ولكن على الجنوب الشرقي منها) نصب آخر على بعد ١٢ كم . وهذا يدل على ان تبرسق كانت كذلك خارج الحد .

ثم يتجه الحد بعد ذلك نحو الشرق كما يثبته وجود نصب آخر على مسافة كيلومترين ونصف جنوب هنشير الاسوار بجنوب جبل زغوان ، على عشرة فراسخ (اربعين كيلومترا) تقريبا غرب خليج الحمامات .

ثم يتجه الحد نحو الجنوب الشرقي ، او بالاحرى نحو ما بين الجنوب والجنوب الشرقي ، ويستمر في سيره غير بعيد عن الساحل الى ان ينتهي في بحر هنشير طينة (Tacnae) جنوب صفاقس (انظروا الخريطة)

٤ ـ الحكم على قرطاج بالاعدام

ان قرطاج ، باشهارها الحرب على ماسنيسا ، خالفت شرطا من شروط المعاهدة ، وخرقت الاتفاق المبرم بينها وبين رومة ، وكونت سببا او موجبا في الرجوع الى القطيعة والعداوة ، وفي اثارة الفتنة من جديد .

فاخذت رومة تتاهب لخوض غمارها .

وقد شممت قرطاج الخطر ، فبادرت باصدار حكمها بالاعدام على الذين تسببوا في الحرب ضد الملك ماسنيسا ، ونفذت عليهم ذلك الحكم ، ما عدى صدربعل ، فهو قد فر هاربا وافلت من الموت (وربما كان ذلك بإعانة الحكومة) ثم اوفدت قرطاج رسلها الى رومة لتعلن براءتها من الحرب وتعلم بان المسؤولين الذين اشعلوا نارها قد نالوا جزاءهم .

ولكن اعضاء المجلس قالوا للرسل :

« لماذا حكمتم عليهم بالاعدام بعدما انهزمتم وخسرتم المعركة ، ولم تحكموا عليهم في بداية الاعمال العدائية ؟ »

فلم يجد الرسل جوابا .

وصوت المجلس في جانب الراى القائل بان بيانات المبعوثين كانت اعذارا ملفقة ، لا يمكن قبولها ، ولا تسمح بالعفو عن جريمة قرطاج .

فانزعج السفراء ولحقهم الانذهال وسألوا الاعضاء عما ينبغي ان يفعلوه ليكفروا عن خطيئتهم .

فردوا عليهم بجواب كله غموض قائلين : « يجب ان تقوموا بارضاء الرومانيين »

فزادهم هذا الجواب حيرة على حيرتهم ، ورجعوا الى بلادهم يجرون اذيال الخيبة والانكسار .

وكان ماسنيسا يعول على ضم قرطاج الى مملكته جزاء على اخلاصه المتناهي لرومة ، ولكن مجلس الشيوخ كان يخشى ان يبرز يوما ما حنبعل ثان من الارومة النوميدية الاصولية وان يتخذ من قرطاج قاعدة لحرب جديدة ضد رومة . ولذلك صمم على محق قرطاج ومحو آثارها من الدنيا .

غير ان المجلس اجل التصريح بالحكم الى اليوم الذي يكون فيه القرطاجيون عاجزين كل العجز عن ابداء اية مقاومة .

وبينما كان المجلس منهمكا في مفاوضاته اتته رسل من مدينة اوتيكة يشعرونه بان مدينتهم تسلم نفسها اليهم وتدخل تحت حكمهم وكان ذلك منها نكاية بقرطاج لما كانت تكنه نحوها من الحقد والغيرة منذ مدة طويلة

ربيع ١٤٩ ● جهزت رومة جيشا يتالف من ٨٠٠٠٠ من المشاة و ٤٠٠٠ من الفرسان و ١٥٠ سفينة حربية منها ٥٠ سفينة خماسية ما عدى المراكب التي كانت مشحونة بالعدد والاثقال ، وسيرت كل ذلك الى اوتيكة في ربيع سنة ١٤٩ .

وكان القنصل مانيليوس (Manilius) على راس القوات البرية ، والقنصل قنسورينوس (Censorinus) على راس القوات البحرية ، وكان شبيون الايميلي (Scipio Aemilianus) قائدا اعلى لاركان الحرب ، وعمره اذذاك ٣٦ سنة ، وكان يرافقه في هذه الحملة صديقه المؤرخ المشهور بوليبس (Polybe)

وقد ادركت قرطاج خطورة الموقف ، فارسلت الى رومة ثلاثمائة رهينة من انبل اسرها واشرف بيوتاتها نزولا عند رغبة مجلس الشيوخ ، واملا في ايقاف تيار الحرب واظهارا للخضوع والطاعة والاستسلام .

ولكن القنصل لم يكفه ذلك بل طلب ان تسلم اليه جميع الاسلحة والعدد الحربية وادوات القتال . فلاحظت قرطاج بانها مستعدة لقبول كل الشروط والخضوع الى جميع الاوامر ، ولكن كيف يمكن لها بعد ذلك ان تقاوم صدربعل المحكوم عليه بالاعدام والذى اصبح يهددها على راس عشرين الفا من المقاتلين ؟

فاجاب القنصل بان رومة تتولى حمايتها والدفاع عنها وقت الحاجة .

فاضطرت قرطاج الى تسليم ٢٠٠ ٠٠٠ من الاسلحة الخفيفة و ٢ ٠٠٠ من الاسلحة الثقيلة او المجانق ، وجميع ما عندها من السفن ، فوقع نقل كل ذلك الى اوتيكة .

وبعدما تمت هذه الاعمال التمهيدية ، وتحقق القنصل من ان قرطاج اصبحت كجسدبدون روح ، عزلاء من كل سلاح ، وعاجزة كل العجز عن ابداء اية مقاومة ، صرح بحكمة القاسى الذى بقى مكتوما الى ذلك الوقت ، وقال :

> ان رومة تامركم بان تبارحوا مدينة قرطاج نهائيا ، اذتقرر تهديمها ، وان تقيموا في اى مكان آخر يروق لكم ، على شرط ان يكون بعيدا عن البحر بثمانين استادا 80 stades (اى خمسة عشر كيلو مترا تقريبا)

ذلك هو الحكم بالاعدام الذى اصدرته رومة على قرطاج ووقع به التصريح رسميا وعلانية امام القرطاجين حتى يقع الشروع فى التنفيذ . فنزل على آل قرطاج نزول الصاعقة

« واما الشعب خارج الابواب فقد اشتعلت نار الغضب فى اعصابه، وغلت مراجل الانتقام فى راسه ، فهجم على قاعة المجلس وقد فقدوعيه واستولى عليه مس من الجنون ، وانقض على الاعضاء الذين كانوا ينصحون بتسليم الراهائن والاسلحة والاسطول والمعدات الحربية، واعمل فيهم اسنانه واظفاره وايديه وارجله .. وكل ما امتدت اليه قوته التى تغلى وتستعر حتى مزق بعضهم اربا اربا ، ومثل بجثثهم وراح يطوح فى اشلائهم ... وهجم على الرسل الذين لاذنب لهم الا انهم حملوا هذه الانباء الاليمة وبلغوها ، فصب الشعب عليهم جام غضبه ، وتولاهم بعذابه فى وحشية احالت المجلس جحيما ...

ثم انطلق الى الشوارع يبحث عن الطليان الذين شغلتهم التجارة او استلزمت اعمالهم البقاء بين جدران المدينـة ، وانقض عليهـم ، وفتك بهم فتكا ذريعا ، وافترس من وقع منهم فى يـده افتراسـا وحشيا ... » (١)

٥ ـ دفاع المستميت او تنازع البقاء

آخر الربيع . ولكن القرطاجيين امة بحرية لايمكن لهـا ان تعيش بعيدة عن البحر . فبما ان قرطاج حكم عليها بالموت ، فهى تريد ان يدفع العدو ثمن حياتها غاليا . فاغلقت ابوابها وصمدت فى وجـه القوات الرومانية طيلة ثلاثة سنـوات كاملة ، بقـوة لم يكـن قط يتوقعها مجلس الشيوخ بروما ولم يقرا لها ادنى حساب ، وبعزيمة ثابتة ، وارادة راسخة ، فكان دفاعها دفاعا هائلا رائعا لم يرو التاريخ مثله فى اى زمان او مكان

وقد تسلم الرئاسة قائدان وهما صدر بعل الذى كان محكومـا عليه بالاعدام ، وصدربعل آخر ابن احدى بنات ماسنيسا ، فتكلف الاول بالعمليات الحربية خارج المدينة وتولى الثانى الدفاع عن قرطاج

وبدات الاستعدادات بكل حزم ونشاط ، فاحالوا المعابد والمساحات المقدسة الى مصانع يعمل فيها النساء والرجال آناء الليل واطراف النهار . فكانوا يصنعون فى كل يوم مائة ترس ، وثلاثمائة سيف وخمسمائة حربة ، والف سهم ، واقصى ما يمكن اعداده من المجانق، وبما انهم لم يجدوا حبالا لهذه الالات الثقيلة،قطعت النساء شعورهن وجعلنها للمجانيق حبالا ، وللقسى اوتارا ، كما تبرعن ايضا بجميع ما يملكن من ذهب وحلى .

وبينما كانت هذه الاعمال تجرى على قدم وساق بالمدينـة ، كان صدر بعل يرسل المؤونة التى يجمعها من الخارج .

ولكن كثيرا من المدن انضمت الى الرومان اقتداء باوتيكة ، وذلك مثل حدرموت (سوسة ، ولبتيس (لمطة) ، وتبسوس (راس الديماس ، واشولة (جمنة)

(١) الدكتور توفيق الطويل (قصة الكفاح بين روما وقرطاجنة)

اما هيبوزرت (: بنزرت) ، وكلوبيا (قليبية) ونابليس (نابل) فقد ابيتمرت مخلصة ومساندة لقرطاج تمد لها يد المساعدة .

صيف ١٤٩ . وبعد اسابيع ، قبل فصل الصيف بمدة قليلة ، ظهر مانيليوس وقنسورينوس امام اسوار المدينة بجيشهما واسطولهما وكانا يظنان ان المسالة هينة ، ويكفى لذلك نصب السلالم وتسلق الاسوار بكل سهولة لاعتقادهما بان المدينة عزلاء من كل سلاح . لكنهما شاهدا ما ادهشهما ، وما لم يكونا قط يتصورانه ، فكانا مضطرين الى التقهقر والرجوع الى الوراء ، وتدبير خطة الحصار تدبيرا جديا .

وكان اظهر القرطاجيين حماسة ، وأبرزهم اقداما واشدهم باسا فامياس خيملكن(Himilcon Phameas)قائد كتائب الفرسان البونيقية فقد هجم مرة على الرومانيين وهم يقطعون الاشجار وقتل منهم ما يزيد على خمسمائة رجل .

وكانت القوات الرومانية تستعمل المجانيق والاكباش لتهديم الاسوار ، ولكن الذى يهدمه الرومان فى النهار يعيد القرطاجيون بناءه فى الليل ، ولم يكفهم ذلك بل تجاسروا مرة على الخروج واشعال النار فى تلك الالآت الهدامة وبعد محاولات كثيرة فاشلة عدل الرومانيون على التمادى فى الهجومات واقتنعوا باقامة حصارطويل كله مشاق واتعاب ، خصوصا وقد صارت حرارة الشمس لاتطاق ، فكثر المرض وانتشر فى جنود الرومانيين .

خريف ١٤٩ . ثم ان القنصل قنسورينوس رجع الى ايطاليا لرئاسة عمليات الانتخاب فاستولى فى طريقه على جزيرة الجامور ، الكائنة امام خليج قرطاج (اكتوبر ١٤٩)

وحاول القرطاجيون فى احدى الليالى الهجوم على معسكر الاعداء ، فجاوزوا خندق الرومان ، وتقدموا الى السياج ، وشرعوا فى قلع الواحه واوتاده ، فشعر الرومانيون بالخطر من هذه المباغتة ، لكن خرج شبيون من باب مقابل للجهة التى وقع عليها الهجوم ، وحمل على القرطاجيين ففرقهم وبدد شملهم .

وكانت هذه المفاجاة المزعجة درسا وانذارا للمستقبل ، فبادر القنصل الرومانى ببناء جدران متينة مكان السياج الخشبى ، كما اقام حصنا صغيرا على البحر لحماية عمليات انزال المؤن التى كانت تاتيهم بها مراكبهم .

وبعد اتمام تلك الاعمال اخذ معه ١٠٠٠٠ من المشاة و٢٠٠٠ من

الفرسان ،وشرع فى غزو داخل البلاد لجمع الحطب والعلف والمؤونة

وكان (فامياس) كالشيطان ، يترصد فى كل مكان ، ويهجم بغتة من مكمنه على الجنود كلما وجد فيهم غفلة ، ويلحق بهم اضرارا جسيمة ، ويفتك بهم فتكا ذريعا ، ثم يختفى بسرعة ويتوارى عن الانظار ٠

وكان صدربعل مقيما بعسكره قرب نفريس (Néphéris) فوق هضبة منيعة تطل غربا على خنقة الحجاج حيث تمر اقرب طريق تربط بين قرطاج وخليج الحمامات ، فكان صدربعل يشرف على المواصلات برا مع الساحل الشرقى الذى توجد به مدينة نابل المحافظة على اخلاصها وولائها للبونيقيين ٠

فعقد مانيليوس عزمه على السير اليه والايقاع به ٠ ولما توغل الجيش فى ذلك المكان الموحش اشتد القلق بشبيون لما شاهده من كثرة الشعاب ، والغياض ، والادغال ، والمنحدرات الوعرة ، زيادة على وجود الاعداء فوق التلال ٠ واستمر الرومانيون فى زحفهم الى ان اقتربوا من معسكر صدربعل ، ووصلوا امام مجرى واد (وهو وادى بوعبيد) كان من اللازم النزول فيه للخروج الى جهته المقابلة ٠ فادرك شبيون فى الحين خطورة تلك العملية واشار بالرجوع الى الوراء ٠ فاخذ زملاؤه يسخرون منه ومن تخوفاته ، ويصفونه بالجبن ، ويقولون بان التقهقر بمرآى من الاعداء ، يزيدهم طمعا فيهم ، ويشجعهم على الهجوم عليهم ٠

وقطع مانيليوس ذلك الوادى مع رجاله ، ودارت معركة طاحنة بين القرطاجيين والرومانيين ، ولما اراد هؤلاء المرور من الوادى اثناء رجوعهم ، اختل نظامهم ، فهجم عليهم صدربعل وفتك بهم فتكا ذريعا ، وجندل ثلاثة من كبار القواد الذين كانوا يستخفون بنصائح زميلهم ، واستمر صدربعل فى تقتيلهم والتنكيل بهم ، وهم لا يدافعون عن انفسهم لما نالهم من الحيرة والاضطراب ٠ ولما راى شبيون خطورة الموقف ، قسم كتائبه الى فصيلتين ، وامرهم بالهجوم على العدو بالتعاقب ، فبمجرد ما تعود فصيلة بعد قذف حرابها ومزاريقها ، تهجم الفصيلة الاخرى ، وهذا التعاقب المطرد لا يترك للعدو مهلة او راحة فيضطر الى كف الاذى عن الفرق الاخرى ٠

وهكذا تمكن القائد شبيون من انقاذ الموقف ، ولولا تدخله لهلكت الجنود عن آخرها ٠

وفى اثناء ذلك التجات فرق اخرى من الرومانيين الى ربــوة ، فتوجه اليهم صدربعل واحاط بهم من كل جانب فاصبح من المتعذر انقاذهم • فاجمع الآخرون على خذلانهم ، والتخلى عنهم ، وقالوا بانه لا يمكن ان تقع المجازفة بالكل فى سبيل انقاذ اقلية لا شان لها • اما شبيون فانه لم يوافق على هذا الراى ، وصرح بانه سيخلصهم جميعا او يهلك معهم • واخذ كوكبة من فرسانه ، وسار نحو ربوة اخرى مجاورة للتى حاصرها صدربعل ، واوهمه بمناوراته العجيبة انه يريد تطويقه ، ففر هاربا برجاله ، ونجت الجنود الرومانية من الهلاك •

ولما عاد الى الجيش ، اقتبلوه بالاجلال والاكرام ، وتوجوه باكليل الاعشاب ، وكان عنوان الشرف عند الرومانيين ، لا يمنح الا للابطال ممن امتازوا بالمآثر والمفاخر •

ووصلت تلك الاخبار الى مجلس الشيوخ بروما ، فازداد اعجابهم بشبيون وبشجاعته وذكائه ، رغما عن حداثة سنه •

فى بداية شتاء ١٤٨ ● مرض ماسنيسا مرضا عضالا ، واحس بدنو اجله ، فاستقدم صديقه شبيون لعاصمة مملكته قرطة كى يوصيه بابنائه خيرا • فاسرع شبيون اليه ، ولكنه وصل بعد موته بيومين • فقسم السلطة على ابنائه الثلاثة : فقلد ميسيبسا السلطة الادارية ، وولى غولوسة قيادة الجيش ، وخصص مستعنبعل بالسلطة القضائية • وبعدما انتهى من تلك الاعمال الهامة ، اخذ طريق العودة ، مصحوبا بالملك غولوسة ، وبمدد عظيم من القوات النوميدية • وكان غولوسة خبيرا بحرب المناوشات والهجوم من المكامن ، الامر الذى اظهر فيه عدوه (فاماياس) تفوقا كبيرا وبراعة نادرة • فامكن له حينئذ ان يستعين به عليه •

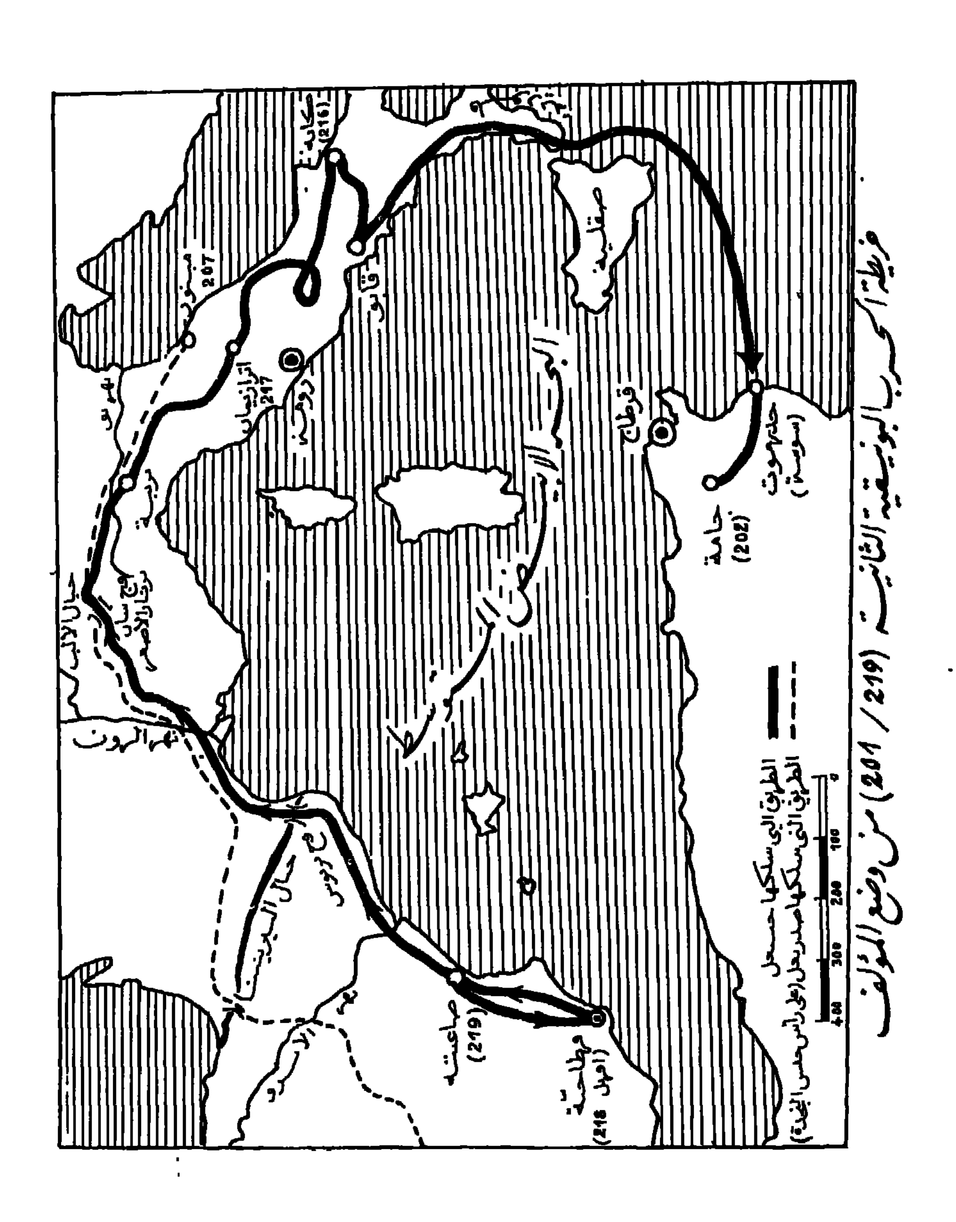
ولما راى الافريقيون ما اصبح فيه شبيون من شدة وقــوة وبــاس ، اخذوا ينضمون الى صفوفه بعد ما كانوا يخلصون الود لقرطاج •

وفى تلك المدة اغار مانيليوس على بلدة تازاقة (Tezaga) ولعلها تازركة ، واوقع بها ، واشبعها سلبا ونهبا •

والتقى شبيون ذات يوم بعدوه (فاماياس) وكان يفصل بينهما مجرى سيل عميق ، فاقترب كل واحد من صاحبه (بــل مــن

لوحة ٥٦

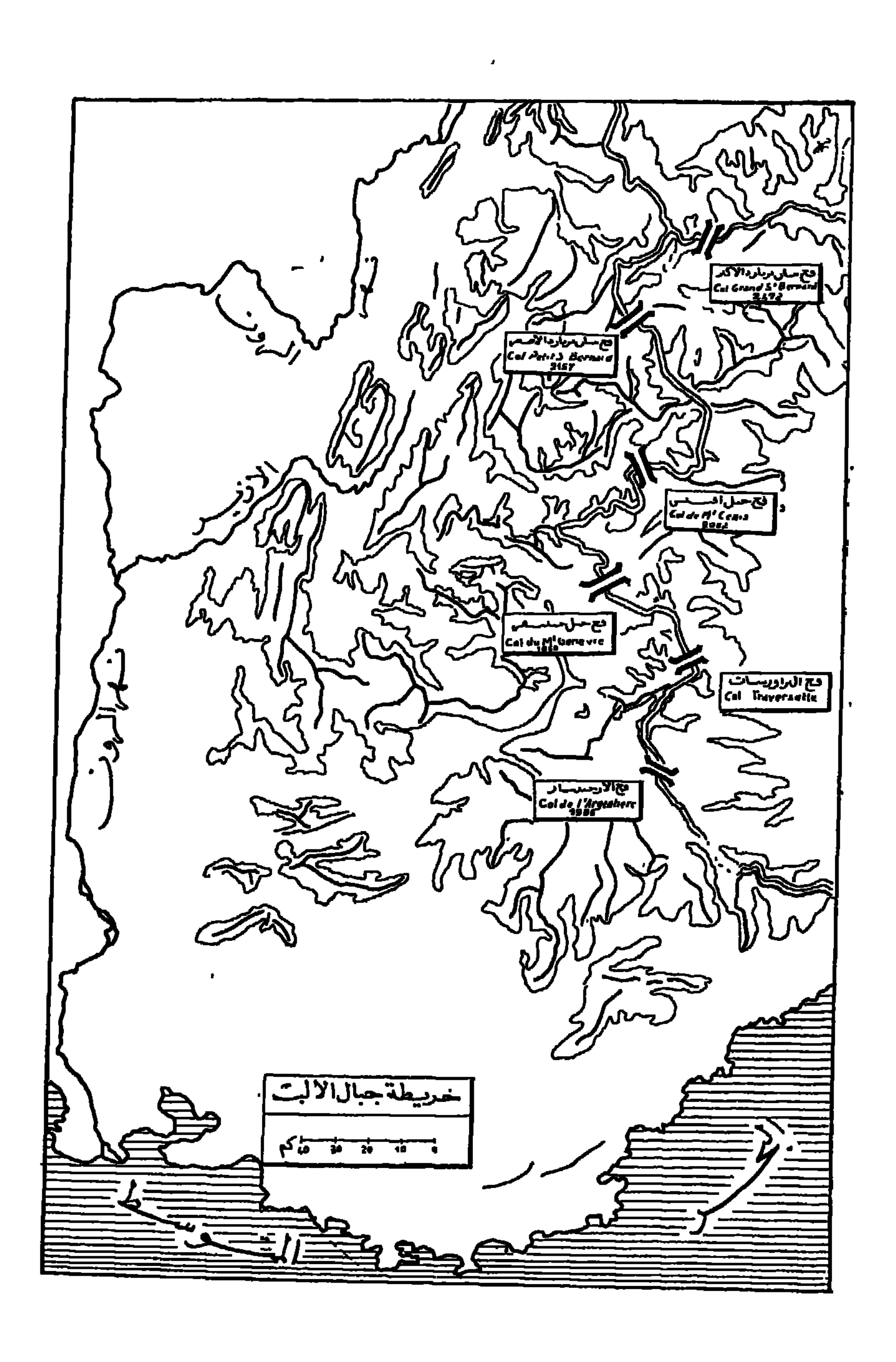
انظر الصفحة رقم ٢١٢ من هذا الكتاب



خريطة الحرب البونيقية الثانية (219 / 201) من وضع المؤلف

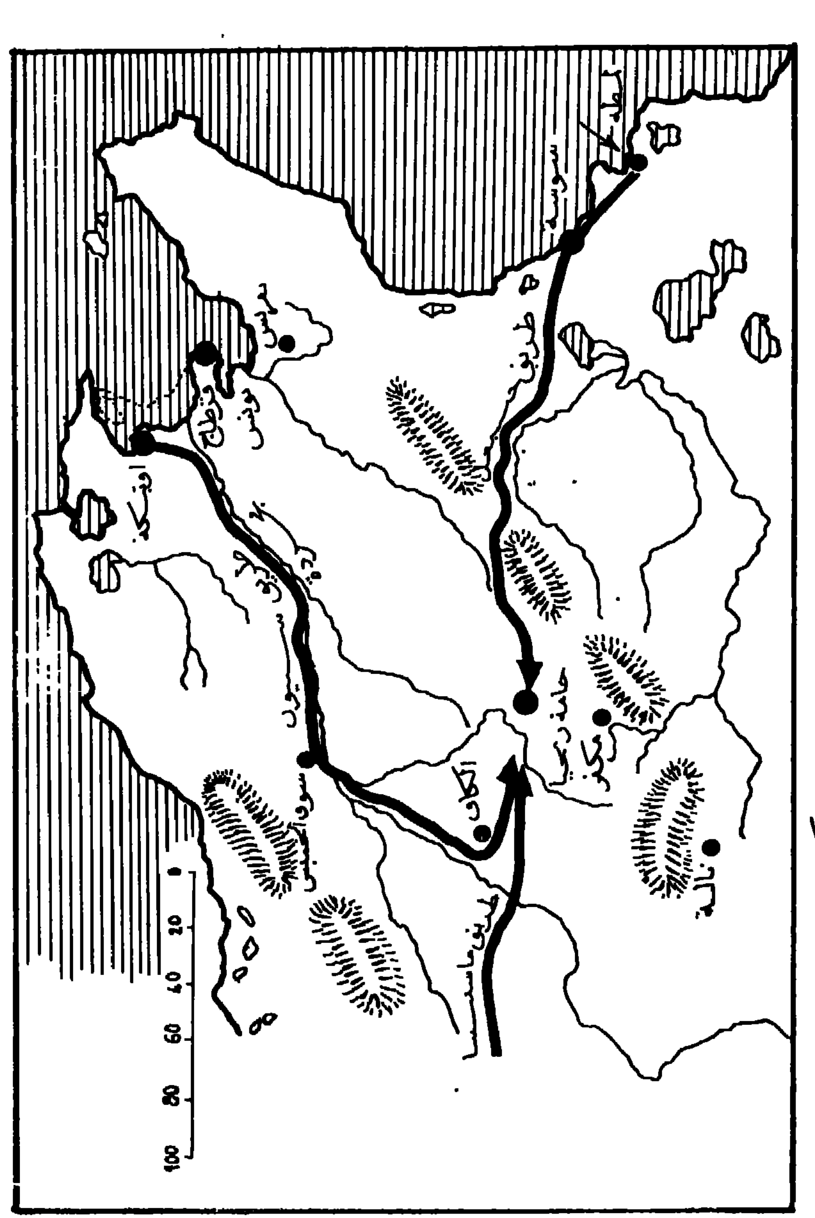
لوحة ٥٧

انظر الصفحة رقم ٢١٣ من هذا الكتاب



لوحة ٥٨

انظر الصفحة رقم ٢١٣ من هذا الكتاب

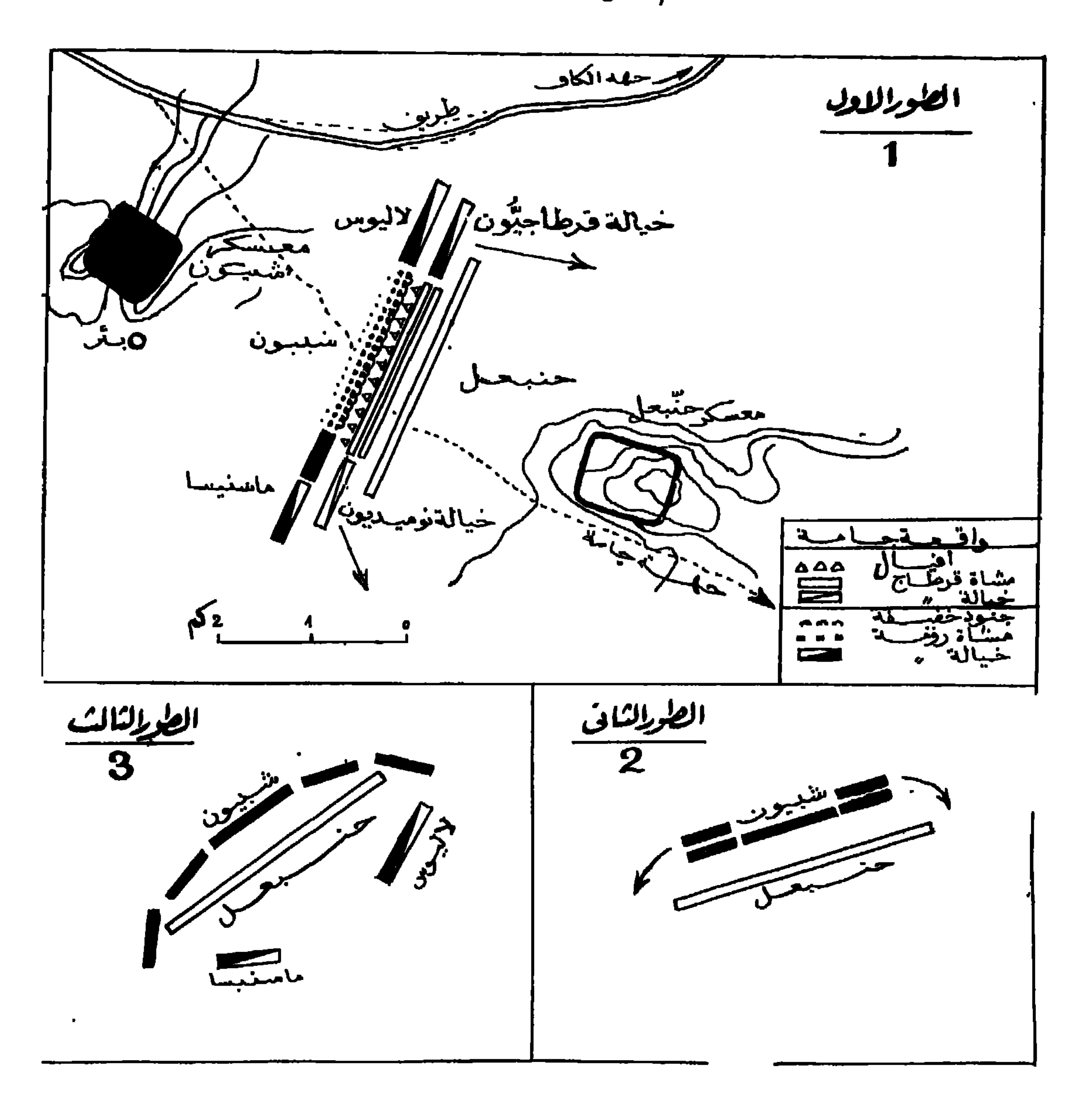


خريطة تنقلات حنبعل وشيبون وماسينسا قبل معركة جامة

لوحة ٥٩

انظر الصفحة رقم ٢١٣ من هذا الكتاب

رسم لواقعة جامة



عدوه !) على الضفة التى من جهته ، وللموصلا الى مـدى الصـوت ، اخذ شبيون الكلمة وقال : « بما انك عاجز عن انقاذ بلادك فلمـاذا لاتفكر في انقاذ نفسك ؟ »

فاجاب الاخر : « كيف يمكن لي ذلك بعدما الحقته بكم من الاذايـة والمضـرة ؟ »

فقال شبيون : « كن واثقا ومطمئنا ، فانى عفوت عنك ، وسترى منى ومن حكومتى كل خير • »

فاثر عليه شبيون بكلامه ، واشتم منه رائحة الصدق والنصـح وخلوص النية ، فانضم اليه مع رجاله ، فكان ذلك نصرا عظيمـا ، وفوزا كبيرا سجلته رومة لشبيون •

فى ربيع ١٤٨ • وفى آخر ربيع سنة ١٤٨ وقع تعويض مانيليوس بالقنصل بيزو (Calpurnius Pison) ورجع مانيليـوس الى رومـة ، وسبقه اليها شبيون صحبة رفيقه الجديد (فاماياس) الذى جادت عليه رومة بالهدايا الثمينة جزاء عن سلوكه الحسـن ، ووعـدته باضعافها ان تمادى فى اخلاصه ، ووعدها ببذل حياته فى خدمتها ، وعاد الى افريقية ، والتحق بمعسكر الرومانيين

فى صيف ١٤٨ • اما القنصل بيزو فقد قضى كامـل الصيف والخريف فى مهاجمة المدن التى لم تنعزل عن قرطاج مثل قليبيـة ونابل وبنزرت • فلم تستسلم منها الامدينة نابل، فعاث فيها فسادا وبالغ فى نهبها رغما عن وعده الصريح لاهلها بانه لا يمسهم بسوء •

اما قليبية فقد هجم عليها من البر والبحر ولكن بدون جدوى • واما بنزرت فقد نصب عليها حصارا طويلا استمر الى آخر الخريف ، ولكنها صمدت فى وجهه ، وقاومته ، واحرقت آلاته الحربية ، فارتحل عنها فى آخر الامر لقضاء فصل الشتاء باوتيكة

فى شتاء ١٤٧ وبينما كان بيزو يقضي راحته بمدينة اوتيكة ، كان مجلس الشيوخ برومة مهتما بانتخاب شبيون قنصلا رغما عن عدم بلوغه السن القانونية اى ٤٣ سنة(١)

(١) ولد شبيون سنة ١٨٥ فكان عمره حينئذ ٣٨ عاما لما انتخبوه قنصلا (اى قبل السن القانونية بخمسة اعوام) •

وفى تلك الاثناء كان القرطاجيون يحاولون بجميع الوسائل وجود حلفاء من المريطانيين بالمغرب ، او من النوميديين ، وكانوا يقولون لهم بان رومة ستنقلب ضدهم ، وتستولى عليهم ، وتبذل كل جهدها فى اخضاعهم واستعمارهم اذا خرجت منتصرة وظافرة من حرب قرطاج

فى ربيع ١٤٧ • رجع شبيون الايميلى الى افريقية بصفته قنصلا واخذ معه فى هذه المرة ايضا صديقه بوليبس المؤرخ المشهور ولاليوس وهو ابن القائد لاليوس الذى كان رافق شبيون الافريقى فى الحرب البونيقية الثانية •

وبقدومه متمتعا بكامل النفوذ والسلطة اخذت الحوادث بافريقية شكلا جديدا ، وصارت تدور بحزم وجد ونشاط •

• فهو قد امر جنوده بان يتسوروا الحائط من جهة حى مجارة (Magara) وهى ضاحية قرطاج تقيم فيها الطبقة الثرية المترفة •

ومما ساعده على تنفيذ خطته وجود برج قديم مهجــور ملاصــق لذلك السور ، فاحتله الرومانيون ، وتسللوا منه الى السور،ونزلوا الى الحى ، واسرعوا الى احد الابواب ففتحوه على مصراعيه ، فاندفع اليه شبيون على راس اربعة آلاف مقاتل ، واستقروا بتلك الناحية من المدينة ، وفر القرطاجيون مذعورين ، نحو قلعة بيرصة (Byrsa) المحصنة ، وكذلك الجيش الذى كان معسكرا هناك ، فهو قد تقهقر بدوره واحتمى باسوار المدينة • واضرم شبيون النار فى المعسكر الذى هجره القرطاجيون ، ثم حاول اقتحام الاسوار فلم يفلح لقوتها ومناعتها • فقرر العزم على مواصلة الحصار

وعاد شبيون الى مكانه الاول بعنق شبه الجزيرة التى تربض المدينة على ارضها ، وامر بحفر خندق يبلغ طوله ٤٥٠٠ متر على بعد غلوة (اى رمية سهم) من الاسوار ، ثم حفر خندق آخر مماثل له من ناحية البر ، ثم خندقين بالعرض على حاشية البحر شمالا والبحيرة جنوبا ، فاخذ هذا العمل فى مجموعه شكل حفرة مستطيلة مترامية الاطراف فاحاطها شبيون بالاوتاد ، واقام من ورائها اسوجة على ثلاث جهات ، اما الجهة الرابعة المواجهة لقرطاج فقد بنى بها حائطا سمكه ٦ اقدام وارتفاعه ١٢ قدما بخلاف شرفاته ، وبنى ابراجا على مسافات متساوية ومتقاربة ، وجعل فى الوسط برجا مرتفعا تعلوه بناية

خشبية ذات اربع طبقات فكان مرصدا يرى منه الانسان كل ما يقع في المدينة • وتم هذا العمل الجبار في عشرين يوما وعشرين ليلة كان الرومانيون اثناءها يشتغلون ، ويحاربون ، وياكلون ، وينامون بالتناوب • واقام الجيش بذلك المعقل الضخم الذى منع القرطاجيين من كل اتصال بالخارج عن طريق البر • وكان شبيون يريد بذلك ان يمنع عنهم المدد ، وان يحرمهم الغذاء الذى كان يفد عليهم من ناحية البر ، الى ان يستسلموا او يهلكوا جوعا

ولاحظ شبيون ان المؤونة صارت تاتيهم عن طريق البحر ، فصمم على ان يسد في وجوهم ذلك الباب الوحيد الذى ما زال مفتوحا ، وذلك بسد مدخل المرسى بجون الكرم • فامر بجلب الصخور العظيمة وشرع في بناء عرمة ضخمة ليمنعهم من كل اتصال بالخارج بحرا ، مثلما منعهم من ذلك برا ، ودام هذا العمل شهورا طوالا (في صيف ١٤٧)

وكان القرطاجيون في ذلك الوقت يشتغلون نساء ورجالا ، آناء الليل واطراف النهار ، لصنع اسطول جديد ، ولفتح ترعة تكون مدخلا جديدا للمرسى الحربي • وكانت هذه الاعمال تجرى بكيفية سرية وبدون ان يعلم بها العدو

وفي ليلة من الليالى ، بينما كان الرومانيون مطمئنين غافلين ، لم يشعروا الا وقد طلع عليهم اسطول لا عهد لهم به خرج من قناة لم تكن موجودة من قبل ، وكان هذا الاسطول يتالف من خمسين بارجة حربية •

فقام القرطاجيون في سفنهم بحركات خفيفة لمجرد التباهى والابهة والظهور ، وعادوا الى اماكنهم ، ولو داهموا اعداءهم في ذلك الوقت بينما كانوا في اشد الدهشة والذهول ، لكبدوهم خسائر فادحة ، ولالحقوا بهم اضرارا جسيمة بل لامكن لهم ان يستولوا على جميع القوات البحرية الرومانية ولكنهم اضاعوا تلك الفرصة الثمينة ، وفوتوها ولم يفكروا في انتهازها لفائدتهم •

ومن الغد شرع شبيون في الهجوم على تلك المحطة البحرية الجديدة اذ اراد ان يجعلها قاعدة عملياته الموجهة ضد المرسى • وكان من السهل عليه الوصول الى ذلك المكان المسطح بالسير على الارض المرتفعة المتكونة من السد او العرمة التى تم بناؤها بالصخور •

فامر بالاتيان بالالآت الحربية الثقيلة وباستعمال الاكباش فاحدثوا في السور اثلاما عديدة

وعندما اقبل الليل خرج جم غفير من القرطاجيين كلهم عراة ، مجردون تماما من ثيابهم ، فارتموا في البحر وصاروا يمشون او يسبحون الى ان استولوا على الجزء من المحطة الذي كان احتله الرومانيون وتركوا فيه حامية لكنهم لم يشعروا بقدومهم ، وهناك أشعل القرطاجيون مشاعلهم واضرموا النار في الآلات الحربية • وكانوا ، لشدة ما نالهم من الجوع والالم ، يرتمون ويهجمون كالحيوانات الضارية ويزدادون حقدا وعنادا وشراسة كلما اصابتهم النبال واثخنت ابدانهم العارية جراحا •

اما الرومانيون فقد هالهم ما راوه ، ولم يصبروا على المقاومة طويلا ، بل عبروا طريق السد وفروا هاربين نحو معسكرهم حيث زرعوا الرعب والقوا الذعر والهلع في القلوب •

ولما طلع النهار اعاد شبيون الكرة ، وهجم بالات حربية اخرى وتمكن من الاستيلاء على كامل المحطة •

في خريف ١٤٧ • وفي شهر اكتوبر من سنة ١٤٧ طلب صدربعل من غولوسة ان يضرب له موعدا ، ولما تقابل معه اخذ يلتمس منه التوسط لايقاف القتال ، والتدخل لدى شبيون لكي يعدل عن تهديم المدينة •

فاجابه غولوسة بان طلبه هذا يدل على غباوة كبيرة ، اذ كيف يعقل ان يقبل شبيون اليوم طلبا كان رفضه سابقا لما عرضه عليه السفراء القرطاجيون قبل نشوب الحرب •

وتقابل صدربعل معه مرة ثانية بعد ذلك بثلاثة ايام ، ولكن ذهبت جميع محاولاته سدى •

في شتاء ١٤٦ • واستمر ضرب الحصار على قرطاج

ولكن جيوش القرطاجيين ما زالت كثيرة خارج المدينة ، تسعى في ايصال بعض المؤونة الى قرطاج بطرق ملتوية ؛ وزيادة على ذلك فهي ربما تتجاسر في يوم من الايام ، وتحمل على المعسكر الروماني • فهي خطر دائم • ولذلك عزم شبيون على تطهير البلاد من تلك العشوش الفاسدة ، فارسل فرقا تجتاب البلاد طولا وعرضا

وزحف بنفسه على المعسكر الذى ما زال مقيما قرب نفريس ، وضرب الحصار عليه ، وكلف القائد لاليوس ، والملك غولوسة بتشديد الخناق عليه . اما شبيون فقد كان ينتقل بسرعة بين قرطاج ونفريس ذهابا وايابا ليسير الاعمال ، ويشرف عليها بنفسه .

ودام حصار نفريس مدة ٢٢ يوما ، ثم فتحوها عنوة فشهدت مجزرة من افضع المجازر .

وان نجاح الرومانيين فى تلك الحملة الموفقة على نفريس ، ساعد كثيرا على سقوط قرطاج ، اذ تضعضعت احوالها من كل جانب ، وانقطع عنها المدد والغذاء انقطاعا كليا ، فاشرف من فيها على الهلاك جوعا .

فى ربيع ١٤٦ . وفى شهر افريل ١٤٦ امر شبيون بالحملة الكبرى على مرسى قرطاج ، وبدات تلك الحملة من المحطة التى كان استولى عليها الرومانيون منذ ما يقرب من سنة ، وكان الهجوم موجها نحو المرسى الحربي المستدير ، والذى يحيط به حائطان ، فمد الرومانيون جسورا استحضروها فى وقتها ، ومروا عليها ، وقطعوا تلك الحواجز بكل جراة ، ولم يصادفوا مقاومة شديدة من طرف القرطاجيين الذين اضناهم الجوع ، وانهك قواهم ، وضعضع احوالهم واصبح المرسى الحربى تحت تصرف الرومانيين .

ثم تقدم شبيون برجاله الى الساحة العمومية الكبرى التى كانت مجاورة للمرسى الحربى ، فاستولى عليها وقضى ليلته هناك ، تاركا جنوده تحت السلاح .

ولما طلع الفجر ، امر ٤٠٠٠ من جنوده بالسير الى معبد ابولون والتسلط عليه ، واستعد لاكتساح القلعة المنيعة (بيرصة) .

فاتجه نحوها على راس رجاله ، وشقوا الشوارع الثلاثة المؤدية الى تلك القلعة ، واخذوا يقتحمون منازلها ، ويصعدون بطبقاتها الست ، ويقتتلون مع سكانها ، فى البيوت ، وفى الشوارع ، وعلى السطوح ... وكانوا يستولون على البيوت بيتا بيتا بعد مقاومة عنيفة وقتال شديد ، وكنت لا تسمع فى كل مكان الا الانين ، والعويل ، والصياح ، ولا ترى الا مناظر العذاب والموت .

وامر شبيون باضرام النار فى ذلك الحى .

ثم تقدم بجيوشه نحو القلعة (بيرصة) واخذها عنوة .

واستمرت قرطاج تشتعل مدة عشرة ايام كاملة . وسمح شبيون لرجاله بنهب المدينة فانهمكوا في ذلك مدة ايام عديدة .

وسلم شبيون ما كان في المكتبات الى ملوك نوميديا ثم انزل اللعنات على مدينة قرطاج وامر بتهديمها . فخربوا بنيانها ، وقوضوا اركانها ، وتركوها قاعا صفصفا (١٤٦)

ولم يتمالك شبيون من التاثر لهذا المشهد المريع ، فدمعت عيناه ، وقال متمثلا بهذا البيت لهومير :

(طروادة سوف تلقى بدورها يوم نحس)

اى ان رومة سياتي يومها وتدور عليها الدوائر !

وانجر عن سقوط قرطاج زوال الامبراطورية البونيقية وانقراض دولتها .

وكذلك هدموا جميع المدن التى كانت مؤازرة ومناصرة لقرطاج (بنزرت وقليبية ونابل)

اما المدن التى كانت في صف الرومانيين مثل اوتيكة وسوسة ولمطة فقد منحتها رومة حريتها فصارت تعرف باسم « المدن الحرة »

وتركت رومة لنفسها الجزء من البلاد التونسية الذى كان تحت نفوذ القرطاجيين في الحرب الاخيرة ، وقد كنا وضحنا حدوده بكل تدقيق . وبذلك نشات ولاية افريكا (Africa) الرومانية وعاصمتها اوتيكة رغما عن كونها مدينة حرة .

قــراءة

النــار ولا الــعــار !

امتد الحرص على الحياة الى صدر بعل « القائد الاكبر » فحاول الهرب من رفاقه ، والقى بنفسه ، فاذا هو جاث على ركبتيه يلتمس العفو عند قدمى شبيون اوقبل القائد الظافر ضراعته، وسار به يعرضه على انظار الفارين (les transfuges) فصبوا على الخائن لعناتهم ، وحصبوه بسخطهم ، ووثب الى نفوسهم عزم مبعثه اليأس ومصدره انقطاع الرجاء ، فاوقدوا في المعبد

نارا ، وخيروها على الضراعة للقائد الظافر ، وقبول الذلة والهوان حرصا على الحياة ••• وبدا المعبد وكأنه سرادق من نار •

فتقدمت زوجة صدربعل ، وقد ارتدت افخر ما لديها من ثياب ، وتحلت باجمل ما تملك من ادوات الزينة ، ووضعت طفليها الى جانبها ، والتفتت الى شبيون وقالت له فى مرارة الياس وجنون الجزع :

« اما انت يابطل رومة ، وفخر رجالها، فلا اطلب الى السماء ان تنزل نقمتها بك ، لانك لم تفعل الا ما اقتضته نواميس الحرب وسنن النزاع •

اما هذا صدر بعل ، هذا الخائن لوطنه ، وآلهته ، وزوجه ، فانى اضرع الى السماء ان تصليه عذابا ونكالا ! »

ثم التفتت الى زوجها ، وهى تصر اسنانها ، وقالت له ، والغيظ يطل من عينيها :

« ايها الدنىء الخائن الجبان ، استقبل انا مع طفلى الموت بين ثنايا اللهب ، ونتخذ النار الحامية مقبرة لنا ، وانت قائد قرطاج العظيم ، تتوج انتصار العدو بخيانتك البشعة ، وتكلل ظفره بهوانك ومذلتك ؟ »

ثم صاحت : « النار ولا العار ! »

وغيبت الخنجر فى جسم كل من طفليها ، وقذفت بجثتيهما الى اللهب المندلع •••

وفعلت بنفسها ما فعلته بهما •

الدكتور توفيق الطويل

(قصة الكفاح)

خـــلاصة مـــا تقدم

الحــروب البونيقــيـــة

سببها : امتداد نفوذ القرطاجيين بالبحر المتوسط وعلى الاخص بصقلية التي هي قريبة من ايطاليا ، الشيء الذى ازعج رومة وجعلهاتفكر في الهيمنة بدورها على البحر المتوسط ولا يكون ذلك الا بمقاومة قرطاج والتغلب عليها ٠

ودامت هاته الحروب ٢٨ سنة (من ٢٦٤ الى ١٤٩ ق٠م) وهي تنقسم الى ثلاثة حروب :

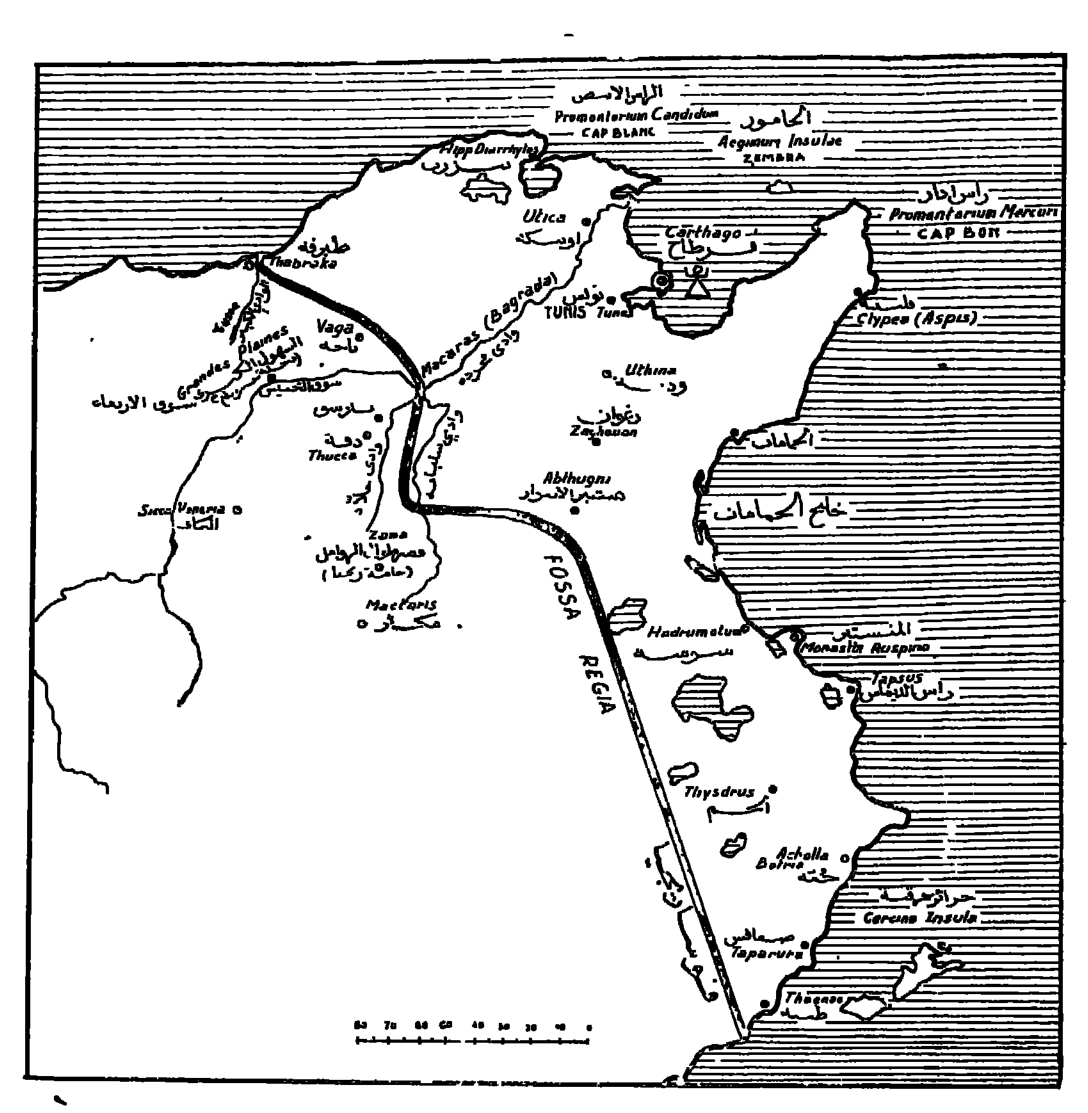
الحرب البونيقية الاولى (٢٦٤ ـ ٢٦١ = ٣ سنوات) سببها حروب متوالية وقعت بين القرطاجيين الذين كانوا مستعمرين الجهة الغربية من صقلية (المواجهة لقرطاج) وبين الاغريق الذين كانوا مستعمرين الجهة الشرقية من صقلية (المواجهة لرومة) ، وكان النصر تارة للاغريق وتارة للقرطاجيين ٠٠٠ الى ان استولت قرطاج على (مسينه) سنة ٢٦٨ فصارت وجها لوجه امام رومة ٠ وعند ذلك احست هاته الاخيرة بالخطر ، فدخلت في المعمعة في صف الاغريق طبعا ، وكانت تلك هي الحرب البونيقية الاولى التي دامت من ٢٦٤ الى ٢٦١ ٠ وكانت جنود القرطاجيين مؤلفة من الماجورين تحت قيادة (عملقار) وانتهت هاته الحرب بانتصار الرومان فخسرت قرطاج جزيرة صقلية وسلمتها الى رومة ، وعاد الجند الماجور الى افريقية ٠

ثورة الجند الماجور والكفاح التحريرى

كانت حكومة قرطاج عاجزة عن دفع اجور جنودها بعد عودتهم من صقلية فثار الجند وانظم اليه جم غفير من الليبيين وعلى راسهم زعيم الحركة التحريرية الليبية (ماطوس) وهو يقود معه سبعين الفا من الليبيين للتخلص من ضغط قرطاج التي افتكت اموالهم واثقلت عليهم وطاة الضرائب وزجت بهم في السجون واساءت معاملتهم ٠ فكلفت قرطاج القائد

لوحة ٦٠

انظر الصفحة رقم ٢٤١/٢٩٥ من هذا الكتاب

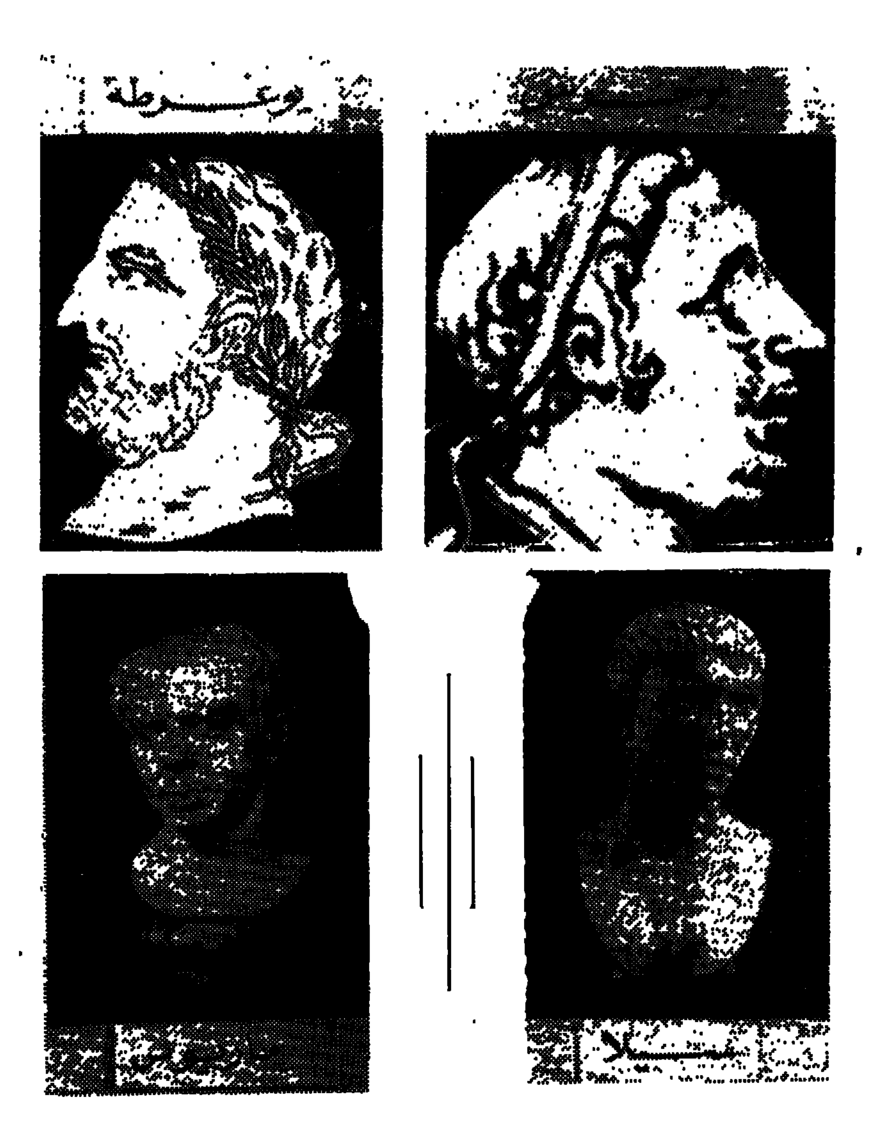


فوسا ريجيا	FOSSA REGIA	(من وضع وتصميم المؤلف)

او الخندق المحفور بالحدود القرطاجية - النوميدية (في آخر العهد البونيقي الحرب البونيقية الثالثة)
او الحدود الرومانية - النوميدية (في اول العهد الروماني أفريكا)

لوحة ٦١

انظر الصفحة رقم ٢٨١ من هذا الكتاب



– من فوق : الملك يوغرطة وحليفه الخائن بوخوس
– من تحت : ماريوس وعضده سيلا

لوحة ٦٢

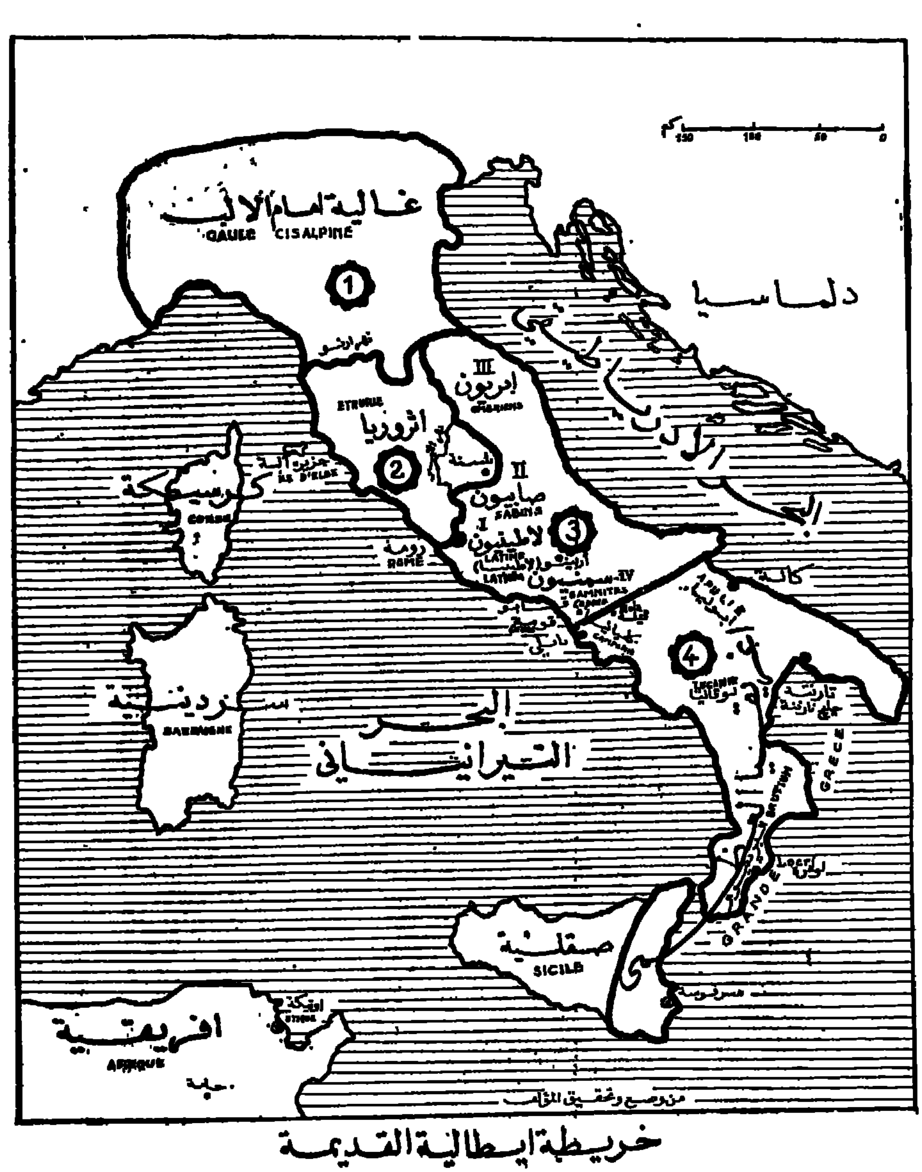
انظر الصفحة رقم ١٦٩ والصفحة رقم ٢٨١ من هذا الكتاب



فرسان الملك يوغرطة (عمود تراجانوس) وهم من النوميديين كانوا يركبون الخيل بلا سرج ولا لجام

لوحة ٦٣

انظر الصفحة رقم ٢٦٢/٢٦٣ من هذا الكتاب

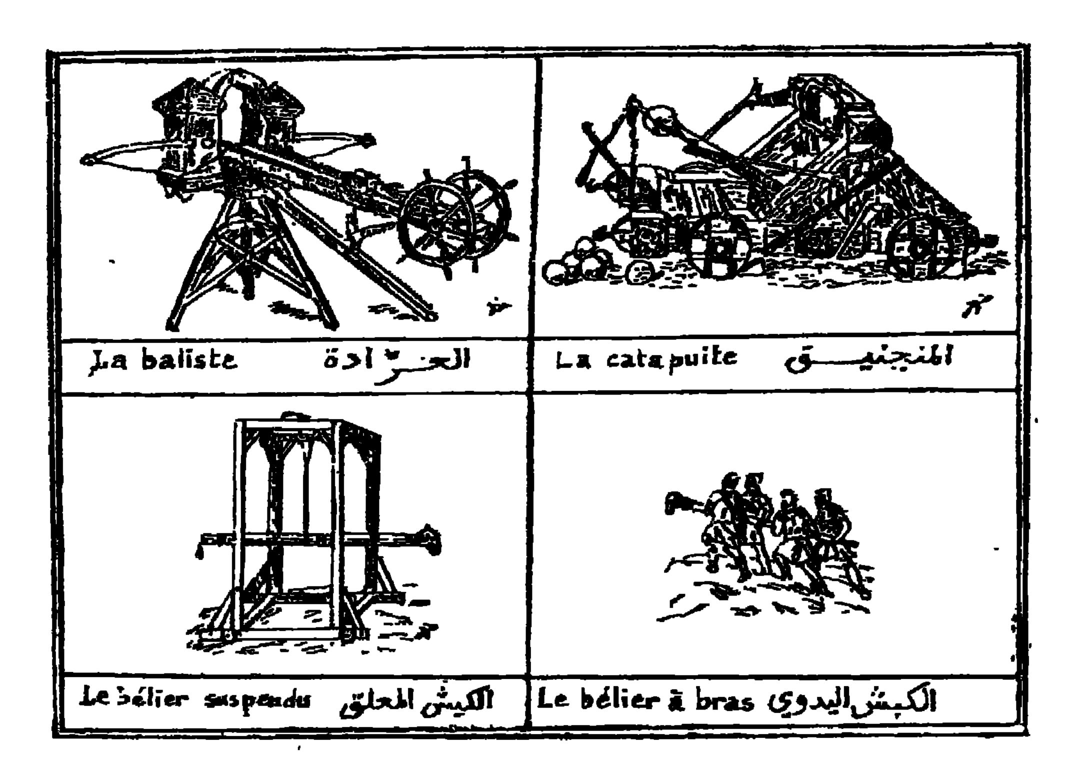


خريطة ايطالية القديمة

الآلات الحربيـــة الثقيلـــة
عند القرطاجييـــن والرومـــان

المنجنيق : آلة حـربية ثقيلة كانت تستعمـل لقـذف الحجـارة او لرمـي النـبال ، وكانت هذه الالة ترمي بقذائفها التي يبلغ وزنها احيانا ٨٠ كيلو غراما الى مسافات بعيدة نحو ٥٠٠ او ١٠٠٠ ميتر • وكانت هذه الالة مستعملة عند الاغريق والمقدونيين والرومان والقرطاجيين

ـ العرادة : آلة حربية ثقيلة كانت تستعمل لرمي النبال او القذائف التي لايتجاوز وزنها ٢٥٠ رطلا على مسافة ١٢٠ او ١٥٠ مترا ، وكانوا يحملونها فوق عربة خاصة



الكبش : آلة من آلات الحرب الثقيلة كانت تستعمل في الحصار ، وتقذف على جدران الحصون ، فكأنها كبش ينطح • وكانت تتركب من خشبة طويلة وضخمة تنتهي بكتلة حديدية في شكل راس الكبش ، وتستعمل اما معلقة في جهاز كالدبابة ـ او محمولة بايدي الجنود •

(عملقار) بمقاومتهم ، فاظهر فى ذلك مقدرة فائقة ، ودهاء كبيرا حتى حاصرهم فى جبال قرب الحمامات وافناهم عن آخرهم ·

الحرب البونيقية الثانية (٢١٨ ـ ٢٠٢ = ١٦ سنة)

اقسم (حنبعل) ، وكان طفلا صغيرا عمره تسع سنوات ، اقسم امام الآلهة وبمحضر ابيه القائد عملقار ، ان يكون طول حياته عدوا لروما ··· ولم يخلف ما عاهد عليه الآلهة اذ ان حياته كانت كلها صراعا عنيفا بينه وبين عدوته وعدوة بلاده ·

اجتاز (حنبعل) جبال الآلب الشاهقة ومعه جيش كبير وفيلة ، ودخل ايطاليا ، وانتصر على الرومانيين فى وقائع حربية كثيرة اشهرها واقعة (كانة) ، واستولى على كل ايطاليا تقريبا ما عدى مدينة روما والجزء الرومانى اللاطينى من ايطاليا وجعل مركز قيادته العامة مدينة (قابو)···ثم تارنتة واقام هناك سنين طويلة يترقب المدد من قرطاج ليضرب ضربته القاضية بروما ويتم له النصر النهائى ··· لكن لم ياته اى مدد !

وكان وجود حنبعل ببلاد الرومان قد اقلق بال حكومة روما ، فرمت بقائدها (شبيون) وقذفته على ارض افريقية فارتعدت فرائصها بدورها ، وانتقل الخوف اليها

فاستقدمت فى الحين قائدها حنبعل من بلاد الرومان ليصفى حساب هذا العدو المزعج · لكن (شبيون) قد استمال بحيلته ودهائه اعظم امير من امراء الليبيين النوميديين وهو الاقليد (اى الملك) ماسنيسا فصار هذا الملك من اكبر انصاره وحلفائه · اما قرطاج فقد تحالفت مع ملك آخر من ملوك نوميديا وهو (سيفاكس) ملكمدينة قرطة (قسنطينةاليوم بالجزائر) وزوجته بالاميرة القرطاجية الشهيرة (سوفونيسبة) لكن (ماسنيسا) انتصر على خصمه سيفاكس واحرق معسكره واخذه اسيرا وسلمه لشبيون قبل مجىء حنبعل ··· ثم بعدما قدم حنبعل التقى به شبيون على راس جيشه ومعه ماسنيسا على راس فرسانه النوميديين فى مكان قرب مكنر يقال له

جامة (زاما ريجيا) وانتصر عليه ايضا (سنة ٢٠٢) وبذلك انتهت الحرب البونيقيه الثانية وكانت شروط الصلح قاسية جدا على قرطاج • اما ماسنيسا حليف الرومان ، فقد ضم اليه جميع مملكة خصمه (سيفاكس) فصار على راس امبراطورية شاسعة جعلته يفكر فى تكوين وحدة مغربية كبيرة ومستقلة

وقد التزمت قرطاج لرومة ضمن شروط الهدنة بعدم اشهار الحرب على حليفها ماسنيسا

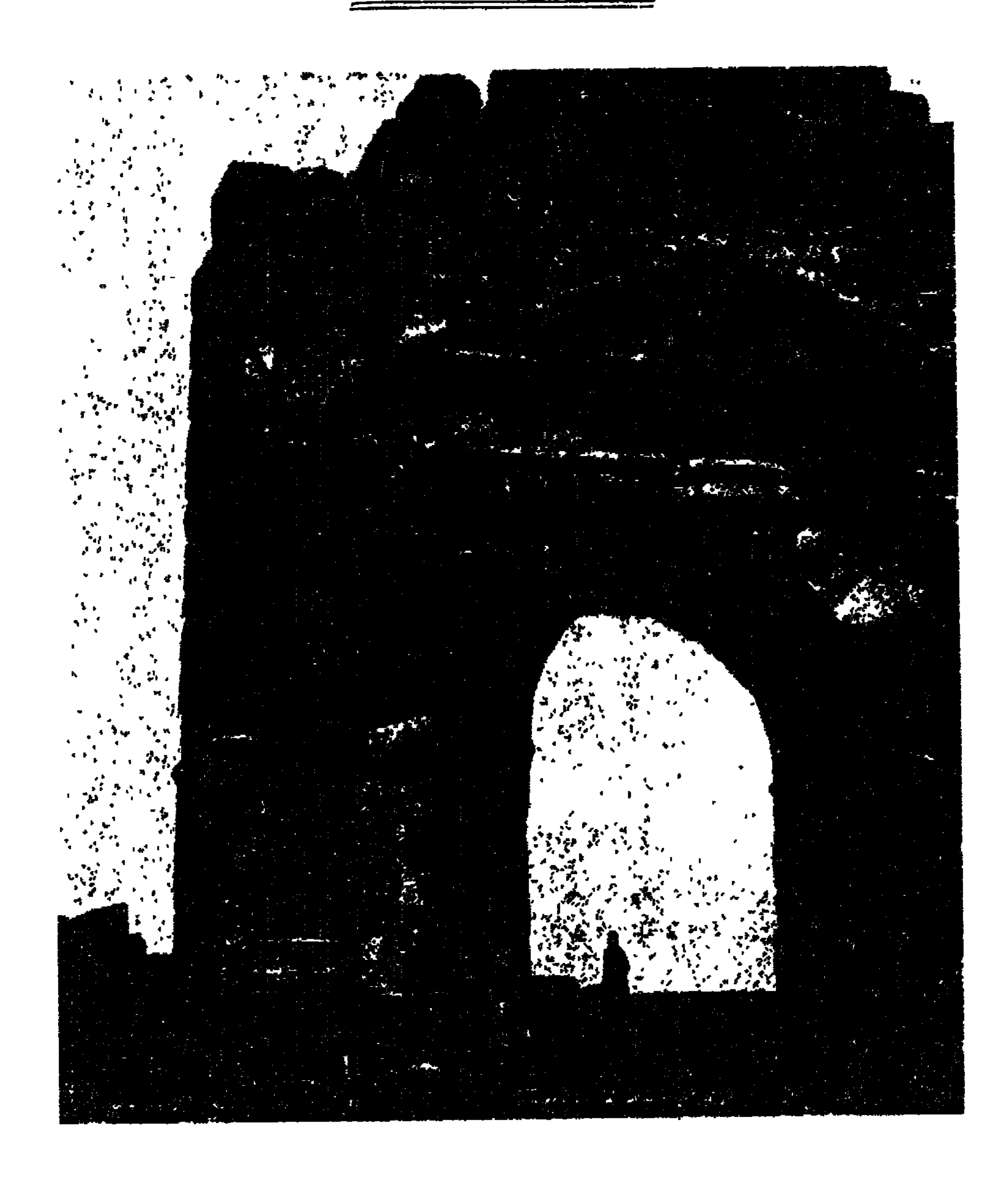
الحرب البونيقية الثالثة : ١٤٩ ـ ١٤٦ = ٣ سنوات

لكن ما لبثتقرطاج ان استرجعت قوتها ، واستعادت مكانتها حتى انها دفعت لرومه جملة واحدة الغرامة الحربية الثقيلة التي كانت التزمت بدفعها اقساطا ، الشيء الذى حير بال عدوتها • وكان احد كبار مجلس الشيوخ برومة وهو (قاطون) يكرر دائما فى خطاباته ويردد دون انقطاع كلمته المشهورة (هدموا قرطاج !) فانتهزت رومة مناسبة وجود مناوشات حربية بين قرطاج والملك ماسينيسا ، فارسلت جيشها تحت قيادة (شبيون الاصغر) • فركنت قرطاج فى اول الامر الى الصلح رغما عن قساوة الشروط ، وسلمت كامل اسطولها واسلحتها وعتادها •

وكان ذلك خديعة من طرف الرومان ، اذ انهم بعدما تحصلوا على الاسلحة اشترطوا عليهم الخروج من عاصمتهم قرطاج ليقع تهديمها ، واختيار مكان آخر يكون بعيدا عن السواحل وعندئذ فهم القرطاجيون انه لم يبق لهم الا المقاومة والحرب • وفي الحين انقلب ذلك الشعب من رجال تجارة ومال ، الى ابطال حرب وقتال واظهروا نساء ورجالا شجاعة لم يذكر التاريخ مثلها ••• ودام الحصار مدةثلاثسنوات ثم بعد الحملةالاخيرة استمرت المقاومة فى الشوارع والديار مدة اسبوع كامل • وفى آخر الامر استسلم القائد (صدربعل) لعدوه (شبيون) فلم تتحمل زوجنه ذلك الموقف المخجل فالقت بنفسها فى النيران وهى تسبه وتلعنه لانه لم يمت موتة الابطال • وانتهت الحرب البونيقية الثالثة (١٤٦) بتخريب قرطاج •


الحرب
الفينيقية
الثالثة
انتهت
بتخريب
قرطاجنة

المدنية الافريقية والنوميدية والموريطانية بالمغرب العربي في عهد الرومانيين



التعريف بايطاليــة ورومة والرومانييــن

ان رومة فى وسط ايطالية ، وايطالية فى وسط العالم القديم ، اذ انها تشق البحر المتوسط فى وسطه ، وبعبارة اخرى ، تتوسط البحر المتوسط ، فهى حينئذ فى وسط الوسط • وهذا الموقــع المركزى الممتاز هو الذى جعلها تبسط نفوذها ، وتمد سلطانها على كامل حوض ذلك البحر •

على ان موقع رومة الممتاز ، او توسط ايطالية ، لم يكن فى الحقيقة السبب القوى اوالجوهرى فى عظمة الرومانيين ، او لم يكن السبب الوحيد على الاقل ، وان السبب الحقيقى فى ذلك يرجع الى خصال اخلاقية ، وفضائل ادبية سامية مكنت رومة من الصعود بسرعة ، وذلك مثل الثبات ، والشجاعة ، والاقدام ، والغيرة القومية ، والتفانى فى سبيل الوطن ، وحب النظام ، والطاعة والامتثــال للاوامــر ، وكذلك الشعور بشىء من النخوة القومية ••• تلك كلها محركات وعوامل قوية رفعت الجمهورية الرومانية الى اعلى الآفاق •

وايطالية هى شبه جزيرة طويلة ، تمتد من جبال الآلب الى قرب البلاد التونسية ، بين البحر الادرياطيقى شرقا ، والبحر التيرانياني غربا •

وتنقسم ايطالية الى جهتين واضحتين : ايطالية الاقليمية (اى البرية) شمالا ، وايطالية البحرية (وهى شبه الجزيرة) جنوبا •

فاما ايطالية الاقليمية ، اى سهول بو ، فقد استولت عليها من قديم الزمان اقوام الغاليين (Gaulois) ولذلك لقبــوها باسم « غالية امام الآلب » (Gaule Cisalpine) لتمييزهــا عــن « غالية وراء الآلب » (Gaule transalpine) وهى فرنسة اليوم

واما ايطالية البحرية التى شبهوها بالسحوقاء اى بحذاء طويل (botte) ، فهى وحدها التى كانوا يطلقون عليها فى القديم اسم (ايطالية) • وقد اقام بها اقوام مختلفة :

١ ــ **الاثروريون** (Les Etrusques) فى الشمال ، اى فى جهة اثروريا (Etrurie) ، وهى الجهة التى تسمى الآن تسكانة (Toscane) بين نهر التيبر ونهر ارنو ، واهم مدنها بلنسة (فى القديم Vulsinies واليوم Bolsena) ، ثم تجاوزوا نهر التيبر ، وامتدوا على الساحل الغربى ، واستولوا على جهة كمبانيا (Campanie) على خليج نابلى ، واهم مدنها قابو (Capoue) •

وكانوا اصحاب مدنية عريقة لها شبه كبير بالمدنية الفنيقية ، وكانوا فى تقدم محسوس من النواحى الفلاحية ، والصناعية والتجارية ، وكانت لهم مصاهر يعالجون فيها معادن الحديد المستوردة من جزيرة آلبة (Ile d'Elbe) وهم الذين كانوا ابتكروا بناء المنازل المشتملة على صحن الدار ، اى على ساحة بدون سقف (atrium) فقلدهم الرومانيون فى ذلك ، ثم قلدنا بدورنا الرومانيين ، وبنينا ديارنا على ذلك الشكل بالبلاد التونسية •

٢ ــ **الاغريقيون** (Les Grecs) فى جنوب ايطاليــة وفى شــرق صقلية ، وهو ما يعرف باسم اغريقيا العظمى (La Grande Grèce)

واهم مدنها : نابلى وتارنتة بايطالية ، وسرقوسة بصقلية • وفى هذه المدن المزدهرة بصناعتها وبتجارتها ، والمتــازة بموقعهــا فى جهات خصبة على البحر ، كانت تلمع الحضارة الاغريقيــة وتشــع بانوارها ، وكانت تجرى حياة ملآنة بالرياضة البدنية ، والثقافة العقلية ، والرقة الشعرية ، وبالفلسفة والادب ، وبالموسيقى والفن ، مثلما كانت تجرى ببلاد اليونان تماما •

٣ ــ **اللاطينيون** (Les Latins) فى الوسط • كانوا شعوبا وقبائل متخشنة ، كلهم رعاة وفلاحون بين شعبين متمدنين ، الاثرورى شمالا ، والاغريقى جنوبا ، تشع منهما حضارة لامعــة ، وتنبعث منهما انبعاثا • وكانوا ينقسمون الى اربعة شعوب ، وكل شعب الى قبائل ، وهذه الشعوب هى :

ــ اللاطينيون (Latins)

ــ والصابيون (Sabins)

ــ والابريون (Ombriens)

ــ والسمنيون (Samnites)

فاما اللاطينيون فانهم كانوا يقيمون بارض لاطينيا (Latium) وتقرا لاسيوم) اى بسهل نهر التيبر (تيبريس) بين اتروريا واغريقيا العظمى ، فاخذوا عنهما الحضارة والمدنية ، وتعلموا الفلاحة والزراعة وفن البناء ، واقتبسوا المؤسسات السياسية والدينية ، فكونوا **الدولة الرومانية** بعد تاسيس رومة ٠

واما الصابيون والابريون والسمنيون ، فقد كانوا يسكنون جبال الابروز (Abruzzes) التى تحيط بسهل لاطينيا وترتفع حوله كانها اسوار من صخور ، فكانوا فقراء ، منعزلين عن كل حضارة ، بعيدين عن كل اختلاط ،وكانوا على غاية من الشراسة والفظاظة والغلظة ٠

ـ رومة والدولة الرومانية

وفى ارص لاطينيا (Latium) ، قرب مصب نهر التيبر ، ترتفع مجموعة مؤلفة من سبع هضاب ، ومن بينها هضبة اعلى منها جميعا ، وهى هضبة البالاتن (Palatin) يبلغ ارتفاعها ٥١ ميترا ، فكانت هذه الهضاب المنيعة شبه الحصون الطبيعية ، تشرف على الطريق الذاهبة من الشمال الى الجنوب ٠

وتذكر الاسطورة والرواية المانورة التى تناقلها الرومانيون جيلا بعد جيل ، ان رومولوس (Romulus) هو الذى انشا مدينة رومة فى ٢١ افريل ٧٥٤ فوق هضبة البالاتن

ثم اخذ نفوذ رومة يتسع ويمتد شيئا فشيئا ، واخذت الدولة الرومانية تنشا وتكبر وتنمو وتترعرع ٠

النظام الملوكى

وكانت حكومة رومة فى بدية امرها حكومة ملوكيـة ، وكـان رومولوس مؤسس رومة اول مليك بتلك المدينة ، ولم يكن الملك وراثيا ، بل كانوا ينتخبون الملك بالتهليل والهتاف وبدون تصويت ٠ وكان مجلس الشيوخ موجودا من ذلك الوقت ، وكان يحدد سلط الملوك وكذلك مجالس الشعب ٠ ففى عهد الملك السادس سرفيوس تـالوس Servius Tellus (مـن ٥٧٨ الى ٥٣٤ ق٠م٠) وقـع تقسيم الشعب الرومانى الى ١٩٣ وحدة مائوية (centuries) ٠ والوحدة المائوية او السنتورية كانت عبارة عن وحـدة اداريـة او عسكرية مؤلفة من مائة شخص او مائة جندى عند الرومان القدماء وذلك بالنسبة للمرتبة الاستثنائية او مرتبة الفرسان (Chevaliers)

ومن عدد من الاشخاص يفوق المائة طبعا تعادل ثروتهم ثروة وحدة الفرسان التى اصبحت وحدة قيس تقاس عليها بقية الوحدات الاخرى بحيث تكون كل وحدة مائوية متساوية فى الثروة هى والاخرى ، ويكون طبعا عدد الفقراء اكثر من عدد الاغنياء لتاليف وحدة مائوية (une centurie)

والاغنياء فى هذه الوحدات المائوية هم الذين كانـوا يدفعـون الضرائب ويستخدمون فى الجيش اكثر من غيرهم ، بينما كانت الدرجة الاخيرة وهى طبقة الفقراء (Prolétaires) معفاة تماما من الضرائب ومن الخدمة العسكرية

وهذا الجدول يبين تقسيم الشعب كله الى ١٩٣ وحدة مائوية والى سبعة اقسام حسب تفاوت ثروتهم :

العدد	الدرجات حسب الثروة	الوحدات المائوية
١	ـ الدرجة الاستثنائية : مرتبة الفرسان (١)	١٨
٢	ـ القسم الاول (المشاة الاغنياء)	٨٠
٣	ـ القسم الثانى (صغار الملاكة)	٢٦
٤	ـ القسم الرابع (صغار الملاكة)	٢٠
٥	ـ القسم الثالث (صغار الملاكة)	٢٢
٦	ـ القسم الخامس (صغار الملاكة)	٢٦
٧	ـ طبقة الفقراء (لا يملكون شيئا)	١
	الجملة	١٩٣

ومن هذا الجدول نفهم ان الاغلبية كانت تحصل بمجرد تصويت الثمانى عشرة وحدة مائوية التابعة للفرسان ، والثمانين وحدة مائوية التابعة للمشاة الاغنياء (الجملة ٩٨ صوتا) ، ويقع الاستغناء تماما عن تصويت الطبقة المتوسطة والطبقة الفقيرة ، ونفهم حينئذ بكيفية جلية واضحة كيف ان زمام الامـور كان بيـد الطبقـة الارستقراطية اى طبقة الاغنياء .

ثم اتى بعده الملك **طارقينوس** وهو الملك السابع والاخير (مات

(١) مرتبة الفرسان : الذين يملكون فرسا

سنة ٤٩٤) وكان جائرا ومستبدا على الاغنيــاء ، ومائــلا للفقــراء والضعفاء ، فصار الاغنياء يكرهونه ويبغضونه ويترصدون الفرص للانتقام منه والقضاء عليه ، الى ان وقعت فضيحة ابنه سكستوس الذى اعتدى على شرف ابنة عمه العفيفة الطاهرة لوكريس ، وهتك سترها ، فانتهزت الطبقة الارستقراطية تلك الفرصة واثارت عليه سخط الشعب والجيش ، فاطرد هو وابنه ، والغى النظام الملوكى ، وحل محله النظام الجمهورى (سنة ٥٠٨) ٠

فدام هذا النظام الملوكى ما يقرب من قرنين ونصف ، اى مــن تاسيس رومة سنة ٧٥٤ الى سنة ٥٠٨

النظام الجمهورى

ثم اعقبه النظام الجمهورى المرتكز على طبقة الاشراف (Les patriciens) وكانوا وحدهم معتبرين من الشعب الرومانى ٠ اما طبقة الرعــاع (Les plébéiens) فانهم كانوا لا يعتبرون من الشعب بل يعتبرون كالاجانب ، ولا يشاركــون فى الحكومــة ، وفى الامــور الدينيــة ، ولا يقترنون بالاشراف ٠

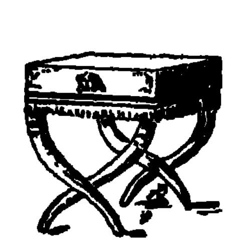
وكان زمام الحكم فى قبضة مجلس الشيــوخ المتــركب كلــه من الاشراف ٠

وفى كل سنة يقع انتخاب قنصلين من الاشراف لمــدة عام واحد فكانا يقومان مقام الملك ، ويقودان الجيش ، ويراسان مجلس الشيوخ ومجلس الشعب ٠

وكان الشعــار الذى يميزهما : الحلة (la robe prétexte) وهــى



١ ـ الحلة والعصا



٢ ـ كرسى العاج



٣ ـ الجنادرة (حراس القنصل)

حلة بيضاء ذات حاشية من ارجوان ، وعصا من العاج ، وكرسى من العـاج ، (la chaise curule) ، والجنـادرة (les licteurs) وهـم اثنا عشر جندارا او حارسا يحمل كل واحد منهم حزمة مربوطة من العصى ، شدت فيها فاس للدلالة عما يتمتع به القنصـل من حـق القتل او الابقاء بقيد الحياة ٠

وكان الرومانيون يسمون كل سنة من السنوات باسم القنصلين اللذين كانا يعملان طيلتها،فكانتقائمات القناصل (fastes consulaires) عبارة عن رزنامة الرومانيين ٠

وهناك شبه كبير بين نظام الحكم بالجمهوريـة الرومانية ، وذلك النظام بالجمهورية القرطاجية ٠

وقد قاومت الطبقة الضعيفة وكافحت مدة طويلة تقرب من القرنين للحصول على المساواة فى الحقوق مع طبقة الاشراف ٠ وفى النهاية انتصرت وصارت تتمتع بجميع حقوق المواطن المدنية سنة ٣٦٧ ، والدينية سنة ٣٠٠ ، فاصبح الشعب الرومانى موحدا ، واصبح كل افراده متساوين امام القانون،واصبح المواطنون ينقسمون الى اغنياء وفقراء بعد ما كانوا ينقسمون الى اشراف ورعاع ٠ اما حق الانتخاب فبعد ما كان يشترط فيه النبل والشرف ، اصبح يقاس بالثـروة والغنى الى ان يصير مرتبطا بمسالة المسكن فقط ، وهذا هو السير التدريجى نحو الديموقراطية ٠

واليكم سلسلة انتصارات هذه الطبقة الضعيفة التى اصبحت قوية بفضل ثباتها وتكتلها ٠

١) تعيين محامين ونواب يدافعون عن حقوقهم يسمون المنبريين (tribuns)

٢) الاعتراف بحقوق التزاوج والمصاهـرة بين الطبقتين العليـا والسفلى ٠

٣) الحق فى المشاركة فى وظيفة الوكالة المالية (Questure)

٤) الحق فى المشاركة فى مجلس الشيوخ (Sénat)

٥) الحق فى المشاركة فى القنصلية (Consulat)

٦) الحق فى المشاركة فى البريطورية (Prétoriat)

٧) الحق فى المشاركة فى مرتبة الحبر الاعظم (Grand Pontificat)

وقد تغير النظام السياسى تغييرا محسوسا ابتـداء من القـرن الرابع ، فصارت السلط مقسمة بين :

١ ـ القنـاصـل (Les Consuls)
٢ ـ والقضاة المدنيين (Les Préteurs)
٣ ـ ووكلاء الاحصاء (Les Censeurs)
٤ ـ ووكـلاء المـاليـة (Les Questeurs)
٥ ـ ونظار الابنية والملاعب (Les Ediles)
٦ ـ والمنبريين (نواب الرعاع) (Les Tribuns)
٧ ـ ومجلس الشيوخ (Le Sénat)
٨ ـ والشعب (Le Peuple)

ـ **فاما القنصل** ، وهو ارقى درجـات حكـام الدولة ، وعـلى راس جميعها ، فهو خلف ملوك العهد القديم ، وقائد الجيش ، وصاحب السلطة القضائية الجنائية ، والمكلف باعـداد القوانين بمشاركـة مجلس الشيوخ .

ولم تدخل طبقة الرعـاع في القنصليـة الا ابتـداء من سنة ٣٦٧ وبعـد كفـاح مريـر .

ـ وبجانب القنصل الذى يمارس القضاء الجنائى ظهر ، ابتـداء من سنة ٣٦٧ ، البريطور لممارسة القضاء المدنى ، واصبح زميلا للقنصل . ولم تشارك طبقة الرعاع فى البريطورية الا ابتداء من سنة ٣٣٧ بعد كفاح مرير آخر .

ـ واما **وكلاء الاحصاء (سنسور)** فان تسميتهم تقع لمدة ثمانيـة عشر شهرا ، ويتكلفون باحصاء الاهالى وتقسيمهم من ناحية ثروتهم وباعداد الميزانية ، وبمراقبة الاخلاق العامة ، فهم المكلفـون بحفظ النظام الاخـلاقى . (Police des mœurs)

ـ **واما وكلاء المالية (كستور)** : فهم المكلفون بادارة الشؤون المالية وبحفظ النظام الجنائى (Police criminelle) وعددهم ثمانية : اثنـان بايديهما مفاتيح خزينة الدولـة ، واثنـان يرافقـان القنصليـن فى الحروب ، واربعة يتكلفون بالاسطول .

ـ **واما نظار الابنية والملاعب (ايديليس)** فهم مكلفون بحفظ نظام البلدية (Police municipale) وبمراقبة الابنيـة ، وادارة شـؤون الالعاب العمومية ، والاهتمام بتموين المدنية

ـ **واما تعيين المنبريين او نواب الرعاع (تريبونوس)** فقد ظهر

ابتداء من سنة ٤٩٣ بعد كفاح طويل قامت به طبقة الرعاع ، وهو اول انتصار احرزت عليه هذه الطبقة ، ولكن دور هؤلاء المحامين عن حقوق هذه الطبقة الضعيفة اخذ يتجسم ويضبط بدقة ووضوح فى ذلك القرن الرابع ، فاصبحت مقاعدهم موجودة فى مجلس الشيوخ وعدم المصادقة عن القوانين،(droit de veto)واستمر لهم حق الرفض فلا يمكن عند ذلك اصدارها .

ـ **واما مجلس الشيوخ** فهوما زال يتالف من ثلاثمائة عضو ، ولم تقبل مشاركة طبقة الرعاع او العوام فيه الا ابتداء من سنة ٤٠٠ ق.م.

وكان هذا المجلس عبارة عن هيئة استشارية للنصح والارشاد وابداء الراى ، تحت تصرف القضاة والحكام السامين ، ولا يمكن له ان يبدى او يعيد بدون تدخلهم . فهو يعد القوانين ولكن الكلمة النهائية لمجالس الشعب ، ويضبط حدود الوظائف العمومية ولكنه لا يسمى القضاة والحكام ، وكان من مشمولات انظاره على الاخص تسيير السياسة الخارجية ، ومراقبة اموال خزينة الدولة .

ـ **واما الشعب** (le peuple) فكان يعقد مجالسه الانتخابية(Comices) لانتخاب القناصل وكبار الموظفين فى الادارة والقضاء ... او مجالس اخرى لاعلان الحرب او للمصادقة على القوانين التى اعدها مجلس الشيوخ .

وقد اخذ الاطار السياسى والادارى يتسع شيئا فشيئا بحسب التوسع الاستعمارى والفتوحات فاحدثت مثلا :

وظيفة البروقنصل (Proconsul) : وهو لقب كان يحمله الولاة الرومانيون الذين كانوا مكلفون بادارة شؤون ولاية او بروقنصلية (Proconsulat) بجميع ما يتمتع به القنصل نفسه من سلطة ونفوذ ، وكان يجمع فى شخصه كل السلط العسكرية والمدنية والقضائية . وكان البروقنصل فى الغالب قنصلا قديما انتهت مدة عمله ، فيتعين فى خطة بروقنصل .

النظام الامبراطورى (Empire)

وانتهى النظام الجمهورى بالتزاحم المشهور بين يوليوس قيصر وبمبايوس ، وبالحرب الداخلية التى نشات عن ذلك التزاحم ، وبانتصار قيصر على خصمه بمبايوس سنة ٤٨ ق.م. وباستيلاء الديكتاتور

قيصر على جميع النفوذ ولمدة الحياة الى ان اغتاله بروتوس سنة ٤٤ ثم نشبت بعد موته حرب اهلية اخرى ٠٠٠ وفى سنة ٢٩ ق٠م٠ بدا حكم الاباطرة ، وبدا النظام الامبراطورى الاستبدادى الفردى مكان النظام الجمهورى الديموقراطى

وفى عهد الاباطرة قسمت الولايات او املاك الدولة الى :

ـولايات واملاك امبريالية (للامبراطور خاصة)

ـوولايات واملاك قنصلية او سيناتورية (للدولة والشعب)

وظهر حاكم جديد بجانب القنصل وهو : :

الآغا او نائب الامبراطور (légat) يختاره الامبراطور ويعينه بنفسه ويحمل لقب :

ـالبروقيراطور (Procurator) او وكيل الامبراطور ، وهذا اللقب كان يحمله الموظفون الرومانيون الذين يكلفهم الامبراطور بنيابته فى الولايات ٠ فكان (البروقيراطور) مندوب الامبراطور او وكيل الامبراطور (ومن ذلك اتت الكلمة الفرنسية بروكيرور procureur اى الوكيل)

وكان البروقيراطور اى الوكيل مكلفا باستخلاص بعض المحاصيل والاموال لفائدة صندوق الامبراطور وخزينته الخاصة ، وبادارة شؤون الولايات والاملاك المعتبرة من املاكه الخاصة ٠

او لقب :

ـ البروبريطور (Propraetor) وهو لقب يحمله الولاة الرومانيون الذين كانوا يقومون بوظائف واعمال البريطور (Praetor) وكان البروبريطور (مثل البروقيراطور) يختاره الامبراطور ويعينه بنفسه على راس ولاية امبرالية ليقوم بنفس الاعمال التى يقوم بها البروقيراطور ٠ وكان الفرق بينهما يتعلق لا بالوظيفة والنفوذ بل بالمرتبة ، فبينما كان البروقيراطور من مرتبة الفرسان فقط (rang équestre) كان البروبريطور من مرتبة الاعيان بمجلس الشيوخ (rang sénatorial)

وبالجملة فان اصحاب السلطة العليا اى الولاة (Les Gouverneurs) على راس الولايات الرومانية (Provinces) كانوا على ثلاثة اصناف :

١ ـ **البروقنصل** (Proconsul) وهو فى الغالب قنصل قديم يقوم باعباء القنصل على راس الولايات القنصلية وتسمى ايضا الولايات السيناتورية (provinces sénatoriales)

٢ ـ **البروبريطور** (Popraetor) وهو فى الغالب بريطور قديم

يقوم باعمال البريطور على راس الولايات الامبراليـة (provinces impériales) التى كانت معتبرة من املاك الامبراطور الخاصة

٣ ـ **البروقيراطور** (Procurator) من مرتبة الفرسان فقط ، وهو وكيل الامبراطور على راس الولايات الامبريالية ايضا

فاننا نجد مثلا :

ـ**البروقنصل** : على راس ولاية او بروقنصلية افريكا (اى البلاد التونسية اليوم)

ـ **البروبريطور** : على راس نوميدية (الجزائر الشرقية)

ـ**البروقيراطور** : على راس مريطانية القيصرية (الجزائر الغربية)

ـ**البروقيراطور** ايضا على راس مريطانية الطنجية (المغرب) (١)

وقد ظهرت كل هذه الوظائف بمناسبة الفتوحات ووجود ولايات رومانية فى حاجة الى نظام ادارى ونظام سياسى .

الفتوحات :

وقعت هذه الفتوحات على مرحلتين :

المرحلة الاولى : الفتوحات داخل ايطالية لتكوين الوحدة الايطالية وللوصول الى ذلك الهدف اخضعت رومة الاترورييين ، وقبائل ايطالية الوسطى ، فوقف فى وجهها السمنيون ، فاشهـرت عليهم رومـة حروبا طويلة دامت ما يزيد عن نصف قرن الى ان تغلبت عليهـم وجعلتهم تحت سلطتها ، ثم تصدت الى مدن اغريقيا العظمى ، وكانت كل مدينة امة براسها ، ووطنا مصغرا ، ودولة مستقلة ، فاستولت عليها الواحدة تلو الاخرى ، وبسطت نفوذها على كمبانيا ، فانزعجت تارنتة من هذا التقدم المنذر بالخطر ، وارادت عرقلته وايقافه عند حده ، فتحالفت مع نابلى ، لكن هذه المدينة ارغمت بدورها على قبول السيطرة الرومانية (سنة ٣٠٤) وعند ذلك استنجدت تارنتة بالملك بيروس ، ودارت معارك طاحنة بين الرومانيين وهذا الملك (من ٢٨٠ الى ٢٧٥) انتهت بسقوط تارنتة .

وبذلك اصبحت رومة سيدة ايطاليا باسرها .

اما النظام السياسى والادارى بايطالية فقد كان على غايـة من التنويع ، فلم تمنح المدن والاوطان المحتلة حقوقا متساوية ، بـل قسمتها حسب الاحوال والظروف الى :

(١) مريطانية القيصرية (Maurétanie Césarienne) : سميت كذلك نسبة الى عاصمتها (قيصارية) وهى شرشال Caesarea = Cherchel وكذلك مريطانية الطنجية (Maurétanie Tingitane) نسبة الى عاصمتها طنجة (Tingi = Tanger)

ـ اوطان ومدن متمتعة « بالحق الرومانی »
ـ اوطان ومدن متمتعة « بالحق اللاطينى »
ـ اوطان ومدن فيديرالية
ـ اوطان ومدن حليفة
ـ اوطان ومدن فى شكل « ولايات رومانية » الخ ...

واما صفة المواطن الرومانى (citoyen romain) وحق المواطن (Jus civitatis = droit de cité) فقد اخذت تتسع دائرته شيئا فشيئا :

ـ ففى البداية كان لا يوجد مواطن البتة خارج رومة

ـ وفى سنة ۸۷ ق . م . صار جميع الايطاليون يتمتعون بصفة المواطن الرومانى .

ـ وفى سنة ٤٧ ق . م . منح يوليوس قيصر حق المواطن سكان (غالية امام الآلب) Gaule Cisalpine

ـ وفى سنة ٦٨ بعد الميلاد عمم الامبراطورسرفيوسسلبيسيوس حق المواطن على جميع الغاليين

ـ وفى سنة ۲۱۳ بعد الميلاد جاء الامبراطور مارقوس انطونيوس الملقب بقارا قالا ، ابن سبتيموس سافاروس الافريقى،وسن دستورا جديدا منح به حق المواطن الرومانى جميع شعوب الامبراطورية الرومانية ولو كانوا من الاجانب . وبهذا الدستور الخطير فقدنا شخصيتنا ، وتجنسنا رغم انوفنا ، ودخلنا فى القومية الرومانية .

المرحلة الثانية : الفتوحات خارج ايطالية اوالفتوحاتالاستعمارية والذى يهمنا منها الان هى الفتوحات التى كانت نتيجة الحروب البونيقية والتى كنا تحدثنا عنها فى مكانها ، اى :

ـ بعد الحرب البونيقية الاولى:
صقلية (سنة ۲٤۱)
سردينية (سنة ۲۳۷)
كورسيكة (سنة ۲۳۷)

ـ اثناء الحرب البونيقية الثانية : اسبانية (سنة ۲۰٦)
ـ بعد الحرب البونيقية الثالثة : افريقية (سنة ١٤٦)

وهكذا كانت رومة قرية صغيرة متواضعة ، ثم صارت مدينة عظيمة ، ونراها الآن اصبحت عاصمة امبراطورية شاسعة تشمل اسبانية ، وبلاد اليونان ، وآسيا ، وافريقية ، واصبح يحق لها ان تسمى البحر المتوسط بحرها (Mare nostrum)

فلننظر كيف كانت الممالك الافريقية بعد موت الملك ماسنيسا ، وكيف استولى عليها الرومانيون تدريجيا الى ان بسطوا نفوذهم على كامل تراب شمال افريقية .

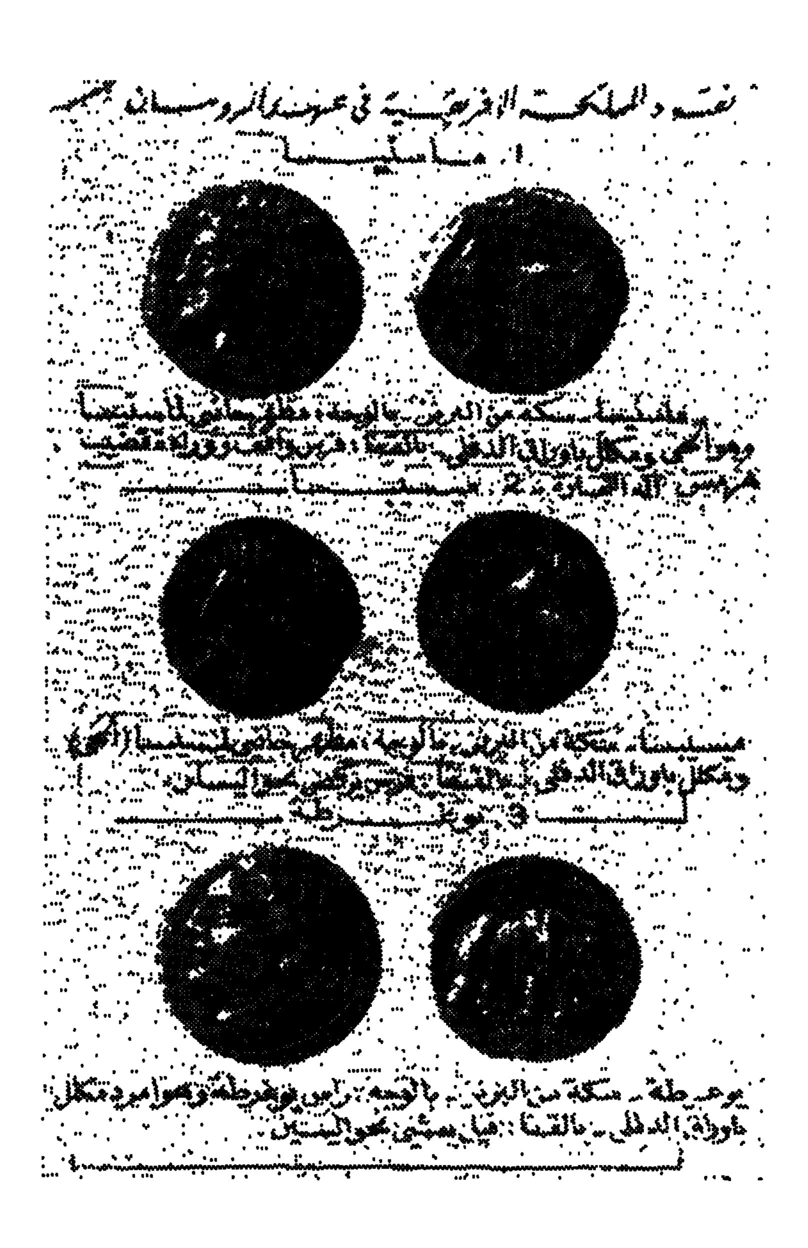
لوحة ٦٤

انظر الصفحة رقم ٢٨٤ من هذا الكتاب



لوحة ٦٥

انظر الصفحة رقم ٢٧٤/٢٨٦ من هذا الكتاب



لوحة ٦٦

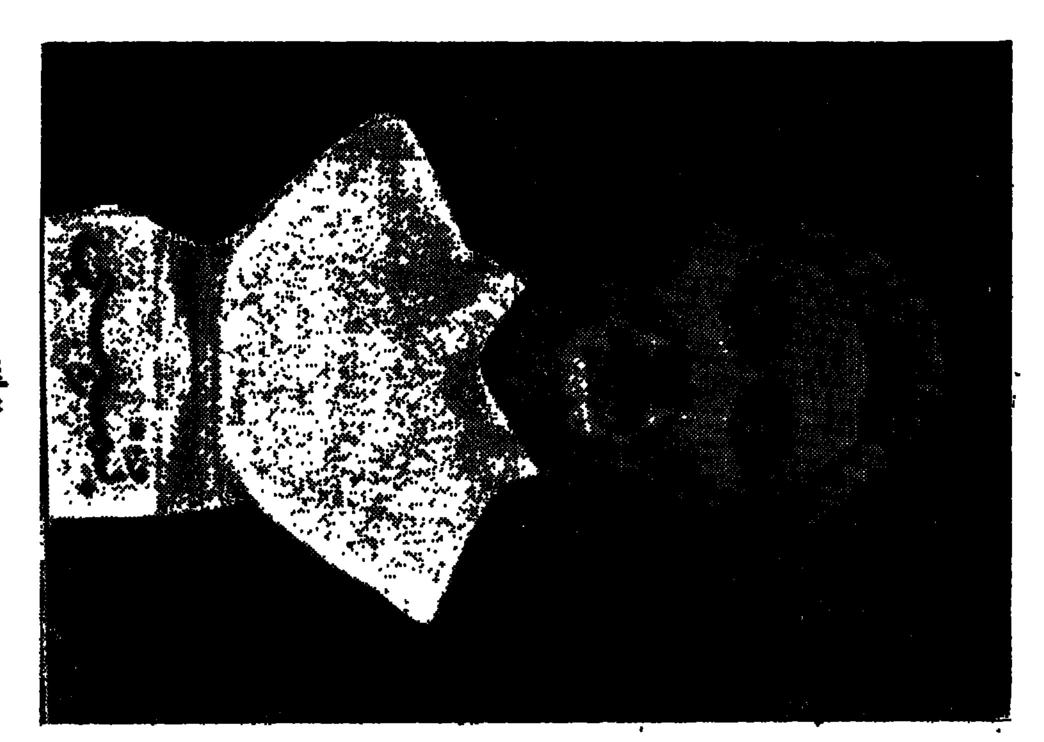
انظر الصفحة رقم ٢٧٤/٢٨٦ من هذا الكتاب

انظر الصفحة رقم ٢٧٤/٢٨٦ من هذا الكتاب



لوحـة ٦٧

انظرالصفحة رقم ٢٨٤ من هذا الكتاب





جـدول

القياصرة او الاباطرة فى العهد الامبريالى

دور الامبراطورية الاعلى (Haut-Empire)
(من ٢٩ ق ٠ م٠ الى ٢٨٤ بعد الميلاد)

اولا ـ مدة العائلة اليوليوسية(Dynastie des Jules): ٢٩ ق٠م٠ ٦٨بعد٠م)

١ ـ اكتيافيوس اغسطس (Octave Auguste): ٢٩ ق ٠ م / ١٤ بعد الميلاد

٢ ـ تيباريوس كلوديوس (Tibère) : ١٤ ـ ٣٧

٣ ـ قاليغولا (كايوس جير مانيكوس) (Caligula) : ٣٧ ـ ٤١

٤ كلوديوس (تيباريوس دروسوس) (Claude) : ٤١ ـ ٥٤

٥ ـ لوكيوس نرو كلوديوس (Néron) : ٥٤ ـ ٦٨

ثانيا ـ مدة العائلة الفلافية (Flaviens) : من ٦٩ الى ٩٦

٦ ـ فلافيوس فسبسيانوس (Vespasien) : ٦٩ ـ ٧٩

٧ ـ تيتوس فلافيوس صابينوس (Titus) : ٧٩ ـ ٨١

٨ ـ تيتوس فلافيوس دوميسيانوس (Domitien) : ٨١ ـ ٩٦

ثالثا ـ مدة العائلة الانطونية (Antonius) من ٩٦ الى ١٩٣

٩ ـ ماركوس نيرفا (Nerva) : ٩٦ ـ ٩٨

١٠ ـ ماركوس تراجانوس (Trajan) : ٩٨ ـ ١١٧

١١ ـ هادريانوس (Adrien) : ١١٧ ـ ١٣٨

١٢ ـ تيتوس اوريلوس (Antonin) : ١٣٨ ـ ١٦١

١٣ ـ ماركوس اوريليوس (Marc-Aurèle) : ١٦١ ـ ١٨٠

١٤ ـ لوكيوس كومودوس (Commode) : ١٨٠ ـ ١٩٢

رابعا ـ الاباطرة فى القرن الثالث (Empereurs du IIIe siècle)

١٥ ـ سيتيموس سافاروس (Septime Sévère) : ١٩٣ ـ ٢١١

١٦ ـ قاراقالا (Caracalla) : ٢١١ ـ ٢١٧

١٧ ـ افيتوس باصيانوس (Elagabale) : ٢١٨ ـ ٢٢٢

١٨ ـ الاسكندر سافاروس (Alexandre Sévère) : ٢٢٢ ـ ٢٣٥

الفوضى العسكرية (Anarchie militaire) : ٢٣٥ ـ ٢٨٥

ماكسيموس و غورديانوس الخ ٠٠٠

٠٠٠ ثم ياتى دور الامبراطورية الاسفل (Bas Empire)

١٩ ـ ديوكليسيانوس (Dioclétien) : ٢٨٤ ـ ٣٠٥

الرابوع (la tétrarchie)

٢٠ ـ قسطنطين الاكبر (Constantin) : ٣٠٦ ـ ٣٣٧

(نقل عاصمة الحكم من رومة الى بيزنطة)

الممالك الافريقية

بعد موت ماسنيسا

فى بداية سنة ١٤٨ ق ٠ م ٠ مات الملك النوميدى ماسنيسا تاركا مملكة شاسعة ، مترامية الاطراف الى ابنائه الثلاثة ميسيبسا ومستعنبعل ، وغولوسة ٠ وقدم شبيون الايميلى الى مدينة قرطة بطلب من الملك ماسنيسا لما احس هذا الاخير بدنو اجله ، ووصل بعد موته بقليل ، وقسم السلط على الامراء الثلاثة على الصورة التالية: اخذ ميسيبسا ، وهو اكبرهم سنا ، السلطة الادارية ، ومستعنبعل السلطة العدلية ، وغولوسة السلطة العسكرية وقيادة الجيش ٠

ورجع شبيون بعد ذلك الى محاربة القرطاجيين واخذ معه الملك غولوسة مع قواته العسكرية وفرسانه فكان له خير عون واكبر مساعد على الانتصار فى الحرب البونيقية الثالثة التى انتهت بتهديم قرطاج ٠

وبعد ذلك الانتصار اكتفت رومة مبدئيا بالاستيلاء على ارض حكومة قرطاج (افريكا) ، لان ابناء ماسنيسا كانوا كلهم طوع امرها ، ورهن اشارتها ، وكانت تعتبرهم تحت ظلها وحمايتها ، فلم تر فائدة فى زيادة الاستيلاء على مملكتهم التى كانت تستغلها بدون عناء ولا كلفة ولا نفقات ، وكانت تعتبرها تحت تصرفها ، مثلما كانت تصرفت فى الملك غولوسة وفى قواته العسكرية فربحت بهم الحرب ضد القرطاجيين ٠

وتخلفت رومة لابناء ماسنيسا عن بعض فضلات الغنيمة لا تسمن ولا تغنى من جوع ، فتركت لهم مكتبة قرطاج ، وتنازلت لهم عن بعض الاراضى ٠

ميسيبسا

ومات غولوسة ومستعنبعل بعد ذلك بسنوات قليلة ، وانفرد ميسيبسا وحده بالملك ، وكان اذ ذاك شيخا مسنا ، وكان ولوعا بالعلم والفلسفة ، كثير الاجتماع بالعلماء اليونانيين ، حريصا على تجميل مدينة قرطة ، وكانت علاقته طيبة مع رومة ، حتى انه وضع تحت تصرفها جيوشه وافياله وقموحه وكل خيرات بلاده ، ومد لها يد المساعدة بالمال والرجال ، والزاد والعتاد ، فى مناسبات كثيرة جدا يطول ذكرها • ففى سنة ١٣٤ مثلا سير الى شبيون الايميلى جيشا يتالف من ١٢ فيلا ، ومن عدد من الفرسان ، وحاملى القسى ، وحاملى المقاليع ، تحت قيادة ابن اخيه يوغرطة لتهديم نومنسة (١)

بعد ميسيبسا : آذربعل ـ هيامبسال ـ يوغرطة

ومات ميسيبسا سنة ١١٨ وهو شيخ طاعن فى السن تجاوز الثمانين ، وخلف ابنين صغيرين شرعيين وهما:آذربعل وهيامبسال وكان اخوه الهالك مستعنبعل ترك ايضا ولدين ، احدهما شرعى وهو (غودة) وكان ممراضا ، ضعيف العقل ، خفيف النعامة ، والآخر ابن سفاح ولد له سنة ١٥٤ من التسرى ، وهو (يوغرطة) ، وكان جميلا ، قويا ، ذكيا ، محبا للرياضة البدنية ، ولوعا بركوب الخيل ، والصيد والقنص ، بارعا فى فنون القتال ، وهى كلها خصال جعلته محبوبا فى قلوب جميع النوميديين • انظر اللوحة رقم ٦١

وكان ميسيبسا يخشى جانبه ويود التخلص منه حتى لا يزاحم ابنيه فى الملك ، ولكنه لم يتجاسر على قتله ، فسيره على راس النجدة التى مد بها شبيون الايميلى املا فى التخلص منه بتلك الوسيلة ، فيهلك ضحية شجاعته وعدم مبالاته بالاخطار •

---

(١) نومنسة (Numance) : مدينة باسبانيا قرب منابع نهر دورو ، اسسها الغاليون ، وكانت جمهورية صغيرة مستقلة هاجمها الرومانيون مرات عديدة بدون جدوى ابتداء من سنة ١٣٨ ولم يتغلبوا عليها الا باعانة يوغرطة النوميدى الذى هدمها سنة ١٣٣ ق • م•

ولكنه ، عكس ذلك ، اظهر مقدرة فائقة ، ونال اعجاب شبيون الايميلي اذ قام احسن قيام بجميع المهمات الدقيقة والماموريات الصعبة التي كان كلفه بها ذلك القائد الروماني ، وصار في مدة قليلة يحسن التكلم باللغة اللاطينية ، الامر الذي امال اليه ايضا قلوب الرومانيين وبعد سقوط نومنسة في صائفة سنة ١٣٣ ، شكره شبيون، واكرمه امام افراد الجيش ، وصرفه مبجلا معظما بعد ما سلمه رسالة خاصة الى ميسيبسا يمجد فيها اعماله ٠

فادرك ميسيبسا انه لا يمكن له بعد ذلك ان يمسه بمكروه ، فالتجا الى استمالته وجلبه اليه ، وتبناه سنة ١٢٠ ، فاصبح يوغرطة اميرا شرعيا له الحق في المشاركة في الملك ٠ وكتب ميسيبسا قبل وفاته وصية نص فيها على جعل الملك من بعده الى آذربعل وهيامبسال ويوغرطة ، ثم من بعدهم الى غودة ٠

ـ التخلص من هيامبسال

وبعد وفاة ميسيبسا اجتمع الامراء الثلاثة بمدينة دقة للتفاوض، وكان هيامبسال اصغرهم سنا ، فاغلظ القول على ابن عمه يوغرطة، وشتمه واحتقره لكونه نغيلا (١) في نظره ، غير اهل لمرتبة الامراء ساقطا شرعا عن الوراثة ٠٠٠ ثم اخذ مكانه عن يمين اخيه آذربعل حتى لا يكون يوغرطة جالسا في الوسط ، اى في الصدارة ومكان الشرف ٠ فاسر يوغرطة كل ذلك في نفسه وعزم على الانتقام ٠

ولم يحصل اى اتفاق بين هؤلاء الامراء الثلاثة لتقسيم السلط ، فعدلوا عن محاولة البحث عن حل يمكن من العمل المشترك وقرروا العزم على قسمة الذخائر والاموال بينهم اولا ، ثم قسمة المملكة ، حتى يستقل كل واحد منهم بقسطه ، وافترقوا على موعد الاجتماع من جديد ، وانصرف كل واحد في حال سبيله ، ولم يكن يوغرطة مسرورا بهذا الانقسام الذى يؤول لا محالة الى الضعف والانحلال والخسران المبين في الوقت الذى كان يحلم بتنفيذ خطة الملك ماسنيسا الرامية الى تكوين دولة افريقية قوية ، موحدة ، تجمع بين كل اقطار شمال افريقية ٠ وان تنفيذ هذا البرنامج لا يمكن له ان يتم الا بموت هيامبسال وآذربعل اللذين اصبحا حجر عثرة في سبيله

وكان هيامبسال يقيم ببلدة (اثميدة) على مقربة من دقة عند رجل نوميدى ٠ وكان هذا النوميدى من اعوان يوغرطة ، فاغراه

(١) النغيل : هو ابن الحرام

بالمال وامره باغتيال هيامبسال ليلا بمساعدة جماعة من رجاله . فكان الامر كذلك واتوه براس ابن عمه (سنة ١١٨) . وهكذا تخلص يوغرطة من الاول ، ولم يبق الا دور الثاني !

ـ التخلص من آذربعل

ثم دارت معركه بين يوغرطة وآذربعل ، انهزم فيها هذا الاخير ، ففر هاربا الى الولاية الرومانية بافريقية ، ومن هناك سافر الى رومة للاستنجاد بها على خصمه ، وكان يوغرطة قد اوفد هو الآخر رسله الى رومة مثقلين بالاموال والهدايا . ولما وقف آذربعل امام مجلس الشيوخ مستصرخا شاكيا ، اجاب رسل يوغرطه بان هيامبسال لم يقتله الا اتباعه الذين ثاروا عليه لسوء سلوكه ، وفساد طبعه ، وقساوة قلبه . اما آذربعل فهو الظالم والمعتدى . ولما انهزم واصبح عاجزا عن الاذاية ، ذهب الى رومة باكيا وشاكيا . ولذلك فان الامير يوغرطة ، ذلك الرجل الذى ما زال على عهده القديم لما ابلى معكم البلاء الحسن في حرب نومنسة ، يلتمس من حضرات اعيان مجلس الشيوخ ان يحكموا بعدم سماع الدعوى .

وبعد الاخذ والرد قرر المجلس ارسال عشرة مفوضين الى نوميدية على راسهم اوبيميوس لاجراء البحث فى القضية على عين المكان ولقسمة المملكة بين الامبرين (سنة ١١٧) . فاشتراهم يوغرطة بالمال وجعلهم من جهته فحكموا ببراءته . ثم قسموا المملكة النوميدية الى قسمين : قسم شرقى يمتد من حدود الولاية الرومانية الى قرطة بدخول تلك العاصمة ، وكان هذا القسم من نصيب آذربعل ، اختاره الرومانيون لوداعته ومسالمته ولين جانبه فجعلوه من جهة ولايتهم ، وقسم غربى يصل الى حدود مريطانية اى الى وادى ملوية كان من نصيب يوغرطة . ولم يكن هذا الاخير راضيا بالقسمة او موافقا عليها غير انه تظاهر بالخضوع والقبول والامتثال خداعا وتصنعا ريثما يحين الوقت لتنفيذ خطته .

وبعد ذلك باربع سنوات هاجم يوغرطة مملكة ابن عمه مدعيا بانه اراد اغتياله ، وبعد معركة دارت رحاها بين الطرفين بالقرب من قرطة ودامت الى ساعة متاخرة من الليل ، انهزم آذربعل والتجا الى عاصمته الحصينة . فضرب يوغرطة الحصار على تلك المدينة ، وكان الايطاليون القاطنون بها يمدون يد المساعدة الى الملك المغلوب ، ويشدون ازره ، ويدافعون

عن المدينة بكل مجهوداتهم • وكان آذربعل اثناء ذلك الحصار يستنجد بروما ، ويناديه ويستغيث ، وكانت رومة ترسل رسلها ولجانها الى يوغرطة ليكف عن القتال ، وكانت تدعوه الى الهدوء والرزانة والطاعة ، وتحذره من عاقبة الجور والبغي والعصيان • فكان يوغرطة لا يكترث بوعدها ووعيدها ولا يقيم لتهديداتها وزنا •

وبعد حصار دام ما يقرب من ستة اشهر استسلم آذربعل • فنكل به يوغرطة اشد التنكيل وقتله شر قتلة (سنة ١١٢) ثم انتشرت جنوده في شوارع المدينة ، واخذوا يقتلون كل من صادفوه وهو يحمل السلاح ، سواء كان ايطاليا او نوميديا ، ففتكوا بالايطاليين فتكا ذريعا •

- يوغرطة وروما

واصبح يوغرطة بعد انتصاره على آذربعل على راس مملكة شاسعة، مترامية الاطراف ، وامبراطورية افريقية شامخة الذرى ، وتلك اول مرحلة خطاها يوغرطة في سبيل تنفيذ برنامج ماسنيسا ، ولكن رومة لم تتركه هادئا مطمئنا فوق عرشه ، بل اتخذت عصيانه ، وقتله لابن عمه ، وفتكه بالايطاليين اسبابا واعذارا لاشهار الحرب في وجهه ، فدامت تلك الحرب ست سنوات (١١١/١٠٥) •

وان المقاومة العجيبة التي قام بها يوغرطة ضد رومة ابرزته في مظهر اميرجليل من اعظم واكبر الامراء الذين عرفهم التاريخ في تلك المدة ونحن نتخذ من تاريخ يوغرطة اثمن درس في نزعة الافريقيين نحو توحيد البلاد ، وانشاء دولة مستقلة، وتكوين امبراطورية مغربية

● وان اول جيش ارسلته رومة لمحاربة يوغرطة كان تحت قيادة القنصل باسطيا (L. Calpurnius Bestia) في سنة ١١١ • واقتصر هذا الجيش على احتلال بعض المدن ، غير انه لم يصل الى مدينة باجة (Vaga) حتى وقع اعلان الصلح بفضل ما قدمه يوغرطة من اموال لاعدائه ، اسكن بها قعقعة السلاح ، وكفى بها النوميديين القتال • وتركت له رومة كامل مملكته ما عدا لبدة بطرابلس (Leptis Magna) فهي قد انفصلت عن حكومة يوغرطة واصبحت مدينة حرة وحليفة وصديقة لرومة •

• وافتضح بعد ذلك امر باسطيا وجماعته ، فقررت حكومة رومة

محاكمتهم ، واستقدمت يوغرطة كشاهد لاثبات جريمتهم • ومثـل يوغرطة امام مجلس الشيوخ ، ولكنه رشى قبل ذلك احد المنبريين وهو بابيوس (le tribun Bæbius) واعطاه مبلغا كبيرا من المال • ولما طالبوا يوغرطة بالكلام لانارة المجلس ، واظهار الحقيقة ، قـام بابيوس ومنعه من ان ينطق ولو بكلمة واحدة ، وذلك رغما عن كثرة الجلبة والضجيج وتهديد الناقمين على مثل هذه الاعمال • وانقض المجلس بدون ان يقع الوصول الى اية نتيجة •

وكان (ماسيوة) بن غولوسة ، يقيم برومة فى ذلك الوقت وهو ابن عم يوغرطة فبلغ هذا الاخير ان ماسيوة يحاول حمل الحكومـة الرومانية على تمكينه من التربع على عرش اجداده مكان ابن عمـه الذى اساء السلوك ولم يحسن التصرف • فقامت قيامة يوغرطـة وكلف احد اتباعه باغتيال ذلك المزاحم الجديد ، فتمكـن من قتلـه فى وسط رومة •

وبارح يوغرطة مدينة رومة وهو يقول : « مدينة معروضة للبيع، ستتلاشى عن قريب لو تجد شاريا »

ولكن هذه الجريمة التى وقع ارتكابها فى قلب رومة كانت سببا فى اثارة الحرب من جديـــد •

◎ ـ وفى سنة ١١٠ انتصر يوغرطة على الجيش الرومانى الذى كان يقوده القنصل البينوس (Albinus) ، ثم تركه هذا الاخير تحت قيادة اخيه اولوس (Aulus) فانتصر عليه يوغرطة وذلك فى معركة قالمة (Calama = Guelma) وهى المشهورة بمعركة سوتول (Suthul) (بلدة قريبة من قالمة)

وامر يوغرطة اعداءه المغلوبين بالمرور جميعا من تحت نير اعترافا منهم بالاستسلام والرضوخ والاذعان • فكان وقع تلك الفضيحـــة على رومة والرومانيين اشنع واشد بكثير من الهزيمة نفسها • ووقع اتهام اولوس ايضا بالارتشاء وارتكاب الخيانة من اجل المال •

وبهذه الهزيمة الشنعاء انتهى دور الرشوة والبرطلة ، واتى دور الحزم والجد والنزاهة ، وذلك ابتداء من سنة ١٠٩ وهى السنة التى تسلم فيها ميتيلوس القيادة (Caecilius Metellus) •

يوغرطـة وميتيلـوس

كان ميتيلوس من اسرة شريفة عريقة فى المجد ، عدت ستة قناصل

من قبله ماعدى الوظائف العليا الاخرى ، فكان فوق كل الظنون والشكوك لاياتيه الباطل من يمينه ولا من خلفه ، وكان معه عضده المتين مثال النزاهة والاستقامة ايضا ماريوس (Marius) فبدا هذا القائد قبل كل شيء بارجاع النظام الى نصابه فى الجيش بعدما تصدع بناؤه وتشوهت سمعته وتضعضعت احواله بالتبرطل والارتشاء والعجز المتناهى .

وقد حاول يوغرطة اغراءه بالمال مثل من تقدموه ولكن بدون جدوى وتقدمت الجنود الرومانية بدون مقاومة فى الاراضى النوميدية الى ان استولوا على باجة • ثم دارت معركة طاحنة بينهم وبين جنود يوغرطة قرب وادى ميتول (Muthul) وهو وادى تاسة (١) انهزم فيها يوغرطة برجاله (اوت سنة ١٠٩) بعدما كبد اعداءه خسائر فادحة • ثم احتل ميتيلوس مدينة الكاف (Sicca) وحاول بعد ذلك القيام بحملة فجائية على مدينة جامة ولكنه فشل واضطر الى الرجوع على اعقابه (اكتوبر ١٠٩)

وبعد انتهاء سنته القنصلية (١٠٩) ، جدد له مجلس الشيوخ قيادة الجيش بنوميدية لمدة عام آخر (١٠٨) تحت لقب بروقنصل •

وفى شتاء سنة ١٠٨ اغتنم اهالى باجة فرصة الاحتفال بعيد الالاهة سيريس وهو عيد الزراعة،وفتكوا بجميع الرومانيين واهلكوهم عن آخرهم ، ولما بلغ ذلك ميتيلوس اسرع الى تلك المدينة وامر بنهبها • ثم توغل فى السباسب مقتفيا آثار يوغرطة الى ان ادركه فى(طالة)وهو مكان مجهول ، ربما كان قريبا من قفصة ، وهو على كل حال غير مدينة تالة التى نعرفها اليوم (٢) • وكان يوغرطة قد اعتصم بها وجعل فيها اولاده وذخائره وامواله • وبعد حصار دام اربعين يوما ، تمكن الرومانيون من الاستيلاء على تلك المدينة ، لكنهم لم يجدوا اثرا لا ليوغرطة ولا لاولاده ولا لامواله • اما حماة تلك المدينة فانهم اجتمعوا كلهم فى القصر الملكى ، وبعد اكل اللحوم

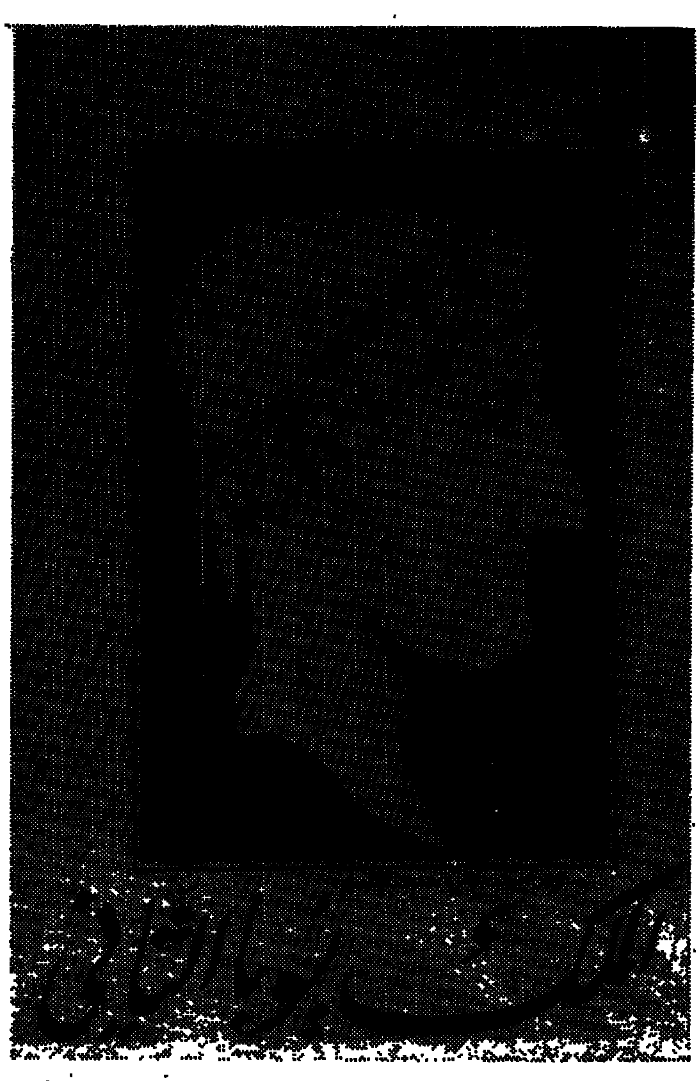
---

(١) وادى تاسة : من الرواغب (او السواعد) الموجودة على يمين مجردة السفلى ينبع بجهة السرس ، ويخترق سهل السرس والكريب

(٢) طالة : يقول سالسطيوس ان طالة (Thala) كانت مدينة عظيمة ،غنية آهلة بالسكان ، فوق ارض ليست بوعرة المنحدر ، لكن كانت تحميها اسوار منيعة وكان يوغرطة جعل فيها ابناءه الصغار وذخائره وامواله ، وحول هذه المدينة تمتد القفار واقرب نهر (لكن لم يذكر سالسطيوس اسمه) يبعد عن المدينة بخمسين ميلا (اى ٧٤ كيلو مترا) ـ وهذه الاوصاف لا تنطبق على تالة التى نعرفها اليوم •

لوحة ٦٨

انظر الصفحة رقم ٢٨٦ من هذا الكتاب



يوبا الثاني بن يوبا الاول : ولد سنة ٥٢ ق.م ومات سنة ١٨ بعد الميلاد.

لوحة ٦٩

انظر الصفحة رقم ٢٨٦ من هذا الكتاب



القيصر اغسطس : كان اول من سعى فى توطيد الاستعمار الرومانى. فهو قد اعتنى بالتعليم ، وبالطرقات ، وبناء المعالم الجميلة والهياكل الجليلة ، وبوسائل الزراعة والرى والمواصلات ... وهو ولى نعمة الملك يوبا الثانى

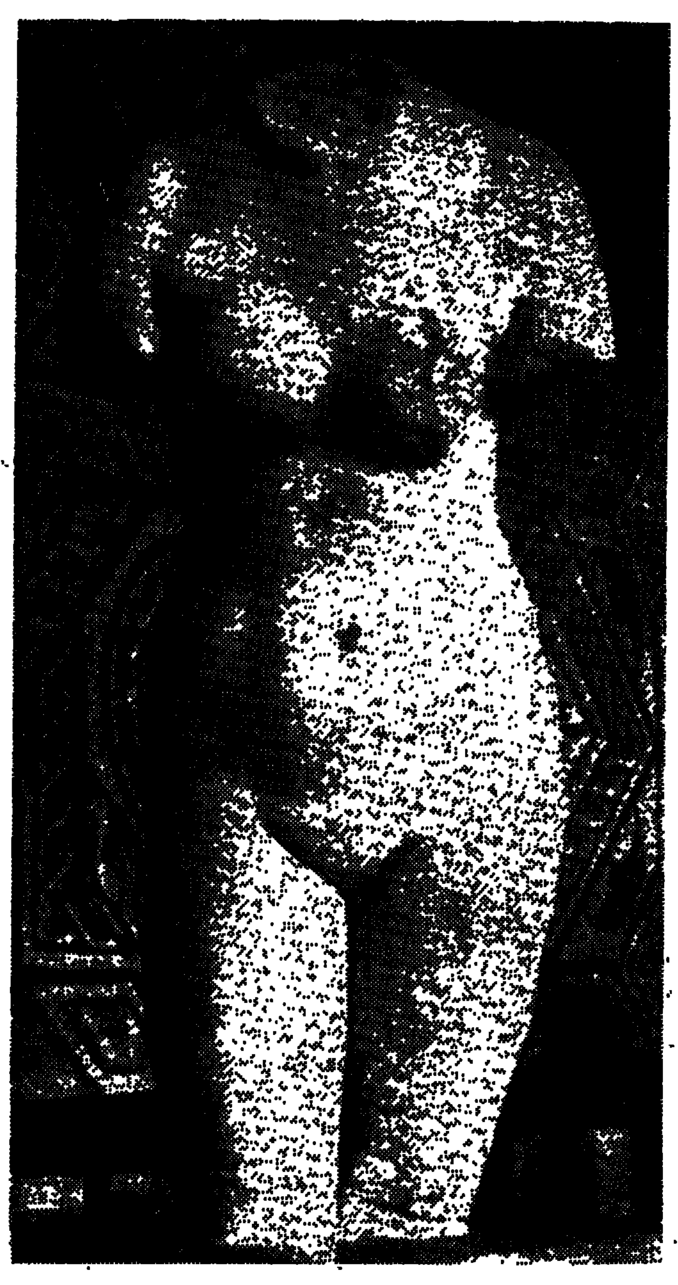
لوحة ٧٠

انظر الصفحة رقم ٢٨٨/٣٥٥ من هذا الكتاب

تمثال فائق الكبر من المرمر للقيصر اغسطس وهو متدرع
(متحف شرشال)

لوحة ٧١

انظر الصفحة رقم ٢٨٨/٣٥٥ من هذا الكتاب.



تمثال نصفي من المرمر لفينوس (Vénus) الرومانية ، او أفروديت (Aphrodite) الاغريقية الاهة الحب والجمال ، وجدت بمدينة شرشال ، مقر حكم الملك يوبا الثانى ، وهى الآن بمتحف ستيفان قسال بعاصمة الجـــزائـــر .

والشرب والقصف ، اضرموا الحريق فى ذلك المحل ، فالتهمتهم النيران واصبحوا رمادا • وهدم ميتيلوس تلك المدينة ولم يترك لها اثرا • ثم تمكن الرومانيون بعد ذلك من احتلال مدينة قرطة، واتخذوها مشتى (سنة ١٠٨) • وتم بذلك استيلاؤهم على الجهة الشرقية والجهة الوسطى من نوميدية •

اما يوغرطة فانه اخذ يسعى فى ايجاد اعداء آخرين لروما يستعين بهم على مقاومة الرومان ، فجمع الجنود من قبائل جدالة (les Gétules) بالجنوب ثم اخذ يحث حماه بوخوس ملك مريطانية ، ويحث افراد دائرته ومستشاريه على الدخول فى الحرب والمقاومة بجانبه ضد الرومانيين الذين اصبحوا خطرا لا عليه فحسب ، بل عليهم جميعا • ونجح بعض النجاح فى اقناعهم وفى تحريك شعورهم ••• وهكذا زحف النوميديون والمريطانيون صفا واحدا على قرطة •••

وفى تلك الاثناء ، بينما كان ميتيلوس يستعد للقاء هذا الجيش ، بلغه نبا تسمية ماريوس قنصلا ، وتكليفه بقيادة الجيش بنوميدية مكانه • فنزل هذا الخبر عليه نزول الصاعقة ، ورجع الى رومة ساخطا غاضبا (سنة ١٠٧)

ـ **يوغرطة وماريوس** (انظر اللوحة رقم ٦١)

كان ماريوس ينتمى الى اسرة بورجوازية من اصل حقير ، وكان جنديا فظا غليظا ، قليل الذكاء ، ولكنه كان مع ذلك شجاعا خبيرا بامور الحرب والقتال • وكان قد قام بحملة ضد طبقة الاشراف والنبلاء ، وايد حزب الشعب ، وكون اتباعا وانصارا فى طبقة التجار والعمال والرعاع، فتمكن بفضل مساعدتهم من الفوز فى الانتخابات• وكان يعطف كثيرا على (غودة) الذى سوف يصبح ملك نوميدية مكان اخيه يوغرطة ، بقدر ما كان ميتيلوس يهينه ويحتقره •

واصلح ماريوس نظام الجيش متمشيا به نحو الديمقراطية ، فادخل الفقراء فى الفرقة الرومانية ، واعد بذلك الطريق الى تلك الجيوش الجديدة التى تتالف من رجال يتخذون الجندية حرفة ، والتى لا تعبا بروما بل تربط مصيرها بمصير قائدها ، والتى ستصير فيما بعد هى التى تولى وتعزل الاباطرة (ابتداء من سنة ١٩٢ بعد الميلاد ، اى بعد وفاة كومودوس)

وجمع ماريوس بهذه الطريقة جموعا كثيرة ، شرع فى تدريبهـا تدريبـا عمليا على فنون الحرب وابوابه •

● سنة ١٠٧ : كارثة قفصة :

كان اهم عمل قام به ماريوس فى تلك السنة ،للتاثير على الافكار ، زيادة عن كثرة القتل والنهب والتخريب فى كل مكـان ، دخولـه مدينة قفصة بغتة ، والفتك بجميع سكانها ، وتهديمها ، واحراقها ، بدون ان يفقد رجلا واحدا من جنوده •

● سنة ١٠٦ : الاستيلاء على حصن تاووريت (على وادى الملوية)

وفى سنة ١٠٦ تمادى ماريوس فى سيره حتى بلغ وادى الملوية وهو الحد الفاصل بين نوميدية ومريطانية واستولى على حصن فوق تل منيع (تاووريت Taourirt,) كان اخفى فيه الملك يوغرطة ذخائره وامواله •

وفى ذلك التاريخ قدم اليه سيلا (Sylla) مبعوثا من رومة فكان له عضدا متينا ، لا بخبرته الحربية اذ كانت مفقودة فيـه ، ولكن بمقدرته الديبلوماسية •



سيلا ممتطيا جوادا ، بـوخوس

● سنة ١٠٥ : التغلب على يوغرطة (بفضل ديبلوماسية سيلا)

وقعت بعد ذلك مقابلات كثيرة بين سيلا والملك بوخوس ، بعضها بمحضر نائب عن يوغرطة يقع فيها التفاوض فى شان ايقاف القتال وابرام الصلح ، وبعضها سرية تقع ليلا بين الرجلين راسا لراس لتدبير المكيدة ليوغرطة • واخيرا وقع الاتفاق على استدعائه ليقع تقديمه الى سيلا تمهيدا للصلح • وكان الامر كذلك ، وقدم يوغرطة بدون سلاح ، وخف بوخوس وسيلا لملاقاته ، وكان بوخوس قد

جعل كمينا بالقرب من مكان المقابلة ، وهكذا تم القاء القبض على ذلك الزعيم الكبير بالغدر والخيانة (فى صيف سنة ١٠٥)

ويقول الاستاذ جوليان فى كتابه تاريخ افريقية الشمالية :

« ان ماريوس لم يغتفر لسيلا ذلك النجاح ، مثلما ان القائد بيجو لم يحتمل من لاموريسيار انتصاره على الامير عبد القادر • فان ماريوس ، مثل بيجو فيما بعد ، كان يشعر فى نفسه بانه فقد قسطا كبيرا من عظمته ومن قيمته امام الفكر العام ، وذلك لان الذى وضع حدا لحرب طويلة مشكوك فى نتيجتها دامت ثلاث سنوات ، لم يكن انتصار ماريوس فى حومة الميدان ، بل ديبلوماسية سيلا • »

او ليس من اعظم الفضائح المخجلة التى سجلها التاريخ استدعاء يوغرطة للتفاهم معه فى شروط الصلح ، ثم القاء القبض عليه بالحيلة والخديعة لما لبى النداء وقدم مسالما بدون جند ولا سلاح ؟

وان ذلك لم يمنع ماريوس من اقامة احتفال النصر يوم تسميته قنصلا من جديد فى اول جانفى ١٠٤ • وكان يوغرطة يسير امام عجلة المنتصر مرتديا القميص الارجوانى ، يوغرطة ذلك البطل الذى قاوم الجمهورية الرومانية مدة سبع سنوات ، والذى ارغم خيرة جنودها على الانحناء امامه والمرور من تحت النير مطاطىء الراس ، يوغرطة ذلك الزعيم النوميدى الذى اصبح اسمه ، من خلال القرون ، يوقظ فى نفوس الرومانيين الشعور بالخزى والعار والخوف والهلع •

وبعد الاحتفال بعيد النصر سيق يوغرطة الى سجن التوليانوم (Tullianum) تحت قصر الكابتول ، فمكث فيه ستة ايام لا يذوق طعاما ولا شرابا ، ولم يرحه من اهوال الجوع وآلامه الا حبل المخنقة •

مات يوغرطة فى اليوم السابع من شهر جانفى سنة ١٠٤ ، ولكن ذكر يوغرطة استمر خالدا فى نفوس الافريقيين ولم تمحه قط يد المنون ، وكذلك ايضا استمرت افريقية الشمالية موجودة ، فهى لم تضمحل ولن تضمحل •••

بعد يوغرطة : هيامبسال الثانى وماسنيسا الثانى

واحرز الخائن بوخوس جزءا من نوميدية الغربية اجرا على غدره وخيانته ، واما نوميدية الشرقية ، بدخول مدينة قرطة ، فقد كانت من نصيب الامير غودة (اخى يوغرطة) • وبعد موت غودة (سنة ٨٨ ق•م•) تولى الملك ابناه هيامبسال وماسنيسا ، اذ تمكن هذا

الاخير من استرجاع مملكة آبائه من الملك بوخوس الخائن • وفى سنة ٨١ ، تحت ظل الثورات والقلاقل بين حزب ماريوس وحزب سيلا ، تمكن احد الامراء النوميديين (حيرباص) من خلع الملكين هيامبسال وماسنيسا ، واستولى على كامل مملكة نوميديا وانتصب اقليدا ، واصبح يؤيد حزب ماريوس (les Marianistes) وكان حزبا منظما مقره بالوطن القبلي تحت قيادة الوالي الروماني (دوميسيوس نوباربوس) Domitius فتكلف بمبايوس من طرف الديكتاتور سيلا (خصم ماريوس) بالذهاب الى افريقية للتنكيل بهم جميعا فسافر الى افريقية سنة ٨٠ ، وفى مدة وجيزة انتصر على دوميسيوس وقتله ، وخلع (حيرباص) وارجع هيامبسال وماسنيسا الى عرشيهما

يوبا الاول

وبعد وفاة هيامبسال سنة ٦٧ انتقل الملك الى ابنه يوبا الاول فاخذ نوميديا الشرقية واستمر ماسنيسا بنوميدية الغربية • وفى مدتهما وقعت القلاقل الداخلية وانتشبت الحرب المدنيــة بيـن القيصرييـن (انصار قيصر) والبمبايوسييـن (انصار خصمـه بمبايوس) كما سنبينه فى مكانه • ولم تقف شمال افريقية موقف الحياد من تلك الخصومة التى لا ناقة لها فيها ولا جمل ، بل اختار يوبا الاول وماسنيسا الثانى حزب بمبايوس واصبحا من اكبر المؤيدين للبمبايوسيين ؛ اما بوخوس الاصغر وبوغود ملكا مريطانية فانهما لعبا ورقة قيصر وايداه تاييدا فعالا ، فحارب بوغود البمبايوسيين باسبانية ، وحاربهم بوخوس بافريقية لما قــدم قيصـر اليهـا للانتقام من اعدائه ، واوقع بهم فى معركة تابسوس (راس الديماس) سنة ٤٦ ق•م• والتجا يوبا الاول الى الانتحار •

ومن ذلك التاريخ اصبحت نوميدية الشرقية (مملكة يوبا الاول) ولاية رومانية ثانية صارت تعرف باسم (افريكا نوفا) اى ولاية افريقية الجديدة •

واما بوخوس فقد جازاه قيصر على الخلاصه ومساعدته اياه واعطاه جزءا كبيرا من نوميدية الغربية (مملكة ماسنيسا) اتسعت بها حدود مملكته شرقا الى قرب مدينة قرطة •

وكان من انصار قيصر ايضا المغامر الايطالى سيتيوس (Sittius)

فخصصه بمملكة جعلها سدا يفصل بين الولاية الرومانية الجديدة وبين مملكة بوخوس ٠

وبعد ما وقع اغتيال الديكتاتور قيصر (سنة ٤٤ ق ٠ م ٠) تمكن احد ابناء الملك ماسنيسا الثانى وهو الامير (ارابيون) من استرجاع مملكة آبائه التى استحوذ عليها سيتيوس من جهة وبوخوس من جهة اخرى ، ولكنه لم يلبث حتى قتله الوالى الرومانى سكسيوس (Sextius) ، ورجع بوخوس الى ممتلكاته ، بل زاد توسعا من الناحية الغربية ايضا ، لانه فى سنة ٣٨ استولى على مملكة بوغود ٠ ومن ذلك الحين اصبحت مريطانية تمتد من المحيط الاطلسى الى وادى المساقة (l'Ampsaga) او الوادى الكبير الذى يمر من مدينة قرطة ٠

ومات بوخوس ملك مريطانية سنة ٣٣ ق ٠ م ٠ ولم يترك وارثا ، فكلف (اوقطاف (Octave)) (١) بتلك المملكة واليين préfets، رومانيين بصفة موقتة ، قاما بمهمتهما من سنة ٣٣ الى سنة ٢٥ ق٠م

وانتهز (اوقطاف) تلك الفرصة لانشاء ست مستعمرات بمريطانية الشرقية قرب موان قديمة :

١ ـ جيجل — Igilgili (Djildjelli)
٢ ـ بجاية — Saldæ (Bougie)
٣ ـ ازفون — Rusazus-Azeffoun (Port Gueydon)
٤ ـ راس ماتيفو — Rusguniæ (ou Cap Matifou)
٥ ـ قبة سيدى ابراهيم - Gunugu (Koubba de Sidi Brahim)
٦ ـ تنس — Cartennas (Ténès)

وثلاث مستعمرات داخل تراب المملكة :

تيكلات — Tubusctu (Tiklat)
حمام ريغة — Aquæ Calidaæ (Hammam Rirha)
مليانة — Zucchabar (Miliana)

ومستعمرتين بمريطانية الغربية

ارزيلة (بين طنجة والعرائش) — Zilis (Arzila)
سيدى على بوجنون — Valentia Banasa

(على وادى سبو ، بين القنيطرة والقصر الكبير)

(١) اوقطاف : اوقطافيانوس (Octavianus) اول امبراطور بروما بعد انتهاء العهد الجمهورى ، تسلم النفوذ بعد يوليوس قيصر والثالوثية الثانية ، وهو الذى سيعرف فيما بعد باسم القيصر اغسطس

وفى سنة ٢٥ ق ٠ م ٠ انهى القيصر اغسطس (اوقطاف) مامورية الواليين ، وارجع تلك المملكة الى ما كانت عليه اى مملكة مريطانية الافريقية ، ونصب بها الملك يوبا الثانى ٠

يوبا الثانى وكليوباترة :

يوبا الثانى هو ابن الملك يوبا الاول ، ولد سنة ٥٠ ق٠م٠ ولما انتحر ابوه سنة ٤٦ كان عمره اذ ذاك اربع سنوات ٠ فاخذه يوليوس قيصر معه الى رومة ، وظهر فى موكب النصر ، واستمر برومة واعطوه اسم قايوس يوليوس (Caius Julius) ولو انه ترك ذلك الاسم لما صار ملكا واصبح لا يعرف الا باسم الملك يوبا (Rex Iuba) وقد اعتنت بتربيته وتهذيبه الاميرة اوقطافيا (اخت القيصر اغسطس) ٠ ولما كبر منحوه الحقوق المدنية الرومانية فاصبح مواطنا رومانيا ، وزوجوه بكليوباترة سيلينه (اى القمر) Cléopâtre Séléné ٠ وكليوباترة هذه هى ابنة كليوباترة المشهورة ملكة مصر وانطونيو احد افراد الثالوثية الثانية وخصم (اوقطاف) ولدت سنة ٤٠ ق٠م٠ مع اخيها التوام الاسكندر ، فسموها قمرا (سيلينه) ، وسموه شمسا (هيليوس) ، واقر ابوها انطونيو بانها ابنته واعترف بها لما تزوج بالملكة سنة ٣٦ ق٠م٠ وبعد موت ابويها ظهرت فى موكب النصر الذى اقامه (اوقطاف) فى ١٥ اوت سنة ٢٩ احتفالا بانتصاره على مصر وعلى ملكتها كليوباترة ، وقد آوتها وربتها (اوقطافيا) اخت القيصر اغسطس وزوج انطونيو الاولى التى انعزل عنها بعلها وهجرها ثم طلقها ٠ وهى التى طلبت من اخيها ان يزوج ابنة كليوباترة المصرية بابن يوبا النوميدى ، فان هذا الامير وهذه الاميرة اللذين اخذا ، يوم موكب النصر ، مكان اب وام ماتا موتة مفجعة بعد الانكسار والقهر ، سيكونان معا بدون شك من اخلص واصدق اعوان العظمة الرومانية ٠ وكان بناؤه بها سنة ٢٠ ق٠م٠ وكانت ملكة باتم معنى الكلمة ، اذ وقع تقليدها السلطة الملكية ، فكانت تلبس التاج شعار الملك ، وتحمل لقب الملكة فوق النقود حيث يظهر اسمها فى الغالب منقوشا مع صورتها ، فهى كانت تعتبر حينئذ شريكة زوجها فى الملك ٠ وقد ولد له منها ولد سنة ٥ ق٠م٠ سموه بطليموس Ptolemaeus ou Ptolémée وماتت كليوباترة فى ٢٢ مارس سنة ٥ بعد الميلاد ٠

وكان يوبا الثانى ملكا جليل القدر ، عظيم الشان ، يميل الى مظاهر العز والابهة ، كيف لا وهو ذو نسب كريم من سلالة الملك ماسنيسا الشهير (١) ، وبعل ملكة من اسرة البطالمة وعاهل المريطانيين جميعا مع طائفة كبيرة من قبائل جدالة • (اللوحة رقم ٦٨)

وكان مغرما بالتمثيل ، فكان فى بلاطه عدد من الممثلين والممثلات مع القائمات بالتجميل والاكسية والازياء • وكانت حاشية الملك جامعة لكل طوائف البشر ، اذ هو بنفسه قد ورث عن مدنيات مختلفة : فهو **نوميدى** باصله ومنبته ، وهو **بونيقى** بما كان لقرطاج من الجاذبية على ابناء جنسه منذ قرون طويلة ، **رومانى** بسنوات طفولته وشبابه التى قضاها بعاصمة الدنيا ، وبالروابط المتينة التى تربطه بالقيصر اغسطس ، **اغريقى** بتربيته وحسن ذوقه ، وبميوله الفنية والادبية ، **مصرى** بزواجه •

ولم ينكر الملك يوبا اهله ولا وطنه ، بل كان محبا لبلاده ، فخورا باجداده ، يصرح رسميا ويكرر بانه ابن يوبا الذى كان من اكبر واشد اعداء يوليوس قيصر والد الامبراطور اغسطس •

وكان قدماء المؤرخين يقولون بان يوبا الثانى كان مشهورا بتاليفه وتصانيفه وعماله الفكرية المفيدة اكثر من اشتهاره بالملك • وهو كان حقيقة اديبا عالما جديرا بثناء واعجاب معاصريه والاجيال التى اتت بعده ،فهو يعتبر من اكبر المؤرخين ، وكان ايضا عالما بالجغرافيا والطبيعيات والشعر والفنون المختلفة •

وكان له شغف كبير بعلم اللغات ، وكان يعتقد ان اللغة اللاطينية كانت اغريقية الاصل ثم وقع تحريفها ، فكان يبذل كل ما فى وسعه لاكتشاف اشتقاقات يونانية لكثير من المفردات اللاطينية • وكان يميل الى جمع الكلمات الغريبة الموجودة فى مختلف اللغات واللهجات من هندية وعربية وحبشية وافريقية ••• وكانت له مكتبة ضخمة وجماعة كبيرة من الناسخين والمدونين والملخصين والمنتخبين •••

ولم يقتصر يوبا على الكتب ، بل نظم بعثات علمية وكلفها بالبحث عن اصل منبع نهر النيل ، وعن اصل الجزائر الخالدات او جزر الكانارى •

---

(١) هو يوبا الثانى بن يوبا الاول بن هيا مبسال بن غودة بن مستعنبعل بن ماسنيسا بن غايا ••• ويتصل نسبه بالبطل هيراقليس •

والف هذا الملك كتبا كثيرة فى فنون وعلوم شتى ، نذكر منها (كتاب الليبقيات (Les Libyca)) فى ثلاثة اجزاء يشتمل على مواد مختلفة تتعلق بافريقية من جغرافيا وتاريخ واساطير ميتولوجية وطبيعيات وغير ذلك ... وكتاب حول جزيرة العرب Les Arabica وتاريخ الرومان ، وكتب كثيرة فى فنون الرسم والتشخيص والموسيقى ، وكتب فى اللغة ... وهى مصنفات كثيرة لكن لم يصلنا منها شيء .

قد اختار يوبا الثانى مدينة يول (Iol) وهى شرشال الآن ، وجعلها عاصمة مملكته وسماها قيصارية (Caesarea) على شرف القيصر اغسطس واعترافا له بالجميل لانه ولى نعمته ، واقام فى تلك العاصمة معبدا لتقديس الامبراطور اغسطس الى ان مات هذا الاخير سنة ١٤ بعد الميلاد ، ثم انتقل ذلك التقديس لابنه وخلفة تيباريوس بصرف النظر عن استمرار تكريم القيصر الهالك

* * *

وقد وجد ايضا بشرشال تمثال كبير من المرمر يمثل القيصر اغسطس وهو لابس درعه ويده اليمنى ممدودة فى هيئة الخطيب الذى يومئ ويشير الى جنوده ليحمسهم بينما كانت يده اليسرى تمسك رمحا . اما الراس ، التى كانت عملية نحته ونقشه على حدة ، فانه لم يقع العثور عليه . وان هذا التمثال الجميل ، بطرازه واسلوبه وهيئته العامة ونقوش درعه ، لجدير فى آن واحد بالقصير اغسطس وبالملك يوبا . (انظروا اللوحة رقم ٧٠)

وعثروا ايضا ، اثناء نبش شرشال على صورة بديعة تمثل ليفى (Livie) زوجة اغسطس ووالدة تيباروس ، وتماثيل اخرى كثيرة منها تمثال فينوس الاهة الحب والجمال . (انظروا اللوحة رقم ٧١)

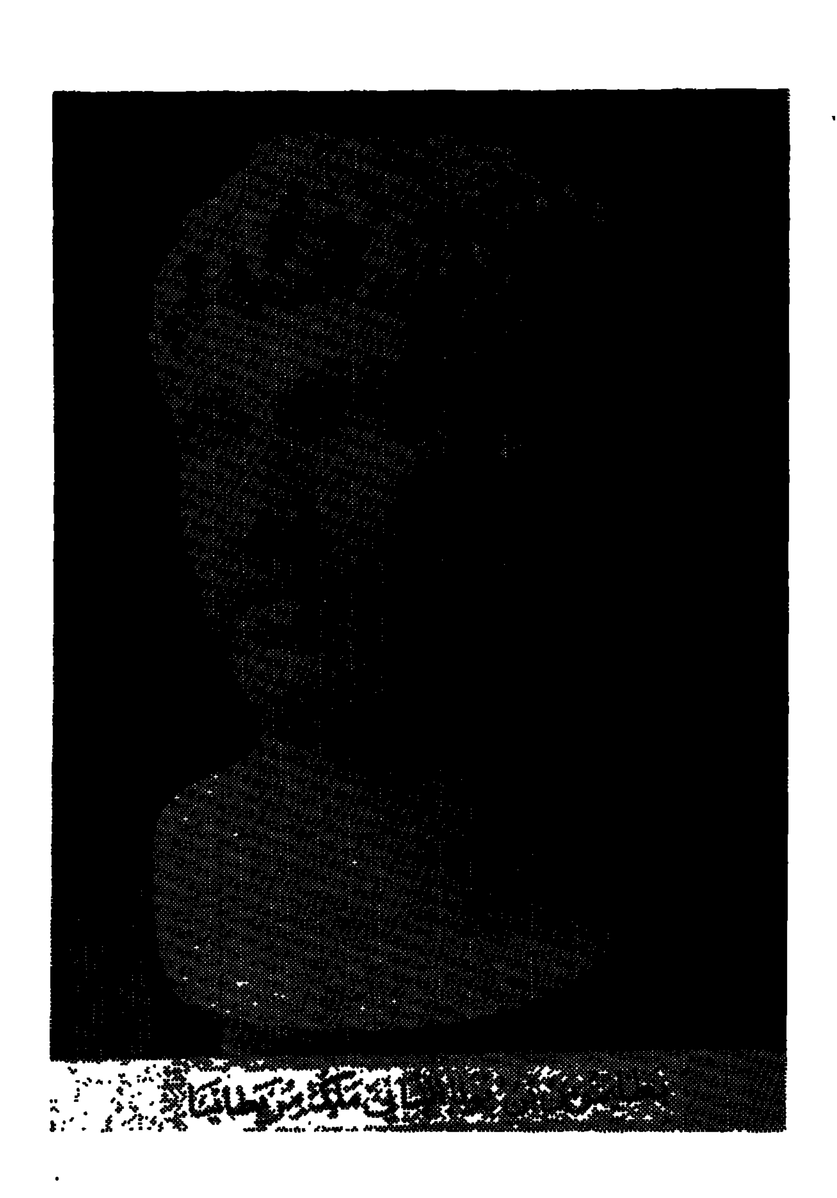
* * *

ولم يكتف يوبا بتمجيد القيصر اغسطس والتقرب اليه ، بل قام باعمال جليلة لفائدته ، واعانه بكل مجهوداته على قمع الثورات ، واخماد القلاقل والفتن ، وردع كل تمرد وعصيان .

ففى سنة ٦ بعد الميلاد ثارت قبائل جدالة وشق المتمردون عصا الطاعة فى وجه الرومان ، وقاموا حتى على الملك نفسه ، فخربوا الديار وفتكوا بعدد كبير من الرومانيين ، فكان الملك يوبا مضطرا الى مقاومتهم ، والى الاستنجاد بالقوات الرومانية .

لوحة ٧٢

انظر الصفحة ٢٨٩ من هذا الكتاب



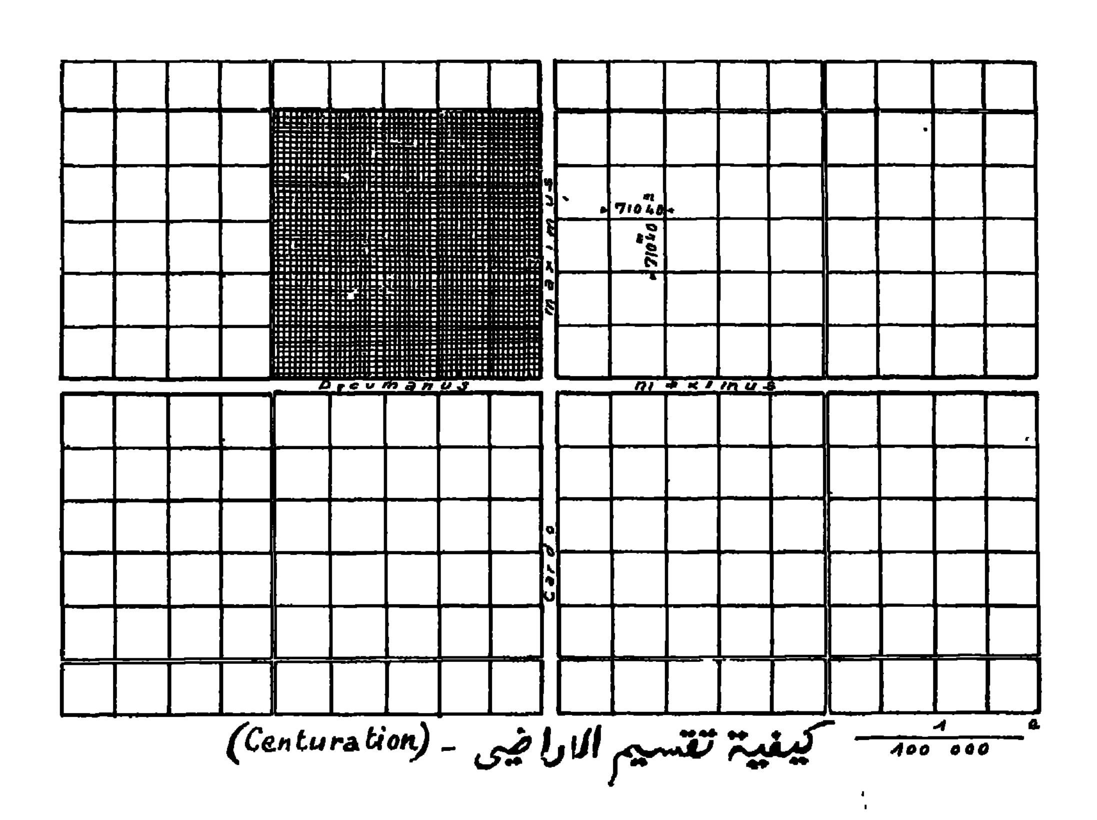
لوحة ٧٣

الملـــوك البـــربيقيـــون

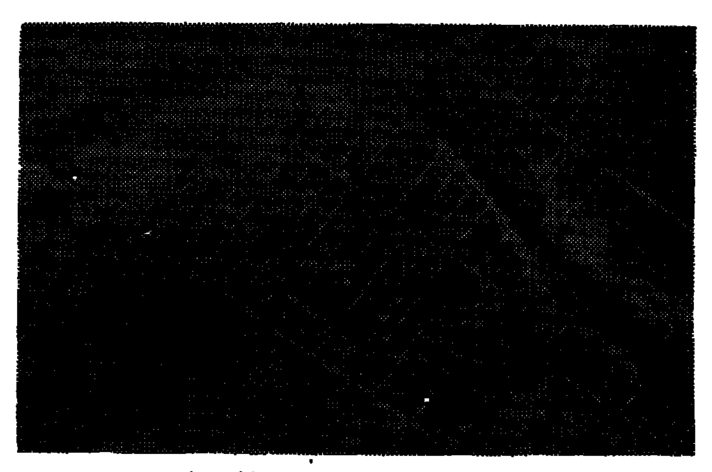
انظر الصفحات ٢٧٤ الى ٢٩١

موريطانيـة الغربيـة من وادي ملويـة الى المحيط الاطلسي	نوميديـة الغربيـة أو موريطانيـة الشرقيـة من وادي الساحل أو الوادي الكبير الى وادي ملويـة	نوميديـا الشرقيـة من نوميديا الى وادي الساحل	افريقيـة من البحر المتوسط الى نوميديا
بـوكـار (مات سنة 486 ق.م)	سيفاكس (مات سنة 203 ق.م)	غايـا (مات سنة 207 ق.م)	الجمهورية القرطاجية (من 814 الى 146 ق.م)
?	ماسينيسا (مات سنة 148 ق.م) (الى خيانا)		
?	ابناء ماسينيسا الثلاثة (غلوسا وميسيبسا ومستنبعل) ثم ميسيبسا وحده (مات سنة 118 ق.م)		ولايـة افريقيا الرومانيـة (AFRICA) ابتداء من 146 ق.م
بوخوس الأكبر (ملك سنة 118 ق.م) (سلم يوغرطة للرومان سنة 105 ق.م)	يوغرطة بن مستنبعل (قتل أذربعل سنة 112) (مات سنة 104 ق.م)	هيمبصال الثاني (مات سنة 112)	
بوخوس الأكبر (مات سنة 80 ق.م)		غودة بن مستنبعل (مات سنة 88 ق.م)	
بوغود الأكبر (مات سنة 49 ق.م)	ماسينيسا بن غودة استرجع مملكة اجداده (مات سنة 46 ق.م)	هيمبصال بن غودة (مات سنة 67 ق.م)	
بوغود الأصغر (مات سنة 38 ق.م) / بوخوس الأصغر		يوبا الاول بن هيمبصال (مات سنة 46 ق.م)	
بوخوس الأصغر (مات سنة 33 ق.م)		ولايـة افريكا الجديدة الرومانيـة (Africa Nova)	ولايـة افريكا القديمـة الرومانيـة (Africa Vetus)
والي روماني (Préfet) من سنة 33 الى سنة 25	والي روماني (Préfet) من سنة 33 الى سنة 25 ق.م	اندماج الولايتين الرومانيتين ابتداء من سنة 27 ق.م	
يوبا الثاني بن يوبا الاول (من سنة 25 ق.م الى سنة 23 بعد المسيح)			
بطليموس بن يوبا الثاني (مات سنة 40 بعد المسيح)			
ولاية موريطانية الطنجية الوالي: وكيل بروكيراطور	ولاية موريطانية القيصرية الوالي: وكيل بروكيراطور	ولاية نوميديا الوالي: آغا: ليغاتوس	بروقنصلية افريكا الوالي: بروقنصل

لوحة ٧٤
انظر الصفحة ٢٩٦/٢٩٧ من هذا الكتاب



كيفية تقسيم الاراضي - (Centuration)



آثار المسح والتقسيم قرب مدينة الجم (انظر صفحة ٢٩٧)

وفى سنة ١٧ ، اى فى عهد تيباريوس نشبت ثورة كبيرة فى تلك الناحية كان يقودها الزعيم النوميدى البطل تاكفاريناس ، ودامت تلك الثورة ثمانى سنوات من سنة ١٧ الى سنة ٢٤

فكانت القوات الرومانية تقاوم الثائرين ، وكانت جنود الملك يوبا تحارب فى صفوف الرومانيين.

ولكن الملك يوبا الثانى مات فى آخر سنة ٢٣ بعد الميلاد بدون ان ينتصر لا هو ولا رومة على ذلك الزعيم المكافح فى سبيل تحرير بلاده من الاستعمار الاجنبى .

وخلفه بعد موته ابنه الوحيد بطليموس .

الملك بطليموس :

كان بطليموس يشارك اباه فى شؤون المملكة ، وكان يحمل لقب الملك فى حياة ابيه ابتداء من سنة ٢٠ وعمره اذ ذاك ٢٥ سنة ولما مات والده كان لا يتجاوز الثامنة والعشرين من عمره .

فورث منه الملك ولكنه لم يرث عنه خصاله وميوله ، بل كان متهاونا ، مهملا ، كسولا ، اقتصر طيلة مدته التى دامت ١٧ سنة على التنعم بحياة البذخ والرفاهية ، تاركا شؤون الدولة وكامل السلطة بيد اتباعه . (**انظر اللوحة رقم ٧٢**)

الزعيم المقاوم تاكفاريناس

فى نهاية مدة يوبا الثانى ثار البطل تاكفاريناس على الرومان كما قدمنا وذلك سنة ١٧ . وكان هذا الزعيم المجاهد فى اول الامر جنديا فى جيوش الرومان ، فانتهز تلك الفرصة ليتفرس ويتمرس ولكنه فى ذلك الوقت نفسه كان يقوى ويذكى ما كان يشعر به فى نفسه من بغض وحقد نحو الاعداء المكتسحين ولما صار ماهرا فى ابواب الحرب واسرار القتال هرب من الجندية ، ونظم بنفسه جيشا وطنيا من ابناء البلاد التونسية جعله تحت قيادته ، وحارب القوات الاستعمارية مدة ثمانى سنوات مثلما كان فعل الامير يوغرطة من قبله

وقد اشعل تاكفاريناس بدهائه نار الفتنة والثورة ضد الرومان فى كامل تراب شمال افريقية من مريطانية (المغرب الاقصى) الى برقة (طرابلس الغرب) حتى جعل الاستعمار الرومانى على قاب قوسين او ادنى من الانهيار .

وفى نهاية الامر ، بينما كان تاكفاريناس ياخذ نصيبا من الراحة فى قصر قديم خرب وسط غابة كثيفة فى جهة سور الغزلان (Aumale) وكان يعتقد فى نفسه انه فى مامن من الاعداء ، اذ داهمه فجاة البروقنصل الرومانى (بوبليوس دولا بالة) بخيله ورجله فدافع تاكفاريناس عن نفسه دفاع الابطال ، وهجم على الاعداء كالاسد الكاسر ، حتى سقط فى ميدان الشرف ، بعدما كبدهم خسائر فادحة ، واحدث فيهم مجزرة كبيرة (سنة ٢٤م) وبموته خمدت الثورة ، ولكن لمدة قصيرة فقط لتعود من جديد ، طبق العادة المالوفة عند الافريقيين ، اى فترة سكون وركون تعقبها فترة كفاح ومقاومة ، فاذا احسوا بالضعف وبتغلب العدو عليهم ، خمدت نارهم حتى تخالها صارت رمادا ، لكن بمجرد ماتهب عليها ريح مؤاتية ، تعود من جديد اشد لهيبا واقوى شواظا ، وهكذا دواليك حتى النصر النهائى .

فبعد يوغرطة تاكفارنياس (سنة ١٧) ، وبعد تاكفاريناس ايدامون (سنة ٤٠) ، وبعد ايدامون قبائل الفارامانت (سنة ٧٨) ، وبعد الفارامانت قبائل الناسامون (سنة ٨١) ، ثم ثورة المريطانيين (سنة ١١٨) تم خمود تلك النورة ، ىم نشوبها من جديد (سنة ١٣٨) ثم (سنة ١٤٤) ،تم ثورة اوراس (سنة ١٥٠) ، وهكذا الى ما لا نهاية له ... ما دام الاجنبى موجودا على ارض الوطن !

٢٦ قتل بطليموس ونهاية المملكة المريطانية (سنة ٤٠ م.)

وكان بطليموس فى صف الرومانيين يقاوم الزعيم الثائر تاكفاريناس بكل همة وعزيمة ، ويعين البروقنصل بوبليوس دولابالة (Publius Dolabella) اعانة فعالة حتى مكنه من الانتصار على عدوه (سنة ٢٤) . فارسلت له حكومة رومة زخارف النصر نذكر منها كرسى العاج،والصولجان ، واكليل الذهب ، والحلةالمطرزة

ثم ان القيصر غايوس (Gaïus César) الملقب بقاليقولا (Caligula) تقلد الامبراطورية برومة سنة ٣٧ م وهو من ذرية انطونيو احد افراد الثالوثية الثانية ، مثلما كان بطليموس ايضا من ذريته عن طريق امه كليوباترة ، فكان قاليقولا ابن خال بطليموس ، وكان بطليموس ابن خالة قاليقولا . وكان هذا الامبراطور معتوها واحمق فذات يوم من الايام بينما كان هذا القيصر يقيم حفلة برومة .

اذ دخل الملك النوميدى وهو يرتدى حلة الارجوان التى كانت لباس الابهة الخاص بالاباطرة٠فاستلفت بطليموس انظار جميع الحاضرين٠ وامتلا قاليقولا غيرة وحقدا واعترته نوبته الجنونية ، فامر فى الحين بالقاء القبض عليه واعدامه (سنة٤٠ م٠) وبموت بطليموس فقدت المملكة المريطانية استقلالها الموهوم والخيالى ، ووقع تحويلها الى ولايتين رومانيتين جديدتين ، وهما : ولاية مريطانية القيصرية (مملكة بوخوس سابقا) ، وولاية مريطانية الطنجية (مملكة يوغود سابقا) ٠

ونشا عن هذا الاغتيال وهذا الالحاق حركة تمرد امتدت الى الاطلس وكان يقودها ايدامون عتيق بطليموس ، واستمرت تلك الحركة التمردية ما يزيد على العامين حتى قضى عليها القائد الرومانى بولينوس (Suetonius Paullinius)

وبذلك اصبحت افريقية الشمالية باسرها تحت نفوذ رومة ، ودام الامر كذلك مدة اربعة قرون تقريبا ، من سنة ٤٢ الى سنة ٤٣٠ ، اى الى زحف الوندال ٠ (انظر الخريطة باللوحة رقم ٧٦)

والآن نريد ان نعرف مراحل هذا الاحتلال،وان نفهم كيف اتسعت شيئا فشيئا حدود الولايات الرومانية ٠



العربة الرومانية

حدود الولايات الرومانية بافريقية الشمالية

نريد الان ان نبين حدود افريقية الرومانية فى الزمان وفى المكان وان نذكر تاريخ كل مرحلة من مراحل الاستعمار والاستيلاء ، او التخلى والانجلاء ·

فمما لاشك فيه ان الجمهورية الرومانية لم تكن تملك شيئا بافريقية قبل منتصف القرن الثانى ، اى قبل سنة ١٤٦ ق·م· وان مخالطتها لافريقية لم تكن الا مخالطة حرب وقتال ضد قرطاج · ولما حملت الظروف والاحداث الحربية الرومانيين على انزال قواتهم بالتراب الافريقى للغزو كما وقع ذلك فى الحرب البونيقية الاولى مع روغلوس ، وفى الحرب الثانية مع شبيون الافريقى ، فقد تم ذلك بدون نية الاحتلال والاستقرار ، بل كان الرومانيون باجمعهم وعن آخرهم يرتحلون بمجرد انتهاء العمليات الحربية ·

اما بعد الحرب البونيقية الثالثة (سنة ١٤٦) فلم يكن الامر كذلك لان فى هذه المرة ، بعد ما هدم الرومانيون قرطاج لاعتقادهم بان تهديمها اصبح الوسيلة الوحيدة للتخلص من مزاحمة بان خطرها ، وبعد ما قضوا نهائيا على البونيقيين ، احسوا بضرورة بقائهم بافريقية حتى لا تعود تلك المزاحمة من جديد فى شكل آخر ، وتحت اسم آخر ومع رجال آخرين ·

فضمت روما اليها ارضا تقابل تقريبا ثلث البلاد التونسية من الجهة الشمالية الشرقية ، وجعلت منها ولاية (افريكا (Africa او افريقية باتم معنى الكلمة

واصبحت افريقية الشمالية تشتمل على الاقطار التالية :

١ ـ **افريقية** (القطر التونسى) وسكانها الافريقيون

٢ ـ **نوميدية** (الجزائر الشرقية) وسكانها النوميديون

٣ ـ **مريطانية** وتنقسم بدورها الى :

١ ـ **مريطانية القيصرية** (الجزائر الغربية) وعاصمتها شرشال

ب ـ **مريطانية الطنجية** (بلاد المغرب) وعاصمتها طنجة

ويقول بعض المؤرخين بان رومة لم يكن فى نيتها فى ذلك الوقت الاستيلاء على تلك القطعة الصغيـرة والمحـدودة كتوطئـة وتمهيـد لامبراطورية اعظم شانا واكبر اتساعا ، او بعبارة اخرى لم تكن لها نية التوسع الاستعمارى تدريجيا ، بـل ان احتـلال تلك الارض الافريقية البونيقية كان يعتبر ضروريا بالنسبة اليها وكافيا لوقاية ايطالية وصيانتها ٠

ولم يكن الرومانيون الذين اقاموا بافريقية البونيقية يفكرون اذ ذاك فى الهجرة نهائيا الى تلك الديار واستوطانها جيلا بعد جيل ، بل كانوا يريدون ان يحتلوا بانفسهم ذلك المركز الجغرافى المتاز ، حتى لا تستقر فيه دولة اخرى ، فكان عملهم يرمى الى غاية وقائية واحتياطية لا الى غاية استعمارية واستيلائية ، وكان الغرض من هذا الاحتلال لا الاحتلال نفسه ، بل منع احتلال آخر ٠ ٠ ٠ ويقول هؤلاء المؤرخون بان مجلس الشيوخ بقى محافظا على هذه السياسة طيلة القرن الاخير للجمهورية ، ولم تفكر رومة بناتا فى مسالة الاستيلاء ، بل كانت عدوة للتوسع والحاق الاراضى وضمها الى ترابها ، وحتى اذا اضطرت الى اشهار حرب على افريقية ، فان ذلك كان منها كرها لمقامة هجوم او تعد ٠ ٠ ٠ ويقارنون بين موقف مجلس الشيوخ هذا ، وبين موقف فرنسا بعد سنة ١٩٣٠ ، اذ انها كانت اقتنعت واكتفت بايقاف تيار القرصنة وسلب المراكب ، ولم تفكر لحظة واحدة فى استعمار الجزائر ! فكانهم يقولون بان رومة ، وكذلك فرنسا فيما بعد ، جلستا حول المائدة بدون شاهية للاكل ، وبدون اية فكرة فى تناول الطعام ، ثم تحركت فيهما تلك الشاهية ، وطفت عليهما ، لما شاهدتا الالوان اللذيذة ، فسال لعابهما ، وتحركت اشداقهما ، وشرعتا فى الازدراد والالتقام !

على ان هذه النظرية ربما كانت قابلة للمباحثة والمحاجة بالنسبة الى رومة بعد سنة ١٤٦ ، وكذلك بالنسبة الى فرنسا بعد سنة ١٨٣٠ اذ ان النزعة الاستعمارية وفكرة التوسع والاستيلاء كانت موجودة ومتغلغلة فيهما فى ذلك الوقت ٠

ـ فاما فرنسا فقد كانت سنة ١٨٣٠ فى مزاحمـة ومسابقـة استعمارية واسعة النطاق مع انكلترا والروسيا ٠

واذا كانت الروسيا قد اختارت بلاد القوقاز ، وانكلترا اختارت بلاد الهند ميدانا لتوسعهما الاستعمارى ، فلماذا لا تختار فرنسا هى ايضا افريقية الشمالية ، ولماذا لا تستولى على الجزائر ؟

واما رومة فهي قد استولت على ما خلفته لها جمهورية قرطاج ، واكتفت بذلك موقتا ، ولم تتجاسر على مد يدها الى ما هو اكبر ، لان (غولوسة) ملك نوميدية كان يحارب في صفها والى جانبها في الحرب البونيقيـة التالتة ، مثلما كان حارب ابوه ماسنيسا من قبل ، في الحرب البونيقية الثانية ، في صف شبيون الافريقي والى جانبه . فلولا ماسنيسا لما انتصر شبيون الاكبر في معركة جامة ، ولولا غولوسة لما انصر شبيون الاصغر على القرطاجيين ذلـك الانتصار النهائي . . . . فكيف يجوز لرومة ان تمد يدها الى مملكة حليفها بالامس الذي كان سببا في فوزها ونجاحها ؟ وما فائدتها من هذا الاحتلال ما دام الملك مخلصا اليها كل الاخلاص وما دامت مملكته معتبرة شبه حماية رومانية تستغلها رومة بدون مصاريف ولا نفقات ؟

على ان رومة كثيرا ما كانت تخلف العهد ، وتنكث الميثاق ، ولا تقيم للحلف وزنا ، فنراها مثلا تتحالف مع مصر والاغريق للايقاع بمقدونية ، وبعد ما تنتصر على الملك فيليب المقدوني (حليف حنبعل) وبعدما تدخل مقدونية تحت سلطتها (سنة ١٩٧) نراها تنقلب ضد الاغريق ، وتفتك بهم فتكا ذريعا ، وتقتل منهم ما يزيد على مائـة وخمسين الفا ، وتهدم مدينة كورنتس (Corinthe) في نفس السنة التي هدمت فيها قرطاج اى سنة ١٤٦ ، وتدخل بلاد الاغريق تحت نفوذها وهيمنتها . . .

ويمكن لنا ان نقول بان سقوط قرطاج مكن الرومانيين من كامل شمال افريقية ، ولم تبق مسالة الحوز والتملك سوى مسالة وقـت فقط ، وهو وقت لم يطل كثيرا ، لان رومة لم تترقب فرص الاستيلاء على القبائل النوميدية ، بل هجمت على ليبيا (طرابلس) واستولت على قريني (Cyrène) سنة ٧٤ ، وبعد ذلك باربع واربعين سنة (اى سنة ٣٠ ق٠م٠) تطاولت على مصر مملكة البطالمة وضمتها الى ولاياتها الرومانية .

ولكن ما لنا ونية الرومانيين او الفرنسيين هل كان فيها قصـد التمادي في الاستيلاء ام لم يكن فيها ذلك القصد ؟ فالذي يهمنا هو الواقع التاريخي ، وهذا الواقع يثبت بان فرنسا استولت على الجزائر اولا ، ثم توسعت فضمت اليها تونس ، ثم زادت توسعت فضمت اليها المغرب ، وهكذا استولت على كامل شمال افريقية .

وكذلك الواقع التاريخي يثبت ايضا بان رومة استولت في البداية

على ما خلفته جمهورية قرطاج بعد زوالها ، ثم توسعت ، ثم زادت توسعت ... الى ان استولت على كامل شمال افريقية .

ونريد الآن ان نعرف مراحل ومدى هذا التوسع التدريجي وكيف وقع مد السلطة الرومانية على كامل تراب شمال افريقية :

اولا : فيعهد الجمهورية (من سنة ١٤٦ الى سنة ٢٩ ق.م.)

أ ـ سنة ١٤٦ : بعد تهديم قرطاج

افريكا (Africa)

ان ولاية افريكا التى نشات سنة ١٤٦ بعد تهديم قرطاج كانت صغيرة جدا . ونحن نعلم كيف كان ماسنيسا يفتك الاراضى البونيقية ولم يترك للقرطاجيين الا ارضا ضيقة الحدود ، وهى التى ضمتها رومة بعد الحرب البونيقية الثالثة وسمتها افريقية الرومانية (Africa romana) وقد بينا كيف تبدا تلك الحدود من مصب الوادى الكبير (Tusca) قرب طبرقة ، وتنتهى جنوب طينة على السرت الصغير اى خليج قابس ، وقلنا ان هذه الحدود كانت معينة ومعلمة بخندق كبير كان امر بحفره شبيون الايميلي على طول حدود المملكة اللنوميدية ، وهو المعروف باسم (الخندق الملكى) (Fossa regia) ويمكن تقدير المساحة التى كانت تحتوى عليها تلك الحدود بخمسة وعشرين الف متر مربع تقريبا ، اى الثلث الشمالي الشرقى من القطر التونسى .

وبمجرد ضم تلك الولاية الافريقية وقع الشروع في مسحها اى فى قيسها وتقسيمها وتسجيلها حسب وحدات مائوية او سنتورية (Centuries)

وكل وحدة مائوية تكون مساحتها ١٠٠ فدان (١) اى ٥٠ هكتارا او ٥٠٠٠٠٠ متر مربع .

وتقسم الوحدة المائوية الى ١٠٠ قطعة عائلية او ضيعة ، وتسلم

(١) نصف الفدان : (jugerum) : كان عبارة عن قطعة مستطيلة طولها ٢٤٠ قدما ، وعرضها ١٢٠ قدما ، فتكون مساحتها ٢٨،٨٠٠ قدم مربع ، او ما يزيد بقليل على ٢،٥٠٠ متر مربع .

وان الكلمة اللاطينية (jugerum) اى نصف فدان مشتقة من الفعل (jungere) الذى يدل على عملية القرن بين الثورين للحرث ، وهو نفس المعنى الموجود ايضا فى كلمة (الفدان) التى تدل فى آن واحد على الثورين يقرن بينهما للحرث ، وعلى مساحة قدرها مائتا قصبة مربعة .

وبما ان القصبة هى عشرة اذرع او خمسة امتار ، فان القصبة المربعة تكون ٢٥ مترا مربعا ومائتا قصبة مربعة تساوى ٥٠٠٠ متر مربع

ونصف الفدان (un jugerum) يكون عبارة عن ٢٥٠٠ متر مربع

كل ضيعة الى عائلة فيتوارثها افرادها خلفا عن سلف ، ولذلك اطلقوا عليها اسم (ملك الارث) (heredia) وتكون مساحتها حينئذ فدانا او ٥٠٠٠ متر مربع ٠

١ وحدة مائوية	(centurie)	=	١٠٠ ملك ارث	100 (heredia)
		=	١٠٠ فدان	200 (jugères)
		=	٥٠ هكتارا	(50 ha)
		=	٥٠٠،٠٠٠ متر مربع	
١ ملك ارث	(heredium)	=	فدان واحد	(2 jugères)
		=	٥٠٠٠ متر مربع	

وكان المسح (l'arpentage) يقع على الصورة التالية : لو فرضنا انهم يريدون قسمة مساحة ارضية الى وحدات متساوية بواسطة شبكة من خطوط مستقيمة ، فانهم قبل كل شيء يمدون خطا على الطول كانوا يطلقون عليه اسم (decumanus maximus)

ثم يمدون خطا عموديا على العرض يشق الاول في وسطه ويسمى (Cardo maximus)

ثم يمدون عددا من الخطوط الموازية لهذين الخطين الرئيسين طولا وعرضا بكيفية تجعلها تقسم تلك المساحة الى وحدات مائوية اى الى مربعات طول ضلعها ٧١٠،٤٠ م ٠ ومساحتها ٥٠ هكتارا او ما يقرب من ٥٠٠٠٠٠ متر مربع (اى مائة فدان)

وان ما سميناه خطوطا كان في الواقع سبلا ومسالك من الاملاك العامة ، فالطريقان الرئيسيان كانا اعرض بكثير من المسالك الفرعية المتوازية ، وبعد كل اربعة مسالك متوازية تجد مسلكا خامسا اعرض منها (انظروا اللوحة رقم ٧٤)

ثم بعد انتهاء المساحين من اعمال القيس والمسح يقع رسم المخطط او التصميم وتسجل به اسماء اصحاب الاراضي والضيعات ٠

وان الوثائق التاريخية التي تشهد بتقسيم الاراضي الى (سنتوريات) بالولايات الافريقية كثيرة جدا ، واقدمها عهدا قانون عقارى مؤرخ فى سنة ١١١ ق ٠ م ٠ ، ويشير هذا القانون الى القيام بهذا التقسيم ، والى توزيع حصص على افراد الجالية الرومانية التى حاول كايوس سمبرونيوس غراقوس (Caîs Sempronius Gracchus) ان يعمر بها مدينة قرطاج لما قدم الى افريقية سنة ١٢٢ ، وسعى فى اعادة بناء عاصمة البونيقيين واقرار الجالية الاستعمارية فيها ، ولما عاد الى رومة ،

حمل عليه خصومه، ورموه بخرق القدسيات وتدنيسها، لان قرطاج كانت تعتبر بلادا ملعونة عندهم ، فحاول كايوس الدفاع عن موقفه باستعمال العنف ولكنه لم ينجح ، فالتجا ٠ الى الانتحار (سنة ١٢١) ورموا بجثته فى نهر التيبر ، والحقوا باسمه اللعنات ، واهلكوا ثلاثة الاف من اتباعه ٠ ٠ ٠ (١)

ونفهم من ذلك ان مسح ارض قرطاج ، وغيرها من الاراضى بجهات اخرى ، حتى املاك الافريقيين من ابناء البلاد ، كما يشير اليه ذلك القانون ايضا ، يرجع عهده الى سنة ١٢٢ ق ٠ م ٠

وقد وقع تعميم عمليات المسح على كامل تراب الولاية ما عدى المدن السبعة التى كانت منحتها رومة حريتها مجازاة لها على قطع صلتها بقرطاج وانفصالها عنها اثناء الحرب البونيقية الثالثة ، وهذه المدن السبعة هى : اوتيكة ، وحدرموت (سوسة) ، ولبتيس الصغرى (لمطة) وثابسوس (راس الديماس ، قرب المهدية) ، واشولة (جمة او راس بوطرية) واسولة (انشيلة شمال صفاقس) ، وثوداليس وراء خليج بنزرت (عين طلة ؟) ولم يات دور هذه المدن ، وكذلك ايضا بعض الجهات الاخرى فى جنوب سوسة كالجهة الموجودة على مقربة من مدينة الجم مثلا ، او فى جنوب الولاية بصفة عامة ٠ ٠ ٠ لم يات دورها الا بعد الجمهورية ، اى فى العهد الامبراطورى ٠ ويمكن ان نقول بان الاعمال الاولى المتعلقة بالمسح والتقسيم لم تتجاوز المفيضة ، بل وقفت امام اراضي سوسة ، سواء بالنسبة للاملاك الرومانية او بالنسبة لاراضى المدن الحرة ٠

وقد اهتدى م٠ صومانى ، وهو يتامل صدفة فى صور شمسية التقطت من الطائرة لفائدة ادارة الاحباس بتونس ، الى آثار ظاهرة وواضحة باحدى تلك الصور لاهم عمل من اعمال المسح والتقسيم وقع القيام به قرب مدينة الجم ، وقد شملت هذه الاعمال مساحة تبلغ

---

(١) اعادة بناء قرطاج : لم تتحقق اعادة بناء مدينة قرطاج ولم يتم تعميرها بالسكان الا سنة ٣٩ بعد الميلاد ، فى عهد الامبراطور اغسطس الذى كانت له القوة الكافية والشجاعة لتحدى شعور الرومانيين واحتقار وساوسهم الدينية ، فهو الذى اقامها على انقاض المدينة القديمة وعمرها بالمهاجرين من الرومان ٠ فكانت قرطاج الرومانية عاصمة لولاية افريقية بعد اوتيكة ، وسطعت انوارها فى سماء الامبراطورية الى ان غزاها الوندال فى القرن الخامس بعد الميلاد (فى ١٩ اكتوبر ٤٣٩) ودام استلاؤهم عليها مائة عام ثم انتزعها منهم القائد البيزنطى « بليشار » (سنة ٥٣٤) وبقيت قرطاج تحت حكم بيزنطة الى ان ادركها الفتح الاسلامى على يد حسين بن النعمان الذى امر بهدمها وتخريبها سنة ٧٨ للهجرة الموافقة لسنة ٦٩٨ م ٠

والله يرث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين

١٥٠٠٠ هكتار تقريبا ، وقع تقسيمها الى حصص او سنتوريات او وحدات مائويه ذات خمسين هكتارا (انظروا اللوحة رقم ٧٤)

وكذلك وقعت اكتشافات جديدة هامة من دراسة الخرائط القيمة التى رسمتها المصلحة الجغرافية للجيش والتى وقع التوصل بواسطتها الى معرفه عملية اخرى على غاية من الروعة ، وتعتبر من اهم عمليات التقسيم القديمة لتحديد قطع مربعة طول ضلعها ٢٤٠٠ قدم او ٤٠ ، ٧١٠ م ٠

والذى مكن من الاهتداء اليها وجود انصاب على عين المكان بالجنوب التونسى قرب شط الفجاج ووذرف ، وبالبحث والتنقيب تبين ان الخط الممتد على الطول (decumanus maximus) كان يتجه من الشمال الغربى الى الجنوب الشرقى ، ويذهب من نقطة على الساحل كائنة بين مدينة سكيكدة (Rusicade = Philippeville) ومدينة عنابة (Hippo Regius = Bône) الى ان يصل قرب قابس ٠ اما الخط الممتد على العرض (Cardo maximus) الذى يقطعه عموديا وحسب زاوية قائمة بجهة تالة ، فهو ينتهى فى الشمال الشرقى قرب الوطن القبلى ٠

ومن غير شك ان هذه العملية الواسعة النطاق ، وقع القيام بها بعد سنة ٤٦ ق ٠ م ٠ اى بعد انشاء افريكا الجديدة (Africa Nova) كما سنراه بعد قليل، وذلك لان الخط الممتد على الطول من الشمال الغربى (بين عنابة وسكيكدة) الى الجنوب الشرقى (قرب قابس) هو بتمامه وكماله خارج عن حدود الولاية القديمة ، اى خارج عن خندق (فوساريجيا) ٠

وقد كانت انيطت هذه العملية الواسعة بعهدة مساحين عسكريين ولذلك لا يستبعد ان يكون مرور الخط الممتد على العرض بمدينة حيدرة (Ammædara = Haïdra) امرا مقصودا لا من مجرد باب الصدفة ، وذلك لان حيدرة كانت محل اقامة فرقة (جوقة افريقية) فى عهد الامبراطور اغسطس (من ٢٩ ق ٠ م ٠ الى ١٤ بعده)

وبالاختصار نفهم مما تقدم عمليات المسح والتقسيم (centuration) بدات مع بداية الاحتلال ، واستمرت مدة سنوات طويلة ، وما زالت آثارها باقية على الارض تشهد باهميتها وروعتها ٠

ب) سنة ١٠٥ ق ٠ م : بعد الانتصار على الملك يوغرطة

لما مات الملك ميسيبسا بن ماسنيسا سنة ١١٨ ترك المملكة لابنيه هيامبسال وآذربعل ، وليوغرطة ابن اخيه الهالك مانسطبعل ، والذى تبناه ورباه فى قصره كاحد اولاده ٠

فتخلص يوغرطة اولا من هيامبسال باغتياله ليلا ببلدة ثرميدة قرب دقة (سنة ١١٨) ، ثم تخلص من آذربعل الذى التجأ الى مدينة قرطة ، فحاصره يوغرطه الى ان سلم اليه نفسه ، فقتله شر قتلة (سنة ١١٢) وذلك رغم تحذير وانذار رومة ٠ ولم يكتف يوغرطة بذلك بل فتك بالإيطاليين الذين كانوا قاطنين بقرطة لانهم كانوا من انصار آذربعل ٠ فلم تر حكومة رومة بدا من اعلان الحرب عليه (سنة ١١١) ٠

فاخذ يوغرطة يقاوم الاعداء تارة باستعمال الحيلة ، وشرائهم بالمال ، وتارة باستعمال قوة السلاح ٠ ونلاحظ هنا ان رومة كانت فى ذلك التاريخ على غاية من الانحطاط والتدهور الاخلاقى ٠ فان اشرافها قد فقدوا كل شعور بالنبل والشرف ، واصبحوا لا يفكرون الا فى جمع المال بوسائل شرعية او غير شرعية ، فكثرت الرشوات والخيانات ، وصارت الوظائف والمناصب سبلا ووسائط للاثراء بانتهاب الخزينة وباستلاب الناس اموالهم ، وتعددت الثورات ، وتكرر القتل والاغتيال وسفك الدماء حتى ان يوغرطة استعمل بريق الذهب ولمع الفضة اكثر من مرة لربح دعواه ٠

ـ فهو قد ستعمل الرشوة لما وجهت اليه رومة لجانا للبحث فى قضيته مع ابنى عمه (سنة ١١٧) ، فحكمت له وجعلت الحق من جانبه

ـ واستعمل الرشوة لما سيرت اليه جيشا لمحاربته (سنة ١١١) ، فتم الصلح بينه وبين قواد الجيش بدون قتال ولانزال ٠ ٠ ٠

ـ واستعمل الرشوة لما وقع استدعاؤه الى رومة للمحاكمة (فى آخر سنة ١١١) ، فتوجه اليها (مثقلا ملآنا) ورجع منها (مخففا فارغا) ولكنه اشترى اعضاء كانوا من جهته يدافعون عنه فى المجلس ويظهرون براءته ٠ ٠ ٠ ٠ ومما يدل على استخفافه بهم انه تجرا على قتل (ماسيوة) ابن عمه غولوسة فى رومة نفسها ، لما بلغه انه كان

يدس الدسائس ليصير ملكا على نوميديا • وبفضل المال ارتكب تلك الجناية الشنيعة ولم يخش حسابا ولا عقابا • وهذا هو الذى جعله يقول بكل احتقار لما غادر ايطاليا : (ان رومة مبتاعة لمن يريد شراءها بالمال !)

واخيرا عينت رومة لقيادة الجيش قنصلا حازما نزيها وهو ماريوس (سنة ١٠٧) ولكنه لم يظفر بعدوه الا بعد ما يقرب من ثلاث سنوات ولم يقع ذلك فى ساحة القتال ، بل تم بالحيلة وبحمل حليفه (بوخوس) ملك مريطانية على خيانته والغدر به ، فسلمه اليه اسيرا (سنة ١٠٥) •

وبعد انتصار رومة على عدوها يوغرطة ، لم تقع زيادات تذكر فى تراب ولاية افريكا ، بل اكتفى الرومانيون بوضع نفوذهم على موانى طرابلس •

اما لبتيس الكبرى (لبدة) التى كانت داخلة فى مملكة يوغرطة فهى قد اعلنت انفصالها عن ذلك الملك ابتداء من سنة ١١١ ، وطلبت من رومة ان تعتبرها مدينة صديقة وحليفة وحرة • فكان الامر كما ارادت ومن ذلك التاريخ لم تقع تحت نفوذ النوميديين •

ج) سنة ٤٦ : بعد انتصار قيصر على بمبايوس
افريكا الجديدة وافريكا القديمة

فى منتصف القرن الاخير قبل المسيح حدثت قلاقل سياسية بايطالية كان لها صداها واثرها بافريقية •

ففى سنة ٦٠ وقع اجتماع بين :

— يوليوس كايوس قيصر (Jules César)
— وكنييوس بمبايوس (Cneius Pompeius)
— وماركوس ليسينيوس كراسوس (Marcus Crassus)

والفوا الثالوثية الاولى (le 1er triumvirat) اي حكومة الثلاثة او الثالوث • وتقلد يوليوس قيصر ولاية غالية ، وتقلد كراسوس ولاية سوريا ، وبمبايوس ولايتى اسبانية وافريقية •

وزاد قيصر فى تمتين تحالفه مع زميليه كراسوس وبمبايوس ، باتخاذه ابن الاول عضدا له ونائبا ، وبتزويج الثانى بابنته ٠
ـ لكن كراسوس مات سنة ٥٣

ـ وفى سنة ٥٢ ، سمت رومة بمبايوس قنصلا اوحد ٠ امـــا يوليوس قيصر فقد سلبت منه القيادة لتخوفها من شعبيته ومن الحظوة الكبيرة التى وصل اليها ، وانتصاراته الباهرة التى احرز عليها بغالية من سنة ٥٩ الى سنة ٥٢ ٠

وفى العام بعده (سنة ٥١) عرض يوليوس قيصر على مـجلس الشيوخ انذاره الاخير مطالبا بتخلى بمبايوس عن القيادة، او بارجاعها اليه ريثما يقع اجتماع المجالس الانتخابية ٠

ـ لكن مجلس الشيوخ اجابه بالرفض
ـ فقطع يوليوس قيصر نهر الروبيكو (سنة ٤٩) وهو الحـد الفاصل بين ولايته بغالية امام الآلب وبلاد ايطالية ، ولا يمكن ان يتعداه وال على راس جيشه الا باذن من رومـة ٠ ولذلـك صارت العبارة(قطع الروبيكو!) (il franchit le Rubicon !) تستعمل بالنسبة لكل من اقدم على امر خطير بعد تردد ٠ ٠ ٠

وقد تردد يوليوس قيصر فى اول الامر ، ولكنه تشجع بعد ذلك ، وقطع ذلك النهر بكل جسارة وهو يقول : (قد حتم الامر !) ، فذهبت مثلا ٠ (Alea jacta est = le sort en est jeté !) وزحف على رومة ٠ ٠ ٠

واعلن مجلس الشيوخ ان يوليوس قيصر اصبح عدو الشعب ٠

واندلعت نار الفتنة الداخلية والحرب المدنية ، وانقسم الناس الى حزبين : الى (بمبايوسيين) اى انصار بمبايوس ، و (قيصريين) اى انصار قيصر ٠

وفر بمبايوس الى الشرق ، فالتحق به قيصر فى بلاد اليونان ودارت بينهما معركة بفرزالة (Pharsale) بجهة ثاصاليا ببلاد اليونان انتصر فيها قيصر على خصمه انتصارا باهرا (٩ اوت سنة ٤٨) ونجا بمبايوس بنفسه وفر هاربا الى مصر ، وبمجرد نزوله قتله اعوان بطليموس ٠

ويقال ان قيصر لم يتمالك من التاثر والبكاء لما اتوه براس خصمه

وكان يوبا الاول ملك نوميديا الشرقية بمبايوسيا ، اى من انصار بمبايوس ٠

وكان جيش البمبايوسيين بافريقية قويا يزيد على ٤٠٠٠٠ من المشاة و ١٥٠٠٠ من الخيالة تحت قيادة قيسيليوس ميتيلوس شبيون وبورسيوس قاطون ، محتشدين حول اوتيكة وسوسة ، ما عدى القوات العظيمة التى كان يتصرف فيها الملك يوبا الاول ٠

وبعدما انتصر يوليوس قيصر على خصمه بمبايوس ،وبعدما قضى تسعة اشهر اسير جمال كليوباترة ملكة مصر ، ركب الى افريقية ، ونزل قرب سوسة (٢٨ ديسمبر ٤٦ ق٠م٠) للانتقام من يوبا الاول ومن انصار بمبايوس ، وكان على راس ٣٣٠٠٠ من المشاة و ١٥٠ فارسا فقط ، وكان معتمدا على مساعدة بوخوس الاصغر ملك نوميدية الغربية ، فاسعفته الاقدار زيادة عن ذلك بنجدة غير مترقبة ، ومدد غير منتظر تحت قيادة بوبليوس سيتيوس (Publius Sittius)

وهو مغامر ايطالى ارتكب برومة فضائع مشينة ، واعلن افلاسا مزيفا ، واتهم بالاحتيال والتدليس ، فبارح رومة ، ونزل بافريقية ليلعب الورقة القيصرية ، والف جيشا جعله تحت قيادته ، ودخل فى الحرب ضد البمبايوسيين لما كان قيصر فى اشد الحاجة الى المساعدة ٠

اما قيصر فانه التقى باعدائه قرب المنستير (Ruspina) ، ثم قرب المهدية بجهة قصور الساف ، واخيرا اقام معسكره بتابسوس (Thapsus) اى راس الديماس (فى ٤ افريل ليلا) ٠ وفى ٦ افريل قام بهجوم عنيف ، وحمل على اعدائه حملة منكرة ، فهزمهم ، وبدد شملهم ، وفتك بهم فتكا ذريعا ، وانتحر شبيون وقاطون ٠ اما يوبا الاول فانه فر هاربا الى عاصمته (جاما ريجيا) وانتحر ايضا بشرب السم ليسلم من انتقام قيصر وبطشه ٠

وبذلك الانتصار الذى يرجع الفضل فيه الى اعانة (سيتيوس) سكنت الثورة ، وانتهت المقاومة ، واستتب الامن ٠

وغير قيصر النظام بافريقية تغييرا عميقا : فجعل من نوميدية الشرقية ولاية جديدة اخذت اسم (افريكا الجديدة Africa nova) سيقع ضمها بعد عشرين سنة (اى فى سنة ٢٧) الى الولاية الاولى التى صارت تعرف باسم (افريكا القديمة Africa vetus

وانشا بين مريطانية وافريكا الجديدة امارة فاصلة تبرع بها على (سينيوس) مكافاة له عن مساعدته الفجائية ، فاصبح هذا المغامر، بين عشية وضحاها ، اميرا وملكا بعدما كان مفلسا وجانيا ·

وبعد موت سيتيوس (سنة٤٣) يقع الحاق تلك الامارة ببقيـــة الولاية الرومانية ، بحيث ان افريكا القديمة وافريكا الجديدة وامارة سيتيوس ، يتكون من مجموعها فى سنة ٢٧ق·م· ولاية بروقنصلية واحـــــدة ·

وافريكا الجديدة كانت ملاصقة شرقا لافريكا القديمة الغربية ، اى الخندق الملكى او فوسا ريجيا ، اما حدها الغربى فهو خط يمر غربى عنابة (مابين عنابة وسكيكدة) ، وغربى قالمة ··· ويشمل جنوبا سواحل السرت ·

واول وال عينه قيصر على راس افريكا الجديدة كان سالسطيوس (Caius Sallustius Crispus = Salluste) وهو مؤرخ لاطينـــى مـــن الصابيين ولد سنة ٨٧ ق·م· وكان من انصار قيصر ، فولاه الحكم بالولاية الجديدة ومنحه لقب (بريطور) واستمر فى الولاية من سنة ٤٦ الى سنة ٤٥ ، وجمع ثروة طائلة بوسائل مفضوحة وطرق غير شرعية · ونلاحظ بهذه المناسبة ان سالسطيوس هذا هو الذى الف كتابة المعروف « حروب يوغرطة »

وصارت مريطانية تمتد من المحيط الاطلسى الى وادى المساقـــة (Ampsaga) او الوادى الكبير الذى يجتمع بوادى الرمل(Rumel) ويمر بمدينة قرطة · وكان ملك مريطانية فى ذلك الوقت بوخوس الاصغر · وبالجملة فان هذه التغييرات التى احدثها يوليوس قيصر جعلت افريقية الشمالية تنقسم الى :

١ ــ افريكا القديمة : تمتد من البحر الى فوساريجيا

٢ ــ افريكا الجديدة من فوسا ريجيا الى غربى عنابة وقالمة وعلى راسها الوالى الاول سالسطيوس من اكبر اصدقاء قيصر وانصاره

٣ ــ امارة سيتيوس : تصل الى نهر المساقة او الوادى الكبيـــر الذى يمر بمدينة قرطـــة

٤ ــ مريطانية الشرقية او القيصرية وملكها بوخوس الاصغر وكان من انصار قيصر فى مقاومة البمبايوسيين بافريقية ·

٥ ـ مريطانية الغربية او الطنجية وملكها بوغود وكان من انصار قيصر فى مقاومة البمبايوسيين باسبانيا وكانت المملكة المريطانية مستقلة ، ولكن لفظيا وفى الظاهر فقط اما فى الحقيقة والواقع فهى كانت تحت الحماية الرومانية • والذى يدل على ذلك هو تعيين ولاة رومانيين عليها مدة ثمانى سنوات (من ٣٣ الى ٢٥) بعد موت بوخوس

وفى سنة ٢٥ ، لما اراد الامبراطور اغسطس ارجاع تلك المملكة الى امير افريقى اى ليبى الاصل ، كان ذلك الامير (يوبا الثانى) الذى نشا وترعرع وتربى فى رومة ، والذى اعتنت بتربيته اخت الامبراطور نفسه فصار مواطنا رومانيا ، ومتشبعا بالثقافة اللاطينية وبالروح الرومانية ، ولا يمكن له ان يتبع سياسة تخالف او تغاير سياسة الامبراطور • فسمى يوبا الثانى مدينة شرشال (قيصارية) (Caesarea) على شرف يوليوس قيصر ، واتخذها عاصمة ملكه

ودام ذلك الاستقلال المجازى او الوهمى الى سنة ٤٠ بعد الميلاد اى الى عهد الامبراطور قاليقولا

ثانيا ـ فى عهد الامبراطورية

(من سنة ٢٩ ق٠م٠ الى سنة ٤٣٩ بعده)

أ ـ سنة ٤٠ بعد الميلاد : بعد قتل الملك بطليموس : الاستيلاء على كامل افريقية الشمالية

توفى يوبا الثانى سنة ٢٣ بعد الميلاد ، وضريحه يعرف اليوم بقبر الرومية قرب شرشال بعمالة قسنطينة وفى ايامه (سنة ١٧) ثار الزعيم النوميدى تاكفاريناس على الرومانيين لتحرير البلاد من الاستعمار الاجنبى ، ومات يوبا الثانى والثورة ما زالت على قدم وساق وتولى الملك ابنه بطليموس وذلك فى عهد الامبراطور تيباروس (١٤/٣٧) ، واقتصر طيلة مدته التى دامت ١٧ سنة (٢٣/٤٠) على التنعم بحياة البذخ والرفاهية ، تاركا السلطة بيد اتباعه •

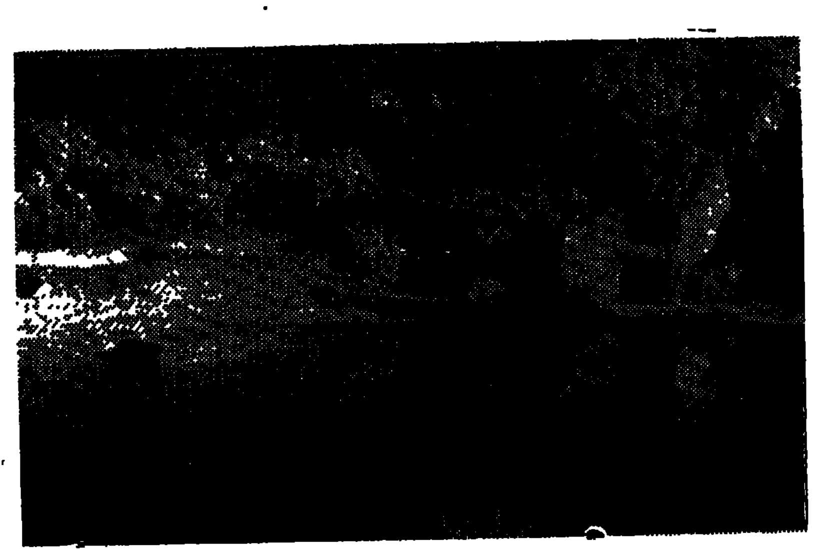
وكان البطل المقاوم تاكفاريناس مستمرا فى ثورته الى ان هلك سنة ٢٤ فى معركة دارت بينه وبين البروقنصل (دولابالة) • وكان الملك بطليموس فى صف الرومانيين يقاوم الثائر تاكفاريناس

لوحة ٧٥

انظر الصفحة رقم ٣٢٨/٣٥٤ من هذا الكتاب



آثار معصرة للزيت بمدينة ماداوروش بالجزائر



آثار معمل للدبغ بمدينة تيبازة بالجزائر

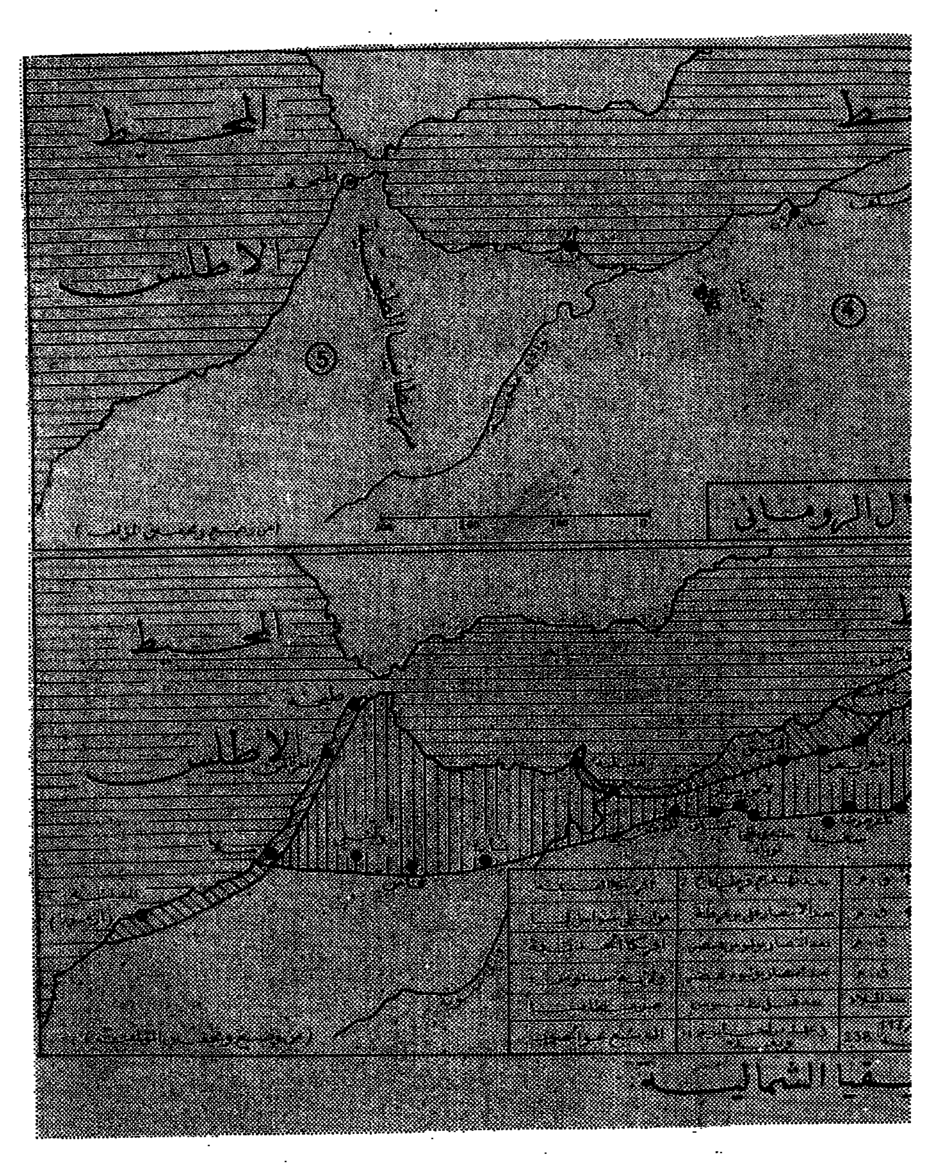
لوحة٧٦

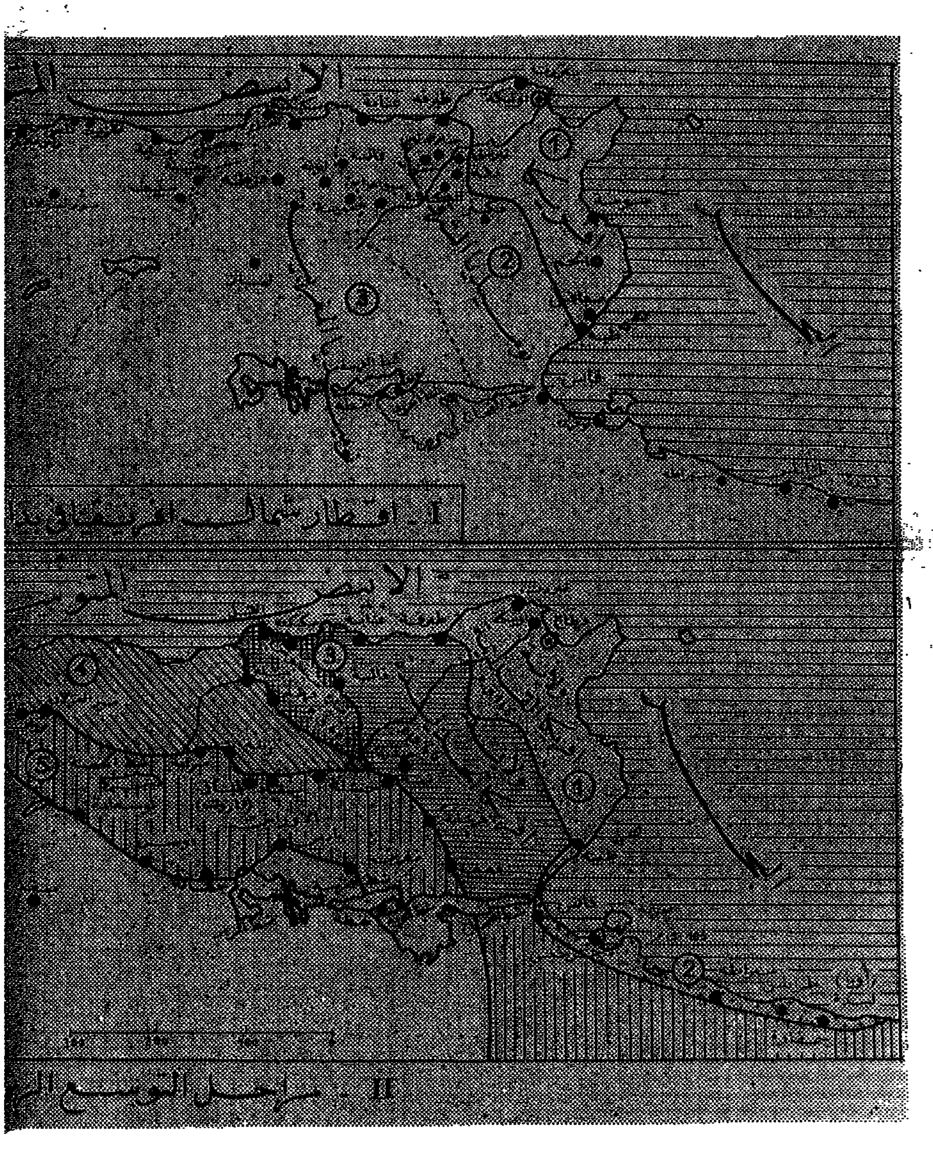
لوحة٧٦

خـريطـة الـ[illegible]ـرومـانـى

انظر الصفحة رقم ٢٩١ من هذا الكتاب

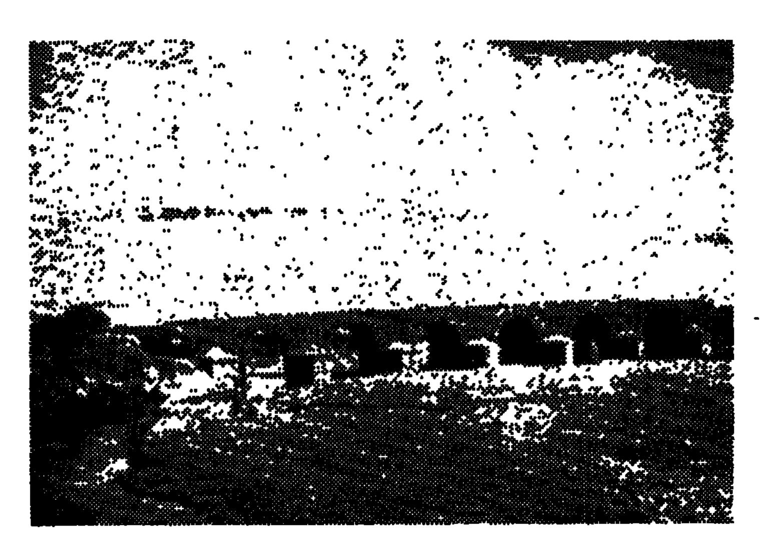
انظر الصفحة رقم ٣٠٥ من هذا الكتاب



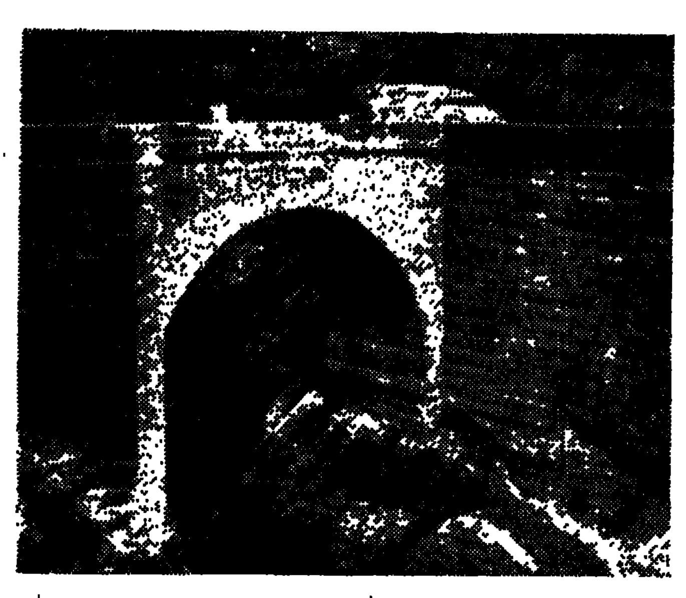


لوحة ٧٧

انظر الصفحة رقم ٣٣٣ من هذا الكتاب



جسر وادى جلف بشمال القيروان



جسر (القنطرة) وهو جسر رومانى بالجزائر

بكل همة ونشاط ٠٠٠ فكان جزاؤه على اخلاصه ان استقدمه كايوس قيصر (الملقب بقاليقولا) الى رومة ، وامر بقتله ، وكان قاليقولا اذ ذاك في حالة اختبال ، وجعل المريطانيتين ولايتين رومانيتين ٠

ومن ذلك التاريخ اصبحت افريقية الشمالية باسرها بلادا رومانية واستمرت كذلك الى ان استولى الوندال على عنابة (سنة ٤٣٠) ثم على قرطاج (سنة ٤٣٩) ٠

والآن نريد ان نضبط الحدود الجديدة لافريقية الرومانية بعد ضم مملكة مريطانية سنة ٤٠ ، وهي حدود يمكن معرفتها وتعيينها بكل وضوح ودقة بفضل سلسلة الحصون والحواجز والمتارس التي اقامها الرومانيون على التخوم وسموها ليمس (limes) اي الحد المادي ، ومازالت آثارها موجودة الى اليوم ، ولذلك يمكن لنا ان نتبع هـذه الحدود كما ياتي ، مبتدئين بالجنوب الشرقي (انظر اللوحة ٧٦)

ـ بالساحل الجنوبي من السرت الصغير ، وهو ما يقابل بلاد طرابلس في الوقت الحاضر ، كان الرومانيون لا يحتلـون الا بعض الموانى . وكانت الارض الرومانية الى قابس لا تبتعد كثيرا عن البحر

ـ وفي غربي قابس ، وقفت اعمال مسح الاراضي وتقسيمها ، وكذلك وقف الاستعمار الروماني على الضفة الشمالية لشط الفجاج

ـ وبعد ذلك يتجه الحد من الشرق الى الغرب ، ويمـر بالمـدن التالية :

● — قفصـة — CAPSA (Gafsa) — ●
● — فريانة — THELEPTE (Feriana) — ●
● — تبسـة — THEVESTE (Tebessa) — ●

ـ وابتداء من تبسة يتجه من الجنوب الشرقي الى الشمال الشرقي، شمال اوراس ، ويمر بالمدن التالية :

● — خنشلة — MASCULA (Khenchela) — ●
● — تيمقاد — THAMUGADI (Timgad) — ●
● — تازولت (لمباز) — LAMBAESIS (Lambèse) — ●
● — زانـة — DIANA (Zana) — ●
● — سراية — ZARAI (Zraia) — ●
● — سور الغزلان — AUZIA (Aumale) — ●

● — سور جواب — Rapidum (Sour Djouab) — ●
● — برواغية — THANARAMUSA (Berrouaghia) — ●

— وبالوصول الى برواغية نكون قد وصلنا بالحد الى وادى شلف (Chinalaph = Chélif) فى المكان الذى يغير فيه ذلك الوادى اتجاهه ، فبعد ما كان يذهب من الجنوب الى الشمال ، يصير يتجه من الشرق الى الغرب ، فيندمج الحد فيه ويمر معه بالمدن التالية :

● — مليانة — ZUCCHABAR (Méliana) — ●
● — ديبرى — OPPIDUM NOVUM (Duperré) — ●
● — مدينة الأصنام — CASTELLUM TINGITATUM (Orléansville) — ●

— ثم يزيد الحد اتجاها نحو الغرب او بالاحرى نحو الجنوب الغربى ويمر من :

● — غيليزان — MINA (Relizane) — ●
● — بيريقو — CASTRA NOVA (Perrégaux) — ●
● — السيغ — TASACCORA (St Denis du Sig) — ●

— ثم يقطع وادى ملوية (Mulucha) = Moulouya) بالقرب من مصبه ، وينتهى فى المدينة البونيقية :

● — مليلية — RUSADDIR (Melilla) — ●

— ويختفى الحد هناك ، ثم يظهر على ساحل المحيط الاطلسى ، من مضيق جبل طارق الى سلا ، فيشمل :

● — طنجة — TINGI (Tanger) — ●
● — العرايش — LIXUS (Larache) — ●
● — سلا — SALA (Salé) — ●

وان منظر افريقية الرومانية ، فى اول الامبراطورية ، يبدو هكذا فى مجموعه جليا واضحا ، فى شكل كتلة ارضية كبيـرة تطابـق البلاد التونسية تقريبا ، تمتد شرقا بشقة مستطيلة على ساحـل طرابلس ، وغربا بزاوية عظيمة ، تستدق تدريجيا ، وينتهى طرفها فى مدينة مليلية ... ثم ، بدون اى اتصال برى بما تقدم ، جملة من المراكز والمصارف والمستعمرات على المحيط الاطلسى .

ب - زيادة التوسع نحو الجنوب

لكن الاباطرة الرومانيين شعروا بالحاجة الى زيادة الامتداد وتوسيع منطقة النفوذ نحو الجنوب ، بقدر ما كان ينمو عدد السكان وتزدهر حالة الفلاحة والزراعة ٠

وهذه الحركة التوسعية بدات تظهر فى اوائل القرن الثانى ، ثم انجلت بوضوح فى آخر ذلك القرن وفى بداية القرن الثالث ٠

ففى سنة ٢٣٨ كان الليمس اى الحد الرومانى اقرب للجنوب مما كنا ذكرناه : فكانت مراكز الحراسة الرومانية تصل الى جنوب سهول جفارة الساحلية ، زيادة عن المراكز الاخرى التى وقع احداثها بالواحات مثل بونجم وغدامس ، وكان التجار الرومانيون يذهبون حتى الى فزان ٠

- ثم من جهة الجنوب صارت المستعمرة الرومانية تشمل الضفة الجنوبية من شط الفجاج وواحتى نفطة وتوزر ، بين شط الجريد وشط الغارسة ٠

- ثم يتجه الحد ، كما بيناه آنفا ، من الجنوب الشرقى الى الشمال الغربى ، لكنه صار ، من ايام تراجانوس ، يشمل الاوراس ،وصارت مراكز الحراسة الرومانية تقام بالواحات الكائنة على تخوم الصحراء :

● — نقرين — A D-MAJORES(Négrine) — ●
● — بادس — BADIAS (Badès) — ●
● — جمالة — GEMELLAE — ●
● — دوسن — GEMELLAE (Doucen) — ●

- ومن دوسن ، يتجه الحد نحو بوسعادة ، وبوغار ٠

- وابتداء من بوغار يتبع الحد طريقا استراتيجيا نظم بدون شك فى بداية القرن الثالث ويمر امام فج معروف يسمى (ثنية الاحد) وامام تاهرت ، ثم بالمدن التالية :

● — فرندة — Frenda » » — ●
● — تاغرمرت — COHORS BREUCORUM(Dominique Luciani) — ●
● — سعيدة — (Saïda) » » — ●
● — شانزى — (Chanzy) » » — ●
● — حجر الروم (Lamoricière) ALTAVA — ●
● — تلمسان (مدينة التفاح) — POMARIA (Tlemcen) — ●
● — لله مغنية — (Marnia) NUMERUS SYRORUM — ●

وامام ذلك الحد المحصن وقع احداث مراكز حراسة ، اهمها مركز مسعد (Messaad) ، بجبال اولاد نايل ، وهذا المركز كان يسمى قصراوحصن دمد(Castellum Dimmidi)لان وادى دمد (Oued Demmed) كان يمر هناك ٠ وتاسيس هذا المركز تم فى سنة ٢٠١ فى عهد سبتيموس سافاروس ٠

— اما بالمغرب الاقصى فان الاحتلال الرومانى صار فى القرن الثانى والثالث اكثر كثافة ، وامتن تلاحما بالنسبة للسواحل او لداخل البلاد ، واصبحت مراكز الحراسة يتكون من مجموعها مثلث رؤوسه طنجة والرباط وفاس ، وكان المركز الامامى جنوبا مدينة ازمور (Azemmour) ، وهى مصرف بونيقي قديم (Azama)

ومن اشهر المدن الرومانية في داخل بلاد المغرب مدينة وليلى او قصر فرعون (Volubilis) وهى ليبية الاصل يرجع عهدها الى العصر النيوليتى ، ثم اختلط سكانها بالعنصر البونيقى ، ثم صارت مقرا للملك يوبا الثانى ، وابنه الملك بطليموس ، ثم للوكلاء (بيروقيراطور) الرومانيين ، ونمت وازدهرت على الاخص فى القرنين الثانى والثالث ، وصارت تعرف بعد ذلك باسم (قصر فرعون) ٠

وقد ادار بها ماركوس اوريليوس Marcus Aurelius (١٦١/ ١٨٠) سورا ما زالت آثاره موجودة الى الآن ، وشيد بها كومودوس Commodus (١٨٠ / ١٩٢) بناءات ضخمة ، وزينها ماركوس قاراقالة Caracalla (٢١١ / ٢١٧) بقوس النصر والكابتول وبنى بها كنيسة ٠٠٠

فيمكن ان نقول حينئذ بان النفوذ الرومانى قد زاد فى هذين القرنين تقدما وتوسعا ٠

ولكن الشىء الذى ينبغى ملاحظته هو استمرار وجود قبائل جبلية فى الداخل محافظة على استقلالها وغير قابلة « للترمين » ، فصارت فيما بعد « اعشاش » التمرد والثورة والعصيان ٠ ويقول الاستاذ المؤرخ ح٠ح٠ عبد الوهاب فى ذلك (كتاب خلاصة تاريخ تونس) : « ٠٠٠ الا ان الرومان غفلوا مدة انتصارهم عن امر مهم جدا وهو اخضاع بعض القبائل البربرية التى انحازت الى الجبال المنيعة ، وحافظت على شعائرها القومية ولغتها وعوائدها ٠ فلم يكن للمتغلب تاثير عليها ٠ ومن هذه القبائل انبعثت الثورات

العديدة فى وجه الرومان ، فكانت احدى العوامل العظمى فى سقوط سلطنتهم ، اذ بتعاقب الايام وظهور الضعف فى الدولة الحامية ، تسنى للعنصر البربرى مقاومتها ونكث عهدها كلما سنحت لهم الفرص بذلك • ونظير هذا فى تاريخ الاسلام تلك الزلة السياسية التى ارتكبها الفاتحون للاندلس ، حيث تهاونوا بامر الاسبان الملتجئين زمن الفتح الى اعلى جبال استورية ، واسس الافرنج هنالك ملكا حصينا انحدروا منه الى السهول التى بايدى المسلمين ، فافتكوها شيئا فشيئا الى ان زحزحوهم من مكانهم ، وفى الآخر اطردوهم من عموم الجزيرة ، وبذلك زال ملك المسلمين من الاندلس • »

ولكن قبل انهيار سلطانهم ، وزوال ملكهم ، ادخل الرومانيون بافريقية نظاما سياسيا واداريا محكما ، وحسنوا الحالة الاقتصادية ، وبنوا مغربا رومانيا لا يستهان به • وهو ما سنحاول بيانه •



النظـــام السياسى والادارى
بافريقيـــة الـــرومانيـــة

مما يجب ملاحظته قبل كل شيء ، هو ان هذا النظام كان يمتاز بخصلتين هامتين :

اولا : مرونة الادارة الرومانية وطواعيتها العجيبة فهى كانت لا تميل الى المبادىء القارة والثابتة التى لا تتغير ولا تتكيف حسب الاحوال بل تطبق بكيفية آلية فى جميع الظروف والمناسبات ، وكانت لا تسعى وراء التناسق والاطراد ، ولا تريد ان تدخل الاشخاص والاشياء فى اطار واحد يكون مفروضا على الجميع .

ثانيا : تشريك الاهالى وابناء البلاد فى الامور الادارية وفى اوسع نطاق ، وذلك بالنسبة للقرنين الاول والثانى من النظام الامبراطورى الرومـــانـــى .

وكانت هذه القاعدة العامة متبعة ايضا فيما يتعلـق بالنظـــام العسكرى : مرونة وتعاون ، فكانت روما تكلف الجنود من الاهـــالى بحراسة الحدود مثلا او بحفظ النظام (انظر اللوحة رقم ٨٤)

اولا ــ النظام الادارى بافريكا فى عهد الجمهورية

قررت حكومة روما سنة ١٤٦ ان يكون بافريكـــا احـــد القضـــاة السنويين الذين كانوا يحملون لقب بريطور (Praetor) او قاضيا قديما انتهت مدة عمله ويحمل لقب بروبريطور (Propraetor) اى « النائب » الذى « يقوم مقام البريطور »وذلك لان عدد البريطوريين كان لا يتجاوز ستة فى ذلك الوقت ، وهو لا يكفى لتسديد جميع المراكز بالولايات البريطورية . فكان يقع تعيين هذا النائب لمدة عام مبدئيا ، ومع امكانية التحديد . وبما ان الوالى كان لايجوز له مبارحة مركزه قبل وصول خلفه ، فان الحكومة كانت تقتصر فى الغالـــب على عدم تعويضه ، فيتم التمديد هكذا بدونحاجة الى اية اجراءاتاخرى ــ وفى سنة ٨١ ق.م. لما تولى الديكتاتور سيلا (Sylla)

منصب القنصلية بروسة اصدر قانونا جديدا (lex Cornelia) رفع به عدد البريطورين الى ثمانية عوض ستة ، ومنحهم لقب بروقنصل عوض بروبريطور مع ما يتبع ذلك من الامتيازات الخاصة بالقناصلة مثل تقليدهم السلطة القنصلية (l'imperium) التى هى اعلى درجات السلطة ، ومثل منحهم الحق فى استصحاب ١٢ حارسا (licteurs) يحملون عصيهم المربوطة عوض ستة فقط ...

ودامت هذه الحال مدة ثلاثين سنة بعد صدور ذلك القانون ۰

– وفى سنة ٥٢ ، لما تولى بومبايوس منصب القنصلية للمرة الثالثة اصدر قانونا آخر (lex Pompeia) جرد به هؤلاء القضاة من لقب بروقنصل ، فاكتفوا بلقب بروبريطور كما كانوا فى البداية ۰ وبعد ثلاث سنوات من ذلك التاريخ ، اى فى شهر جانفى ٤٩ إشتعلت الحرب المدنية التى وضعت افريقية فى ظروف استثنائية ۰

ونفهم من هذا ان افريقية الرومانية كانت فى عهد الجمهورية ولاية صغيرة ، قليلة الاهمية ، لذلك لم يتول عليها الا موظفون من مرتبة دون مرتبة القنصل ، وهى مرتبة البريطور ۰

وقد اتت مناسبات هامة دعت حكومة رومة الى تعيين القناصل بافريقية ، غير ان ذلك كان لظروف استثنائية ، وللقيام بماموريات خاصة ۰

فنرى مثلا ان رومة ارسلت القنصل (قاطون) الى افريقية سنة ١١٨ ق۰م۰ وذلك لما بلغها موت الملك ميسيبسا بن ماسنيسا ، فكلفته بمهمة تنظيم الخلافة فى الملك ، ولكن ذلك القنصل مات بدوره بافريقية فى نفس ذلك العام ۰

وبعد ذلك بسنوات قليلة ، تعاقب على الولاية الافريقية عدد من القناصلة كانوا مكلفين بتسيير الحرب ضد الملك يوغرطة ، وهم :

– كلبرنيوس باسطيا : سنة ١١١ (بصفة قنصل)
– بستيميوس البينوس : سنة ١١٠ (بصفة قنصل)
– كيسيليوس ميتيلوس : سنة ١٠٩ (بصفة قنصل)
« » وسنة ١٠٨ (بصفة بروقنصل)
– كايوس ماريوس : سنة ١٠٧ (بصفة قنصل)
« » وسنة ١٠٦ (بصفة بروقنصل)
« » وسنة ١٠٥ (بصفة بروقنصل)

وكانوا يعينون ، لا لولاية افريقية (Africa) بل لولاية نوميديا (Numidia) التي كانت بلاد العدو في ذلك الوقت ٠ اما الافريكا فكانت دائما تحت نفوذ واليها الذى كان في مرتبة البريطور ، ولو انه كان مرؤوسا للقنصل او للبروقنصل الذى كان يسيــر العملـيات الحربية ، وكان تحت نفوذه وامره ٠ ٠ ٠

وقد زار افريكا ايضا بمبايوس المشهور (Pompée) بعد تقليده السلطة القنصلية (l'imperium) ومنحه كامل امتيازاتها ، وذلك في مناسبات ثلاث :

المناسبة الاولى : في سنة ٨١ (وكان القنصل اذ ذاك سيلا الذى اصدر القانون في رفع عدد البريطورين الى ثمانية وفي تعويض لقب بروبريطور بلقب بروقنصل) في تلك السنة اراد الوالى الرومانى (دوميسيوس توباربوس) ان يشق عصا الطاعة في وجه حكومته وان يركب راسه مع ملك نوميديا (حيرباص) فسيرت رومة اليهما بمبايوس على راس جيش ، فقام بمهمته على احسن وجه وانتصر في معركة خاطفة ، ولما عاد ظافرا الى عاصمة اوتيكة اتاه امر من سيلا بالبقاء هناك الى ان يقدم البروبريطور ليحل محله ٠ ومن هذا نفهم ان بمبايوس كان يقوم بوظيفة الوالى ، ولما انتهت الحرب ورجعـت المياه لمجاريها ، عاد الحكم بافريكا الى معتاده ٠

المناسبة الثانية : في سنة ٦٧ : اشتدت القرصنة بالبحر المتوسط واصبحت بلاء لايطاق ولا يحتمل ، فصدر قانون في انشاء قيادة خارقة للعادة لمدة ثلاث سنوات (٦٧ ــ ٦٦ ــ ٦٥) لمقاومة لصوص البحر ٠ وكان ذلك القانون ينص على ان الشخصية القنصلية التى تتولى القيادة تبسط نفوذها لا على البحر المتوسط فـقط ، بـل على الجهات الساحلية وعلى مسافة ٧٤ كيلو مترا من البحر (وهى بالنسبة الى افريكا عبارة عن كامل الولاية) واختاروا لتلك القيادة بمبايوس ، فكان يحمل لقب بروقنصل ويقود خمسمائة سفينة حربية وجيشا مؤلفا من ١٢٠ ٠٠٠ مقاتل و ٢٥ من الاعضاد برتبة ملازم (او قائم مقام) (lieutenant) يحملون لقب الآغا (legatus = légat) فاختص كل واحد منهم بولاية بحرية ، وكان المكلف بالدفاع عن السواحل الافريقية

النائب كورنيليوس مارسلينوس ، حتى ان القرتيين بطرابلس اقاموا له تمثالا اعترافا منهم بالجميل « للمنقذ الاكبر » ، وكان الملوك الحلفاء ، ومن بينهم ملوك نوميديا ومريطانيا ، مطالبين بمد يد المساعدة الى هذه الحملة الواسعة النطاق •

اما بمبايوس فانه ركب متن البحر وتوجه الى صقلية وافريقية وسردينية ، واقام بها محطات للسفن ومقرات للحرسة ، ولم تمض اربعون يوما حتى طهر البحر المتوسط من كل اللصوص •

المناسبة الثالثة : في سنة ٥٧ : وبعد عشر سنوات من ذلـــك التاريخ تكونت اثناءها الثالوثية (Triumvirat) المؤلفة من يوليوس قيصر وكراسوس وبمبايوس (سنة ٦٠ ق • م) رجعت القرصنة الى ما كانت عليه من قبل ، واخذت لصوص البحر تغور على القموح الذاهبة في طريقها من صقلية وسردينية وافريقية الى رومة ، خصوصا وقد كان القمح في ذلك الوقت قليلا عزيزا ومرتفع الثمن ، فاصدرت حكومة رومة قانونا في منح بمبايوس النفوذ المطلق لمدة خمسة اعوام وتكليفه بمهمة التموين والتزويد بالحبوب وحراسة جميع الموانـي وجميع الاسواق

وزودته رومة بالمال والرجال والعتاد والسفن الحربية ، ومنحته السلطة البروقنصلية في ايطالية وفي خارج ايطالية ،

فخرج في مارس سنة ٥٦ ، وكان الناس يظنون انه متوجه الى سردينية ، لكنه ذهب الى مدينة لوقة (Lucques) بجهة تسكانـة ، حيث اجتمع بقيصر وكراسوس لزيادة توطيد وتمتين معاهدة الثالوثية ثم قصد بعد ذلك سردينية ، ثم صقلية ، ثم افريقية ، وجمع قمحا كثيرا •

وفي سنة ٥٢ تسمى بمبايوس قنصلا اوحد لمدة خمسة اعوام •• فكان ما كان من اندلاع الثورة الداخلية ، ونشوب الحرب الاهلية التى اسفرت في النهاية عن انتصار الديكتاتور قيصر ، وعن انشاء ولاية جديدة بافريقية وهي (افريكا نوفا) عاصمتها جامة ريجيا او دقة ، وكان سالسطيوس اول من تقلد الولاية بها كما ذكرناه في مكانه •

ثانيا ـ النظام الادارى بالولايات الافريقية فى عهد الامبراطورية

قد درس الاستاذ البارتينى هذا الموضوع دراسة قيمة ، نقتطف منها ما يلى :

ان افريقية الشمالية كانت كلها رومانية فى عهد القياصرة او الاباطرة ، ولكنها لم تكن فى اى وقت من الاوقات عبارة عن وحدة ادارية ، ولم يوجد فى اى وقت موظف سام ، او وال عام له وحده المسؤولية والنفوذ بكامل شمال افريقية من طرابلس الى المغرب الاقصى وكذلك لم توجد مدينة يمكن اعتبارها العاصمة بالنسبة لكامل البلاد او مركزا او قاعدة لانشاءات عامة ومشتركة ، بل كان شمال افريقية عبارة عن ولايات منفصلة ٠

وهذه الولايات كان عددها ، فى عهد النظام الامبراطورى ، اربعة :

ـ افريقية البروقنصلية ، او افريكا

ـ نوميدية

ـ مريطانية الشرقية (او القيصرية)

ـ مريطانية الغربية (او الطنجية)

١ ـ فاما افريقية البروقنصلية فكانت تشمل بلاد طرابلس وبلاد تونس وطريدة ارضية صارت اليوم جزائرية وكانت تمتد بجانب الساحل الشمالى الى مسافة قليلة غربى عنابة وكانت سوق اهـراس وقالمة ، وتبسة ، تابعة ايضا لتلك الولاية

فكانت حينئذ تتالف من الجزء الذى كان فيه النفوذ الرومانى اكثر توسعا وكثافة ، ويتركب من الجهة التى كانت متاثرة من قبل ومنذ مدة طويلة بالمدنية البونيقية وبحضارة قرطاج ، حيث تقدمت الحياة الفلاحية والتجارية قبل قدوم الرومان ، فكانت تلك الجهة عبـارة عن بلاد آمنة ، هادئة ، مطمئنة يتولى امرها بروقنصل يقيم بقرطاج، وتقع تسميته مبدئيا لمدة عام ، ولذلكاطلقوا عليها اسم «البروقنصلية»

وان النظام الامبريالى باجمعه يرتكز على تصور وهمى لتقسيم السيادة بين الامبراطور والشعب المتمثل فى مجلس الشيوخ، باعتبار

السلطتين متعادلتين • وبناء على هذه النظرية قسم القيصر اغسطس مجموع العالم الرومانى الى قسمين من الولايات :

١ — **الولايات السيناتورية** ، يتولى امرها البروقنصل الذى يعينه مجلس الشيوخ ، وتصب مداخيلها فى خزينة الدولة (aerarium)

٢ — **الولايات الامبريالية** : يتولى امرها البروبريطور او البروقيراطور الذى يسميه الامبراطور حسب ارادته وتصب مداخيلها فى صندوقه الخاص

هذا التفريق فى السلط كان ظاهريا اكثر منه حقيقيا ، اذ اصبح المجلس فى الواقع ، بعد مدة قليلة فى قبضة الامبراطور ، وصار اسما بلا مسمى وهيكلا بلا روح •

ومن جهة اخرى فان اغتصاب النفوذ بكيفية تدريجية نقص شيئا فشيئا من حصة الاستقلال الادارى الذى بقى لمجلس الشيوخ فى البداية ، فاننا نرى مثلا البروقيراطور ، وهو عون القيصر المباشر ، يحل محل وكلاء المال (les questeurs) فى مختلف مصالح وفروع الادارة المالية بالولايات السيناتورية • الا انه كان هناك فرق جوهرى بين القسمين من الولايات، ذلك لان الولايات التى تركها الامبراطور تحت تصرف مجلس الشيوخ كانت كلها هادئة مطمئنة ومتاثرة بالروح الرومانية اكثر من الاخرى،فكانت فى غنى عن الجنود الحامية ، وذلك لان القيصر اغسطس كان يريد قبل كل شيء الاحتفاظ لنفسه خاصة بحق التصرف فى القوات العسكرية ، ولذلك احتاط للامر ولم يجعل فى حصة مجلس الشيوخ الولايات التى كان وجود القوات فيها امرا لازما •

فبلادنا التونسية كانت حينئذ ولاية مدنية خالية من الجنود والقوات العسكرية ، ممتازة بكثافة سكانها وبازدهار اهلها وبتشبعها بالحضارة الرومانية •

٣ — **انوميدية** التى كانت حدودها تصل غربا الى مصب الوادى

الكبير ، فقد كان الوالى بها هو الآغا (legatus = légat) (١) فكان نائب الامبراطور ، وخليفته ، وقائد فرقة الجوقة (la légion) وهى الركن الاساسى والعنصر الاصلى الذى يتألف منه جيش الاحتلال بافريقيا وهذا الآغا كان يحمل لقب « بروبريطور » وكان يسميه الامبراطور مباشرة ، ويتركه غالبا فى منصبه مدة سنوات كثيرة ٠

وان ولاية نوميدية لم تكن لها فى الحقيقة حياة رسمية كولايـة مستقلة تحمل ذلك الاسم الا ابتـداء من السنـــوات الاولى للقـرن الثالث ، وكانت ، الى ذلـك التاريـخ ، تابعـة فى الظاهـر الى الى افريقيـة البروقنصليـة ٠

لكن بما ان وجود فرقة عسكرية بولاية بروقنصلية او سيناتورية هو امر يتنافى مع القواعد التى سنها القيصر اغسطس ، وبما انه من الامور الشاذة والمخالفة للنواميس جعل البروبريطور ، المكلف من طرف الامبراطور نفسه بقيادة عسكرية هامة ، تحت حكم وسلطة البروقنصل الذى يعينه مجلس الشيوخ ، فلهذه الاسباب كلها ، وقع عمليا ، ابتداء من حكم قاليقولا ، اى مـن سنة ٤٠ ، الفصل والتمييز بين افريقية البروقنصلية الحقيقية وولاية آلاغا التى كانت جرت العادة بتسميتها (ولاية نوميدية) قبلما يقع الاعتراف رسميا بتلك التسمية

ففى تلك الولاية كان نفوذ آلاغـا الرومانـى (légat) او البروبريطور كاملا ومطلقا ابتداء من سنة ٤٠ ، ولم يكن يحاسبه احد على اعماله الا الامبراطور نفسه ٠ اما خضوعه لسلطة البروقنصل فكان مجرد خيال قبلما يقع الغاؤه نهائيا فى آخر القرن الثانى ٠ وكان البروبريطور ، زيادة عن القيادة العسكرية ، يضطلع بجميـع اعباء الوالى ، اى بالسلط الادارية والعدلية ٠

---

(١) هذه الكلمة اللاطينية (legatus = légat) هى اسـم مشتق مـن الفعـل (legare = léguer, déléguer) ، ولها معان مختلفة حسب المقام :

ـ السفير (ambassadeur) وهو ليس المعنى المقصود هذا

ـ فى عهد الجمهورية: القائم مقام (lieutenant) الذى يصاحب القائد الاعلى وهو ليس المعنى المقصود هنا ايضا ٠

ـ فى عهد الامبراطورية : الوالى (Gouverneur) المكلف بولاية امبريالية تابعة للامبراطور وبقيادة فرقة عسكرية (وهو المعنى المقصود هنا) وليس من المستبعد ان تكون كلمة آغا او لاغا ماخوذة من (légat) اذ تفيد كلتاهما معنى واحدا وهو « قائد فرقة عسكرية ٠ »

سكانها اصلهم من قدماء المحاربين الذين كانوا مع القائد المغامـــر
وكانت اقامته بمركز القيادة العامة بحيدرة اولا (Ammaedara)
ثم بتبسة (سنة ٨٠) ثم بلمباز (Lambèse) (سنـة ١٠٠)
(انظر اللوحة رقم ٩٣) و من تلك النقطة كان الآغا بروبريطور يدير
الولاية ، ويصدر الاوامر ، ويفود الفرق المستفردة لحماية الحدود ، نحو
(مسعد) غربا وعلى الليمس (limes) اى الحد الليبى والتونسى
جنوبا وشرقا ٠

وان قسما هاما من التراب الخاضع لنفوذه قد فقد منـذ زمـن
طويل صبغة الولاية العسكرية التى بقيت موجودة فى الجهة المتاخمـة
لاوراس ، وذلك القسم الهام هو الجهة القريبة من البحر والتى نجد
بها العاصمة النوميدية القديمة قرطة ٠ غير ان الحاق تلك الناحية
المدنية بمنطقة البروبريطور العسكرية له ما يبرره ، وهو ان معظم
سكانها كان اصلهم من قدماء المحاربين الذين كانوا مع القائد المغامر
سيتيوس (Sittius) وعمر بهم مدينة قرطة وبقية المدن المجاورة ،
فى عهد يوليوس فيصر سنة ٤٦ ق٠م ٠ ومن جهة اخرى فان هذه
المدن كانت تتمتع بقسط وافر من الاستقلال البلدى ، فى جهة هادئة
مطمئنة منصرفة نحو نشاطها التجارى ، الشىء الذى يجعلنا نفهم
ان وجود الآغا بروبريطور مع قواته العسكرية بجهة مطوحة بعيدة
فى الجنوب النوميدى كان امرا معقولا ومطابقا للوضعية فى ذلك التاريخ

٣ ـ **اما مريطانيا الشرقية او القيصرية** ، فهى كانت تمتد من
الوادى الكبير الى وادى الملوية ، وكانت تعرف بهذا الاسم نسبة الى
عاصمتها قيصارية (Caesarea) وهى شرشال اليوم ، وكانت
تسمى يول (Iol) فى عهد البونيقيين ٠ فهى حينئذ قطعة ضيقـة
قليلة العمق جنوبا يحصرها البحر شمالا ، والهضاب العليا جنوبا ٠
وكان الوالى والحاكم بها هو البروقيراطور او وكيل الامبراطور ،
فكان يجمع فى شخصه كل الامتيازات المدنية والعسكرية ، وكان
من مرتبة الفرسان فقط ، بينما كان البروقنصل او البروبريطور
من المرتبة السيناتورية او مرتبة الاعيان بمجلس الشيوخ ٠

٤ ـ **وكذلك مريطانية الغربية او الطنجية** التى كانت تمتد غربى
وادى الملوية الى المحيط الاطلسى ، فهى كانت كذلك تحت حكم وكيل
الامبراطور او البروقيراطور ، مثل ما هو موجود بمريطانية القيصرية
وكان ذلك الوالى يقيم بعاصمته طنجة

وهكذا قسمت حكومة رومة ارض افريقية الشمالية الى اربع ولايات
منفصلة ، وجعلت فيها ثلاثة اشكال مختلفة لنظام الحكم : البروقنصلية

والبروبريطورية ، والبروقيراطورية • ونحن نرى فى ذلك التقسيم ، وفى ذلك التنويع مظهرا من مظاهر الشعور بعدم الثقة والاطمئنان لا فى شان الرعايا ولا فى شان الولاة ، وهذا هو تطبيق المبـدا الاستعمارى العتيق : « فرق تسد ! »

ونحن نجد مثل ذلك تماما فى الاستعمار الفرنسى ، فان فرنسا قسمت شمال افريقية الى ثلاث مناطق : تونس والجزائر والمغرب ، وجعلت شكلين من نظام الحكم : شكل الحماية مع تسمية مقيم عام بالنسبة لتونس والمغرب ، وشكل المستعمرة مع تعييـن وال عـام بالنسبة للجزائر ، واقامت الحواجز والعراقيل لمنع كـل اتصال وتزاور وتعارف بين ابناء وشعوب تلك الاقطار ، فكان الواحد منا لا يرى الاخر الا فى البلاد الاجنبية وعلى الاخص فى باريس ، وهكذا فرقت فرنسا بدورها لتسود •••

ولو تاملنا الآن فى حالة الجماعات والافراد بداخل كل ايالـة لراينا نفس ذلك التنويع ، ونفس تلك المرونة :

ـ فان المدينة يمكن لها مثلا ان تكون **مستعمرة رومانيـة** (colonie romaine) ، اى ان يتمتع سكانها بجميع حقوق المواطنيـن الرومانيين ، فتعتبر تلك المدينة كجزء من رومة كائن وراء البحر ، ويعتبر اهلها كانهم رومانيون من صميم رومة •

ـ والمدينة التى ليست بمستعمرة ، يمكن لها ان تكون **بلديـه رومانية** (municipe romaine) ، ومعنى ذلك انها تكون على شكل المدينة المستعمرة ، لها انظمة ماخوذة عن انظمـة رومـة ، ولها مجلس بلدى فى شكل مجلس الشيوخ ، ولها حكام بلديـون من نوع القناصلة (duumvirs) ، ولها نظام الابنية والملاعب (édiles) ووكلاء المال (questeurs) مثلما هو موجود برومة تماما لكن الاملاك العقارية بهـذه المـدن لاتكون معفـاة من الضرائـب مثلما نراه فى المدن المستعمرة •

ـ والمدينة التى ليست لابمستعمـرة ، ولا ببلديـة رومانيـة ، يمكن لها ان تكون **بلدية لاطينية** (municipe latin) اى لها نفس الانظمة والمؤسسات الموجودة بالبلدية الرومانية ، لكن لايتمتع سكانهـا

الا بحق المدينة اللاطينية (droit de cité latine) اى بحقوق مدنية منقوصة بالنسبة لحق المدينة الرومانية (droit de cité romaine)

وخارج هذه الاصناف كلها ، توجد **البلدية الاجنبية** (communes pérégrines) ، وهي اجنبية بالنسبة لروما ، ولكنها اهلية بالنسبة الينا ، وحياة البلدية الاجنبية (او الاهلية) كانت تكتسى اشكالا مختلفة : فاحيانا يكون هناك شيخ قبيلة تكتفى رومة بالاعتراف بنفوذه على قبيلته ، واحيانا تستمر البلدية على النمط البونيقى ، وتكون السلطة حينئذ فى يد الاسباط (suffètes)

واحيانا تحدث رومة مجلسا بلديا جديدا يمكن ان يتطور فيما بعد ويصبح مجلسا بلديا من الصنف اللاطينى او الرومانى ...

فكانت هناك حينئذ درجات كثيرة بعضها فوق بعض ، وكان من الممكن لكل بلدية ان تتطور وتصعد او تنزل فى سلم تلك الدرجات حسبما تستحقه .

وبجانب هذا التنويع الكبير بالنسبة للجماعات ، نجد تنويعا آخر مثله بالنسبة للافراد ايضا . فان حالتهم ليست قارة وجامدة لاتتبدل ولا تتغير او ليست محددة بكيفية ثابتة ونهائية ومرتبطة بمرتبة البلدية التى ينتحون اليها ، بل يمكن لكل فرد ان يرتقى بفضل مجهوداته ووسائله الخاصة ، ويكون محل رعاية شخصية تسمو به فوق مستوى مواطنية ، فيمكن للغريب الاجنبى (بالنسبة لرومة طبعا !) ان يتمتع بحق المواطن اللاطينى ، ويمكن للمواطن اللاطينى ان يتمتع بحق المواطن الرومانى ، والمواطن الرومانى بدوره يمكن له ، اذا تفوق على اقرانه وامتاز على غيره فى الوظائف البلدية ، ان ينال من الامبراطور رتبة الفارس ، وان يحرز على تسميته فى وظائف الدولة ثم يزيد صعودا فى سلم المراتب الى ان يصير قنصلا او امبراطورا ، وهى اعلى المراتب ، وقد امكن لبعض المواطنين الليبيين ان يصلوا اليها مثل سبتيموس سافاروس

وبهذه الكيفية كونت رومة فى الافريقيين حركة ارتقاء وصعود نحو الحياة الرومانية ، وزرعت فى نفوسهم حب التزاحم ، وروح المنافسة والمباراة . وبذل الجهد ، للتدرج فى سلم المعالى والرقى .

والذى ينبغى ملاحظته هو ان رومة الامبريالية ، لم تتمكن من الاستيلاء على افريقية ، ومن استعمارها ، ومن احيائها الا بفضل اعانة الاهالى ومساعدتهم الفعالة ٠

ومن اهم الوسائل التى ضمنت بها رومة لنفسها مساعدة الاهالى تنظيم مسالة **تقديس الامبراطور** ، فكانوا فى كل مدينة افريقية يقيمون قداسا دينيا ، لا لتقديس شخص الامبراطور وذاته ، بل لتقديس الرمز الموجود فى وظيفته السامية ، وما تكتسيه تلك الوظيفة من صبغة الهية مقدسة ٠ وفى عاصمة كل ولاية كان يجتمع الشيوخ او مندوبو المدن المختلفة لاقامة مثل ذلك القداس الامبريالى

ونجد التعاون مع الاهالى ايضا فى الميدان العسكرى ٠

فان الجيش الرومانى سواء بافريقية او بغيرها من البلدان كان يتالف من عنصرين هامين :

١ ــ **الجوقة او فرقة الجوقة** (la légion) ولا يكون فيها الا المواطنون الرومانيون ٠

٢ ــ **الفيالق المساعدة** (les corps auxiliaires) ويكون فيها غير المواطنين من ابناء القبائل الافريقية او غير الافريقية التى ما زالت بعيدة عن كل حضارة وتمدن ٠ ويحرز الجندى المساعد فى الغالب على صفة المواطن الرومانى عند تسريحه من الجندية ، اى بعد ما يقضى ٢٥ سنة فى الخدمة العسكرية ، وهى مدة كافية لترمينه ٠

وان افريقية كانت بها جوقة عسكرية تتالف من ٥،٥٠٠ جندى مع سرية (cohorte) وهى عبارة عن عشر ذلك العدد (٥٠٠ جندى) يقع تسييرها الى قرطاج لتحفظ الامن ولتكون حرسا للبروقنصل ٠

اما الفرقة فهى كانت توزع على المراكز المختلفة بنوميدية مع جعل النواة الاصلية بمركز القيادة العامة بلمباز (Lambèse) ٠ وتنضم الى الفرقة الرومانية التى تتالف كلها من المشاة ، كتائب النوميديين وعساكر الرجالة ، وكان عددهم جميعا يقارب عدد جنود فرقة الجوقة (٥٠٠٠ رجل واكثرهم من الفرسان)

وفى مريطانية الشرقية ومريطانية الغربية لا نجد فرقة رومانية ، بل تتالف القوات العسكرية كلها من الفيالق المساعدة ، وجملة عدد رجالها ١٥٠٠٠ تقريبا ٠

اما البروقنصلية (اى البلاد التونسية) فهى كانت كما ذكرناه ولاية مدنية خالية من الجنود ، ولذلك كانت ، زيادة عن السرية

لـوحة ٧٨
(انظر صفحـة ٣٣٢/٣٣٣)



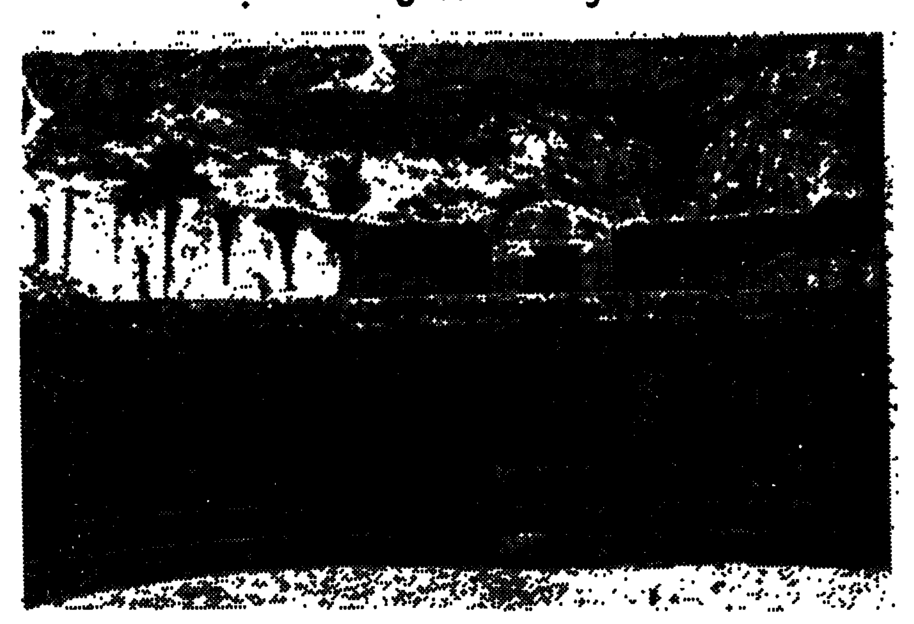


انصاب الاميال (صفحة ٣٣٣)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لــوحة ٧٩

انظر صفحــة ٣٣٠ من هــذا الكتــاب



معبدة المياه او (النتفية) بزغوان يظهر من وراء الحوض الكبير



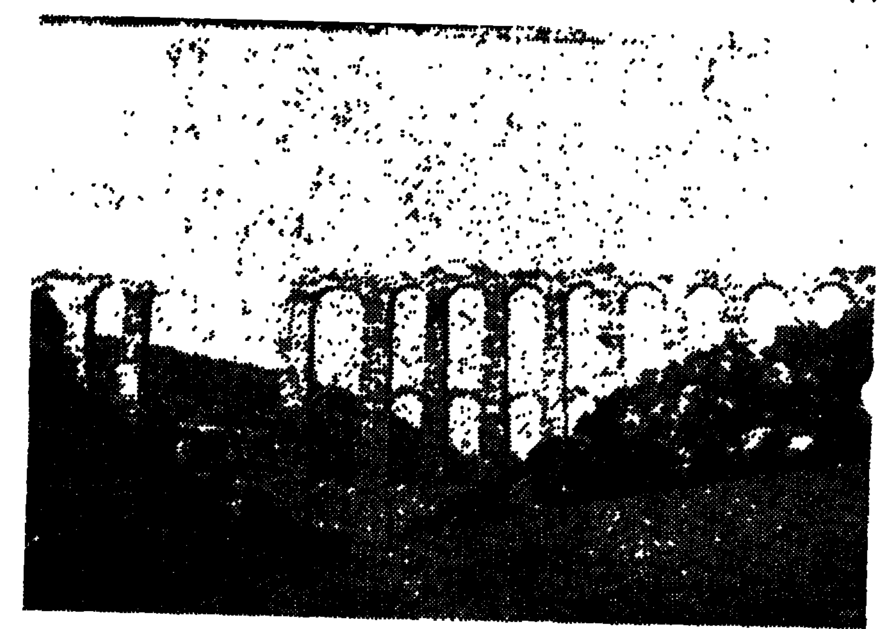
معبدة المياه او النتفية بزغوان ـ مدخل الخلوة

لـوحة ٨٠

(انظر صفحة ٣٣٠ / ٣٣١)



قناة جلب المياه من زغوان الى قرطاج (الحنايا) ـ ويظهر داخل تلـك القنـاة بالصورة الصغيرة واضحا



قناة شرشال (الحنايـا) بالجزائر

لوحة ٨١

(انظر صفحـة ٣٢٤ / ٣٦٠)



الاعمال الفلاحية فى عهد الرومان

هذه الحجرة المنقوشة وجدت بالجهة الكائنة بين مكثر وجامة وهـى تمثل الالة (SATURNE) الذى اخذ مكان بعل حمون القرطاجى ونرى ضمن هذه النقوش بعض الالات الفلاحية مثل المحراث البدائى (L'ARAIRE) الذى ما زال مستعملا عندنا بالبلاد التونسية ، كما تمثل هذه النقوش ايضا الحصاد بالمنجل كما هو موجود عندنا الان ••

الصغيرة التى اشرنا اليها ، لا تستخدم الا قوات الشرطة المكلفين بحفظ النظام بمدينة قرطاج ، وهذه القوات هى **الشحنة المدنية** (١) (cohorte civile) التى كانت ترسلها رومة الى قرطاج وتتالف من الف شرطى .

وهكذا نصل الى عدد ٠٠٠ ٢٧ رجل بالنسبة لكامل قوات الاحتلال بافريقية الشمالية

٥٠٠ ٥ جندى رومانى بنوميدية (الجوقة)
٠٠٠ ٥ من الفرسان والرجالة النوميديين ينضمون الى الجوقة
٠٠٠ ١٥ من الافريقيين بمريطانية الشرقية ومريطانية الغربية
٥٠٠ السرية بقرطاج (جنود رومانيون : حراس البروقنصل)
٠٠٠ ١ قوات الشرطة بقرطاج من الرومانيين

٠٠٠ ٢٧ الجملة

وهذا التجنيد كان احسن وسيلة للترمين واكبر سلاح لقمع الثورات وتوطيد الاستعمار الرومانى .

فالجندى ، بعدما يقضى خمسة وعشرين عاما فى الخدمة العسكرية خاضعا للنظام الرومانى ، متكلما باللغة اللاطينية ، ممتزجا بعادات وروح وافكار الرومانيين ، نراه يترمن بطبيعة الحال ، ويصطبغ بالصبغة الرومانية ، ويصبح بعد ذلك متعلقا اشد التعلق بذكرياته ، ومخلصا كل الاخلاص للرومانيين ، ولذلك تعتمد عليه رومة لقمع الفتن واخماد الثورات .

وهكذا كان الافريقيون يحفظون النظام والامن بافريقية لفائدة المستعمر الاجنبى ، وكانت رومة تستخدم الافريقى المترمن ليفرض الاستعمار ، او ما كانوا يسمونه بالسلام الرومانى ، على اخيه الافريقى الذى لم يجد الترمين اليه سبيلا . (انظر اللوحة رقم ٨٤)

وبالجملة فان الشىء الجدير بالملاحظة والاعتبار فى هذا النظام الادارى هو :

ـ الاقتصاد فى الوسائل المستخدمة من جهة
ـ ومرونة الطرق والاساليب المستعملة من جهة اخرى وهذا التدبير الادارى العجيب هو الذى مكن البلاد من ازدهار اقتصادى كانت تضرب به الامثال ، وهو ما سنحاول شرحه وبيانه .

---

(١) الشحنة : من اقامهم الوالى او الملك لضبط البلد وهم المعروفون بالبوليس

الحيـــاة الاقتصادية

كيف كان الاقتصاد قبل مجيء الرومان ؟

قبل مجيء الرومان ، اى فى العهد البونيقى ، كان الاقتصاد يرتكز على نوعين من النشاط : التجارة والفلاحة ·

فالتجارة هى التى كانت فى المكان الاول ، وكانت مطبوعة بطابع خاص ، وكانت من نوع مبتكر عرفت به قرطاج دون غيرها ، وانبنت عليه ثروتها الطائلة ، وكانت هذه التجارة تقتصر على ان يكون البونيقى جوال بحار ، و « جواب آفاق ترامت سفرته » ومخرت سفنه البحر طولا وعرضا ، وذلك لان القرطاجيين لم يكونوا اصحاب فن صناعى مثل الاغريق ، بل كانت مصنوعاتهم خشنة وخالية من كل جودة ، وكانت فى اكثرها مخصصة للاستهلاك المحلى ، وكان التجار البونيقيون يكتفون بان يكونوا عملاء نقل ، ومجهزى مراكب ووسطاء يحملون المواد الاولية او البضائع المصنوعة من جهة غير قرطاجية الى جهة غير قرطاجية اخرى ·

وفى المكان الثانى بعد التجارة نراهم قد اهتموا بالفلاحة وهو الشيء الذى دفعهم الى الاستيلاء على داخل البلاد التونسية والليبية · فضمنوا قوتهم ومعاشهم بزراعة القمح والشعير والزيتون والكرم والغلال والبقول · وكذلك النوميديون ايضا فانهم اهتموا بالامور الزراعية اقتداء بالبونيقيين ، وتحولت القبائل البدوية شيئا فشيئا من حياة الرعاة المتنقلين الى حياة الفلاحة المستقرين ·

التجارة فى عهد الرومان

هكذا كانت الحال لما استولت رومة على افريقية فتغيرت وضعية هذا الاقتصاد بالنسبة لذى قبل · فان هدم قرطاج ومرسى قرطاج انجر عنه انهدام التجارة البونيقية ·

وحتى بعد اعادة بناء قرطاج من جديد فى عهد القيصر اغسطس فان تجارة تلك العاصمة لم ترجع على الشكل الذى كانت عليه فى الماضى • فقد كان البونيقيون يمخرون البحر بسفنهم ، ويخططونه طولا وعرضا لنقل المواد الاولية والبضائع المصنوعة فى الخارج • اما فى عهد الرومان فقد صار كل جزء من العالم يعرف كيف يستغل ويستثمر امكانياته وموارده الطبيعية ،فلم يبق بعد ذلك داع لحمل المواد الاولية مثلا من اسبانيا الى بلدان الشرق ، او حمل البضائع المصنوعة من بلدان الشرق الى اسبانية ، وان التيارات التجارية لم تعد كذى قبل تخترق كل بلدان البحر المتوسط ، بل صارت تتجه كلها نحو نقطة واحدة مركزية ، وهى رومة • فاصبح مجهزو السفن والتجار بقرطاج او بغيرها من الموانى الافريقية لايقومون بعمليات البيع والشراء ولا يتعاملون الا مع ايطالية ، واحيانا مع اسبانية ، وصارت افريقية الرومانية لاتقيم ازدهارها على نقل السلع والمواد الاجنبية ، كما كان ذلك فى عهد البونيقيين ، بل صارت تكونه من منتوجاتها الخاصة ، واصبحت كل الولايات ، سواء البروقنصلية ، او ولاية نوميدية ، او ولاية مريطانية ملكا فسيحا مترامى الاطراف ، ينبغى احياؤه واستغلاله بتعاون متين بين السكان الاصليين والرومان المحتلين : وزيادة على تصدير المواد الغذائية والفلاحية فان افريقية كانت ترسل الى رومة المرمر النوميدى الرفيع باثمان باهضة ، والخشب النفيس وهو خشب العفص والسندروس والحجارة الكريمة ، هذا فى القرن الاول ، اما فى القرن الثانى فانها زيادة على تلك المواد النفيسه،صارت تستغل مناجم الحديد،والرصاص المحتوى على الفضة ، والنحاس ، وكانت تصدر كل ذلك الى رومة وكذلك ايضا كميات كبيرة من الحطب الصالح للبناء او لتسخين الحمامات •

وان النوميديين الذين حملهم ماسنيسا على النبات والاستقرار فوق اراضيهم هم الذين اصبحوا فى القرن الثانى والثالث من اغنياء الفلاحين ، يعيشون عيشة رومانية ، ويجودون على العالم الرومانى بالاباطرة • فان الافريقيين المشهورين بكثرة قابليتهم للاستيعاب والتمثل ، بمجرد اختلاطهم بالرومانيين ، ساروا بخطى سريعة فى طريق الحضارة والمدنية ، واصبحوا لهم خير اعوان لاحياء البلاد بالحرث والزرع •

الفلاحـــة :

يمكن ان نقول ، استنادا على الوثائق التى وقع العثور عليها ، بان الاستغلال الفلاحى تم على مرحلتين :

ـ المرحلة الاولى كانت مرحلة القمح ، ودامت الى آخر القرن الاول بعد المسيح ·

المرحلة الثانية كانت مرحلة الزيتون وبدات مع القرن الثانى بعد الميلاد

القمـــح

ان القرن الاول للميلاد يظهر كانه احتص بزراعة القمح · ويقول كايوس بلينيوس الاكبر (١) فى كتابه (التاريخ الطبيعى) ، وهو تاليف نشر سنة ٧٧ ، اى فى القرن الاول : « ان الطبيعة منحت ارض افريقية بتمامها وكمالها الى سيريس (٢) ، ولم تجعل الزيت والخمر من نصيبها ، بل ان كل سعادة البلاد فى الحصائد »

فمن غير شك ان هذا القول فيه شىء من المبالغة والمغالاة ، ولكنه لايخلو من حقيقة ، وهو على كل حال يدل على ان الحبوب ، وعلى الاخص القموح هى التى كانت الانتاج الاساسى فى ذلك التاريخ ، وكانت ترتكز عليها تجارة التصدير ، وكان الشعير خاصا باستهلاك الفقراء من الاهالى ، وكان شجر الزيتون والكرم حينئذ فى تراجع وتقهقر بالنسبة لعهد القرطاجيين ·

وكانت افريقية الشمالية ، وعلى الاخص البروقنصلية (اى البلاد التونسية) فى نظر الرومانيين ، تعتبر ارض حبوب ، حتى ان سالسطيوس كان ينعتها بقوله : « ارض خصبة تنتج الحبوب » (ager frugum fertilis) وكانوا يلقبون افريقية بمطمور رومة »

---

(١) كايوس بلينيوس الاكبر Caius Plinius = Pline l'Ancien : هو كاتب رومانى عالم بالتاريخ الطبيعى ، ولد بمدينة قومه سنة ٢٣ ، وهلك اثر توران بركان الفيزوف سنة ٧٩ ، وهى الكارثة التاريخية العظيمة التى اندثرت ودفنت فيها مدينتا هرقلانوم وبمبايوس · وهو مؤلف كتاب التاريخ الطبيعى فى ٣٧ جزءا ·

(٢) سيريس : Cérès هى الاهة الحصاد والفلاحة والزراعة عند الرومان تقابل (ديميتر) عند الاغريق ، ومن ذلك الاسم اتت كلمة céréales بمعنى الحبوب·

وان خصب ارض افريقية فى ذلك التاريخ كان مضرب الامثال وكان ناشئا عن كثرة وجود الفسفاط فى التربة بكيفية طبيعية حتى ان المؤرخين كانوا يقولون بان الحبة الواحدة كانت تنبت باقـــة مؤلفة من ٤٠٠ ساق

وبما ان بلاد ايطالية اقبلت فى ذلك الوقت على زراعة الاشجـار وتربية الحيوانات ، فان الحبوب اللازمة لمعيشة رومة صارت تاتيها من اقطار ماوراء البحار اى سردينية وصقلية وافريقية ، وهى التى كانت تسميها بولايات الحنطة او « الولايات الحنطية »(les provinces (frumentaires

وكان تموين العاصمة الرومانية بالقموح لمدة سنة كاملة يسمى بالحصة السنوية او «الانونة» (annone) وان جانبا كبيرا من القموح التى كانت تقدمها ولاية افريقية لفائـدة تلـك الحصة السنويـة او « الانونة » كان يطلب من السكان تحت عنوان ضريبة : فكان وكيل المالية (le questeur) الذى يمثل الدولة يتقاضى تلك الضريبة مـن المزارعين المكلفين باستخلاصها فى مقابل نسبة مائوية على الجبايات المتجمعة لديهم • وان جانبا آخر يقع اقتناؤه عن طريق الشراء • اما الاعشار التى تفرض على اراضى الرومانيين فهى تبقى ملك العشارين (les publicains) الذين اشتروها من حكومة رومة بالمزايدة، وبعد دفع الضرائب وخلاص الاتاوات فالباقى هو ملك الفلاح يتصرف فيه كمـا يشاء •

وكانت الدولة الرومانية لاتشترى القموح من المنتجين مباشرة، بل كانت تتصل بالشركات التى تتصرف فى الاعوان والمستخدمين والوسطاء ووسائل النقل اللازمة لعملياتهم التجارية ، فكانت الدولة تعقد معها الصفقات لتزويد العاصمة بكميات معينة من الحبـوب • ومن غير شك ان العشارين ،وكبار التجار فى القموح ، ومجهـزى المراكب ،كانوا فى الغالب يتشاركون ،واحيانا يختلطون مع بعضهم للاحتفاظ بالصفقات التجارية الهامة لالفائدة الحصة السنوية الرسمية فحسب ، بل حتى للتصدير لحسابهم الخاص والبيـع فى الاسواق الحرة برومة او بغيرها من مدن ايطالية • فالفلاحة الافريقيـة كان لها حينئذ رواج محقق واسواق مضمونة ، وكان المنتجون يربحون

ارباحا لا باس بها ، لكنها اقل بكثير من ارباح المضاربين والمحتكرين وتجار السوق السوداء الذين كانوا فى الغالب يتواطؤون ليفرضوا على الفلاحين اسعارا زهيدة . وعلاوة على القمح والشعير كانوا يزرعون بافريقية العلس او الخندوس وهو نبات يشبه القموح ، بالفرنسية l'épeautre ، وباللاطينية : (spelta (١) والكرسنة (بتشديد النون) وهو نبات له حب فى غلف تعلفه الدواب (la vesce)

وكذلك كانوا يزرعون النباتات الغذائية ، مثل : الحمص ، والسلجم (يشبه اللفت : (spelta) ، والفول والخرشوف ، والبطيخ ، والهليون (السكوم) ، والثوم والبصل ، والترفس ، والكمون وجميع انواع البقول

مواد غذائية اخرى

ان بلينيوس ، فى الواقع ، لم يذكر بعد القمح كثيرا من المواد الغذائية الاخرى الصالحة للتصدير ، بل اقتصر على ذكر التين مثلا وبعض . مار الاخرى كالرمان ، وبعض الفواكه النادرة والغريبة عند الرومانيين كالعناب والترفاس

الاشجار

اما الاشجار فهى كانت موجودة بكثرة ، اذ لم تسلم الطبيعة ارض افريقية كلها الى سيريس الاهة الزرع كماادعاه غلطا بلينيوس الاكبر فان القرطاجيين وغيرهم من الفنيقيين الذين استقروا بتلك الربوع لم يهملوا قط غراسة الكروم والزياتين واشجار التين والرمان ، وقد استمرت زراعة الاشجار كذى قبل تقريبا فى عهد الرومانيين فكنت تجد ببلادنا اشجار التين ، والرمان ، واللوز والاجاص والسفرجل ، والاترنج ، والجوز الى غير ذلك غير ان الشىء الذى كان يهيمن على الميدان الفلاحى طيلة القرن الاول هو اهتمام الحكومة الرومانية اهتماما زائدا بزراعة الحبوب وحث الفلاحين ، واحيانا

---

(١) العلس : يقول الافصاح فى فقه اللغة : « العلس حنطة جيدة سمراء عسرة الاستنقاء جدا ، لا تنقى الا بالمناحيز وهى طيبة الخبز يجىء دقيقها خشنا ، وسنبلها لطاف ، وهى مع ذلك قليلة الريع ، وقيل العلس مقترن الحب حبتان حبتان لايتخلص بعضه من بعض حتى يدق بالمواجن وهى المهاريس ، وهو كالبر ورقا وقصبا . »

جبرهم وارغامهم ، على الاقبال على تلك الزراعة فكانت توجه نشاطهم نحو ما كان يوافق ويفيد مصالح رومة ٠

الزيتـــون

اما في القرن الثانى فان القمح لم يبق متفردا بالمكانة الممتازة دون غيره ، بل صار الاهتمام منصرفا على الاخص نحو زراعة الزياتيـن والكروم ،وذلك لعدة اسباب منها ترك حرية الاختيار للفلاحيـن ، وكذلك شدة احتياج رومة للزيت والخمور ، فزال تفوق القمـح ، وتعادلت بافريقية اهمية هذه الزراعات المعتبرة اساسية بالنسبة للعالم القديم ، وهى الحبوب ، والزياتين والكروم واصبحت كميات كبيرة من الزيت تصدر الى رومة لاستعمالها فى الاكل ،والاستصباح والتجمل وقت الاستحمام ٠ وان كثرة الجرار التى وقع العثور عليها فى كل مكان بالعالم الرومانى ، وكذلك كثرة اطلال المعاصر القديمة المنتشرة بافريقية تقيم الدليل على كثرة وجود الزيتون والزيت فى ذلك العهد (انظروا صورة اطلال معصرة مادوروش ببلاد الجزائر)

تربيـة الحيوانـات

كانت تربية الحيوانات تشمل الافراس المغربية ، والبغال والحمير والبقر والاغنام والمعيز وانواع الطيـور من دجـاج واوز ، وبـط وحمام وغرغر وكذلك خلايا النحل لانتاج العسل الرفيع

اما الجمل فهو لم يظهر الا فى آخر القرن الثانى ٠ وكانت افريقية تزود رومة كالعادة بالحيونات الضارية وعلى الاخص الاسود والنمور والفهود والادباب لاستعمالها فى المسارح والملاعب ٠ ففى عهد القيصر اغسطس قتلوا منها ٣٥٠٠ فى حفلة دامت ٢٦ يوما ٠ ولذلك كانت هذه الحيوانات تعرف عندهم بالحيوانات الليبية او الافريقية

وكانوا يصطادون الافيال ، الى ان اضمحلت تمامـا من بلادنـا فكانوا يستعملونها ايضا فى الملاعب ، وللطبخ لان اربـاب الذوق اللطيف والخبراء بالاطعمة الفاخرة يجدون لذة كبيـرة فى اكـل عراضيف خرطومها ، ويستفيدون من انيابها اى من عاجها ٠

الصناعـة :

اما الصناعة فهى ، علاوة عن الاشياء اللازمة للاستهلاك المحلى

كاانت تهتم بكل ما هو صالح للتصدير من مواد اولية كالمرمر ، والاخشاب الرفيعة ومعادن الحديد والرصاص كما تقدم ذكره ، ومن مصنوعات كالانسجة • وكانت هنالك ايضا معامل لدبغ الجلود (مثل تيبازة بالجزائر) ، ومعاصر لاستخراج الزيت مثل معاصر ماداوروش (انظر اللوحة رقم ٧٥) ، ومصانع لنسج وصبغ الاقمشة الارجوانية واشهرها المصنع الذى انشاه يوبا الثانى بجزيرة تجاه مدينة السويرة (Mogador) وكانت هذه الجزيرة تعرف باسم جزيرة الارجوان (Purpurariae insulae) تسكنها بعض قبائل جدالة (Gétules) ، وقد اخذ ارجوان جدالة وكذلك الاقمشة المصنوعة والمصبوغة بذلك الارجوان شهرة عظيمة وصيتا بعيدا فى رومة كما تدل عليه الابيات التى تغنى بها هوراسيوس(Horace) واوفيديوس (Ovide) فى ايام القيصر اغسطس ، وما قاله غيرهما من بعدهما •

ولكن هذه المعطيات الاخيرة التى ذكرناها لاتفقد افريقية طابعها الاصلى ، ولا تغير شيئا من صبغتها الحقيقية التى تجعلها بلادا فلاحية قبل كل شىء ، وان اهتمام رومة كان متجها نحو انماء الثروة الفلاحية بها اكثر من انشاء المعامل او التفتيش عما فى بطن الارض من مناجم ومعادن •

وقد اعتنت رومة على الاخص بمسالة المياه ومسالة الطرقات •

مسالة الميـــاه

ان كثيرا من الاعمال المتعلقة بالمياه قد وقع القيام بها من زمن القرطاجيين ، وكان لرومة الفضل فى تعهد وصيانة ما وجدته وفى انشاء اعمال جديدة اخرى كانت جزيلة الفائدة عظيمة الاثر •

فهى قد شيدت على الاخص القنوات لجر المياه وجلبها الى المدن ، وبنت الصهاريج لخزنها بالمزارع ، وفجرت الآبار الارتوازية بالواحات

وكان الرومانيون ينشؤون مدنهم ومراكز استعمارهم فى الغالب قرب العيون •

وكانوا يعتنون كل الاعتناء بنوع من البناءات الفخمة تعرف عندهم باسم « النتفيات » (nymphæum = nymphée) كانوا يزخرفونها ويزوقونها بأبدع انواع الزينة ، ويجلبون اليها المياه بواسطة القنوات (aqueduc) فيجعلون فيها عينا فوارة يكرسونها (اى يخصصونها) « للنتف » (nymphe) وهى الاهة المياه او ابنة الماء ، وكانوا يستعملون ذلك المكان الفاخر ، فى آن واحد ، كمعبد ومستودع للماء ، ومحل للاجتماع والمذاكرة ، او للسكون والاستراحة وكانت « النتفية » تلحق احيانا بقصور العظماء او بالحمامات (١)

وبما ان مستودع الماء (او الحاووز) (٢) كان اهم جزء فى «النتفية» صرنا نسمى احيانا « النتفية » حاووزا ، او الحاووز « نتفية » باقامة البعض مقام الكل او الكل مقام البعض •

فمدينة لمباز (Lambèse) كانت فيها « نتفية » زالت تماما واندرست آثارها ، وبمدينة تيبازة (Tipasa) ، بين الجزائر وشرشال كانت توجد ايضا « نتفية » فيها عين فوارة يتسلسل منها الماء ويجرى فى حدور على درج ، بين اعمدة من المرمر • وقد وقع كشف الغطاء عن تلك العين البديعة سنة ١٩٥٠ ، وهى تعتبر من اجمل واروع الآثار الموجودة من ذلك النوع بافريقية الشمالية ، والحاووز الذى تنتهى اليه القناة كان يبدو فى شكل نصف دائرة طولها ٢٤ مترا من الامام •

وكانت عين الماء تمر احيانا من تحت قوس النصر بعد خروجها من « النتفية » او من الحاووز ، كما كان ذلك بحمام الدراجى (Bulla Regia) او بهنشير سيدى خليفة بالنفيضة (Aphrodisium)

واهم واعظم قناة رومانية اقيمت بالبلاد التونسية هى المعروفة

(١) لا يستبعد ان يكون اسم حمام الانف فى الاصل : حمام (النتف) اى حمام الحوريات (Thermes des Nymphes) لا كما يقولون : حمام عضو الشم المعروف وهو (الانف) •

(٢) الحاووز (Château d'eau) : من حاز الشىء اى ضمه وجمعه : هو مستودع المياه تجتمع فيه ثم توزع فى امكنة عديدة •

عندنا بحنايا قرطاج (١) ، وكانت تجلب المياه من عين جارية بسفح جبل زغوان (Mons Zeugitanus) ومن عين اخرى تبعد عنها بنحو ٤٠ كم وهي عين جوقار في سفح جبل سعيدان على مقربة من دشرة ابن سعيدان ، وهي عين ما زالت الى اليوم تزود الحاضرة بمياهها ٠ (انظر اللوحة رقم ٨٠)

واطلال « النتفية » او معبد الاهة العين بزغوان توجد بمكـان يسميه الاهالى (عين القصبة)

وان هذا المعبد (معبد المياه) لالطف واظرف بنايـة بافريقيـة الشمالية، يكنفه صدع عريض يشق الجبل شقا ٠ (انظر اللوحة رقم ٧٩)

فمن وراء الحوض البيضى الشكل الذى يجمع مياه العين ليصبها فى القناة ، يرتفع معبد المياه او « النتفية » فى شكل نصف دائرة عرضها ٣٠ مترا ، وهى مقامة على مصطبة مسطحة ، ومسندة الى حائط سميك وفى وسط ذلك التجويف اقيم المعبد فى شكل كوة معقدة (اى ذات عقد او قوس) وكان فى القديم يوجد فيها تمثال الاهة العين والمياه والامطار : « النتف جونن (Junc pollicitatrix pluviarum) وهذا المعبد ينقسم الى قسمين : الدهليز تعلـوه قبـة ، والخلوة او المقصورة (la cella) (١) حيث كانت ربة العين

---

(١) الحنية ج الحنايا (من البناء) : ما كان منحنيـا كالقوس ، وسميت تلك القنوات بالحنايا لانها كانت مقامة على الاقواس ٠ وكان يبلغ ارتفاعها احيانا ٢٠ م٠ لما تقطع وادى مليان ٠

وان هذه الحنايا وقع بناؤها حوالى سنـة ١٣٦ فى عهـد هادريانـوس ، ثم وقـع اصلاحها مرة اولى فى عهد سبتيموس سافاروس ، وبعد ذلك ، فى سنة ٤٣٩ ، الحق بها الوندال اضرارا جسيمة ، فاهتم بليسار بترميمها بعد ما طرد الونداليين ٠ ثم تهدمت وتعطبت من جديد فباشر الخلفاء الفاطميون (العبيديون) اصلاحها ٠ وتهدمت ايضا سنة ١٥٧٤ ، واعاد محمد باى ترميم البعض منها بواسطة مهندس فرنسى وتم ترميمها كلها سنة ١٨٧٣ ٠ ونحن لا نعرف من هو المهندس الذى اراد تعويض الحنايا التى تمر بوادى مليان وذلك باستعمال ممص (siphon) واتخذ هذا السبب الواهى عذرا لتهديم الحنايا الجميلة فى ذلك المكان وتخريبها ٠ فكان ونداليا اكثر من الونداليين ، فاين تلك الحنايا الرائعة من الممص الحقير الذى وضعـه ذلك المهنـدس فكان حقيقة من المفسدين الذين لا يقدرون الفن حق قدره !

(١) الخلوة او المقصورة (la cella) : المكان المخصص بالمعبد لاقامة تمثـال اله او الاهة ، ويسميه الرومانيون « cella » باللغة اللاطينية ، كما نقـول بيت « الصلاة » او « المصلى »

وعلى يمين المعبد وعلى شماله رواقان ، كل واحد منهما مرتكز على ١٣ عمودا كورنتسيا ، وكذلك كوات اخرى كثيرة رتبت ودبرت بمهارة فى الجانب الداخلى وفى الحواجز وكانت تاوى تماثيل مختلفة وفى الجانب الخارجى درجات يقع النزول بواسطتها الى الحوض ٠

هذا فيما يتعلق « بالننفية » ، اما الحنايا فهى كانت تجتاز اراضى متشعبة ترتفع تارة وتنخفض اخرى ، وذلك على مسافة ٩٠ كيلومترا ٠ وقناة الحنايا مسقفة بغطاء عقدى الشكل فيه ثقوب للتهوية والتنظيف وهى تعطى ٤٠٠ ليترة فى الثانية او ما يقرب من ٣٥ مليونا من الليترات فى اليوم ٠ ويصل الماء الى صهاريج المعلقة (Citernes de la MALGA) وعددها اربعة ٠ وهذه الصهاريج كانت تمتلىء فى البداية بمياه الامطار ، ثم فى القرن الثانى اثر عام كان فيه الجفاف شديدا ، امر الامبراطور هادريانوس (١١٧ / ١٣٨) ببناء القناة او الحنايا لجلب المياه من عين زغوان ومن عين جوقار الى تلك الصهاريج ، ومن ثم تتفرع لتزود الاحواض العمومية والينابيع والحمامات وغير ذلك ٠٠٠

واعظم قناة بالجزائر هى حنايا شرشال وطولها ٢٨ كيلو مترا ، تجتاز واديا (اى منفرجا) بواسطة جسر كبير يبلغ ارتفاعه ٣٥ مترا ، يتالف من ١٧ حنية ذات ثلاث طبقات (انظروا اللوحة رقم ٨٠)

وقد اهتم الرومانيون كل الاهتمام بمسالة السقى والرى ٠ فانهم اقاموا الاسداد فى الشعاب لحبس المياه ، واقاموا الحواجز لتوجيهها نحو السهول ، ثم نظموا مجموعات من الجداول والسواقى والقسامات لتوزيعها بين الحقول ٠

ولمنع سيل المياه فوق المنحدرات استعملوا طريقة الزراعة حسب رصفات او مدرجات(terrasses ou paliers)تعطل اندفاع المياه، وتثبت التربة الصالحة للحراثة ٠ وان آثارها ما زالت موجودة يمكن رؤيتها بالطائرة فى الجبال المحبطة بسهول زغوان والنفضية ، او بجبل ابن يونس قرب قفصة ٠

وبالجملة فان تدبير المياه كان اهم عمل قامت به الدولة الرومانية فى افريقية الشمالية

ـ الطرقات

من اكبر عوامل الازدهار الاقتصادى بافريقيه فى عهد الرومان اتساع شبكة طرقاتها التى مازالت بعض آتارها ظاهرة • وان الكثير من هذه الطرقات كان من انجاز اليد العاملة العسكرية • ونذكر منها :

ـ الطريق المؤدية من حيدرة (Ammaedara) الى قابس (Tacapas) ولبدة (Leptis Magna) وقع إحداثها سنة ١٤ بعد الميلاد

ـ الطريق الرابطة بين تبسة (Theveste) وعنابة (Hippo Regius) فى عهد آل فلافيانوس (٦٩/٩٦)

ـ الطريق الذاهبة من تبسة (Theveste) الى تيمقاد (Thamugadi) وقع احداثها فى عهد تراجانوس (٩٨/١١٧)

ـ الطريق من قرطاج الى تبسة ولمباز ، فى عهد هادريانوس (١١٧/١٣٨)

ـ الطريق من ستيف الى سور الغزلان (Auzia = Aumale) وقع الشروع فيها فى عهد هادريانوس ايضا • • •

وكانت شبكة الطرقات كثيفة خصوصا بالبروقنصلية (اى البلاد التونسية) • وكانت قرطاج نقطة الانطلاق ، فتذهب منها :

طريقان نحو عنابة احداهما بجانب الساحل ، فتمر من بنزرت وطبرقة وقالة ، والاخرى بجانب ضفة مجردة اليسرى وتمر من طبربة (Thuburbo Minus) وحمام الدراجى (Bulla Regia) وشمتو (Simitthu)

ـ طريق الى تبسة طولها ٢٧٥ كيلومترا وكانت من اهم الطرقات ومحل عناية خاصة ، تمر من مجاز الباب (Membressa) وتستور (Tichilla) وعين تنقع (Thignica) وتبرسق (Thubursicu Bure) والكاف (Sicca Veneria) ومدينة (Althiburos) وحيدرة (Ammaedara)

ـ طريق الى لبدة تمتد والساحل على مسافة طولها ٨٢٣ كيلومترا وتمر من السوق البيضاء (Pupput) وسوسة (Hadrumète) وطرابلس (Oea) ولبدة (Leptis Magna)

ـ طريق نحو شط الجريد تنتهى الى قابس (Tacapas)
ومن غير شك كانت الجسور كثيرة :

ـ فان الطريق التى تخرج من مدينة القنطرة (El Kantara) الكائنة

بجنوب الجزائر ، ما بين بسكرة وبطنة ، تدخل فى الصحراء من فج بديع رائع كانه باب من ابواب الجنوب يسميه الجزائريون « فم الصحراء » ، ويسميه الكاتب والرسام الفرنسي فرومنتان (Fromentin) ١٨٢٠/١٨٧٦ «باب الذهب» ويسميه الرومانيون «حذاء هيراقليس» (Calceus Herculis) اشارة الى الاسطورة القائلة بان ذلك الفج كان فتحه هيراقليس لمان ضفن الجبل (اى لما ضربه برجله) . والذى يهمنا الان من ذلك هو ان هذه الطريق تمر من هناك فوق جسر رومانى له قنطرة (اى حنية) طول انفراجها ١٠ امتار وعرضها ٥ امتار ، وله عقد ذو ثلاثة عروق (اى ثلاثة خطوط ناتئة ومستديرة) وبه رسوم فى شكل الورود ، وراس فرس منقوش على الغلق (اى على الحجر المجعول فى وسط العقد) (انظر اللوحة رقم ٧٧)

- **اما جسر باجة** المعروف باسم «جسر تراجانوس» (Pont de Trajan) فهو مقوس بعض التقويس فى شكل « ظهر حمار » طوله ٧٠ مترا وعرضه ٧،٣٠ م ، وهو يمر على وادى باجة فوق ثلاث حنايا ويحمل الطريق الذاهبة من قرطاج الى عنابة عبر حمام الدراجى (Bulla Regia) وقد كان بناؤه فى عهد تيباروس سنة ٢٩ ، اما تسميته بجسر تراجانوس فهى لا ترتكز على شىء صحيح . . .

- وجسر شمتو الذى يقطع وادى مجردة لا يبلغ طوله الا ٥٠ م فقط ، ولكن له خمس حنايا .

- وهناك جسر آخر على وادى جلف قرب فم العفريت بشمال القيروان له سبع حنايا ، ومنه تمر الطريق الذاهبة من قرطاج الى قابس ، والملاحظ ان دعائم هذا الجسر مسلحة بصفائح مبنية لكسر فوة التيار (انظر اللوحة رقم ٧٧)

- <u>انصاب الاميال</u> (Bornes milliaires) : لقد زالت غالب الطرقات الرومانية

ولم يبق منها الا آثار قليلة الاهمية ، لكن الشواهد والادلة التى رسم بها الرمانيون طرقاتهم بعد كل ١٤٨٠م لبيان مسافة الاميال . وقد عثر على كثير من هذه الانصاب او الاعمدة وعليها ارشادات هامة تتعلق بالمسافات واسماء الاماكن والاباطرة .

- فيوجد نصب بمتحف الاثار بمدينة الجزائر ارتفاعه ١،٥٠م نقش عليه تكريم اللمدانيين ، اى سكان لمدية القديمة (Lambdia) وهى المدية الان (Médéa) جنوب الجزائر موجه منهم فى سنة ١٩٨ بعد الميلاد الى الامبراطور سبتيموس سافاروس (١٩٣/٢١١) .

- والعمود الموجود بحديقة قسنطينة يبلغ ارتفاعه ٢،٣٣م . ونقش عليه تكريم على شرف الاباطرة : ايلاقابال (٢١٨ / ٢٢٢) ، واسكندر سافاروس (٢٢٢/٢٣٥) وكذلك المسافات من فج الصيود (Vatari) بمقاطعة قسنطينة الى قرطاج وعنابة ، ولميلاز ، وتبسة (انظر اللوحة رقم ٧٨)

نظام الاراضـــى والحياة القرويـــة

ـ الضيعات الصغيرة

ان صغار الفلاحة من الاهالى كانوا موجودين بكثرة ، حتى قبــل الاستيلاء الرومانى ، سواء بالاراضى القرطاجية او بالبلاد النوميدية ولما اتت رومة تركتهم فى اراضيهم واموالهم وارزاقهم ، واكتفـــت بمطالبتهم بدفع الضريبة العقارية •

وزيادة عن ذلك اخذت رومة جزءا من الارض التى صارت ملــك الدولة (اما لانها كانت كذلك فى عهد البونيقيين ، او لانها كانت املاكا خاصة للطبقة الارستقراطية القرطاجية او النوميديه فصادرتها رومة وقت الاحتلال) وقسمته الى ضيعات صغيرة وزعتها على قدماء المحاربين ، مثل الذين عمروا مدينة ستيف او جميلة او تيمقاد • وكان مثل ذلك موجودا بكثرة فى نوميديــة ومريطانيــة اكـثر من البروقنصلية .(اى البلاد التونسية)

ـ الضيعات الكبيرة (latifundia : الجمع — latifundium)

اما الضيعات الكبيرة فقد تكونت فى الغالب بعد الاستيلاء الرومانى فمن غير شك كانت هنــاك ايضــا **املاك كبيــرة عنــد القرطاجييــن** والنوميديين ، غير ان الاسر التى كانت بيدها تلك الضيعات والتى كان بيدها فى الوقت نفسه **زمام الحل والعقد ، هى التى تحملت عبء الحرب ، زمن الاحتلال** ، ونالتها العقوبات والمصادرات •
ويمكن ان نقول بان الاراضى ، فى بداية عهــد الاحتلال ، كـانـت **مقسومة بين صغار الملاكة من الاهالى الذين ابقتهم رومة فى اراضيهم ، وبين ملك الدولة التابع للشعب الرومانى** •
فاخذت رومة جزءا من ملك الدولة وقسمته واقطعت كما ذكرنا

قدماء المحاربين والفلاحة « المعمرين » كل تلك الاراضى ، واحتل افراد الطبقة الارستقراطية ضيعات عريضة واسعة بتساهل وتسامح الحكومة الرومانية ، والقسم الذى لم يقع الاستيلاء عليه من طرف هؤلاء الاغنياء واستمر ملك الدولة ، اصبح ، فى عهد القياصرة ، ملك الامبراطور (Saltus) ولذلك كان اصحاب الاراضى والامـلاك فى العهـد الامبريالى على ثلاثة درجات :

- الملاكة والفلاحة الصغار ، على الاخص بنوميدية ومريطانية
- الملاكة الكبار ارباب الضيعات الواسعة على الاخص بالبلاد لتونسية
- الملاك الذى هو اكبر من الجميع وهو الامبراطور

وكانت الضيعات الصغيرة تبتلعها تدريجيا الاملاك الكبيرة بتكديس وضم رؤوس اموالها ، وكانت بعض الاملاك الكبيرة تدخل مـن حين لآخر ضمن ملك الامبراطور اما بسبب انقراض اصحابها او بسبب مصادرتها تنفيذا لاحكام صادرة

وكان الملاك الصغير يقيم بارضه ويحرثها ويباشرها بنفسه ، اما الملاك الكبير فكانت اقامته فى الغالب بروما ، مثل الامبراطور نفسه او بجهة اخرى من جهات ايطالية ، وكان يتعاقد مع مزارع بكريه ارضه او مع شركة المزارعين فيجعل فيها هذا المزارع فلاحا مستاجرا هو « المعمر » فيقيم فيها ، وتتوارثها ابناؤه من بعده ، ويقوم بخدمتها واستغلالها على ان يكون للمزارع او لشركة المزارعين نصيب من غلتها . وكان المزارع احيانا هو العشار (publicain) وجمعيـة المزارعين هى شركة العشارين ، يضمنون لانفسهم العشر بمال معين يدفعونه للحكومة فى مقابل تمتعهم بذلك الجزء من الريع .

ذلك هو النظام الذى كان مطبقا على الاراضى الممتدة بجهات وادى مجردة ودقة وسوسة وطرابلس ، وبجهات عنابة وتبسة .

وكان وكيل املاك الامبراطور عبارة عن عون من اعوان التنفيـذ مكلف بمراقبة الاعمال والحرص على احترام ما جاء بكراسة الشروط من طرف المزارع او الفلاح المستاجر ، ولو ادى ذلك الى ارغامهـم وجبرهم على الطاعة بالسياط والمقارع والعصا او بالسجن .

وبالجملة فقد كنا نرى الاصناف التالية :

- صغار الملاكة من الاهالى او قدماء المحاربين

ـ مزارعين (افرادا او شركات قوية)

ـ عددا كبيرا من المستاجرين او المعمرين يستغلون اراضي كبار الملاكة او اراضي اكبرهم وهو الامبراطور ويدفعون نصيبا من الغلة اما للمزارعين (افـرادا كانـوا او شركـات) واحيانـا لوكيـل امـلاك الامبروطور مباشرة وبدون واسطة

ـ عمالا يشتغلون بالمياومة واكثرهم بدون مقر ثابت ٠

حياة اصحاب القصور كما تحكيها الفسيفساء (١)

ان احسن الآثار التي ترشدنا الى ما كانت عليـه حيـاة الطبقـة الارستقراطية من الاهالي ارباب القصور الريفية ، هي الفسيفساء التي كانت تزين منازلهم



ـ ففي طبرقة وقع العثور على ثلاثة مناظـر فسيفسائية تمثـل الصورة الموجودة في الوسط مسكنا في شكل برج لرب المحل وقع بناؤه في آخر الساحة واقيم بجانبه برجان بشكل مربـع وسقف هرمي يصل بينهما رواق ذو اقواس ، وحول ذلك المسكن حديقـة للتنزه وروضة مزينة بالازهار ترفرف فوقها الطيور ويتبختر فيها

(١) نقلا عن كتاب تاريخ افريقية الشمالية لشارل اندري جوليان ٠

التدرج الجميل ، بينما يغوص البط والاوز في ماء الغدير .

والصورة الموجودة عن اليمين تمثل اسطبلا كبيرا وسط الكروم والزياتين ، تظهر من ورائه هضبة تقع عليها طيور من الحجلان . وفي الامام فرس يؤكدف (اى يرفس الارض بحوافره) وراعية تغـزل الصوف بمغزلها تحت ظل السروة ، وهي في الوقت نفسه تراقب خرافانهـا .

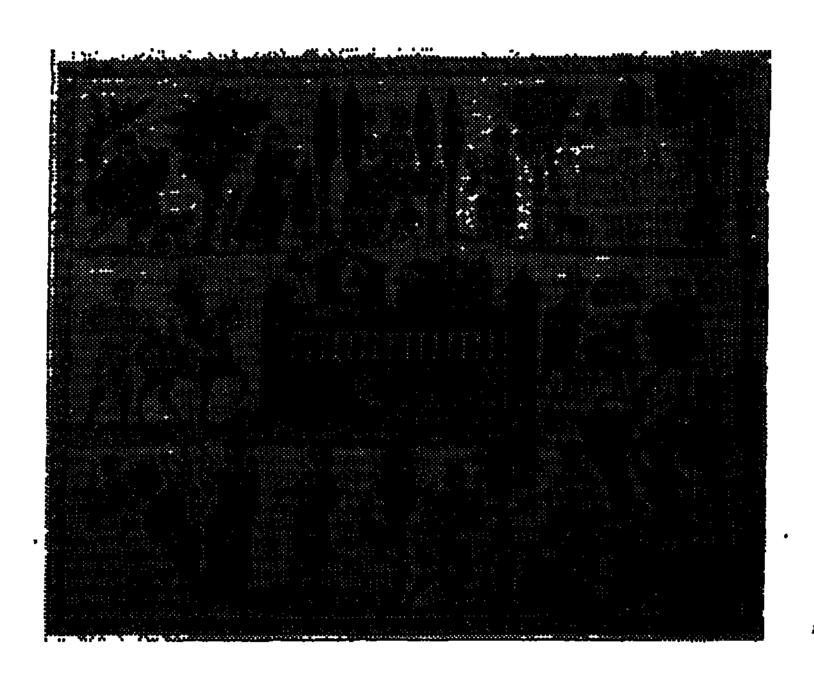
والصورة الموجودة عن اليسار تمثل بناية واسعة هي بدون شك مخازن الزيتون ومستودعات دنان الخمور ، وامامها زريبة الدواجن وبركـة الاسمـــاك .

كل ذلك يشير الى اقطاعية هامة منظمة ومدبرة لانتـاج الخمـــر والزيت ، ولتربية الخيل والماشية والطيور الداجنة



ووجدت فسيفساء بوذنة تمثل مناظر عرضية مختلفـة : تمثـل سارحا متوكئا على عصاه امام عتبة دار المعمر ، يرعى قطيعا مـن الخرفان والمعيز والبقر ، وبالقرب منه نرى فلاحا يدفع محراثا يجره ثوران ، وتمثل الصورة في وسطها رجلا يملا جرنا فيخرج المـاء من البئر بواسطة « عود البئر » اى الرافعة ، ونرى فرسا يشرب من

ذلك الجرن وحمارا يتقدم ببطء تحت ضرب العصا ، وحول ذلك كله مناظر تتعلق بالصيد : فنرى ثلاثة فرسان يحملون على اسد ، ورجلا كامنا ومستترا تحت جلد عنزة يترصد الحجلان ، وآخرين يتغلبون على خنزير برى ويطعنونه بحربة صيد ٠



اما الفسيفساء المتعلقة « بالسنيور يوليوس » والتى وقع اكتشافها بقرطاج سنة ١٩٢٠ ، فهى تمدنا بارشادات قيمة حول ترتيب ضيعة كبيرة وحول اشغال اهلها : ففى الوسط نرى قصرا فخما ذا ابراج ورواق معمد ، وقد جهز كالقلعة او الحصن لدفع الهجومات ورد الغارات ، وتحيط به حدائق فيها اشجار السرو والنخيل ، ورياض وبساتين تقع فيها العناية بزراعة الزياتين والحبوب بدون اهمال الكروم وتربية المواشى ٠ ويراقب السيد يوليوس كل الاعمال من مكانة المرتفع ٠ وهو يبذل كل مجهوداته فى الصيد مع اتباعه وحاشيته وخدمه وكلابه ٠ اما زوجته ، المعروفة بلباسها الفاخر وحليها الثمينة ، فهى تميل كثيرا الى الجلوس والاستراحة فى النسيم على مقعد البستان ، فتقضى ساعات طويلة

وهى تروح بمروحتها ، وتاكل الثمار المبردة وتتفرج على الهرج والهيجان المستمر بالزريبة ، وتتقبل بسرور ظاهر بواكير الازدهار وغلال الارض ونتاج الحيوانات •

فان رب هذا البيت وقرينته يعيشان عيشة الاغنياء المترفين » وفى خدمتهم جم غفير من الاعوان والفلاحين يبذلون كل ما فى وسعهم لاجابة رغباتهم قبل التعبير عنها ولتنفيذ اوامرهم بمجرد الاشارة ، وهم يكدون ويعملون كامل يومهم ولكنهم يعيشون فى البؤس والشقاء ساكنين فى اكواخ حقيرة •

حيـاة الطبقـة الفقيـرة

ان هذه الالواح من الفسيفساء تصور لنا ما فى خدمة الارض من كد وعناء • فليس هؤلاء الاقطاعيون الكبار هم الذين احيوا الاراضى وكونوا منها ثروتهم الطائلة ، بل الذى كون وانتج هو الفلاح الصغير اى من كان يملك قطعة صغيرة من الارض، او كان مستاجرا او عاملا فلاحيا يشتغل فى ضيعة كبيرة تابعة للارستقراطية الرومانية اوالاهلية

وهؤلاء الاقطاعيون الاغنياء الجبابرة وفى مقدمتهم الامبراطور نفسه ، فهم كانوا لايعيشون فوق اراضيهم ، بل كانوا يقيمون بالمدن الكبيرة وكانوا يكلفون النظار والوكلاء بمراقبة املاكهم والاهتمام بمصالحهم •

وفى بعض الاحيان يصبح الفلاح الفقير غنيا وصاحب املاك مثلما وقع لرجل حصاد بسيط كان يعيش بمدينة مكثر وهو الذى حكى لنا حياته فقال :

« انى ولدت فى اسرة فقيرة ، وكان والدى لايملك دخلا ولا مسكنا، فكنت من يوم ولادتى اخدم ارضى فلا ارتاح انا ، ولاترتاح هى • وعندما ياتى زمن الحصاد ، ويذهب الحصادون الى قرطة عاصمة النوميديين للعمل بالاجرة ، كنت اول واحد يحصد زرعه • ثم انى فارقت بلادى ومكثت مدة اثنى عشر عاما احصد لغيرى تحت

شمس من نار ، ثم كنت مدة احد عشر عاما اراس فرقة من الحصادين واجز القمح فى حقول النوميديين • وبفضل مجهوداتى ومثابرتـــى على الكد والعمل مع الاكتفاء بالقليل ، اصبحت املك دارا وضيعة واني اليوم اتقلب في النعمة ورغدالعيش ، وكذلك ايضا بلغتالمراتب السنية والدرجات العالية ، فانتخبت للمشاركة فى مجلس الاعيـان بمدينتنا ، ومن فلاح بسيط اصبحت موظفا اقوم بمهمة الاحصـاء ومراقبة الاخلاق العامة ، ويسرنى كثيرا انى رايت اولادى وحفدتى وقد ولدوا ثم كبروا وترعرعوا امامى ، فكانت حياتى هادئة مطمئنة محترمة من طرف الناس جميعا • »

فنحن نرى ان الحظ قد اسعد صاحبنا هذا ، ولكن كم من آخرين يقضون كامل حياتهم فى البؤس والشقاء والعذاب يحصدون لفائدة كبار الاغنياء تحت « **شمس من نار** »



اطـلال المـدن والبنايات الرومانية

ان ثروة افريقية في عهد الرومان كانت ترتكز على ركن اساسي وهو الفلاحة • وهذه الفلاحة هي التي علمت الاهالي معنـى الحيـاة المنزلية في البيت ، فاصبحوا اهل حضر وقـرار ، وبنـوا المنـازل والديار واقتدوا بالمعمرين الرومانيين ، وقلدوهم في حياتهم ، وفـي بناء مساكنهم في المدن ، او في المزارع والحقول ، وترمنوا شيئافشيئا

وهذا هو السبب في وجود مدن كثيـرة بافريقيـة من النـوع الروماني ، وزيادة عن المزارع المنفردة والمداشر والقرى ، وفي وجود كثير من الديار والمنازل بجميع ما يتبعها من المرافـق مثلمـا كان يوجد بروما في العهد الامبريالي • وآثار تلك المدن وتلك المنـازل مازالت ظاهرة ، واطلالها مازالت موجودة في كل مكان ، وهي تجعلنا نتصور تصورا محسوسا الاطار المادي الذي كانت تدور فيه الحيـاة بافريقية ، وشكل المدن وهيئتها العامة ، واهم اصنـاف البنـاءات العظيمة والهياكل التي كانت تزينها ، ودرجة الفن والاتقـان التي وقع الوصول اليها في ذلك التاريخ •

وان سكان هذه المدن كانوا تجارا ، او اصحاب مصانع ، او ارباب فلاحة وكان هؤلاء يذهبون كل صباح الى اراضيهم للقيام باشغالهم الفلاحية ثم يعودون في المساء الى المدينـة او يقيمـون مدة في الحقـول ومـدة اخرى في المدينة للتمتع بحقوقهم وامتيازاتهم المدنية التي كان لها اعتبار كبير في ذلك العهد •

ويمكن ان نقسم هذه المدن الى ثلاثة اقسام :

- المدن البحريـة
- المدن الفلاحيـة
- المدن العسكرية

ـ **المدن البحرية :** فاما المدن البحرية فانه يصعـب في الغالـب تصور هيئتها القديمة ، بسبب ما لحقها من التغيير سواء من جـراء انتقال مجرى الاودية ورسوب كميات كبيرة من الغريـن ادخلـت

تغييرا كبيرا على رسم الساحل وشكله ، مثلما وقع فى خليج قرطاج او اوتيكة الذى ردم وادى مجردة جانبا وافرا منه ، حتى ان الجزء من الخليج الذى كان بجانب قرطاج شمالا صار اليوم بحيرة (سبخة اريانة) ، وان اوتيكة التى كانت على الساحل اصبحت الآن بعيدة عن البحر بحيث لابد من اجهاد القوة الخيالية اجهادا كبيرا لتصور الخطوط القديمة لبعض الاماكن ، ولتشخص المرسى الحربى والمرسى التجارى من رؤية الغديرين الصغيرين الموجودين بجهة صالمبو جنوب قرطاج ... او من جراء زيادة البناءات الجديدة التى ازالت تماما كل الاثار القديمة ، مثلما وقع بسوسة ، وبنزرت ، وسكيكدة .

وان الذى يمكننا من تصور الماضى اكثر من البناءات هو الوثائق الكثيرة المنقوشة : نذر وهدايا للآلهة ، خواتم كمركية من رصاص وصولات مكتوبة على شقف اوانى الفخار ...

المدن الفلاحية : اما المدن الفلاحية فهى كانت فى الغالب عند نشاتها قرى صغيرة ، ثم اتسعت بطبيعة الحال . ونذكر منها دقة، ومكثر ... وقد راينا كيف ترقى احد الفلاحين بمجهوداته الخاصة وبكد يمينه وعرق جبينه الى ان بلغ المراتب العالية .

ـ المدن العسكرية : ونصل اخيرا الى المدن العسكرية وهى موجودة بكثرة فى بلاد الجزائر (اما القطر التونسى فقد كان بلادا مدنية لا عسكرية) . ونذكر من هذه المدن على سبيل المثال :

ـ تيمقاد : (Thamugadi) مدينة قدماء الجنود ، اسست باذن من تراجانوس سنة ١٠٠ ، فخطت بالزيج (١) وسطرت بالمسطرة فكانت طرقاتها منظمة تتكون منها مربعات صحيحة على غاية من الاتقان فهى مدينة وقع تصوير رسمها اولا على الورق فى مكتب المهندس ثم وقع الشروع فى انجاز ذلك على عين المكان ، فكان كل شىء فيها مدبرا من قبل ، ومبينا ومشيدا عن قصد فى مكانه المعين وبشكله المعين (انظر اللوحة رقم ٨٣/٨٤)

ـ لمباز : (Lambaesis) ان القسم المنظم فيها على النمط الذى وصفناه هو المعسكر فقط . واهم اثر ما زال قائما فيه هو « البريطوريوم » او مقر البريطور والقائد الاعلى للجيوش الرومانية . (انظر اللوحة رقم ٩٣)

الزيج : هو خيط المهندس او البناء يمده على الارض او على الحائط

اما المدينة التي برزت بعد ذلك بالقرب من المعسكر فهي خالية من الدقة الهندسية التي نجدها في تيمقاد •

ـ وهناك مدنية اخرى جديرة بالذكر وهي **جميلة** (Cuicul) التي كانت في البداية مدينة قدماء الجنود ايضا مثل تيمقاد ، وكانت مثلها ايضا في ترتيبها ، ونظامها ، وشكلها الهندسي ، لكنها تخلصت فيما بعد من تلك القيود ، وتحررت وازدادت اتساعا متخذة في توسعها الاشكال التي تفرضها البقعة ، فكانت بذلك خير مثال للمدينة الحية التي لا تتقيد بشكليات المساحين والمهندسين •

ـ اجزاء المدينة ـ

ـ **الساحة العمومية** (le forum) ان الركن الاساسي والمركز الحيوي في كل مدينة ، مهما كان نوعها ومهما كانت هيئتها الخاصة ، هو الساحة العمومية ، فهي وحدها قلب المدينة النابض تمثل تلك الحياة الحضرية ، حياة المدن التي كانت المشاركة فيها تعتبر على غاية من الاهمية •

وهذه الساحة هي عبارة عن رحبة مبلطة ، لا تدخلها العربات ، تحيط بها البناءات العمومية والدكاكين التي تزين مدخلها الاقواس والدرج الجميلة •وهذه الساحة هي في الغالب وكلما كان ذلك ممكنا ،ملتقى الطريق الكبير على الطول (decumanus maximus) والطريق الكبير على العرض (cardo maximus) الذي يقطع الاول عموديا ويؤلف معه الساحة المربعة •

وتقام في الساحة العمومية هياكل شرفية يزداد عددها شيئا فشيئا : تماثيل القياصرة والاباطرة ، تماثيل الرجال العظام من المواطنين ، اصنام تمثل آلهة او تمثل القديس شفيع المدينة •

وان الساحة العمومية الموجودة باطلال بوغرارة (Gighti) على بعد ١٠٤ كم جنوب قابس ، اى باقصى الجنوب التونسي ، تظهر على غاية من الجمال ، تحيط بها على ثلاث جهات ، اروقة مقامة على اعمدة كورنتسية ، وبها ابنية وصروح مزينة بابدع انواع الزينة باستعمال رخام مختلف الالوان والاشكال •

ـ وكذلك ساحة بلدة مدينة (بتشديد الياء) (Althiburos) قرب ابه كسور على طريق تاجروين ، فهي ايضا مبلطة وتحيط بها اروقة جميلة •

ـ و « فوروم » **دقة** (Thugga) هو ساحة مستطيلة الشكل

(٤٥ م × ٢٥ م) تحيط بها صف اعمدة على ثلاث جـهات اقيمت في عهد تيتوس اوريليوس فيلفيوس (Titus Aurelius Fulvius ou (Antoine le Pieux) (١٣٨/ ١٦١)

ـ وساحة **عنابة** (Hippo Regius) بديعة فاخرة يبلغ طولها ٧٦ م وعرضها ٣٤ م٠ ولها منظر رائع خلاب برواقها المبلط بالرخـام ، واعمدتها الكورنتسية التى ترفع الاطناف الجانبية ، وقاعدات تماثيلها المنصوبة فى فسحة (l'area) (انظر اللوحة رقم ٨٢)

ويمكن للمدينة الواحدة ان يكون بها اكثر من ساحة ، وبالاخص اذا امتدت ، واتسع نطاقها ، وانتقل مركز حركتها ، وعند ذلك تكون الساحة الاصلية هى التى يوجد فيها قصر البلدية (Curia) حيث يعقد المجلس البلدى اجتماعاته ٠ ولا بد من وجود ساحـة مسقفة او اكثر (basiliques) تظلل الناس من الشمـس وتقيهم من المطر ، وهناك تفصل الخصومات والدعاوى ، وتعالج المشاكل المختلفة وتعقد الصفقات التجارية ٠

ـ **المعابد** (Temples) · **والكابتول** (Capitole)

وتشيد معابد كثيرة فى جميع احياء المدينة لآلهة مختلفة ٠ وفى المدن الكبرى يشيد اكبر معبد وهو الكابتول ، مثلـما هـو موجود **بسبيطلة** (Sufetula) ، فانك ترى بها المعابد الثلاثة التى وقـع بناؤها لآلهة الكابتول وهى ثلاثة : جوبتر كبير الآلهه ، وجينون الاهة النور ، ومينرفا الاهة الحكمة والفنون (انظر اللوحة رقم ٨٥)

وكذلك الكابتول بدقة (Thugga) الذى وقع اهداؤه للثالوث جوبتر، وجينون ومينرفا ، وبه كتابة منقوشة تشير الى ان هذا المعبد وقع بناؤه فى عهد مركوس اوريليوس سنة ١٦٦ ، من مال اثنيـن من سكان المدينة ٠ وان الاعمدة الستة الكورنتسية التى تزين رواق المدخل تحمل سقفا مثلثا (Fronton) يزينه نقش بـارز دون النصف (Bas-relief) (١) (انظر اللوحة رقم ٨٥)

ـ **الاسواق**

ولابد من وجود الاسواق ايضا للبيع بالتفصيل، اما البيع بالجملة فهو يقع فى الفضاء المسقف ، وهذه الاسواق كانت تبدو فى شكـل ساحات تحيط بها دكاكين صغيرة للتجارة ٠

(١) يكون النقش احيانا بارزا تماما (Bas-relief)
او بارزا نصفا (Demi-relief)
او بارزا دون النصف (Haut-relief)

لوحة ٨٢

انظر الصفحة رقم ٣٤٤ من هذا الكتاب



الساحة العمومية (الفوروم) بمدينة عنابة (كتابة منقوشة على البلاط)

لوحة ٨٣

انظر الصفحة رقم ٣٤٢ من هذا الكتاب



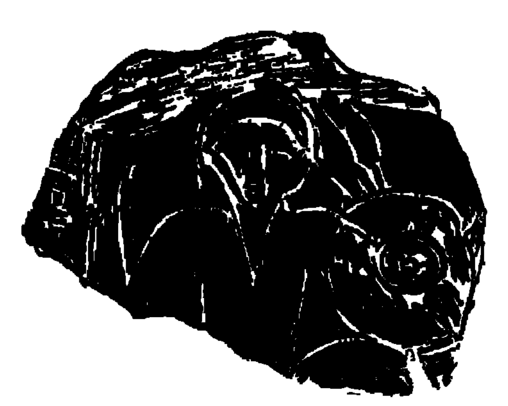
اطلال مدينة تيمقاد الرومانية بالجزائر

لوحة ٨٤

انظر الصفحة ٣٤٢ من هذا الكتاب



تصميم تيمقاد



جندى افريقى مكلف بحراسة الحدود

(انظر الصفحة رقم ٦٣/١٦٩/٣١٠/٣٢٠)

هذه الصورة المنقوشة على نصب موجود بمتحف الجزائر ، تمثل جنديا ليبيا (اى بربريا) له لحية ملسنة ، وهو متعمم بشىء يشبه العمامة القباتلية ، ويحمل ترسا مستديرا وحربتين . وهذا الجندى هو من غير شك من الاعوان التى كانت تكلفهم رومة بحفظ الامن فى منطقة القبائل .

لوحة ٨٥

انظر الصفحة رقم ٣٤٤ من هذا الكتاب



سبيطلة المعابد الثلاثة الكابيتولية



دقـة معبد الكابتـول

ـ المسارح والملاعب

كان الرومانيون يهتمون كثيرا بوسائل اللهو والتسلية ويشيدون لذلك بنايات فخمة شامخة يمكن تقسيمها الى ثلاثة انواع :

١) **المسرح** (Theatrum) : وهو عبارة عـن بناية في شكل نصف دائرة يحتل قطرها ما نسميه عادة «بخشبة المسرح» (la scène)(١) ولكنها كانت في ذلك الوقت مبنية بالحجـارة ، وتحتـل الدكـات او المصاطب (les gradins) نصف الدائرة، وكان المسرح يستعمل لتمثيل الروايات من نوع المآسي (tragédies) وهي الروايات الفاجعة او المحزنة ، والمهازل (comédies) اى الروايات الهزلية المضحكـة ، والمسرحيات الفكاهية القصيرة (mîmes)

٢) **الملعب** (Amphitheatrum) من اليونانية Amphi بمعنى حول و théatron بمعنى المسرح وهى عبارة عن بناية عظيمة في شكل مستدير او اهليلجى تحتل دكاته كامل محيط الدائرة ، وفي الوسط يكـون الميدان (l'arène) المعد للمصارعة والملاكمة والعراك بـين المصارعين او مع الحيوانات الضارية · (انظر اللوحة رقم ٨٩)

ويحيط بالميدان جدار قصير يفصل بينه وبين مقاعد المتفرجيـن ويسمى بالحاجز (le podium)

وان اكـبـر ملعب فـي رومـة نفسهـا هـو المعـروف بالكوليزى (Colosseum = Colisée) وانه سمى كذلك لوجوده بالقرب من تمثـال نيرون الفائـق الكبـر (Colossus = Colossé de Néron)

٣) **الميدان** (Circus) وهو في شكل اهليلجى مستطيل جدا ، ومعد لمشاهدة العاب الفروسية والمثائر البهلوانية ، وسباق الخيل او العربات

فالعواصم والمدن العظيمة والمشهورة بثروتها تجتمع فيها هـذه المعالم بانواعها المختلفة : فانك تجد بعرطاج مثلا : الملعب ، والمسرح والميدان في وقت واحد ·

---

(١) ان هذه الكلمة (la Scène) ماخوذة من اللاطينية (Scena) واليونانية (Skênê) ومعناها الخيمة والسرادق ، لان ذلك القسم من المسرح كان فـي القديم يغطى ويظلل بخيمة وينصب عليه سرادق (اى خيمة) · فيمكن حينئذ ان نطلق بدورنا على ذلك المكان الخاص بالممثلين اسم (السرادق) وهو ترجمة حرفية لكلمة (Scène)

ـ **فاما الملعب** (l'Amphithéâtre) فقد وقع تشييده غربي بيرصة وقد وصفه الادريسي ، وهو من مؤرخي القرن الثاني عشر ، فقال بانه يتالف من ٥٠ طاقا تقريبا (اى ٥٠ قوسا) بنيت فوقها خمس طبقات من الاقواس منضدة بعضها فوق بعض في شكل وفي ابعاد الطبقة السفلى ، وهي كلها مبنية بحجارة عديمة المثال ونادرة الجمال • وفي اعلى كل طاق او قوس يوجد عقد مستدير مزين برسوم تمثل اشخاصا او حيوانات او سفن منقوشة بكامل الاتقان ومنتهى الفن ، وكانت السجون او المحابس (les carceres) مغلقة بمسالف او اشواف (des herses) وموجودة تحت الحاجز (le podium) اى الجدار الفاصل بين الميدان ومقاعد المتفرجين •

وفي ذلك الملعب وقع القاء النصارى المسيحيين والمسيحيات الى الحيوانات المفترسة ، فاستشهدوا بعد ما ذاقوا من العذاب الوانا : ففي سنة ٢٠٣ اى في عهد اسكندر سافاروس وقع القاء القبض على القديسة فيليسيتي (Ste Félicité) وكانت حاملا ، وعلى القديسة بربتوة (Ste Vibia Perpetua) ، هي ورضيعها ، وعلى جماعة اخرى من النصارى المعتنقين دين المسيح عليه السلام،والقوا بهم امام الوحوش الكاسرة التي مزقتهم اربا اربا وافترستهم •••

وفي الوقت الحاضر لم يبق من ملعب قرطاج سوى الميدان ، والبناء التحتاني كالسجون والدهاليز وبعض المصاطب •

ـ **واما المسرح** (le théâtre) فان اطلاله مازالت موجودة بمنحدر الهضبة من الجهة الجنوبية المقابلة للبحر ، ويقول ترتليانوس بانه وقع تشييده في القرن الثاني ، والقى فيه ابوليوس خطبه منوها بعظمة ذلك المحل ، وجمال مرمر مصاطبه ، ورشاقة اعمدته،وارتفاع بنيانه ، وورنق حيطانه •

وان هذا المسرح قد هدمه الوندال فيما هدموا ، ولم يبق من نصف الدائرة الا آثارها ، ومن المكان المعد للتمثيل الا بناؤه التحتاني واضمحلت المصاطب التي كانت من المرمر الابيض ، والدرابزونات الجميلة ، وذهب بلاط الطبقة الارضية ، وجدران المكان المعد للتمثيل

وقد وقع ترميم ذلك المسرح واصلاحه ، ومثلت فيه بعض الرويات ، منها رواية « سوفونيسبة » للكاتب والمؤرخ المعروف الاستاذ عثمان الكعاك •

ـ وكان يوجد بقرطاج مسرح ثان مسقف (l'Odéon) معد على الاخص للشعر والغناء والموسيقى ،وقع بناؤه باعلى الهضبة فى بداية القرن الثالث ، ولم يبق منه الا البناء التحتانى ، رفع الردم من فوقه اخيرا • وكانت مصاطبه مبنيةكلها فوق الارض بخلاف مصاطب المسرح المتقدم ذكره فهى كانت منفورة فى الهضبة • وقد وجدت فى ذلك المكان تماثيل كثيرة ، واعمدة من المرمر الوردى او الاخضر ، وتيجان كورنثسية ، وقطع من الاطناف المنقوشة ، ومن صفائح المرمر ، مما يدل على ان هذا الاوديون كان يضاهى المسرح بهاء وجمالا وعظمة

ـ **اما الميدان** (le Cirque) فقد كان موجودا بين الملعب وقرية دوار الشط ، ومازال يظهر منه الطريق المرسوم والخاص بالفرسان وراكبى العربات (la piste) ، وكذلك الشوكة (spina) اى النتوء او الجدار القصير الذى كان يتوسط الميدان ويمتد فيه طولا كالعمود الفقرى ، والذى كانت تدور وتجول حوله العربات (les chars)

ـ **وفى شرشال** ايضا نجد اطلال الملعب الذى كان طوله ١٢٠ م وعرضه ٧٠ م ، ونجد كذلك مسرحا وقع الانتهاء من ترميمه سنة ١٩١٧ ، والشىء المهم فيه والجدير بالملاحظة هو تحويله الى ملعب فى آخر القرن الثالث •

ـ واحيانا تقع المفاهمة بين مدينتين لتوزيع المصاريف : فانك تجد بمدينة الجم (Thysdrus) ملعبا ولاتجد بها مسرحا ، وتجد بدقة (Thugga) مسرحا ولا تجد ملعبا • وكذلك ايضا تجد بتيمقاد مسرحا ولا تجد ملعبا ، (انظر اللوحة رقم ٨٦) ، بينما انك تجد بلمباز ملعبا ولا تجد مسرحا •

ـ فملعب تيسدروس (الجم) اهليجى الشكل ، (انظر اللوحة رقم ٨٨/٨٧) وهو اضخم واعظم بناية رومانية فى كامل شمال افريقية ، يبلغ طوله ١٤٨ م وعرضه ١٢٢ م ، وارتفاعه ٣٦ م• وكان يسع ستين الفامن المتفرجين • وكان فى آخر القرن السابع عشر قائم الذات صحيحا سالما ، ثم ان حمودة باى فى ذلك التاريخ احدث فيه ثلمة كبيرة ليتمكن من كبح جماح الثوار الذين اعتصموا وتحصنوا بـه •

وعلى بعد كيلومتر فقط جنوب ذلك الملعب توجد آثار ملعب آخر اقدم منه ، ثم من جهة الشمال الشرقى توجد آثار ميدان (Cirque) طوله ٥٥٠ م وعرضه ٩٥ م٠

ـ اما مسرح دقة (انظر اللوحة رقم ٨٦) فهو يشتمل على ٢٥ صفة من الدكات او المصاطب فى اعلاها رواق باقواس ، ونرى امام المدخل رواقا ذا اعمدة كورنتسية يستعمل كردهة يجول فيهـا المتفرجون بين الفصلين من الرواية ٠ وفوق هذه الاعمدة نقرا كتابة طويلة تشير الى ان هذا المسرح بناه احد الاغنياء من ابنـاء دقـة على نفقته الخاصة وذلك بين سنة ١٦٦ وسنة ١٦٩

ـ **الحمامات**(les Thermes) : ولا تخلو مدينة من الحمامات الفسيحة الفاخرة ، اذ كانت هذه الحمامات المكان الذى يقضى فيه الانسان اوقات فراغه ، فلقد كانت تقوم مقام المقاهى والنوادى ، فلا يصلح للاستحمام فقط ، بل يستعمل لتمارين الرياضة البدنية ، والمطالعة ، والحديث ، والمذاكرة ، واللعب ٠ ٠ ٠ فكان الرومانى او الافريقى المترمن يقضى فى الحمامات جل اوقاته بعدما ينتهى من اشغاله التى تعالج فى الساحة العمومية ، ولا يذهب الى منزله الا لينام ٠

فاننا نجد فى مدينة تيمقاد بالجزائر « الحمامات الشرقية الصغرى » وفيها جميع المرافق من قاعات الانتظار والراحة ، وبلانات حـارة ، واخرى باردة او بخارية ، وخزائن الملابس ، واحواض ، ومراحيض وغرف التسخين واشعال الوقود ٠ ٠ ٠ وغير ذلك ، وهى ما زالت ظاهرة يمكن مشاهدتها ٠ ونجد بها ايضا « الحمامات الشرقيةالكبرى» التى وقع بناؤها فى النصف الاول من القرن الثانى ووقع توسيعها والزيادة فيها سنة ١٦٧ ولكنها تهدمت واصبحت اطلالا ٠

ـ وحمامات قرطاج (Thermes d'Antonin le Pieux)(١) التى وقع بناؤها فى نصف القرن الثانى بين سنة ١٤٥ وسنة ١٦٢ هى بناية فسيحة جدا لا تقل قيمة وعظمة عن حمامات قاراقالا المشهورة بروما ، وكان يبلغ طولها ٢٠٠ م ٠ تقريبا ، وكان بها قسم مخصص للرجال وقسم للنساء وكانت تاتيها المياه من الصهاريج الكبرى (les Grandes Citernes) قرب

---

(١) ان كلمة درمش (Dermèche) جاءت من كلمة (Thermis) اى الحمامات

البرج الجديد وتلك الصهاريج هى التى حل محلها اليوم مستودع مياه قرطاج العصرية

ـ وحمامات بيلا ريجيا (Bulla Regia) او حمام الدراجى لها منظر رائع خلاب ، وقد ازيل عنها الردم بتمامه وهى جديرة بان تزار

وتمتد الحمامات الرومانية بافريقية فى مساحات شاسعة : ٦٢٠٠ متر مربع بجميلة ، ٣٠٠٠ بلمباز ، ٤٠٠٠ بتيمقاد ... اما حمامات انطونان بقرطاج فهى تحتل مساحة تبلغ هكتارين (٢٠٠٠٠ متر مربع) وحمامات لبدة بطرابلس ثلاثة هكتارات (٣٠٠٠٠ متر مربع) (انظروا الصورة باللوحة رقم ٩١)

اهم المدن الرومانية بافريقية

ان الاغنياء من الافريقيين كانوا ينفقون جزءا كبيرا من ثروتهم فى سبيل ترتيب بيوتهم الانيقة وتنظيم مدنهـم ، وان افـراد الطبقـة الارستقراطية من الرومانيين او الافريقيين كانوا يقيمـون بالمـدن والعواصم ، ويقلدون رومة فى نظامها ورفاهيتها وعظمة بناءاتها .

ـ اهم المدن ببلاد طرابلس : (ليبيا)

ثلاث مـدن على سواحـل السرت بلغـت اوج عظمتهـا فى مـدة سبتيموس سافاروس وهى :

- مدينة طرابلس (Oea = Tripoli) فى الوسط
- سبراطة (Sabratha Vulpia) نحو الغرب
- لبدة (Leptis Magna) نحو الشرق

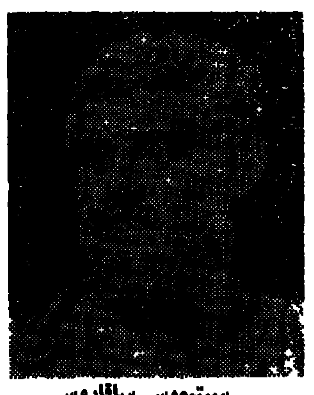
ـ فاما مدينة **طرابلس** فلم يبق فيها قائما آلا قوس نصر ذو اربع واجهات ويسمى قوس ماركوس اوريليوس(١) (Arc de Marc-Aurèle) يستعمل الآن كدكان للتجارة ، وتارة للسينما . او غير ذلك ...

---

(١) ان قوس النصر ، وهو مدخل المدينة الرومانية ، يكون بصفة عامة ذا فتحة واحدة مثل قوس تراجانوس (سنة ١١٦) بمكثر (الصورة صفحة ٣٦١) . وقوس سبتيموس سافاروس (سنة ١٩٥) بحيدرة ، وقوس قارا فالا (سنة ٢١٦) بجميلة ، وقوس اسكندر سافاروس (سنة ٢٢٨) بدقـة ، وقـوس ديوكليسيانـوس بسبيطلة ، ويكون احيانا ذا فتحتين ولكن بقلة كما هو موجود بانونة بالجزائر . وكثيرا ما يكون ذا ثلاث فتحات ، فتحتين صغيرتين تتوسطهما فتحة كبيرة ، مثـل قوس تراجانوس بتيمقاد ، وقوس سبتيموس سافاروس بلمباز ، وقوس انطونان بسبيطلة (صورة الغلاف من هذا الكتاب تمثل فتحته الكبرى) ، وقليلا ما يكون ذا اربـع فتحات مثل قوس ماركوس او ريليوس باويا (طرابلس) وهو يعتبر حقا من افخم الهياكل الرومانية (انظروا الصورة باللوحة رقم ٩٠) .

ـ وعلى بعد ٧٠ كم من مدينة **طرابلس** غربا توجد مدينة سبراطة وفيها معبد الكابتول ، وكنيستان للنصارى ٠

ـ ولكن اعظم ثروة تاريخية توجد فى **لبدة** مسقط راس الامبراطور سبتيموس سافاروس : ارصفة بالمرسى ، قوس نصر جميل ذو اربع واجهات ، حمامات ، ساحة عمومية (فوروم) ، مسرح ، ملعب ، ميدان ٠


سبتيموس سافاروس


ابنه قارا قالا

وبلبدة ايضا كنيسة سافاروسية منقوش بها اسم سبتيموس سافاروس سنة ٢١٠ باعلى الاعمدة الثلاثة من الغرانيت الوردى المجلوب من مصر (فى آخر الصورة على اليمين) ومن جهتى مدخل صدر الكنيسة ، عماد مزين باكاليل الاقنتوس (١) وافنان الحلباب (٢) والكرم (انظروا الصورة باللوحة رقم ٩٢)

ـ اهم المدن بالبروقنصلية : (البلاد التونسية)

كانت البروقنصلية تشتمل على مدن كثيرة العدد نذكر منها :

• **اوتيكة** (Utique) : عاصمة الولاية الرومانية ابتداء من سنة ١٤٦ ق٠م٠ الى ان خلفتها قرطاج سنة ٣٩ بعد الميلاد ٠ تضاءلت قيمتها شيئا فشيئا لارتدام موانيها تدريجيا بالرمال : آثار قناة كانت تجلب المياه من جبل كشباطة على ١٠ كم٠ غربا ، صهاريج ، ملعب كبير (٢٠٠ م × ١٠٠ م) اضمحلت مصاطبه ٠

(١) الاقنتوس (acanthe) نبات ورقه على غاية من الجمال ، الشيء الذى جعل النحاتين يزينون به رؤوس الاعمدة الكورنتسية ٠

(٢) الحلباب (lierre) : نبت متسلق تدوم خضرته فى الصيف

• **قرطاج** (Carthago) : العاصمة الكبرى : تحدثنا عن آثارها

• **قابس** (Tacapas) : ميناء السرت الصغير (آثار قليلة)

• **بوغرارة** (Gightı) : ساحة الفوروم ، معبد الكابتول ، سوق ، حمامات ٠٠٠

• **راس الديماس** (Thapsus) : حيث انتصر يوليوس قيصر على يوبا الاول (آثار رصيف كبير لوقاية المرسى واطلال غير واضحة)

• **لمطة** (Leptis Minor) : مدينة فنيقية ، ثم رومانية . ثم بيزنطية تلفت آثارها : صهاريج ، اسداد ، قناة ، سور

• **المنستير** (Ruspina) : حمامات رومانية منقورة فى الصخر ، دهاليز ، ودير للنصارى (monastère) حوله المسلمون الى رباط فى القرن التاسع ، ومنه اتت تسمية هذه المدينة بالمنستير ٠

• **صفاقس** (Taparura) : استعملت انقاضها واطلالها لتشييد المساجد وبناء القصباء

• **سوسة** (Hadrumète) : مدينة فنيقية استعملهـا حنبعـل قاعدة لعملياته الحربية ضد شبيون ، ثم رومانية رفعها تراجانوس الى درجة المستعمرة ، ولقبت بالمدينة الخصبة (Frugifera) لكثرة القموح والخيرات بحقولها ، وصارت فى آخر القرن الثالث عاصمة ولاية جديدة مستقلة وهى ولاية مزاق (Byzacène) ثم صارت من اكبر المدن البيزنطية وسماها قيصر الروم (يوستينيان) باسمه (Justinianopolis) ، لم يبق اى اثر فيها للبنايات القديمة

• **بنزرت** (Hippo Diarrhytus) لم يبق شيء من آثارها البونيفية او الرومانية (ربما حمامات رومانية ؟)

• **المدينة القديمة** (Thelepte) اطلال مسرح عرضه ٦٠٠ م. حمامات ما زالت قائمة ،كنيسة كبيرة ذات خمسة صحون

• **سبيطلة** (Sufetula) مشهـورة بمعابدهـا الثلاثة (الكابتول) ، وساحتها المستطيلة (٦٠ م على ٧٠ م) ذات الاروقة والاعمدة ، وحماماتها ،وقوس نصرها وبقايا مسرحها ، وكنائسها بالجهة الشمالية الشرقية وباحداها بيت العماد به « جرن العماد » اى الحوض ، وهو كله مفروش بالفسيفساء (انظر اللوحة رقم ٩٥)

• **حيدرة** (Ammaedara) كان معسكرا فى عهـد القيصر اغسطس ثـم انتقل ذلك المعسكر الى تبسة سنة ٧٥ فى عهـد

فسباسيانوس ٠وآثار حيدرةواطلالها كثيرةجدا : قوس نصر سبتيموس سافاروس (سنة ١٩٥) مسرح وقع ترميمه سنة ٢٩٩ ، ضريح ، قلعة بيزنطية (٢٠٠ م على ١١٠ م) بنيت حولها جدران رائعة وتسعة ابراج مربعة وبرج مستدير ٠

◆ **الكاف** (Sicca Veneria) : ويسميها ابن ابى دينار (شقبنارية) فى كتابة المؤنس ، وانما وصفت بفينيرية لوجود معبد مشهور فى تلك المدينة دشن لالاهة شرقية شبهها الرومانيون بفينوس(Veneris) الاهة الجمال والحب ٠ وكانت مدينة الكاف تحتل مركزا استراتيجيا ممتازا لانها كانت تشرف على المواصلات من نوميدية الى البروقنصلية ٠ وتوجد بمدينة الكاف آثار كنيسة ما زال صدرها قائما (انظر اللوحة رقم ٩٤)

◆ **المدينة** (Althiburos) بتشديد الياء : فيها اطلال رومانية هامة جدا على ضفة وادى المدينة : ساحة مبلطة ومحاطة بالاروقة ، طرقات مبلطة ايضا ، معبد الكابتول ، بيوت رومانية ، مسرح كبير من عهد كومودوس تحيط به اقواس ما ازل البعض منها قائما ، قوس نصر هادريانوس بفتحة واحدة كان بناؤه سنة ١٣٨ ٠

◆ **مكثر** (Mactaris) : ملعب احتلت الاكـواخ جانبـا منـه ، ساحة الفوروم وهى مازالت مبلطة ، قوس نصر تراجانوس كان بناؤه سنة ١١٦ ثم الصق به برج مربع فاصبح قلعـة بيزنطية ، كنيسة كبيرة فيها قبور بيزنطية ، ويوجد بيت العماد (baptistère) ووراء صدر الكنيسة (Abside) ، اطلال الحمامات ما زالت قائمة وواضحة ، معابد كثيرة ، متزاوف اى محل ارتياض (gymnase) اهتمت ببنائه جمعية شبان مكثر سنة ٩٥ ، يتالـف من ميـدان للرياضة الجسدية (palestre) واحواض كبيرة للسباحة (piscines) وكنيسة كبيرة (basilique) وقاعات عديدة ، وحمام ٠ وعلى بعد كيلومتر واحد من مكثر : قناة فوق ١٢ قنطرة او حنية كانت تجلب مياه عين سوق الجمعة الى الحاووز اى الى مستودع المياه ، واطلال معبد ابولون (Apollon) حامى المدينة ٠

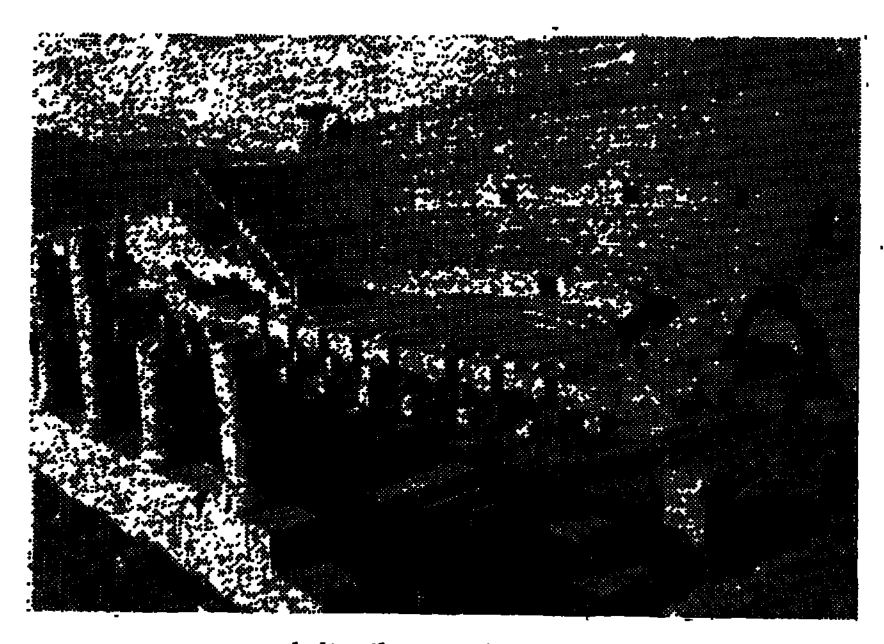
◆ **هنشير القصبات** (Thuburbo Majus) : انشاها القيصر اغسطس فيها اطلال كبيرة : معبد الكابتول (سنة ١٦٨) ، ساحة الفوروم المربعة (٤٥ م لكل جهة) اروقة على ثلاث جهات ، معابد كثيرة ، حمامات الشتاء بالجهة الشرقية ، وحمامات الصيف بالجهة الغربية ،ثلاثة ابواب جبارة فى آخر المدينة وباب رابع داخلها بجهة الجنوب

لوحة ٨٦

انظر الصفحة رقم ٣٤٨ من هذا الكتاب



اطلال المسرح الروماني بدقة (تونس)



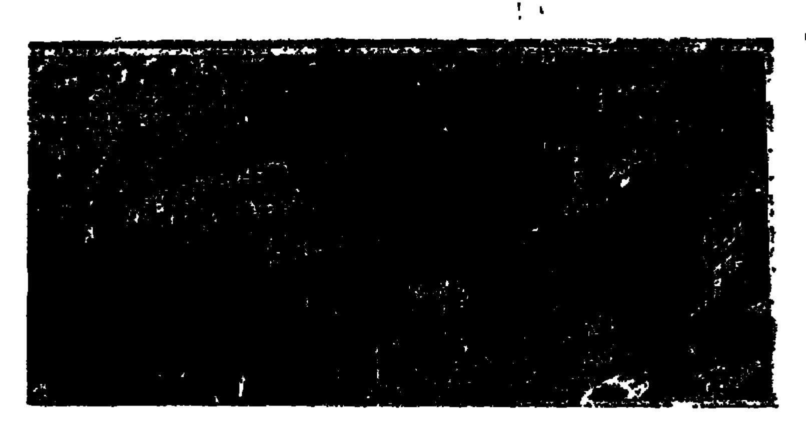
اطلال المسرح الروماني بتيمقاد (الجزائر)

لوحة ٨٧

انظر الصفحة رقم ٣٤٧ من هذا الكتاب

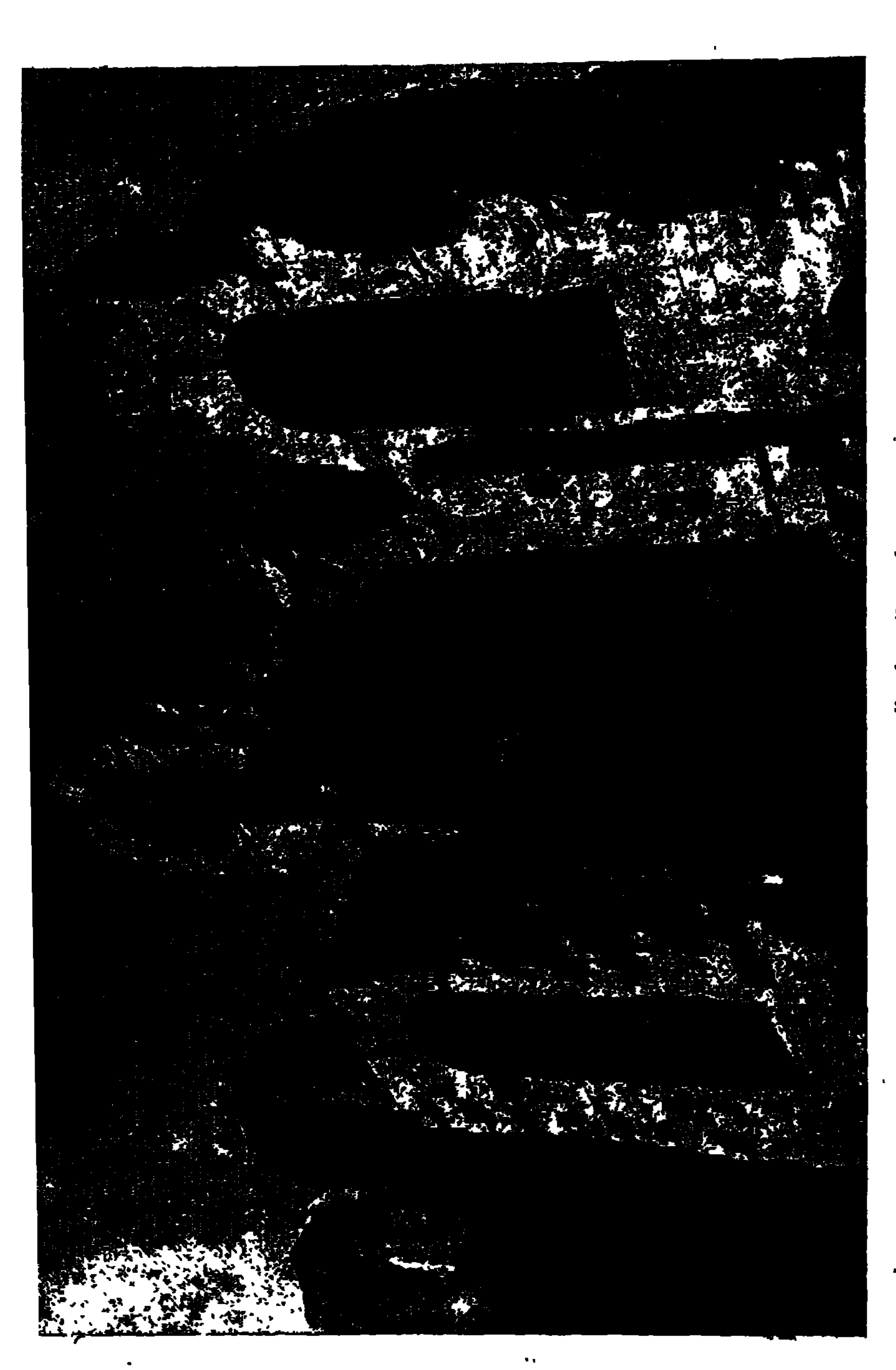






لوحة ٨٨

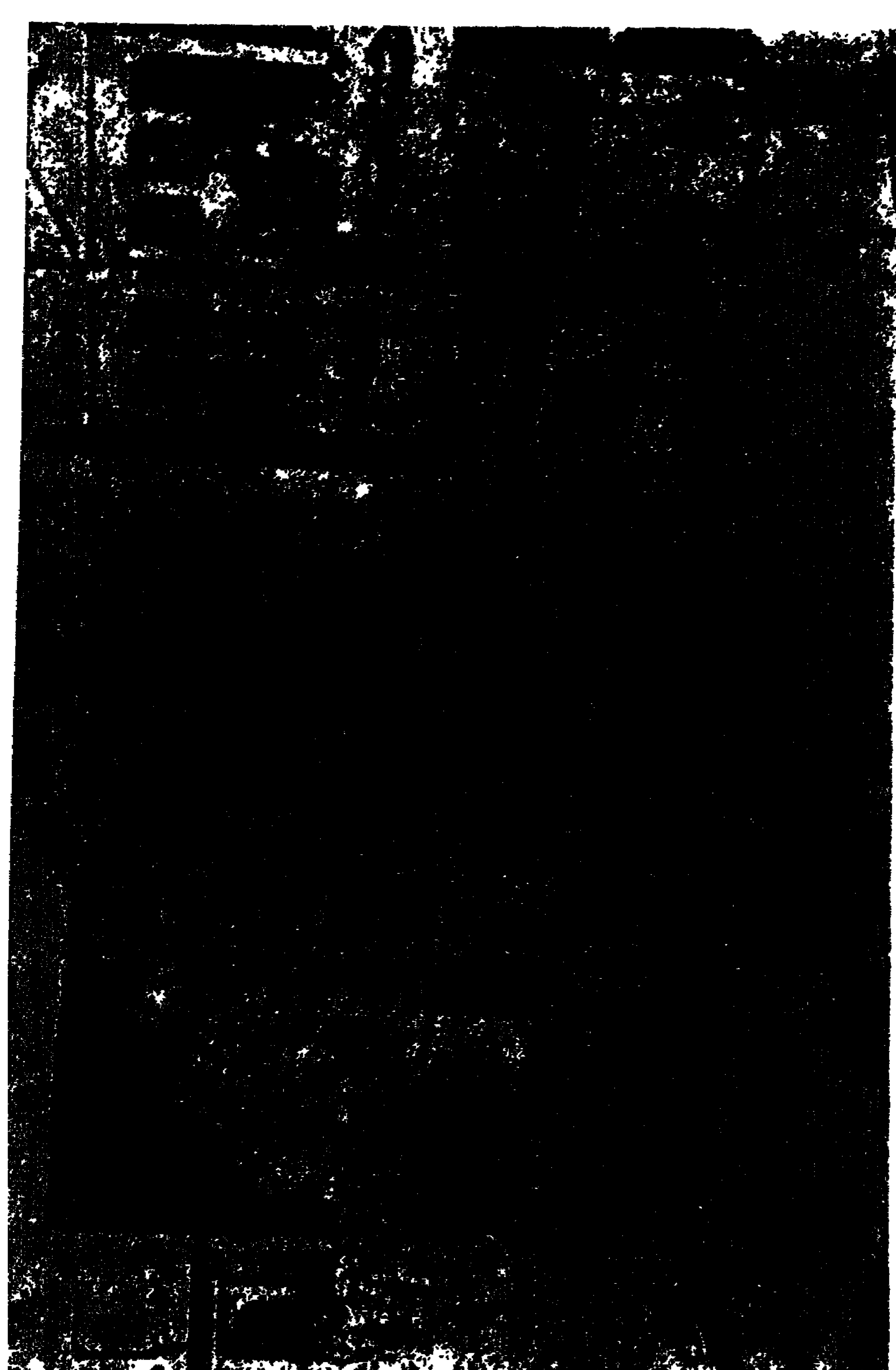
انظر الصفحة رقم ٣٤٧ من هذا الكتاب



الجم : الملعب الروماني

لوحة ٨٩

انظر الصفحة رقم ٣٤٢ من هذا الكتاب



اللعب : نرى المتصارعين وهم يتبارزون ويتجادلون فى ميدان اللعب امام جم غفير من المتفرجين

◆ **دقــة** (Thugga) : بلدية مستقلة فى عهــد سبتيمــوس سافاروس ، آثارها كثيرة : مسرح مازال قائما (انظروا الصورة) معبد الكابتول (انظروا الصورة) ، ساحة الفوروم ، معبد سيلستيس وقع بناؤه فى عهد سبتيموس سافاروس ، اطلال قناة تجلب المياه •

◆ **طبرسق** (Thubursicum Bure) : باب رومانى كبير ، قلعة بيزنطية •

◆ **عين تنقع** (Thignica) : قوس نصر صغير ، معبد ما زالت بعض جدرانه قائمة اما اعمدته الكورنتيسة فهى منتثرة على الارض ، قلعة بيزنطية ذات خمسة ابراج مربعة •

◆ **حمام الدراجى** (Bulla Regia): حمامــاتهــا رائعــة ، صهاريج كبيرة يسكنها الآن بعض الفقراء من الاهالى ، بيوت رومانية كثيرة مزينة بالفسيفساء ، آثار ساحة الفوروم ، معبد الكابتول ، كنيسة ، معبد ابولون ، مسرح ، ملعب ، ثلاثة قصور تحت الارض مزينة بالفسيفساء وسميت باسماء تدل على تلك الزينة : قصر الصيد فى البر ، قصر الصيد فى البحر ، قصر امفيتريت الاهة البحر •

◆ **شمتو** (Simitthu) : المشهورة بالمرمر النوميدى الجميــل ذى اللون الوردى والاصفر : ساحة الفوروم مبلطة (٤٠ م على ٢٣م) مسرح مازال قائم الجدران ، حمامات تاتيها المياه بواسطة قناة تحملها تارة اقواس وتختفى تارة اخرى تحت الارض ، آثار جسر على وادى مجردة ، ملعب كله مدفون تحت التراب •

وكانت المدن الآتية تابعة للبلاد التونسية (البروقنصلية) ايضا :

◆ **قالمة** (Calama) : مسرح رومانى وقع تجديد بنائه سنــة ١٩٠٨ على اسس مسرح عتيــق ، بقايا حمامــات رومانيــة •

◆ **خميسة** (Thubursicu Numidarum) : تبعد ٩٥٠ م٠ على منابع وادى مجردة ، آثار كثيرة واسعة : باب رومانى جبار ، قاعة قضائية او محكمة ذات ٢٦ عمودا ضخما ، قاعات اخرى عديدة ، معبد الكابتول ، معبد آخر تحيط به اعمدة من مرمر شمتو ، مسرح ما زال فى هيئة حسنة تمثل فيه الروايات احيانا ، اطلال حمامات • • •

◆ **سوق هــراس** (Thagaste) : مسقــط راس القديس اوغستينوس (Saint Augustin)

◆ **مادوروش** (Madauros) : كانت مدارسها ذائعة الصيــت زاول فيها القديس اوغيستينوس تعلمه ، وهذه المدينة هى التى ولد

فيها الكاتب الروائى ابوليوس (Apulée) الذى الف روايات كثيرة اشهرها رواية « الحمار الذهبى » (l'Ane d'Or) او المسوخ (Les Métamorphoses) فى ١١ جزءا صور فيها الحياة المغربية تصويرا دقيقا كله الوان جذابة وحقائق لاذعة • وتوجد فى هـــذه المدينة آثار رومانية منها الحمامـات العريضة الواسعـــة ومعاصـــر الزيت التى وقع تجديد معصـــرة منهــا ، والكنيسة الكبيـــرة مـــن عهد البيزنطيين •

◆ **تبسة** (Theveste) : فيها قوس النصر المعروف باسم قوس قاراقالا او « الباب القديم » ، ويحيط بها سور بيزنطى احد ابوابه القوس المتقدم ذكره ، وبها معبد يرجع عهده الى ايام آل سافاروس•

ـ المدن النوميديـــة :

• **قرطة او قسنطينة** (Cirta) : عاصمة سيفاكس وماسنيسا ويوغرطة ، هدمها ماكسنس (Maxence) (١) سنة ٣١١ لما تـــار على الاسكندر الامبراطور الافريقى • ثم اهتم القيصر قسطنطينيوس (Constantin) باعـادة بنائهــا وسماها باسمـــه(قسنطينـــة (Constantine

• **سكيكدة** (Rusicade = Philippeville) :اسمها فنيقى الاصل بها صهاريج رومانية ، ومسرح رومانى طوله ٤٠ ، ٨٢ م• يـــاوى ما بين ٥٠٠٠ و ٦٠٠٠ متفرج ، وهو اكبر من مسرح تيمقاد ومن مسرح جميلة

◆ **القل** (Chullu) كانت مصرفا تجاريا للفنيقيين ثم صارت مستعمرة رومانية مشهورة بصبغة الارجوان

◆ **خنشلة** (Mascula) كانت من المدن الرومانية المشهورة شمال شرقى اوراس

◆ **لمباز** (Lambaesis) نجد فى تلـــك المديـــنة المعسكـــر الرومانى الذى وقع بناؤه فى عهد هادريانوس فى اوائل القرن الثانى

---

(١) اوريليوس فاليريوس ماكسنسيوس (Aurelius Valerius Maxentius) امبراطور رومانى من سنـــة ٣٠٦ الى سنة ٣١٢ ، ولــا لجأ الاسكندر البانـونى (Pannonien Alexandre) الى قرطة وجعل نفسه امبراطور افريقية بهــا ، ثــار عليــه ماكسنسيوس ، وقهره ، وهدم مدينة قرطة وذلك سنة ٣١١ •

طوله ٢٠٠ م ٠ ثم بعد ذلك ، قبل سنة ١٤٦ ، بنى الجنود معسكرا آخر (praetorium) اوسع من الاول (٥٠٠م على ٤٢٠ م) وهو المستعمل الآن كسجن الاصلاح او اصلاحية ، وما زالت اطلال الحمامات بلمباز تظهر فيها قاعات البلانات الحارة واضحة ، وبلمباز ايضا ملعب اهليجى الشكل وقع بناؤه فى عهد ماركوس اوريليوس ، وقوس نصر من ايام كومودوس -

◆ **تيمقاد** (Thamugadi) : مدينة رومانية اسسها تراجانوس سنة ١٠٠ ، وهدمها الاهالى فى اوائل القرن السادس ، ثم اعاد البيزنطيون بناء جانب منها ، ولكنها تهدمت من جديد اثناء الفتح الاسلامى ، والحالة التى هى عليها الآن ترجع حينئذ الى آخر القرن السابع ٠ وفيها قوس نصر يعرف بقوس تراجانوس ولكنه فى الحقيقة يرجع تاريخه الى بداية القرن الثالث ، وحمامات ، ومرحاضات ، ومسرح ٠٠٠ ولكن تيمقاد مشهورة باكثر من كل ذلك بمكتبتها التى هى وحيدة من نوعها ٠

◆ **جميلة** (Cuicul) اطلال رومانية فى ارض ذات كسور وفى مكان رائع رهيب : معابد مختلفة ، ساحة اولى ، ثم ثانية ، مسرح (سنة ١٦١) يسع ٣٠٠٠ متفرج ، قاعة البلدية ، معبد الكابتول ، حمامات كبيرة (سنة ١٨٣) ، قوس نصر قاراقالا (سنة ٢١٦) ٠ ٠ ٠ وبلغت جميلة اوج عظمتها فى النصف الاول من القرن الثالث ٠

- مدن مريطانية القيصرية

◆ **قيصارية او شرشال** (Caesarea) هى العاصمة واكبر المدن الساحلية ، وهى مدينة ايول (Iol) التى اسسها الفنيقيون فى القرن الرابع ق ٠ م ٠ ، ثم كبرها وحسنها الملك يوبا الثانى وسماها قيصارية اعترافا بجميل القيصر اغسطس وجعلها عاصمة مملكته مريطانية : بها ساحة رومانية وحمامات ومسرح وملعب وميدان وبها تماثيل كثيرة على غاية من الجمال مثل تمثال اغسطس وتمثال فينوس الاهة الجمال (انظروا اللوحة رقم ٧٠/٧١)

• سلسلة من الموانى الصغيرة المتتابعة : جيجل (Igilgili) ، بجاية (Saldae) ، تقزيرت (Imnium) ، دلس (Rusuccuru) ، ماتيفو (Rusguniae) ، الجزائر (Icosium) ، وهى العاصمة فى

الوقت الحاضر ولم يكن لها شان يذكر في الماضي ، تيبازة (Tipasa) : اطلال ملعب طوله ١٠٠ م ٠، وتنفية بهاعين فوارة تحدثنا عنهافيمكان آخر ، ومسرح ما زال على هيئة حسنة ، وحمامات واحواض للسباحة وغير ذلك من الآثار ، قبة سيدى ابراهيم (Gunugu) بهـا اطلال رومانية ، تنس (Cartennae) اكتشف فيها سنة ١٩٣٦ كنز كله اشياء من الذهب يرجع عهدها الى الرومانيـين وهـى الان بمتحف الجزائر ، سان لان (Portus Magnus) ومنها اتـت الـواح الفسيفساء الجميلة الموجودة بمتحف وهران ٠ وقد رفع الردم ايضا على ديار وحمامات رومانية بتلك المدينة ٠

• ونذكر ايضا ، فوق نجد نوميدية : اسطيف (Sitifis) ، وقد ذهب شكلها القديم واخذت شكلا جديدا عصريا ، عين الروى (Horrae) (١) ، سور الغزلان (Auzia) سور جواب (Rapidum)

• ونذكـر في النهايـة على الخطوط العسكرية : عين تيموشانت (Albulas)(٢) حمام بوحجر (Dracones) ، السيق (Tasaccura) ، غليزان (Mina) للة مغنية (Numerus Syrorum) ، تلمسان (Pomaria)

– مدن مريطانية الطنجية

كانت الحياة تنحصر على الاخص في المواني ، ونذكر منها :

• **طنجة** (Tingi) وهي العاصمة ومن اقدم مدن المغرب كان فيها السكان من العصور النيوليتية او عصور الصوان ، وذكرها حنون في رحلته سنة ٣٥٠ ق ٠ م ٠

• **العرايش** (Lixus) كانت مركزا فنيقيا ثم قرطاجيا ، ثم مستعمرة امبريالية في عهد الرومان ، وبنى الاهالى بعد ذلك بلدة تشميش فوق اطلال ليكسوس الرومانية ٠ بها آثار قديمة منها السور وقصر روماني مزين بالفسيفساء ، ومقابر بونيقية

• **قصر فرعون او وليلى** (Volubilis) ان هذا الاسم (وليلى) بربرى الاصل ، وكان بذلك المكان سكان من العصر النيوليتي اختلط

---

(١) هي غير Horrae Caelia اى هرقلة (Hergla) الموجودة قرب مدينة سوسة بالبلاد التونسية ٠

(٢) كان العرب يسمون ذلك المكان (قصر ابن سنان) ٠

بهم فيما بعد العنصر البونيقى ، ثم صارت تلك المدينة دار اقامة للملك يوبا الثانى ، وبطليموس ثم للولاة الرومانيين ، وتوجد بها آثار رومانية كثيرة : سور بناه ماركوس اوريليوس طوله ٣٥٠ م . وهو مازال قائما ، به ثمانية ابواب واربعون حصنا ، قوس نصر قاراقالا ، ساحة الفوروم (القرن الاول) ، معبد الكابتول (سنة ٢١٧) ، حمامات غالينيوس ، ديار رومانية فسيحة ، معاصر للزيت ، تحف فنية ذات قيمة عظيمة منها كلب من البرنز وراس من المرمر

ونفهم من كل ما ذكرناه ان الحياة المادية كانت تجرى بافريقية المترمنة مثلما كانت تجرى بروما ، وكان هذا الترمين سطحيا فقط (اذ بقى ابن البلاد افريقيا صميما) ويبدو فى شكلين بارزين من اشكال التطور والرقى :

ـ شكل العيشة الرفيهة التى يعيشها الافريقى المتمول فى ضيعته المنظمة حسب النظام الرومانى والذوق الرومانى ،

ـ شكل الحياة البلدية بالفوروم والحمامات والبنايات الفخمة على نمط ما هو موجود بروما .

ولذلك نقول بان الافريقى قد « ترمن » ولكنه لم يترمن فقط فى حياته المادية واساليب عيشه ، بل ترمن ايضا فى شعوره ، وفى اخلاقه ، وذلك لانه صار يشعر بفكرة التضامن ، والتئازر ، والتعاضد وصار يشعر بانه فرد من جماعة له مكانه وله رتبته فى الهيكل البلدى الذى هو عضو منه وجزء من اجزائه .

ونحن لا نقول بان فكرة الجماعة كانت مفقودة عند الافريقيين ، بل انها كانت موجودة ، ولكنها كانت تكتسى شكلا آخر ، شكل العصبية القبائلية ، شكل الشق ضد الشق ، والحزب ضد الحزب ، والصف ضد الصف ، وكانت « الجماعة » تعتبر وسيلة من وسائل الدفاع والمقاومة اكثر مما كانت تعتبر وسيلة من وسائل الحياة الاجتماعية ، كانت تعتبر سلاحا للهجوم والفتك بالغير اكثر مما كانت تعتبر اداة عمل مشترك .

فقد ترمن الافريقى فى حياته المادية ، وقد ترمن فى شعوره واخلاقه وسنرى انه لم يترمن فحسب ، بل انه تلطن فى لغته ولهجته وتعبيره وتنصر فى معتقده ودينه ، انه ترمن ، وتلطن ، وتنصر ، ولكنه استمر ليبيا افريقيا صميما ، وهذا ما سنحاول بيانه . . .

الحياة العقليــة والدينيــة

ـ الحياة العقلية

قبل مجيء الرومانيين الى افريقية كانت هناك لغتان مستعملتان : اللغة الليبية وهي لغة ابناء البلاد الاصلية ، واللغة البونيقية وهي لغة القرطاجيين التي لم تنحصر في منطقة نفوذ قرطاج ، بل انتشرت وعمت وصارت مستعملة حتى في نوميدية ومريطانية زمن استقلالهما

وفي مدة الاحتلال الروماني لـم تضمحـل اللغة الليبيــة واللغــة البونيقية ، ولكن اصبحت اللغة اللاطنية هي اللغة الرسمية المستعملة في المحاكم والمجالس ، والمذاكرات والمناقشات البلدية ، والمراسلات والمفاهمات الادارية ، واصبح كل فرد في غالب الاوقات مثنوى اللغة ، اى يتكلم بالليبية واللاطينية ، او بالبونيقية واللاطينيــة ، فكــان يستعمل اللغة الليبية او البونيقية في حياته العائلية ، وفي علاقاته مع خدمه واقربائه وجيرانه ، ويستعمل اللغة اللاطينية في الامــور الهامة والرسمية ، وشؤون الحياة العمومية ٠
والذى اعان على انتشار اللغة اللاطينية :

١) **الخدمة العسكرية** : اذ كان الجندى الافريــقى يصيــر يحسن التكلم باللاطينية بطبيعة الحال بعد ما يقضى مدة طويلة في الجندية ٠

٢) **المدارس** : غير ان الدولة كانت لا تتدخل في مسالة التعليم ونشره الا نادرا وبصورة استثنائية ، والبلديات هي التي كانت تهتم باعداد محلات التعليم ، وانتداب المعلمين ، ودفع رواتبهم واجورهم ، واذا كانت البلدية فقيرة او متقاعسة وغير مكترثة بنشر الثقافة ، يتطوع احد الاغنياء او جماعة من الافراد بتأسيس مدرسة والقيام بشؤونها وتحمل نفقاتها ٠

ولم يكن التعليم الروماني مشتملا على درجات واضحة من ابتدائى وثانوى وعال ، واذا تكلمنا على جامعة او على كلية قرطاج ، فما ذلك الا مجرد قول وتعبير جرت به العادة لا اكثر ولا اقل ٠ غير انه كان

هناك تدرج فى التمارين حسب سن الطفل ومقدرته ومعلوماته ، فيقع الابتداء بالقراءة والكتابة تحت جلد مقرعة المعلم (انظروا الصورة)



العقاب البدنى عند الرومان

ثم يقع الانتقال الى تفسير نصوص الشعراء والمؤرخين ، ثم التدريب على الخطابة ، والالقاء ، والجدل • وان ارقى هذه التمارين واعلاها درجة ، اى ما كان منها موجها الى الطلبة المتقدمين فى السن والمعرفة ، يتلقاه هؤلاء الطلبة بالمدن الكبرى مثل قرطاج وقرطة حيث كانت الحياة الفكرية مزدهرة ، والتنافس مستمرا ، والكتب موجودة بكثرة ••• ولو انك تجد مدارس لا باس بها حتى فى المدن الاخرى التى هى اقل شانا ، فكنت ترى الاطفال ياتون من بعيد لمزاولة دروسهم فى مدرسة ماداوروش (Madaure) المشهورة

وكانت كل مدينة تشجع ابناءها على التعليم وتحثهم عليه بجميع الوسائل ، وتقيم الاحتفالات لتمجيد الناجحين منهم ، الذين اصبحوا من النحاة البارزين او من فطاحل علماء البيان ، وكانوا ينتدبونهم لمراتب الشرف ، ويقيمون لهم التماثيل ، ويسجلون ما احرزوا عليه من نجاح مدرسى وفوز ادبى •

وان افريقية لم تبرز للوجود نبغاء محليين فقط ، بل انجبت اعلاما ذاع صيتهم فى الدنيا باسرها ، لا فيما يتعلق بالادب النصرانى فقط ذلك الادب الذى كان للافريقيين فيه مركز ممتاز ومكان مرموق ، بل حتى فى الادب الوثنى ايضا ، وذلك ابتداء من القرن الثانى • ويمكن ان نذكر من بين فحول الخطابة والبيان فى ذلك التاريخ ، العالم النحرير افرنطوس القسنطينى (le rhéteur Fronton) المولود بقرطة وكان استاذ الامبراطور ماركوس اوريليوس ، وقد حصل على شهرة كبيرة وادرك فى ميدان الادب ما يمكن اعتباره المثل الاعلى حسب فهم معاصريه ، واننا اذا وجدنا اليوم فى مؤلفاته شيئا

كثيرا من التكلف والتصنع والادعاء وفساد الذوق ، فانه يجب ان لا ننسى بان تلك النقائص كانت تعتبر فى عصره مـن الكمـالات والمحاسن ، ولذلك كان افرنطوس يعد فى حياته فريد عصره ومن اكبر فنانى زمانه ٠ ونذكر ايضا الكاتب الروائى الشهير ابوليوس(Apulée) المولود بمداوروش سنة ١٢٥والذى كان معروفا بقريحته العجيبة ، ونبوغه النادر ،وولعه بالنظر الى الاشياء لمعرفة اسرارها ،وشغفه بكل فلسفة وبكل مذهب في التصوف ، فقد كان فنانا رقيقا وخطيبا بليغا ، ذرب اللسان ، خصبا فى ايجاد الالفاظ وابتكار المعانى ، وهو مؤلـف الرواية الفلسفية الخالدة (الحمار الذهبى)

ومن هذا نفهم ان الافريقيين فى وسعهم وفى مقدورهم الوصول بسهولة الى ثقافة عالية ، وتحقيق احسن نموذجات فى العلوم الادبية والاتيان بالعجائب ، لكنهم عاجزون على ابداء مواهبهم والتعبير عن افكارهم ما داموا راكدين فى حدود لغتهم الخاصة ، وكابتين حواسهم ومنكمشين على انفسهم ، ولا بد لهم حينئذ من تلقى ثقافة اجنبية تكون لهم بمثابة الخميرة ، وعند ذلك تبرز مواهبهم الكامنة ، فهذا الملك هيامبسال لم يؤلف كتبه فى التاريخ باللغة الليبية بل الفها باللغة البونيقية ، ويوبا الثانى الف كتبه باللغة اليونانية او الرومانية

فقبل مجيء الرومان كان عندنا ادب ليبى باللغة البونيقية ، وفى عهد الرومانيين وجد عندنا ادب ليبى باللغة اللاطينية ، وبعد الفتح الاسلامى صار عندنا ادب ليبى باللغة العربية ، وكذلـك فى عهـد الاستعمار الفرنسى ظهر عندنا ادب ليبى باللغة الفرنسية ٠

ب ـ الحيـاة الدينية

لم يكتف الافريقيون باستعمال لغة الغالبين ، بل اخذوا عنهـم ايضا معتقدهم ، ودانوا بدينهم ، وتمذهبوا بمذهبهم ، اذ ان الدين جزء متمم للحضارة الرومانية ٠

غير ان كثيرا منهم كانوا محافظين على اعتقاداتهم القديمة مـن تقديس الجبال والعيون والمغاور والاشجار وعبادة الحيوانات وجميع قوات الطبيعة ، او كانوا منعكفين على عبادة آلهة القرطاجيين ، اى تانيت التى اصبحوا يسمونها سيلستيس او الالاهة السماويـة ، وبعل الذى صاروا يسمونه ساترنس المعروف بمنجله ٠

لوحة ٩٠

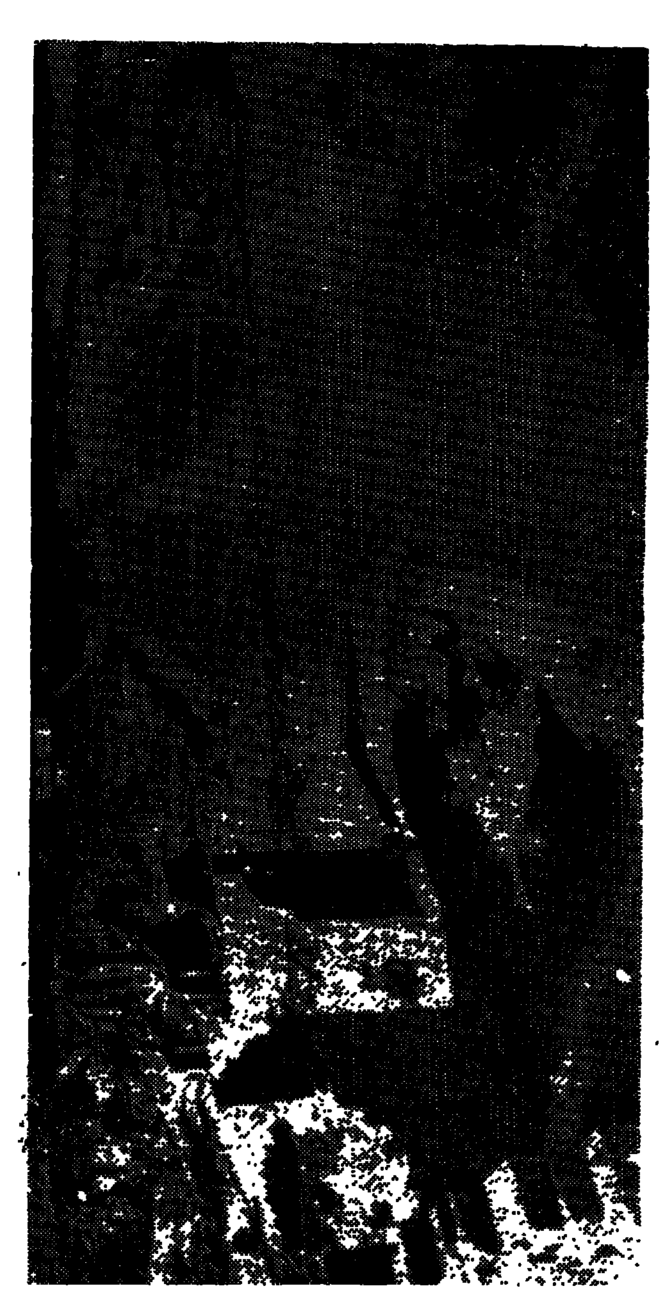
انظر الصفحة رقم ٣٤٩ من هذا الكتاب



طرابلس : قوس ماركوس اوريليوس ذو الواجهات الاربع

لوحة ٩١

انظر الصفحة رقم ٣٤٩ من هذا الكتاب



لبدة (طرابلس) : منظر عام لأطلال الحمامات الرومانية (على مساحة ثلاثة هكتارات)

لوحة ٩٢

انظر الصفحة رقم ٣٥٠ من هذا الكتاب



لبدة (طرابلس) : اطلال كنيسة ساقاوسية

لوحة ٩٣
انظر الصفحة رقم ٣١٧/٣٤٢/٣٥٥ من هذا الكتاب



لمبــاز : « البــريطوريــوم » او دار البريطور» والقائد الاعلى للجيش الرومانى
(الواجهتان الشمالية والجنــوبية)

اما الطبقة الارستقراطية فهى نبذت فى الغالب هذه المعتقدات القديمة وعوضتها بآلهة الرومانيين وفى طليعتها الثالوث الكابتولى (la triade capitoline) : جبتر وجينون ومينرفا ، ثم آلهة اخرى منها : مارس (Mars) اله المستعمرات العسكرية ، وهرمس (Mercure) اله التجارة والصناعة وعلى الاخص باعة الزيت ، وسيريس اله الحصاد ، وباخوس اله الخمر ، ونبتون اله الانهار والبحار ، واسكولاب اله المياه المعدنية الحارة ، وفينوس الاهة الجمال ... زد على ذلك عددا كبيرا من الآلهة الشرقية اى آلهة مصر وآسيا الصغرى وسوريا وبلاد العجم ، فكانت كل هذه الآلهة تعبد برومة وكذلك ايضا بافريقيا الشمالية ، ادخلها الموظفون الاجانب والجنود والتجار ، وهذا يدل على ان الدين برومة كان يمتاز بالتسامح وعدم التعصب ، وكان يقبل الاديان الاخرى (ماعدى المسيحية فى اول الامر) وكان الرومانيون المثقفون يعتقدون ان جميع الاديان الخاصة ما هى الا اشكال مختلفة للدين العالمى ، وان اسماء الآلهة والآلهات ما هى الا تعيين اصل الهى واحد متفرق فى العالم . وكان العوام من الشعب يعتقدون من جهة اخرى انه بقدر مايزداد عدد الآلهة التى يعبدونها ويقدسونها بقدر ما يضمنون لانفسهم حماة يحمونهم ويصرفون عنهم الشر والاذى ... فكان ذلك الموقف الفلسفى من طرف المثقفين ، وهذا الاعتقاد الخرافى من طرف البسطاء يؤديان ويؤولان عمليا الى نتيجة واحدة وهى قبول الاديان المختلفة والترحيب بها كلها .

ولكن تقديس الامبراطور كان فوق كل عبادة ، وكان له المكان الاول ، وكان يمتاز بمواكبه الرائعة التى يهرع اليها الناس من كل فج ، ويقع فيها التطواف ، وتقدم الضحايا والقرابين ، وتهيئ الاطعمة المقدسة وتنقلب المدينة الى حانة او خمارة ، وينهمك الناس فى الفساد والفحشاء والدعارة والفجور .

وفى ذلك التقديس اشارة للوفاء ، وميثاق للاخلاص ، وعهد للولاء نحو الامبراطور .

ـ الديانة اليهودية

ان اليهود كانوا بدون شك رافقوا الفنيقيين فى سفراتهم الى الموانى والمصارف التجارية بافريقية ، وان تشتت يهود فلسطين من

ايام الفرس جلب الى افريقية والى العالم الرومانى باسره عددا كبيرا من المهاجرين ، وقد وقع تقدير عدد اليهود المبددين فى العالم فى القرن الاول من الميلاد بما يفوق ستة او سبعة ملايين ، منهم مليون بمصر ، وكان عددهم مرتفعا ايضا بطرابلس ، وكانوا يعيشون احرارا طبق عوائدهم وتقاليدهم وقوانينهم ، ويقومون بدعاية كبيرة تحت ظل بيعتهم ، وكان التبشير ضاربا اطنابه والوثنيون يعتنقون دين اليهود بكثرة ، ثم انتشرت الديانة اليهودية فى بعض القبائل بالجنوب الغربى من البلاد التونسية .

ــ الديانة النصرانية

لقد بدا التبشير بالانجيل حول بيع اليهود فى اول الامر ، بالمدن والموانى الساحلية ، وعلى الاخص بقرطاج ، ثم انتشر فى الحقول وفى داخل البلاد . ويمكن ان نقول بان النصرانية بدات تظهر بافريقية فى آخر القرن الاول ، ولكنها لم تبرز حقيقة فى التاريخ الا فى آخر القرن الثانى . فان صيحة ترتليانوس المشهورة : « نحن لم نخلق الا البارحة ، ومع ذلك اصبحنا نملا كل مكان ! » هى من خطابه الذى القاه سنة ١٩٧ ، ومن ذلك نفهم ان المسيحية قد تقوت واشتد ساعدها على الاخص فى النصف الثانى من القرن الثانى ، ففى ذلك التاريخ اصبحت متمركزة فى البروقنصلية .

وكانت حياة المسيحيين الاولين بافريقية لا تختلف كثيرا عن حياة بقية النصارى المنبثين فى مدن البحر المتوسط ، فكانوا يجتمعون بدار الاسقف (١) (l'épiscope) للاصغاء الى تلاوة الانجيل وتفسيره ، وللصلاة جماعة ، ولتناول القربان المقدس ، وكان المطران (l'evêque) رئيس الجميع ، يساعده فى عمله القسوس (les presbytes) او الكهنة (les prêtres) ، والقارىء (le lector) وهو من درجة الكهنوت الصغرى والمكلف بحفظ الكتب المقدسة ، والشمامسة (les diacres) المكلفون بالنواحى المادية المتعلقة بالشعائر وعوما يسمى بالتشميس (l'office de diacre)

وبقى النصارى مدة طويلة وهم يقيمون شعائر دينهم بدون معارضة او تقليق من طرف السلطة الرومانية التى كانت تتركهم

(١) الاسقف (l'épiscope) : فوق القسيس ودون المطران ، وكثيرا ما تطلق هذه الكلمة على المطران ايضا (l'évêque)

وشانهم مثلما كانت تتسامح عادة مع الاديـان الاخـرى باختـلاف انواعها ، فكانوا يجتمعون فى محلهم الخاص ، ويقبضـون معـاليم الاشتراكات ، ويكسبون الاملاك والمتاع ، وكانت لهم مقابرهم الخاصة بهم والمنفصلة عن جبابين اليهود او مدافن الوثنيين،فكانت مقابرهم غير مسقفة ، ولكنهم كانوا يدفنون موتاهم ايضا فى دهاليـز تحت الارض كانوا يسمونها بالسراديب (cryptes) ثم الديـاميس (catacombes) ، واشهرها الدياميس الموجودة بمدينة سوسة وفيها ما يزيد على عشرين الفا من قبور النصـارى ، يرجـع عهـد اقدمها الى آخر القرن الثانى •

ويظهر ان فى ذلك التاريخ تقريبا بدات السلطة الرومانية فى اتخاذ وسائل القسر والقهر ضد النصارى • فاول عملية منعمليات القمع كانت سنة ١٨٠ ، القى فيها القبض على اثنى عشر نصرانيا حكم عليهم القنصل بالاعدام ، فضربت اعناقهم بقرطاج •

وبعد ذلك بثلاثة وعشرين سنة اى فى سنـة ٢٠٣ اتهم ستـة اشخاص من سكان طبربة (Thuburbo Minus) • باعتناق المسيحية فعذبوا والقى بهم امام الحيوانات المفترسة بملعب قرطاج ، وان حجج استشهادهم التى اصبحت لها قيمة الوثائق التاريخية سجلت لنـا اسماءهم :

١ ــ فيبيا بربتوة Vibia Perpetua (كانت ترضع ابنها)
٢ ــ فيليسيتاس Felicitas (كانت حاملا)
٣ ــ ريفو كاتوس Revocatus
٤ ــ ساتور نينوس Saturninus
٥ ــ سيكوندولوس Seccndulus
٦ ــ ساطوروس Saturus

وان بربتوه لم ترض بنبذ دينها رغما عن جميع تضرعات افراد اهلها وتوسلاتهم •

غير ان نتيجة هذا القمع كانت عكس ما ارادته السلطة الرومانية اذ تضاعف عدد المشايعين للنصرانية •

وفى عهد قاراقالا سنة ٢١٦ ، تم فى بداية عهد داسيوس(Decius) سنة ٢٤٩ حكم على عدد كبير من النصارى بالاعدام او بالنفى

وفى تلك المدة (سنة ٢٥٣) انتشر الطاعون بقرطاج وفتك بالعباد

ـ وفي ٢٥٧/٢٥٩ صدرت اوامر الامبراطور فاليريانوس (Valerianus) ضد المسيحيين وعلى الاخص افراد هيئة الاكليرس (١) فوقع الحكم على عدد كبير من المطارنة والاساقفة والقساوسة والشمامسة بالنفي او بالسجن او بالاعدام ، وكان من بينهم القديس سيبريانوس (Saint Cyprien) مطران مدينة قرطاج ، وقع ابعاده اولا الى قربة ثم ضرب عنقه بقرطاج في ١٤ سبتمبر ٢٥٨

ـ ولكن الاضطهاد المبيد حقيقة هو الذى وقع فى سنتى ٣٠٣ و ٣٠٤ اثر الاوامر التى اصدرها ديوكليسيانوس (Diocletianus) والتى تنص على وجوب تقديم الضحايا والقرابين للاوثان والآلهة الرسمية من طرف جميع المسيحيين ، وعلى وجوب تهديم كنائسهم واتلاف كتبهم المقدسة واحراقها بالنار • واعدم بافريقية مئات من المسيحيين لامتناعهم من تقديم القرابين للقيصر والآلهة ، وامتثل عدد كبير منهم في الظاهر خوفا من التعذيب والقتل •

ـ الشيع والنحل النصرانية ـ الدوناتوسية

قد ظهرت بالشرق شيع ونحل كثيرة من بداية المسيحية ، ثم انتشرت فى البلاد الافريقيه وكونت لها انصارا واتباعا • ونذكر من بين هذه النحل :

ـ **المنطانوسية** (Montanisme) ابتدعها منطانوس الفريجى (Montanus) سنة ١٦٠ او ١٧٠ ، ويقول هذا المذهب باستمرار تدخل وتوسط روح القدس او البيرقليط (Paraclet) لاتمام الاسفار الالهية • وقد انتشرت هذه البدعة بافريقية وايطالية ، وتمذهب بها ترترليانوس سنة ٢٠٠ وصار من اشد المتعصبين لها والمدافعين عنها ثم انه اقلع عنها ونبذها بعد ذلك •

ـ **المارسيونية** (Marcionisme) ابتدعها الفيلسوف مارسيون (Marcion) من مدينة سينوب باسيا الصغرى (تركيا) • وتقول هذه البدعة بان العالم من صنع « الصانع » (le démiurge) او الاله العادل ويعارضه الاله الخير (بتشديد الياء) • فان الاله العادل او « الصانع »

(١) اكليرس (برفع الراء) Clergé : هم رجال الكنيسة les ecclésiastiques مثل المطارنة (les evêques) والاساقفة (les presbytes) والقساوسة (les prêtres) والشمامسة • (les diacres)

هو الذى اصطفى بنى اسرائيل وكرمهم وميزهم على العالمين وانزل عليهم كتب العهد القديم (اى التوراة) ولكن انتهت قدرته بظهور الاله الخير الذى يتجسد فى يسوع المسيح ويمنح البشرية هبة الخلاص والفداء (Rédemption)

وقد كثر عدد المارسيونيين بايطالية وافريقية ومصر الى سنة ٢٥٠ تقريبا ثم اخذ فى النقصان شيئا فشيئا الى ان زال واضمحل تماما فى القرن العاشر ٠

– **المانوسية** (manichéisme) ابتدعها مانى (Manès ou Mani) الذى حاول من بلاد الفرس الجمع بين المسيحية والوثنية الشرقية ، وبنى مذهبه على الثنوية (le dualisme religieux) اى على وجود الهين اثنين (dithéisme) او عنصرين ازليين : عنصر الخير المتمثل فى النور ، وعنصر الشر المتمثل فى الظلمات والمطابق للمادة ٠ وقد نشبت حرب حامية الوطيس بين هذين العنصرين من اليوم الذى تاثرت فيه المادة باشعاع النور فارادت ان تصعد الى مستواه ٠ وقد خلق اله الخير الانسان الاول (آدم) فتغلبت عليه قوى الظلمات وحبسته فى المادة ٠ وان البشرية التى تولدت منه هى ايضا محبوسة فى المادة ولا يمكن لها الخلاص الا بالمعرفة الحقة ٠ وان نشر هذه المعرفة الحقة بين البشر هو مشروع الخلاص والانقاذ والفداء (Rédemption) الذى قام به يسوع المسيح ٠

وبعبارة اوضح فان مذهب مانى يعتبر ابليس صانع المادة والشر والكتب القديمة (التوراة) ويجعله معارضا للاله خالق الارواح والخير والكتب الجديدة (الانجيل)

وقد انتشرت المانوسية ايضا بافريقية وبجنوب ايطالية ، وانتسب اليها القديس اوغستينوس (سنة ٣٨٤) قبل توبته واهتدائه الى الله بفضل دعاء امه مونيقة (Sainte Monique) وابتهالاتها ٠

– **الاريوسية** (Arianisme) ابتدعها اريوس (Arius) المولود بالاسكندرية سنة ٢٨٠ والذى بدا فى نشر مذهبه سنة ٣٢٣ وهو مذهب الوحدانية الذى ينفى الوهية « كلمة الله » (١) (le Verbe)

---

(١) تعتبر « كلمة الله » عند الكاثوليك الاقنوم الثانى (اى الشخص الثانى) من الثالوث الاقدس (Sainte Trinité) وهذه الاقانيم الثلاثة التى تتركب منها الذات الالهية هى : الاب ، والابن او كلمة الله ، وروح القدس ٠

المجسدة فى يسوع المسيح • فبينما كان اليسوع معتبرا فى نظر الكاثوليكيين الها ثانيا وابن الاله بوحدة الجوهر تجمعت فيه كل صفات الالوهية ، يرى اريوس واشياعه انه ليس باله خالد قدير لا اول له ولا آخر •

ولم ينتشر هذا المذهب بكثرة بافريقية ولكنه سوف يصير المذهب الرسمى وسوف يفرض فرضا فى عهد الونداليين •

ـ **الدوناتوسية** (Donatisme) وزعيمها فى هذه المرة افريقى من بلادنا اسمه دوناتوس (Donatus) وان الدوناتوسية ظهرت بافريقية فى بداية القرن الرابع اثر الاضطهاد الفضيع ضد المسيحيين واوامر ديوكليسيانوس (٣٠٣ / ٣٠٤) ، وقلنا ان عددا كبيرا من المسيحيين عذبوا وقتلوا ، وان عددا آخر امتثلوا لتلك الاوامر خوفا من التعذيب والقتل

وكان هناك من بين الشمامسة (les diacres) من فرطوا فى الكتب المقدسة وسلموها للوثنيين يعبثون بها ويحرقونها • فكانت الحملة الدوناتوسية موجهة ضد رجال الكنيسة الذين ضعفوا ووهنوا ولم يشدوا ازر الشهداء ، وضد الشمامسة الذين سلموا الكتب و الاوانى المقدسة للوثنيين فخانوا الامانة وخانوا العهد (les traditeurs) ويرى الدوناتوسيون ، وعلى راسهم زعيمهم دوناتوس الاكبر ، ان هؤلاء الاشقياء ينبغى ابعادهم عن الكنيسة

وكانوا يتهمون منصوريوس (Mensurius) مطران قرطاج وقاسيليانوس احد شمامسته بمعاملتهم معاملة حلم ولين ورحمة • ولما مات منصوريوس وانتخب شماسه قاسيليانوس (Cécilien) مطران قرطاج وكان من اكبر المبغوضين لدى الدوناتوسيين ، قامت قيامة هؤلاء ولم يعترفوا بتسميته (سنة ٣١١)وانفصلوا حينئذ عن الكنيسة الفينيقية واصبحوا من « المنشقين » او من « الخوارج » ، وصاروا يعلنون بان كنيستهم هى « كنيسة القديسين الاطهار » (l'Eglise des Saints) بخلاف كنيسة الكاثوليك فهى « كنيسة ابناء الاثم والخطيئة » (les fils des pêcheurs) واستمر هذا الصدع ، والانقسام فى الكنيسة الافريقية طيلة القرن الرابع

وقد انكرت الدوناتوسية وحكمت ضدها مجامع كثيرة منها مجمع آرل (Concile d'Arles) سنة ٣١٤ • • • ولكن الذى ضربها الضربة

القاضية هو الاجتماع الرهيب الذى انعقد فى قرطاج سنة ٤١١ • واستمرت الدوناتوسية رغم ذلك منكمشة مجهولة الى الفتح الاسلامى العربى •

والجدير بالملاحظة هو ان الدوناتوسية لم تكن مذهبا جديدا (doctrine) ضد مذهب آخر ، او بدعة (hérésie) او نحلة (Secte) مثلما رايناه فى المذاهب والبدع والنحل المتقدمة ، بل كانت مجرد « خروج وانفصال وانشقاق » (un Schisme) عن الكنيسة الكاثوليكية وعن رجالها الذين كانت تعتبرهم غير شرعيين ولا تعترف بتسميتهم ولا باهليتهم •

ومن وراء هذه الحمية وهذه الحماسة الدينية كان يوجد فى النفوس محرك آخر كامن منذ مدة طويلة يترقب الفرصة لينفجر ، وهذا المحرك القوى هو بغض الطبقات الرومانية المحظوظة والارستقراطية ، ومقت العناصر الاجنبية المستعمرة من الرومانيين ومن لف لفهم •

وقد انضمت الى الدوناتوسيين عصابات من اللصوص من نوع « الفلاقة » كانوا يعرفون باسم « الدوارين » (Circoncellions) اى الذين يدورون ويحومون حول الضيعات (١) • فكانوا يبغضون الاغنياء والسادات ، واذا صادفوا احدهم وهو راكب عربته ووراءه عبيده ، فانهم ينزلونه ويامرون عبيده بالركوب مكانه ويجبرون سيدهم على العدو وراءهم على قدميه • وكانوا يفتخرون باعمالهم هذه ويقولون بانهم اتوا لارجاع العدل الى نصابه ، ونشر المساواة على وجه الارض ، ومناهضة كل حكم قائم فى البلاد على البغى والعدوان •

وكانت صيحتهم الداوية « لله الحمد ! » (Deo laudes !) تستعمل كاشارة للحريق والسلب والنهب والاغتيال ، وكان يسميها القديس

---

(١) هناك شبه كبير بين عصابات «الدوارين» (Circoncellions) والدوناتوسيين (Donatistes) بافريقية من جهة ، وبين :

ـ عصابات « الباقودين » (Bagaudes) او ثورة الفلاحة القرويين بغالية الرومانية ، تلك الثورة المعاصرة والمماثلة للدوناتوسية ولثورة « الدوارين » بافريقية ، وهى كانت ثورة موجهة ضد الاستيلاء الرومانى بغالية اى فرنسا القديمة

ـ وبعصابات « الجاكيين » (Jacqueries) ، بفرنسا فى القرون الوسطى (، سنة ١٣٥٨) ، وهى ثورة الفلاحة القرويين ضد النبلاء والاشراف •

ـ وبعصابات « مجددى العماد » (les Anabaptistes) بالمانيا من سنة ١٥٢١ الى سنة ١٥٤٠ تقريبا وهى ثورة المتعصبين من النصارى مع انضمامها الى ثورة الفلاحة القرويين ايضا •

اوغستينوس«بوق المجازر»(la trompette des massacres)
فالدوناتوسية كانت فى الحقيقة ثورة اجتماعية وفى الوقت نفسه حركة عصيان وتمرد ومقاومة فى سبيل التحرير ، وتعبئة عامة وتجنيد بالجملة ضد الامبراطورية ، وضد اللاطينية ،واصبحت حينئذ سلاحا قويا فى يد المقاومين النوميديين للتخلص من نير الاستعمار الاجنبى •

وقد استمر الانشقاق حتى بعد موت دوناتوس سنة ٣٥٥ ، واستمرت نتائجه خصوصا من طرف القبائل الرحالة وسكان الجبال الذين لم يتاثروا بالمدنية اللاطينية • • •

- القديس اوغستينوس (Saint Augustin)

ان التشيع والبدع والنحل الافريقية وجدت فى سبيلها اكبر معارض والد خصم واشد مهاجم فى شخص مطران عبقرى فذ وهو القديس اوغستينوس الذى تمكن بفضل نبوغه ومقدرته وطول باعه فى ميادين المجادلة والخطابة والتحرير من بعث روح الحياة الجديدة فى الكنيسة الافريقية المتالمة •

قد ولد اوريليوس اوغستينوس سنة ٣٥٤ (١) بسوق اهراس (Thagaste) وهى مدينة كانت تابعة للبروقنصلية فى ذلك التاريخ اى للبلاد التونسية ، وكان ابوه بطريقيوس (Patricius) وثنيا وكانت امه القديسة مونيقة(Sainte Monique) مسيحية من النساء الصالحات • وعاش اوغستينوس فى الوثنية وتعاطى اللعب واللهو والمجون مدة من الزمان ، ودرس البلاغة والفصاحة والبيان بمسقط راسه ثم بقرطاج ثم بميلانو بايطالية (سنة ٣٨٤) وكان اذ ذاك ينتسب الى المانوسية (manichéisme)
وكان رئيس الاساقفة (Archevêque) بتلك المدينة هو القديس امبرواز (Saint Ambroise) فكان لخطبه الوعظية وقع حسن واثر عميق فى نفس اوغستينوس • فاعجب بفصاحة الخطيب فى اول الامر ، ثم صار كلامه ياخذ بمجامع قلبه وكانه يكشف عن نفسه غشاوة ، واصبح يشعر بميل وانجذاب نحو المذهب الكاتوليكى • وعند ذلك بدا باصلاح سلوكه وتهذيب حياته ، وبعد بلبلة واضطرابات مؤلمة رجع الى الله واهتدى الى عقيدة امه القديسة مونيقة التى كانت تبكى بكاء مرا بسبب ضلاله وغيه • وما كان اشد فرح تلك الوالدة المسكينة لما

(١) ومات اوغستينوس بعنابة سنة ٤٣٠ اثناء حصار الوندال •

لوحة ٩٤

انظر الصفحة رقم ٣٥٢ من هذا الكتاب





آثار كنيسة بالكاف : ما زال صدر الكنيسة قائما

LE KEF. Vestiges d'une basilique chrétienne. L'abside est intacte.



لوحة ٩٥

انظر الصفحة رقم ٣٥١ من هذا الكتاب

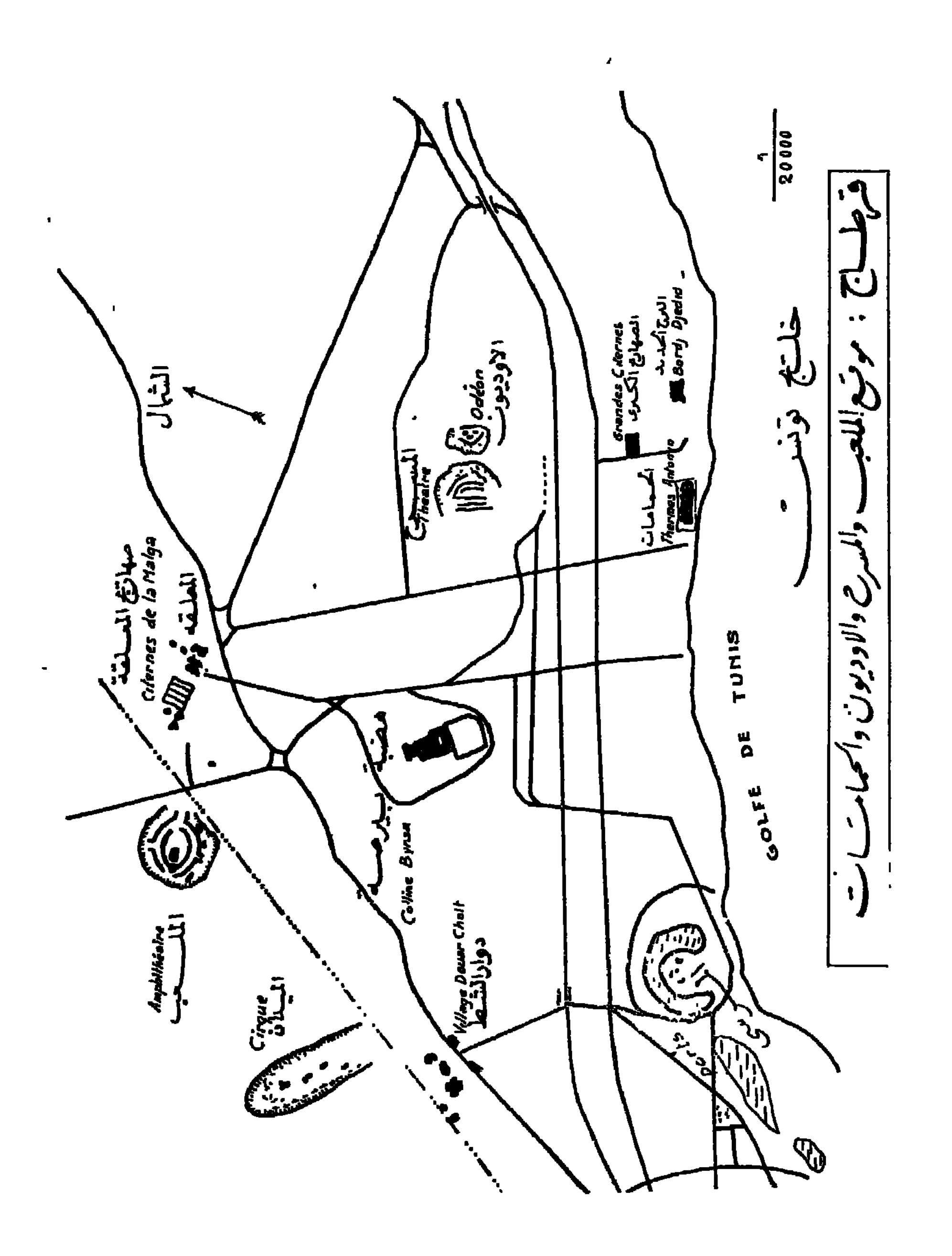






لوحة ٩٦

انظر الصفحة رقم ٣٤٦ / ٣٤٧من هذا الكتاب



لوحة ٩٧

انظر الصفحة رقم ٣٧١ من هذا الكتاب



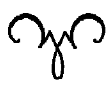
الامبراطور غرديانوس الاول الافريقى

قبل اوغستينوس المعمودية (١) من القديس امبرواز سنة ٣٨٧ وكان عمره اذ ذاك ٣٣ سنة ، ومن ذلك التاريخ كانت حياته كلها عبادة وتقوى وصلاحا وتبشيرا ، فتبرع بجميع ما يملكه من متاع الدنيا على الفقراء والمساكين ، ورقاه اسقف عنابة الى درجة القسوس سنة ٣٩١ رغما عن امتناعه ، ثم اتخذه معاونا له سنة ٣٩٦ ، وبعد ذلك بمدة قليلة خلفه على الكرسي الاسقفي بمدينة عنابة ، فكان كثيرا ما يزور صديقه الاسقف اوريليانوس (Aurélien) جنليق (٢) قرطاج

واشتهر القديس اوغستينوس بنشاطه وبالمجهودات الجبارة التي كان يبذلها لارجاع وحدة الكنيسة بمقاومة النحل والشيع وجميع اسباب الانقسام وعلى الاخص الدوناتوسية ، وهو الذى تسبب فى عقد مجمع قرطاج سنة ٤١١ حضره مئات من الاساقفة الكاثوليك والدوناتوسيين وانتهى باتفاق وقع اثباته فى دستور ٣٠ جانفى ٤١٢ وينص هذا الدستور على وجوب رجوع المنشقين فى حجر الكنيسة والا يقع الحكم عليهم بمصادرة املاكهم وبالتعذيب والجلد والنفى ، وقد سجل من ذلك التاريخ رجوع عدد كبير من المنشقين القاطنين بالبروقنصلية الى حضيرة الكاثوليكية • ولكن استمرت بالولايات الاخرى اعشاش كثيرة من هؤلاء الخوارج يدبرون مقاومة خفية عنيدة متواصلة ضد السلطة الاجنبية المحتلة انتهت بتقويض اركانها وبانهيار الحكم الرومانى ببلادنا الافريقية

(١) المعمودية (baptême) : اول اسرار الدين المسيحى وباب النصرانية، وهى الغسل بالماء باسم الاب والابن وروح القدس ، ويقع ذلك فى بيت العماد من الكنيسة (le baptistère) ، ويقال : عمده فتعمد اى غسله بماء العمودية •

(٢) الجنليق (Primat) : هو متقدم الاساقفة



نهـاية الحكم الرومانى بافريقيـة

ان افريقية التى ريناها حتى الآن هى افريقية القرن الاول والقرن الثانى وبداية القرن الثالث ، وهى فى ايام خيرها وازدهارها ونظامها وسلمها ، وهى المتشبعة بالثقافة الرومانية والحضارة الرومانية ، وهى التى وصلت عن طريق احد ابنائها وهو سبتيموس سافاروس المولود بلبدة طرابلس الى رئاسة الامبراطورية باسرها ٠

ونريد الآن ان نعرف كيف تفككت عراها ، وان ننظر فى الاسباب التى جعلت الطابع الرومانى ينطمس ويندثر بدون ان يترك وراءه اثرا مع انه كان يبدو فى الظاهر قويا متينا ثابتا ٠

١) الاسباب الدينية : قد ذكرنا ، لما تحدثنا عن المسيحية بافريقية، ان بوادر التشويش وعلائم التفكك بداث تظهـر من نهايـة القـرن الثانى لما تكاثرت الكنائس واصبحت تصادم الاضطهادات ، وخصوصا لما انشق الزعيم الدينى الافريقى (دوناتوس) وكون حزبا عتيدا من الخوارج لمناهضة الحكم الاجنبى فى البلاد ٠

وان الدين المسيحى اتى بافكار انسانية جديدة تدعو الى الاخوة والعدل والمساواة ، فلم يبق بعد ذلك مجال لطغيان الاباطرة الرومانيين ولتالهم وحمل الناس على تقديسهم ٠ فنزلوامن عليائهم واصبحوا فى صف البشر ٠ ٠ ٠

٢ ـ الاسباب السياسية : ومن جهة اخرى فان الجنود هم الذين صاروا يعينون ويسمون القياصرة ، ويولون ويعزلون ، وفى الغالب يقتلون ويعدمون المتزاحمين حسب مشيئتهم وارادتهم ٠ وبما ان الجنود لا يتفقون على راى واحد ، فان السلطة صارت تفتك بالحرب والسلاح ٠ مثال ذلك :

لما عينت الفرقة العسكرية بايليريا (Illyrie) سبتيموس سافاروس امبراطورا (سنة ١٩٣) عينت فى الوقت نفسه فرقةسوريا امبراطورا آخر ، وعينت فرقة بريطانية امبراطورا ثالثا ، وعينت فرقة اخرى امبراطور رابعا ٠ ٠ ٠ فسار سبتيموس سافاروس الى رومة وحارب

جميع مزاحميه ، فضرب عنق الاول سنة ١٩٤ ، وتغلب على الثانى سنة ١٩٧ ، واستمر كذلك الى ان فضى عليهم جميعا ، وقضى على اتباعهم وانصارهم بالقتل والنفى ٠ ٠ ٠

واصبح الامبراطور اسيرا فى قبضة عساكره مضطرا الى استمالتهم واغرائهم بالمال خوفا من شرهم ، حتى ان سبتيموس سافاروس كان ينصح ابنه قاراقالا بقوله : « مول جنودك واسخر من الباقى ! »

وان نظاما سياسيا لا يرتكز على دستور بل يرتكز على رغبات الجنود يؤول لا محالة الى الفوضى والانهيار ٠

وقد نشبت ثورات وفتن لما عينت الفرقة العسكرية بمدينة الجم غورديانوس امبراطورا مع ابنه غورديانوس الثانى وذلك سنة ٢٣٥ بعد اغتيال اسكندر سافاروس وصادقت رومة عليهما ، غير ان فرقا اخرى اختارت ماكسيموس وهو قاتل ولى نعمته اسكندرسافاروس (اتق شر من احسنت اليه !) وفى آخر الامر وقع قتلهم جميعا من طرف جنودهم ! كما قتل من اتوا بعدهم !

وكان ذلك التاريخ (اى سنة ٢٣٥) بداية عصر الاضطرابات والفتن والفوضى العسكرية والاغتيالات فى كامل انحاء العالم الرومانى واستمر ذلك الى سنة ٢٨٥ اى دامت هذه الفوضى مدة خمسين سنة وهى تعرف فى التاريخ باسم الفوضى العسكرية l'anarchie militaire

وفى عهد غاليانوس Galienus (سنة ٢٥٤) صارت كل فرقة عسكريه فى كل ولاية رومانية تنادى بامبراطورها الخاص ، وبلغ عدد الجبابرة الذين كانوا يتزاحمون ويتشاجرون على الكراسى نحو الثلاثين وكانوا كلهم يتتابعون ويتعاقبون وسط الحروب المدنية والتهديم والتخريب ، ولذلك صارت تلك المدة تعرف فى التاريخ بمدة الثلاثين طاغية (la période des Trente Tyrans)

٣ ـ **الاسباب الاقتصادية** : ان الازمة الاقتصادية زادت فى الطين بلة ، فقد قل الذهب بعد آل سافاروس ايضا ، فتسبب ذلك فى قلة ضرب السكة اى فى قلة النقود ، وفى ضعف نسبة الذهب الداخل فى عمليه الامتزاج ، فقد انحطت تلك النسبة فى ايام غاليانوس الى خمسة فى المائة ، وصارت تلك السكة عبارة عن مجرد معدن نقدى لاقيمة له فى ذاته ، شبه الاوراق المالية ٠ وكذلك ارتفعت اسعار المعيشة ارتفاعا فاحشا ، وصارت الضرائب تدفع عينا لا نقدا ،

ولا يخفى ما فى ذلك من صعوبات ونفقات تثقل كاهل الميزانية وتنقص من مواردها ، زيادة عما فى ذلك من تقهقر ورجوع الى الوراء ، وحتى الموظفين والجنود فانهم صاروا يتقاضون اجورهم ورواتبهم عينا ، وصارت الدولة تلتجىء غالبا الى تسخير ارزاق الناس ومصادرة املاكهم •

وبالجملة فقد كان النظام الاقتصادى على غاية من الفساد والتدهور والفوضى •

٤ ـ **الاسباب الاجتماعية** : كان المجتمع بافريقية خاليا من كل انسجام وتماسك وتلاحم • فانك كنت ترى المعمر الرومانى (واحيانا الافريقى المترمن) يتمتع بثروة طائلة ، ويتنعم فى ضيعته بجميع اصناف الخيرات وانواع الملذات ، وكنت ترى العبيد وهم يئنون ويتالمون ولا يرجمون ، وكان نصيبهم التعب والشقاء والحرمان ، وكنت ترى بالجبال المجاورة عددا كبيرا من ابناء البلاد يطلون ويشرفون من بعيد على تلك الاراضى الخصبة ، والمروج الخضراء ، والضياع المزدهرة ، وهم يعلمون انها كانت لهم ولآبائهم واجدادهم ، ولكنها افتكت وانتزعت منهم ، واصبح يتمتع بها الاجنبى المغتصب ياكل ثمارها ويعيش تحت ظلالها ، وهم ينظرون ويموتون حسرة ولوعة واسى ، وفى صدرهم بركان يتاجج من السخط والغضب •

فلهذه الاسباب كلها من دينية وسياسية واقتصادية واجتماعية ، انهار النفوذ الرومانى ، وبقدر ما يكون السمو والعظمة يكون السقوط والانحطاط ، تلك سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا •

وكان ابناء البلاد فوق الجبال يترصدون الفرص لطرد العدو من ارضهم ومن ديارهم ، وكانت الاسباب التى ذكرناها تعتبر ظروفا مناسبة لاندلاع الثورات التحريرية ولانبعاث الكفاح القومى •

الثورات التحريرية : لقد جدت فى الثلثين الاخيرين من القرن الثالث حوادث خطيرة لم تعرفها ولم تعهدها الاجيال السابقة •

فان الحركات التمردية بدات تظهر بافريقية بعد اسكندر سافاروس اى سنة ٢٣٥ ، ولم تنته قط من ذلك التاريخ •

فقد شاركت افريقية فى جميع الثورات والحروب والاضطرابات مدة « الفوضى العسكرية » التى دامت خمسين سنة كما ذكرناه (٢٣٥ / ٢٨٥) • واى شىء يفيد الحركات التحريرية احسن من الفوضى والفتن والاضطرابات عند المستعمر نفسه ؟

وكانت عناصر التشويش (بالنسبة للرومان طبعا !) تتركب من :

ـ القبائل التى لم يجد الترمين اليها سبيلا ، وهى القبائل المتمردة ، القاطنة فى الادغال وفى الجبال ،مثل اوراس وجهة القبائل ، او المقيمة بالتخوم الجنوبية الصحراوية ،

ـ المنشقين عن الكنيسة الكاثوليكية ، اى الدوناتوسيين الذين تعللوا بالانقسام الدينى واتخذوه ذريعة لتكوين الهرج والتشويش ، فكانت حركتهم فى حقيقة الامر كفاحا قوميا تحت غطاء المذاهب والخصومات الدينية

ـ عصابات « الدوارين » او « الفلاقة » كما نسميهم اليوم ، وهم جماعات الفقراء والبؤساء والمساكين الذين اصبحوا ناقمين عن المجتمع يريدون التشفى من الاغنياء والانتقام للضعفاء والمظلومين

ـ الافريقيين المترمنين الذين كانوا يشعرون بكفاءتهم وبقدرتهم على تسيير الامور بانفسهم ، ويريدون التخلص من النفوذ الاجنبى ، وكان زعماؤهم وقادتهم ينطلعون الى الحكم الذاتى والاستقلال ٠

والآن فلنستعرض هذه الثورات التحريرية استعراضا سريعا :

من ٢٥٣ الى ٢٦٢ : ثورات بنوميدية وموريطانية دامت عشر سنوات ٠

بدات هذه القلاقل بتمرد قبائل البابار (Bavares) القاطنة بمرتفعات بابور بين سكيكدة وقسنطينة ، تحت قيادة اربعة من زعماء النوميديين اتحدوا فى كفاحهم مع « قبائل الحلف الخماسى » (les Quinquégentiens) ، وهى خمس قبائل متحالفة تسمى اليوم (بالقبائل les Kabyles) وتقيم بالجهة الكائنة بين بجاية شرقا ومدينة دلس غربا وجبال جرجورة جنوبا والبحر المتوسط شمالا ٠ وانضم اليهم القائد (فاراكسن) مع جنوده الابطال القادمين من مرتفعات بلعباس ٠ وزحف هؤلاء المتحالفون بكليتهم على نوميدية وغزوا اراضيها واخذوا معهم عددا كبيرا من الاسرى ٠ حتى ان القديس سيبريانوس كان مضطرا الى جمع مبلغ كبير من المال لافتداء النصارى وعلى الاخص العذارى اللاتى كان يخاف عليهن من الاغتصاب ٠

واستمرت الثورات والمعارك متواصلة فى سور الغزلان (٢٥٥) ،

ولاموريسيار (٢٥٧) ، وفي آخر حدود مريطانية الشرقية حيث قتل فاراكسن (٢٥٩) ... ولم تخمد نار الفتنة الا فى سنة ٢٦٢

من ٢٨٩ الى ٢٩٨ : ثورات اخرى بالقبائل دامت ايضا عشر سنوات .

كانت هذه الاضطرابات اشد واقوى من التى تقدمتها ، فهى قد امتدت بالجنوب الى جبال الحضنة ، وهدم الثوار سور جواب (Rapidum) ، وكادوا يحتلون مدينة بجاية (Saldae) .

وقد وقع كل ذلك فى عهد القيصر الرومانى ديوكليسيانوس Dioclétien (٢٨٤/٣٠٥) . وان هذا الامبراطور قد شعر بانه عاجز بمفرده عن اخماد نار الفتن المشتعلة بجميع انحاء العالم الرومانى ، فغير نظام الحكم بروما وجعله مقسما على اربعة قياصرة او اباطرة ، وهو ما يسمى « بالرابوعية » (la tétrarchie) وكان احد هؤلاء القياصرة يسمى ماكسيميانوس (Maximien) ويلقب بهرقل (Hercule) فقدم الى افريقية ليقود بنفسه حملة اضطهادية ضد قبائل الحلف الخماسى ...

٢٩٨ ـ ٣٠٥ : اصلاحات ديوكليسيانوس

فى آخر القرن الثالث (اى من سنة ٢٩٨) وفى بداية القرن الرابع كان الحكم بروما فى يد امبراطورين عرفا بقوة العزيمة والمقدرة على تسيير شؤون الدولة ، وهما :

- ديوكليسيانوس (Dioclétien) : من ٢٨٤ الى ٣٠٥
- قسطنطين الاكبر (Constantin) : من ٣٠٦ الى ٣٣٧

فاما الاول وهو ديوكليسيانوس ، فقد غير نظام الحكم كما ذكرناه وجعله يرتكز على « الرابوع » وهو ايضا قد قسم افريقية الشمالية الى عدة ولايات صغيرة لتسهيل ادارتها من جهة وللتنقيص من سلطة الولاة من جهة اخرى حتى يكون فى مامن من طمعهم وطموحهم ...
فان الولايات كانت اربع ، وهى :
١) البروقنصلية ، وعاصمتها قرطاج

٢) ولاية نوميديا ، وعاصمتها لمباز

٣) ولاية مريطانيا القيصرية وعاصمتها قيصارية (شرشال)

٤) ولاية مريطانيا الطنجية وعاصمتها طنجة

فاصبح عددها ثمانية ، وهى :

١ ـ البروقنصلية	١) ولاية زغوان(Zeugitane)او البروقنصلية بالمعنى الكلمة ، وعاصمتها قرطاج ٢) ولاية مزاق(Byzacène) وعاصمتها سوسة ٣) ولاية طرابلس (Tripolitaine) وعاصمتها لبدة
٢ ـ ولاية نوميديا	٤) ولاية نوميديا الشمالية، وعاصمتها قرطة ٥) ولاية نوميديا العسكرية ،وعاصمتهالمباز
٣ ـ ولاية مريطانيا القيصرية	٦) ولاية مريطانيا الاسطيفية ، وعاصمتها اسطيف ٧) ولاية مريطانيا القيصرية ، وعاصمتها قيصارية (شرشال)
٤ ـ ولاية مريطانيا الطنجية	٨) ولاية مريطانيا الطنجية ، وعاصمتهاطنجة

وقد وقع فصل الولاية الاخيرة (وهى مريطانيا الطنجية) عن بقية افريقية وربطها والحاقها بولايات اسبانية • والسبب فى ذلك هو ان ممر تازة ، وهو المر الوحيد للذهاب من مريطانياالقيصرية الى مريطانيا الطنجية اصبح صعب المسلك فى آخر القرن الثالث بالنسبة للجنود الرومانية ، وصار الاتصال بين مريطانيا الطنجية وبقية العالم الرومانى ممكنا فقط بواسطة مضيق جبل طارق ، وصار المغرب الاقصى عبارة عن (راس جسر) بالنسبة لولايات اسبانية

اما الثاني ، وهو قسطنطين الاكبر ، فهو لما تسلم زمام الحكم بروما(١) ضم نوميديا العسكرية الى نوميديا الشمالية ، فاصبحتا ولاية واحدة عاصمتها مدينة قرطة التى سماها باسمه فصارت من ذلك التاريخ تعرف بمدينة قسطنطينة او قسنطينة (٢)

وهو الذى اصدر امر ميلانو Edit de Milan (سنة ٣١٣) فمنح الناس حرية الدين والمعتقد ووضع بذلك حدا لاضطهاد النصارى ، خصوصا وقد اعتنق هو ايضا الدين المسيحى فيما بعد ٠

غير ان الحالة لم تتحسن بذلك في افريقية بل ازدادت تعكرا ، اذ ان الفتن والاضطهادات والاعتداءات قد زالت بين الوثنيين والمسيحيين ولكنها انفجرت فى صفوف النصارى انفسهم ، وذلك بانتشار النحل والشيع الكثيرة ، وعلى الاخص بظهور الدوناتوسية ، ثم بتحالف الدوناتوسيين القائمين على الكاثوليك مع « الدوارين » الثائرين على المجتمع ٠

٣١١ - الدوناتوسيون (Les Donatistes)

كنا تحدثنا عن الدوناتوسية وقلنا انها كانت فى البداية والاصل انشقاقا وخروجا عن الكاثوليكيين لانهم اظهروا الضعف والجبن ، وخانوا الرسالة ، وسلموا الكتب المقدسة الى الوثنيين ٠ وقد وقع

---

(١) لما تخلى ديو كليسيانوس وكذلك زميله ماكسيميانوس عن الحكم باختيارهما سنة ٣٠٥ انتهز اسكندر البانونى (L. Domicius Alexander) نائب افريقية تلك المناسبة وحمل جنوده على تسميته امبراطورا ٠ فسار اليه ماكسنسيوس (Maxence) وهو ابن الامبراطور ماكسيميانوس المستقيل الذى كان قدم الى افريقيا وحارب « حلف القبائل الخمسة » قلنا ان ماكسنسيوس سار الى اسكندر وحاصره فى مدينة قرطة الى ان تغلب عليه وقتله ، وبعد السلب والنهب خرب المدينة وهدمها ، وعاث فى البلاد فسادا بالتقتيل والنهب والتخريب فخلف بذلك ذكرا سيئا فى نفوس الافريقيين ٠

ولما عاد الى روما وتصادم مع قسطنطين الاكبر ودارت بينهما معركة حامية الوطيس انتهت بانهزام ماكسنسيوس وموته غرقا فى نهر التيبر ، نشل قسطنطين جثته من الماء ، وقطع راسه ، وارسله لقرطاج كتحفة تسر القلوب ، اذ هو راس ذلك الرجل الذى كان الافريقيون يبغضونه ويلعنونه ٠

ثم ان قسطنطين اعاد بناء مدينة قرطة وسماها باسمه (قسنطينة)

(٢) وكذلك لما انتقل فيما بعد الى مدينة بيزنطة (Byzance) وجعلها عاصمة امبراطوريته مكان روما سماها باسمه فصارت تعرف بقسطنطينوبل (عاصمة البيزنطيين) ثم اسطنبول (تركيا) ٠

هذا الانقسام اثر الانتخابات الاسقفية التى دارت بقرطة سنة ٣٠٥ ، وخصوصا اثر الانتخابات التى اجريت بقرطاج سنة ٣١١ ، والتى اسفرت عن تسمية قاسيليانوس (Ca ،cilianus) اسقفا بقرطاج ، وهو الرجل المبغوض من الشعب ، والمتهم بتشتيث شمل المتظاهرين وجلدهم بالسياط لما تجمهروا امام سجن الشهداء اثر اضطهادات ديوكليسيانوس المشهورة (٣٠٣ / ٣٠٤) ، والمتهم ايضا بتجويع النصارى الذين سجنوا لتجاهرهم بالايمان المسيحى ، فهو حينئـذ يعتبر من اكبر الخونة •

وكانت نتيجة هذا الانشقاق وجود اسقف كاثوليكى وكنيسة كاثوليكية ، واسقف دوناتوسي وكنيسة دوناتوسية فى كل مكان ، وكانت الفتن والاعتداءات مستمرة بين الفريقين •

وكان فى صف الدوناتوسيين رجال شداد اقوياء يزرعون الرعب والفزع فى القلوب ، وهم عصابات « الدوارين »

– « الدوارون » (Les Circoncellions)

كان هؤلاء الثائرون فى بداية الامر يقومون بحركتهم التمردية والثورية خارج صفوف الدوناتوسيين ، بـل كـان الدونـاتوسيون يستنكرون اعمالهم •

لكن لما صارت الكنيسة الكاثوليكية تعتمد على الحكومة ، وكانت السلطة تناصرها وتشد ازرها ، اضطر الدوناتوسيون بدورهم الى التضامن مع عصابات « الدوارين » وآلت المسالة فى النهاية الى تحالف الكنيسة مع الدولة من جهة ، وتحالف الدوناتوسية مع عصابات (الدوارين) من جهة اخرى

٣٧٢ – ٣٧٥ : تمرد الامير (فيرموس)

ثم جدت حوادث اخرى اذ مات الزعيم الدينى دوناتوس الاكبـر سنة ٣٥٥ ، وخلفه (بارمينيانوس)

• وفى سنة ٣٧٢ ثار الامير فيرموس (Firmus) وهو ابن احد رؤساء او ملوك « القبائل المتحالفة » واثار قبائل جرجورة ، وضم اليه الدوناتوسيين ، وعصابات (الدوارين) واخذ يقود الحركة ويوقد نار الفتنة فى كافة انحاء مريطانية ، والتف حوله جم غفيـر مـن المقاومين وجعلوه ملكا عليهم •

فاستولى فيرموس على قيصارية (شرشال) واحرقها ، وكذلك استولى على مدينة الجزائر (Icosium) وانتصر على الرومانيين في معارك كثيرة ٠

ولتدارك هذا الامر،وتلافى هذه الحالةعين الامبراطور فالنتينيانوس (Valentinien) قائده تيوودوز (Théodose) لمحاربة الثائر فيرموس ٠ فكان احسن واقطع سلاح استعمله تيودوز للتغلب على عدوه والظفر به هو ما يمكن ان نسميه اليوم « بمصلحة الاستعلامات » (Intelligence Service) او بعبارة اخرى « صنـدوق دنانيره » الرنانة او « الفرسان الذهبية » (la Cavalerie de Saint Georges)

فهو قد اوجد وكـون ضد فيرموس مزاحمين ومنافسين من بين ضباطه وحاشيته وافراد اهله وعشيرته ، واوقد نار الحسد في قلب اخيه جيلدون ٠

ولما احس الملك والزعيم فيرموس بالغدر والخيانة ، وشعر بانه سيقع تسليمه حيا الى عدوه ، اختار الانتحار خنقا ، فلم يحمل الى عدوه القائد الروماني تيودوز الا وهو جثة هامدة لاحراك فيها (سنة ٣٧٥)

ـ جيلدون (Gildon) اما جيلدون الذى دبر المكيدة ضد اخيه فيرموس ، واوعز بها الى القائد الروماني تيودوز ، فهو قد جنى تمرة غدرة وخيانته ، فاستدعته حكومة رومة الى العاصمة الايطالية سنة ٣٨٦ ، وقلدته منصب كونت افريقية (Comte d'Afrique) على راس الولاية العسكرية واصبح قائدا اعلى لاركان الحرب ورئيسا للجند الروماني ، واختار له اسما رومانيا اقتداء باخيه فيرموس ، وسمى نفسه (ليسيوس كيتوس جيلدونيكوس) ، وجمع ثروة طائلة ، واستمر في اخلاصه المتناهي وولائه لرومة مدة ما يزيد عن عشر سنوات ، ثم انقلب ضدها دفعة واحدة (سنة ٣٩٦) واشعل نار الفتنة من جديد ، وقاد ثورة ملتهبة ضد المحتلين ٠ فاستعانت عليه رومة باخيه الآخر (مقزيل) ، وكانت نهاية جيلدون (او جيلدونيكوس) مثل نهاية اخيه فيرموس تماما : اى الانتحار ٠ ٠ ٠ ولكن بعد الغدر والعار ٠

---

(١) الفرسان الذهبية (او فرسان سان جورج) : فى الاصل كناية عن نقود انقلترة لان صورة الملك سان جورج فوق فرسه كانت منقوشة عـلى قطـع النقـود الذهبية الانقليزية ، وكثيرا ما كانت انقلتـرة تستعمـل فى حروبهـا بذل هـذه الفرسان من المال مكان الفرسان من الرجال

وقد كونت مصادرة املاكه وامواله لخزينة الدولة ارباحا باهضة وجسيمة جدا ، حتى ان الحكومة كانت مضطرة الى انشاء مصلحة خاصة لتصفية الحسابات وضبط التركة (Comes patrimonii Gildoniaci)

– مقزيل (Mascezel)

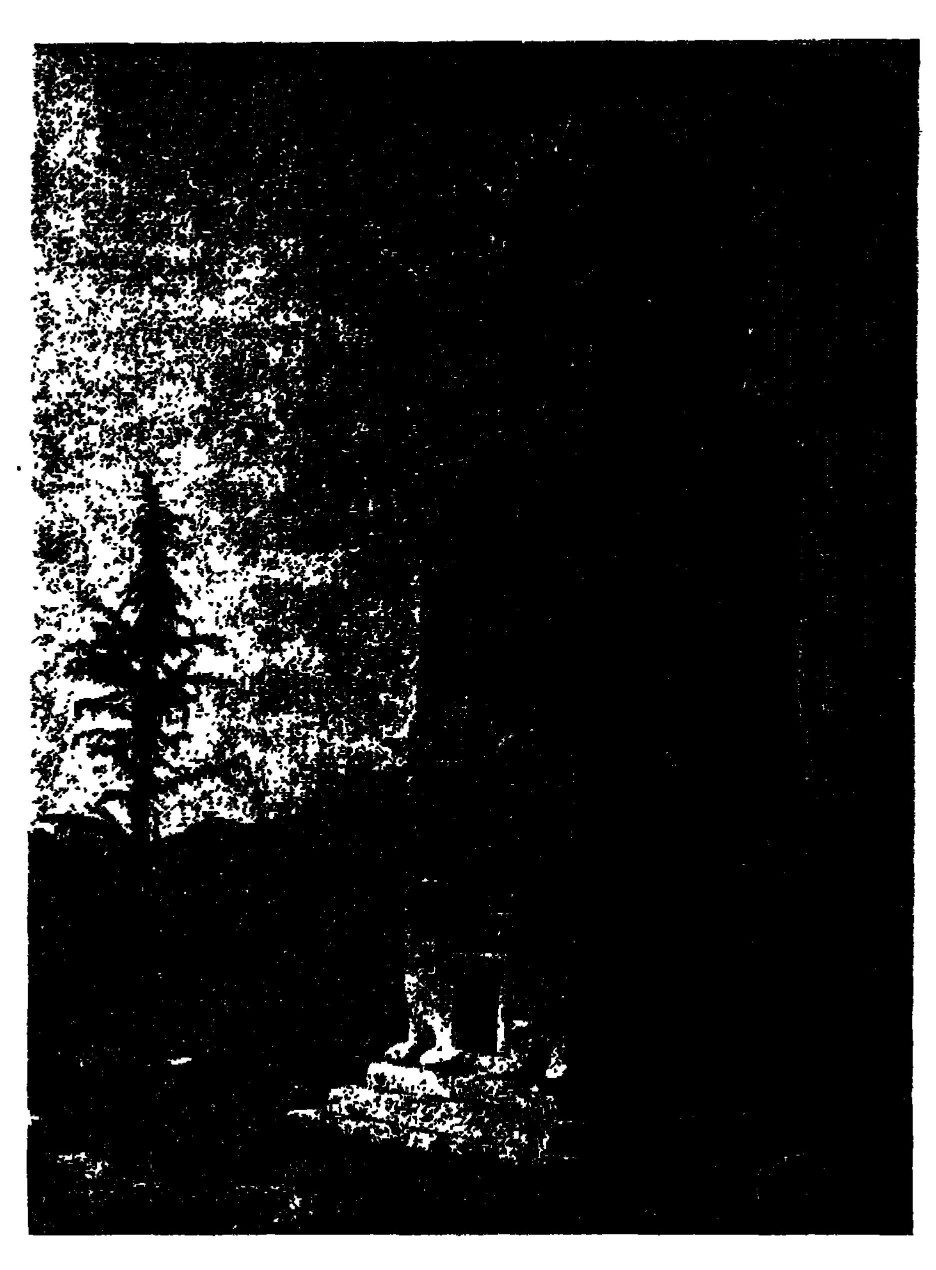
اما مقزيل فقد وقع استدعاؤه الى رومة مثلما كان وقع استدعاء اخيه جيلدون من قبل ، ولكن حكومة رومة فى هذه المرة اودت به فى داهية ولم يعرف احد كيف تلاشى وخسفت به الارض ·

ونفهم من هذا ان القوات الاجنبية ، فى كثير من المواقف والظروف لا يمكن لها ان تتغلب على الزعماء من ابناء البلاد الا بمساعدة واعانة ابناء البلاد انفسهم : فانه لم يقع التغلب على ماطوس الا باعانة ناراواس ، ولم يقع التغلب على سيفاكس وحنبعل الا بمساعدة ماسنيسا ، ولم يقع التغلب على يوغرطة الا بمساعدة بوخوس ، ولم يقع التغلب على فيرموس الا بمساعدة جيلدون ، ولم يقع التغلب على جيلدون الا بمساعدة مقزيل ، وهلم جرا · · · ويمكن الاتيان بامثلة كثيرة ، وكثيرة جدا من هذا النوع · وان فى ذلك لموعظة وعبرة لمن يعتبر !

ويقول المؤرخ المحقق الاستاذ ح · ح · عبد الوهاب : « كانت نتيجة هذه القلاقل اختلال امور الرومان بمستعمراتهم وضعف نفوذ حكامهم ، حتى ان احد ولاتهم على افريقية وهو الكونت (بونيفاس) انف من البقاء على الطاعة لوحشة جرت بينه وبين بعض رجال رومة ، فشق عصا الطاعة فى وجه الحكومة سنة ٤٢٧ ، واستنجد (بالوندال) المتغلبين اذ ذاك على اسبانية · فكان قدومهم الضربة القاضية على ملك الرومان بافريقية »

وقد استولى الوندال على افريقية فى عامين (سنة ٤٢٩ وسنة ٤٣٠) من مضيق جبل طارق الى ما بعد عنابة ، وفى سنة ٤٣٩ اخذوا قرطاج ·

وان سنة ٤٣٠ تعتبر فى آن واحد تاريخ نهاية الحكم الرومانى بافريقية الشمالية ، وتاريخ نهاية الترمين ·



ـ اطلال رومانية بالقصرين ـ

ضريح كبير ذو ثلاث طبقات يضم رفات فلافيوس الثاني وافراد عائلته ، كما يوجد على بعد كيلومتر ونصف ضريح آخر تهدم اكثره ، فسميت هذه المدينة باسم هاذين الضريحين او (القصرين)

افريقيا الشمالية في عهد الوندال



فسيفساء وجدت بقرطاج تمثل وندالياً على فرسه وهو خارج من منزله
(متحف لندن) British Museum

استيلاء الوندال

(من ٤٣٠ الى ٥٣٤ : اى قرنا كاملا)

١ ــ جنسريق	1 Genséric	٤٣٠ ــ ٤٧٧	:
٢ ــ حنياريق	2 Hunéric	٤٧٧ ــ ٤٨٤	:
٣ ــ غاثاموند	3 Gunthamund	٤٨٤ ــ ٤٩٦	:
٤ ــ ثاساموند	4 Thrasamund	٤٩٦ ــ ٥٢٣	:
٥ ــ حلداريق	5 Hildéric	٥٢٣ ــ ٥٣٠	:
٦ ــ جلمار	6 Gélimer	٥٣٠ ــ ٥٣٤	:

الوندال : هم اقوام من اصل جرمانى زحفوا هاجمين على غاليــة (فرنسا) ثم على اسبانية ، فخلفوا فيها اسمهم (وندالوسية = اندلوسية = اندلس) ثم دخلوا ارض افريقية سنة ٤٢٩ وعددهم ثمانون الفا ، منهم عشرون الف مقاتل ، تحت قيادة ملكهم جنسريق

جنسريق (Genséric) او على الاصح (جيز ريش) كان عمره اذ ذاك ما يقرب من ثلاثين عاما ، وكان قصير القامة ، به عرج بسبب سقوطه مرة من اعلى فرسه ، وكان يجمع بين الشجاعة والفروسية ، وبين الدهاء والحيلة والمقدرة الديبلوماسية ، الامر الذى ادهش وحير العقول فى ذلك التاريخ ٠

الاستيلاء على افريقية : حاصر جنسريق مدينة (هيبو او بونه) عنابه ، وقد مات القديس اوغستينوس اثناء ذلك الحصار (سنة ٤٣٠) ٠ تم استولى جنسريق ورجاله على نوميدية ٠

وفى سنة ٤٣٥ ابرمت معاهدة صلح بين الرومان والوندال ، اعترف الرومانيون فيها لاعدائهم بحق الاستقرار بنوميدية مطمئنين

غير ان جنسريق لم يكن يعتبر تلك المعاهدة الا كهدنة تمكنه من الاستعداد لمواصلة هجوماته ٠ وفعلا تراه فى سنة ٤٣٩ يحاصر مدينة قرطاج ويستولى عليها بدون ان يصادف مقاومة ٠

ثم وقع عقد صلح آخر سنة ٤٤٢ ، لكن جنسريق لم يحترمه ايضا بل استعمله كوسيلة لتنفيذ خطته وللوصول الى غايته •

فتوحات الوندال : لم يقف الوندال عند حد افريقية بل جهزوا جنودا كثيرة غالبها من النوميديين واستولوا على طرابلس ، وعلى جزر البحر الابيض المتوسط ، وهجموا على ايطالية ، واحتلوا مدينة رومة سنة ٤٥٥ ، ونهبوها نهبا منظما مدة خمسة عشر يوما ، ثم رجعوا الى قرطاج غانمين ظافرين ، ومعهم كثير من السبايا والاسرى ومن جملتهم الامبراطورة نفسها وابنتاها •

ومات جنسريق سنة ٤٧٧ تاركا لابنائه امبراطورية عظيمة شاسعة

سياسة الوندال بافريقية

– قد افتك الوندال جميع الاراضي والضيعات والمزارع الخصبة ، والبنايات الضخمة التي كانت للدولة الرومانية او بيد الاغنياء والطبقة الارستقراطية من الرومانيين ، واقتسموها بينهم ، وجعلوا يستغلونها مع اعفائهم من دفع الضرائب التي كانت تثقل كاهل ابناء البلاد وحدهم

–وقد هدم الواندال ما خلفه الرومان من حصون وقلاع واسوار خشية من ان يستعملها الثوار والمتمردون من الافريقيين كمكامن يلتجئون اليها

– وكان الوندال متمسكين بمذهب مسيحي يسمى (الاريوسية) مغاير لمذهب الكاثوليك الذي تتبعه كنيسة رومة ، ولذلك كانوا يضطهدون رجال الدين الكاتوليكي بافريقية ، ويقبضون على رهبانهم ، ويصادرون اموالهم ، ويهدمون كنائسهم •

– اما معاملتهم لابناء البلاد فقد كانت في الغالب لينة ، فيها شيء من اللطف والمجاملة ، الامر الذي استمال قلوبهم ، واحيى في نفوسهم الشعور بالكرامة وبالعزة القومية •

القبائل والممالك الافريقية في عهد الوندال : (انظر الخريطة رقم ٩٨)

ان القوات العظيمة التي كان يعتمد عليها الملك جنسريق هي العصابات المسلحة والمتمردة من الافريقيين ، التي جعلها في قبضته وصار يتصرف فيها حسب ارادته ورغبته ، وذلك بتشريكها في

اعمال القرصنة واللصوصية ، فهو قد مكن هؤلاء الشجعان من السواحل الاوروبية على البحر المتوسط يشنون الغارة عليها وينهبونها كما يشاؤون • وكان يقع النزول فى السفن ، وقسمة الاسلاب والغنائم بمدينة قرطاج بمحضر جنسريق وتحت نظره ومراقبته ، وبهذه الطريقة امن شرهم وجعلهم تحت امره ونهيه

وقد التجا العرب فيما بعد الى نفس هذه الحيلة لابعاد عناصر الهرج والهيجان لما سيروهم لفتح اسبانية او لفتح صقلية •

وكذلك فى العهد البونيقى فان حنبعل استعمل نفس هذه الوسيلة وهذا التدبير لما اخذ معه الفرسان النوميديين لغزو ايطاليا ، او لما كلف الجنود بغراسة الزياتين بالساحل • • •

فهى حينئذ طريقة معروفة ، جرى بها العمل مرات كثيرة بافريقية ولكنها لا تخلو من الخطر اذا طال استعمالها • فهى قد كانت ناجحة ومفيدة بالنسبة لجنسريق ما دامت القرصنة موجودة وما دامت الغنائم تجمع وتكدس ثم تقسم • ولكن بمجرد ما انتهت تلك القرصنة الوندالية انعكست الوضعية تماما ، واصبح هؤلاء البدويون يشبعون نهمهم ، ويرضون غريزتهم الحربية ، ويشفون غلتهم التمردية فى البلاد نفسها ، لعدم وجود ما يغذيها فى الخارج • وعند ذلك ، فقط انهار النظام الرومانى ، وفى ذلك الوقت اعلنت قبائل اوراس استقلالها وتجردها عن سلطة الوندال ، وكان ذلك بعد موت جنسريق (سنة ٤٧٧) وقبل موت ابنه حنياريق (سنة ٤٨٤)

ثم ما لبثت القبائل الاوراسية بعد ثورتها واعلان استقلالها ان نزلت من الجبال الى السهول المجاورة ، ودمرت وخربت بعض المدن الرومانية مثل تيمقاد (Thamugadi) وباغاى (Bagaï) واستولت على الجهات الخصبة الكائنة غربى اوراس والمتاخمة لمملكة الحضنة •

وكانت قبائل اوراس تخضع لملك اسمه (يوضاس) حسبما اورده

المؤرخ بروكوبس ، ويسميه المؤرخون المتاخرون مثل كاركوبينو (يابيداس) (١)

وكانت هناك قبائل او ممالك أخرى مثل مملكة النمامشة شرقى اوراس ، ومملكة الحضنة غربيها وكان ملكها يسمى (ارثاياس) ، ومملكة آلطاوة (٢) وصافار جنوب وهران كان ملكها يسمى (مازونة) ، ومملكة اخرى جنوب شرشال وكان ملكها يسمى ماستيناس ٠ ٠

ويمكن ان نقول بان الجموع الصاخبة والمتمردة من الدوناتوسيين ومن عصابات « الدوارين » قد اصبحت الآن تحت نفوذ ملوك منهم ، وبعبارة اخرى فان الحكم الديكتاتورى كان النهاية الطبيعية التى انتهت اليها الفوضى ٠ فان الشىء الذى ظهر ونشا من جديد بنوميديا قبل اى شىء آخر هو القبيلة النوميدية القديمة الخاضعة لحكم امير او اقليد ، على الشكل الذى عرفناه قبل الاستيلاء الرومانى ، منذ خمسة قرون ، اى فى ايام ماسنيسا وسيفاكس ٠ ومن غير شك ان هذا الشكل من النظام السياسى هو الذى كان يوافق ويناسب مقتضيات الطبيعة والارض والمناخ وعقلية الشعب ، فعاد ذلك الشكل الى اصله بمجرد اضمحلال النفوذ الرومانى ، وحلت افريقية الليبية (او البربرية) محل افريقية الرومانية ٠ ومن السهل ان نعرف تاريخ ذلك التعويض بالضبط ، فهو قد تم بعد موت الملك جنسريق الذى كان بسياسته ودهائه يلهى القبائل البدوية الرحالة ويشغلهم بالقرصنة والغزوات واللصوصية خارج البلاد ، وبهذه الطريقة صدهم عن القضاء على الحياة الرومانية ، ووقى هذه الحياة الرومانية من التلاشى والاضمحلال ٠

---

(١) وهذا الملك (يوضاس) هو الذى اغار ايضا على السهول النوميدية الشمالية سنة ٥٣٥ (اى فى عهد البيزنطيين) ووصل بقبائله الى جنوب قسنطينة ، واخذ يكتسح البلاد ويخرب ويدمر ويقهر السكان ويقودهم للاسر ، وشرع القائد البيزنطى صولومون فى مقاومته ومطاردته الى ان انتصر عليه سنة ٥٣٩ ، ولكنه لم يكن انتصارا نهائيا لان المقاوم الافريقى معروف فى الدنيا باسرها بكونه ينكمش ردحا من الزمن حتى تمر العاصفة ، وحتى يتقوى من جديد ، ثم يعود الى الميدان مرة اخرى ، فهو يبدو لخصمه كانه مات ولكنه يرجع حيا ٠٠٠ وهكذا رجع الملك يوضاس الى الثورة والكفاح من جديد سنة ٥٤٦ ، وسنرى قبائل اوراس مستمرة فى المقاومة ضد العرب تحت قيادة كسيلة ثم الكاهنة ٠٠٠ وهى مازالت الى يومنا هذا تقاوم وتكافح ونشاطها فى الوقت الحاضر موجه ضد الاستعمار الفرنسى الغاشم

(٢) آلطاوة (Altava) : وهى الان مدينة لاموريسيار او حجر الروم قرب تلمسان شرقا

ولما مات جنسريق خلفه ابنه حنياريق ، غير انه كان شرسا احمق ، سخيف العقل ، قليل الذكاء والفهم ، فلم يستمر في سياسة ابيه ، ففقدت افريقية في ايامه طابعها الروماني ورجعت الى شكلها الليبي او النوميدي الذي كانت عليه قبل مجيء الرومان ٠

وهناك اكتشاف اثرى ليس ببعيد يؤيد تمادى الحياة الرومانية الى آخر القرن الخامس ٠ فان البيرتيني (M. Albertini) كان قدم في ٢١ سبتمبر ١٩٢٨ الى مجمع الخطوط والرسوم ، مجموعة من الواح خشبية (٤٥ لوحة) كتبت عليها نصوص بالحبر ، وقع العثور عليها بالحدود التونسية الجزائرية على بعد مائة كيلو متر تقريبا جنوب تبسة ، وخمسة وستين كيلو مترا غربي قفصة ٠

وان البيرتيني قد توصل الى قراءة تلك النصوص ، فهي كلها عقد بيع ، تتعلق عقدة منها ببيع معصرة ، وتتعلق العقد الاخرى ببيع ضيعات للزراعة ٠ وليس العقار نفسه هو الذي كان يشمله البيع ، بل الاستغلال فقط اى الحق في الزراعة ٠

وان جميع هذه الالواح كانت مؤرخة تتراوح تواريخها بين ٤٩٣ و ٤٩٦ اى بعد موت جنسريق بعشرين عاما ، او بعبارة اخرى ، في عهد الملك (غاثاموند) الذي خلف عمه (حنياريق) في الحكم سنة ٤٨٤ ٠ (انظر اللوحة رقم ٩٩)

والشيء الوحيد الذي يدل في هذه الالواح على وجود الوندال هو اسم الملك لا غير ٠

ونفهم من ذلك ان الافريقيين المترمنين ، وهم السواد الاعظم من السكان ، قد استمروا يعيشون في عهد ملوك الوندال مثلما كانوا يعيشون في ايام الرومان ٠ وينبغي حينئذ ان لا نتاثر بالاشاعات الكاذبة التي روجها رجال الكنيسة الكاثوليكية لما دنسوا اسم الوندال والصقوا به معنى التوحش والتهديم والتخريب ٠

فان جنسريق قد ضرب حقيقة افراد الارستقراطية الرومانية صربة قاسية سواء كانوا من العوام او رجال الدين ، لكنه لم يمس الفلاح بسوء ، لان الفلاح هو الاساس الذي يرتكز عليه الازدهار الاقتصادي ويتوفر به المدخول الجبائي ٠ ولكن الشيء الذي كان ينقص هؤلاء الفلاحين هو حمايتهم من غارات وهجومات العصابات المسلحة والقبائل الرحالة ٠

وقد تكاثرت هذه الغارات وهذه الهجومات فى عهد الملك (غاثاموند) تكاثرا مهولا ، وعلى الاخص بجهة مزاق (وهى التى نسميها اليوم بجهة الساحل بالبلاد التونسية) وبالجهة التى وجدت فيها هذه الالواح المكتوبة • فان هذه الجهات كلها قد دمرت وخربت ووقع الفتك بسكانها والاعتداء على اهلها من طرف هؤلاء القبائل ، حتى اضطر الكثير منهم الى الهروب والبحث عن ملجا آخر ، ومن غير شك ان صاحب هذه الالواح كان من جملة من نجوا بانفسهم ولاذوا بالفرار

ويقول (البرتينى) بان الضيعات والمزارع المباعة كانت معينة بكل دقة فوق تلك الالواح ، فهى مبينة باسمائها (المكان المسمى كذا •••) ومعرفة بعدد اشجارها (وهى فى الغالب اشجار التين والزيتون) ومحددة بجيرانها مع سرد اسمائهم حسب ترتيب الجهات الاربع • وكثيرا ما كان يرد ذكر قنوات الرى او المنحدرات لوصف تلك الحدود •

فمما لا شك فيه انها كانت تتعلق بمزارع وقع مسحها ، وتسجيلها وسقيها ، وزراعتها بكل عناية واهتمام •

ويقول (البرتينى) بان وجود اطلال المؤسسات الرومانية ، وآثار المعاصر للزيت ، وبقايا حيطان صغيرة لسد مجرى السيول ، ان كل ذلك يدل دلالة قطعية على ان تلك النواحى كان بها سكان مستقرون يعتنون بخدمتها وزراعتها ، وانها كانت عامرة ومزدهرة •

اما الآن فان تلك الربوع صارت خرابا ، فهى اراضى قبيلة « اولاد سيدى عبيد » ، تلك القبيلة التى تشقها الحدود التونسية الجزائرية وتقسمها الى شطرين بدون ادنى مبرر ولا وجه معقول • وان اولاد سيدى عبيد من فقراء اهل البادية يعيشون فى الفاقة والاحتياج فوق ارض بور ، اشجارها قليلة نادرة ، وماؤها مفقود ، ورمال اوديتها ناشفة

وان هذا الفرق الكبير وهذا التضاد بين الحاضر وآثار الماضى لا يوجد فقط بارض اولاد سيدى عبيد ، بل كذلك بكامل الجهة القبلية بالبلاد التونسية ، بجنوب وادى مجردة •

فسباسب الحلفاء الموجودة الآن هناك ، حيث ترعى الاغنام تحت حراسة الرعاة ، كلها ملآنة بالآثار الرومانية المنتشرة هنا وهناك والتى تشهد بوجود فلاحة قديمة وحياة استقرار •

ومن غير شك ان اتلاف تلك الربوع لم يكن نتيجة تغييــر فى الطقس او فى المناخ ، بل كان حدثا بشريا ، اى ناشئا عن تخريب البشر • ومما يؤيد ذلك انه كلما وقع الاعتناء بجهة من تلك الجهات القاحلة الا ودبت فيها الحياة من جديد ، وعادت خصبة ومزدهرة مثلما كانت فى الماضى ، وهو ما رايناه مثلا حول مدينة صفاقس •

فمن الممكن حينئذ احياء تلك الاراضى من جديد باتباع سياسة فلاحية متواصلة ، وبتنسيق جميع المجهودات ، وانشاء المشاريع الكبرى للرى ، وتوطيد الامن ، وضمان المستقبل ، وانشاء حياة قارة مرتكزة على دعائم واسس متينة • وقد كانت كل هذه الشروط متوفرة فى عهد الامبراطورية الرومانية ، ولكنها زالت بزوالها ، فاحتلت السباسب مكانها القديم ورجعت الى اصلها الاول •

وان اتلاف هذه الاراضى الجنوبية لم يقع دفعة واحدة وفى يوم واحد ، بل تم فى مدة طويلة ، وان الواح (البرتينى) تؤيد لنا بانه بدا فى مدة الملك الوندالى الثالث (غاثاموند)

ظهور القبائل الجمالة

(اذا نزل الشقاء بارض قوم   تراكمت المصائب والهموم)

ففى نفس الوقت الذى ترك فيه الوندال ارض افريقية للافريقيين ، جد حادث على غاية من الخطورة والاهمية غير وجه افريقية تماما ، وهو ان عناصر الهرج والتشويش اتصلوا بنجدة هائلة مريعة ، الا وهى القبائل الجمالة الكبرى من « اهل الوبر والبادية »

وقبل ذلك التاريخ لم يكن الجمل معروفا بالبلاد التونسية ، ولم يحدثنا عنه احد من المؤرخين ، بل كانوا كلهم يذكرون الافراس النوميدية المشهورة ، والافيال الافريقية التي كانت تستعملهــا قرطـاج فى حروبها ، وتاخذ منها العاج لتجارتها ، ولم يرو لنا احد وجود الجمال فى الحروب البونيفية ، او فى حروب يوغرطة ••• ولذلك يمكن اعتبار عدم وجود الجمل فى افريقية العتيقة امرا ثابتا لا جدال فيه

فالجمل عربى الاصل ، كان يعيش فى بلاد العرب ، وكان موجودا فى آسيا • ويظهر ان اول من ساعد على تربيته وانتشاره بافريقية هو الامبراطور سبتيموس سافاروس ، فهو افريقى من مدينة لبدة (Leptis Magna) بطرابلس ، ولا يجهل احـد فائـدة الجمـال

« سفائن الصحراء » لازدهار الاقتصاد بطرابلس • فان مسالة توطين الجمال كانت حيوية بالنسبة الى تلك الجهة التى كان يحيطها الامبراطور بعطفه ورعايته ، ويشملها بضروب عنايته ، والتى كان يرتكز اقتصادها على قوافل الصحراء والاتصال المستمر بغدامس والغرامانت والفزان والجهات الممتدة الى وراء الصحراء •

ولما ظهر الوندال بافريقية كانت تربية الجمال فى كامل اقبالها وازدهارها بطرابلس •

وبدا استعمال الجمل فى الحرب لاول مرة فى معركة مشهورة دارت بين (ناساموند) الذى تولى الحكم بعد اخيه (غاثاموند) من سنة ٤٩٦ الى سنة ٥٢٣ ، وبين امير افريقى على غاية من الذكاء والنشاط يعرف باسم (فابايون) ، وقد دارت هذه المعركة فى مكان بين قابس وطرابلس ، والشىء الجديد بالذكر والاعتبار فى هذه المعركة هو دور الجمال فى الحرب ، وهو ما وصفه بكل دقة المؤرخ بروكوبس (Procope) فقد قال :

> ان جنود (قابايون) كانوا ينتظرون اعداءهم فى معسكر مستدير لم يكن جداره سدا من التراب ، بل كان خطا دفاعيا حيا من الجمال ، وكان خطا دفاعيا مستمرا ، متلاحما ، فى عمق اثنى عشر بعيرا • وفى داخل الدائرة وقع حشد النسوة والاطفال ، والشيوخ ، والقبيلة باجمعها ، مع المؤن والذخائر ، والاموال ، والخيام ، والامتعة • اما المقاتلون فقد توزعوا على محيط الدائرة بين الجمال ، ويكفيهم القاء نظرة الى ورائهم ليعلموا ان المعركة هى مسالة حياة او موت لا بالنسبة اليهم فقط ، بل بالنسبة الى الجميع ، وبالنسبة الى كل شىء عزيز لديهم ، فليس هناك امل فى الفرار ، او شىء وسط بين الامحاق والانتصار •

ويقول بروكوبس بان الجيش الوندالى لا يحسن حرب المشاة والقتال على الاقدام ، بل كان الونداليون فرسان خيل سلاحهم السيف والرمح وفنهم الحربى الحملة الشديدة او الكر • ولكنهم لا يعرفون كيف تكون الحملة على سور من الجمال ، وقد حاولوا الكر والهجوم مرات ، ولكن افراسهم كانت تخاف من منظر الجمال ومن رغائها فتعود على اعقابها ، وكان الافريقيون يرشقونهم بوابل من النبال ، وهم فى مخابئهم بين الجمال ، واخيرا انهزم جنود الوندال وتفرقوا

شذر مذر ، واقتفى (قابايون) اثرهم برجاله وافنوهم عن آخرهم
وقد وصف لنا بروكوبس معركة اخرى من هذا النوع دارت بين قبيلة من الجمالة والجيش البيزنطى الذى كان يقوده صولومون
وان المؤرخ الكبير العلامة ابن خلدون الذى كان يكتب فى القرن الرابع عشر وصف ايضا هذا النوع من التكتيك الحربى وسماه « بالمجبودة » او **الصف** ٠ فهو يقول :

« ومن مذاهب اهل الكر والفر فى الحروب ضرب من المصاف وراء عسكرهم من الجمادات والحيوانات العجم فيتخذونها ملجا للخيالة فى كرهم وفرهم يطلبون به ثبات المقاتلة ليكون ادوم للحرب واقرب الى الغلب ٠ وقد يفعلــه اهــل الزحف ايضا ليزيدهم ثباتا وشدة ٠ فقد كان الفرس وهم من اهل الزحف يتخذون الفيلة فى الحروب ويحملون عليها ابراجا من الخشب امثال الصروح مشحونة بالمقاتلة والسلاح والرايات ويصفونها وراءهم فى حومة الحرب كانها حصون فتقوى بذلك نفوسهم ويزداد وثوقهم ٠

واما اهل الكر والفر من العرب واكثر الامم البدوية الرحالة فيصفون لذلك ابلهم والظهر الذى يحمل ظعائنهم فيكون فئة لهم ويسمونها المجبودة ، وليس امة من الامم الا وهى تفعل ذلك فى حروبها وتراه اوثق فى الجولة وآمن من الغرة والهزيمة ٠ »

ولقد كان المقاومون والثوار فى آخر مدة الاستيلاء الرومانى مثل فيرموس وجيلدون ومن معهما من الرجال ، لقد كانوا كلهم قبائل جبلية ، وكانوا يزرعون الرعب فى القلوب وهم فى جبالهم لا يبتعدون عنها كثيرا ، وكانوا يخالطون ويعاشرون الرومان منذ قرون طويلة ، وكانوا دوناتوسيين ، اى مسيحيين على كل حال ، ولذلك كان من الممكن التفاهم معهم لايجاد حل يضمن التعايش ، واليكم منالا لذلك :

ففى مدة الاستيلاء الوندالى كان يوجد ، بالجهة الغربية من مريطانية القيصرية ، ملك من الملوك المريطانيين يسمى (مازونة) اسس مملكة بجهة (صافار) قرب لاموريسيار وشانزى ، بناحية وهران ، وهذا الامير مازونة يلقب « بملك المغاربة والرومان » (Roi des Maures et des Romains) وهذا يدل على امكانية التعايش بين العنصرين ، والتفكير فى استخدام العنصر الاجنبى والاستفادة منه لا فى ابادته ومحقه ٠

لكن القبائل الجمالة التى ظهرت فى عهد الوندال قادمة من الصحراء كانت قبائل بدوية رحالة ، تحمل فى نفسها بغضا غريزيا نحو اهل القرار ، واصحاب المزارع والديار ، فلا يمكن بتاتا ان يحصل اى وفاق او تفاهم بين « اهل الوبر » و « اهل الحضر »

وقد ظهر هذا العنصر الكبير من عناصر الفساد والتشويش والتهديم فى مدة الوندال ، وفى الحين شرع فى التخريب والتدمير واهلك الحرث والنسل ·

ففى مدة الملك (حلداريق) ، وهو قبل الاخير ، انتصر الامير (انطلاس بن غنفان) على جيوش الوندال والحق بهم خسائر جسيمة ، وكانت جنود هذا الملك من قبائل الفراشيش (Frexes) وهى قبائل جبلية ، وانضم اليهم قبائل لواتة (Lewate) وهى قبائل جمالة معروفة بطرابلس · · ·

وان الجهة التى اضحت فريستهم ، وتسلطت عليها شهواتهم ، وعاثوا فيها فسادا هى جهة مزاق (Byzacène) اى جهة الساحل فهى اصبحت باكملها فى حوزهم وتحت تصرفهم ، وقد خربوا جهة رصفة (Ruspae) وهى بلدة كائنة ازاء جبنيانة على ساحل البحر ، وكانت فى ذلك التاريخ مركز الاسقف فلقنس (١) فهدموها وقتل الاسقف فلقنس سنة ٥٣٣ واستمروا يكتسحون البلاد ، ويفتكون بالعباد ، ويسلبون وينهبون ، ويدمرون · · · حتى خلت الديار من اهلها ، وفر غالب السكان الى بيزنطة ولم تسلم من التخريب الا مدينة سوسة (Hadrumète) وسلقطة قرب المهدية (Sullectum)

---

(١) القديس فلقنس (Saint Fulgence) : اسقف بلدة رصفة (Ruspae) ازاء جبنيانة على شاطىء البحر ، ولد بتالبت (Thélepte) اى المدينة القديمة سنة ٤٦٨ ومات برصفة سنة ٥٣٣ · وكان فى بداية الامر جابى الخراج والضرائب ، ثم صار راهبا واعتكف بدير فى نواحى (تالبت) ، ثم خرج هائما على وجهه (سنة ٤٩٧) اثر غارة قامت بها بعض القبائل البدوية ، والتجا الى سيكالنيريا (الكاف) حيث اعتزم الاقامة والاعتكاف ، لكن فطن بوجوده قسيس اريوسى فقبض عليه واذاقه من العذاب الوانا ، فبارح الكاف والتحق بمكانه الاول مخيرا جوار القبائل المغاربة على قساوة الاريوسيين ، ثم انه ذهب الى رومة سنة ٥٠٠ ، ثم وقع انتخابه رغم ارادته اسقفا برصفة سنة ٥٠٧ ، ثم نفاه الملك ثاساموند الى سردينية ، ثم ارجعه الملك حلداريق سنة ٥٢٣ الى رصفة ، ومات بها سنة ٥٣٣ ·

وكان اكبر خصم واشد مهاجم للاريوسيين ، ولذلك كان يلقب باغستينوس زمانه

وان الملك (جلمار) وهو آخر ملوك الوندال لم يكن بقرطاج لما نزل (بليشار) بافريقيـة على راس جنـوده البيزنطييـن بل كان بالجنوب ، اى بجهة مزاق ، يقاوم قبائل لواتة والفراشيش التى كان يقودها الملك انطلاس فاصبح على ابواب قرطاج بقبائله الجبلية والجمالة (١)

فقد اضمحلت وانتهت افريقية الرومانية وحلت مكانها افريقية الليبية (او البربرية)

وقد وقعت هذه الثورة فى عهد الملوك الونداليين الذين اتوا بعد جنسريق ، وتمت وانتهت عند قدوم البيزنطيين وعلى راسهم القـائد المشهور (بليشار)

---

(١) مما يؤيد ان الملك انطلاس قد استولى على مزاق (Byzacène) اى عـلى « جهة الساحل » بالبلاد التونسية ، وجوده واقامته بتلك الجهة فى عهد البيزنطيين كما اورده بروكوبس · ففى سنة ٥٣٥ ، لما انتصر القائد البيزنطى صولومون عـلى بعض القبائل المتمردة بنوميدية ، كان انطلاس يقيم بمزاق مع قبائله ورجاله ، وكان فى ذلك التاريخ صديقا مخلصا للبيزنطيين فاعترفوا له بالنفوذ والسلطـة على تلك الجهة ، واستمر الامر كذلك الى سنة ٥٤٦ ·

ثم انقلب انطلاس ضد البيزنطيين ، وتحالف مع اعدائهم واشعل نار الثورة ودخل فى الحرب والمقاومة · فسيرت اليه حكومة بيزنطة قائدها المشهور « تروغليطة » (Jean Troglita) فتغلب على الملك انطلاس وانتصـر عليـه ، لا بالحـرب والسلاح ، ولكن باغراء القبائل بالمال ، حتى انه بعد سنة ٥٤٨ انقطـع الحديـث عن انطلاس ولم يبق له ذكر يذكر ·



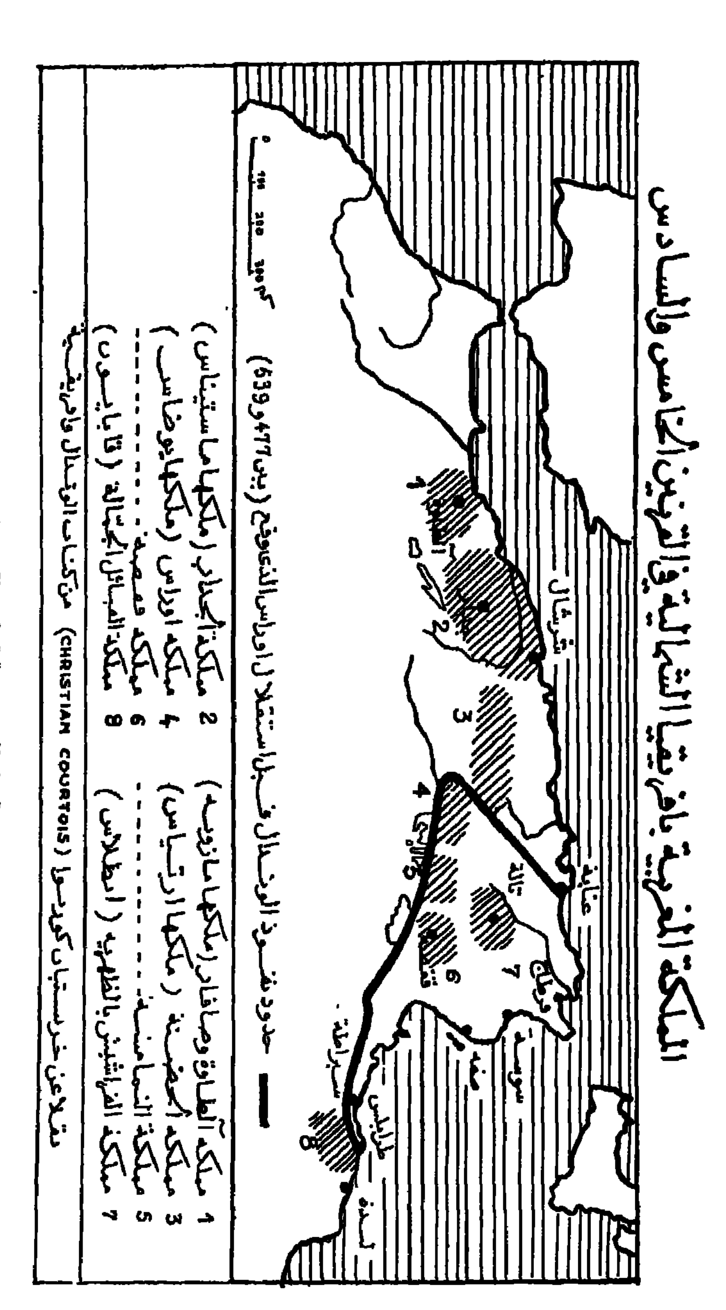
جلمار آخر ملوك الونـدال

تظهر صورته النصفية منقوشة فوق هذه القطعة من النقود الفضيـة ، وهو لابس التاج والمدرع « قطر الدائرة ١٧ مليمترا »

(متحف لندن British Museum)

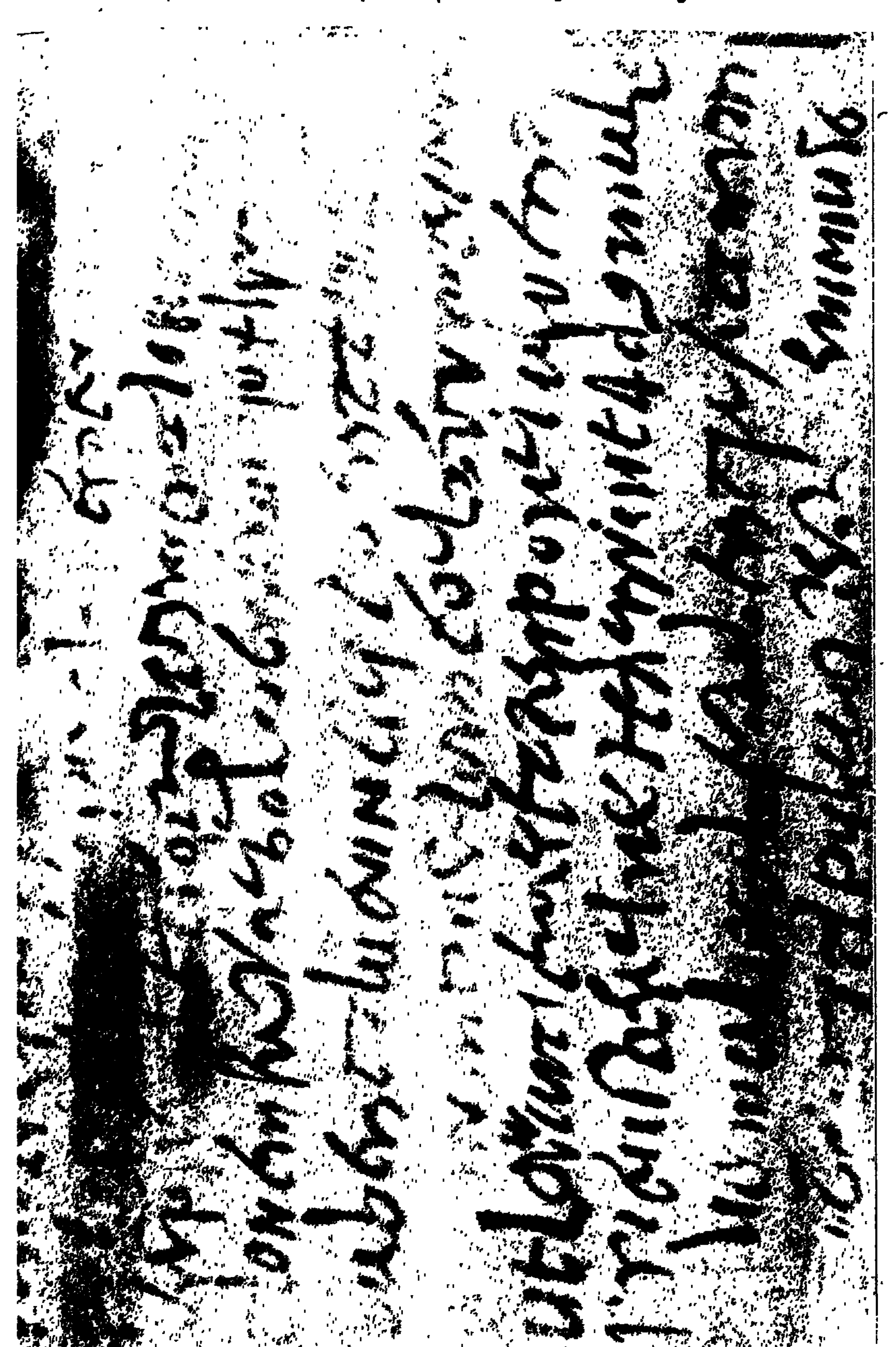
لوحة ٩٨

انظر الصفحة رقم ٣٨٣ من هذا الكتاب



خريطة الممالك الافريقية فى القرن الخامس والسادس

لوحة ٩٩ انظر الصفحة رقم ٣٨٥ / ٣٨٦ من هذا الكتاب



لوحة ١٠٠ انظر الصفحة رقم ٣٩٣ من هذا الكتاب



تدوا. القائد بلشاد عل داس حشه الدنظ

لوحة ١٠١

انظر الصفحة رقم ٣٩٤ / ٣٩٥ من هذا الكتاب



الباب البيزنطي او باب صولومون بتبسة

قصر لسة البيزنطي

افريقيا الشمالية في عهد البيزنطيين



جوستينيان قيصر بيزنطة وافراد حاشيته ونرى على يمينه القائد (بليشار)

الاستيلاء البيزنطي

من سنة ٥٣٤ الى سنة ٦٤٢ (نحو قرن آخر)

ـ انتصار الجيش البيزنطي :

كسر (بليشار) عدوه وهزمه بدون عناء كبير وذلك بساحة سيدى فتح الله قرب تونس ، ودخل مدينة قرطاج ، وتم الحاق افريقيــة بامبراطورية بيزنطة سنة ٥٣٤ مع ابقاء قرطاج عاصمة للولاية ٠

وقد ساعدته الظروف على هذا الانتصار السريع الذى لم يكن يتوقعه او يحلم به ، ومن جملة تلك الظروف المساعدة :

ـ فساد سمعة (جلمار) ملك الوندال وسخط الشعب عليه ،

ـ اشتغال اسطول الوندال (١٢٠ سفينة حربية) بقمع ثورة بسردينية ،

ـ اشتغال الملك جلمار نفسه بقمع ثورة بالساحل كان يقودها الملك انطلاس على راس قبائل الفراشيش الجبلية وقبائل لواتة الجمالة

ـ انقسام الوندال انفسهم وعدم تكتلهم ، وذلك لان جلمار لم ياخذ مكان سلفه حلداريق على كرسى المملكة الا بعد ما القى عليه القبض واودعه السجن وقلب نظام الحكم فى ١٥ جوان ٥٣٠ ٠ ٠ ٠

ـ الثورات القومية التحريرية :

لم تكد حكومة بيزنطة تستقر بالبلاد حتى قام فى وجهها الزعماء المغاربة للتخلص من هذا الاستعمار الجديد ٠ فتوالت الثورات وتتابعت الهجومات والغزوات ، واستمر التمرد والهيجان ، الامر الذى حمل الحكومة البيزنطية على الاهتمام **بتنظيم الجيش ، وبتحصين البلاد** ٠

١ ـ **تنظيم الجيش :** كان الجند متالفا من مشاة وخيالة موزعين على اربع شعب عسكرية مراكزها :

- لبدة (لشعبة طرابلس)
- قفصة (لشعبة مزاق)
- قسنطينة (لشعبة نوميديا)
- شرشال (لشعبة مريطانيا)

وكانت السلطة العسكرية فى يد (بطريق) مقره قرطاج ومعه رئيس اركان حربه وعدد كبير من افراد هيئة الادارة الحربية ٠

وكان هذا البطريق يجمع احيانا بين السلطة العسكرية والسلطة المدنية المتمثلة فى الوالى ٠

وكان يطلق على الوالى لقب اكسرخوس (Exarque) ويطلق على الولاية اسم « اكسرخوسية » (Exarchat)

٢ - **تحصين البلاد** : وقد وجهت الحكومة عنايتها ايضا نحو تحصين البلاد وانشاء القلاع والحصون والمعاقل الكثيرة الممتدة على التخوم لصد غارات القبائل المغربية ، خصوصا وقد هدم الوندال ما انشاه الرومانيون كما ذكرناه فى مكانه ٠ ومازالت آثار هذه الحصون والقلاع موجودة بتبرسق ، وباجة ، وحيدرة ، ولمسة ، وتبسة ٠٠٠ وهى تقيم الدليل على نشاط المهندسين البيزنطيين ، ولكنها تقيم الدليل ايضا على اهمية خطر الهجومات التحريرية التى اجبرت المستعمرين على اخذ مثل هذه الاحتياطات الكبيرة ، ولو انها لم تكن كافية لحمايتهم

فقد استمرت الهجومات والثورات والغارات تتواصل وتتابع بكامل الشدة ، واستمرت محاولات المستعمرين لمقاومتها وقمعها ٠

ونفهم من ذلك ان المغاربة سكان بلاد افريقية الشمالية لم يتحملوا قط ، حتى فى اقدم العصور ، وجود مستعمر اجنبى فوق ارضهم ، بل كانوا يقاومون ويكافحون ويضحون بحياتهم سعيا وراء نيل الاستقلال ٠ واذا كان الشعب يابى الرضوخ الى حكم المستعمر ، فلا يمكن ان تصده عن ذلك قوة الجيش ، ولا مناعة الحصون

(اذا الشعب يوما اراد الحياة فلا بد ان يستجيب القدر)

ويجدر بنا ان نذكر بهذه المناسبة اسماء بعض الابطال من اجدادنا الذين حاربوا لتحرير بلادهم :

ـ فهذا (ماطوس) نراه قد تزعم الحركة التحريرية ضد البونيقيين اثر الحرب البونيقية الاولى ، واشعل نار الفتنة لمقاومتهم ، ولولا انضمام الامير النوميدى ناراواس الى القائد البونيقى عملقرط لكان انتصر على اعدائه ٠

ـ وهذا (ماسنيسا) فهو قد حارب مع الرومان لطرد الفنيقيين وسعى بعد ذلك فى تكوين وحدة مغربية تجمع بين اقطار وشعوب شمال افريقية ، لكن لم تتركه رومة ينجز برنامجه

ـ وهذا (يوغرطة) فهو قد حارب الرومان لاخراجهم من بلاده ، ولولا خيانة حليفه وقريبه بوخوس لربما كان حقق حلم جده ماسنيسا

ـ وهذا (تاكفاريناس) فهو قد حارب الرومان لطردهم واجلائهم عن ارض الوطن فى عهد الملك يوبا الثانى والملك بطليموس

ـ وبعد ظهور المسيحية تزعم الكفاح التحريرى عن طريق الدين المقاوم الكبير (دوناتوس) ، ثم اتى بعده (فيرموس) ثم (جيلدون) ٠ ٠ ٠ ٠

ـ وفى عهد الوندال ظهرت القبائل الجبلية والقبائل الجمالة بملوكها وامرائها وقوادها ، مثل (يوضاس) و (يابيداس) و (ارثاياس) و (انطلاس) وغيرهم ٠٠٠

٠ ٠ ٠ وفى عهد البيزنطيين الذى يهمنا الآن لم تنفك القلاقل والغزوات والغارات تحت قيادة الامراء الابطال ، ونذكر منهم :

ـ (يوضاس) ملك اوراس الذى مر ذكره فهو كان يقاوم بنوميدية

ـ و (كوتزيناس) : كان يحارب البطريق (صولومون) بافريقية اى بالبلاد التونسية ويقول : « ان الله مع الذين يحاربون اللصوص لاسترجاع اموالهم واراضيهم ٠ »

ـ والقائد الباسل (سطوزاس) : كان يجمع الجموع ويبلى البلاء الحسن بمبراصة (مجاز الباب) ، وكان يوقد حماس رجاله بخطبه المؤثرة ويقول : « كيف ترضون بحياة الذل والعبودية والهوان ؟ »

ـ والامير (انطلاس) : كان يحارب بجهة مزاق مع قبائل الفراشيش وقبائل لواتة ، وهو الذى قتل البطريق والوالى البيزنطى (صولومون) المتقدم ذكره ، ولم يتغلب عليه بعد ذلك القائد (يوحنا تروغليطة) المعين من طرف حكومة بيزنطة سنة ٥٤٦ ، ولم ينجح فى اخماد نار الفتنة وقمع ذلك الهيجان المستمر الا باستعمال سياسة التفرقة بين القبائل وبين زعماء التحرير ٠ ٠ ٠

ولم يكن تحمس هؤلاء الزعماء واحساسهم الوطنى خاليا من قصد الدفاع عن ارض الوطن ، ومن نية الذود عن حياضه مثلما ذهب اليه المؤرخ المستشرق (ايميل قوتيى) لما ميز فى كتابة بين وطنيـــة الشرقيين المرتكزة على علائق القرابة والدم ، ووطنية الغربيين التى تعتمد بالاخص على المكان والمناخ والوسط الجغرافى (١) ، بل كانوا يقاومون ويجاهدون لطرد المستعمرين عن ارضهم ، واقصائهم عن بلادهم ، وكانوا يقولون ويرددون ما كان يقوله ماسنيسا ويوغرطة من قبلهم « بان ارض افريقية للافريقيين ولن تكون ابدا لسواهم »

---

(١) الاستاذ قوتيى(Emile-Félix GAUTIER)(١٨٦٤ ـ ١٩٤٠) : من اساتذة كلية الاداب المشاهير بالجزائر (١٩٠٢) ، ومن المستشرقين المدققيـن والمؤرخيـن المحققين، له دراية ومعرفة بتاريخ شمال افريقية ، وله فى تاريخ العرب زمن فتوحاتهم



وتاريخ اسكـان بالشمال الافريقـى افكـار شاذة ونظريات مبتكرة يذهب فيها احيانا مع ميوله وعواطفه ، وهو المؤلف لكتاب «قرون المغرب المظلمة » (Les Siècles Obscurs du Maghreb) الذى طالعنا ما احتوى عليه من غريب الافكار والمعانى ، واستنكرنا البعض منها ، ونؤمل احنظة الآراء عند الامكان بمحتويات ذلـك التاليف مع نقدها بقدر الطاقة ٠ وان وفاة هذا الاستاذ (سنة ١٩٤٠) قد تركت فراغا عظيما لان دراسته بالرغم عن شذوذها كانت من انفس الدراسات لما اشتملت عليه مـــن المعانى الطريفة والاراء المبتكرة ٠ فالاستاذ قوتيى لا يتخذ فـى آرائه المذاهـب التـى اتخذها المؤرخون قبله ولا ينحو نحوهم ٠

ونريد اليوم الاشارة الى مسالة اتت عرضا فى ذلك التاليف وشرحهـا الاستـاذ قوتيى شيئا من الشرح وهى الميز بين الاحساس والشعور الوطنى le patriotisme عند الشرقيين والمغربيين ، فالاستاذ يرى ان الوطنية ليست من نوع واحد فى الشرق والغرب ، بل هى عند الشرقيين ترتكز على علائق القرابـة وروابط الدم ، وعـند الغربيين تعتمد بالاخص على المكان والمناخ ، فهى فى المشرق من (النوع الجنسى)

وهى فى الغرب من (النوع الجغرافى) ، ولذلك ترى الامم الشرقية تعبر عن بلادها فى الغالب بنسبتها الى جنس من يسكنها ، فيقولون « بلاد العرب » و « بلاد الفرس والعجم » و « بلاد الاغريق واليونان » ، ولا يقولون « عرابيا » (Arabie) او « فرسيا » (Perse) او « اغريقيا » (Grèce) الى غير ذلك .... فهم الى اعتبار القوم الساكنين بتلك الاصقاع اقرب ، والى الاعتناء بهم اميل ، بخلاف الاوروبيين مثلا ، فان الذى يهمهم قبل كل شيء هو الارض والمكان ، ولذلك تراهم يعبرون عن اسم البلاد باسم الصقع والاقليم ، فيقولون : « فرنسا » ولا يقولون بلاد الفرنسيين ، و « انكلترا » و « المانيا » ولا يقولون بلاد الانكليز او بلاد الالمان ، الى غيرذلك ...

ثم يذهب الاستاذ قوتيى حسب عادته فى الاستنتاج والبحث عن الاسباب ، فيقول ان علة ذلك فى نظره ان امم الشرق فى الغالب من القبائل الرحالة ورواد المناجع، فهو لانتقالهم من مكان الى مكان فى البحثعن الكلا لحيواناتهم لا يحنون الى مكان واحد ولا ترتبط به اشخاصهم بخلاف الغربيين ، وان الاحساس الوطنى هو فى الامم وليد الحوادث التاريخية وحالة المجتمعات من الوجهة السياسية والاقتصادية والدينية ،ولذا ترى ذلك الاحساس يتكيف ويتنوع حسب تلك الحوادث وتلك الحالات المختلفة .

فالوطنية عند القبائل الرحل ليست شبيهة بالوطنية عند الامم القاطنة ببلاد واحدة، والوطنية عند الامم الشديدة التدين ليست شبيهة بالوطنية عند الشعوب التى ضعف فيها المعنى الدينى ، وقس على ذلك ... فالوطنية اذن تختلف حسب الشعوب والامم اختلافا عظيما . واذا اعتبر الانسان هاته الكلمة من دون اعتبار فحواها الحقيقى بالنسبة لكل امة على حدة ، فقد اعتبر لفظا ضخما اجوف لا يفيد شيئا ، بل له مدلول عام كلفظ « القماش » مثلا له مدلول عام ، لان الاقمشة فى الواقع تختلف اختلافا عظيما من الخز والديباج والسندس والاستبرق الى احقر الاقمشة وابسط الانسجة واقلها قيمة . فاذا تكلمت عن القماش ، وفخرت القماش ، وذكرت فضل القماش فانك لم تات الا ببعض العموميات . اما اذا اردت التحقيق والتدقيق وجب عليك بيانالنوع والشكل ، وذلك هو الامر الصعب الذى يدفع بك الى البحث والتنقيب والتامل ...

لكن يمكن ان نقول ردا على هذه النظرية : ان الالمان، وهم من الغربيين قد حنوا الى اجناسهم فى الاصقاع الاخرى النائية عنهم ، مثل حنينهم الى من تضمه جغرافية بلادهم واحسوا بالروابط التى تربطهم مع بنى الالمان القاطنين فى مشارق الارض ومغاربها وبالجامعة التى تجمعهم ، وكان ذلك اساس المذهب النازى ، ومن اشد الاسباب التى دعت الى اثارة الحرب الكبرى الاخيرة ، فهل هاته الفكرة فكرة شرقية ؟ وهل هاته العاطفة عاطفة شرقية ؟

— بعكس ذلك المسلمون فى فلسطين احسوا برابطتهم مع الاقليم الذى نشاوا فيه فهم لا يبغون عنه بديلا ولو عوضوا عنه بما اتسعت به المعمورة من ارجاء فسيحة ولو طلب منهم النزوح الى اقليم احسن مناخا ، واشد بهجة ، لما رضوا بذلك ولما قبلوه ولما عدلوا عن المطالبة بحقوقهم المهضومة ،فهل يقال اذن ان قوميتهم وعاطفتهم الوطنية لااتصال لها بالارض والاقليم ، وهى لاتعتبر الا العلائق الجنسية وروابط الدم والقرابة؟ فلو كان ذلك كذلك لنزح مسلمو فلسطين الى بعض القارات مثل نزوح اليهود الى بلادهم ولاستعاضوا عن بلادهم بغيرها من بلدان المعمورة خصوصا وان الانكليز واليهود يسهلون عليهم ذلك ويوفرون عليهم بلا شك سائر الاسباب المادية والادبية لارضائهم بكل ما يتيسر من وسائل .

ـ فساد المعاملة مع الاهالى

والذى زاد فى الطين بلة فساد السلوك مع الرعية • فان الحكومة البيزنطية قد اثقلت كاهل السكان من ابناء البلاد بالضرائب الثقيلة المجحفة، وافتكت اموالهم ظلما وعدوانا، وعاملتهم بكل شدة وقساوة • ومن جهة اخرى فقد تفشى الارتشاء فى جميع طبقات الحكام والموظفين وكثر الفساد وساءت الاحوال ، الشىء الذى اوغر عليهم الصدور ونفر القلوب •

ـ تدهور سلطة البيزنطيين :

كان (جرجير) آخر البطارقة البيزنطيين الذين حكموا البلاد التونسية • فهو قد شق عصا الطاعة فى وجه حكومته مثلما كان فعل (بونيفاس) من قبله فى آخر مدة الاستعمار الرومانى ، ونقل مقر حكمه من قرطاج الى سبيطلة وجعلها عاصمته ، وذلك من غير شك استعدادا لمجابهة هجوم العرب الذى بدا يشعر بخطره الداهم •

ـ قدوم الفاتحين العرب :

وفى سنة ٦٤٠ م • استولى العرب بسهولة على البلاد المصرية ، ووقع اقتبالهم بحفاوة ، واعتبارهم منقذين ومحررين من عسف البيزنطيين وظلمهم وطغيانهم الجبائى والدينى •

ثم تمادوا فى تقدمهم نحو برقة وطرابلس ، بدون ان يحرك الاكسرخوس (جرجير) ساكنا ، وبدون ان يقوم باى رد فعل رغما عن كونه مسؤولا عن امن الولاية البيزنطية بافريقية وعن الدفاع عنها

غير ان العرب لم يتابعوا تقدمهم اكثر من ذلك لان الخليفة عمر رضى الله عنه كان متخوفا ومتشائما من التوغل فى الاراضى الافريقية •

ـ وفى سنة ٦٤٤ م • تولى (عثمان بن عفان) الخلافة وسمح رضى الله عنه بمواصلة الفتوحات • فبدات الغزوة الاولى سنة ٦٤٧ م • ٢٧ هـ •

الغزوة الاولى او غزوة العبادلة السبعة :

امر الخليفة عثمان عامله على مصر وهو عبد الله ابن ابى سرح

بالمسير الى افريقية ، فقصدها واصطدم بجيوش جرجير المؤلفة من الروم والافريقيين وذلك قرب عاصمته سبيطلة ، ودارت معركة بين الفريقين اسفرت عن انهزام جيش الروم وقتل البطريق جرجير ٠ (١) وبعد جمع الغنائم الوافرة ، صالح عبد الله ابن ابى سرح اعداءه على مبلغ كبير من المال ، وقفل راجعا بجيشه الى مصر ٠ (٢)

ومن الملاحظ هنا ان العرب لم يكن ليتم لهم من نصر مبين على البطريق جرجير وجيشه لو لم يساهم ابناء البلاد من الافريقيين فى صفوف العرب ٠ فلقد تربص الافارقة بالاستعمار الرومانى حتى اذا سنحت لهم الفرصة انضموا الى صف من جاء لمحاربة المستعمر وتخلوا عنه وضربوه الضربة القاضية لانهم اعلم بنقط ضعفه من غيرهم ٠ وهكذا هزم جيش جرجير رغم تفوقه فى العدد وتحصنه بالقلاع وامتلاكه للذخيرة والمؤونة ٠

على ان الافريقيين لم يعملوا على اخراج الروم من بلادهم ليحل محلهم مستعمر آخر ، كما ان ماسنيسا من قبل لم يقاوم القرطاجيين ولم يحارب فى صف الرومان ليحل الرومانيون محلهم ، بل كان يفكر فى تحرير بلاده وفى تكوين مملكة افريقية مستقلة ٠ وان سكان البلاد لا يريدون ابدال مستعمر بمستعمر ٠ فسواء اكان المغتصب فنيقيا او رومانيا او بيزنطيا او عربيا ٠٠٠ فكلهم مغتصبون ومستعمرون فى نظرهم ٠ وقد ادرك العرب ذلك ، فلم يفكروا فى احتلال افريقية فى ذلك الوقت ، كان الاقدام على حملة كهذه تعتبر من الامور الصعبة التى كانت تخيف العرب ، حتى اذا عقدوا العزم على فتح افريقية رايناهم يجهزون اقوى الجيوش ويجعلون على راسه اشهر القواد وهو (عقبة بن نافع) وذلك سنة ٦٧٠ م ٠ / ٥٠ هـ ٠ وهى سنة تاسيس جامع القيروان وتاسيس مدينة القيروان وفتح افريقية فتحا عربيا اسلاميا ٠

---

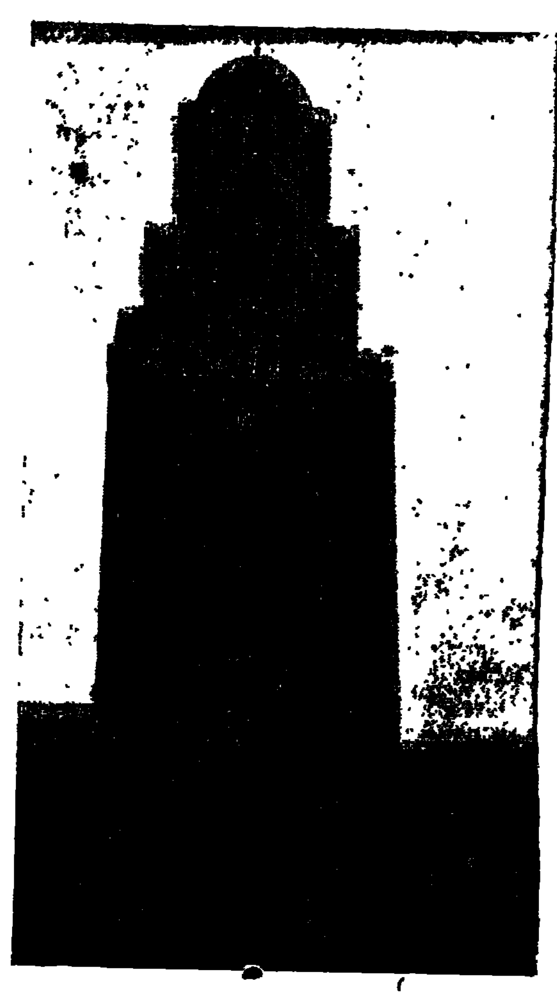
(١) الذى ينبغى ملاحظته بالنسبة للوندال وكذلك بالنسبة للبيزنطيين على حد السواء هو انهم لم يحتلوا البلاد الافريقية الا احتلالا جزئيا ناقصا : فان الوندال قد قضوا على النفوذ الرومانى بافريقية الشمالية ولكنهم لم يقيموا نفوذهم مكانه ، بل استرخوا تحت تاثير المناخ والحياة اللينة وتركوا ابناء البلاد يسترجعون قوتهم واستقلالهم وهو ما يوضح سرعة سقوطهم وانهيارهم ٠٠٠ وكذلك البيزنطيون ايضا ، فانهم اقتنعوا بالقليل ، وتركوا جهات كثيرة داخل البلاد او بالناحية الغربية خارجة عن نفوذهم وسيطرتهم ، ولذلك لم يثبتوا طويلا امام هجوم العرب ٠

(٢) تعرف هذه الغزوة الاولى بغزوة (العبادلة السبعة)لمشاركة سبعة من الصحابة اسمهم (عبد الله) وهم : عبد الله بن ابى سرح ـ عبد الله بن الزبير ـ عبد الله بن عباس ـ عبد الله بن جعفر ـ عبد الله بن عمر بن الخطاب ـ عبد الله بن مسعود ـ عبد الله بن عمرو بن العاص ٠

ومن ذلك الوقت يبدا تاريخ افريقية الشمالية العربية المسلمة او :

تاريخ المغرب العربى الكبير

(وهنا ينتهى الجزء الاول ويليه الجزء الثانى بحول الله)



الله اكبـــر !

المراجع

اولا المراجع العامة

1. — ١ ــ ابن خلدون : المقدمة والتاريخ

2. — ٢ ــ ح· ح· عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس

3. — St Gsell : Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord
Tome I : Les temps primitifs - La colonisation phénicienne et l'Empire Carthaginois (1914).
Tome II : L'Etat Carthaginois (1920).
Tome III : Histoire militaire de Carthage (1928).
Tome IV : La Civilisation Carthaginoise (1920).
Tome V : Les Royaumes indigènes : Organisation sociale, politique et économique.
Tome VI : Les Royaumes indigènes : Vie matérielle, intellectuelle et morale.
Tome VII : La République romaine et les rois indigènes.
Tome VIII : Jules César et l'Afrique - Fin des royaumes indigènes.

4. — Ch. A. Julien : Histoire de l'Afrique du Nord (1956).

5. — V. Piquet : Les Civilisations de l'Afrique du Nord (1915).

6. — J. H. Breasted : Conquête de la Civilisation (1945).

7. — P. H. Antichan : La Tunisie - Son passé et son avenir (1884).

8. — Vivien de St Martin : Le Nord de l'Afrique dans l'Antiquité (1863).

9. — E. F. Gautier : Le passé de l'Afrique du Nord (1952).

10. — E. Mercier : Histoire de l'Afrique Septentrionale.

11. — J. Pirenne : Les grands courants de l'Histoire Universelle.

12. — J. Klein : La Tunisie.

13. — H. Baumann et D. Westermann : Les Peuples et les Civilisations de l'Afrique.



14. — ١٤ ـ عثمان الكعاك : البربر

15. — G. H. Bousquet : Les Berbères.

16. — Gl Brémond : Berbères et Arabes : La Berbérie.

17. — A. Erman : L'Egypte des Pharaons.

18. — Léon Balout : L'Afrique préhistorique.

19. — E. G. Gobert : El Mekta (près de Gafsa) station princeps du Capsien (Karthag t. III 1951-1952).
20. — Reygasse : Etudes de la Paléonthologie maghrébine (nouvelle série).
21. — Reygasse : Monuments funéraires préislamiques de l'Afrique du Nord.
22. — Hespéris : Institut des Hautes Etudes Marocaines - Tome XXIV (1927) et Tome XXIX (1942).
23. — Solignac : L'Atlantide et le Sud Tunisien (Revue Tunisienne 1931).

ثالثا ـ 

٢٤ ـ الدكتور توفيق الطويل: قصة الكفاح بين روما وقرطاج ـ 24.
٢٥ ـ احمد توفيق المدني: المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا ـ 25.
26. — Dr G. Conteneau : La Civilisation phénicienne (1949).
27.— C. Autrin : Phéniciens (Histoire Antique de la Méditerranée 1920).
28. — Jean Huré : Histoire de Sicile (1957).
29. — Le P. G. G. Lapeyre : Carthage (1946).
30. — Lapeyre et Pellegrin : Carthage punique (1942).
31. — Claude Poinssot : Les ruines de Carthage (1958).
32. — M. Beulé : Fouilles à Carthage (1861).
33. — Dr Carton : Sanctuaire punique à Carthage (1929).
34. — Henri Lhote : Le Sahara (1937).
35. — H. Van Loon : La Conquête des mers (1947).
36. — G. Picard : Le monde de Carthage.
37. — G. et C. Ch. Picard : La vie quotidienne de Carthage au temps d'Hannibal (1958).
38. — G. P. Baker : Annibal (1952).
39. — Capitaine Hart : Scipion l'Africain (1934).
40. — Colette Picard : Carthage (1951).

رابعا ـ 

41. — Gaston Boissier : L'Afrique romaine.
42. — Cagnat : L'Armée romaine d'Afrique et l'occupation militaire sous les empereurs.
43. — P. Mesnage : La romanisation de l'Afrique.
44. — E. Albertini : L'Afrique romaine.
45. — Toutain : Les cités romaines de Tunisie.
46. — Christian Courtois : Timgad, antique Thamugadi (1951).

47. — P. Battifol : Le Catholicisme de St Augustin.
48. — Alfaric : L'évolution intellectuelle de St Augustin.



49. — E. F. Gautier : Genséric.
50. — Christian Courtois : Les Vandales et l'Afrique.
51. — Ch. Saumagne : La paix vendale.
52. — Albertini : Actes de vente du Ve siècle (Tebessa).



53. — Général L. M. Chassin : Bélisaire.
54. — Ch. Diehl : L'Afrique Byzantine.
55. — J. Pargoire : L'Eglise byzantine.



تدارك أغــلاط مطبعية

الصفحة	السطر	الخطا	الصواب
٣	٩	المدينة	المدنية
٣	١٠	تؤدة	تو«دة
٤	٨	= سنة	= ٦٦٨ سنة
٣٠	٢٦	ليتصرروا	ليتصوروا
٣٨	١٣	Gaspien	Gapsien
٣٩	١٨	Dr Gobbet	Dr Gobert
٣٩	٢١	Chellieu	Chellien
٣٩	٢٢	Acheulieu	Acheulien
٣٩	٢٩	Atérieu	Atérien
٤١	١٤	Tyqique	Typique
٤١	١٥	le burin	le burin à angles
٤١	٢٠	microburiens	microburins
٤٢	١٤	مع من نزح	مع من نزحوا
٤٢	٣٢	nouveaux	nouveaux
٤٣	٢٠	الهياكل العظيمة	الهياكل العظمية
٤٣	٢١	حسب عاددتهم	حسب عادتهم
٤٨	١١	زاد واستولى	زاد استولى
٤٨	٢٣	سنة ٩٤٢ ق٠م	سنة ٩٢٤ ق٠ م٠
٥١	٤	Zanèkes	Zauèkes
٥١	١٠	بلاد الجرايد	بلاد الجريد
٥١	٢٨	غابة مقنة	غابة ماكنة
٦٠	٢٣	ميلاد	ميلا
٦٠		المنوروغرافيا	الخوروغرافيا
٦٧	٢٢	اقل استقرار	اقل استقرارا
٧٠	١٠	قبور (مقنة)	قبور (ماكنة)
٧١		الخريطة تمثل	الخريطة التى تمثل
٧١	٢٩	بقبور (مقنة)	بقبور (ماكنة)
٧٣	٥	صور تمثل نقوش قديمة	تحت«وسائل الايضاح»

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٧٦	١٧	الاسلحة ن الحجارة	الاسلحة من الحجارة
٨٢	١	انشاؤها	انشؤوها
٨٥	٧	خمسمائة اسيرا	خمسمائة اسير
٩٣	٢٧	مبورقة	ميورقة
٩٤	٣٠	بالزفت والقاز	بالزفت والقار
٩٦	٣٠	حواز	حواجز
٩٨	٧	سبعمائة مترا	سبعمائة متر
٩٨	١٨	اشار الى ذلك	اشار اليها
١٠٢	١٧	آدار	راس آدار
١٠٦	١٠	قد قبلت الوضعية	قد قلبت الوضعية
١٠٦	١٧	بمفاجاة مؤلمة	بمفاجآت مؤلمة
١٠٨	٨	وكان يقعد	وكان يعقد
١٠٨	٢٥	الحل والعقدة	الحل والعقد
١٠٩	٢٠	فى تلك المرة	فى تلك المدة
١١٣	٢٠	اى مدى الحروب	اى مدة الحروب
١١٦	اسطر كثيرة	الهة ـ الالهة	الاهة الالاهة (مؤنث اله)
١١٦	٩	الالهة (جيراء)	الالاهة (حيراء)
١١٨	١٩	لانها وجدت	لانه وجد
١٢٠	١٠	تمثل كانها	تمثل كاهنا
١٢٠	٢٥	(بعل سمين)	(بعل آسمين)
١٢٢	٥	الشياطن	الشياطين
١٢٥	١٤	سبراطة	صبراتة
١٢٦	٩/١٥	سبراطة	صبراتة
١٢٦	٣١	مليون دينار	مليون فرنكا اوالف دينار
١٢٧	٣٠	الرومانيين بنبنون	اليونانيين
١٢٧	٣٢	بنبتون	بنبتون (Neptune)
١٣٠	٩	كبير يسمى (Char des Dieux) عربة الالهة	كبير يسمى (عربةالالهة) (Char des Dieux)
١٣٠	٣٣	هوير كان	هو بركان

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٣١	١٨	قلى ضبط	فى ضبط
١٣٥	٢٢	(استرميند)	(استرمنيد)
١٣٦	٣٠	.... (١)	(1) (Foyle)
١٤٢	١١	الجهة الفرينية	الجهة القرينية (اى ولاية برقة)
١٤٦	٤	وما يلزم اصلاح	وما يلزم لاصلاح
١٤٧	٣	وتصبر	وتصير
١٥١	٢٥	بخدر الجوار	بخدر الجوارى
١٥٣	١٨	مستقرين	وكانوا مستقرين
١٥٨	٢١		(سطر يقع الغاؤه تماما)
١٥٨	٢٢		(سطر يقع الغاؤه تماما)
١٥٨	٣١	الشعيد المحمص	الشعير المحمص
١٥٩	٣٤	ويقال (ابياش الشجرة	ويقال (اباش الشجرة)
١٦٠	٢٠	وخرشفها	وخرشوفها
١٦٥	٧	وبيض	وبيضة
١٧٠	٣٣	القليس	القلس
١٧٢	٩	وقراراته	وقرارته
١٧٤	١٣	الجمهورية اليونيقية	الجمهورية البونيقية
١٧٤	٢٨	الاستقراطية	الارستقراطية
١٨٠	١٥	من الخطوة	من الحظوة
١٨٣	٣	وله	ولها
١٨٣	٢١	ويسمح	ويمسح
١٩٠	١٣	فغزا القرينية	فغزا القرينية (اى ولاية برقة)
١٩٣	١	على ان يرجع اليه	على ان يرجع اليهم
١٩٣	٢٠	او تاخذ	او تؤخذ
١٩٧	٢٤	rostroum	rostrum
١٩٧	٢٨	« غربانة »	« غربانه »
٢٠٥	٢١	فانهما اخلصت	فانهما اخلصتا
٢٠٦	٣٢	فى المقدمد	فى المقدمة

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٠٩	١٣	لا ينصب	لا ينضب
٢١٦	١٥	بل الحرب الذى	بل الحرب التى
٢٢٣	١٩	وصارت	وصارت رومة
٢٢٤	١٥	مؤمرات	مؤامرات
٢٣٣	٢٧	والالتز امات	والالتزامات
٢٣٦	٢٠	على احلاقه	على اخلاقه
٢٣٦	٢٥	اول يتقدم	اول من يتقدم
٢٤٢	١٠	Tacnac	Taenae
٢٤٤	١٢	صرح بحكمة	صرح بحكمه
٢٦٥	١٩	الفقراء (صغار الملاكة)	الفقراء:لايملكون شيئا(١)
٢٦٩	٥	وعدم المصادقةعلى القوانين (droit de veto) واستمر لهم حق الرفض	واستمر لهم حق الرفض (droit de veto) وعدم المصادقة على القوانين
٢٦٩	٢٢	كانوا مكلفون	كانوا مكلفين
٢٨٧	١٧	وعماله	واعماله
٢٩٣	١٨	بعد سنة ١٩٣٠	بعد سنة ١٨٣٠
٢٩٥	١٥	المملكة اللنوميدية	المملكة النوميدية
٣٠٣	٣	وضحاحا	وضحاها
٣١٣	١	حتى ان القرنيين	حتى ان القرينيين
٣١٧	١		يلغى السطر الاول بتمامه
٣٢٢	٨	ومبخرت	تمخر
٣٢٦	٤	خندوسى	خندروس
٣٢٦	٩	Spelta	rave
٣٢٦	١٠	الترفس	الترفاس
٣٢٧	١٤	مادوروش	ماداوروش
٣٢٧	٢٠	بالحيو نات	بالحيوانات

(١) تسرب ذلك الخطا فى بعض النسخ فقط لا فى جميعها

الصفحة	السطر	الخطا	الصواب
٣٣٣	٢٥	التى رسم بها	التى تثبتوجودها اثباتا قطعيا هى الانصاب الميلية التى رسم بها ...
٣٣٦	١٣	افيم بجانبه	اقيم بجانبيه
٣٣٨	٥	بويليوس	يوليوس
٣٤١	٢	بواكير الازدهار	بواكير الازهار
٣٢٩	٨	وزيادة	زيادة
٣٤٢	٢٥	ومبينا	ومبنيا .
٣٤٤	٣١	(Bas-relief)	(Haut-relief)
٣٤٤	٣٣	(Haut-rclief)	(Bas-relief)
٣٤٥	٥	بخشبة المسرح	بخبشة او منصة المسرح
٣٤٨	١٢	يصلح	تصلح
٣٤٨	١٣	يسنعمل	تستعمل
٣٤٩	١٩	سبراطة	صبراتة
٣٥٠	١	سبراطة	صبراتة



جـدول اللـوحـات

عـدد اللوحة	ما تمثله اللوحة	رقم الصفحة التابعة لها
١	راس ليبى	٦٣
٢	سلم الادوار التاريخية	١٥
٣	توالى الهجومات على القطر التونسى	٤٥
٤	الليبيون كما رسمهم المصريون	٣٦/٧١
٥	خريطة جزيرة اقريطس والبحر الايجي والشعوب القديمة	٥٠
٦	محاربة رمسيس الثالث لشعوب البحر	٤٧
٧	اسراء يهود فلسطين اثر غزوة شيشوق الاول	٤٨
٧	الكاهنة (كرمانة) زوجة شيشوق الاول	٤٨
٨	خريطة مصر القديمة	٤٨/٤٩
٩	خريطة قبائل البرانس والبتر والملثمين	٣٤
١٠	الطور الحنشى	٣٩
١١	الطور العتيرى والوهرانى والقفصى	٣٩
١٢	خريطة الطور القفصى والطور الوهرانى	٤١
١٣	الحوانيت او اللحود المحفورة فى الصخور	٥١
١٣	رسم بقبر منقور فى الصخر بغابة ماكنة قرب طبرقة	٥١
١٤	خريطة برشارد : جزيرة الاطلنطس قرب وذرف	٥٤
١٤	خريطة هرمان : الجنوب التونسى بين القرن ١٣ والقرن ١٢ ق٠م٠	٥٥
١٤	خريطة هرمان : الجنوب التونسى بين الفرن ٦ والفرن ٤ ق٠م٠	٥٥
١٥	خريطة هرمان : الجنوب التونسى بين القرن ١ والقرن ٣ بعد الميلاد	٥٦
١٥	خريطة هرمان : الجنوب التونسى بين القرن ٨ والقرن ١٢ بعد الميلاد	٥٦
١٦	الحجرتان المنقوشتان بالخط الليبى والبونيقى (دقة)	٤٤/١٥٧

عـدد اللوحة	ما تمثله اللوحة	رقم الصفحة التابعة لها
١٧	النقش الصخرى : الكبش المقدس	٣٧
١٨	مساكن الرحالة او المتنقلين	٥٩
١٨	مساكن المستقرين او اهل القرار	٦١
١٩	النوالة بالمغرب الاقصى	٦٠
١٩	الكهوف بمطماطة	٥٩
٢٠	الفن الليبى : الرسم والنقش على الصخور	٣٧
٢١	خريطة فنيقيا	٧٨
٢١	رسم مدينة صور الفنيقية	٩٢/٨٣
٢٢	خريطة : شعوب الشرق فى العصور التاريخية القديمـة	٧٨
٢٣	الموقع الجغرافى لفنيقيا وتونس	٧٩
٢٣	خريطة : المراكز التجارية الفنيقية	٧٩
٢٤	اسطورة جلد الثور	٨٨
٢٥	صور مرسومة بقبـر بونيقى بجبـل املـزة (الوطن القبلى)	٩٩
٢٦	رسم قرطاج فى عهد الفنيقيين	٩١
٢٧	رسم قرطاج فى الوقت الحاضر	٩١
٢٨	آثار الخط الدفاعى او السور الاول بقرطاج	١٠١
٢٩	المسوخ او الوجوه المستعارة	١٢٢
٣٠	رسم مثالى للمرسى الحربى والمرسى التجارى بقرطاج	٩٤
٣١	مرسى قرطاج كما نتصوره من خلال وصف المؤرخين	٩٧/٩٤
٣١	آثار المرسى التجارى والمرسى الحربى : البحيرتان (تتبع اللوحة ٣١ صفحة بها شروح لفهم الصور)	٩٤
٣٢	عريسة بعل	١٢١
٣٣	تانيت	١١٧/١١٦
٣٤	بعل حمون	١١٨/١١٥
٣٥	نصب نذرى يتعلق باحراق الاطفال	١٦٤/١٢٠

عدد اللوحة	ما تمثله اللوحة	رقم الصفحة التابعة لها
٣٦	خريطة : رحلة خيملكن	١٣٤
٣٧	خريطة : رحلة حنون	١٢٧/١٢٤
٣٨	المراكز التى اسسها حنون في رحلته	١٢٨
٣٩	البيتيل	١٣٧
٣٩	الاعمدة اليونية والاعمدة الكورنتسية	١٥٧
٤٠	سفينة تجاريةقرطاجية مشحونة قلالا من الفخار	١٤٩
٤١	سفينة نقـل	١٧٠/١٤٩
٤٢	سفينة حربية	١٧٠/١٤٩
٤٣	مركب ثنـائى اسعملـه الرومـان فى الحرب البونيقية الاولى	١٩٧/١٧١
٤٤	اشجار الارز بلبنان (فنيقيا فى القديم)	١٥٠
٤٤	صندوق قرطاجى من خشب وجد بمدينة قصور الساف	١٥١
٤٥	مشط من عاج ، ونقود قرطاج	١٥٦/١٤٦
٤٦	مواس وجدت بقبور القرطاجيين	١٦٢
٤٧	ضريح بدقة من بناء القرطاجيين	١٥٦
٤٨	البطل الكبير عملقرط برقة	٢٠٦/٢٠٠
٤٩	القائد الشهير حنبعل برقة	٢١١/٢١٠
٥٠	القائد الرومانى شبيون الافريقى الاكبر	٢٣٢
٥١	الملك ماسنيسا	١٧٧
٥٢	ابسط لباس بونيقى	١٦٣
٥٣	خريطة : الممالك الليبيـة المستقلـة فى عهـد البونقيين	١٧٤
٥٤	خريطة : حروب صقلية	١٨٤
٥٥	خريطة : ثورة الجند الماجور ومعارك التحرير	٢٠٢
٥٦	خريطة : الحرب البونيقية الثانية	٢١٢
٥٧	خريطة : جبال الآلب	٢١٣
٥٨	خريطة : تنقـلات حنبعل وشبيون وماسنيسا قبل معركة جامة	٢١٣

عـدد اللوحة	ما تمثله اللوحة	رقم الصفحة التابعة لها
٥٩	رسم لوافعة جامة	٢١٣
٦٠	فوسا ريجيا	٢٩٥/٢٤١
٦١	يوغرطة – بوخوس – ماريوس – سيلا	٢٨١
٦٢	فرسان يوغرطة النوميديون	٢٨١/١٦٩
٦٣	خريطة ايطاليا القديمة	٢٦٣/٢٦٢
٦٤	الملك يوبا الاول	٢٨٤
٦٥	نقود الممالك الافريقية : ماسنيسا – ميسيبسا يوغرطة	٢٨٦/٢٧٤
٦٦	نقود الممالك الافريقية : يوبا الاول – يوبا الثانى + كليوباتـرة	٢٨٦/٢٧٤
٦٧	يوليوس قيصر وبمبايوس	٢٨٤
٦٨	الملك يوبا الثانى	٢٨٦
٦٩	القيصر اغسطس	٢٨٦
٧٠	تمثال فائق الكبر للقيصر اغسطس وهو متدرع	٣٥٥/٢٨٨
٧١	تمثال نصفى من المرمر لفينوس	٣٥٥/٢٨٨
٧٢	الملك بطليموس	٢٨٩
٧٣	جدول الملوك الافريقيين	٢٩١/٢٧٤
٧٤	كيفية تقسيم الاراضى	٢٩٧/٢٩٦
٧٤	آثار المسح والتقسيم قرب مدينة الجم	٢٩٧
٧٥	آثار معصرة للزيت بمدينة ماداوروش	٣٥٤/٣٢٨
٧٥	آثار معمل لدبغ الجلود بمدينة تيبازة	٣٢٨
٧٦	خريطة التوسع الرومانى بافريقية الشمالية	٣٠٥/٢٩١
٧٧	جسر وادى جلف شمال القيروان	٣٣٣
٧٧	جسر القنطرة بالجزائر	٣٣٣
٧٨	الطرقات الرومانية	٣٣٢
٧٨	انصاب الاميال	٣٣٣
٧٩	معبد المياه او النتفية بزغوان	٣٣٠
٧٩	معبد المياه بزغوان : مدخل الخلوة	٣٣٠
٨٠	حنايا زغوان وحنايا شرشال	٣٣١/٣٣٠

عدد اللوحة	ما تمثله اللوحة	رقم الصفحة التابعة لها
٨١	الاعمال الفلاحية فى عهد الرومان	٣٢٤/ ٣٦٠
٨٢	الساحة العمومية (الفوروم) بمدينة عنابة	٣٤٤
٨٣	اطلال مدينة تيمقاد الرومانية بالجزائر	٣٤٢
٨٤	تصميم تيمقاد	٣٤٢
٨٤	جندى من الاهالى مكلف بحراسة الحدود	٣١٠
٨٥	سبيطلة : المعابد الثلاثة الكابيتولية	٣٤٤
٨٥	دقة : معبد الكابتول	٣٤٤
٨٦	دقة : اطلال المسرح الرومانى	٣٤٨
٨٦	تيمقاد : اطلال المسرح الرومانى	٣٤٨
٨٧	الجم : الملعب الرومانى	٣٤٧
٨٨	الجم . الملعب الرومانى	٣٤٧
٨٩	المتصارعون وهم يتبارزون فى الملعب الرومانى	٣٤٦
٩٠	طرابلس : قوس ماركوس اوريليوس ذو اربع واجهات	٣٤٩
٩١	لبدة : منظر عام لاطلال الحمامات الرومانية	٣٤٩
٩٢	لبدة : اطلال كنيسة سافاروسية	٣٥٠
٩٣	لمباز : البريطوريوم : مقر القائد الاعلى	٣١٧/٣٤٢/٣٥٥،
٩٤	بقايا آثار كنيسة الكاف	٣٥٢
٩٥	آثار بيت العماد والجرن بكنيسة سبيطلة	٣٥١
٩٦	قرطـاج : موقـع الملعب والمســرح والاديـون والحمامات	٣٤٦/٣٤٧
٩٧	الامبراطور غرديانوس الافريقى	٣٧١
٩٨	خريطة : الممالك الافريقية فى القرنين الخامس والسادس	٣٨٣
٩٩	كتابة وندالية : عقدة بيع مكتوبة على لوح	٣٨٦
١٠٠	نزول القائد بلبشار على راس جيشه البيزنطى	٣٩٢/ ٣٩٤
١٠١	الباب البيزنطى او باب صولومون بتبسة	٣٩٥/٣٩٦
١٠١	قصر لمسة البيزنطى	٣٩٥

فهــرس الكتــاب

ص	الموضوع
	القسم الاول : مقدمات
٣	كلمة الناشر
٥	البرامج الرسمية
٦	الحصص والبرامج
١٤	توجيهات
١٥	من الحاضر القريب الى الماضى البعيد
١٨	ما هو التايخ ؟
٢٤	كيف نعلم التاريخ ؟
	القسم الثانى : الليبيون
٣٤	**التعريف بالليبيين**
	حياتهم حسب ابن خلدون (٣٦) ـ اطوار مدنيتهم البدائية (٣٨) ـ دخولهم للتراب المصرى (٤٦) احتكاكهم بالمدنية المصرية (٤٩) ـ اتصالهم بالشرق (٥٠)
٥٧	**المدنية الليبية**
	الصيد وتربية المواشى (٥٨) ـ الرحل والمستقرون ـ المسكن (٥٩) ـ الماكل والملبس والاسلحة (٦٢)
٦٤	**العائلة والقبيلة والشعب**
	العائلة (٦٤) ـ القبيلة (٦٥) ـ الشعب اوفيديرالية القبائل ـ الاقليد (٦٧)
٧٠	**درس مثالى اول**
٧٣	**درس مثالى ثان**

ص	الموضوع
	القسم الثالث : المدنية الليبية البونيقية
٧٨	**التعريف بفنيقية والفنيقيين** موقع فنيقية – هجوم الهكسوس (٧٨) – استيلاء مصر على فنيقية – تخلص فنيقية من الاستعمار المصرى – ازدهار مدينة صور – المراكز التجارية (٧٩) – مملكة صور بفنيقية – اغتيال الكاهن عاشرباص زوج عليسه (٨٣) – هجومات الاشوريين (٨٤).
٨٦	**تاسيس قرطاج** رواية جوستينيوس (٨٦) – انتحار عليسة (٨٩) كيف نفسر ذلك الانتحار (٩٠) – موقع قرطاج (٩١) – عظمة قرطاج – قرطاج خليفة صور (٩٢) – مرسى قرطاج (٩٤) – المرسى التجارى (٩٥) – المرسى الحربى (٩٦) – الساحة العمومية – البيوت والاسوار (٩٨) بيرصة (١٠١)
١٠٣	**النظام السياسى وشكل الحكومة بقرطاج** من البداية الى نصف القرن السادس (١٠٣) من النصف الثانى للقرن السادس الى نهاية النصف الاول من القرن الخامس : آل ماقون (١٠٤) – الثورة (١٠٥) – من النصف الثانى للقرن الخامس الى نهاية القرن الرابع (قبل الحروب البونيقية) – الملكان او السبطان (١٠٧) مجلس الشيوخ – محكمة المائة – الهيئات الخماسية (١٠٨) الشعب (١٠٩) – الجمعيات – القرن الثالث والثانى (من الحروب البونيقية الى تهديم قرطاج) : آل برقة – السلطة العليا (١١٠) – مجلس الشيوخ – مجلس الثلاثين – مجلس العشرة – الشعب – ملاحظات حول النظام السياسى بقرطاج (١١١) – مقارنة بين الدساتير بقرطاج واسبرطة وروما (١١٢)

ص	الموضوع
١١٤	**الحياة الدينية** اهمية الدين عند القرطاجيين (١١٤) ـ الآلهة (١١٥) مقارنة بين آلهة قرطاج وفنيقية واليونان والرومان (١١٦) القسيسية او الكهنوت (١٢٠) ـ العرافون (١٢١) ـ المسوخ (١٢٢)
١٢٣	**الاسفار والرحلات** الصحراء (١٢٣) ـ رحلة حنون (١٢٧) ـ نظرية ستيفان قسال (١٣١) ـ نظرية ايميل قوتية ـ نظرية كاركو بينو (١٣٢) ـ رحلة خيملكن (١٣٤)
١٣٨	**الحياة الاقتصادية** التجارة (١٣٨) ـ من سنة ٨١٤ الى سنة ٥٧٤ (١٤١) ـ من سنة ٥٧٤ الى سنة ٤٨٠ (١٤٢) ـ من سنة ٤٨٠ الى سنة ٤٠٩ (١٤٤) ـ من سنة ٤٠٩ الى سنة ٢٦٣ (١٤٥) ـ من سنة ٢٦٣ الى سنة ١٤٦ (١٤٦) الصناعة ـ صناعة المعادن (١٤٩) ـ صناعة الخشب : النجارة (١٥٠) ـ صناعة الحياكة والنسج ـ الصباغة (١٥١) ـ صناعة الاديم او الجلد المدبوغ (١٥٢) ـ صناعة الخزف (١٥٣) ـ صناعة الزجاج (١٥٥) ـ الصياغة ـ الهندسة المعمارية والبناء (١٥٦) ـ الفلاحة (١٥٨)
١٦٢	**العادات او الحياة اليومية** النظافة (١٦٢) ـ اللباس (١٦٣) ـ الطعام (١٦٥)
١٦٦	**الجيش والاسطول** الجيش (١٦٦) ـ الاسطول البحرى (١٧٠)
١٧٢	**الممالك الليبية والنوميدية فى عهد البونيقيين** معنى ليبيا فى القديم : وحدة شمال افريقية (١٧٢) ـ النوميديون والمريطانيون والجيتوليون (١٧٣) ـ الجمهورية البونيقية وعاصمتها قرطاج (١٧٤) ـ نوميدية الغربية او مازيسولة : الاقليد سيفاكس (١٧٥) ـ نوميدية الشرقية او ماسولة : الاقليد ماسنيسا (١٧٧)

ص	الموضوع
١٨٣	**الحروب :**
	اولا : حروب صقلية والكفاح بين قرطاج والاغريق ــ الهجوم البونيقى الاول تحت قيادة ملقيس (١٨٤) ــ الهجوم البونيقى الثانى تحت قيادة الملك عملقرط : كارثة هيمار (١٨٥) ــ الهجوم البونيقى الثالث تحت قيادة حنبعل : الانتصارات (١٨٦) ــ من سنة ٣٩٨ الى ٣٦٧ هجومات وانتصارات الطاغية دونيس وانكسارات القرطاجيين (١٨٧) ــ اغاثوقليس ينقل الحرب الى افريقية (١٨٨) ــ انتصارات الملك بيروس على القرطاجيين (١٩٣) ــ مشكل مضيق مسينة : الانقلاب السياسى (١٩٤)
	ثانيا : الحروب البونيقية او الكفاح بين قرطاج وروما (١٩٦) ــ الحرب البونيقية الاولى ــ ايطالية تمد راس جسر بصقلية : مسينة (١٩٦) ــ حصار مسينة ــ حصار جرجنتى ــ معركة مليس (١٩٧) ــ نقل ميدان الحرب الى افريقية : روغلوس ــ معركة وذنة (١٩٨) ــ انتصار زنتيبوس على روغلوس ــ استيلاء الرومانيين على بالرمة (١٩٩) ــ فشل صدربعل فى محاولة استرجاع بالرمة ــ رومة تفقد اسطولها ــ عملقرط برقة الشهير (٢٠٠) ــ ابرام الصلح (٢٠١) ــ من نتائج الحرب البونيقية الاولى : كفاح الليبيين والنوميديين للتخلص من الاستعمار (٢٠٢) ــ الاستعمار البونيقى باسبانية (٢٠٩)
	الحرب البونيقية الثانية وحنبعل (٢١١) ــ الحرب بايطالية (٢١١) ــ معركة تيسينو (٢١٣) ــ معركة تريبية ــ معركة ترزيمان (٢١٤) ــ سياسة التانى (٢١٥) ــ مجزرة كاننة (٢١٧) ــ تهديم الوحدة الايطالية (٢١٩) ــ جلب النجدة والمدد من افريقية (٢٢٠) ــ جلب النجدة والمدد من اسبانية (٢٢١) ــ التحالف مع مقدونية (٢٢٢) ــ استرجاع صقلية (٢٢٣) ــ الى الهاوية : خسر حنبعل عاصمته الاولى قابو (٢٢٦) ــ انتخب شبيون قائدا باسبانيا ــ خسر القرطاجيون باسبانية مدينة قرطاجنة ــ خسر

الموضوع	ص
حنبعل بايطالية مدينة تارنتة ـ خسر اخوه صدربعل باسبانية معركة باقولية ـ سقط صدربعل قتيلا فى معركة ميتور (٢٢٧) ـ استيلاء شبيون على اسبانية وطرد القرطاجيين منها ـ تسمية شبيون قنصلا ـ نقل ميدان الحرب الى افريقية (٢٢٨) ـ الحرب بافريقية (٢٢٩) معركة جامة (٢٣٢) ـ معاهدة الصلح (٢٣٣) ـ موت حنبعل وشبيون (٢٣٥)	
الحرب البونيقية الثالثة (٢٣٧) ـ نهضة قرطاج ـ اعتداءات ماسنيسا (٢٣٧) ـ نشوب الحرب بين قرطاج وماسنيسا (٢٣٨) ـ الحدود او فوسا ريجيا (٢٤١) ـ الحكم على قرطاج بالاعدام (٢٤٢) ـ دفاع المستميت او تنازع البقاء (٢٤٥) ـ تخريب قرطاج (٢٥٣) ـ النار ولا العار (٢٥٤) ـ الآلات الحربية الثقيلة فى ذلك التاريخ (٢٥٧)	
القسم الرابع **المدنية الافريقية والنوميدية والمريطانية** **فى عهد الرومانيين**	
التعريف بايطالية ورومة والرومانيين :	٢٦٢
الانروريون ـ الافريقيون ـ اللاطينيون (٢٦٣) ـ رومة والدولة الرومانية ـ النظام الملكى (٢٦٤) ـ النظام الجمهورى (٢٦٦) ـ النظام الامبراطورى (٢٦٩) ـ الفتوحات (٢٧١) ـ القياصرة او الاباطرة فى العهد الامبريالى (٢٧٣)	
الممالك الافريقية	٢٧٤
بعد موت ماسنيسا (٢٧٤) ـ ميسيبسا ـ بعد موت ميسيبسا : آذربعل وهيامبسال ويوغرطة (٢٧٥) ـ التخلص من هيامبسال (٢٧٦) ـ التخلص من آذربعل (٢٧٧) ـ يوغرطة وروما (٢٧٨) ـ يوغرطة وميتيلوس	

ص	الموضوع
	(٢٧٩) ـ يوغرطة وماريوس (٢٨١) ـ كارثة قفصة (٢٨٢) ـ التغلب على يوغرطة : سيلا (٢٨٢) ـ بعد يوغرطة : هيامبسال الثانى وماسنيسا الثانى (٢٨٣) ـ يوبا الاول (٢٨٤) ـ يوبا الثانى وكليوباترة (٢٨٦) ـ الملك بطليموس ـ الزعيم المقاوم تاكفاريناس (٢٨٩) ـ قتل بطليموس ونهاية المملكة المريطانية (٢٩٠)
٢٩٢	**حدود الولايات الرومانية بافريقية الشمالية**
	افريكا : بعد تهديم قرطاج (٢٩٥) ـ مسح الاراضى وتقسيمها وتسجيلها (٢٩٥) ـ بعد الانتصار على الملك يوغرطة (٢٩٩) ـ بعد انتصار قيصر على بمبايوس وعلى يوبا الاول : افريكا الجديدة (٣٠٠) ـ بعد قتل بطليموس : الاستيلاء على كامل افريقية الشمالية (٣٠٤) ضبط الحدود الجديدة (٣٠٥) ـ زيادة التوسع نحو الجنوب (٣٠٧) .
٣١٠	**النظام السياسى والادارى بافريقية الرومانية**
	النظام الادارى بافريكا فى عهد الجمهورية (٣١٠) ـ ميتيلوس وماريوس بافريقية (٣١١) ـ بمبايوس بافريقية (٣١٢) ـ النظام الادارى بالولايات الافريقية فى عهد الامبراطورية (٣١٤) ـ الولايات السيناتورية والولايات الامبريالية (٣١٥) ـ نوميدية (٣١٥) ـ مريطانية الشرقية ومريطانية الغربية (٣١٧) ـ حالة الجماعات بداخل كل ايالة (٣١٨) ـ حالة الافراد (٣١٩) ـ تقديس الاباطرة (٣٢٠) ـ الجيش الرومانى (٣٢٠) ـ الشحنة المدنية (٣٢١)
٣٢٢	**الحياة الاقتصادية**
	كيف كان الاقتصاد قبل مجىء الرومان ؟ (٣٢٢) ـ التجارة فى عهد الرومان (٣٢٢) ـ الفلاحة : القمح (٣٢٤) ـ مواد غذائية اخرى (٣٢٦) الاشجار (٣٢٦) ـ الزيتون ـ تربية الحيوانات ـ الصناعة (٣٢٧) ـ مسالة المياه (٣٢٨) ـ الحنايا والقنوات ـ النقفية ـ الحاووز

الموضوع	ص
(٣٢٩) ـ حنايا زغوان (٣٣٠) ـ حنايا شرشال بالجزائر (٣٣١) ـ الاهتمام بمسالة الرى ـ الزراعة حسب رصفات او مدرجات (٣٣١) ـ الطرقات الرومانية (٣٣٢) ـ الجسور (٣٣٣) ـ انصاب الاميال (٣٣٣)	
نظام الاراضى والحياة القروية	٣٣٤
الضيعات الصغيرة (٣٣٤) ـ الضيعات الكبيرة (٣٣٤) ـ املاك الامبراطور (٣٣٥) ـ المزارع والمعمر والعشار (٣٣٥) ـ حياة اصحاب القصور كما تحكيها الفسيفساء : بطبرقة (٣٣٦) ـ بوذنة (٣٣٧) ـ السنيور يوليوس (٣٣٨) ـ حياة الطبقة الفقيرة (٣٣٩)	
اطلال المدن والبنايات الرومانية	٣٤١
الحياة المنزلية ـ المدن البحرية (٣٤١) ـ المدن الفلاحية (٣٤٢) ـ المدن العسكرية : تيمقاد ـ لمباز (٣٤٢) ـ جميلة (٣٤٣) ـ اجزاء المدينة : الساحة العمومية (٣٤٣) ـ المعابد (٣٤٤) ـ الاسواق (٣٤٤) ـ المسارح والملاعب (٣٤٥) ـ المسرح والملعب والميدان (٣٤٥) ـ الحمامات (٣٤٨) ـ اهم المدن الرومانية بافريقية (٣٤٩) اهم المدن ببلاد طرابلس (ليبيا) : مدينة اويا (طرابلس) ـ صبراتة ـ لبدة (٣٤٩) ـ اهم المدن بالبروقنصلية (٣٥٠) ـ اهم مدن نوميديا (٣٥٤) اهم مدن مريطانية القيصرية (٣٥٥) ـ اهم مدن مريطانية الطنجية (٣٥٦) ـ الترمين (٣٥٧)	
اهم مدن مريطانية القيصرية (٣٥٥) ـ اهم مدن مريطانية الطنجية (٣٥٦) ـ الترمين (٣٥٧)	
الحياة العقلية	٣٥٨
الحياة العقلية ـ الخدمة العسكرية ـ المدارس (٣٥٨) ـ التعليم (٣٥٩) ـ افرنطوس القسنطينى (٣٥٩) ـ ابوليوس (٣٦٠) ـ الحياة الدينة (٣٦٠) ـ الوثنية (٣٦٠) ـ الديانة اليهودية (٣٦١) ـ الديانة النصرانية (٣٦٢) ـ شهداء النصرانية (٣٦٣) ـ الشيع والنحل	

الموضوع	ص
(٣٦٤) ـ المنطانوسية ـ المارسيونية (٣٦٤) ـ المانوسية (٣٦٥) ـ الاويومسية (٣٦٥) ـ الدوناتوسية (٣٦٦) ـ عصابات الدوارين (٣٦٧) ـ القديس اوغستينوس (٣٦٨)	
نهاية الحكم الرومانى بافريقية	٣٧٠
الاسباب الدينية (٣٧٠) ـ الاسباب السياسية (٣٧٠) ـ الاسباب الاقتصادية (٣٧١) ـ الاسباب الاجتماعية (٣٧٢) ـ الثورات التحريرية (٣٧٢) ـ ثورات البابار وقبائل الحلف الخماسى (٣٧٣) ـ فاواكسن (٣٧٣) ـ ثورات اخرى بالقبائل (٣٧٤) ـ الرابوغية (٣٧٤) ـ اصلاحات ديوكليسيانوس : تقسيم افريقية الى ثمان ولايات (٣٧٥) الدوناتوسيـون (٣٧٦) ـ الدوارون (٣٧٧) ـ الامير فيرموس (٣٧٧) ـ اخوه جيلدون (٣٧٨) ـ اخوه مقزيل (٣٧٩) انتهاء الحكم الرومانى (٣٧٩)	
القسم الخامس	
افريقية فى عهد الوندال	
استيلاء الوندال	٣٨٢
الوندال ـ جنسريق ـ الاستيلاء على افريقية (٣٨٢) ـ فتوحات الوندال ـ سياسة الوندال بأفريقية (٣٨٣) ـ القبائل والممالك الافريقية فى عهد الوندال (٣٨٣) ـ خنياريق (٣٨٦) ـ غنثاموند (٣٨٦ ـ ظهور القبائل الجمالة (٣٨٨) ـ تسامؤند (٣٨٩) ـ المعركة بينه وبين قابابون (٣٨٩) ـ المجبورة (٣٩٠) ـ الملك خلداريق (٣٩١) ـ الامير انطلاس (٣٩١) ـ الملك جلمار (٣٩٢) ـ دخول البيزنطيين بزعامة راسهم بليشار ـ انتهاء الوندال (٣٩٢)	

ص	الموضوع
	القسم السادس **افريقية فى عهد البيزنطيين**
٣٩٤	انتصار الجيش البيزنطى (٣٩٤) – التورات القومية التحريرية (٣٩٤) – تنظيم الجيش (٣٩٤) – تحصين البلاد (٣٩٥) – ابطال التحرير (٣٩٦) – نظرية ايميل قوتيى فى وطنية الافريقيين (٣٩٧) – فساد المعاملة مع الاهالى – تدهور سلطة البيزنطيين (٣٩٩) – ظهور العرب : الغزوة الاولى او غزوة العبادلة السبعة (٣٩٩) – انتهاء البيزنطيين (٤٠٠) .
٤٠٢	– المراجع
٤٠٥	– الخطا والصواب
٤١٠	– جدول اللوحات
٤١٥	– فهرس الكتاب



انتهى طبع هذا الكتاب يوم الجمعة
١٦ اكتوبر ١٩٥٩
مطبعة العمل



LA CIVILISATION DU MAGHREB ARABE DANS L'HISTOIRE

1. — DE LA PREHISTOIRE A LA FIN DES BYZANTINS

A. SFAR



دار النشر — بوسلامة

Editions BOUSLAMA 18 Rue Docteur Cotton - Tunis

مطبعة العمل — تونس